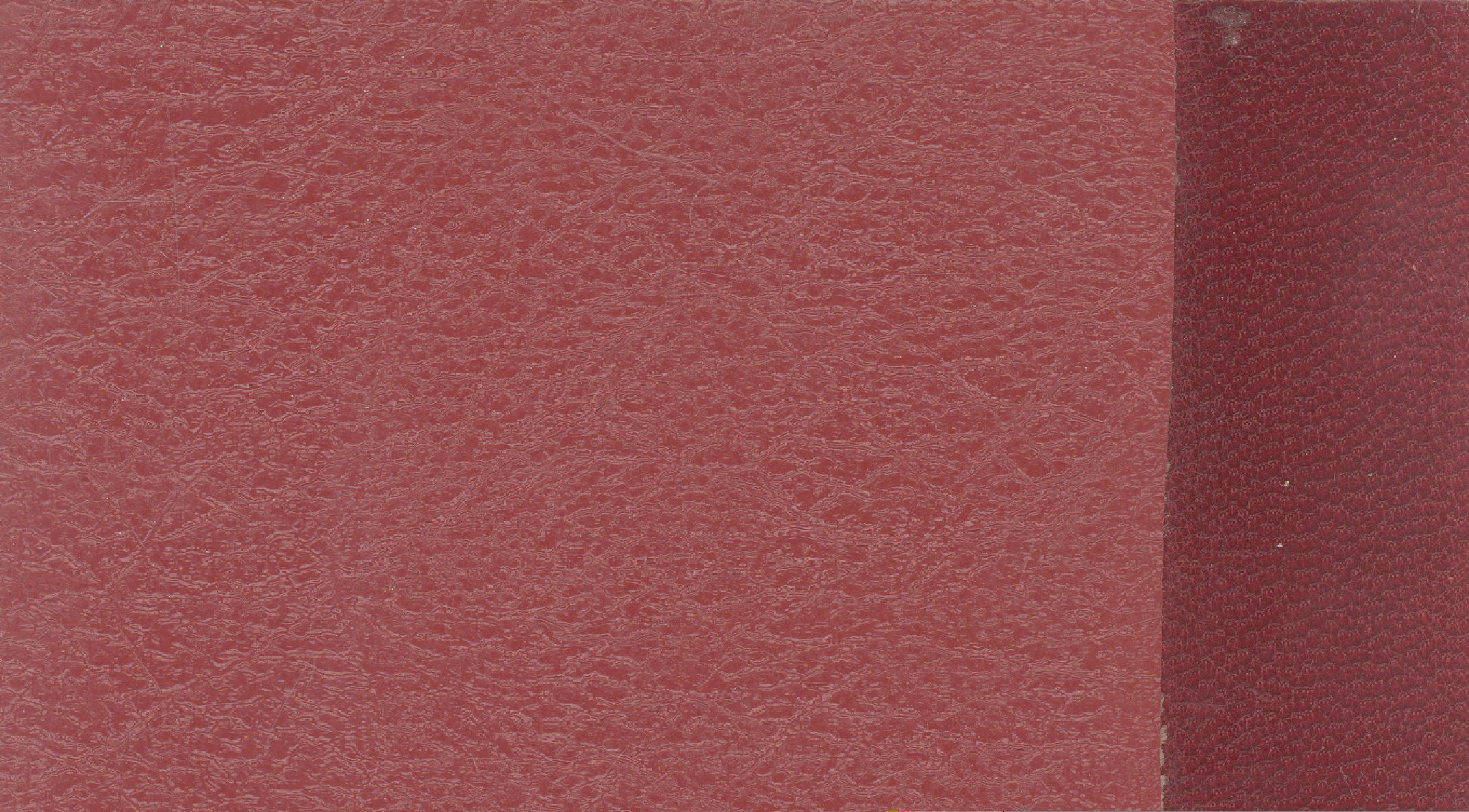
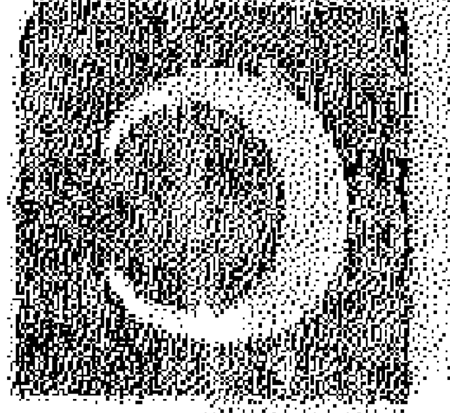


كتاب الهلال ١٠ قروش



# أساطير الحب والجمال عند الإغريق

دريني خشبة

# كتاب الهلال

**KITAB AL-HILAL**

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

**العـــدد ١٧١ – صفر ١٣٨٥ – يونية ١٩٦٥**

No. 171 — Juin 1965

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

**قيمة الاشتراك السنوى :** ( ١٢ عددا ) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـا سـوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

**سعر البيع للجمهور :** قطر والبحرين ٤٠ آنـة ، ليبيا ( بنغازى وطرابلس ) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



# كتاب الهلال

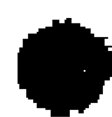


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف : بريشـــــة
الفنان ايهاب شـــاكر

# أساطير الحب والجمال عند الاغريق

تأليف
دريني خشبة



دار الهلال

## الاهداء

الى الأستاذ العبقرى الأول
مؤلف
« ألف ليلة »

# هذا الكتاب

منذ ثلاثين سنة أو أكثر أخذ الدكتور طه حسين ينادى فى الجامعة وخارج الجامعة بالاهتمام بالتراث اليونانى .. وكان الدكتور طه حسين يرى ان ثقافتنا العربية الجديدة يجب ان تفتح نوافذها على ثقافة اليونان العريقة التى تعتبر من الاسس الهامة للثقافة المعاصرة فى العالم كله .

وقد كان اجدادنا من فلاسفة العرب القدماء وعلمائهم يعرفون اهمية الثقافة اليونانية ، ولذلك أقبلوا على ترجمتها ودراستها وفهمها على أوسع نطاق ، وكان العرب من أسبق شعوب العالم فى معرفة الثقافة اليونانية ، بل لقد كان عرب الاندلس بالذات هم الذين نبهوا اوربا الى قيمة الفلسفة اليونانية ، وهم الذين احتفظوا بأهم آثار هذه الفلسفة ، ولولاهم لضاعت هذه الاثار الى الابد فى ظلام القرون الوسطى الذى كان يعم أوروبا ويعميها عن رؤية اى شيء جميل عميق ، بينما كان العرب فى ذلك الوقت هم أصحاب الحضارة المضيئة فى العالم ، هم الذين يحملون نور المعرفة من ارض الى أرض ، ويفتحون قلوبهم لما أنتجته شعوب العالم من آثار فكرية

عظيمة ، سواء كانت هذه الشعوب فى فارس أو الهند أو فى الصين أو وراء الشاطىء الاخر للبحر الابيض .. فى أوروبا

ومن خلال هذه الروح المشرقة المضيئة عاشت آثار أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان فى حراسة عرب الاندلس ورعايتهم ، وكان العالم العربى الكبير ابن رشد هو الذى مثل هذا الدور خير تمثيل ، فترجم أرسطو وشرحه . وانقذه من الضياع والنسيان . وعن طريق ابن رشد .. عن طريق عرب الاندلس هؤلاء عرف الغرب فى نهضته آثار اليونان وتنبه الى قيمتها الكبيرة

ولكن العرب فى اهتمامهم بآثار اليونان القديمة وقفوا عند الفلسفة والمنطق ، ولم يلتفتوا الى الادب ... وكان عدم اهتمامهم بالادب اليونانى ظاهرة غريبة ما زال المفكرون والدارسون يبحثون عن أسبابها الى اليوم ، ويختلفون حولها فى البحث والتفسير

وفى بداية النهضة العربية الحديثة التفت العرب المعاصرون الى ما لم يلتفت اليه العرب القدماء ، لقد بدأوا يهتمون بالادب اليونانى ، والفن اليونانى على اختلاف الوانه وصوره ، وكان رائد هذه الدعوة الجديدة هو طه حسين الذى استفاد من منصبه كأستاذ جامعى ، واستفاد من مركزه الفكرى الواسع خارج الجامعة ، ليدعو العرب فى كل مكان الى الاهتمام بالتراث الادبى والفنى عند اليونان

والتقط الدعوة أديب عربى موهوب هو درينى خشبة ، وكان هذا الاديب مسلحا بمعرفة عميقة بالثقافة العربية الاصيلة ، مسلحا بأسلوب عربى مشرق جميل ، وكان هو نفسه قد بدأ حياته الادبية بكتابة الشعر العربى .. وأخذ يقرأ الادب اليونانى قراءة فهم واستيعاب وتذوق ، وقرر فى آخر الامر ان يقدمه الى القراء العرب فى

احسن ثوب وأجمل صورة ..

وكان من أهم آثار الادب اليونانى تلك الاساطير الكثيرة حول الانسان والعالم ، ومن بين هذه الاساطير مجموعة رائعة حول الحب والجمال ، هى موضوع الكتاب الذى نقدمه اليوم

وقد أصبح أبطال هذه الاساطير مشهورين معروفين على كل لسان فى مختلف انحاء العالم .. فمن منا لا يعرف « كيوبيد » رسول الغرام وحامل سهام الحب ، والكائن السحري الذى يربط بين القلوب بأجمل المشاعر والعواطف

ومن منا لا يعرف فينوس ، المثل الاعلى للجمال ، والتى لا تخطر على بالنا الا ومعها ذكريات حلوة عذبة عن أجمل ما رأته العيون وخفقت له القلوب ؟.. وما أكثر الاساطير الاخرى المتنوعة التى امتلأ بها أدب اليونان حول الحب والجمال ..

لقد كتب درينى خشبة هذا الكتاب الذى نقدمه الى القراء اليوم ، وجمع فيه كل أساطير الحب والجمال عند اليونان ، وعرضها بأسلوبه الجميل الانيق ، فجاءت تحفة فنية من أروع آثار الادب العربى المعاصر

وكتاب الهلال اذ يقدم هذا الكتاب الى القراء انما يهدف من ناحية الى تقديم هذه المتعة الفنية الرائعة للذوق والوجدان والعقل ، ويهدف من ناحية أخرى الى المساهمة فى فتح نوافذ ثقافتنا العربية على ما فى العالم من أفكار وثقافات أخرى ، وخاصة هذه الثقافة اليونانية العظيمة التى كان لها مكانها وقدرها الكبير العزيز فى ثقافتنا العربية القديمة ، والتى تجدد الاهتمام بها فى نهضتنا الفكرية الحديثة ..

ويهدف كتاب الهلال من ناحية ثالثة الى تأكيد

قيمة هامة فى مجتمعنا الاشتراكى الثورى الجديد .. هذه القيمة التي يجب ان نعتز بها ونحرص عليها هى : ان الاشتراكية ليست هى الحياة القاتمة المتجهمة ، بل انها فى جوهرها دعوة الى الحب والتفتح والاستمتاع بالحياة ، والمجتمع الذى تبنيه الاشتراكية هو مجتمع الصحة النفسية والصحة الجسمية ، وهو بكلمات أخرى المجتمع الذى يعرف ان من حق كل شاب وفتاة ان يحسا بالعاطفة الحارة العميقة الناجحة ، وهو المجتمع الذى يجعل من كيوبيد عضوا عاملا نشيطا فى داخله .. فى كل حقل ومصنع ومدرسة وجامعة ، وهو المجتمع الذى يجعل من فينوس مثلا أعلى يمكن تحقيقه باستمرار ، وذلك بمقاومة المرض والبؤس اللذين يدمران ويحرمان الجسم البشرى من كل فتنته وجماله ..

وأخيرا فان كتاب الهلال يهدف بنشر هذا الكتاب الى احياء عمل خصب من أعمال الاديب الراحل درينى خشبة الذى توفى فى ١٠ يوليو سنة ١٩٦٤ عن واحد وستين عاما بعد ان ساهم على نطاق واسع فى الحركة الادبية العربية طيلة اربعين سنة متصلة ، منذ ان بدأ يكتب فى سنة ١٩٢٣ حتى مات فى العام الماضى عن واحد وستين عاما ، وخلال هذه المدة الطويلة لم يترك قلمه ، ولم يتوقف عن جهاده الفكرى سواء بالتأليف أو بالترجمة أو بالتدريس ، وقد كان له على الادب العربى المعاصر أفضال عديدة ، على رأسها هذا الجهد الفذ فى تقديم الادب اليونانى بأسلوبه العربى الرائع ، ثم اتجاهه فى الفترة الاخيرة من حياته الى خدمة الثقافة المسرحية ، حيث ترجم عددا من أمهات الكتب العالمية التى تدرس فن المسرح وتشرحه وتفسره ، ومن بين هذه الكتب المترجمة : فى الفن المسرحى بقلم جوردن كريج ـ علم المسرحية بقلم الارديس نيكول ـ فن

كتابة المسرحية بقلم لايوس اجرى ـ حياتى فى الفن بقلم المخرج الروسى الشهير ستانسلافسكى ـ تشريح المسرحية بقلم مارجورى بولتون ـ تاريخ المسرح فى ثلاثة آلاف سنة بقلم شيلدون شبنى ـ فن الكاتب المسرحى بقلم جون بسفيلد « الابن » .

ومن مؤلفاته كتاب عن « أشهر المذاهب المسرحية » ، كما كتب مقدمات تحليلية طويلة لست عشرة مسرحية من سلسلة روائع المسرح العالمى ، وله رواية لم تنشر هى « الانسانية تفنى » وله أيضا مجموعة أشعار لم تنشر بعد

وهذا الكتاب الذي نقدمه هو أحد الاعمال الفكرية والفنية الممتازة لهذا الكاتب المخلص الموهوب الذى عاش حياته كلها من أجل الثقافة والفن وساهم بنصيب وافر فى نهضتنا الفكرية المعاصرة

**« كتاب الهلال »**

# مقدمة

هذه طائفة من الاحلام اليونانية الرائعة كان يحزنني ألا يعرفها قراء العربية ، على طول ما سمعوا بها ، وعلى كثرة ما داعبت خيالهم ، وغازلت أحلامهم ، فأنا اقدمها اليهم اليوم ، بالطريقة التى آثرت أن أروى بها هذه الاساطير ..

أحببت ان أسجل ذلك ، حتى لا يدور فى روع أحد اننى نقلت ما نقلت من آيات ذلك الادب الذى أغرمت به ، نقل ترجمة ، ولكن نقل رواية ، وهى الطريقة التى آثرها شعراء أوربا الحديثة حين قدموا لبلادهم ذلك التراث اليونانى التليد ، وهى الطريقة نفسها التى أقرها ، وجرى عليها الاستاذ الانجليزى الكبير « توماس بلفنش » ( ١٧٩٦ ــ ١٨٦٧ ) ، حينما نقل الى الانجليزية معظم الاساطير اليونانية عن أوفيد وفرجيل ... فرب أسطورة ليس لها فى أصول ذلك الادب الا سطر أو سطران ، رواها هو فى صفحة أو صفحتين ، ليباعد بينها وبين جفاء العلم ، وليجعلها سائغة فى أذواق مواطنيه

وهكذا فعلت ...

وما دمت قد أشرت الى الاستاذ بلفنش ، فلابد من الاشارة الى الاستاذ هـ . أ. جربر H.A. Guerber الذى انتفعت بكتابه الخالد (١) فى تسوية أساطيرى هذه، والذى أغرانى اغراء شديدا برواية هوميروس كله ، فى ملحمتيه العظيمتين « الالياذة » و « الاوديسة » ، كما أغرانى بعد ذلك برواية ذلك الادب التمثيلى اليونانى البارع ، الذى بقى للمدينة وللذهن الانسانى ، من شعراء الاغريق القدامى : اسخيلوس ، وسوفوكليس ، ويوريبيدز، مما قدمته الى قراء العربية فى الصحف والمجلات ..

أما أساطير اليوم ، فهى من غير شك الفصل الاول من ديوان الادب اليونانى الحافل ، الذى أشفق العرب من نقله الى لسانهم ، خوفا مما يفيض به من وثنية ، على الدين الجديد .. ولم يعد لنا عذر فى أن تحول تلك الحجة بيننا وبين الانتفاع بالادب اليونانى ، ولا سيما فى طفولته الاولى الجميلة التى ابدعت لنا تلك الاحلام ..

ولابد هنا من الاعتذار عما كان لابد من ايراده فى بعض تلك الاساطير ، من ذلك اللون من الحب الذى يوشك أن يكون صارخا .. فقد اردنا أن نعطى القراء صورة صادقة عن الفجر الاول لذلك الادب اليونانى .. وليس من الصدق أن نخفى بعض الوان تلك الصورة .. وان كنا قد حرصنا على ألا نثبت منها الا أقربها — أو ما يكاد يكون أقربها — الى ما نأخذ به أنفسنا من كريم تقاليدنا

أما ان هذه الاساطير التى أقدمها الى القراء اليوم ، هى السفر الاول من ديوان الادب اليونانى ، فذلك الحق الذى لا مراء فيه .. فهى على قلتها ، تقفنا على كثير من أعلام الميثولوجيا اليونانية ، وخصائص آلهتها وأنصاف آلهتها وعرائس غابها وبنات مائها وسائر سكان ذلك

(١) أساطير اليونان وروما Myths of Greece and Rome

الاولمب العجيب ، بما كان يسيطر عليه فى عالم الخيال من قبائل السنتور والاوسيانيد والنيريد ، مما يجده القراء مبثوثا فى ثنايا هذا الكتاب ، تلك الاسماء التى آثرنا منها ما هو أكثر شيوعا فى الادب الاوربى الحديث، الذى يؤثر الاسماء اليونانية أحيانا ، ويؤثر الاسماء الرومانية أحيانا أخرى

فهذا الكتاب اذن هو مصباح لابد منه للتمتع بجنة هوميروس ، وجنات الشعراء الافذاذ الذين جاءوا من بعده ، فشادوا على بنيانه صرح ذلك الادب .. والنور الذى يرسله هذا المصباح كفيل بتبديد ظلمات ذلك التراث الذهنى القديم الذى أبدعته لنا شقيقتنا فى ذكريات الماضي .. هيلاس المجيدة

**درينى خشبة**

# بسيشيه وكيوبيد
## أروع قصص الحب في التاريخ القديم



كان الليل الهادىء المقمر أصفى من قلوب العذارى ، وكان النسيم العليل الحلو يرف كالامانى فى قلوب المحبين ، وكان البدر العاشق المسهد يرسل القبل فتنطبع على خدود الورد ، وتلثم أعواد الزنبق ، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين !

وكان كيوبيد الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك ، التى أهانت بجمالها كبرياء أمه فينوس !

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفق ماء الشباب فى جسمها الريان ، فهويت اليها نفوسهم ، وخفقت بحبها قلوبهم ، وآثروها بعبادتهم من دون فينوس !

وكان للفتاة أختان حسناوان ، ذواتا دلال وفتون ، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامة ووسامة وفتنة !

أجل ، كانتا دونها فتنة ، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه فى لجة من الحسن الغامض ما لها من قرار ، وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها ، وافتتانهم بها ، وانصرافهم اليها عن كل ربات الجمال !

ودعت اليها ابنها رية الحب ، فأثارت فى قلبه العداوة لهذه الغادة وجسمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتها الى هذه المخلوقة التعسة :

أفيرضيك يا بنى أن تكون من آلهة الاولمب نكرتين لا يحبب لهما شعب من العباد المخلصين ؟ أم يرضيك ان يتغامز بى الالهة كلما مررت بهم ، وهم كما تعلم مغيظون منى ، فيقولون ها هى ذى فينوس التى أذلت كبرياءها امرأة ، وصرفت الناس عن عبادتها غادة ؟ اذهب اذن فتربص لها ، وأنفذ الى أغوار قلبها سهما يودى بها الى «هيدز» ، وبئس القرار ! وانه لا ضير على ان تهيم بها أرواح الموتى ، أو يفتتن بها بلوتو وملؤه ..

ومضى كيوبيد الى قصر الملك فى طريق حفت بالورد : وعبقت فيها أرواح البنفسج ، وتأرج النرجس الغض واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الاله الاصغر ، وجعلته يحس الجنة التى يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة ، كل ذنبها جمالها ، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها ، وفنوا فيها ..

وكبرت فى قلب كيوبيد أن تنتهى هذه الجنة الى جحيم تعج بالجريمة ، وتفيض بالآلام فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل ، وكان ضوء القمر ينعكس على الازهار ثم يرتد شعرا وسحرا وموسيقى صامتة ، تعزف الحانها على أوتار قلبه الخفاق !

وصدح بلبل غرد فى هدأة الليل الفضى ، فانتفض الاله الاصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى .. لا يأبه بجمال الطبيعة الساحرة ، ولا يأسر لبه هذا البهاء الذى يغمر الكون حوله ، حتى كان عند أسوار القصر الملكى الراقدة فى طوفان زاخر من أزهار الشبر والياسمين والبابونيا وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان فى حديقة القصر ..

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامى ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس ..

وانفتل في بسيشيه النائمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية وينتقى من كنانته سهما تقطر المنية من سنانه ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة ...

يا للجمال النائم فوق الاريكة ! ويا للفتنة العائمة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلهـا ! وكان نهدها البـارز المثمر مجللا بثديين ناضجين يتحلبان للذاذة ويلتهبان اغراء !!

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ، للدنتان وان كانتا كالمرمر ، رخصتان وان كانتا لتمثـال معبود !!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه !..

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، رقد مستسلما لاحلام الشباب الحلوة متلألئا فى شعاعة من ضوء القمـر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولا من لدن ديانا(١) البارة ، أقبل ليقول للآله الأصغر : « مكانك أيها الرامى الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به، فانك لن تجد فى ربات الاولمب من تخلص لك الحب كمـا يخلصه لك هذا الهدف البرىء .. ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحملق فى وجه بسيشيه ..

---

(١) ديانا هى ربة القمر ، وهى التى اكتشفت كيوبيد ، فأرسـلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الاسيل .. وأخذ بلبه هذا الشعر العسجدى تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاء ورونقا ، فآلى لا يهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ، وانتزع السهم فألقى به فى كنانته .. وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبى من سهام الحب ، ملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه فى خطى اللهفان ، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة ، وعاد أدراجه عاشقا وامقا لا يبالى بسخط آمه فينوس !!

***

وانصدع عمود الليل ، وتنفس الصبح فهبت الارواح النائمة ، وأقبلت فينوس ربة الحب لتسمع الى النادبات النائحات فى قصر الملك .. بيد أنها ، بدلا من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح فى حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحييها وتغنى لها ، وتضفر لها أفواف الزهر ..!!

وحنقت ربة الجمال والحب ، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، واقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاما فى عينى الفتاة !!

فسلطت عليها الاشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها بعض خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة الى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول .. وازدحم حولها أبواها واخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون ..

ومضوا بها الى المعبد يستوحون الآلهة ، ولكنها ما كانت لتزداد الا شكاة وأشجانا !!

وكرت الايام ...

وانسربت بسيشيه الى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفى نفسها أن تلقى بحمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد ...

وظلت هى ترقب المرج الهائج ، وتشهد اليم المصطخب، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ، ثم صرخت صرخة هائلة ، والقت بنفسها من عل ..

وكان كيوبيد قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا اليه صديقه ونجيه زفيروس ، اله الريح الجنوبية، واطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التى تكاد تلقى بنفسها من قنة الجبل يا صديقى زفيروس . فان رأيت أن تكون لك على هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر، فخذ اهبتك ، ولا تدعها تغوص فى اليم ، بل تلقها فى يديك الرفيقتين ، واذهب بها الى الجزيرة المقابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ، فدعها ثمة ، فقد أعددت لها مسترادا وملعبا .. »

ولشد ما دهشت بسيشيه اذ رأت طيفا نورانيا كريما يبرز من الماء فجأة فيلتقطها فى يديه الكريمتين ، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب ، كأنه أريكة من ارائك الجنة ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الامواج ويسجد من تحته الشبج ، ويصير البحر فى لمحة كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها السماء ..

ويصل الى الشاطىء المزدهر فيبسم للفتاة ثم يجيبها

بتمتمة ، وينطلق فى البحر الذى يعود الى سابق اصطخابه واضطرابه ..

وتجلس بسيشه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذى هى فيه حلم أو هى قد ماتت فعلا ولكنها دخلت الجنة ؟!

بيد أنها تذكر أن الارواح فقط هى التى تنفـــذ الى دار الموتى ، وأنه ليس فى دار الموتى شمس ولا اباء ، وهى تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهى ترى الى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر ، وتنشر أنوارها فى الاكوان جميعا ..

اذن هى لم تمت ، وهذا الطيف الكريم الذى أنقذها من الموت ، والذى ترفق فحملها الى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ، واذن فلتنهض ولتضرب فى هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمر غير هذا الامر ..

ومضت فى غياض وأرباض ، ورأت فى الافق القريب قصرا باذخا ذا شرفات وأخياد ، فيممت اليه ، وما كادت تدنو منه حتى فتحت بوابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفى بها وتحيى وتبيى ! ..

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شيء حولها كان يحدثها أنها ترى رؤية حقيقية لا رؤيا منامية .. فدخلت القصر ، وفى نفسها من الحيرة وشدة العجب ما أخذ يتضـاعف فى كل خطوة ويزداد ..

وحاولت أن ترى أحدا ممن لهم هذا الصوت الرقيق.. ولكن عبثا .. ليس هناك الا أذرع من نور تمتد اليها

مختفية بها ، تقودها الى المخدع الوثير الذى أعدته العناية لها ..

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه :

ـ ويدهشنى أنكم تحتفـــون بى . وتبـــالغون فى اكرامى ، وأنا لا أرى منكم أحـــدا ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ (١)

ـ كلا أيتها العزيزة ، ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك ..

ـ ومن الذى اصدر اليكم هذا الامر ؟

ـ ونهينا ايضا عن ذكر اسمه ..

ـ أنتم كرام ولكنكم تضايقوننى الى حد الازعاج ..

ـ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، ففى المساء ، تلقين الأمير الكريم صاحب هذا القصر ، وصاحب القصـــور الكثيرة فى أطراف الارض

ـ وهل لى أن أجول جولة فى قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبى .. ؟

ـ ولم لا ؟ .. بسيشيه العزيزة !

ـ بسيشيه ؟ .. ومن أنبأكم باسمى ؟

ـ رب هذا القصر أيتها العزيزة ..

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، محيية بابتسامة خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة .. !!

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف ، وأوســـاط الردهات ، وفى حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة

(١) قلنسوة هرمز ( طاقية ) الاخفاء

بالسندس الرطب ، تحيى الضيفة ، كأن حياة تدب فى مزمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها فتتحرك الاذرع ، وتومىء الرؤوس ، وتمر الفتاة وقد أخــــذ الدهش من نفسها كل مأخذ ::

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها ان تتلبث فتسمعهـا أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل منها حتى ينتهى من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت الى المخدع مع مغيب الشمس

***

فلما كان الغسق (١) سمعت الى الباب ينفتح ، ويدخل فتي خفيف الخطى ، ويقبل عليها فيحيى أحسن تحيـة بأرق صوت ، ثم يستأذن فيجلس الى جانبها

وكان الظلام شاملا ، فلم تستطع بسيشـــية ان تتبين وجه الجالس اليها أو خلقه ، ولكنها كانت تســـمع الى موسيقى تمتزج بصوته الحنـــون ، وكانت تحس كأن عبرات تكاد تخنقه ، لانه يريد أن يبوح بشىء يمنعـــه الخجل من البوح به .. واقترب منها ..

وأخذا فى حديث شهى ، ولكن الحيـــاء كان لا يزال يعقد لسانيهما ..

واقترب منها حتى تماست الاجسام المرتجفة

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه ، فانتقلت الحرارة من هنا الى هنا ، ثم دنا الفم من الفم ، واستراح الخد على الخد ، وبدأ طوفان من القبل ..

وتمتم كل من الحبيبين بهـــــذه الكلمة الســـــماوية الخالدة :

---

(١) الغسق أول ظلمة الليل

ـ •• أنا •• أحبك ••

ـ كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذى أنقذتنى من براثن الموت !

ـ أجل يا منية النفس ، ورجية القلب ، بمعونة الاله الرفيق زفيروس

ـ أفأنت اله اذن ؟

ـ لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئا ••

ـ اذن ما اسمك ؟

ـ ولا هذا أيضا !

ـ أحب أن أراك ، فهل تأذن بايقاد المصباح ؟

ـ اذا حاولت أن ترينى ، كان فراق بينى وبينك !!

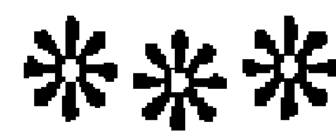
ـ أنت تزعجنى ••

ـ ولم أزعجك ؟ •• ألست قد أنقذتك من الموت ، وأسكنتك هذا القصر المنيف ، ولست آمن عليك !

ـ برغم هذا فانك تزعجنى ••

ـ هاتى قبلة •• ودعى هذا الحديث الشاجن ••

ـ « •• ؟ •• »



وظل يزورها كلما أقبل الليل ، فيمكث معهـــا حتى مطلع الفجر آخذين فى عناق وقبل ،وحديث ألذ من قطع الروض ، وأروح من رفيف النسيم ، ثم يفصل (١) على أن يعود لميعاده من اليوم التالى •• ويسيشيه راضية قانعة ، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفى •• ولا ما يكون اسمه ••

(١) يمضى

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطىء الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل ، فتعانقهما عناقا حارا ، ويغمرها للقائهما فرح كبير ، وتعود بهما الى القصر ، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته ، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق ، وتدخلهما « هيكل الحب » كما اتفقت وحبيبها على أن يسميا المخدع ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار الى أن تلقاهما ..

وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها فى فؤادى الفتاتين ، ويكون الحسد قد شاع فى نفسيهما الخبيثتين ، فتضمران لها الشر المستطير

— ولكن كيف تطمئنين الى هذا الحبيب يا أختاه ؟ ألا تخافين أن يكون غولا أو هولة أو سعلاة ؟ لماذا اذن يأبى عليك أن تنظرى اليه ؟ أليس يخشى أن تفزعى منه اذا رأيته على حقيقته ؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشى ؟ لا يا أختاه ! نحن نخشى أن يجفوك يوما فيقتلك .. لابد أن تأخذى حذرك منه ! ولابد أن تنتهزى فرصة يكون غارقا فى نوم عميق فتوقدى المصباح وتنظرى اليه ، فان كان وحشا أو هولة ، فاليك هذا الخنجر المرهف فاغمديه فى قلبه واستريحى منه ، وعودى معنا الى أبينا الملك فانه جد مشتاق اليك ..

ودفعتا اليها الخنجر المسمم بغلهما ، وولتا عنهما تختبئان فى أجمة دانية ..

وفعل كلامهما فى قلب أختهما فعله ، فلما كان الليل ، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب ، نهضت بسيشيه الى مصباحها فأوقدته ، والى الخنجر فشرعته ، وذهبت تنظر الى العاشق البرىء ..

فماذا رأت ؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الارض ! ..

لقد كان نائما حالما ، فيه دعة وفيه فتون .. وملأ الفتاة حبا .. واهتز المصباح فى يدها .. فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته .. وفتح عينيه .. فرأى الى الخنجر المرهف فى يمين بسيشيه ..

يا للهول .. !!

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة ، ورف بجناحيه الصغيرين وقال : « بسيشيه ! يا شقية .. وداعا .. فلن نلتقى بعد اليوم ! »

وشاعت الحسرة فى قلب الفتاة فسقطت على الاريكة من الجزع والاعياء ..

***

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحا شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه فى شدة وعنف ، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفعوانات هائلة تنفث الموت الاسود من أنيابها البارزة الحوانى ، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد ، ويكاد ينقض ، فهرعت الى الخارج مهرولة ، وهرعت فى اثرها المخاوف والاشجان ، يحدوها الذعر والفزع الشديد

ونظرت فى السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو اليه ، بل وجدت سحبا قاتمة فى المشرقين والمغربين ، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب ! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليباب !

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتـــاة حيثما ذهبت ، وترجم وجهها الكاسف المغضن بجمرات البرد أيان ولت

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطئ كالذى يتخطفه الشيطان من المس ، فلما لم يلب نداءها أحد ، انثنت نحو القصر ، وطوفت بالاسوار تتفقد الباب الكبير الضخم .. ولكن .. هيهات ! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ ، ولم يكن غارقا هذه المرة فى الطوفان الزاخر من أزهار الشيبر والياسمين والبابونيا ، وكان عاليا على غير عهدها به ، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ ، فلما استيأست من الدخول ، وشعرت بقلبهـــا يتحطم ، وبنفسها تذهب شعاعا ، استلقت على الكلأ ، واستسلمت لنوم ممتلىء بالاشباح

وأشرقت الشـــمس فاستيقظت بسيشيه ، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر ، وفركت عينيهـــا تخال انها تحلم ، ولكنها ترى الجزيرة جرداء الا من شجرات قليلة من الشاهبلوط ، والا من غدير صغير به بقية غـير مباركة من الماء النمير ..

ويكون صوابها قد ثاب اليها ، فتيمم شطر الشـــاطىء تتفقد وروده ورياحينه ، ولكنها لا تجـــد الا آلافا من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة ، والا أكواما من الودع والمحار تجلل كثبـــان الرمال الممتـــدة فوق الجزيرة ، كأنها قوافل من الام بسيشيه وأشجانها !

« ويلاه ! ..

« لقد حملت اليك أيتها الجنة الصغـــيرة وبردك برد الشباب ، وريعانك ريعان الصبى ، وفى أعطافك تنهل سلافة الحب ، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء ، وفى غدرانك تترقرق أمواه الهوى ، وكل ما فيك تدب فيه الحياة ناضرة

« أفهكذا يذبل شبابك ، ويذوى ريعـانك ، ويفيض حبك وتقفر شطئانك ، فليس يرف فوقك الا هامة ، ولا يهتف فيك الا صدى ، ولا تهب ريحك الا كأنفاس الجحيم ؟!

« ويلاه ! ..

« لقد كنت أفرك عينى أحسبنى منك أيتها الجنة فى حلم فالآن أفرك عينى أرى هل انا من خرابك اليوم فى حلم ؟ !

« لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة ، فلماذا لقيت أختى ؟ ! أين ذهبتا ؟ ؟ أحسبهما ذعرتا من العاصفة ، وفزعتا من الزلزال ، ففرتا .. فصبر جميل ! »



هكذا ظلت تبكى بسيشيه ، وهكذا غبرت بها الايام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها . ولكن . بلا جدوى !

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها ، وترشف من بقية الماء فى الغدير رشفات تبل بها أوامها ، ثم تعدو فى الجزيرة باحثة عن .. لا شىء !

ووقفت يوما عند ضفاف الغدير ترتوى ، فما شدهها الا أن ترى الماء يزداد ويزداد ، والغدير يتسع ويتسع ، حتى تكون على عدوة نهر عظيم دافق ، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيه . ويبدو لها ان تلقى بنفسها فى أعماقه ، لانها لم تعد تحتمل هذا الالم المتصل والشجن الطويل الممض ... وانها لتنظر الى الماء فيجيش قلبها بالذكريات ، وتفيض عيناها بالدمع ، ويشحب جبينها الكاسف الحزين ، ثم يتأود غصنها اليابس الهش ، فتنحدر الى اليم ، وتتلقفها اللجة

ولكن رب النهر الذى كان واقفا يسمع ويرى يسرع الى الفتاة فينتشلها ، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين

من كل فج ، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حنانا وتفيض رحمة ، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها ..

وتأنس بسيشيه الى العرائس الحلوة ، ولا يخجلها أن تأخذ معهن فى حديث حبها ، فاذا سألنها عن صفة حبيبها، قالت : « كان صغيرا كالطفل الا حين يكون فى ذراعى ، مسندا رأسه على صدرى ، فيكون اذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن . وكان طيب الانفاس ، فما قبلنى أو قبلته الا شممت عبق الورد فى فمه ، وأرج البنفسج فى خده . وكان اذا عانقنى أو عانقته ، تحسست له جناحين على ظهره ، صغيرين ناعمين ، فاذا ساءلته عنهما ، أنكر على وصرفنى برفق ودعة عن الحديث عنهما، فنأخذ فى أمور أخر . وكان يحمل قوسا من ذهب ماتفارقه، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب . . وما دهانى فى الليلة المشؤومة الا أن أراه يثب من النافذة ؛ فيحلق فى كبد السماء كأن له قصرا فيها .. فبحق زيوس عليكن يا عرائس الا ما أعلمتننى من هذا الحبيب ، فأنتن بنات اله مبارك ، ولابد أن يعرف أبوكن من أمره كل شيء . . »

وصمتت بسيشيه ، ونظرت الى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة ، ثم يتهامسن ، ثم لا يحرن جوابا ، فقالت لهن :

« أنتن تزعجننى يا عرائس ، فهل هكذا يستقبل الضيف لديكن ؟ »

فقالت كبراهن : « لا عليك يافتاة ، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الارض حين عصيت أمر كيوبيد ! »

— كيوبيد ؟! .. ومن كيوبيد تعنين !؟

ـ « كيوبيد بن فينوس ، فهو هذا الذى كان يهواك وكنت تهوين ؟! »

ـ « كيوبيد الاله ! كيوبيد حبيبى ! ياويح لى .. لابد أن يعود لى الهى الجميل الحبيب .. لن تحلو لى الحياة بدونك يا كيوبيد .. »

هامت بسيشيه على وجهها فى أقصى الارض ، وكلما مرت بروضة أو غيضة ، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفافى غدير ، برزت لها عرائس الماء فشكت اليهن ، وسألتهن ان كن يعرفن أين يأوى كيوبيد ؟ وقالت لها عروس :

ـ « أترين يا فتاة الى هذا الجبل البعيد الذى يحمل السماء بروقيه ؟ اذا كنت عنده فتلبثى حتى يعود بان (١) من صيده فتعلقى به ، واذرفى من دموعك تحت قدميه فاذا هش لك وبش ، فاذكرى له حاجتك يقضها لك ؛ أو يدلك على من عنده قضاؤها »

ـ ومن عسى أن يكون بان يا أختاه ؟ »

ـ « رب المراعى ، واله الصيد ، وحامى القنص . ألم تقربى له ؟ ألم يفعل أبواك ؟ »

ـ « بل فعلنا .. »

ونهدت الى الجبل وكأنما بها مس من الجنون ، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس الى الغروب ، فرأت ( بان) قادما يدب بحافريه ، ويردد فى الاكام ناظريه ، فلما لمحها اقبل عليها دهشا متعجبا ، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها ، وسباه منظرها ..

وشكت اليه ، فما هالها منه الا قوله : « تعسة ! أنت غريمة فينوس ! » فقالت ، وفى عينيها دموع تخنق منطقها:

(١) ورد ذكره فى بعض الاساطير باسم كونسنتيس . ولا يزال الرعاة الانجليز يتغنون بحاميهم بان الى اليوم

« غريمة فينوس ؟ ومالى انا ولفينوس » فقال بان :«جمالك هذا جني عليك .. لقد صرف الناس عن ربة الجمـــال والحب الى عبادتك انت أيتها الشقية ، ولذلك حنقت عليك ، وأصابك من الاذى ما أصابك .. اسمعى يا فتاة.. لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير ، هل تعرفينها ؟ أم برسفونيه ، فتاة الربيع التي خطفها أخى بلوتو لتؤنسه فى هيدز ؟ مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوبيد وهيـامه بك ! بك انت ! أليس اسمك بسيشيه ؟ »

ــ « .. ؟ .. »

ــ « تحملى اليها اذن . انها ليست بعيدة من هنا . انها شفيقة رفيقة ، وهي ترثى لامثالك من العاشـــقات الوامقات ، تحدثى اليها عن كيوبيد واستمعى الى ما تقوله لك وتشير به عليك .. أترين الى هذه الغـــابة الملتفة الوارفة ؟ انها هناك تنتظر ابنتها فى أوبتها من هيدز »

وعجلت الى الغابة ، ولقيت ديميتير الطيبـــة الوقور : فانحنت تحييها ، وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمـــر الدمع من عينيها الحزينتين ، وتخاذلت فخرت مغشـــيا عليها ، وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة ، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب ، فكان الزهر ينبت حول بسيشيه كلما انتثرت قطرات على الارض ، فلما افاقت ، بهرها هذا السرير الربيعى من منضور الورد يحف بها ، ويحنو عليها ..

وبسمت ديميتير ، وواست الفتاة الوالهة وآنستها ، ثم ذكرت لها انها رأت كيوبيد بكرة ذلك اليوم ، وفى كتفـــه جرح دام أحدثته فيه أمه فينوس ، لماذا ؟ لايدرى أحد !

ــ « .. فاذا كان لابد لك من لقاء كيوبيد ، فاذهبى الى فينوس وتبتلى اليها ، وادخلى فى خدمها وحشمها ،واثبتى لها بتفانيك فى طاعتها انك من عبادها المخلصين ، عسى

يا بنية أن ترضى عنك ، ويذهب عنك هذا الحزن » ..

ثم قادتها الى قصر فينوس ، وزودتها بما ينبغى لها من النصح ، وعادت الى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه

وبرهنت بسيشيه على حسن اخلاصها وجميل توبها ، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به ، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الاداء

وأعجب ما حدث لها من ذلك ان امرتها فينوس بالتوجه الى هيدز ـ دار الموتى ـ واقتحامها ، ثم لقاء برسفونيه ، ربة الربيع ، وزوج بلوتو ، وسؤالها صندوق الطيب الذى تدهن منه العجوز الشمطاء ، فيرتد اليها صباها ، ويتدفق ماء الشباب فى أعطافها ، وتعود كما كانت ، شرخ صبى ، وعنفوان شباب !

واسقط فى يد بسيشيه ! ولم تدر كيف السبيل الى هيدز ! ولكنها حين ذكرت برسفونيه ، بدأ لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها . فذهبت الى الغابة ، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها ، لتعود أدراجها الى هيدز ، اذ كان الربيع الحلو قد صوح ، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره (١)

وهشت لها ديميتير ، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة ، ولما حان موعد الافتراق ، أبدت بسيشيه رغبتها فى أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها فى ظلمات دار الفناء ، فلم تعارض الفتاة ، بل أذنت لها راضية (٢)

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغنى وتنشد .. وتبكى !!

وكم كان عجب بلوتو شديدا حين لمح الفتاة الرشيقة

---

(١) الربيع والصيف فصل واحد والشتاء والخريف كذلك

(٢) فى بعض المصادر ان زفيروس هو الذى قاد الفتاة الى هيدز

الهيفاء تسير الى جانب زوجته ، وبلغ به التأثر مبلغه ، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة ..

وتلطفت بسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين ، فوجمت برسفونيه ، وكانت على وشك ان ترفض هذا الطلب ، لولا ان ذكرت الفتاة أن فينـــوس هى التى أرسلتها لتطلبه وتجيئها به . فنهضت برسفونيه الى دولاب قريب ، وعادت بالصندوق ، ترتجف به يدها العاجيـــة الجميلة ، وقدمته للفتاة وهى تقول :

« لا تفتحيه .. لا تفتحيه أيتها الصغيرة ! »

واستأذنت بسيشيه ، وعادت أدراجها الى .. هذه الدار الاولى ..

وفى طريقها الى قصر فينوس ، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمـــال الشباب وريعان الصبى .. وذكرت كذلك تلك الليـــالى الطوال التى ظلت فيها مسهدة العينين تبكى كيوبيد وتحن اليه ، حتى شفها الوجد ، وأوهنها السقم ، وبرح بهـــا الهيام الشديد ، فتحدثت الى نفسها تقول : « فلم لا أدهن بقليل منه وجهى وبشرتى ؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت ، مادمت أطمع فى لقاء كيوبيد ؟ ان ربة هيدز حذرتنى من فتح الصندوق ، لا أدرى لماذا ؟ فاذا كان مابه شر ، فلم تريده فينوس الجميلة ؟ لا .. لابد أن أتطيب به ، وليكن بعدها ما يكون ! »

وداعبت أناملها الصنـــدوق ففتحته .. ولـــكن .. وا أسفاه ! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر .. روح النوم .. ولقد وثب فى وجه بسيشيـه فحلق فى عينيهـــا الزرقاوين الصافيتين ، ثم ما هى الا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المندى تغط فى نوم عميق !

وكان كيوبيد يتنزه فى الحدائق المجاورة ، فما دهاه الا أن يرى ملاكه المحبوب ممددا على الكلأ ، وصدره يعلو ويهبط ، كأن كابوسا مستقر عليه

ودنا اله الحب من بسيشيه ، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الاول ، وثار في قلبه الحنين الى الليالى المقمرة التى كان يقضيها الى جانب الرشأ الفرير ، الذى يترنح أمامه فى قبضة الروح الشرير .. روح النوم !

ونظر كيوبيد بعينيه السحريتين ، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعا هائلا .. فثارت فيه نخوة الوفاء ، وأنفذ الى العدو سهاما متتابعة متلاحقة ، حتى قهره ، واضطره الى العودة من جديد الى الصندوق الصغير ، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه ، ودفنه فى غور من الارض

ثم تقدم الى حبيبته ، وطفق يروح على وجهها ، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض ، وطرب الورد ، وشاعت فى الطبيعة الضاحكة أسرا وسحرا !

« أختاه ! انهضى ! انظرى الى ! هأنذا كيوبيد ! هلمى فلن نفترق بعد اليوم ! »

***

وأغذا السير ، حتى اذا كانا فى دولة الاولمب صاح كيوبيد فى معشر الآلهة : « أن اشهدوا أيها الارباب ، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لى مباركة .. » وطرب الآلهة ، وأقيم المهرجان الفخم ، ورقصت ديانة ربة القمر ، وعزف أبوللو موسيقاه ، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التى تفنى .. ومنذ ذلك اليوم وهى ترف بأجنحة فراشة جميلة فى جنة الاولمب ، والى جنبها حبيبها كيوبيد

# إيخو ونركيسوس

## (الفاتنة التى أصابها البكم، والجميل الذى عشق صورته)



كان زيوس — كبير آلهة اليونان — يتعشق فتاة حلوة الدل، بارعة الحسن، رقيقة الشمائل، تدعى يو . وكان، برغم زوجاته الخمس أو الست، يختلف الى حبيبته فى الخلسة بعد الخلسة، يؤانسها ويسامرها وتؤانسه وتسامره، ويبل فمه الظامىء من ثغرها الراوى بقبلة.. أو رشفة..

وكانت أولى زوجاته ( حيرا ) هى التى تزعجه بما تبث حوله من الرقباء وتنشر من الجواسيس، يحملون اليها كل حركة من حركاته . وكان هو يضيق بكل ذلك، ولكنه لا يستطيع الا ان يداهن ويداهن .. ويبالغ فى المداهنة، لشدة شغفه بحيرا، ولانه يحس فى الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة .. الا لذة تدليله لحبيبته يو

وكما كانت حيرا تمكر مكرها فى كل حين، كذلك كان الاله يمكر مكره !.

أراد أن يشغلها عنه بملهاة تذهب من وقتها كل يوم

(*) آثرنا عدم ترجمة ايخو — أو اكو — بما يرادفها فى العربية وهى لفظة (صدى) لان التسمية يونانية وقد نقلها الرومان عنهم ثم ذاعت فى كل اللغات وكذلك أثبتت لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانيتها أيضا

بساعات يقضيها فى أحلامه الغرامية بين يدى يو ، ملتذا قوامها الخصب ، مستمتعا بجمالها الفينان ، سابحا فى هذه اللجة المترعة بالمفاتن ، فى كل جارحة من جسمها المشوق ..

وقد سنحت له الحيلة ..

حدثها عن فتاة ناضرة الشباب ، ريانة الاهاب ، عذبة اللسان ، وقادة الجنان ، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا ما لم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم ! وكانت حيرا ، ككل الانثيات ، مولعة بالثرثرة ، مشغوفة بالمعرفة ، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشى . وهى مع ذلك طلعة ، بقدر ماهى أذن ، تتكلم كثيرا ، وتثرثر كثيرا ، وتسمع كثيرا ..

وانطلقت الى الفتاة ، فشغفت بها لاول لقاء ، ووجدتها كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص ، تتدفق فى حديثها تدفق الخمر فى الكأس ، حتى اذا استقرت فى مكانها من الجسم ، شاعت حمياها فيه ، فأطربت ، وأرقصت ، كأنها عصرت من حديث هذه الفتاة !

ثم جعلت تتردد عليها ، وما تكاد الفتاة تفرغ من احدى قصصها العجيبة حتى تأخذ فى أعجب منها وأغرب ، وهى بين الآونة والاخرى ما تنى تنمق حديثها بالنكات البارعة ، والملح الرائعة ، مرسلة المثل فى مقامه ، والحكمة فى موضعها ، فى غير كلفة أو عناء ، ثم هى كانت رقيقة دقيقة ، لا تمل السامع ولا ترهق الناظر . وكانت تقبل على سمارها وكأنها تختص كلا منهم بقلبها ، وكأنها تلقى الى كل منهم بقرارة نفسها ، حتى ليحسبها كل له وحده بما يحسبه تؤثره به من عطف ، وتغمره من ود ، وتزجى اليه من محبة ..

وكانت حيلة صائبة من زيوس ، شغل بها حيرا طويلا ؛ ليفرغ هو الى يو .. فيا للآلهة !!

ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد ، وأحست فيه انقباضا وجفوة ، فوقر فى نفسها ان لابد من أمر ، وان هناك سرا أى سر ، فآلت لتكشفن ما تغفلها فيه

وبثت عيونها ، وأرسلت أرصادها ، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو ، وأدركت انه قصد الى الهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو الى لباناته وأوطاره !

ولا ندرى ما ذنب الفتاة التى ملأت أذنى حيرا سحرا ، ونفثت فيهما موسيقى وألحانا ؟ لقد ظلمتها زوجة الاله الاكبر ، التى تحمل بالباطل لقب حامية النساء وحافظة الاجنة ، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة ، ثم لتسلطن على لسانها العى والحصر يشقيانها ويعذبانها !

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سببا فى تمادى زوجها فى غى حبه ، وابعاده فى ضلالة هواه فنفثت فى عقد سحرها ، ثم قصدت الى الفتاة المسكينة فنهرتها • وارسلت عليها شواظا من غضبها ، وقذفتها برقية من رقاها المهلكة ، لم تستطع بعدها ان تلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما فى نفسها ...

وقهقهت حيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع ، ثم شاءت الخبيثة أن تظهر آية اخرى من آيات غدرها ، فقالت ، بعد أن نفثت نفثة ثانية : « أنا أسميك ايخو ، وآمن عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها فى ذيل كل كلام تسمعين ... اللفظة الاخيرة فحسب ياايخو .. ؟

فرددت الفتاة المسكينة : « ايخو !! »

أما يو ، فقد نفذت اليها حيرا وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به الى بقرة صفراء فاقع لونها ..

تسوء الناظرين . ولهذا حديث طويل مشج ندعه الآن ، لنرى ما كان من أمر ايخو ..

دهشت الفتاة لبيانها اين ذهب ، ولصوتها الجميل اين ولى ، وللرخامة الفضية التى كانت تترقرق من فمها الشتيت كيف ضاعت ، ولهذا السحر الدنىء كيف قضى على أولئك جميعا ؟!

لقد بكت كثيرا ، وتوسلت الى الآلهة ، ولكن ... اين الآلهة ؟ لقد تصاموا جميعا ، لان حيراهى القاضية ، ولانهم يشفقون ان تفسد أسباب السماء كما أفسدت الارض على عرائس البحر !

وأطلقت ساقيها للريح ، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات افياء ، ثم انها اتخذت لها مأوى فى أصل سنديانة ضخمة الجذع ، معروشة الفروع وارفة الافنان ، وأقامت ثمة تجتر احزانها وتسعر اشجانها ، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقى ، وتسكب بين هذا وذاك دموعا ساخنات وعبرات غاليات ! وبينما هى سادرة فى كهفها ، مستغرقة فيما آل اليه امرها اذا بصحب يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها ، من دون أن يروها ، وهم يتحدثون احاديث الصبى ، ويتسامرون سمر الفتوة ، ناعمين بأشهى مناعم الحياة

وظلت ترقبهم وتستذكر أيامها الخوالى ، اذ الشمل مجتمع ، والرواد محدقون ، مرهفة آذانهم ، شاخصة ابصارهم ، فاهتزت هزة المحموم بالشجن ، المروع بالشجى !

واطلت من كناسها ، فرأت الغلام الاغريقى المشهور ، « نركيسوس » الذى دله الآلهة بجماله ، وتام عذارى اثينا بنضارته واشراقه . رأته يتخلف عن أصحابه ، مأخوذا

بجمال نرجسة حلوة أقتطفها من غصنها المياس وفتنها الميّاد ، ثم وقف يحدق فيها بعينيه المعسولتين ، اللتين لونتهما شمس الجنوب بهذه الصبغة السحارة ، وكمنت ملأهما يعاسيب الفتنة ، تنتشر منهما فى دنيا القلوب !

والسبيل فى الغاب ملتوية متداخلة ... تيه يضل فيه العابر ، ويباب أخضر لا يهتدى فيه السائر ، هنا منعرج لا يصل منه الانسان الى أمن ، وهناك منحنى لا ينتهى الى سلام . ولقد مضى الدليل مع الصحاب ، ولبث نركيسوس وحده ، يضرب اخماسا لاسداس

ولم تستطع أيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله ، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والالباب .. فأحبته بكل قلبها ، وأرسلت فى نظراتها اليه نفسها تتمرغ تحت قدميه ، وتهمهم بين قدميه ، كأنها خلقت له .. لا لها !

ولكن كيف السبيل الى التعبير عن هذا الهوى الملح ، والحب المخامر ، ولسانها فى عقال الا من المقطع الاخير ، ينطلق فى اثر الحديث ، او اللفظة المفردة تردفها بصياح كل صائح ، وهتاف كل هاتف ؟!

وراحت تقتفى أثره ، من غير أن تشعر هى ، ودون أن يشعر هو ! وتقص خطاه وهى لا تعى ما تفعل ، وهو لايدرى كذلك ، فكان دبيبها كدبيب القطا ، أو كوثب الضفادع . على أن حركة غير مقصودة أتت بها ايخو جعلته يعتقد أن أحدا من سكان الغابة يتبعه ، فصاح قائلا :

« من ؟ ... »

فرددت المسكينة نداءه : « من ؟ ... »

فقال : « هل من احد هنا ... ؟ »

وأرسل هذا السؤال فى رعب خفيف ، فرددت ايخو اللفظة الاخيرة : « هنا ... »

فبهت نركيسوس ، وقال ، وقد خال المتكلم امرأة :

« هلمى يا فتاة .. هلمى .. »

فرددت ايخو اللفظة الاخيرة .. « هلمى .. »

فزادت حيرته ، وتضاعف خباله .. وقال :

« لم لا تأتين الى ، وليس هنا أحد يرى ؟ ولا انسان يشهد ؟ »

فثار كامن الهوى فى نفس ايخو ، ونطقت اللفظة الاخيرة : « يشهد ؟ » بكل ما تركت لها حيرا فى قرارة لسانها من رنين فضى ، وجرس جميل ... »

وعاد نركيسوس يقول : « يا فتاة ! ليت شعرى ما يحجزك ؟ أين أنت ان كنت هكذا تستحيين ؟ تعالى .. »

وكأن ايخو أدركت ان الفرصة سانحة للقاء هذا الحبيب الطارىء ، فبرزت من مكمنها فى غير هيبة ولا وجل ، وقصدت أليه تعرض حبها ولظى جواها ، ولما لم يكن فى مكنتها أن تخاطبه ، لتكشف له عما تضمر من هيام به ، ومحبة له ، بدا لها أن تثب الى حيث هو فتعانقه ، وتضم صدره الى صدرها ، ليبث احدهما الى الآخر

ولم تكد تفعل حتى جهد نركيسوس فى تخليص نفسه منها ، ثم انطلق فى الغابة لا يلوى على شىء ، كالرئم المروع ، والظليم المفزع .. !!

وذلك انه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب ، ولا وقع مرة فى شراك غرام ، وقد ربكته ايخو حين غمرته بكل حبها ، فشرق به وغص ، وقال : الفرار .. الفرار !

وتسلط الهم على قلبها فشفه ، والشجن على جسمها الناحل فأضناه ، وكانت صدمة هائلة صدعت جوانب

نفسها ، وزادتها نكالا على نكال ؛ ثم تتابعت الايام وهى ما تزداد الا سقاما ...

واضمحلت ... ثم اضمحلت ... حتى غدت ... لا شيء !!

ولا شيء هذه ليست مبالغة فيما حل بها ، اذ الصحيح انها غدت لا شيء ، الا هذا الصدى يتردد فى كل واد ، ويذهب أثر كل نداء

وهى الى اليوم تأوى الى الغيران ، وتتخلف الى الشطئان وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال ، تنعى همها ، وتندب حظها فى النادبين !

وشاءت المقادير أن تنتقم لايخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس الذى حطم قلبها الغض ، وقضى على نفسها المحزونة . فبينما كان فى طراد عظيم ، فى يوم قائظ عرج على خميلة ناضرة ملتفة الاغصان ليشرب من الغدير الصافى الذى يترقرق من تحتها .. وما كاد ينحنى الى الماء حتى رأى صورته فى صفحته الساكنة ، فبهره حسنها ، وأخذ يرمقها بقلب مشوق ونفس هائمة ، وهو لا يعلم ان الحبيب الذى تامه ان هو الا ظله ، وعروس الماء التى تبلت فؤاده ان هى الا خياله !!

عينان كبيرتان ذواتا أهداب زانهما وطف ، وجبين واسع وضاء مشرق ، وخدان أسيلان كخدود ربات الاولمب ، وخمل حلونايت فوق بشرة الوجه يزيده رونقا وجمالا ، وثغر حبيب كأقحوانة تتفتح ، ترف حوله بسمة ساحرة من حين الى حين ، وذقن رقيق مستدق يرتفع على عنق يونانى رائع ثم فتنة تغمر ذلك جميعا !!

خاطبه نركيسوس ، ولكن ... وا اسفاه ! انه لا يرد تمتمة ، ولا يجيب الا كما تهمهم الريح !

ومد يده ... فمد الخيال يده ، واستطير صاحبنا من الفرح ، ظانا ان حبيبه تواق الى ما يريد !

واقترب بفمه ، يريد قبلة ، فاقترب الخيال بفمه كذلك ولكن .. يا لخيبة الامل ! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه ابادید ، وتكسرت منى نفسه الحيرانه ، وفر الخيال فى شظايا الماء ... وتحطمت الصورة الرائعة بددا ! ! وخيل لنركيسوس انها تقول وهى تهتز ، قبل ان تلتئم : « لا ... لا ... لا ... لا ... »

ولبث عبثا يحاول قبلة ، وتتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه ... فانطلق مغيظا محنقا ، وهام فى القفار على وجهه ، لا يطيب لجفنه المسهد كرى ، ولا يحلو بفمه المرير عيش ، لجفاء الحبيب ، ونفره آسية العجيب !!

نركيسوس ، الذى بلبل قلوب العذارى ، وسفك دموع الحسان ، وضرج كبرياء الغيد بالدم ، واذل البسمات التى طالما حملتها اليه اجنحة الحب من ثغور الفاتنات .. نركيسوس ، الذى القى بحب ايخو فى التراب ، تسبيه صورته ، ويتصباه خياله ، ويأسره ظله ، فيا لنقمة كيوبيد ، ويا لعدالة فينوس ! !

لقد طفق يختلف الى الغدير لدى كل شروق شمس ، يناجي حبيبه المعبود وامله المنشود ، فلا ينثنى الا اذا توارت الشمس بالحجاب !

وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف ، وما انفك الخيال يتصام ويتباكم .. واذ تحدث تمتم ! !

ثم ...

ثم ذوى عوده ، وذبلت نضرته ، وتهدم جسمه ، وتحطم قلبه ، وتأرجحت روحه فى حدقتيه ... و .. دنت ساعته

ووقفت ايخو فى فنن وارف ، فى آيكة قريبة من الغدير ،

تشهد الفصل الاخير ، من مأساة حياتهما ..

وسمعته يقول مخاطبا ظله : « ايها الحبيب ! اجل ! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائى ، وتسحق مرتى وتهد أعضائى .. هأنذا أموت أيها الحبيب ... بقربك ... يا عروس الماء النافر ... اموت ... واحبك... فالوداع ... الودا ... ع »

وبكت ايخو ... ورددت هذا الصدى الحبيب : « الودا .. ع ! »

واقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس ، ثم ذهبت فى أرجاء الغابة تجمع الحطب لاحراق الجثة ، كما جرت بذلك العادة فى ذاك الزمن .. ولكن ، ياللعجب ! لقد عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس ! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه الى ظلها ... وتذرف دمعها .. قطرة ، فقطرة ..



# بين أبوللو وكيوبيد

عصى الناس ، فى قديم الزمان ، سيد أرباب الاولمب ، السند الاعظم المهيمن على ملكوت السموات والارض : زيوس . ومع ما اشتهر به من واسع الحلم ، وطول الاناة ، وجم المغفرة ، فانه لم يشأ أن يمد للعالم فى حبال الغواية لدرجة انكارهم لذاته ، والحادهم فيه ، وكفرهم به ، فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم ، وليقطعن دابرهم أجمعين ! فأطلق الرياح الجنوبية الهوج ، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم ، وأذن للارض فتشققت ينابيع وعيونا ، ثم انهمرت الامواه من فوقهم ، وتفجرت من تحت أرجلهم ، وطغى الموج يجرف الدور ويعفى الاثار . وفى أيام قلائل ، كان الطوفان يغمر وجه الارض ولم يكن ثمة الا بحر خضم عظيم

وهلك الناس جميعا ، وشفى زيوس موجدته عليهم ، ثم بدا له ان يعيد مياه الحياة الى مجاريها ، فأطلق الرياح

(*) لقد طغت أسماء الميثولوجية الرومانية على الميثولوجية اليونانية طغيانا كبيرا مع ان الثانية اصل للاولى ، وابوللو هو الاسم الرومانى للاله فوبوس اليونانى ، وكذلك كيوبيد هو ايروس بن افروديت ( فينوس ) وقد اثرنا الاسماء الرومانية لشهرتها فحسب

من عقالها ، فهبت فى شدة وعنف ، وأخذت ترشــف ماء الطوفان ، تعاونهـــــا فى ذلك مركب أبوللو .. يوح (١) العظيمة . وبدأت الارض تجف ، وشرع بساطها السندسى الجميل يبدو قليلا قليلا ، حتي ازدهرت المروج ، وأينعت الخمائل ، وسمق الدوح ، واهتزت الربى ، وأخـــــذت السهول زخرفها . وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسى يعمرون الارض الجديدة ، فما كاد يفعـــــل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة ، جعلت تزحف من الماء الى الارض ، فتهلك الخلق الجديد . وكان أشد هذه الحيوانات وطأة وأكثرها فتكا ، ذلك التنين البحرى الهائل ، الذى يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها ، حتى ضج الناس واستغاثوا ، وجأروا بالدعاء الى زيوس الرحيم ، فرق لهم وحدب عليهم ، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا . أبوللو ، فأنقذهم من التنين ( بيثون ) بسهامه التى سددها اليه حتى أرداه

وانثنى ثملا بخمرة النصر ، مزهوا بما رفع الناس اليه من صلوات وابتهالات ، وبينما هو راق الى سماء الاولمب ، اذا أخوه كيوبيد بن أفروديت يصيد الظباء فى غيضة لفاء، ويلهو باجتناء الثمر ، ويمرح بين أفواف الزهر ،كالمستهتر الخالى . فأراد أبوللو أن يناوشه ، فقـــال له « كيوبيد يا ابن أفروديت ! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة . وتريش سهامك الى أطلائها المفزوعة ، ولا تجسر على اقتنــــاص الافعوانات البحرية المرعبة التى تفتك بعباد ابينا زيوس، ومع ذلك لاتفتأ تفاخر الالهة بســـــهامك التى لا تطيش ، ورمياتك التى لا تخيب . كيوبيد الصغير ! يجمل بك أن تنزل لى عن قوسك المرنان ، وســـــهامك الذهبية ، أو أن

(١) الشمس

تحد من كبريائك ، وتأتى الى كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية ، كيف ينبغى أن تسدد السهام ! »

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذى لا مسوغ له ، وذلك التفاخر الاجوف الذى لا فائدة منه ، ولا طائل وراءه فعبس وبسر ، وتجهم وزمجر ، وقال فى عبارة ملتهبة ، وأسلوب مشبوب : أبوللو يا ابن لاتونا ! كان الاولى بك أن تذكر كيف عذبت حيرا فى سالف الايام أمك وأذلتها ، فتفنى حياء ، وتتوارى خجلا ، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب ! أبوللو ! أنت تتيه بسهامك وتدل، وتدعى انك تقنص بها الافعوانات البحرية ، على حين أصيد الظباء ، وأقتل الاطلاء ، ألا فلتعلم أننى أمهر منك ألف مرة فى تسديد السهام ، واقوى فى توتير القوس ، وان كنت بعد حدثا صغيرا . على اننى انذرك ، أنت يا ابوللو يا ابن لاتونا سهامى التى سأجربها فيك قريبا !! »

فضحك أبوللو ملء شدقيه ، وقال : بخ بخ يا كيوبيد ابن أفروديت ! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو ! ولكن يبدو لى أنك متعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد فى هذه الغيضة ، وأحسبك قد أعياك ظبى نافر فأخرجك عن طورك ، خصوصا ، وأفروديت تنتظرك لتعد الشواء !.. أنت ستجرب سهامك فى .. فى أنا ..! »

فقال كيوبيد : « فيك أنت .. فيك آنت يا أبوللو يا ابن لاتونا .. وسترى .. »

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة ، وفصل مستهزئا ..

وشرع كيوبيد يدبر انتقامه ، ويرسم له الخطط التى ينال بها من أبوللو ، فلا يستطيع أن يفلت ، وكان يحمل كنانتين ، يحتفظ فى الاولى بسهامه الذهبية التى يصمى

بها القلوب فتملأ حبا وصبابة ، وفى الاخرى بســـهامه الرصاصيةالتى يصيب بها القلوب فيفعمها بغضا وكراهية .. ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهما حاد الشباة مزدوج السنان ، ثم انطلق فى الادغال يفكر ويدبر ، ويمم شطر غدير قريب يطفىء منه غلته ، فرأى القينة الحسناء ( دفنيه ) متجردة من ثيابها ، جالسة كالقطاة على عـدوة الجدول، تداعب الماء بقدميها الحبيبتين، وتظللها صفصافة ممتدة الفىء وارفة ، والاطيار من فوقها تغنى لها . فقال كيوبيد ، متحدثا الى نفسه : « فرصة نادرة لن أفلتها .. هذه ( دفنيه ) الجميلة تستنقع من القيظ ، وهى وسيمة قسيمة ، بارعة الحسن ، تامة المفاتن، لابد أن أسدد سهما رصاصيا الى قلبها الصغير فيمتلىء كراهية وبغضـــاء .. ويحسن ألا أشعرها بوجودى حتى أصمى قلبهـــا ... فلأختبىء هنا .. »

وتوارى خلف دوحة كبيرة ، وثبت السهم الرصاصى فى مكانه من القوس ، ثم اطلقه فى قلب دفنيه ، وما كاد يفعل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر ، وأسلمت ساقيها للريح تعدو بين الايك، صارخة من ذلك الثلج الذى ذهب بحرارة فؤادها ..

وقصد كيوبيد الى حيث أبوللو ، وكان قريبا من دفنيه، فسدد الى قلبه السهم الذهبى فأصماه . وتلفت أبوللو ينظر ماذا اصابه ، وحدث أن كانت دفنيه منطلقة تعـدو اذ ذاك ، فلمحها ، وسرعان ما جن بها جنونا . لقد مـلأه سهم كيوبيد حبا ، كما ملأ ســـهمه الرصاصى دفنيه بغضـــا ...

لقد كانت دفنيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد اذ ملأه سهم كيوبيد حبا ، فهام بها ، وشعر نحوها بهـوى ممض ، وبرح كأنه برح آلاف من السنين ، وكذلك كان

أبوللو اول من وقع نظر دفنيه عليه بعد أن أفعمها سهم كيوبيد كراهية ، فأبغضته ، وشعرت بسم تنفثه عيناه في قلبها حينما رأته

أفلح كيوبيد اذن فى الفتك بأبوللو ، حين اوقعه فى أحبولة الهوى ، ورداه فى شرك الغرام ، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة ، دفنيه ! أفلح كيوبيد ، وتبع ابوللو يرى اليه يتذلل ويتضرع ... ويبكى كما يبكى الآدميون ... وهو سيد الشمس ، ورب الموسيقى ، وقانص الافعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر !

انتصر كيوبيد اله الحب ، صاحب القوس الذهبية ، كيوبيد الطفل ، ذو الجناحين ، على أبوللو سيد الشمس ؛ صاحب القوس والوتر الفرد !

ان الحرب لم تبدأ ، حين بدأت ، بين أبوللو بن لاتونا ، وكيوبيد بن أفروديت ، بل هى قد بدأت بين البغضاء والحب ، والقلى ... والهوى !

انطلق ابوللو فى اثر دفنيه المذعورة يبكى ويتذلل ، ويحاول اللحاق بها ... ولكن هيهات ! لقد كانت تمعن فى الهرب ، كلما جد هو فى الطلب ، ولقد كانت تنظر اليه كأنه قاتل ابيها ... او خانق أمها !..

وصاح أبوللو ضارعا : « دفنيه أيتها العزيزة ، قفى أرجوك ! تمهلى اتوسل اليك ، الشوك يجرح قدميك المعبودتين يا دفنيه ! اوه رويدك ياحبيبة ، لاتنطلقى هكذا فقد يؤذيك اندفاعك ، فيم أنت مذعورة هكذا ؟! فأنا أبوللو ... قفى ! .. »

ولكن دفنيه لا تجيب الا بنظرة القنص ، ولفتة الواجف المراش ، وتجد فى الهرب . فيقول ابوللو : « قفى يادفنيه! قفى ولك نصف ملكى : بل لك الشمس كلها اذا وقفت ، انا رب الموسيقى سأغنى واصدح لك ! سأطربك بقيثارتى

الذهبية بعد أن أغسل قدميك بدموعى فى كل ليلة ( ! ) ؛ سأطير بك فى ارجاء السموات ! ستكون لك القصور فى جنة الاولمب ! سأمنحك الخلود يا دفنيه ! أحبك ! أستحلفك بزيوس الا ما وقفت ! مالك هيمانة على وجهك هكذا ؟ هل أخيفك ؟ هل أزعجك الى هذا الحد ؟... ويلاه ! »

ولا تبالى دفنيه ، بل تعدو وتعدو ...

ويضيق أبوللو بغصته ذرعا ، فيلجأ الى جبروت الآلهة ، ويبدى سلطان السماء ! ويصيح صيحة هائلة ، فيكون سد منيع فى طريق دفنيه !..

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الاعياء : « فيم تهربين منى يادفنيه ! ألم تعبدينى مرة وتقدمى الضحايا بأسمى الى كهنة الهيكل ؟ هأنذا أبوللو المعبود ، ارجوك وأتوسل اليك ! أنا الذى أعبدك يادفنيه ! ماذا تريدين بعد هذا ؟ لقد بلغت من ابوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل ! لقد فضلتك على كليمين ، زوجتى المعبودة ، واجمل عرائس البحر ، وأم طفلى المحبوب فيتون ! فيتون أسرع الآلهة بعد اخى هرمز ، سآمره يكون خادما لك ! انه يقتنى أغلى المركبات ، ولديه من الصافنات الجياد اغلاها ، ستركبين معه فتطوفين العالم فى ساعتين ، وترين ما بين الشرق والغرب فى لحظتين ، لو رضيت ! دفنيه ! أرجوك يا دفنيه ! اننى أبدا ما بكيت بمثل ما ابكى لك ، واذرف الدمع بين يديك ! حنانيك يادفنيه فقد سحقت قلبى بكبريائك ، وأذللت نفسى بخيلائك ! »

وكان فعل السهم الرصاصى فى قلب دفنيه قد خف ، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع ، وكانت عيناها ثرتين بعبرات حبيسة . ولكن كيوبيد ، المختبىء فى عساليج الكروم القريبة كان يرى ويسمع ، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها ، تناول قوسه ، وانتقى

سهما مسنونا من كنانة الاسهم الرصاصية وسدده الى قلبها ، فلصرخت المسكينة صرخة مدوية ، وهبت فى وجه أبوللو تقول : « اليك عنى أيها المسخ ! تنح ! أبغضك ! أكرهك ! أغرب عنى ، أنت أنجس من التيتان (١) وألأم من شارون(٢) ، اذهب ! لا أطيقك ، انظر الى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك ، والدخان يصاعد من منخريك ! كريه .. شائه أنت أيها الوحش .. »

وكذلك كان فعل السهم الذهبى قد شارف أن يبطل فى قلب أبوللو .. وكاد الاله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب ، فيسحق دفنيه ، لولا أن تنبه كيوبيد ، فأصماه بسهم ذهبى آخر ، فجن جنونه ، وتجدد حبه ، وتألب به هواه .. فصرخ صرخة راجفة ، وأشار الى السد فزال عن طريق دفنيه ، فانطلقت تعدو .. وتعدو .. وانطلق هو فى اثرها يتوسل .. ويذرف أغلى العبرات ! ..

لقد كانت دفنيه تطوى الطريق كأنها فكرة شاردة فى رأس شاعر ، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار منجذبا الى نجم كبير ! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها ، واشتعلت نفسه بالرغبة الملحة فيها ، وانجذبت روحه اليها .. يالكيوبيد ! ويالسهامه .. الذهبية .. والرصاصية ، على حد سواء !

وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفافى النهر العظيم الذى أقام زيوس والدها الكبير الها عليه ، فتصرخ قائلة : انقذنى يا أبى ! خلصنى من هذا الوحش الذى يدعى أنه

---

(١) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتلة ابنه زجريوس وأبغض الابالسة الى الالهة

(٢) شارون هو حارس الجحيم

أبوللو الكريم ! انه يعدو من ورائى .. خلصنى منه .. انى أبغضه . يا أبى .. يا أبى .. »

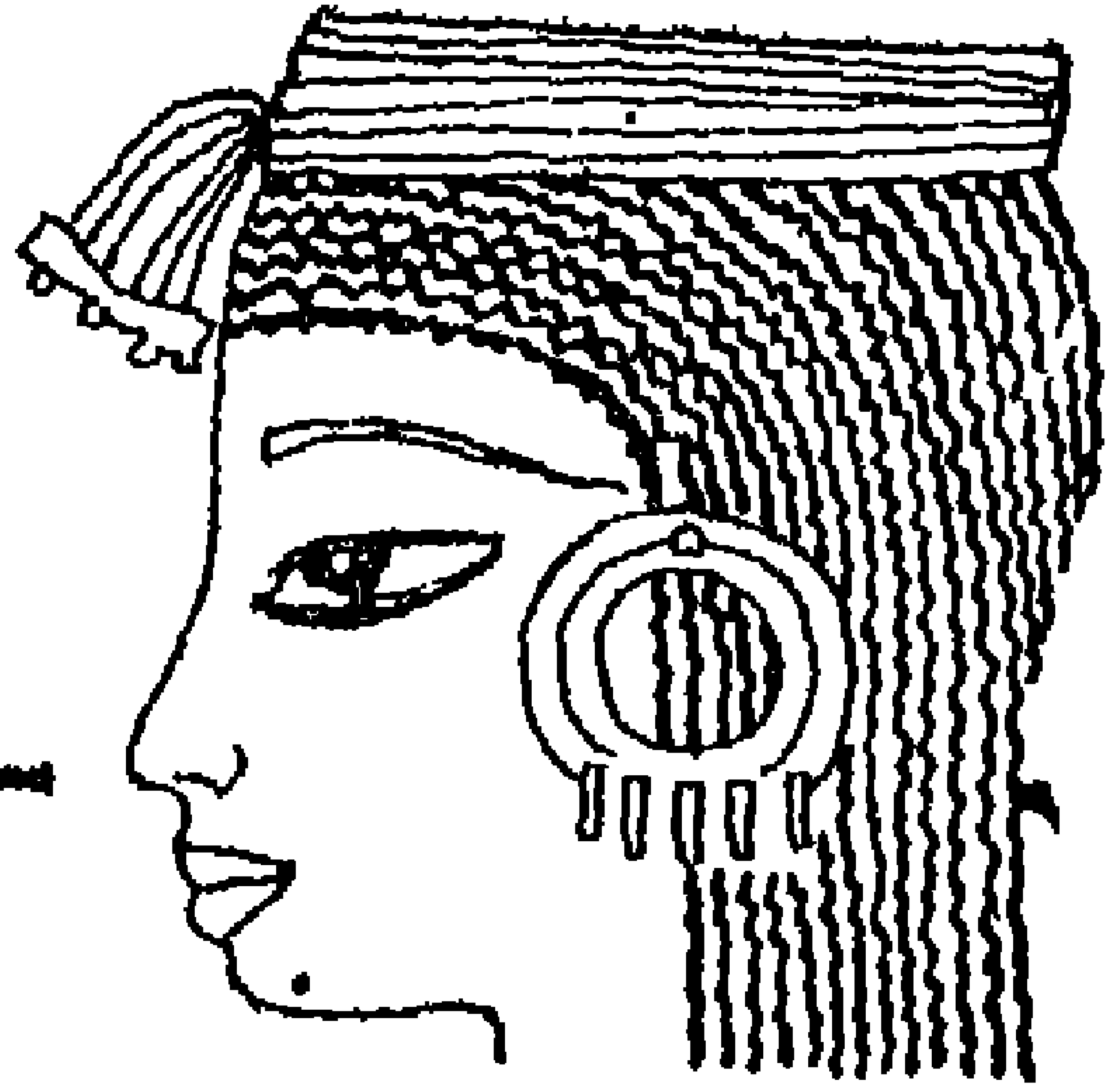
وينشطر الماء ، ويخرج أبوها ، اله النهر ، فيرى ابوللو مقبلا ، فيعرفه ، ولكنه يرق لابنته ويقسم ليخلصنها من سيد الشمس ، فيغرس قدميها فى الشاطىء ، ويحتفن من الماء بيديه ، وينثرها به ، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ويقف أبوللو مشدوها ، موزع اللب ، ينظر ويرى !

لقد تحولت دفنيه ، فى لمحات ، الى شجرة باسقة من أشجار الغار ، وأخذت الخضرة تينع فى أغصانها ، بين حيرة أبوللو وشدة تعجبه !

ووقف الاله العظيم يبكى ، ويا ويح للعاشق المخبول !

ثم تقدم فبارك الشجرة ، وسقاها من دمعه ، الذى كان من خلائقه الكبر ! وانصرف محطم النفس ، معمود القلب ، كاسف البال .. ولقيه كيوبيد ، فسأله الخبيث : « أين سهامك التى أرديت بها الافعوانات يا أبوللو بن لاتونا ؟ » فقال : « كيوبيد ! اشفنى مما ألم بى ! » فقال كيوبيد : « بهذا السهم الرصاصى أشفيك ! »

وتلقى ابوللو السهم فى قلبه عن طواعية فبرىء مما به ، ولم يعاد كيوبيد بن أفروديت بعدها !



# يـو
# أو
# « منشأ إيريس »

كان لأحد ارباب الانهار التى تنحدر من شواهق الاولمب ابنة بارعة الجمال فتانة ، حلوة كأنها قبلة على فم حبيب، رقيقة كأنها زنبقة على غصن رطيب

وكانت تخطر كما تخطر نسمة معطرة أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حبا ، ولتشيع فى الحب سعادة ، ولترف فى قيظ الحياة فتروح على المكدودين المحزونين

وكانت هذه الفتاة ( يو ) ، مفتتنة بجمال الطبيعة ، مشغوفة بسحرها الاخاذ ، تود لو تستطيع فتعيش ملء السهل والجبل ، او تقدر فتنسجم والحياة الدائبة فى الغابة ، أو تكون روحا شفافا يرف فى زرقة السماء ، ويمتزج بالظلال والافياء

ولم تكن عاشقة ، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر فى هدأة من الليل ، يهيج حب الطبيعة فى نفسها ، فتبكى ، وتبكى ، ولا يقطع عليهـا بكاءها الا خرير الغدران المترقرقة التى تنسرب فى الادغال.

وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء ، وصاحباتها من بنات الغاب ، فكن اذا تفقدنها ، توزعن فى مهاوى الجبل ، وتفرقن فى منبسط السفح ، وتنادين بها

ههنا وههنا ، حتى يجدنها آخر الامر مستغرقة بين يدى قمرها المعبود ، تناجى البحر المصطخب ، وتكلم النجم المضطرب

ونزل زيوس يوما من ذروة الاولمب التى هى أول مراقى السماء ، يرتاد جنات الارض فى مملكة جدته ( جى ) ، وما كاد يوغل فى احدى جنبات الجبل حتى لقى يو ، تلك الفتاة الاولمبية الساحرة ، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق فى صبيحة من أوليات الربيع .. وكانت السماء لا تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء ، وأراد(١) ذكاء تنتشر خللها فتفضض أذيالها ، وتذهب أوساطها ، وتكسب الافق رونقا زاهيا خلابا

وسحر زيوس ، وهو كبير الآلهة ، بجمال العروس التى هى من خلقه ، وابنة أحد أتباعه ، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها ، وشعر كأنه ظمىء الى هذا الجمال الفتان المشرق ، الذى كسف فى عينه جمال زوجاته جميعا ، وفيهن حيرا وديون ولاتونا (٢)

ووقف الاله المشدوه يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وسمر مكانه ، وهو سيد الآلهة ، يعبد عبدته الصغيرة التى أبدعتها يداه .. وهو لا يدرى !

وعول على اغتنام الفرصة ، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعا لا يضيره الا يكون بريئا ، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة .. « أنا سيد أرباب الاولمب ، وكل ما بين لابتيك أيتها الارض فهو لى ، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذى يجرؤ أن يحجزها عنى أو يمنعها

---

(١) أشعة الشمس

(٢) حيرا أولى زوجات زيوس وديون هى أم أفروديت ( فينوس ) ولاتونا هى أم أبوللو وديانا (فوبوس وأرتميس ) ولزيوس ازواج اخرى

مني !.. ؟ »

ثم بدا له الا يزعجها بالظهور لها فى سيماه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها ، لانها ستكون منه تلقاء اله ، فتحول فى لمحة الى فتى يافع ينهل الشباب فى برديه ، ويترقرق الصبى فى أعطافه ، وتشع عيناه صبوة وفتونا ؛ وتقدم اليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة ، فحييت بأحسن منها ، ولقيته أرضى لقاء ..

وجلس يحدثها وتحدثه ، وكان الاله المحتال يمزج احاديثه بالسحر ، ويزخرف صوته بالموسيقى ، ويعسل ابتساماته بالمحبة ، ويطلق فى نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى ، وكان ماينفك يقترب منها ويقترب ، حتى لامس ذراعه ذراعها ، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين ، وطفق يضغط قليلا قليلا ...

وصمتا هينهة .. ثم فرغ طور اللسان ، وبدأت نوبة العين وأخذا فى رشفات وقبل ..

وعاد أدراجه الى الاولمب ، ولما يزر من أطراف الارض غير هذه الناحية الحبيبة التى سعد فيها لحظة بيو ، وظل منذ ذلك اليوم يتردد اليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التى تبترد بها غلته ، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها فينوس به ، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب..

وكان يتحرق الى لقائها ، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضى ، فاذا سعدت منه بزورة ، اندغمت عبادتها للطبيعة فى عبادتها له ، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها !

وأحست حيرا (١) ببعض ما يشغله ، ولحظت انه صادف عنها ، فأيقنت أن لابد من أمر ، وأن فى الامر أنثى ، وان فى الانثى صبابة وغراما ، فبثت العيون ورصدت الرقباء ، حتى وقفت من شأنه على كل شىء !

---

(١) حيرا : ربة الاولمب وزوجة زيوس الاولى

ولشد ما دارت الدنيا بحيرا .. لقد ودت أن تقلب جبلا على رأس يو ! وأقسمت أن تبغتهما اذ يتراشفان كؤوس الهوى دهاقا ، لكيلا يكون لبعلها على خيانته حجة ، ولكيلا يكون له من بعدها برهان

وذر قرن الشمس فى صبيحة ضاحكة ، فذهب زيوس يسفى ما فى قلبه من برح عند يو ، وكانت حيرا قد أوهمته انها ستقضى سحابة يومها هذا عند واحدة بعينهـا من صديقاتها ، وزاد ذلك فى ابتهاج الآلهه ، وضاعف انشراحه، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الاخر لدى يو

وانه لفى لهو النشوة وابان السكرة ، وعنفوان المرح ، اذ به يلمح حيرا مقبلة !

وكانت لا تزال فى أول الافق ، فأيقن انها مكيدة دبرتها لتفجأه مع يو ، وانها قد كشفت من سره ما بالغ فى كتمانه . فتناول اذن صاحبته فنفث فيها نفثة سحرتها فى أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة ، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها ..

ووصلت حيرا ، ولم تنطل عليها حيلة الآلهه ، وماشكت قط فى أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها فى الحشيش الاخضر كأنها تنشد الكلأ ، ان هى الا يو .. ! عدوتها اللدود !

فبسمت لزوجها بسمة كلها دل وكلها فتون، وسألته ، وهو يحاول منها قبلة ، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التى لم أر فى حياتى أرشق منها ولا أجمل .. لقـد أحببتها ، وهى من غير ريب ، حين تكبر ستعطينا أجـود اللبن وأسلمه ، وسيكون لبنها خـير غـذاء لولدينا الحبيبين ايرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب (١) ،

وارتبك زيوس ، ولم ير بدا من اجابة زوجته الى ماتريد

---

(١) ايرس هو مارس الرومانى اله الحرب ، وهيفيستوس هو فلكان الرومانى اله النار ، وهيب هى ربة الشباب وندمانة الشراب ، وحاملة الكؤوس فوق الاولمب

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها احد أتباعهــــا الاقوياء : آرجس الهائل ، ذا مائة العين التى لا تنام ! ناطته بها ، وآمرته ألا يغفل عنها .. « والا فالويل يا آرجس اذا هربت منك ، أو احتال أحد عليك فألهاك عنها ... اذن يحل عليك غضبى ، وأسحقك سحقا .. »

وظل الحارس الساهر يرعى يو ، ويرقب كل حركة من حركاتها ، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبهــا ، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذى ردها بعد جمالها الى هذا الخلق الشائه ، وصيرها الى ذاك المصــير المؤلم . لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع ان تفلت من رقابته الثقيلة ، ولكن كيف ؟ ان الخبيث كان اذا أضناه السهد وأعياه السهر ، ينام بخمسين عينا ، ويقـــدح الشرر بخمسين اخرى !! فاذا استيقظت هذه نامت تلك ، وهكذا دواليك حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها ! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها ، فتود لو تستطيع مخاطبة احداهن ، ولكن ... هيهات ! لقد كانت .. مو .. مو .. تنطلق من فمها الكبير مالئة أشداقها ، فتنزعج صواحبها ايما انزعاج !

ومضت أيام .. وأيام ..

ثم لقيت اباها مرة ، فنظرت اليه وهو ينكرها ، ونظرت ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها ، فذرفت أحر الدموع وادمى العبرات ! وحاولت ان تلفته الى أنها ابنته ، فلم يأبه لها !

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطىء حكايتها ، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد ، فلما قرأ ما رقشته فى أديم الرمل ، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان ، ثم عانقها عناقا طويلا ! ولكنه اسقط فى يديه ، اذ ماذا

يستطيع رب نهر صغير أن يصنع فى سحر الاله الاكبر ؟!
ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ثم بكاء رب النهر وعناقه اياها ،تأثر تأثرا باديا • ولو لم يفقه من كل ما كان شيئا • ثم ذكر وعيد حيرا ، فانطلق بالمسكينة الى مكان سحيق ، وثمة ، تخير يفاعا عاليا آقام عليه ليشرف منه على كل شيء ، فلا يخشى على بقرته رهقا ، ولا تستطيع هى مهربا
وذكر زيوس فتاته المسكينة التى كان حبه اياها سبب تعسها وشقائها ، وذكر تلك الاويقات الحلوة التى يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة التى لم يتيسر له مثلها فى مملكة الاولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم ، فثارت في قلبه عوامل الرحمة ، وتحركت فى صميمة تلك الشفقة الالهية التى اتصف بها فى قديم الآباد . .
وفكر وفكر ••• ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا ، البطل الطيار المشهور ، هرمز ، وأمره بالتوجه الى حيث آرجس فيحتال عليه ويقتله ••
ومرق هرمز كالسهم الى حيث الاكمة التى جلس فوقها آرجس فألفاه يحرس البقرة حراسةشديدة منكرة ، وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل ، وكان البدر يتنقل فى دارات السماء ، والرياح تهب سجسجا والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح تطرب وتشجى ، وكأن سنة من النوم خفيفة رقصت فى خمسين من عيون آرجس فأطبقت قليلا، ولكن ما برحت الخمسون الاخرى تنافس الثريا ببريقها ، وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندى من الاعياء ، فلما شهدت هرمز لم تحفل به
ولكن ما هذه الموسيقى الحنون !
ومن العازف فى هدأة الليل !

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب ؟

آه .. لقد تحول هرمز الصناع الى شاب ذى قوة وذى فتوة وذى جمال ، وبدا فى شكل راع من رعاة الضأن ، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس ، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذى اتخذه من قصب البـــرية الفسيحة التى أقبل منها ، وانبطحت فى السفح شاؤه ونعمه (١) تغط فى شبه نوم عميق ..

واستيقظت الخمسون الاخرى من عيون آرجس ، ودب النشاط فى هيكله الضخم لما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن ، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز ــ الراعى الفتى ــ فسلم عليه وصافحه . وجلس بين يديه كالعنز يسمع ويطرب وينتشى ، ثم أخذ معه فى حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة ، ثم استطرد فسأله عن نايه ، مم صنعه ، أو من ذا الذى وهبه ؟...

فقال هرمز : « فى احدى الغابات ذات الايك البالغ عنان السماء ، والدوح المنتشر فى الارجاء ، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة ، ذات السيقان الناعمة ، والجسم الابيض الخصب الجميل . وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليهـــــا ، وتؤثر منها الجرى والوثب والقفز ، والتعلق بأطراف الشجر ، ثم السباحة . وكانت تجرى فتسبق الريح ، وتعدو فيتعثر الظليم (٢) فى آثارها ، ولا تدرك الصافنات (٣) غبارها . وطالما طلبت اليها آلهة الغاب مسابقتها ، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلهـــــا مرحلة ، ثم تنطلق فتلحق بهم ، وتسبقهم بمراحل ! ..

وتثاءب هرمز الخبيث وقال : « ومن طريف ما حدث لها ، ان بان العظيم ، رب الرعاة واله المروج وسيد الغاب ،

(١) الشاء جمع شاه ، والنعم يطلق على الابل

(٢) ذكر النعام (٣) الخيل

ومعبود الناس فى أركاديا ، لمحها يوما تعدو كأنهـــا زوبعة ، فتبعها ، ولكنها شأته (١) وأجهدته ! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق فى الجرى ، وحاول أن يلحق بها ، فضاعف سرعته وأطال خطواته .. ولـــكن هيهات ! ... والتفتت ســـيرينكس فرأته يطوى أديم الارض من خلفها . ففزعت أيما فزع وهالها منظره الشائه الغريب ، فسيقانه العنزية الاربع ، وأذناه البهيميـــة الشاخصة ، وجسمه المفتول ذو العضل ، ووجهه الواسع العريض .. كل ذلك بعث فى قلبها الذعر ، وهاج فى نفسها الرعب ، حتى كادت تذهب شعاعا »

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة ، ثم قال : « واعترضها نهر عظيم فصرخت عرائس الماء تستغيث بهن ، وتطلب اليهن النجدة ، فما أذهل بان عن نفسه الا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبنها فى اليم ، ثم ما اذهله ايضا الا ان تنمو قصبات رقيقة ، ذوات أرياش صفيقة ، فى الموقع من الماء الـذى غيبت فيه سيرينكس !

ووقف بان مشدوه اللب ، ذاهل الفكر ، يحملق فى النهر الذى طوى منية القلب ، وهوية النفس ، ثم انثنى فنزع القصبات النامية ، وراح يصنع منها نايا حلو النغم رقيق اللحن ، حنون الجرس

ولقيته مرة فى روضة مونقة ، منضورة منســـقة ، وكان بان يجلس على رابية بها معشوشبة ، عازفا على يراعه، فطربت لموسيقاه طربا شديدا ، ودلفت اليه ، فرجوته ان يهب الناى لى،فتبسم قائلا : « اليك يابنى اكرم القنى(٢) وأعز الزكريات .. »

(١) شأته : سبقته

(٢) جمع قنية مايقتنيه الانسان

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه ، حاول ان يخفيها عني ..

وكان هرمز وهو يلقي هذه الاقصوصة التي اخترعها اختراعا ، يحاول أن يمطها مطا ، ويزيد في ثناياها حواشي مملة ، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها ، وكان يتثاءب ويتثاءب ، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد ، حتى تثاءب آرجس هو الاخر ، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها . وابتهج هرمز الخبيث لذلك ، وجعل يروح على وجه آرجس ، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداء الضفادع

وهنا .. امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل ، فانفصل الرأس عن البدن ، وغادرهما معفرين بالتراب ، وعاد ادراجه الى الاولمب يحمل الى والده نبأ المعركة ...

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن واشده وذهبت بنفسها فحملت رأسه الى مخدعها في قصر الاولمب الكبير ، وطفقت تسمل العيون عينا عينا وتركبها في ريش طاووسها (١) الجميل لتظل الى الابد رمز حبها له ووفائها لذكراه .. ثم آلت لتسلطن على يو - البقرة المسكينة - ذبابة صفراء من ذباب الابالسة تقرصها وتجعل من حياتها نكالا ، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس ... كبير الآلهة ورب الارباب : « يا الهي العظيم الرحيم ! يا أبا الالهة ، وابن الالهة ! أتوسل اليك بأبنائك الكرام الرحماء ! أدركني يا أبا زجريوس ! اغفرلي زلتي حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبني ! ان كنت قد صنعت بي ما صنعت

---

(١) كان الاغريق يرمزون لحيرا بالطاووس والكوكو وكانوا يحبونها حبا جما لانها آثرتهم بعطفها وضحت في سبيلهم بحب زوجها وثقته فيها - واسمها اليوناني هو جونو

انتقاما ، فحسبك ما حل بى من عذاب الهون ، لن أزل يا الهى اذا غفرت لى ورفعت عنى وزر غضبك ! اقبل يارب الاولمب صلاتى واجعلها شفيعى اليك ! أنا .. يو المسكينة ... كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر ، فكنت أنزوى عن العالم ، وألبث وحدى بين يدى قمرى الحبيب ، أصلى لك ولابنتك المعبودة ، فى هدأة الليل ، وسكون السحر ، فما هو الا ان قطع على هذا الفتى صلاتى وهو من خلقك ، وجماله الفتان آية من آياتك ، فاذا سحرنى وأذهلنى عن عبادتى ، فانى أستأهل كل هذا الذى أنا فيه ! يا الهى اغفر لى ، فقد وسع غفرانك كل شىء »

ويستجيب الاله لهذه الصلاة الحارة الخالصة ، فينطلق الى حيرا ، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه ، فيواسيها ويسليها ، ثم يرجوها أن ترحم يو ، وأن تخفف عنها العذاب ، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى . فترق حيرا ، وتتفجر الرحمة لاول عهدها بها ، فى قلبها ، وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة ، وتأذن لزيوس فيعيدها الى صورتها الاولى . الصورة القديمة المحبوبة . ! ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها الى أقصى أطراف الارض ، حتى تطمئن عليه وعلى قلبه المتصابى من حبها

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو الى ... ضفاف النيل ! وتخرج من الصحراء على المصريين ، فتبهرهم بجمالها الرائع ، وحسنها الوضاء ، ومفاتنها البارعة ، ثم يجتمعون على عبادتها ، ويقيمونها مليكة عليهم ، ويسمونها : « ايزيس »

وتمر الايام ...

فيتزوجها كبير آلهة مصر ، أوزوريس ، وتلد له ابنه جوريس !



# برسيوس وأندروميدا والجرجون الثلاثة

في احدى مدن الشاطىء الاغريقي ، كانت تعيش أميرة جميلة تدعى « داناى » ، هي وابنها الجميل برسيوس ، الذي كتب عليه ان يحرم صدر والده الحنون ، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره ، فشط مزاره ، ولم يعرف أحد أين انتهى قراره

ولقد كان هذا الوالد — فيما يظهر — على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب ، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحا شديدا ، ولخوفهم من أن ينشأ طفله برسيوس على وتيرته ، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به الى اليم ، والامواج المتلاطمة كفيلة ، ثمة ، باجراء حكمها فيهما

ياللوحوش ! لقد أنفذ الاشقياء تدبيرهم ، وتناوحت الامواج حول الزورق تقذف به ها هنا وها هنا ، والأم المسكينة تغالب احزانها وتنسى مخاوفها ، فتغنى لطفلها الراقد في حضنها ، وتدلله ، كي ينام ، وكي يكون بنجوة من هذا البحر المصطخب

وبعد ان كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين ، وبعد ان كانت كل موجة تشق للزورق قبرا

فى أعماق الماء ، شاءت العناية ان تسخر موجة هائلة تدفع به ، فى هوادة ورفق الى ساحل جزيرة نائية فى وسط المحيط . وهناك ، نزلت الام الموهونة متهالكة على نفسها، حاملة وديعتها البريئة ، شاكية الى الآلهة صنع الانسان بالانسان .. ولمحت فى الافق قرية متطامنة ، فيممت شطرها، ومافتئت تتعثر فى خطاها حتى بلغتها. والشمس تتوارى بالحجاب

ورحب الناس بالضيفين البائسين ، لان دينهم كان يأمر بايواء أبناء السبيل ، وأكرام الغرباء واللاجئين ، فعاشا ناعمين ، وشب برسيوس سليما من الافات ، مكتنز العضلات ، بادى الفتوة ، موفور القوة ، عذب اللسان ، مشبوب الجنان ، واحبه الناس واعجبوا به ، والتف الجميع حوله يصغون الى احاديثه العذاب ، وقصصه الرطاب .. وتسامع الكل به ، وترامت الى ملك الجزيرة اخباره ، فشغله انصراف الناس اليه ، وافتتانهم به ، وكان (قاتله الله ) ، غيورا رعديدا ، فآلى أن يكيد له ويدبر خيئة يقصيه بها عن طريقه ليطمئن على نفسه .. وعرشه !

وكان فى احدى الجزائر النائية ثلاثة من الجرجون الضارية ، وهى من أفزع ما جاء فى أساطير اليونان ، وكل من هذه الجرجونتين هائل له رأس امرأة ، ويدان من النحاس الاصفر ، ذواتا اظافر حادة ، تنفذ فى اقسى المعادن واصلبها ، وليس لها شعر فى رؤوسها كما للنساء، بل لها ، عوضا عن الشعر ، حيات وافاع ذوات رؤوس تنفث السم الزعاف . وقد اوتيت قوة خارقة ، حتى لتستطيع احداها ان تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار ، وليست هذه الجرجون مخيفة بسمها، وقوة بنيتها فحسب ، بل الادهى والامر ، هو هذا السر الدفين فى عيونها ، اذ كل من جرؤ على النظر الى هذه العيون ، يتحول فى الحال الى صنم من الحجارة ، لايتحرك،

ولا يعى !

وكانت الجوجونة ( مديوسا ) أفظع انواع الجرجون جميعا ، ولذا كانت أختاها الاخريان تحترمانها ، وتسهران على راحتها

ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار من كل ذلك ؟ لقد دبر ان يغرى برسيوس بالذهاب الى جزيرة الجرجون لقتل ( مديوسا ) والاياب برأسها كأحسن هدية تقدم الى ملك.
وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم ان مجرد محاولة الذهاب الى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لايقدم عليه الا المأفونون ، فان نظرة واحدة من عين مديوسا كفيلة بوضع حد لكل شيء ..

وأرسل الملك الى برسيوس فمثل بين يديه ، وطفق يكيل له المدح جزافا ، ويبالغ فى الثناء على ما تزامى اليه من اخباره وضروب شجاعته التى يتحدث بها الجميع

وامتلأ برسيوس ، الفتى ، زهوا ، وشامت فى أعطافه الكبرياء ، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه ، وجميل اطرائه ، فما ان ادرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير ، ونفسه الصغيرة ، حتى أخبره بما انتدبه له ، فقبل الفتى المسكين وهو لا يدرى ما هى هذه الجرجون ولا اين جزيرة الجرجون ؟

وانطلق من فوره ، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الاسوار فى مهرجان فخم ، وموكب أنيق . ثم غربت الشمس فغلقت الابواب ثم جلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر فى هذه الجرجون ، وينظر الى القمر يشرق من الاثباج ، فيفضض الموج ، ويحور به البحر رجرجا من لجين ! ويذكر فجأة انه لم يودع أمه ، ولم يتزود منها قبلة أو دعاء لهذا السفر الطويل . فيبكى .. ويبكى بكاء مرا !

وتصدع قلبه حينما خيل اليه أنه قد لا يعود اليهما مع أنه غزاؤها الوحيد فى هذه الحياة !

وانتصف الليل ..

وفيما هو غارق فى لجة الفكر ، شرق بواكف الدمع ، اذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة : « برسيوس ايها العزيز ! فيم بكاؤك ؟ ولم تذرف كل هذه الدموع ؟ لقد هجت الآلهة ، وأحزنت أرباب الأولمب ! » . ونظر برسيوس ليرى من صاحب هذا الصوت الرخيم الذى يناديه ، فعجب عجبا شديدا ! لقد رأى مخلوقا جميلا مشرق الجبين ، يترقرق البشر فى وجهه ، لا يعقل ان يكون بشرا ! يلبس فوق هامته قلنسوة ذات أرياش وأجنحة ، وفى قدميه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح البازى ، وفى يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الاعلى ثعابين وحيات !!

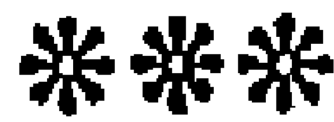
على أن برسيوس لم يعلم أن الذى يتحدث اليه ، ان هو الا الآله هرمز (١) رسول الآلهة بين السموات والارض ، الذى لايفوقه فى سرعته أحد

وبعد ، فلقد قص برسيوس قصته على هرمز ، وما فرغ منها ، حتى قال الاله له : « بنى ! انك مقدم على أمر جلل، وشأن بعيد المدى ، صعب المنال . ولقد أراد الملك اهلاكك حين اختارك لهذه المهمة ، لان احدا لا يجسر على الذهاب الى جزيرة الجرجون الا اذا كان أحمق أو مجنونا ، ولكن اصغ الى ! انك لابد فائز اذا عملت بوصاياى ، ولم تحد عما أشير عليك به . وسأذهب عنك لحظة ، ثم أعود اليك بآلاء من الآلهة ، تقرب لك النجح ، وتسهل عليك كل شاق

(١) هرمز هو الذى يسميه الرومان ميركيورى والعرب عطارد ، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والاخرة

من أمرك .. فانتظر » . ورقى هرمز ثم غاب في السماء، وبهت برسيوس حين رآه يطوى الأديم الفضى ، ويطـــرق أبواب أورانوس (١) !

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة ، فرثت لفتى المسكين وتحركت في قلوبها الرحمة العـلوية ، التى طالما تنهمر من السماء ، لتغسل آلام الارض : وتعاهدت أن تؤازر برسيوس ، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره . فنزل بلوتو ، اله الموتى عن قلنسوته التى تخفى من يلبسها فلا يراه أحد ، وتبرعت مينرفا (٢) بترسها الذى يحمى لابســـه من حراب الأعداء ، وهو ترس ثمين من الذهب الخالص ، يلمع لمعانا شديدا ، حتى ليعكس المرئيات فى صفحته ، كأنه السجنجل .



وحمل هرمز المنحتين ، وعاد بهما الى حيث يجـلس برسيوس فقدمهما اليه ، وزوده بجرازه المتلوى القاطع ، الذى ليس كمثله ســيف ولا حســـام . ومنحه نعليه المجنحتين ، اللتين تسبقان به الريح ، فلبسهما ثم قال له : « تلك يا برسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك . بيد انه ينبغى قبل كل شىء ان تذهب معى الى هذه الجـــزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث اناث من السيكلوب ذوات العـين الواحدة ، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون ، لان أحدا من العالمين لايدرى أين موضعهـا بالضبط غير هؤلاء السيكلوب . سر اذن على بركة الآلهة فى اثرى ، واحترس لنفسك ، والسماء تكلؤك »

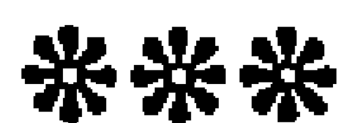
وكم عجب برسيوس حين رآه يطـــير فى اثر هرمز ،

(١) السماء

(٢) اسمها بالا اثينا فى الميثولوجية اليونانية وقد آثرنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها

والبحر من تحتهما يتــــلاطم ، ويعج عجاجه ، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة ، وحطا فى الجزيرة المنشودة بعد أن دوما فوقه طويلا . وكان ذلك بالقرب من كهف حالك فى منحدر صخرة صعبة المرتقى . وقد لمح فيه برســيوس السيكلوب الثلاث ، بفضل ترس مينرفا الذى كان يعكس فى صفحته كل ما فى الجزيرة

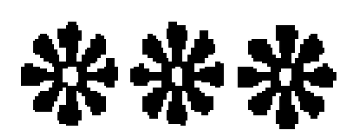
انها مخلوقات غريبة حقا ، ليس كمثلها شىء فى الافاق، شاذة فى خلقها ، عجيبة فى تنسيق جسمها ، وهى اناث على كل حال يعشن فى هذه الجزيرة المعشوشبة ،بعيدات عن العالم ، منزويات فى هذا الركن السحيق من أركان الدنيا . وأغرب ما فى أجسامهن من شذوذ أن ليس لهن أعين كما للناس ، ولكن لهن ، وبالحرى ، لثلاثتهن ، عين واحدة : تركبها لوقت معلوم ، فى حفرة غائرة من جبينها، حتى اذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوبة الاخرى ، نزعت الاولى تلك العين وأعطتها للثانية ، وهذه للثالثة ، وهكذا دواليك ، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصغر شىء فى أقصى جهات العالم ، من دون ما مشقة ولا عناء ..



وبعد ان زود هرمز صاحبه بوصايا غاليـــة ، أنتحى ناحية قريبة ، واختبأ برسيوس خلف شجرة باســـقة ، ولشد ما دهش اذ رأى احدى السيكلوب تقود أختيها ، وفى جبينها العين العجيبة ترمق بها أصقاع العالم ، وتحدث أختيها عما ترى ، وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين ، كل تريد الآن تأخذ نوبتهـــا ، وكل تدعى أن الدور دورها . وفيما كانت الأولى تنزع العين ، وتوشـــك ان تعطيها للثانية ، انقض برسيوس فتسلمها من السيكلوبة ، دون وعى منها !! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئا

في العالم . وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين، كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعى الانكار ، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن ، بأن هتف بهن : « أيتها الأخوات العزيزات ، لا تنازعن على عينكن ، فهى فى هذه اللحظة معى وبين يدى » ، وانقضت السيكلوب هلعات نحو مصدر الصوت ، ولكن هيهات ان يقبضن على شخص تحمله نعلا هرمز ، فلقد قفز قفزة هائلة ، أقصى بها نفسه عنهن ، ثم قال : « أيتها الأخوات العزيزات ! أنا أعلم انكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية ، وانا أعدكن بردها اليكن ، ولكن بشرط واحد : ذلك أن تخبرننى عن المكان الذى تأوى اليه ( مديوسا ) وأخواتها الجرجون ، فان لم تفعلن فلا عين لكن عندى »

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ وكدن لا يجبن بشىء ، لأنهن منهيات عن اذاعة أسرار العالم ، ولكن اذاعة السر فى هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمى المطلق ، والظلام المبين يغطش حياتهن ، فأخبرته بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها ، ولكى يثق مما أنبأنه به نظر فى العين التى بين يديه الجزيرة ، وأيقن أنهن لم يخنه ، ثم انه تحين الفرصة الملائمة ودفع بالعين فى جبهة أقرب السيكلوب منه وغاب فى الجو ميمما شطر هرمز ، حيث وجده يمرح فى غيضة ناضرة ، فتعانقا عناقا طويلا ، وشكره برسيوس على جزيل مساعدته ، ثم افترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته الى جزيرة الجرجون



وكانت رحلة طويلة شاقة ، برغم نعلى هرمز . فكم بحار طوى ، وكم وهاد رأى ، وكم ريح صرصر كافح ، وكم مشقة احتمل ، حتى وصل الى جزيرة الجرجون ! ولم ينس ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر الى أعلى دائما

حتى لا تقع عيناه على عينى احدى الجرجون فيحور حجارة صماء . وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تعج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات . ولشد ما سر سرورا لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث مستغرقات فى سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق . وفى وسطهن مديوسا العـــــاتية . تغط غطيطا مروعا . فاستخار الآلهة ، وامتشق جراز هرمز ، وتعوذ ثم تعوذ ، ثم انقض كالصاعقة ، فأهوى على عنق مديوســــا بضربة قاتلة ، فانفصل الرأس عن سائر الجسد . وهنالك ، علا فحيح الأفاعى الباسقة فى رأس مديوسا ، تدمدم فى الكيس الجلدى الذى ألقاها برسيوس فيه ، حتى لقد استيقظ أختاها ، وانطلقتا مرتاعتين فى أثر الفتى ، تودان لو تمسكان به ، فتعتصران عظامه اعتصــــارا ... ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما ، وتحفظه من شرهما

وبينما هو يطوى الضحاضح والبحار ، وبينمـــا هو منتش بخمرة انتصاره ، مفكر فى اللحظة التى يلقى فيها الملك برأس مديوسا ، ويحظى لديه بثمرة فوزه ، بينما هو كذلك ، اذ يلمح فى احدى الجزائر زحاما شــــديدا ، وجماهير حاشدة ، متكبكبة حول صخرة ناتئة ، مشرفة على البحر ، وقد تدلت منها فتاة بارعة الجمال ، باديـــة الحسن ، مغلولة العنق ، مربوطة الأطراف بسلاســـل وأصفاد من حديد صلب . ونظر فرأى تنينا بحريا هائلا يطفو فوق الماء ، ويقترب من الفتاة قليلا قليلا ، وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التى صرختها الفتـــاة فرددت الغيران والكهوف ومشارف الجبال اصداءها

ماذا ؟ . . .

الفتاة مذعورة أيما ذعر ، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكنا ... والتنين يقترب ويقترب ... ،

ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة ، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين واهوى على عنقه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها فى أحشائه ، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولا ، وكانت كلها فزعا ، والناس ينظرون مشدوهين ، زائغة أبصارهم ، لا يصدقون ما يبصرون . ثم انجلت المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء ، الذى تحول بدوره خضما من الدماء . وقفز برسيوس الى الشاطىء ، وذهب الى الفتاة ففك أصفادها ، وهدأ من روعها ، ثم حملها على حصانه ، وسأل الناس فقادوها الى والدتها المسكينة المعذبة ، التى حبست نفسها فى حجرة مظلمة ، وانتظرت ثمة من ينعى اليها ابنتها

أما هذه الام فهى الغادة الاغريقية كاسيوبيا ، المشهورة بجمالها ، وحسن روائها ، والتى كانت أفتن حسان هيلاس فى زمانها ، ولقد امتلأت زهوا بما أضفت عليها الآلهة من قسامة ، وما أسبغت عليها من وسامة ، فزعمت، وهى تفاخر أترابها ، أنها من عرائس البحار التى لا يدانيها فى جمالها الباقى ، جمال هذا البشر الفانى . فغضبت عرائس الماء ، لهذا الادعاء ، وأقسمن ليعذبن أهل الجزيرة التى فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذى شرع يغدو كل يوم الى شواطىء الجزيرة فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها ! ..

وذعر القوم . وحاروا فى أمر هذا التنين ، وذهبوا الى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة ، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره ، وتكفيهم أمره . ولقد أجيبت أدعيتهم ، وتقبلت أضحيتهم ، وأرهفت الأسماع ، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب ، وما هى الا لحظة حتى انطلق صوت خفى من أعماق المذبح ، يقول : « قدموا

العذراء أندروميدا ، ابنة الغانية كاسيوبيا ، ضحية حلالا لتنين البحر ، جزاء غرورها وكبريائها ــ ذلك ان أردتم أن يكف التنين عنكم شره ، ولا يعاودكم أذاه ! » .

وانكفأ القـوم محزونين مروعين ، لانهم كانوا يحبـــون كاسيوبيا وابنتها ، حبا هو العبادة . وحاروا كيف يتقدمون للام بهذا النبأ العظيم ؟!

وكان لابد من النفاذ ، لانقاذ الجزيرة وجميع سكانها . .

والآن ، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة مـن التنين ، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه الى هذه الفتاة وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلهـــا برباط قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية ، فتقدم الى والدتها يطلب يد آندروميدا ..

ووافقت الوالدة ، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشـــاب الذى أنقذ حياتها مرتين : مرة من هذا الوحش الضـــارى الذى تركه برسيوس جثة هامدة ، ومرة ثانيـــة من ذلك الشيخ الفانى الهرم الذى تقدم اليها يريدها زوجة له ، وكادت أمها ان تقسر على الموافقة لما للشيخ فى الجزيرة من صولة وجبروت ، لولا المقادير التى تتابعت بعد ذلك

وأقيم مهرجان كبير ، وزينات فاخرة للاحتفـــال بالعروسين ، فمدت الاخونة ، واعدت الاسمطة ، وبدأت الموسيقى الاغريقية تعزف أشجى الحانها ، واخذ الجميع فى قصف حلو وسمر برىء

وانهم لفى كل ذلك اذا بالرجل الهرم الذى تقدم لخطبة أندروميدا من قبل ، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين ، واذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلا : « برسيوس ! لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداء صارخا بانتزاعك أندروميدا من يدى ، وانك ان لم تنزل

عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسرا ، بعد ان تروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك ! .. «فحدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال : « من أنت أيها الرجـــل الذى يجسر على مخاطبتي بهذا الهراء ؟ لقـــد أصبحت أندروميدا زوجتى ، وان كانت من قبل خطيبتك ،أنتمن غير ريب تحلم ... غير أنى أسألك . أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة ان تنزل عنها قربانا للتنين ؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم انقاذها من الافعوان البحرى الذى اذلك واذلهم .. » ومد يده الى الكيس الذى كان به راس مديوسا ، فاخرجه وقال : « ولكن انظر الى هذا قبل أن تقتلنى » . وما كاد الرجل ينظر الى مديوسا ، حتى تصلبت عضلاته ، وتحجـــر جسمه ، وظل مكانه كأنه تمثال ! ودهش أصحابه لجموده، وظنوه قد سمر حيث هو ، فلما لمسوه استطيرت البابهم ولاذوا من الفزع بالفرار

وأخفى برسيوس رأس مديوسا ، واســـتمر القوم فى سمرهم كأن لم يحدث شيء ... اللهم الا هذا التمثـــال المنتصب فى أول الردهة ، والذى كان يهرف منذ لحظة ، فأصبح عبرة الزمان ، وضحكة الايام !

وحان يوم الرحيل ، فخرج أهل الجزيرة يودعـــون الزوجين ، وظلت كاسيوبيا تعـــانق برسيوس مرة ، وأندروميدا مرة أخرى ، والدموع فيما بين هـــذه وتلك ، تنهمر على خديها انهمــــارا ... والناس ينظرون ... ويبكون ..

ثم حمل برسيوس عروسه ، ومرق فى الهواء كالسهم، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون

وكانت الرحلة هذه المرة ، على شـــدتها وطولها ، من اروح الرحلات الى قلب برسيوس . وتستطيع أن تتصور

القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين ، فى ملكوت السماء ، لتدرك أي سعادة شعرية ، وأى هنيهات سحرية ، فازا بها فى لازورد الفضاء

وبلغ مدينة الملك بعد نأى طويل ، وسنين عدة ، فذهب أول ما ذهب الى منزل أمه ، وناهيك بما كان من عناق ، وماتبادلا من تحيات ، وبكت داناى المسكينة ، وهى تهنىء ابنها باندروميدا ، ثم أخذت تقص ، ملء أحزانها ، وفى فيض أشجانها ما انتابها من سوء ، وما لحقها من عسف ، لانها أبت أن تكون خليلة الملك المخاتل الجبار ، الذى صب عليها جام نقمته ، وأذاقها من الهوان ألواناً ! فحزن برسيوس حزنا ممضا ، وهيج حتى خيف عليه ، وذهب من فوره الى قصر الملك بكل عناده ! ودخل الى البهو الملكى بدون استئذان وهو يضمر فى القلب غصة ، وفى النفس لوعة ، وفى الكيس رأس مديوسا !!

وقال الملك حين لمح برسيوس : « أهلا ! برسيوس ! لقد عدت أخيرا ، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود ! لعل شجاعتك التى بالغ الناس فى اطرائها والثناء عليها قد واتتك فى حربك مع الجرجون ؟! »

فأجاب برسيوس ، دون أن يحيى بالتحية الملكية : « أيها الملك ! لم تخاطبنى هكذا ولا تتريث حتى تنظر ان كنت قد عدت اليك برأس مديوسا الرهيب ؟ »

فقهقه الملك ، وملأ التهكم شدقيه ، وقال : « طبعا ، ستدعى أنك قتلت مديوسا ولكن رأسها وقع منك فى البحر ، فالتقمه الحوت ؟ ... يا للشباب المخدوع ؟ ! »

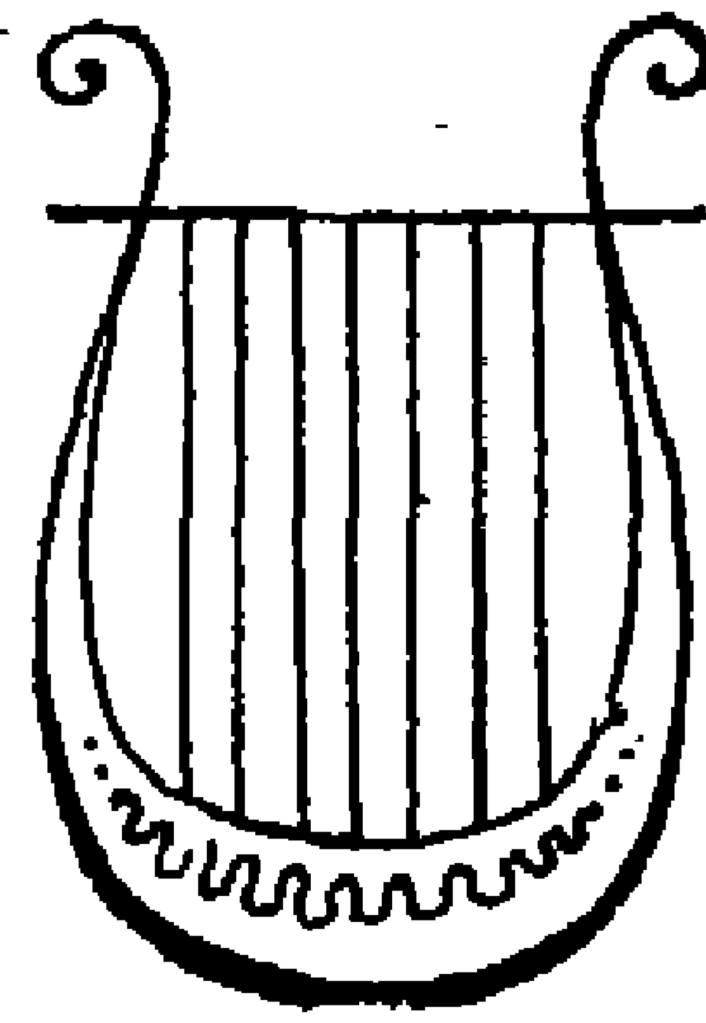
وثارت ثائرة برسيوس ، ولم يجد الى صبر من سبيل ، فحسر عن رأس مديوسا وقال : « أيها الملك ... أنظر ! »

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عينى مديوسا ، ثم تحول فى لمحة الى تمثال من الحجر ما يأتى بحركة ، ولا ينبس ببنت شفة !!

وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت اليهم أخبار الملك ، وما تم له مع برسيوس . لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاتى المستهتر ، ولقد كانوا يودون له الهلاك ، حتى خلصهم برسيوس منه ، فهرعوا اليه ، وهتفوا فى كل مكان بأسمه، وحملوه على الاعناق الى حيث الملك التمثال ... وهناك ، صبوا لعناتهم على الطاغية ، وانصرفوا ، يهنىء بعضهم بعضا ، بعد أن اختار لهم برسيوس ملكا منهم ... فاضلا ، عادلا ... وقد عرضوا عليه الملك فأبى ...لان مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه ، ومن آندروميداكانت آثر لديه من كل ملك عتيد !!

وتوجه الى حيث لقى هرمز ، عند الصخرة المشرفة على البحر ، فوجده ينتظره ، فتعانقا عناقا يفيض محبة ، ويقطر ودا ، ثم رد اليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء ...

أما رأس مديوسا ، فقد أهداه الى مينرفا ، ففرحت به فرحا شديدا ، وهو الى اليوم مركب في وسط ترسها ترهب به أعداءها الالداء ...؟



# أرفيوس الموسيقى

أرفيوس ! لسان الطبيعة ، ونجى الآلهة ، ووحى السماء الى جى (١) وصاحب القيثار ذات الرنين ... والانين !

كان يعزف ، فتشيع الحياة فى الصخر ، ويقف أبوللو العظيم فى مركبته الذهبية (٢) مطلا برأسه من عليين ، يسمع ويطرب ... وكذلك كانت تصنع ديانا ، فطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية(٣) فى أعلى أجواز السماء، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس ، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة ، من مشرق الدنيا الى مغربها

وكانت الوحوش تسكن اليه ، وتجتمع من حوله تنصت وتلتذ ... وتغفو ...

والاشجار ! ان لها لجذورا متغلغلة فى أطباق الارض ، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس ، تنزع اليه ، وتسير وراءه خببا ! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم ، والايك الذاهب ، سعت اليه تلتذ

---

(١) جى هى الارض فى الميثولوجية اليونانية
(٢) مركبة أبوللو الذهبية هى الشمس
(٣) القمر

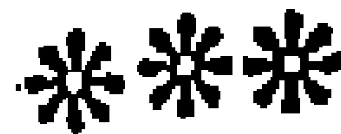
موسيقاه ، ثم هى تنصرف فى المساء فتنغرس فى أصولها ، وقد ازدادت نضارة وازدهارا !

ومع ذلك ، فقد كان ذا غرة مشرقة ، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل • وكان جم الحياء ، لم ينهر مرة أحد رواده ، أو المترددين عليه ، بل كان يلقى الجميع ببشاشة الاخوة ، وهشاشة الود

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر ، وأفتن من وشى الاصيل ، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح

اسمها يوريديس ••• مصدر الهامه ، ومعين عبقريته ، وجمال لحنه ، وأغنية حبه ، وأنشودة هواه • سئل مرة : « ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس ؟ »

فأجاب : « قيثارتى ••• ويوريديس ! »



كانت يوريديس تجمع الازهار البرية فى ربرب من أترابها ، لتصنع منها باقة مفوفة تقدمها لارفيوس ، وكانت كلما راقتها سوسنة ، أو وقعت فى نفسها زنبقة ، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها الى الباقة ، وهى تقول : وأنت أيضا لحبيبى أرفيوس ! ••

وبينما هى كذلك ، اذا أفعى هائلة تنسل من بين الاشجار ، فتلدغ قدمها الصغيرة الجميلة المطمئنة فى الحشيش الاخضر ، فتصرخ المسكينة صرخة مدوية ، ثم تنطرح الى الارض ، وتتناثر الورود والرياحين التى جمعتها حولها ، كأنها تنضد سرير موتها

وتجتمع صديقاتها مذعورات ، فتعولن وتبكين ، وتحملنها الى أرفيوس الذى يستطار من هول الكارثة ، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب ، ويحاول المستحيل لانقاذ أعز الناس عليه ، ولكن •• ولكن هيهات ! لقد ماتت ! واحتلكت الدنيا فى عينى أرفيوس التعس ،

وأجدبت قيثارته من ألحان المرح ، واستروحت الى البكاء والانين . فيا رحمتاه لمن ينصت اليها ويصغى لها ! زفرات حارة تصعدها أوتارها ، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها !

وأرفيوس ، مع ذلك منزو عن العـــالم ، عزوف عن الناس ، مستغرق فى وحدته القاسـية ، يفـكر فى يوريديس

وصمم على ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم . بل لابد من رحلة طويلة الى الدار الآخـرة .. الى هيدز .. حيث اله الموتى بلوتو ، فيضرع اليه أن يرد عليه زوجته التى لا حياة له الا بها

فكرة غريبة ، وتصميم عجيب ، رجل من دار الفـناء ، له جسم ، وفيه نفس تتردد من اخمصيه الى ذؤابة رأسه ، كيف ينفذ الى دار الموتى وعالم الارواح ، ومملكة الظلال والاشباح ؟ !

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال ، وها هو ذا يحمـل قيثارته ، ويبدأ رحلته ، ولا يدرى الى أين ؟

ضرب فى الآفاق على غير هدى ، وذرع الارجاء فى ضلال وحيرة ، حتى رثت له الآلهة ، فرشـدته ، وأنارت له سبيله ، فاهتدى الى ضفاف ستيكس (١) ذى الزبد ، حيث وقف شارون النوتى الجبـار ، الذى يحمل أرواح الموتى فى زورقه ، يعبر بها أنهار الجحيم للقـاء بلوتو العظيم ..

وصاح شارون صيحة راجفـة حينما لمح أرفيوس ،

---

(١) ستيكس هو النهر الكبير الذى يحيط بالدار الاخرة « هيدز » فى الميثولوجيا ، وهو يحيط كذلك بالانهر التى تنحصر بينها جهنم ، وسيجىء ذكرها

وزمجر قائلا : « يا ابن العدم ، يا سليل الفناء ، يا من لم تفض روحه بعد ، ماذا جاء بك الى هنا ، ولا تزال تتعثر فى برد حياتك الرث ، وتتكفأ فى قيد دنياك الوبيلة ، عد من حيث أتيت ، والا فوحق بلوتو المتعال لاسحقن عظامك، ولاقذفن بك الى ستيكس ، فيطويك اليم وتشويك الحمم .. عـد .. عـد .. عـد أقول لك .. وى . وكأنك لا تسمع !!

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب ، ويتناول قيثارته غير وجل ، ثم يعزف لحنا من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون !

شارون ! هذا الفظ ، غليظ القلب ، أقسى حـــراس جهنم ، يذوب رقة ويمتلىء حنانا ورحمة لما رأى وماسمع، فيهرول الى أرفيوس مستميحا معتـــذرا عما بدر منه من سوء اللقاء ، وعبارات البذاء ، ويسأله فى لين ورفق عن حاجته فيجيب : « لا شىء الا لقاء بلوتو ! »

فيسأله شارون : « وكيف ، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم ؟ »

فيجيب أرفيوس : « لا عليك ما دامت هذه — ويشـير الى القيثارة — بيمينى »

فيقول شارون : « ياصاحبى أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم ، وانى مخلص لك أمين ، انك غض الاهاب ، موفور الشباب ، وان جهنم لا تبقى ولا تذر ، وانها أبدا ترمى بشرر كالقصر ، وانى أمحضـــك نصـــحا علمتنى موسيقاك كيف امحضك اياه ، وأستنقذك من عذاب مقيم ... ألا فلتفكر فيما أنت مقدم عليه، فان من دونه مهالك، وان من دونه أنكالا وأهوالا ... »

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة ، كانت ردا صامتا على

ما حذر شارون ، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى أغنياته

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة ، حتى تتحدر الدموع من عينى شارون ، ويتقدم اليه معتذرا ، فيحمله فى الزورق ، ويجوس به عباب ستيكس ، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس الى تغيظ الموج وتلاطمه ، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح ، فيقول : انك ، وأنت من أنت ، من فوقه ، سبب هياجه واصطخابه، ولو خلى بينك وبينه لما أنجاك منه شىء حتى تكون فى أعماقه !! » ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة ، ويتناول قيثارته فيوقع احدى أناته المشجية ، فيهدأ ستيكس الصاخب ، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه ! ..

وتطول الرحلة ، ويعبران ( أشيرون ) نهر العدم ، و ( ليث ) نهر النسيان ، و ( كوكيتوس ) نهر الآلام ، و ( فليجتون ) نهر الحمم واللهب ، ويصلان اخر الامر الى ( هيدز ) — دار الموتى — ومملكة بلوتو ، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعا قيثارة أرفيوس ، بألحانها الرقيقة ، وأنغامها الباكية ..

وتبدأ من هذا الشاطىء الاخير رحلة شاقة فى ظلام دامس وحلك شديد ،فى مسالك ملتوية،وشعاب متداخلة، لا تجدى معها موسيقى أرفيوس فتيلا ، وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس ، كيف حملها شارون فى زورقه ، وكيف عبر بها هذه الفجاج الى المقر الاخير ، وهل كانت تبكى ؟ أم كانت راضية بالقضاء الذى فصلها من أحب القلوب ، وأقصاها عن أعز الناس ؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس ؟ أم كانت فى شغل عن كل شىء بما هى فيه ؟ وهل كل روح من ارواح

الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيــــدز وفيافيها ؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها ؟...

وكان شارون يجيب عن هذه الاسئلة المتتابعة اجـابة مستفيضة حتى وصلا الى بوابة كبيرة الحجم تصـــل الى قصر بلوتو ، ولكن كلبا ضاريا بادى النواجذ بارزالانياب كان رابضا عندها ، فلما لمح أرفيوس ، وهو مـــن غـير الاموات هاج وماج ، وتوثب يريد البطش بهـذا اللاجىء الممنوع .. !

وتنبه أرفيوس ، فحرك أوتار القيثـــارة ، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه ، فثاب الكلب وهـــدأ ، وبعد أن أقعى قليلا ، تقدم الى الضيف الحبيب يلحس قدميـــه ، ويتمسح به ، ويا للموسيقى !

ثم هذا عرش بلوتو ، والى جانبه زوجته ربة الربيع ، برسيفون (١) كسيرة القلب مهيضة الجناح ، تعـــــلو أساريرها عبوسة قاتمة ، وتجثم على قلبها لوعة دائمة . يا لبرسيفون ! ويا لهذا المنفى السحيق !

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخـــلوق الذى استطاع أن ينفذ الى هيدز ، وفيه رمق من حياة !!

وقبل أن ينبس بلوتو ، جثا أرفيوس لدى قاعـــدة العرش ، وطبع على الارض قبلة كلها احترام ووقار ، ثم تناول قيثارته ، وطفق يتغنى قصته المشجية ، يرسلها خلل أنغامه الحزينة ، وملء ألحانه اليتيمة .. حتى أتمها

وكانت الموســــيقى الممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي ، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجـين ،

(١) برسيفون ، أو بروزربين كما يسميها الرومان ، هى ربة الربيع التى اختطفها بلوتو لتؤنسه فى وحشته فى هيدز ، بعد اذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه

وكانت الرنات ، الممتزجة بالانات ، والهديل ليس مثله هديل ، قد أحدث أثره في نفسيهما ، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد برسيفون !

وفي الحق ، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون ، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة ، في هذا الملك البغيض !

وانزعج بلوتو لمجرد وسواس لج في صدره ، لما شاهد من تأثر زوجته ، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب ، حتى لقد خيل اليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث ، ومن موسيقاه الشاجنة ، الى قلبها الغض الصغير !

وقال بلوتو:«انهض أيهاالشاب » فوحق أورينوس (١) لقد كدت تكون من الهالكين ، لولا قصتك الباكية ، وموسيقاك المبللة بالدموع • والآن ، ماذا جاء بك الى هنا ؟ وما الذي تطلب أن ينتهي اليك من احسان بلوتو ؟ »

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة ، ثم قال : « مولاي ! يوريديس يا مولاي ؟ تأمر فتعود أدراجها معي الى الحياة الدنيا ! »

فأجاب بلوتو : « طلبت المحال أيها العبد ، ولكن بلوتو الكريم ، لن يرد رجية بائس مثلك ••• لك ما سألت ، وستعود يوريديس معك ، ولكن على شريطة واحدة ، ألا تراها حتى تخرج من هيدز • انها ستتبعك ، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى ! »

وركع أرفيوس ركعة الشكر ، ثم قال : « سأنفذ مشيئة مولاي »

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس ، وبدأت الرحلة

---

(١) أورينوس هي السماء ، أبو الالهة ، في الميثولوجيا

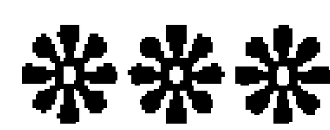
الى الدار الاولى يدلجان ، فى ظلمات بعضها فوق بعض ، والحبيبان يدلجان خببا

وكان قلب أرفيوس يدق ·· ويدق

وانهما ليكادان يبلغان العدوة الاخيرة من نهر ستيكس، حتى يوجس أرفيوس خيفة ، ويظن ـ ويا شر ما يظن ـ أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه ، فينسى شرط بلوتو ، ويلتفت فجأة خلفه ، ليرى أنها ما تنفك تتبعه · ولكن يا للهول ! لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها اليه ، كمن يتلمس طريقه فى الظلام ، وحين تراه يلتفت اليهـا . فيخل بالشرط الذى عاهد ربها عليـــه ، تنثنى من لدنه راجعة أدراجها الى هيدز ··· متمتمة فى صوت ضـعيف خافت : « وداعا يا أرفيوس » ! يا حبيبى أرفيوس ·· وداعا ··· » · فيصرخ المسكين صرخة يكون معها فى هذه الحياة الدنيا ، حياة الشقاء والآلام !

ويظل على شاطىء ستيكس سبعة أيام مفجعا محزونا ·· يحاول عبثا ان يعود الى هيدز ·· ولكن ·· هيهات !

ويدخل الدنيا محطم القلب ، خفق الاحشاء ، موهون القوى ··· لا يطيب له عيش ، ولا يسيغ لذة من لذائذها، ويتخذ مأواه فى شعاب جبل تزمزم الرياح فى جنباته ، وتزمجر الوحوش فى غيرانه ، وتدوى البواشق فى قننه ، ويكون كل أولئك خير صحابه ، ويا ما أعز الرفاق !

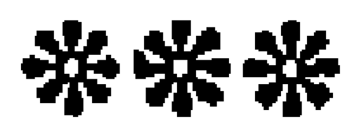


وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف اليه فى أيامه الماضى، فيحتلن عليه ليعزف لهن من الحانه ، ولكنه يعزف عنهن ويشيح ، ثم يفر منهن ، فيقتفين أثره ، فيمعن فى الفرار ، فيتضايقن ، ويصمينه بسهامهن ، ثم يرجمنــه بالحصى المسمومة ، والحجارة الثقال ، حتى يموت !

ويسمعنه اذ هو يجود بروحه يقول : « يوريديس ... يوريديس ! »

فتردد الاصداء نداءه الحـــــزين : « يوريديس .. يوريديس ! »

ولا تزال الأشـــجار والاطيار تهتف الى اليوم هتاف موسيقارها المغبون المحزون : « يوريديس .. يوريديس ! »



وانطلقت روحه البريئـــة تعبر بدورها ستيـكس ، وأشيرون ، وليث وكوكيتوس ، وفليجتون .... فيتلقاه شارون الجبار باسما هاشا محييا ... ويجلسان معا فى الزورق ، يقصان ذكريات الماضى ... القريب ! ويتلقاه الكلب عند البوابة ، فيهرول اليه ، ويتمسح به ، وفاء وذكرى !

ويتلقاه بلوتو كذلك ، فيهنئه بالعود ... اذ كان العود أحمد ! !

أما يوريديس ... !

فلشد ما يكون فرحها بعودة حبيبها !



# مأساة أم

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه فى حدائق السوسن ، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب ، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورد ، وتحملق احداق النرجس تسرى الى كليستو الرقيقة رقة النسيم ، الحلوة كأنها حلم جميل فى اجفان عاشق ، الموسيقية التى يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء ، ويتسع حتى يغمر الكون ، فيثوى بكل أذن ، ويستقر فى كل قلب ، ويخفق مع نبضات المحبين ، وينسكب ذوبا من دموع المدنفين المعذبين !

رآها زيوس فجن بها ! وبالرغم مما اعطى على نفسه من مواثيق لزوجه حيرا الا يصبو الى انثى غير أزواجه اللائى كن الى هذه اللحظة ستاً أو اكثر من ست ، فقد ذهب يقتفى اثر كليستو ، ويرهف سمعه ليملأ بموسيقاها قلبه ..

كانت تمشى بين صفين من اعواد الزنبق ، تنمقهما ورود ورياحين ، وكانت تنثنى وتميس ، فيهتز الروض وينتشى الزهر ، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة ، رددت الازهار والاطيار ما تغنت ، كأن كل شىء فى تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو فى فرقة كليستو الموسيقية

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبهافتساقط عليها من ثمرها الجنى ، ورطبها الشهى ، فتتذوقه كليستو وهى تبتسم

وأسكر النسيم الخمرى عينيها الساجيتين ، فاستسلمت للكرى الطارىء ، والغفوةالعارضة ، وتمددت على البساط السندسى ليحسر الهواء عن ساقيها ولتكون فتنة يضل فى تيهها قلب زيوس ، وتضرب فى بيدائها نفسه ... على غير هدى !! ..

وبدا للاله الاكبر ان يرتد فتى موفور الشباب ريان الاهاب ، ثم يسوق آلهة الاحلام فترقص فى أجفان كليستو ، تبهرج لها من الرؤى ما يشب فى نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب ، ويثير فيها حرارة الحياة

ونام الخبيث الى جانبها ، وطفق يروح على وجهها ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد ، وراح يضغط قليلا ... قليلا ..

ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها فى قلب كليستو ، فلما استيقظت ، ووجدت نفسها فى حضن هذا الشباب اليافع الجميل ، لم تنفر ، بل خجلت خجلة زادتها جمالا ، وضاعفت سحرها ، وفتونها ، وفترت أهدابها فاسترخت ، وفنيت فى حبيبها المفاجىء .. وفنى هو الاخر فيهما

***

وجاءها المخاض !

ووضعت غلاما أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب ، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلها الندى

فلما زارها زيوس وبشرت به ، اهتز الآله الأكبر وشاعت الكبرياء فى اعطافه ، فباركه ، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة ، ثم زف الى كليستو تلك البشرى

التى ظل يخفيها عنها طوال حبه لها ، وذلك حينما أشار الى ابنه بيمينه البيضاء هاتفا :

ـ « بوركت يا أركس ! يا أجمل اطفال الاولمب ! »

وقد اضطربت الام الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت الى حبيبها كأنها تستريب ، وقالت له :

ـ « أجمل أطفال الاولمب ؟ اذن من انت ايها الحبيب ؟ »

ـ « بشراك ياكليستو ! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس ! »

ولم يسع كليستو الا ان تسجد لربها وهى ترتعد من الخوف ، فقال لها :

ـ « انهضى ! انهضى ! ماذا تصنعين يا حبيبة ؟ انهضى فقد رسمت ابننا آركس الها ، فاكفليه حتى يشب ، واياك ان تراكما حيرا فتسحقكما .. »

وقبل الغلام وقبل الام .. وغاب فى الافق ..

***

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة ، فاذا خرجت للصيد فى الغابات القريبة ، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر ، يكفى أحدهما لتشتيت شمال جيش بأكمله .. وكانت تحمل اليه اثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة ، حتى اذا اشتد ساعده ، علمته الرماية والعاب الفروسية ، مستعينةفى ذلك بالسنتور العظيم ، شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه

وذاعت الانبـاء فى دولة الاولمب ، أن ازيوس خليلة يختلف اليها فى الفينة بعد الفينة ، وأنه أولدها طفـلا بارع الحسن ، وسيما قسيما ، يكاد يكون فى مستقبله هرقلا آخر ، يضارع هذا الهرقل الهائل ، ابن ألكمين الذى كان يدوخ أبطال العالم فى ذلك الوقت ..

وقد نادت الأرض بحيرا حين علمت هذه الانباء ، لأنها كانت تغـار من أزواج زيوس ، وتخشى أن تلد احداهن بطلا يكسف شمس ولديها مارس وفلكان . وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشـــدها ، فكم نشـرت فى طريقه شوكا ، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار . أفـلا يحزنها اذن أن يبرز لها خصـــم آخر يفطش حياتها ، ويراوحها بالاشجان والآلام !!

وكانت كليستو تصدح فى أصيل يوم من أيام الربيع ، فتستجيب لها الغابة ، ويردد غنـاءها الطـير ، ويمشى فى أثرها الدوح ، وتهتز الارض والسماء ، وكانت حيرا قد عرفت أوصافها من شيرون ، مدرب فتاها أركس فلما سمعتها تغنى ، ويمشى وراءها العـالم بأسره ، عرفت انها هى !!

وكاد قلب حيرا يصبو الى كليستو ، مسحورا بروعـة الغناء ، مأخوذا بترجيع البلابل .. حتى لكانت تخـال الورد نفسه يغنى معها !! وكادت بذلك تنسى غيظها ، بل كادت تنخرط فى هذا الحشد الموسـيقى الذى يصغى لكليستو ويستجيب لالحانها ! ولكن ! ..

لقد ذكرت ابنيها مارس وفلكان ، وذكرت كيف صرعهما هرقل فى حفل الاولمب ، حتى لكانا ضـحكة كل راء ، فنسيت الغناء وأصمت أذنيهـا ، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية ، ورقى غيبية ، ثم صاحت بالفتاة فسمرت مكانها دهشـة مأخوذة ، فنثرت حيرا فى وجهها الماء وهى تقول : «شاهت دبة ! شاهت دبة ! » .. وا أسفاه ..

لقد أحست كليستو فى ذراعيها العاجيتين بخدر شديد ثم نظرت فرأت شعرا خشنا ينمو بسرعة فيغطى جسمها

البض الجميل كله !

وأحست أظافر طويلة غليظة تنبت فى أطارف أصابعها ، ومخالب مرعبة تبرز من اصابع رجليها المعبودتين !

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول ، ثم يتغير ويتحول حتى ركب فيه أنف كبير أسود ، وفم مقبز فى منتهى القبح ، يسيل على جنباته لعاب شائه كريه!

وخيل لها ان ذنبا ينبت وراءها ، فتحسسته فأيقنت انه ذيل خبيث .. ما فى ذلك ريب !

وفزعت كليستو ، فأرادت ان تصيح تستنصر الغابة ، ولكن .. يا للهول ! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات ، وتعوى كما تعوى الذئاب !!

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر ، ولكنها لم تستطع ان تنهض على قدمين ، بل انطلقت تعدو على اربع كأنها بهيمة من بهائم الارض !

وأصابتها حيرا بظمأ كاد يصهر حلقها ، فذهبت الى غدير ترتوى ، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقلب فى صفحته ، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد ، بل انها قد انسحرت فصارت دبة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود ، وعينين رجراجتين تقدحان الشرر

وانطلقت فى الغابة تعدو وتعدو ، وتتوارى بين الاشجار حتى لا يراها أحد ، وكانت الحيوانات — حتى ضواريها — تفزع منها كلما مرت بها ، وهكذا شاءت المقادير الظالمة الا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة ، التى كانت قبل لحظات ترقص بين يديها .. وتنشد وتغنى !!

وضربت فى القفار والفلوات ، مؤثرة الا تعود الى ابنها الحبيب آركس فتفزعه ، وكانت تختلف الى الغابة ، فاذا

مر بها بعض اصدقائها القدماء عرفتهم ثم تتوارى عنهم ، وفي نفسها هموم وحسرات ..

خمس عشرة سنة ! !

خمس عشرة سنة قضتها كليستو التاعسة في هـــذا الشقاء الطويل ، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر في ابنها وتبكي .. وتفكر في آمالها .. وتبكي ، وتفكر في ذكريات شبابها .. وتبكي ، وتذكر الموسيقى والغناء .. وتبكي !!

واشتعل قلبها شوقا الى أركس ، فجلست الى أيـكة حزينة تتناجى :

« ترى ! ماذا تصنع الان يابني ؟ ألا تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة ؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الاولمب ؟ هل أنت مريض يا أركس ؟ هل في جنبك جرح يتفجر دما لبعد أمك عنك ، كهذا الجرح الذي تنزف منـــه نفسي ، وتنسكب حياتي ؟ وهل اذا أصابك ضر ، فأنت واجد قلبا يحنو عليك ويترفق بك .. ويرعاك ؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق ياترى ؟ أي بني ! . ياولدي !! ياحبة القلب يا أركس !! »

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر ، ويحرق فحمــــة الليل ، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضـــاء لياليها فيه ..

***

أما أركس فكان هو الاخر يبكي أمه ، حتى اســـتطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حـــزنه ، ويطفيء بمواعظه نار أساه ، فنسي ، أو تسلى .. أو تناسى ..

واشتد ساعده ، وثقف الرماية حتى مايطيش له سهم ، ولا تخيب له رمية ، وأحبه شيرون من سويدائه ، ولازمه طويلا ، حتى كانت حرب السنتور فودعه ، وعاش الفتى

وحيدا .. يحيا حياة هى بحياة أمه فى شبابها الاول أشبه، يختلف الى الغابة يصيد منها الثعالب ، والى البرية يرمى فيها الوعول ، ويعود مع الغروب مثقلا بالصيد

وفيما هو يرتاد الغابة فى ضحى يوم شديد القيظ ، اذا أمه المسكينة تلمحه فجأة ، وتعرف فيه ابنها ، وأعز الناس عليها ! .. فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لاتنبس ولا تحير !

فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التى تقف صامتة كالالغاز فى المتاحف ودور الاثار ؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجرا عندما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال!

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها ، لان الصيادين لا يرهبون من ضوارى الغاب شيئا كما يرهبون الدباب ، فحاولت أن تختبىء وراء شجرة أو نحوها ، ولكن .. هيهات !؟ فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك !

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه ، وهو غير متهيىء للرماية ، فارتبك لحظة ، ثم تناول قوسه بيد مرتجفة ، وأصابع مرتعشة .. ولكنه ، ويا للعجب ! أحس ببريق غريب ينبعث من عينى الدبة ، وشعر بحنان وعطف يتحركان فى صميمه من أجلها ، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع ، وضاعف دهشته أن الدبة سمرت مكانها دون ما حراك ، وان دموعا حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين جعلتا ترنوان اليه ، وما تريمان عنه !؟

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها ، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيوانى المخيف .. فصمتت .. وتكلمت

عبراتها ! •• ثم ••

سدد أركس سهمه الى رأس أمه ، وكاد السهم المميت يمرق فيودي بحياة أعز الامهات .. لولا أن زيوس .. الاله الذى طال رقاده ! . كان يسمع فى تلك الاونة ويرى ،ولولا أن تحركت فى قلبه الرحمة هذه المرة ، فلم يبال التدخل فى سحر زوجته ـ حيرا الخبيثة ـ فأطلق لسان كليستو، وصاحت فجأة :

« أركس •• ابنى العزيز •• انا هى •• انا هى أمك •• »

وسقطت القوس من يد أركس .. وكانت مفاجأة مشجية ! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق! وقال لها :

ـ « ماذا تقولين ؟ أدبة تتكلم ؟ أم من ؟ •• من أنت ؟ »

ـ « انا هى يابنى .. أنا كليستو أمك البائسة .. فعلت بى حيرا ماترى .. خمسة عشر عاما يا أركس وانا أتعذب وأبكى من أجلك فى هذه الغابة المتوحشة ! •• »

ولم ينبس أركس ببنت شفة ، بل تقدم مهدما من الهم ، فعانق أمه .. ووقفا لحظة يبكيان !!

ثم تدفق حنان السماء ، وامطرت رحمة الالهة ، وأمر زيوس فحملا الى الاولمب •• أركس وأمه ، ومن ثم أطلقهما رب الارباب فى السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها ، لا نزال نراهما الى اليوم ، ولا نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة اذ نسمى الام « الدب الاكبر » ونسمى الابن، أركس الحبيب « الدب الاصغر » .. ولا تزال حيرا القاسية تنظر اليهما وتتميز من الغيظ (١)

(١) أورد الاستاذ جريس هـ . كيفر فى كتابه الجميل عن اساطير اليونان زيادة فى اخر هذه الاسطورة لم يأت بها غيره ، بل لم يشر اليها احد من مؤرخى الاساطير . والزيادة ـ اذا صدق حدسنا ـ هى من ابتكار الاستاذ ، ولذا لم نر أن نكمل بها قصتنا

# يوم قيامة وطيش فيتون



عاد الفتى الساذج فيتون الى أمه الحسناء الهيفاء كليمين ، بعينين مغرورقتين ، ونفس مكلومة ، وفؤاد خافق متصدع ، فجرى بينهما هذا الحديث :

ـ مالك ياحبيبى ! لماذا تبكى ؟

ـ .. ؟ ..

ـ لا . لا .. فيتون يبكى ؟ هذا عجيب ! أيكون أبوك ابوللو وتبكى ؟ !

ـ أبوللو أبى ؟ كذب ، كذب !

ـ كذب ؟ وكيف يافيتون ! أمك كذابة ؟

ـ لا . لا ، عفوا يا أماه ! انت لا تكذبين ، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بى !

ـ ولم أسخر بك يابنى ؟

ـ الاولاد فى المدرسة يغمزوننى فى أبى ، وكلما حلفت لهم ان أبى ابوللو ضحكوا !

ـ دعهم يضحكوا يافيتون . ماذا يضيرك ؟

ـ يضيرنى أننى لم يعد لى وجه أريق ماءه بينهم ، لابد اذا كان أبوللو أبى أن القاه

ـ تلقى أبوللو ؟

ــ ولم لا ؟ أليس كل الابناء يلقون آباءهم ؟ فلم لا ألقى أبى ؟ أأنا بدع من الناس ؟

ــ لست بدعا ، ولكن أبوللو فى بلاد بعيدة .. انه فى الهند !

ــ ولم لا أذهب الى الهند لارى أبى ؟ صفى لى الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه

ــ اذهب الى الارض التى تشرق من أفقها ذكاء . فهناك ترى أباك

وذهب الى الهند التى تقع فى مشرق الشمس مباشرة ، وكان عند شاطىء المحيط قصر باذخ منيف ، لا يبلغ البصر مداه ، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره .. وكان مع ذلك قائما على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء . وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع ، ويكاد سناه يذهب بالابصار ، اما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم ، وافتن فلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الارض والبحر والسماء بما فيها من قطان ، فأقام فى الارض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانهـا .. حتى آلهتها . وأبرز فى البحر عرائسه المائسات الفاتنات ، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج ، وجالسات على النؤى يمشطن شعورهن الداكنة التى تحـكى خضرة البحر ، وراكبات على ظهـور السمـك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن .. وجعلهن ذوات صور متشابهات وغـير متشابهات ، دليلا على حذقه وجليل قدرته ، وجعـل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجهـا الاثنى عشر ، بحيث جعل منها ستة الى اليمين ، ومثلها الى اليسار .. خلق فلكان ، ومن أحسن من فلكان خلقا (١) ؟!

(١) ليذكر القارىء أن القصة أسطورة

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجبا ، ومع هذه الابهة البالغة والعظمة الاخاذة ، فقد تقدم فيتـــون غير هياب ، ودخل فى غير وجل ، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة ، ثم يسلك سبيله قدما حتى كان فى البهو الاعظم الذى يستوى فى صـــدره أبوه ، على عرش ممرد ناصع ، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة ، تبهر الانظار ، وتخسى الابصار . وسار الفتى مسافة قليلة ، ثم وقف مكانه عشيا من شــــدة الخطف والايماض ، ولم يدر ايان يذهب ، وكان أبوه متشحا بوشاح فضفاض أرجوانى ، وعن يمينه وعن يساره وقفت الايام والشهور والسنون ، ثم الساعات فى صفـــوف منظومة متلاحقة ، ثم وقف الربيع ــ وتمثله هنا امرأة ــ وفوق رأسه اكليل جميل من الغار والزهر ، ومن بعده وقف الصيف ، وقد نضا جيب قميصه عن صدره ، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه ، ثم هم الخريف متهالكا على نفسه ، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب . اما الشتاء ، فقد بدا شيخا وقورا جلل الشيب رأسه ، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع

وقد لمح ابوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه ، وقد خطفت الاضواء بصره ، وأخذه المنظر العجب الذى سحره عن نفسه ، فيهتف به ويباركه ويقول :

ــ فيتون ! فيم قدمت يابنى ! لامر ذى بال ، ليس من ذاك بد ؟

ــ أوه ! يانور السموات والارض يا فوبوس (١) ! يا أبى ان أذنت لى أن أناديك بهذا النداء ! ان كنت حقا ابنـــك فزودنى ببرهان أقدمه للناس حين أقول انى انا ابن ابوللو ــ برهان ؟

(١) أحد أسماء أبوللو

ـ أجل ، هب لى من لدنك برهانا يثبت أبوتك لى ، فلقد استهزأ بى التلاميذ ، ففضحونى فى بنوتى لك لابد من دليل ، هل تسمع ؟ لابد من دليل !

ـ لا عليك يا بنى ! لك ما أردت .. على أنه كان ينبغى أن تصدق كل ماقالت لك أمك ، وانا من جهتى لست أنكرك ، فأنت ابنى وانا والدك ، والان سل ما شئت فانى مانحك ايا ماتريد

ـ صحيح يا أبى ؟

ـ أولا تصدق ما أقول ؟

ـ بلى ، ولكن ليطمئن قلبى !

ـ صحيح يابنى ، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسةالتى يحلف بها الآلهة !

فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة ، ولكنه لا يجد لها اثرا ..

ـ وأين هى تلك البحيرة يا أبتاه !

ـ ولد ظريف يافيتون ! أنا ما رأيتها قط ، ولكنا نحلف بها فى كل أمر جلل يابنى !

ـ اذن هب لى أن أسوق محفة الشمس يوما واحدا بدلا منك

ـ وى ! فيتون ! اى طلب هذا ؟

ـ لابد !

ـ محال ياولدى ! انت حدث ، ثم أنت بشرى من بنى الموتى ! سل ملء الارض ذهبا أمنحك ماتريد ! أما هذا ، فلا !

ـ كلا ، كلا .. لابد ان أسوق محفة الشمس من المشرق الى المغرب ليرانى سفهاء التلاميذ ، وليتأكدوا اننى ابن ابوللو ! !

ـ انها ستحرقك وتحرق التلاميذ اخوانك قبل أن

يروك !

ـ لا .. لن تحرقني ، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء ! .. ألست الها ؟ ..

ـ بلى ، ولكن ..

ـ لكن ماذا ؟ لابد ، لابد ، محال أن أسألك شيئا آخر !

ـ يابني ، ان هذا ليس في طوقك ، انك ضعيف صغير ، والعمل الذى تطلب أن تتولاه شاق حتى على الالهة ، انى أقوم به والرعب يملأ قلبى ، وانا ، من أنا يافيتون .. ان سيد الاولمب نفسه ، الاله الاكبر زيوس ، جل سناؤه ، وتقدست أسماؤه ، لا يستطيع أن يسوق عربتى الملتهبة ذات اللظى يوما او بعض يوم ، فما بالك أنت ؟ ان الثلث الاول من الطريق صعب المرتقى لانه يميل قليلا قليلا عن خط العمود ، وخيلى ترقى مزالفه (١) فى صعوبة ليس بعدها صعوبة ، والثلث الثانى عال شديد العلو ، لانه يرتفع فوق قمة العالم ، حتى لاجزع انا نفسى من ان انظر الى أسفل تقية للدوار ان يأخذ فى رأسى (٢) حين أرى الى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتى ، اما الثلث الاخير ، فحدور شاق كمهاوى الجبل اذا وقفت عليه فوق شعفته (٣) ، ولذا فهو يقتضى الحذر وحصر البصر ، حتى ان تاتيز الواقف فى نهايته ليتلقانى ، يرتعد من الخوف على ، والرثاء لى ، خشية أن أتردى فى هاوية اللانهاية هذه ، ولا تنس السماء التى تجرى فوقى لمستقر لها ، بكل مافيها من كواكب وأجرام ، فاذا غفلت لحظة ، او أخطأت قيادة العربة ، جرفتنى فى دورتها الى حيث لا أعلم أين تذهب او تستقر بى . ثم تدبر معى قليلا يافيتون ، اذا انا سمحت لك بقيادة العربة ، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر الى السفل فترى الارض

(١) المزالف : المراقى (٢) هذه عبارة القاموس (٣) قمته

تلف ، والسباع تهمهم فى الادغال ، والناس يكظون المدن ، والآلهة تطل من قصور الاثير ، والاشباح تسرى حواليك كالسمادير ؟ ماذا من الروع يعتريك يا ولدى ؟ هل تستطيع ان تكبح جماح الخيل او تملك ألا يفلت العنان منك ؟ انك ستمر بين قرنى الثور امام الحوت ، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعى السرطان (١) .. يابنى ! هل تستطيع أن تقود الخيل التى تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدنى الدائبة ؟ اختر لنفسك يابنى ولا تجعل الناس ان يقولوا أهلكه أبوه »

وتشبث فيتون ، وركب رأسه ، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة ، فلم يسع أبوللو الا أن ينطلق به حيث عربة الشمس ! العربة العظيمة المطهمة ، المصنوعة كلها من الذهب الخالص ، وقليل من الفضة المزركشة باللآلىء والجوهر ، وأحجار الماس التى تعكس أشعة الشمس جميعا فتضاعف أضواءها ، وتزيد كثيرا فى لالائها

وتقدمت أورورا ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق ، ونضرت بالورد طريق أبوللو ، ثم أخذت النجوم تثب كالحمائم قبل المغرب ، وفى اثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء ..

وتلفت أبوللو الى الساعات المنتشرة عن جانبيه ، فأمرهن أن يسرجن الخيل ، فأطعن ، وقصدن الى الاسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس، فوضعن فى أفواهها اللجم ، وأسرجنها بكامل عدتها ..

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب الهية ، وضمخه بدهن كريم ، ثم قطر فى عينيه قطرات من ماء أولمب ، كى يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة ، والصبر لضوء

(١) كل هذه أسماء بروج فى السماء

الشمس القوى ، ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية ، وأشار اليه فاستوى على العربة العظمى التى تجر الشمس ، فتنير أقطار السموات والارض ، وقال يوصيه :

ـ « أى بنى ! ها انت قد استويت على عربة أبيك التى ماقادها من قبل أحد غيره ، ولا يقدر عليها أحد سواه ! أى بنى فاشدد اليك أعنة الخيل ، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط ، فهى قد مرنت على الطريق ، وهى لا تبطىء حتى تحتاج الى ان تساط . أى بنى ولا تنحرف عن شمالك أبدا ، وظل منتهجا سبيل الاستواء الذى هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس ، واحذر ان تعلو الى الدائرة العليا أو أن تسفل الى الدائرة السفلى ، وسترى آثار رحلاتى من قبل ، فسر على دربها تصل ان شاء الله . أى بنى ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة ، ولا تهو قريبا من الارض فتجعل كل مافيها هشيما جرزا ، بل خذ الطريق الوسطى أبدا ، فان خير الامور أوسطها .. فاذا أفلتت الازمة من يديك ، فظل حيث أنت ، ولا تذهب مذاهب شتى فى رحب السماء . وسأتولى انا بعد ذلك انارة الارض والسموات . أى بنى وما دمت قد اخترت لنفسك برغمى ، فلا أقل من أن تعى نصيحتى والسلام عليك »

ورذ فيتون على ابيه السلام .. وانطلق من أبواب المشرق ، وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب ، وتسابق أنفاس النسيم التى تهب هى الاخرى رخاء من أبواب المشرق ..

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذى لا عهد لها به ، وعجبت أكثر حين أحست

بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذى ليس له صبرة (١)، تثبت به فى مهب الاعاصير

وجمحت الخيل .. وانطلقت فى غير طريقها المعهود .. ولاول مرة ارتفعت حتى كادت تلامس الدبين الاكبر والاصغر ، فثار ثائرهما من لفح الحر ، ولاول مرة كذلك تحرك الثعبان المتحوى فوق نجم الشـــمال حين أحس الدفء فنفث سمه الزعاف ، وفرت من طريقه الكواكب .. ونظر فيتون تحته ، فرأى الارض تلف كالخذروف فريع قلبه ، وزلزلت نفسه ، وسقطت من يديه أعنـــة الخيل فجرت به فى السفل حتى اقتربت من الارض .. ونظر وراءه .. فرأى انه لم يقطع من الثلث الاول الا أقله ، ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطرق وأوعره ، فزادت حيرته ، وأسقط فى يده ، وترك كل شيء للقضاء والقدر .. وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد .. وحدث ان ارتفعت هذه فجأة ، حتى كانت قاب قوســين من فكى العقرب ، ذلك الهولة المخيف الذى أوشـــك ان يبتلع العربة بمن فيها .. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط فى الآفاق ، وتصطـــدم بالكواكب ، فتحدث الشهب ، وتحرق العوالم السماوية : « ترى ماذا أصاب أبوللو ؟ مسكين ! لابد أنه نام . على كل حال سيستيقظ ! » ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت فى سماء الارض ، وحتى صارت الارض منها على مدى رمية سهم .. فما هى الا لحظات حتى شبت الحرائق فى كل الارجاء .. هاهى ذى الغابات العظيمة تشتعل .. وها هى ذى ألسن النيران ترقص فى كل فج .. وهاهى ذى الوحوش تجرى هنا وهناك ثم تسقط فى كل البقاع ..

(١) الصبرة والصبارة : الحجر الذى يضعه الملاح فى قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق ، ويسميه العوام ( الصابورة )

والمدن ! المدن العامرة الآهلة .. انها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان .. اما الشباب ! فوا أسفاه على الشباب ! انهم يجرون كالجان الى البحار والمحيطات والانهار والينابيع ! وهاهم أولاء يقذفون بأنفسهم فيها . ولكن ! وا أسفاه : ان مياه البحار والمحيطات والانهار والينابيع تغلى وتفور ، ويعب عبابها بالحمم، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار ! لقد بادت أمم ، واختبأت أمم فى الغيران والكهوف وشقوق الارض والجبال .. أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها ، ولم يسلم منها الا مالاذ بأفحوص أو أدحى (١) .. ومسكينات عرائس البحار ! لقد شحبت ألوانهن ، وذوى جمالهن وغصن فى الاعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد ، ولجأت أسراب منهن الى البحار الجنوبية ، وآثرن أن يعاشرن البنجوين ! . اما قمم الجبال العالية التى ظلت منذ الازل الاول مجللة بركام الثلج ، فقد خلعت حللها الناصعة ، وحلت عمائمها المخملية ، وصارت تلتهب .. فهذه طوروس الشماء وتلك القوقاز العاتية ، وهاتيك الألب المزهوة كلها تلتهب .. كلها تقذف بالحمم .. حتى أولمب مثوى الآلهة ، لقد غدا كومة عالية جدا من النار

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها الى رمال وكثبان ، ولولا أن أدخل النيل رأسه فى كثيب مهيل منها لجف ماؤه ، وتبخر فى السماء كله ، ليجرى فى كوكب آخر ! وهكذا فعل الفرات وأخوه ، وكذا صنع الكنج والسند .. فشكرا لكل الانهار التى ضحت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشرى !

---

(١) الافحوص عش فى الارض ، والادحى بيت النعام

ياله يوم قيامة ؟ . لقد ضجت الآلهة فى الأرض ، وكلما حاول نبتيون الجبار اله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى الى أخيه كبير الالهة ، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التى يسوق عربتها فيتون .. ولولا أن جازفت أمنا الارض فبــــرزت من المحيطات وهتفت بزيوس العظيم لاصاب من بقى العذاب الاليم .. لقد قالت له : ( يا جوف العلى ! يارب الارباب ! اصــغ الى ، واستجب لدعائى !؟ ما هذا الذى نامت عيناك عنه فذهب بزرعى وضرعى ؟ أهذا جزاء خصوبتى وما تهب عبادك من حب وأب وعنب وقضب وحدائق غلب ؟ ! أهكذا تكون عاقبة اخلاصى فى مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهياكل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد ؟ ماذا من القرابين يارب الارباب يذبح باسمك بعد أن يهلك كل ما على من قطعان وأسراب ورعال ؟ ثم هذه العوالم التى ما أنشأتها الا بعد عناء وجهد !؟ كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتى عليها جميعا ، وتصير كل شىء فى ملكك الى هيولى ؟ استيقظ يا جوف واستمع ، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التى نحن فيها أشد مانكون فى حاجة اليك »

***

وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الارض ، وأبصر فرأى ماحل بالعالم الجميل من تدمير ووبال .. فألم وتصدع .. ونظر الى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون ابن أبوللو فهــاج وماج ، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها ، ثم أحكم تسديدها الى الراكب المجنون .. وأرســلها تقصف وتعزف .. وتهز الافلاك . فأصماه وأرداه !!

وسقط الغلام الاحيمق من علو العالم يتقلب فى نهر اريدانوس المتدفق فى سهول ايطاليا .. حيث مات ..

واستراحت الدنيا كلها منه ! وعادت الشمس الى ربها .. أبوللو المسكين .. فهو يجرى بها الى اليوم لمستقر لها !

أما كليمين البائسة ، فهى الى اليوم تبكى ولدها .. وقد بكته معها أخواتها ، وكن فى كل صباح يذهبن الى النهر الذى سقط فيه فيسكبن دموعهن ، حتى رثت لهن الالهة ، فسحرتهن الى ايكات ثلاث من شجر الحور ، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم

وكلما سكبن دموعهن حارت الدموع الى كهرمان كريم

وحزن سيكنوس ، صديق فيتون ، على خدن صباه ، فجمع رفاته ، وبنى لها قبرا من الرخام تظله الشجرات كتب عليه : « ما أتعس الانسان اذا احتاج الى برهان على أنه ابن فلان ! »



# بلوتو يخطف برسفونية

## أسطورة الربيع

كانت ديميتير الطيبة (١) ، ربة الخيرات ومغدقة البركات ، الرحيمة البارة ، ملونة الزهر ومنضجة الثمر ، واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها .. كانت ديميتير الطيبة تسكن فى قصر منيف يشرف على سهل انا Enna ، أروع سهول جزيرة صقلية جمالا وأعذبها وأطيبها هواء ، وكانت حين يتنفس الصبح ، تلبس تاجها اليانع الذى ضفرته من سنابل القمح ، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة ، وتقبض بيمينها على صولجانها العتيد ، المرصع بالزبرجد ثم تستوى فى عربتها المطهمة، فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الارض ، وتمر بكل مزرعة ، وتقف عند كل كرمة ، تهب القمح من نفحاتها فيربو من بركاتها ويزكو ، والينع من أنفاسها فيطيب . ثم تعود اذ يجن الليل ، فتهرع اليها ابنتها الصغيرة

(١) برسفونيه اليونانية هى بروزور عند الرومان ، ربة الربيع، وهى بنت ديميتير ربة القمح والخصب ، ويسميها الرومان سيريز Cérés وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة فى عيدها العظيم الذى كانوا يسمونه Cerealia وكانت لوائح مجلس الشيوخ الرومانى تحتفظ بها عادة فى معبد سيريز . وقد اشتقوا من اسمها اللفظة Cereals للحبوب

برسفونيه فرحة متهللة ، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقى أمها ، كأنما تبثهما ما فى قلبها الصغير من لوعة وغليل !

وكانت الفتاة برسفونيه ــ تقضى سحابة النهار ، الى أن تؤوب أمها ،فى سرب من أترابها ، بنات الغاب الحسان فيظللن يقطفن الزهر ، ويجمعن الرياحين ، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة ، وملحمة صاخبة من ملاحم الصبى ، فيتراشقن بالورد ، ويترامين بالزنبق الفض ، ويتضاربن بأفواف السوسن .. وهن فيما بين هذا وذاك يقرقعن بالضحك ويتبادلن النكات ، ويتغنين الاغاريد ، فتستجيب الغابة لهن ، وتترقرق الغدران من تحتهن ، وتهدل الاطيار من فوقهن ، وتمتلىء الدنيا حولهن نشوة وحبورا

وكان بلوتو : اله الموتى ، ورب الدار الآخرة ، قد مل هذا السكون المخيم فى مملكته تحت الارض : هيدز ، وسئم هذه الاشباح التى تطيف به هنا وهناك فى الظلمات المحيطة به ، وأرواح الموتى تئن وتتوجع فى كل مكان من ملكه الموحش الحزين ، فأسرج عربته الضخمة ، والهب جيادها بسياطه القاسية ، فانطلقت تعدو به الى .. الدار الاولى . هذه الحياة الدنيا !

خرج بلوتو يروح عن نفسه ، وينشق هذا النسيم الحلو الذى يغمر ملكوت أخيه زيوس ، ويروى روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب ، اذ أبين جميعا أن يشاركنه ملكه الرحيب ، ورفضن التزوج منه ، برغم ما أغراهن به من اللآلىء واليواقيت

وفيما هو ينهب الارض بعربته ، اذا به يسمع فى غيضة قريبة ، ضحكات مرنة ، وأصواتا موسيقية ، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب فى كف صيرفى حذق ! فساقه الفضول

الى استكشاف أولئك الغيد اللائى يتضاحكن هكذا ، كأنما يترنمن بالشدو ، ويرجعن بالغناء !؟ ففرق العساليج التى كانت تحجبهن ، فرأى البـــدور البيض على الحشيش الاخضر ، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس !

وجن جنون بلوتو ! . وأقسم ليخطفن هذه الفتـــاة الخدلجة المشوقة التى تدل على الجميع كأنها فينوس فى دولة الحب ، أوديانا تخطر بين أماليد !؟

« الام أظل فى هذا الديجور الحالك وحدى ؟ ! وحتام أقاسى منفاى السحيق من غير صديق أو رفيق ؟ ! وما قيمة ملكى الشاسع ، وأنهارى الفائرة بالحمـــم مادمت لا سمير لى ولامؤنس ، الا زبانيتى وكلابى ؟ والاشارون (١) المسخ الكئيب ؟

لقد مللت ؟ ولابد لى من هذه الكاعب الحسناء ، والغادة الهيفاء !؟

ان لها لفما رقيقا ... وانها لتنثنى كالغصن ، وتخطو كالقطاة !

يا للثديين .. !

مالهما بارزتين هكذا ؟ أتطلبان حضنا قويا كحضنى ؟ أم يملؤهما لبن الالهة ، ورحيق السموات ؟!
يا للفخذين الملتفتين المتلئتين ! !

انهما مترعتان باللذة ، فياضـتان بالاغراء والترغيب ! مالهما تنفجان شهوة هكذا ؟ !

وهاتان حماتا (٢) الساقين ! ويلى عليهما وويلى منهما !!

انهما حماتان خبيثتان كأبرع ما تنحت يدا فنان! انهما تمتلئان لذاذة ، وتطلقان رقى السحر فى قلوب الناظرين !

---

(١) شارون حارس بوابة الجحيم ونوتى أنهارها
(٢) حماة الساق أو ربلتها : بطنها

كورتا تكويرا خفيفا من فوق ، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف العضل ، فأفعمهما رغبة واشتهاء !!

وقدماها ! !

ياللعقبين المستديرتين ، والجنة النائمة فيهما !!

والذراعين الناعمتين !

والظهر العاجى الناصع !

والشعر الذهبى يداعبه النسيم كأنه خصلة من ظلال الخلد ! !

ويلى !

أنا لا أرى الا هذه الأعضاء السابية ، وأغفل عن هذه الابتسامة التى ترف حول الفم ! !

انها أجمل من زهرة التفاح فى أوائل فصل مايو ، وأرق من بتلات أزهار اللوز فى شهر ابريل ! !

تلمظ يا فمى ، فانك ظمىء الى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين !

وسمع احدى الفتيات تناديها : « برسفونيه ! أنظرى هاك بنفسجة حلوة ! »

فتحدث الى نفسه :

« برسفونيه !

هذه عروس الربيع اذن ! ابنة ديميتير من أخى زيوس !

لقد كبرت وترعرت ، ونهدت ، وطابت فى جسمها البض ثمرة الحياة ! !

اغفر لى يا أبى ساترن (١) ! سامحينى يارها (٢)

سأخطفها ! سأجلسها بجانبى على عرش هيدز

---

(١) تزاوجت السماء (أورانوس) والارض ( جى ) فأعقبت آلهة كثيرة منها ساترن الذى أعقب بدوره الالهة زيوس رب الاولمب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب النار المقدسة وديمتير وحيرا الخ ومن أشهر أبنائه يوسيدون رب البحار

(٢) رها زوجة ساترن وأخته

ستصبح مليكة دار الموتى ! ستنقشع ظلمات ملكوتى بوجهها المشرق الجميل ..

لن أشعر بشقوة ، ولن أحس خبـاء فى ملكى ! انها ستكون جوهرة التاج وفتنة العرش ، وستجد الارواح تحت قدميها المعبودتين !!

سأترك لها ان تغفر وتثيب ، وسأدع لهـا مقاليد السفل تصنع فيه ما تشاء ! »

***

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات ، ولشدماتفزعن اذ لمحن وجهه الاغبر ، يتدلى عليهشعره الاشعث .والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه كالسمادير (١) !

ولقد كان كلبه سير بيروس ، ذو الرؤوس الثلاثة ، يلقى الرعب فى القلوب !

وفر الحسان مذعورات ... الا برسفونيه ، فقـد قبض بلوتو على ذراعها الرخصة وجذبها اليه فى العربة ، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق ، حتى اعترضه ماء نافورة اخذ عليه سبيله . وسرعان ما فار الماء كالتنـور ، وصار يغلى كالحميم ، حتى خشى بلوتو الجبار أن يعبره ، وأوجس ، ان هو انثنى عن طريق آخر ، أن يضيع الوقت ، وتفلت الفرصـة ، وتروح ديميتير تفتقد ابنتهـا حتى تستنقذها من يديه . فتناول صولجانه الهائل ، وضرب به الارض فرجفت وزلزلت وانشقت عن اخدود كبـير بعيد الغور ...

وكانت برسـفونيه قد افيقت من هلعهـا ، فلما رأت النافورة تغلى وتصـطخب ، أدركت أن احدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شىء ، وانها قد تستطيع أن تؤدى لها خدمة فى ذلك المأزق الحـرج ،فحلت ( برسفـونيه )

---

(١) الظلال التى تتراءى فى عين كليل البصر

زنارها الحريرى الأبيض ، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوما الى أمها عن طريق هذه العروس ، فتعلم أين هى ، وماذا تم من أمرها

وانطلق بلوتو فى ظلام الاخدود حتى وصل منه الى مملكته ... هيدز ! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد !

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل ، وهى لا تزداد الا شماسا ونفورا . . . طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة ، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليث ، وسائر أنهار الجحيم ، ثم خاض بها وادى الأفاعى والعقارب . ومدينة الزنابير واليعاسيب ، والدرك الاسفل من النار حيث المنافقون والكذابون ، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى ولهب . . . ولم يفقه المغفل أنه كان يضاعف فزعها أضعافا مضاعفة كلما مر على منظر جديد من ملكه البغيض ! !

***

وعادت ديميتير فى المساء ، ولكن پرسفونيه لم تهرع للقائها كعادتها ، فحسبتها نائمة . . . بيد أنها لم تجدها فى مخدعها ، فافتقدتها فى جميع الغرفات ، ولكن عبثا حاولت أن تقف لها على أثر ! فاضطربت نفسها بالوساوس ، وخرجت تبحث عنها فى الحديقة ، فلم تجدها كذلك !

ريعت الأم وارتعدت فرائصها ، وانطلقت تعدو وهى تصيح كالمجنونة :

« برسفونيه ! برسفونيه ! أين أنت يا برسفونيه ! »

ولكن لسان الصدى ــ ايخو ــ هو وحده الذى كان يردد نداءها . . .

ووصلت الى ابن أخيها ميفيستون (١) اله النار فأعارها

---

(١) هو فلكان الرومانى

شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم ، ودياجير الليل ، عسى أن تهتدى الى برسفونيه

جاست خلال الغابات ، واخترقت الأودية . وفتشت الشطوط ، ونفذت الى أعماق الكهوف ، وجالت فى مهاوى الجبال ، ورقت الى شعاف الآكام . . . وبحثت عنها فى جميع الآفاق . . . فلم تعثر بها ! !

استعانت بالآلهة ، واستنجدت بعرائس البحار ، ولكن جهودها ضاعت عبثا . . .

وجلست ديميتير كاسفة البال ملتاعة القلب ، تعلو جبينها عبوسة قمطرير ، وتنوء بروحها آلام وأشجان ... وأضربت عن الطعام

وآلت لا ينضر حقل ولا يذر نبات ، ولا تثمر شجرة ، مادامت ابنتها نائية عنها . ! فجفت السهول ، ويبست سوق الحنطة قبل أن تؤتى أكلها ، وخرفت البساتين دون الثمر ،فعجف الناس، وضمرت بهيمة الارض ،ونشر الجوع ألوية الخراب فى العالمين ! !

وانصرف الناس يصلون لزيوس ، ويضرعون الى ديميتير ، ولكن الحزن صرفها عنهم فلم تسمع لصلاتهم ولم تلب نداءهم ...

وفيما كانت تجوب القفار ، وتطوى المهامه البيد ، اذا بها تصل الى النافورة التى ألقت عندها برسفونيه بزنارها . .

وانها لتجلس عند حفافيها تفكر فى أعز البنات ، اذا بعروس الماء أريثوذا، التى لمحت بلوتو يخطف برسفونيه، والتى أهاجت النافورة لتقطع علينه سبيله ، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع ، وتعلم أنها الربة ديميتير أم الفتاة ، فتتحدث اليها قائلة : « ديميتير ! عزيز علينا أن تجزعى هكذا ؟! طيبى نفسا

وقرى عينا ، فان بلوتو رب هيدز هو الذى خطف برسفونيه! وهاك زنارها شاهدى على ذلك ولقد تبعتها الى الدار الآخرة احسب أنى أستطيع ان أؤدى لها يدا أو معونة ولكن الإله القاسى أغرى بى زبانيته ، فانطلقت مذعورة من اللعين الفيوس ..... فعليك أن تخلصى الفتاة فانها لا تذوق طعاما ، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها اصبحت مليكة دار الفناء »

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها ... ساكبة دموعها الغوالى !

وقصدت من فورها الى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء اريثونا وأقسمت لديه ان لم يأمر أخاه برد برسيفونيه ، لتهلكن عباده جوعا ، ولتجعلن وجه الأرض فدفدا يبابا ... لاتسمن بزرع ، ولا تروى بضرع !

فتأثر زيوس من قولها ، وابتسم ابتسامة حزينة ، ثم قال : « لابأس من عودة برسفونيه اذن ... ولكن ! على شريطة الا تكون قد ذاقت طعاما فى هيدز ، مملكة أخى ، فانها ان كانت قد فعلت، لاتصلح للحياة فى الدار الاولى!»

ولسوء الحظ كانت برسفونيه ، بعد امتناعها عن ذوق شىء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر ، قد أكلت فى نفس ذلك اليوم الذى وعد فيه زيوس بعودتها الى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب ! فلما علم زيوس بذلك ، عدل حكمه ، فقضى أن تلبث برسفونيه فى هيدز عند شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة ، أى شهرا بكل حبة مما أكلت !! وتعود الى أمها فتلبث معها ستة أخرى ، فيعود بعودها النماء الى الزروع ، والازدهار الى الحدائق

عاشت برسفونيه ربة الربيع ! ولا طال على الناس مغيبها فى هيدز ... ! عند الشرير بلوتو ... الذى حرم الحياة من أن تكون ربيعا كلها ! !



# مصرع بروكريس

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرة يشب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الادغال ؛ فهامت به ، ووقفت تعبده ، وتروى من جماله ، وتسقى نفسها الصادية أبدا الى كل ريان مفتان .. وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه ، وتصدت له فأعرض عنها ، ثم انطلق فى أثر ظبى فلم يزل به حتى أرداه ، وانحنى يحمله .. ولكنه وجد مكانه أورورا ! . وجدها متجردة تمرغ جمالها تحت قدميه ، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية ، وجعلها ترمقه بعينى أفعى ، تود لو تنفث فى صدره سمها فترديه ..

« أنا أورورا ، ربة الفجر والندى ، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد ، لا أروق هذا الانسى المخلوق من تراب ! وحق أبى لآسرنه ولاسجننه ، ولاجعلنه يتلوى تحت قدمى ، ويبكى من أجل قبلة أمن بها عليه ! »

وأرسلت رقية من رقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه ، والنسيان فى قلبه ، وبات لايملك لنفسه حلا ولا عقدا .. ثم حملته الى كناسها (١) فى شعاف الاولمب ، وحبسته ثمة ، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى ؛

(١) الكناس بالكسر بيت الظبى .

وهب مذعورا ، ثم غرق فى شىء كالحلم ، لما رأى العماد من ذهب ، والطنافس من عجب ، والكأس حفهـا الحبب ، والندامى والطرب ، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف ، فتميل وتختال ، ويتأود كالسيف .. وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج ، وتفوح وتتأرج ، كأنها ربيع بأكمله ، زخرف الدنيا بالزهر ، ووشاها بالروض ، وابتعث فيها المرح والحياة

ـ أين انت اذن ؟ سيفال ! أين انت ؟

ـ أين انا ؟

ـ ألا تعرف ؟ هذه غرفات الاولمب !

ـ الاولمب ؟ !

ـ أجل .. أولمب أربابك

ـ محال ! لن يكون الاولمب هكذا !

ـ ولم ؟

ـ لان الاولمب مأوى الصالحين ! اليس الآلهة اجدر منا بالتقوى ؟ ماهذا ؟ أخمر ورقص وطرب .. وفسق فى الاولمب ؟ لا . . ليس هذا الاولمب . لن يكون الاولمب هكذا !

ـ بل هو الاولمب ياسيفال ! وليس ماترى هنا الا قليلا مما هناك ! هل ترى فينوس ؟ ألم تصل لها ؟ أنظر من هذه الكوة فهى تطل على حديقتها !

ـ وأنا ما شأنى ؟ أريد أن أذهب

ـ تذهب ؟ تذهب الى أين ياسيفال ؟ لن تبرح عاكفا على اللهو الذى ترى ! .

ـ لا ، لن يقوى الاولمب كله على قهرى !

ـ ها . ها . مضحك . انت مضحك ياسيفال ! كل الاولمب ؟

ـ أؤكد لك !

ـ ولمه ؟

ـ لانى أحب زوجتى وأقدسها .. انها جميلة جدا

ـ أجمل من أورورا ؟! أليس كذلك ؟

ـ أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعينى زوج امين مخلص !

ـ أنت عنيد ياسيفال ! انك تزدرينى !

ـ بل أنا أنتصر للفضيلة التى كان ينبغى أن تتنزل علينا من الاولمب ! من جاء بى هنا ؟

ـ أنا ..

ـ ولماذا ؟

ـ أنت تعرف !

ـ لا أعرف شيئا .. والذى أعرفه لا يليق بشرف ربة ! أرجو أن تطلقى سراحى ! ..

ـ اذن أنت تفضل على زوجتك ! أهى أجمل منى ؟ الا تزال تعتقد هذا يا سيفال ؟

ـ انا أفضل زوجتى لانها لم تتلوث .. وما زلت أقول انها أجمل منك لاننى انظر اليها بعينى لا بعينيك !

ـ زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية ؟

ـ أجمل من ربات الاولمب جميعا ، الا من تجملن بمثل روحها ، ولست منهن .

ـ أيها التعس !

ـ ولم أكون تعسا وانا أسعد الناس بزوجتى بروكريس !

ـ بروكريس ! ها ! عرفتها ، احدى وصيفات ديانا ، حقيرة مثلك ، أغرب من وجهى ايها القذر اذهب ! اذهب الى زوجتك بروكريس التى تفضلها على أورورا ، ستتمنى

يوما أنك لم تعرفها ، وانها لم تكن زوجتك ، اذهب ،اذهب»

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب ، ويرتجف مما ألم به ؛ فلقيته زوجته الجميلة الحسان بابتسامة شفت صدره وقبلة ذات حميا أذهبت بعض ما وجـد .. الا انه كان ينتفض آنة بعد آنة ، ويعود فيبتسم ، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر الى زوجتـه ، حتى هجس وسواس في قلب بروكريس فقالت له :

ـ ماذا ياسيفال ؟ أتخفى عني ذات صدرك ؟

ـ كلا ، ولكنها أورورا ...

ـ ماذا .. ؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر ؟

ـ كانت تحاول ان تسحرني عنك .. أو .. تشركني فيك على الأقل ؟ !

ـ ... ؟ ...

ـ ولكنها فشلت .. لقد أذللت كبرياءها

ـ وهل استطعت ؟ انها جميلة وصناع ، ولها في الغزل الصارخ اساليب خارقة ياسيفال ...

ـ لقد قهرتها واساليبها ... ان قطـرة من معين اخلاص ، تطفىء لظى جحيم يا بروكريس !

ـ لا ريب يا حبيبي .. انا امزح فقط ... سيفال ، عندي لك مفاجأة طيبة

ـ مفاجأة ! أية مفاجأة يا بروكريس ؟

ـ تعال ... افتح هذه الغرفة

ـ أوه ! ما هذا .. كلب عظيم ، من أين يا بروكريس ؟ انه سينفعني كثيرا في صيدي

ـ ومفاجأة أخرى أعظم ! انظر فى ركن الغرفة !
ـ هه ! حربة لم أر قط مثل هذه الحربة ! انها ليست من صنع بشر ! آه ! انها من صنع فلكان لاشك .. ! البشر لا يجيدون أن يصنعوا مثل هذه !
ـ أحزر اذن ممن الهديتان ؟
ـ من الملك !
ـ وانى لى ان يهدى الملك الى ؟
ـ ممن اذن ؟
ـ احزر !
ـ لا أدرى !
ـ انهما من ديانا يا سيفال ! أهدتهما الى هذا الصباح !
ـ من ديانا ؟ آه ! لقد ذكرت ذلك أورورا ..
ـ ماذا ذكرت لك أورورا ؟
ـ انك كنت احدى وصيفاتها !
ـ وأى ضير على أو عليك فى هذا ؟ أليست هى احدى تابعات أبوللو ؟ لقد كانت ولا تزال تتمنى أن لو كانت احدى وصيفات ربة القمر !
ـ لا ضير ، لا ضير يا بروكريس
ـ انى أهب لك ما أهدت ديانا الى ! ..
ـ أشكرك !
ـ الكلب لا تسبقه الريح ، والحربة لا تخطىء الغرض

***

وظل سيفال يعود أصـيل كل يوم الى زوجته مثقلا بأنواع الصيد ، وأحب كلبه وحربته حبا لا يعدله الا حبه بروكريس

واشتهر أمر الكلب في الاقليم كله وذاع صيته ، حتى لقد اخطأ بعض أفراد الشعب في حق بعض الآلهة ، فسلط عليهم ثعلبا سلقا (١) لم يستطيعوا مكافحته ، ولم تقو كلابهم له على طراد ، فاجتاح ماشيتهم ، واتى على دجاجهم وعاث في حقولهم ، ونفش في زروعهم ، ولم يدروا كيف يكون خلاصهم منه ، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه، كيما يطلقه في أثر الثعلب فيريحهم من شره .. وانطلق ليلاب ـ وهذا هو اسم الكلب ـ وراء الثعلب ، كما يمرق السهم عن القوس ، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء ، وما انفك يحاوره ويداوره ، وينبح به فيزلزله ، حتى هم ان يفتك به ويمزقه اربا .. ولكن حدث ان كانت الالهة تتطلع من قلال الاولمب ، تتفرج بهذا الطراد ،وتشرح صدورها بمرآه ، فالتفت بعضها الى بعض ، وعز عليها ان يقتل كلب الهي ثعلبا الهيا أمام الملأ من الناس ، فقضوا لتوهم ان ينقلب الاثنان فيكونان تمثالين من المرمر الناصع، فهما كذلك الى اليوم !!

وأسف سيفال على كلبه ، وانقلب على عقبيه غضبان أسفا ... ولم يزل في كل يوم ، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة ، يتوجه اليه ، ويقف قليلا عنده ، حانيا الى ذكراه ، آنا على ماحل به ، ثم ينطلق بعد ، وفي يده رمح ديانا ، فيصيد الظباء بدون ليلاب

وانطلق مرة في اثر ظبي فأنهك قواه ، ونال منه الاعياء ، وانسدح على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة ، ثم راح يتخلج (٢) من شدة التعب ، وكان الوقت ظهرا ، وكان القيظ قد اجج الدنيا حوله ، فتفصد (٣) العرق من

(١) السلق . الذئب واستعمل هنا صفة لتوحش الثعلب
(٢) يشكو من التعب ويضطرب
(٣) جرى وتصبب

جسمه المنهوك ، وتراخت عضلاته ، ووهنت روحه ، وأنشأ يردد كلاما كالأغنية يرسله هكذا :

أين أنت يا نسـمة ؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يـا منعشـة الـروح المتعبـة ، أين انت ؟
هلمى يا نسـمة ، هلمى الى سـيفال ،
فهو مشوق اليك ، يرجو لو تنفسين عنه ،
هلمى يا نسمة ففرجى عن سيفال المضنى ،
وهبى على رأسه الملتهب ، وصدره المكروب ،
لقد كنت يانسـمة ، يا أحلى قبل الحياة
تـداعبين جبينى ، وتنعشـين نفسى ،
فما ذا حال بينك وبينى ، يا نسمة الربيـع ،
وساقية الحب ، ورسـوله بين المحبين ..

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال فى كل فج ، وترقبه فى كل حنية ، وكانت تقف فى صـورة بلبل فوق رأسـه ، مختبئة فى أفنان الدوحة التى نام فى ظلهـا ، فلما سمعته يتغنى غناءه ، ضـحكت واستبشرت ، وانتهزتها فرصة نادرة للايقاع بينه وبين زوجته ، وانطلقت من فورها الى بروكريس ، حيث تكشفت لها فى صورة احدى صويحباتها :

ــ بروكريس !
ــ مرحبا بأعز الحبيبات ، ماذا جاء بك فى هذا القيظ ؟
ــ نبأ أسود ما كنت أوثر أن احضر اليك به !
ــ نبأ أسود ؟ يا للهول ! ماذا ؟
ــ أرجو الا أثير سخطك على ..
ــ كلا ... كلا ... عجلى أرجوك !
ــ سيفـال !
ــ ماله ؟

ـ أتذكرين يوم رويت لى ما كان من أمره مع أوروررا ؟
ـ لم انس ! ولكن مال سيفال ؟
ـ يبدو لى انى لم أكن مصيبة فى تبرئته ! لقد نفيت شكوكك فيما ذهبت اليه من الميل الى ربة الفجر ، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا !
ـ وماذا حدث يربك ؟
ـ انه يحب فتاة اخرى اسمها نسمة ! انه مولع بها اشد الولوع !
ـ لا أصدق !
ـ لا تصدقين ؟ وهل انا كاذبة ؟
ـ وكيف عرفت ؟ هل أوحى اليك ؟
ـ بل سمعته يهتف باسمها ، ويشدو بحبها ، ويتغنى أحر الغناء !
ـ لا أصدق ، لا أصدق ، سيفال لايحب واحدة سواى !
ـ هل لك فى أن تسمعى غناءه بأذنيك ياصديقتى !
ـ واين هو ؟
ـ قريب من الدغل (١) الذى عند النبع . . . سأحضر لك حصانا صافنا وغابت أوروررا ، ولم تتلبث طويلا ، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان ، وركبتاهما وأسرعتا الى الدغل . . . وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة ، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة ، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان ، وكانت ماتنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول : « نسمة ؟ ترى ما نسمة هذه ؟ عروس من عرائس البحر؟ أم غادة من غيد السوق ؟ أم ربة كأوروررا من ربات

(١) الشجر الكثيف الملتف

الأولب ؟ أهي جميلة ؟ أهي أجمل مني ؟ ألها عينان كعيني ؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحي ؟ أهكذا ياسيفال ؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لي أمر اوروورا معك ، فلم تعد الشكوك لتفترسني ؟ يا ترى ؟ ألست تعود الى أصيل هذا اليوم مثقلا بصيدك كسابق دأبك ؟ حنانيك يا آلهة السماء »
وكانت زفراتها لا تخفى على أوروورا ، فكانت هذه تواسيها

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغني ... وأشارت اوروورا الى الزوجة البائسة فاختبأت في الحشائش الطويلة القريبة من سيفال ، بعد ان تركت جوادها بعيدا عن المكان ... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها ، فسمعت زوجها لا يزال يتغنى باسم نسمةويقول :

يانسمة ، الام أهتف بك يا نسمة
يانسمة يا أحب شيء في هذا الحرور
تعالي قبلي خدي ووجنتي وجبيني !
كم أنا مشتاق الى نسمة يا سماء
فابعثيها رخية ندية ، عليلة بليلة
تنعش فؤادي وتثلج برفيفها صدري

وكان ما خافت بروكريس ان يكون ! فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى ، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه ، وها هو ذا يضرع الى السماء ان ترسلها اليه رخية ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد . فماذا بعد هذا ؟ واي برهان وقد سمعت الاذنان : « أذن ، لقد كذب علي في الاولى ، ولن يكذب علي في الثانية .. اذن لقد صبا فؤاده الى أوروورا ، ولا يزال فؤاده يصبو الى الغانيات من كل جنس وفي كل فج . آه للنساء الضعيفات من الرجال الاقوياء ، ويلي عليك يا سيفال ، ويلي عليك وألف ويل !

وعاثت الوساوس في صدرها ، وانقلبت أضواء الظهر

الساطعة ظلاما داجيا فى عينيها الحزينتين ، فأرسلت آهة عميقة قطعت بها على سيفال غناءه ، فهب الفتى مذهـولا مروعا ، وحسب أن وحشا يتربص به فى الحشيش ، فجمع قوته ، وتنـاول حربته ـ حـربة ديانا التى لا تخطىء ـ وأطلقها الى المكان الذى صدرت منه الهمهمـة ، وذهبت الحربة لتستقر فى صدر بروكريس ! •• وا أسفاه !

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد ، فماذا رأى

ـ بروكريس ؟ يا للهول ؟ أهو أنت ؟

ـ ... ؟ ...

وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتى ؟

ـ لا •• شىء •• فقط •• لا تتزوج •• نسمة • من بعدى .!

ـ نســـمة ؟ أوه ! انها ..لا شىء .. لقد كان الجو متأججا من الحر ياحبيبتى ... وكنت أتمنى ان تهب على نسمة من الريح تروح على !

ـ أحق ... هذا ؟ ...

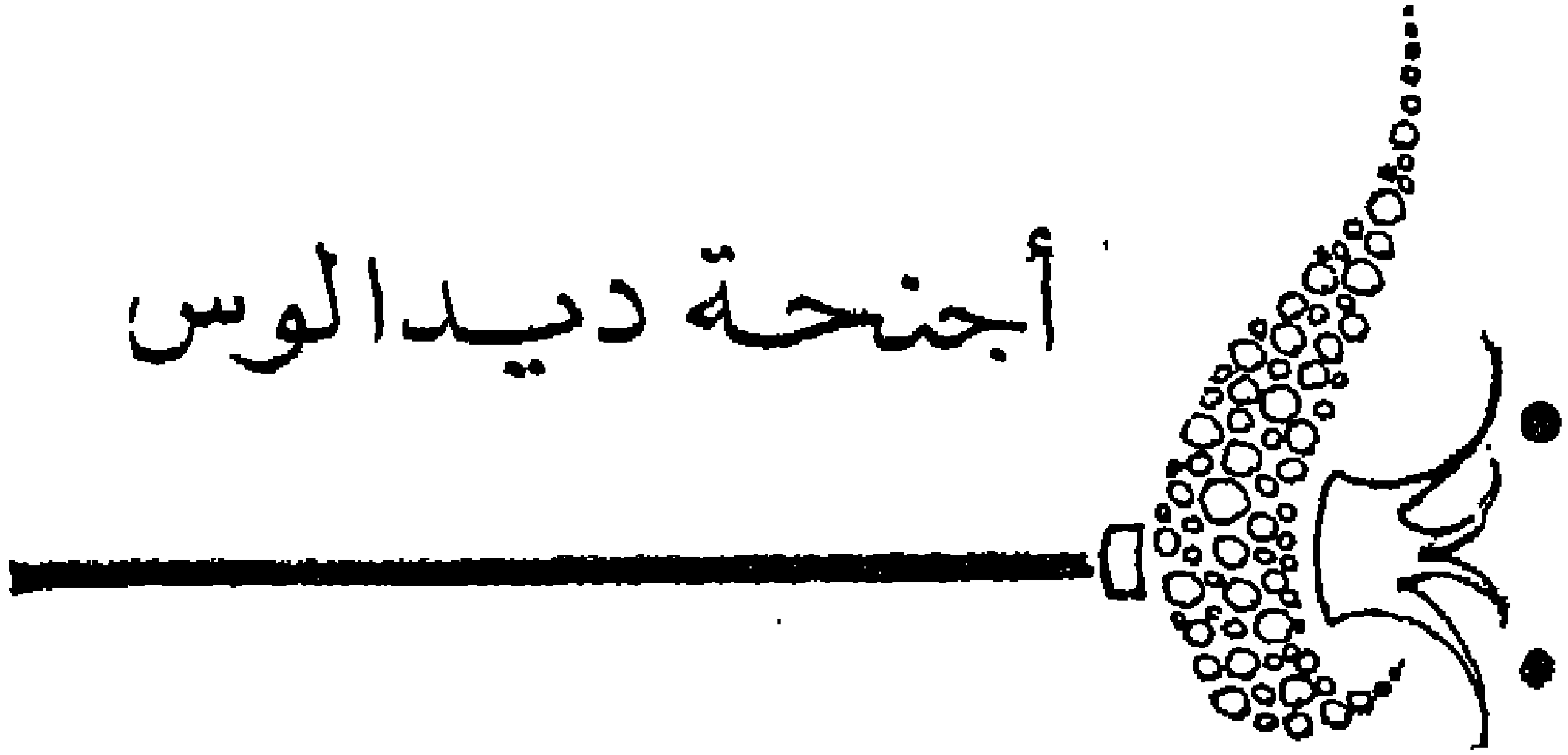
ـ هذا هو الحق وحبك يا بروكريس !

ـ اذن .. سلام ... عليك !

ـ بروكريس ! بروكريس ! لا • لا تغمضى عينيك دونى؟ افتحيهما لسيفال !

ولكنها ماتت ، وماتت بيد زوجها وحبيبها الامين الوفى!

وأرسل الفتى أنينه فى الآفاق ، ورفع وجهه ليقلبه فى السماء بالشـكوى ، ولـكنه رأى أورورا واقفة تبتسم وتضحك ... فجن جنونه ، وانطلق هائما على وجهه ، لا يلوى على شىء ، ولا ترقأ له دموع ... حتى مات !!



# أجنحة ديدالوس

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين ، من هو أمهر من ديدالوس العظيم في نحت الدمى وصناعة التماثيل وهندسة المباني الضخمة . ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية ، وخاصة بين كريت وقبرص وأثينا ، لكثرة الدعوات التى كانت تصله من ملوكها ، ليقوم على بناياتهم ، وليتعهد تماثيلهم ، وليشرف بنفسه على هياكلهم ، ليقال في مواضع الفخر ، ان هذا التمثال ، أو تلك الدمية ، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس

واستفاضت شهرته ، وذاع صيته ، وملأ الخافقين اسمه ، ولا سيما اذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك كريت ، واللابيرنث عمل من أجل الاعمال الهندسية القديمة ، ان لم يكن أجلها جميعا . ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرب يسمى (المينوطور) نصفه الاسفل نصف عجل جسد ، ونصفه الاعلى نصف رجل له أنياب الاسد ، وغدرة الذئب وقوة التنين العظيم ..

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه ، ولو كان من

(*) أول محاولة للطيران عرفها التاريخ .

خاصة الملك • فلما استطار شره ، وعظمت بليته ، دعا مينوس الملك ، ديدالوس المهندس ، ليشيد هذا البناء الرائع • ذا المنعرجات والحنيات ، والشعاب المتداخلة ، التى لا يستطيع أحد أن يفلت منها ، اذا انفتل فيها . وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات ، وفى وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض

ولندع الآن ذاك المينوطور الرهيب جاثما فى اللابيرنث ، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية ، وما أوتى من حذق ونبوغ ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التى كساها الهامه ظلالا كظلال السحر ، وموهها بأمواه القداسة والخلود ، حتى كبر الفتى بردكس ، ابن أخى ديدالوس ، وكان شابا ممتلىء الجسم ، مفتول العضل ، قوى الملاحظة ، دقيق الفهم ، سريع التصور ، ما كاد يتتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة ، ولاءم بين روحها جميعا ، فكان يبرز تحفه فى مظهر دقيق وطراز أنيق ، ثم هو يضفى عليها من شبابه الغض ، وروحه العطرية الشاعرة ، ظلال الحب ، وسمات الفتنة ، ويحرك فيها عواطف الآلهة !

ولهج الاثينيون باسم هذا الفنان الشاب ، وتناسوا عمه الذى هو أستاذه وملهمه • وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعا ، وساءه أن تكسف شمسه الوضاءة المتلألئة ، نجمه الذى لبث زمانا يسلسل نور الفن فى أرجاء هيلاس

وما فتىء العم يحنق ويحنق ، وما فتىء بردكس يسمو بفنه الى الذروة ، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان ، ونفثت فيه سمها ، فلم يعد يطيق هذا الخصم

الذى صنعه لنفسه بيديه ، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه هملا بجانب الفتى العبقرى ، فأقسم ليزيحنه عن طريقه ، ولو بتجريعه كأس المنون

وزين له أن يحتال عليه ، فيذهب واياه الى شعاب جبل شاهق ، ذى مهاو تنتهى الى اللج الجياش فى اليم ، حتى اذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب ، نهز منه غرة ودفع به الى الأعماق ، حيث ينشق له قبر من الموت ... والنسيان !

وأنفذها ديدالوس المسكين !

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر ، وتستعد للمعجزة !

وكيف ؟!

لقد استجمع الشيخ كل قوته ، ووضع فى يديه كل منته ، ودفع بابن أخيه من فوق القنة ، فتردى الفتى على حدور الجبل ، حتى اذا كان من الموت قاب قوسين ، هبطت منيرفا (١) سيدة الاولمب ، وصاحبة أثينا ، من عليائها ، فأنقذت بردكس من قتلة محققة ، ثم نفثت فى أذنه نفثتين ، كان بهما فرخا حزينا من أفراخ القطا ، راح يرف فى السماء مدوما فوق عمه ، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب !!

وانقلب ديدانوس الى بيته أسوان أسفا ، ووقر فى نفسه أن الآلهة التى سحرت بردكس لتنقذه من تدبيره السيء ، لا بد أنهــا تترصده ، ولا بد انها ستأخذه بأوزاره فى القريب ، غير متجنية ولا ظالمة ..

ثم مضت سنون ، وولد لديدانوس طفل جميل ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من البروع الذى كان

---

(١) منيرفا هى باللا أثينا ، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الارض بركة وكان بردكس يصنع لها تماثيل رائعة ، وهى هنا تنقذه لترد له قليلا من جميله

الصورة ، طلق المحيا ، مشرق الغرة ، سماه أيكاروس !

ينتاب أباه ، أو يذهب بسورة الهم التى كانت تجثم على قلبه ، وتثقل على نفسه كلما تصور الهامة الفزعة التى يضطرب بها نومه ، فتقض مضجعه وتزلزل كيانه

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه ، كأنهـا روح ميت تـــــرنق على خصمها تكاد تصعقه • وازداد الشيخ خيالا حينما ألحف عليه الاثينيون يسألونه عن بردكس أين قضى وأيان ولى ! وأخذ الغوغاء يلغطون ، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفنان ، ودأبوا على عمه يسألونه عنه ، وهو يضللهم ويخترع لهم ، حتى أوجس أن ينكشف سره ، فينكل الناس به . فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة ، الى صديقه مينوس ملك كريت ، مصطحبا معه ابنه الطفل ايكاروس

وتطامن الدهر ، وشب ايكاروس وترعرع ، وأخـذ من والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل ، وحســـب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه ، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت ، وأن الايام قد ابتلعت اثمه الكبير فى تضاعيفها القائمة المظلمة ، فاستيقظ الغرور فى قلب الفنان الشيخ ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجىء طريد مثله ، بل بطر واستكبر ، وكفر بأنعم مولاه ، ومد له هواه فولغ فى اناء الملك ، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطا شائنا أدى الى كثير من القيل والقال

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه ، واعتقاله فى احدى غرف القصر حتى يقضى فى شأنه ، فألقى به فى حجرة منفردة فى طرف القصر ، مشرفة على الماء ، متصلة بالسماء

وطالت عزلة الفنان الشيخ فى معتقله هذا ، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذى يكاد يحبس أنفاس روحه ،

ويحسر مرامى مقلتيه ، ويشيع الهم فى حنايا ضلوعه ، فقال لوالده وهو يحاوره : « اهكذا قضى علينا ان نموت هنا صبرا يا أبتاه ! » وكانت كلمات ايكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى فى آذان الشيخ ، وكان الغلام يجذب اللفظة المفردة من فم أبيه ، فما يكاد يفوز الا بلا ... أو بنعم ...

وكانت للغرفة التى اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الابيض المتوسط ، وكان منظر السفائن الماخرة فى البحر كالاعلام ، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح فى لج من زرقة السماء ، يثير فى نفس الفتى أحلاما وأخيلة وأمنيات . وانه لفى أصيل جميل يناجى الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة اذ به يذهب الى والده مستبشرا متهللا ، ويقول : « أبى ! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير . فنفلت بها من هذا المكان الرهيب ؟ »

وكان الشيخ جالسا فى زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه ، ويتغنى آلامه ، فلما سمع ما خاطبه ابنه به ، افتر فمه العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة ، وشاعت فى أساريره بوارق أمل جديد !

وقال لابنه : «أجنحة ؟ وأنى لنا بالريش ياايكاروس ؟»

فقال الولد : « لا عليك يا أبى ، أن غرفة الدجاج قريبة من هنا ! »

وعبس الفنان الشيخ ، وقال : « والحارس الفظ ؟.. » فتضاحك ايكاروس قائلا : « الحارس !؟ أمره أهون مما ترى ... سنرشوه يا أبتاه ، فيحضر لنا ما نشاء من الريش ، وسنخدعه اننا صانعان له لباسا لا تحلم الملوك بمثله ! »

ولكن العبوسة التى رفت على جبين الشيخ أنشبت

فيه جميع مخالبها ، وقال : « دعنى أفكر يا بنى ، دعنى أفكر يا ايكاروس ... »

وهكذا كانت العبقرية البكر ، الكامنة فى هذا الفتى الصغير ، لقاحا بعيد الاثر فى عبقرية الشيخ الفانى المتهدم ، وهكذا بدأ الفنان الاكبر ، بانى اللابيرنث ، ومشيد هياكل الآلهة ، يفكر فى هذا المقترح الشارد الذى اقترحه عليه الفنان الصغير !

« أجنحـــة .. دجاج .. ريش .. الحــارس الفظ .. مينوس .. بردكس .. فرخ القطا .. الطـــير .. ايكاروس ابنى .. ! » وهكذا انبطح الشيخ على حصيرة تتداعى هذه الخلجات فى رأسه الساخن المتأجج تذكى فيه الذكريات والمآسى !

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقـــادير هائلة من ريش البط والاوز والديكة ، وفكر الشيخ كيف يثبت الريش فى مكانه من عضد الجناح ، فأدخر الشموع التى كانت تترك له يضيئها فى الليل ، ليتضاعف بهيبها الخافت حزنه ، حتى اذا كان لديه قدر كبير منها ، عمد اليها فصهرها ، وثبت بها ما شاء من الريش ، وبذلك صنع زوجين من الاجنحة الكبيرة ، يكفى أحدهما لحمل فيل !

وجلس يمحض ابنه النصح ويقول :

« أى بنى ! أى ايكاروس العزيز ! سنطير من هنـــا يا ولدى ! الى أين ؟ لست أدرى ! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال ! وهأنذا قد صنعت الاجنحة التى تخيلها أملك الصغير هـــــــو اكبر من جميع امالى ! ولقد رأيت الى كيف كنت أذيب الشمع قريبا من النار يا ولدى ، فأوصيك اذا طرنا الا تترك سمتى ، وأن تكون دائما قريبا منى ، فانى أخشى اذا علوت علوا شاهقا أن

تصهر الشمس شمع جناحيك ، فتهوى فى البحر ، وتتردى فى أعماق الموت ! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق ، فكذلك لا أرى لك ان تدنو من الماء فانه ان وصل الى الشمع أيبسه ، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران ، اذ يساقط قطعة فقطعة ، ويتناثر الريش ، وتسقط ، اما فى البحر فتغرق ، واما فى الارض فيندق عنقك . فلا تنس يا بنى أن تتبعنى أبدا ، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس ، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه . الى يا ولدى أثبت لك جناحيك ، ولنمض على بركة ز .. ز ... زيوس ! ! »

وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الاله الاكبر ، لانه يثق أنه لا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء ، وهو محيط بعباده ، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين !

وانطلقا من الشرفة ، وألقيا على القصر ، وما أحاط به من حرس وعسس ، نظرات كلها نقمة وتغيظ ..

ومرا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة ، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى كلما رأوا هذين الطائرين الكبيرين ، ذوى الهيئة الآدمية ، خروا للاذقان سجدا ، يحسبون أنهما الهان من آلهة السماء ، هبطا يباركان الناس والخلق ، فيهللون ويكبرون ! !

فهذا شيخ يطلب اليهما أن يباركا فى عقبه ويمدا فى أجله ، وهذه شمطاء تدعو أن يردا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب ، وتيك رؤوم تناجى ابنها فى قبره ، فتطلب اليهما ان ينفضاه من الثرى ، وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والمتربة ...

وشاع الزهو فى أعطاف ايكاروس ، فكان يرتفع قليلا ، أو يهبط قليلا عن سمت أبيه ، ثم تشجع وتشجع ،

وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافى ، فجازف وارتفع ارتفاعا شاهقا ، ونسى وصية أبيه ، فعلا وذهب فى السماء صعدا ، وكان يغريه أن يصغر العالم الارضى فى عينيه ، فيعلو ويعلو

وأسفاه ! ! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس ! فلقد صهرت الشمس شمع الجناحين ، وهوى ايكاروس الى الاعماق ! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت فى اذن ابيه ، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص فى اليم ، ويبتلعه مرة ويلفظه أخرى !

فأسرع الوالد المسكين الى البحر ، وانتشل ولده من الماء جثة هامدة ، وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه ، فعالج الموج معالجة شديدة وسبح بفلذة كبده الى جزيرة قريبة ، بلغها بعد جهد وعناء !

وجلس يبكى ولده .. وبرزت عرائس الماء من اليم تواسينه !

ثم شق له قبرا صغيرا فى رمل الشاطىء ، وما كاد يسره فيه ، حتى رأى قطاة حزينة تدوم فى السماء ، ثم تهبط قليلا قليلا ، حتى تكون بمقربة من القبر ، فتقف كاسفة مشجونة وتنظر الى الجثة والدموع تنهمل من عينيها . عبرة ، فعبرة ...

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده فى التراب ! وينتبه ! فيرى القطاة ! فينشج نشيجا مؤلما : « بردكس !! أتيت تبكى ايكاروس ! ! سامحنى يا بردكس ! »

فتزقو القطاة كأنها تنتحب ! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه ، فتذرف عبرتين غاليتين ، وترف فى الهواء حتى تغيب عن عينى ديدالوس !



# بـــومونـــا

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال فى اهابهـا الوردى ، وتلتمع فى فمها الرقيق الخمرى ثنايا من اللؤلؤ الرطب ، وتبتسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل فى قلوب العاشـقين ، تلسـعهم ، وتسـقيهم رحيقا !

هى بدع من عرائس الغاب ، فهى لا تغشى الانهـار تتلاعب فى طيات أمواجها ، وهى لا تحب البحر لا هادئا ولا متمـردا ، وهى تكـره الغـابة لانهـا تعج بالافاعى والوحوش ، ومنظر هذه حين يساور أحدهما الآخر يبعث فى نفسها اشمئزازا ، ويثير فيها غضبا على الطبيعـة الظالمة التى جعلت الضعيف فريسة للقوى يذله ويقتله .. ثم يأكله

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة ، الا من نشـاط الحيـاة يسرى فيها فتهتز وتربو ، ثم تكـتسى بالسندس ، وتنضر بالزهر ، وتطن بموسيقى اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق ... وقد غرست حديقتها على عدوة النهر ، وسوجتها بسياج من شوك ، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين

... وكانت فى جنينتها أكثر وقتها ، ولو استطاعت لم تبرحها قط ، لان الزنبق الغض ، والنسرين الجميل ، وأكمام الورد ، وهالات البنفسج ، ونضرة الشقائق ، وأرج التفاح ، وعبق الرياحين ، وشذى أزهار الخوخ العقيقية ، وابتسامات الاقاح ، ولآلىء الندى المبعثرة فوق العشب ... كل هذا كان أحب الى قلبها الخلى ، ونفسها العزوف ، من هؤلاء الناس ، والآلهة ، وأنصاف الآلهة ، الذين كانوا يتنظرون أوبتها فى المساء الى دارها ، فيقفون فى طريقها ، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة ، يعود بعدها الى منزله مصدع القلب ، حائر الروح ، خفق الاحشاء ، موهون القوى !

وكأين من قائل لآخر :

ـ أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح ؟

ـ الحسان المفتان ! أجل والله ... رأيتها ، وأورثتنى ألف حسرة يا صديقى !

ـ أو مشغوف أنت بها حبا ؟

ومنذا الذى لم تشغفه بومونا حبا ، وقد تبلت قلوب الآلهة ؟

ـ انى أغار من كلماتك أيها الصديق ... فأقصر !

ـ وأنا أغار من غيرتك ، فاذهب لطيتك ! !

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذى ينقدح من أغوار قلبه ... عن طريق عينيه ... ثم يأخذ كل فى سبيله . وهكذا تعادى الناس فى بومونا ، وهكذا تنافس الجميع فى حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنونا ، ولقيها مارس وفتن بها فتونا ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع ، لا يتفتح قلبها لحب ، ولا يرق لشكاة المغرم الصب ، وكل ما كان يصيبها ويشغل بالها ،

هو هذا الفردوس ، الحبيب ، الذى لا يضايقها بكلمات الغزل ، ولا يضجرها بالانظار الجائعة ، بل يحييها دائما بالابتسامات البريئة ، وبالروح والشذى

غير أن واحدا من عشاق بومونا كان لا يعدل حبه لها حب ، ولا يسمو الى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوى الطريق قبيل الشروق الى حديقتها ، فوجد نفسه منجذبا اليها ، مجنونا بها ، فتبعها ، وجعل يقلب عينيه فى مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفيها ، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين ، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق ، كأنهما ختم الطبيعة فى صك البكور ، أو زهرتان من اللوتس ، ترشفان سلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران ، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان فى غبشة الصبح ، فتضرمان فى قلب فرتمنوس نيران الحب ، وتزلزلانه زلزالا عظيما

وعرف الفتى ميعادها ، فكان يصحو مع الفجر ، ويهرع الى الطريق ، ويلبث يعد الدقائق والثوانى كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد .. حتى اذا أقبلت ، شعر بقلبه يخفق ، واعصابه تذوب ، وأحس كأنه خف على الأرض ، وغدا طيفا يوشك أن يسرى مع نسيم الصباح الذى تنشقه بومونا .. له الله ! لكم منى نفسه بقبلة يطبعها على هذا الفم الشتيت تذهب حر قلبه وتشفى صدى روحه الظامئة المتعطشة ، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه ، ولا لب له ، ولا قلب معه ، ولامداوى لجراحات فؤاده الا دموعه يسكبها عبرة فى اثر عبرة ، والا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحا !

***

وذوى فرتمنوس وذبل شبابه ، وشفه الهم ، واضوى جسمه الفكر ، واستسلم لبكاء طويل يتعلل به ، وغناء

يشبه العويل ، يرسله فى نبرات تشبه الأنين ، يضمنه بثه ، وينظمه شكواه ، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب ، ويودعه النطف الأخيرة من روحه الحيرانة ، ويذهب به فى الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش ، وتسكر بموجع أنغامه الهوام ، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكى كل هؤلاء له ... ويعود من حيث اتى !

ولقيته مرة فينوس فرقت له ، ورثت لحاله ، وراعها أن يلقى محب كل هذا العذاب ، فى هوى عروس غاب ، فجلست اليه تسامره وترفه عنه

ـ أهكذا يقتل الناس الحب يا فرتمنوس ؟

ـ أى وحقك يا ربة ! لقد نال منى هواها ، ولم أعد أفكر فى احد سواها !

ـ مسكين ! وهل كلمتها قط ؟

ـ مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها ، ولكنها أشاحت وأعرضت عنى

ـ وفيم تطمع اذن ؟

ـ أطمع فى رضائها ، وأطمع بعد ذلك فى العيش فى ظل حبها ..

ـ واذا لم ترض ؟

ـ سأعيش لحبها وآلامى ! ولكن ؟

ـ ولكن ماذا يافرتمنوس ؟

ـ ألا تساعديننى ياربة الجمال ؟ الا تتفضلين فترققى قلبها على ؟

ـ عندى فكرة !

ـ أضرع اليك ياربة !

ـ سأمنحك قدرة التشكل ، فتستطيع ان تبدو فى أى صورة شئت

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغـدير قطرات ، ثم نفثت فيهن ، وتمتمت بكلمات سـحرية ، ونظرت الى الفتى فى ظرف ودل ، ونثرت الماء فى وجهه .

ـ والان فكر فى اى صورة تنقلب اليها

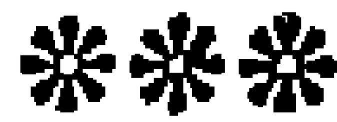
واخذ فرتمنوس يتقلب فى صور شتى ... وكلما حاول ان يرتد الى صورته الأولى لم يستطع ، فتضـاحكت فينوس وقالت له :

... فكر أيضا فى صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان ما عاد اليها ... ثم ودعته ربة الجمـال والحب وهى تقول له :

ـ تستطيع الآن أن تلقى بومونا ، وسأرى ما يسوقك اليه ذكاؤك !

ورفت فينوس فكانت فى سماء الأولمب !



واستطاع فرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته فى أى لحظة شاء ، وكان يدخلها فى صورة بلبل غرد ، فلا يزال يغنى ويهتف حتى يلفت اليهأنظار بومونا وأسماعها ، وكان يتبعها أينما ذهبت ، فيقف على أقرب شجرة ، ثم يرسل أغانى الحب وأغاريد الغرام ، فتنسكب فى أذنى عـروس الغاب ، فتقف لتسمع لحظة ، ثم تأخذ فى عملها كأنهـا لم تسمع شيئا ... فيتضايق الفتى ، ويطير أسـوان اسفا ...

واستمر على هذه الحال أشهرا ، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياما ، ويفنى قلبها حبا ، حتى خيف عليـه من المرض ، وأحس هو أن ريب المنون يسرى فى عظـامه ، وبرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه ، ثم بدا له آخر الامر أن يزور حبيبته فى صورة اخرى تختـلف عن تلك الصورة البلبلية التى اعتاد أن تراه فيها ، ثم عول هـذه

المرة - اذا لم يفز بحبيبته بومونا - على أن ينتحر تحت قدميها في صورة البلبل الحزين !

رأى أن يزورها في صورة عجوز شمطاء ! ولم لا ؟ أليس عجائز النساء أقدر على ايلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن ؟ أليس لهن حديث طلى يتصل من حيث ينقطع ، ويتشفق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة ، وبأسلوب ظريف يشبه ( تنميل ) الخمر في أطراف السكارى ؟!

وقف فرتمنوس في ظل أيكة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة بومونا ، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب ، سمحة الملامح ، وراح يتخيل شعرها الاشمط (١) وذوائبها الخلس (٢) وغدائرها الزعر (٣) ، ويديها عاريتي الاشاجع (٤) ، وعينيها الغائرتين ،وجبينها المجعد ، ووجهها المعروق (٥) ... فكان له كل ذلك ، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر ، في سكينة ودعة وحسن سمت ... وأضفى عليه حبرة سوداء فضفاضة ، وجعل في قدميه خفين هرمين ، وفي يده عكازا مقوسا أشبه بصولجان الموت !

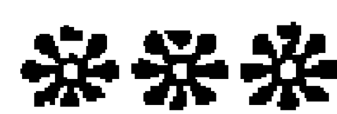
ثم جعل يدب في هيئته تلك ، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه ، وكانت بومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها ، أسرعت اليها وحيتها أحسن تحية والطفها ، ثم فتحت لها وأدخلتها ، وكانت الخبيثة - أو كان الخبيث - تبالغ في اظهار الضعف وتعمل الاعياء ، فكانت بومونا

(١) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه
(٢) بمعنى أشمط واحدتها خلساء وخليس
(٣) جمع زعراء أي قليلة الشعر جدا
(٤) بدت عروقها
(٥) قليل اللحم

تسندها من هنا ، وتشد ازارها من هناك .. حتى وصلتا آخر الامر الى ظلة وارفة ذات أفياء ، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج ، يغازل العيون والأحشاء ، وأشارت العجوز كى تجلس على احدى الأرائك التى صفت عليها الوسائد والحسبانات (١) ففعلت ، ولكن .. ؟ بعد أن أخذت بفودى بومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الامانى والاحلام !!

لقد شدهت بومونا من أسر هذه القبلة ، لأنها لم تكن من تلك القبل الفاترة الباردة التى تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء ، بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولهب حميا ، وفيها شعر وموسيقى ، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتى العجوز كأنما حاولت ان تلقى فى صدر الفتاة بكل أسرارها !!

ولولا أنها كانت عجوزا حيزبونا لعشقتها بومونا ..



ووثبت الفتاة فقطفت عزقا (٢) من العنب وقدمته للضيفة العجوز .. ولكنها بدلا من أن تجدها تهش للثمر الجنى الشهى ، وجدتها غائبة عن رشدها ... أو ... كالمغشى عليها ! ترى ماذا أصاب أخانا فرتمنوس المختبىء فى جلد هذه العجوز ؟ ! آه ! مسكين ! انه لم يكد يفيق من سحر القبلة ، حتى رفع بصره الى بومونا ، فشهد العجب العاجب ، والجمال النادر ، والحسن الباهر ، والرونق والرواء !! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين ! وشهد الركبتين الملتفتين ... وقليلا من الفخذين اللجينيتين .. فاستطير لبه ، وصبا قلبه ، وشردت أفكاره ، وغشى عليه ؟!

(١) المساند (٢) عنقود

ولما أفاق — أو أفاقت العجوز — سألتها ماذا أصابها ، فشكت وطأة السنين وضعف البدن ، وتهافت أعضـــائها من الكبر ، ثم شكرت لها عزق العنب ، وأخـذت فى أكل حباته ، وهى تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت الى الكرم العارش فوقهما ، وأرسلت من أعماقها آهـــة طويلة حامية ، ثم قالت تحدث الفتاة :

— أرأيت يا حبيبتى (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش،هل كان يؤتى أكله ،ويحلو عنبه ، كما هو حلو هكذا ؟

— كلا يا أماه ! هذا شىء بدهى !

— تعنين ان الكرم لا يستغنى عن هذا العريش !؟

— طبعا !

— ولا غناء للعريش من غير كرم !

— لا يكون منظره جميلا رائعا كمـــا يكون ومن فوقـــه الكرم !

— عجبا لكن والله يا عذارى !! تعرفن ذلك ، ولا تفكرن فى عطلكن !!

— أو عاطل أنا يا أماه ؟ ماذا تقولين !

— عفوا يا ابنتى ... فان لك ألف حلية من جمـــالك الذى لا جمال مثله ... انما قصدت أنكن تزهدن دائما فى أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش ... ولاسيما أنت يا صغيرتى بومونا ... انى أعرف أن كل شـــباب المدينة مولعون بك ، وكل أمراء النواحى متيمون فى هواك، وأنا أعرف أيضا أن منهم من يتعذب بالليل ، ويذل بالنهار، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك فى الطريق ، وقد وقف لهـــذا اللقـــاء ســـاعات وســـاعات بل أعلم يا أجمل عرائس الغاب أنك قـــد بززت هيلين الهيفاء ، وبنلوب اللعوب فى كثرة العشاق الذين يعبدون

جمالك ، وتخبت قلوبهم لحسنك ، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين . ماذا ؟ لم يا بنيتى لا تختارين لنفسك من بينهم كفء يقاسمك هذه الحيـــاة وتقاسمينه ، ويشركك هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه ، ويبسم لك وتبسمين ، ويواسيك وتواسين ؟ ما غايتك من هذه الوحدة ، وأنت بها فى منفى ، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة ، ومثلها من الورود والرياحين ؟ وهذا الفتى المسكين الذى اسمه .. اسمه .. اسمه ماذا ؟ آه ! فرتمنوس ! ذكرت أنى سمعت أنه يحبك حبا أورثه السهد ، وأولاه الضنى ، حتى لم يبق منه هــواك الا حشاشة تترقرق دموعا فى عينيه ، وتتأجج نيرانا فى صدره .. لم لا ترحمينه يا بومونا ؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب ؟ انه ليس الها ولا نصف اله ، ولكنه خليق بحبك ، جدير بأن تكونى له من دون العالمين ، لانه مغرم بك أكثر من كل عشاقك ، وهو ليس كجميع العشاق ، لانه لم يحبك الا عن بصر بك ، وتقدير لحسنك ، ولان عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم ، فهم ينظــرون النظرة فتهيج شياطين الهوى فى صدورهم ، ثم ينظرون النظرة الى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم اليها ، فاذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشـــياطين أن تتصرع تحت قدميها .. أما فرتمنوس ، فقد أحبك ولم يشرك حسناء فى هواك ، لانه لا يرى لك فى قلبه شريكة تســمو الى اخمصيك .. ارحميه يا بومونا ، اعطفى عليه ، وانظريه كأنه يتوسل اليك بلسانى ، ويشكو لك بثه بعينى (!) .. ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك ؟ ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب ؟ ألم تعرفى ما صنعت بالقاسية أنا جزرتيه ؟

ــ ومن أنا جزرتيه يا أماه ؟ وما قصتها ؟

ـ ألا تعرفينها ؟ ولا تعرفين مأساة الفتى ايفيس ؟
ـ وما مأساة ايفيس ؟ قصيها على بالله عليك !

« لقد كان ايفيس فتى جميل المحيــا وضاء الجبين ، ولكنه كان من صميم الشعب ، وكانت أناجزرتيه من بنات الاعيان والعلية الموسرين .. وكانت بينهما من اجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع ايفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون. وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لنــاء به ، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزور ، وتطــوى الطريق عجلانة الى قصرها الباذخ المنيف ذى الشرفات .. وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدى ثم توصده من دونه ، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان ، ثم يذرف دموعه ، وينثنى الى داره ، وليس فى قلبه الا حبها مع ذاك ، ولا فى عينيه الباكيتين الا صورتها ! وطالما كان يهب من نومه فى جنح الليل فيطوى الطريق مفزعا ، حتى اذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عنـــدها ، وعانق قضبانها ، وبكى ما شاءت له الآلهة ، وتغنى آلامهوغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده ، وازدادت صبوته .. وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه ، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة ، أو غمزة تهكم واستهزاء ، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة ، بل زادها قسوة وعنادا .. ولما جد به الجد ، ولم يكن بد مما ليس منه بد ، ذهب اليها فى ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع ، ثم تعلق بالبوابة ، وكانت حبيبته ترتع وتلعب فى حديقة القصر ، فهتف بها وقال :
« أيتها القاسية أناجزرتيه اسمعى ! لقد قهـــوت قلبى وغزوت نفسى وتم لك النصر ! فهنيئا لك ! تغنى أناشيد الفرح واللذة العارمة لانك قتلت ايفيس ! اعقدى فوق

هامتك اكليل الغار لانك أذللت قلبه العزيز ، ومرغت فى التراب روحه العالية .. ولكن اصغى الى يا متحجرة القلب .. لقد عولت على أن آشرب كأس المنون ، ولكنى آثرت أن أشربها أمامك ان لم يكن بين يديك ، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الموجع الاخير ، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك على .. بيد انى اهتف بك يا آلهة السموات أن تثأرى لى ، وأن تجعلى لى ذكرا فى قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف ، ويتذاكره الناس فى طويل العصور والآباد .. » وكانت السماء كلها تصغى لما يقول ايفيس فلبت واستجابت .. وكان قد ربط حبل مشنقته فى قضبان البوابة ، وجعل أنشوطتها فى عنقه ، فلما انتهى من مقالته القى بنفسه .. وقبضت روحه ! ولم تتحرك اناجزرتيه مع ذاك ، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة الى أم الفتى وهم يبكون ويضجون .. وصرخت الام المفجوعة وولولت على وحيدها ، ثم حمل الجسمان فى اران (١)الى المقابر ،ومر الموكب الحزين من الشارع الذى فيه قصر الفتاة القاسية فصعدت لتنظر اليه ، ولكنها ما كادت ترى الى الجثة مسجاة فى النعش حتى تثلجت عيناها ، ثم استحالتا الى رخام بارد.. وروعت لما أصابها ، وأرادت أن ترجع قليلا ، ولكنها لم تستطع لان الرخام سرى فى قدميها أيضا .. ثم فى ساقيها .. ثم فى ذراعيها .. ثم فى جميع جسمها .. أما قلبها ، فقد كان رخاما منذ زمن بعيد .. وكذلك تحولت أناجزرتيه الى تمثال لا يزال محفوظا فى متحف فينوس بسلاميس .. عظة وذكرى .. »

وكأنما عملت القصة عملها فى نفس بوMونا ..

---

(١) نعش

فاندرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارتان ٠٠ونظرت لترى الى العجوز ٠٠ ولكن ٠٠ لقد كان فرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوى يجلس مكانها ، ويأخـــذ برأس الفتاة على صدره ٠٠ فقالت له :

ـ من أنت أيها الفتى ؟

ـ أنا ٠٠٠

وانفجر فى بكاء شديد وقال :

ـ حبيبك فرتمنوس يا بومونا ٠٠ فرتمنوس

فقالت : أهو أنت ؟! اه يا ساحر !

وتبادلا قبلات أشهى من الشــــهد ، وأشد أسرا من الخمر ٠٠

# خرافة جاسون



غلب بلياس الظالم أخاه ايسون على ملك تساليا ، فهام الملك على وجهه فى أقصى الارض ، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسميدية ، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون .. وعرجا فى تطوافهم باستاذ اخيل العظيم شيرون ، فدفعا اليه بالطفل يهذبه ويؤدبه ، وينشئه على الفروسية ومكارم الاخلاق ، ورجواه أن يكتم سرهما حتى يشب ويترعرع ، ويبلغ أشده ، فيثير فى صدره الحمية، ويرسله ليثأر لابويه ، وليستخلص العرش من غاصبه . وأخلص شيرون فى تربية جاسون الاخلاص كله ، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية ، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد ، وغير جاسون .. ثم مرت الايام ، وشب الفتى على غرار استاذه ، فلم يكن فى الدنيا بأسرها أحمل منه لسيف ، ولا أرمى لسهم ، ولا أرجح فى تفكير ، ولا أوفر فى حظ من جمال وكمال . ووقفه شيرون على سر أبويه ، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده ، فثار ثائر الغلام ، وازلزل قلبه ، وضرب برجله يود لو يخرق الارض فيكون عند الظالم ، فيذرو عظامه فى الريح !

ووعظه شيرون ، وأوصاه بالصبر وطول الاناة واعمال الروية ، وحذره أن يعيث فسادا فى الارض ، ونصحه أن يكون رحيما بالضعفاء ، وألا يألو جهدا فى مساعدة من يطلب منه المساعدة ، وألا يكون عداؤه لعمه سببا فى عدائه لجميع الناس .. وأعطاه الفتى موثقه ، ثم اخترط سيفه ، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين ، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية ، وانطلق يذرع الرحب الى يولكوس ، حاضرة تساليا

ولقى فى طريقه سيلا زاخر العباب ، فوقف حياله ينظر ويفكر ، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها . وكان السيل جياشا ينحدر من شعاف الجبل القريب ،فيجرف فى سبيله الجلاميد والنؤى ، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضا فتنسحق وتتفتت ، فراعه أن ينزلق وسطها ويكون مصيره مصير جلمود منها .. وفيما هو يعمل فكره ، وفيما هو يلتفت يمنة ويسرة ، اذا به يرى عجوزا تابة (١) تدب على عكاز غليظ ، مقبلة نحوه ، مادة ذراعها المعروقة ، مستغيثة : « لهفى بنى ! بنى انتظر ارجوك انتظر يا ولدى ! » من هذه ؟ لا يدرى جاسون . بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها ، فتوسلت اليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل ! ووجم جاسون قليلا ، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه ، فتبسم ، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوى المتين ، ثم رجاها أن تدفع اليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت ، وتقدم بخطى وئيدة ، ولكنها أكيدة ، الى مجرى لا يفكر فى نؤيه وجلاميده ، ولا جيشانه واصطخابه ، بل يفكر فى أنه يجب أن يؤدى يدا لهذه العجوز التى استغاثت به .. وعبر مجرى السيل ، وبلغ عدوته

(١) تابة أى متقدمة فى السن

الاخرى بعد عناء وجهد ، ووضع على الـــرمال اللينة المتطامنة حمله ·· ولكن ·· يا عجبا !! أين هى المــرأة العجوز الحيزبون ؟ أين الكومة من الجلد المتهــافت ، والعظام النخرة ، التى كانت ترهق كاهله ؟ لقد ذهبت ووقف مكانها شباب رائع ، وجمال فتان ، وغادة حسان مفتان !!

ـ يا للآلهة ! من أنت بحق السماء يا ربة ؟

ـ أنا ؟ ·· ألا ترى الى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح ؟

ـ أوه ؟ أو أنت جونو (١) ؟

وسجد جاسون بين يدى الربة ، سيدة الاولمب ، ثم أذنت له فى أن ينهض ، وأخذت برأسه فباركته ،وسألها أن تهبه رعايتها فى حله وترحاله فوعدت ، ثم رفت فى أثير السماء التى تفتحت لهـــا أبوابا ، وغابت عن بصر جاسون !

ووقف الفتى لحظة مسبوها مشدوها ، ثم انطلق فى طريقه ·· وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى الى قدميه فلا يجد الا نعلا واحدة فى احداهما ·· أما الاخرى ، فقـــد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها ، وهـــو لا يستطيع استعادتها ، لان حمله كان يرهقه !

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعا حاشدا حول ملكها بلياس ، الـــذى وقف ينحر الذبائح ، ويقرب القرابين للآلهة ، ويفرق حواياها(٢) على الفقراء ! فدافع الناس ، وشق طريقه الى حيث وقف

---

(١) عودنا القراء فى أساطيرنا أن نسميها باسمها اليونانى ( حيرا ) وهذا هو اسمها الرومانى

(٢) حشاياها

الملك ، ثم سار الى عمه قدما ، حتى كان قبالة المذبح ..
وما كادت عين صاحب العرش - أو غاصبه - تقع على الفتى الذى يلبس نعلا واحدة حتى شحب لونه ، وغاضت الدماء الوردية من خديه ، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطرابا شديدا .. ذلك لانه ذكر تلك النبوءة التى تنبأ له بها أحد سحرائه ، والتى حذرته من الشاب الذى يقبل من بلاد بعيدة لابسا نعلا ذهبية واحدة فى احدى قدميه ، فى حين يكون هو مشغولا بتقريب القرابين للآلهة !! أن هذا الشاب يقتله !!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى واحضاره الى غرفة العرش فجيء به اليها ، ولم ينتظر حتى يبدأه عمه بالكلام بل وقف أمامه جبارا يغلى الدم فى عروقه ، وطلب اليه أن يعتزل الملك ويخلع التاج ، ويعطى الصولجان صاحبه، وأن يعيد الحق الى نصابه .. « لانك انتهزت ضعف أبى الذى وهنت عظامه ، واشتعل رأسه شيبا . فعتوت عليه وألبت عليه الاوشاب من مرتزقة الجند ، ورعاع الشحاذين والأفاقين ، فلبست تاجا ليس لك ، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك ، ثم حاولت أن ترشو الالهة وتخدع السماء بالاضحيات والقرابين ، ولكنك لا تخدع الا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يبغتك ، ومغبة وبال يحيط بك .. »

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه ، ومنايا تطير حول قلبه .. بيد أنه استعد لها بالمكر ، وتهيأ لصدها بالخدعة ، فتبسم لابن أخيه وقال :
« ماذا تقول ياجاسون ؟ اتحسبنى يابنى قد سلبت اباك عرشه ، وغلبته على صولجانه ؟؟ كلا والله يابنى كلا ...
ولكن ... ليسكن طائرك قبل كل شيء .. فلقد دعوت نفرا من ( رعاياك ! ) لوليمة الهية ، وقد اقبلوا من كل

فج ، وهم ينتظروننا الآن ، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم ، فهلم نلقهم ياجاسون ، ونرحب بهم ، فاذا فرغنا وفرغوا من طعامهم ، عدنا سوية لنبحث هذا الامر الذى أهمك وأقلقك ، وملأ فؤادك بالوساوس والاراجيف ، وسترى أن الذى انبأك هذا النبأ زخرفه عليك ، وشوه حقيقته فى نفسك ، بدليل هذه النيران التى تنقذف كلمات من من فمك ! .. تعال .. مرحبا بابن أخى جاسون ؟ لشد ما أنا مشتاق اليك ياحبيبى ! »

ثم قبله فى جبينه قبلة صفراء قاتلة ، أفتك من قبل التماسيح ، وانطلقا الى البهو الكبير ، حيث صفت الاخاوين (١) الحافلة بأشهى الاكال . وأطيب الاشربات ، وحيث جلس المدعوون اليها صفوفا صفوفا وألوفا ألوفا

وجلس جاسون فأكل وشرب ، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة ، وتشفى النفوس من كل حرد ، واعتلى المنصة التى أقيمت فى صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص ، شرعوا يسردون قصصهم ، ويتناشدون أشعارهم ، ويروون من أنباء الابطال ما يأسر القلوب ويسحر الالباب ، حتى أن جاسون نفسه كان يصغى اليهم ، وكأنه يتلقى وحيا من السماء يتنزل على قلبه ، ويدعوه الى فعال الفتية الابطال

قال احد المنشدين : « واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذى صبا قلبه الى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه ، فبنى عليها (٢) ولم يبال أن ينقض ركن الاسرة وينهار عمادها .. ذلك هو أثماس

(١) اخوان لغة فى خوان الذى جمعه خون وفى القلة أخونة
(٢) تزوجها

أحد ملوك تساليا فى الزمان القديم ، ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها ، فاعتزمت أن ترسلهما الى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من اينو الخبيثة .. وفيما هى واجمة تفكر فى ذلك اذا هرمز الامين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه :

ـ نيفيل أيتها العزيزة ؟ فيم تفكرين حزينة هكذا ؟

ـ هرمز ؟ تباركت يارسول السماء ، أفكر فى ولدى هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر اينو ..

ـ لا عليك يا حبيبة الآلهة ، اننى مساعدك ، كفكفى دموعك ..

ـ شكرا يا اله الرحمة ، سأسبح لك ما حييت !

ـ وأين تحسبينهما يكونان فى سلام وأمن يانيفيل ؟

ـ لا يكون ذلك الا عند ملك كولخيس ، ولا أدرى كيف أرسلهما اليه ؟!

ـ لا أهون من هذا ، فانتظرى طرفة عين !

ومضى الاله فغاب برهة ، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الابريز ، فقدمه الى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها ، ولينقلهما الى ملك كولخيس ، وسجدت الملكة شكرا لهرمز ، ثم قبلت طفليها فركسوس ، وابنتها هلة ، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة ، ودعت لهما ، ثم انطلق الكبش فى الاثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التى لا تنتهى .. وطفق الكبش يعرج فى السماء ، ويخفق فوق الممالك ، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب تقلبت أمواجه ، وتناوحت زوابعه . فنظرت الفتاة المسكينة هله تحتها لترى ما هنالك ، ولكنها فزعت فزعاً شديدا ، حينما رأت سراطين

البحر وحلازينه تقتتل ، وتحترب ويأكل بعضها بعضا ، فارتجفت رجفة هائلة ، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عل وجعلت تهوى حتى تردت فى البحر وابتلعتها أمواجه ··· ومنذ ذلك الوقت ، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم ( الهلسبنت (١) ) نسبة الى الفتاة البائسة هله ! ومضى الكبش يستبق الريح، ويطوى العوالم ، حتى وصل الى مملكة كولخيس ، فهبط قليلا قليلا ، حتى اذا كان على الارض نزل الفتى فركسوس ، فصلى للالهة ، وذرف الدمع على أخته ، وسلم على الملك الذى هش له وبش ، وأحسن لقياه ، وأكرم مثواه ، ثم شحذ سكينه وتل الكبش لجبينه ، وكبر وسبح باسم جوف وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قربانا لهم جميعا ··· وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذى فرح بها فرحا شديدا ، لانها كانت تعدل كل ما فى كنوز الملوك من ذهب ··· وقد ربطها الملك فى سنديانة باسقة ، ووكل بها تنينا هائلا ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم ··· ومنذ ذلك اليوم والفروة التى تعدل ألف كنز معلقه لا تمتد اليها يد ، ولا يجسر أحد أن يقترب منها والا جازف بنفسه ، فأصبح لقمة سائغة للتنين ··· »

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد ، فانتهز الفرصة ، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى ، وأوفرهم ثراء ، ثم ليخلد اسمه بين أسماء الابطال الذين دوخوا الممالك ، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد فى فم الزمان ··· « ولم لا يا ابن أخى ؟ لقد علمت أن

(١) هو الدردنيل

أستاذك الذى نشأك ، وهذبك وأدبك ، هو شــــيرون السنتور الاكبر ، أستاذ أخيل العظيم ، وقد خلد اخيل اسمه على أسوار طروادة ، وأعلى ذكره فى جميع الانام ، فلم لا تذهب الى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية اما سلما واما حربا ، وأنت من أنت فى أبطال الوغى وصناديد الحروب ؟ ألست أرمى الناس لسهم ، وأضربهم بسيف وأحذقهم طعانا برماح ؟ انها فرصة المجد لمن يبتغى المجد يا جاسون ، فلا تضعها ! لا تقل « بل حسبى أن أحكم الناس » فالناس يعشقون أشجع الناس ... » وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى ، حتى هاج فى صدره الشاب نائم المنى وساكن الآمال ... فرضى جاســون بالاضطلاع بهذه المجازفة ، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصى على شجاعته . بيد أنه عندما خلا الى نفسه ، وراح يفكر فى الوسيلة التى يبلغ بها مناه ، بدت له حقائق أسقطت فى يده ، وجعلته يتخاذل ، ويندم على الوعد الذى وعده عمه ، غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد ، وربطه بالشرف ، فصمم على السفر الى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر ، وكانت سمادير اليأس تملأ عينيه ، فلم يهتد الى الوسيلة ! وانطلق الى غرفته ، فقضى فيها ليلة ليــــلاء مثقلة بالهم والفكر .. ثم انبلج الصبح ، فانطلق الى هيكل جونو عند دودونا ...

ــ جونو ... جونو ... لقد كدت أنسى جونو ، يجب أن أصلى لجونو ، فقد وعدتنى أن تدركنى بغوثها كلما حزبنى أمر ... لقد حملتها على كتفى هذين فى صــورة عجوز شمطاء ! وهى ستحمل عنى هذه المرة !

ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلى ، وكانت سنديانة هائلة ــ هى الناطقة بنبوءات جونو ــ نامية وراء

المذبح ، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول :

– لبيك أيها الفتى لبيك ! لبيك وسعديك يا جاسون يا حبيب جونو لبيك ! كفكف غوارب دمعك فستـرعاك الربة وتحفظك .. تعال ! اصعد فوقى ! اقطع أحـد أغصاني واصنع منه عصا ، واجعل لها رأسا على هيئة السفينة التى تحملك الى كولخيس ، وسيبنيها ارجس(١) لك ، وذلك باشراف مينرفا . ولتكن العصا معك دائما ، ولكن لا تنقلها من السفينة فهى حارستها ، وكلما ألم بك خطب أو حز بك أمر ، فارجع اليها ، فهى تكلمك وتشير عليك ... » وسكتت السنديانة ، وصنع جاسون العصا وذهب عند سيف البحر ، ليرى عمال آرجس ، باشراف مينرفا ، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها الى الماء ففرح واستبشر ، وسماها ( آرجو ) نسبة الى صانعها ، ثم أعلن عن حاجته الى نفر من شجعان هيلاس ، يقاسمونه مجازفته ، فاجتمع اليه عدد غير قليل ، منهم هرقل الجبار وكلستو ، وأدمتوس ، وتيزيوس ، وأرفيوس ، وبولكس ويليوس .. وأعدوا ميرتهم ، واستكثروا من ذخيرتهم ، ثم همت الفلك ، واحتواها الماء

مساكين هؤلاء الآرجونوت (٢)

لقد كانت رحلة شاقة مضطربة بالمتاعب ، مليئـة بالاشجان ، فى بحر لجى وأمواج كالظلل ، ظلمـات بعضها فوق بعض ، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سعالى (٣) وأغوال

لقد لقى الابطال الصناديد من أمرهم رهقا أى رهق .. فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسمة الدوح ، نما أيكها

---

(١) حيوان رائع من أتباع جونو
(٢) المسافرون فى السفينة ( آرجو )
(٣) جمع سعلاة أوسعلاء وهى الغول أو ساحر الجن

واستطال ، وغلظت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق فى الغابة يقطع أغصانا تصلح لان يصنع منها مجاذيف للآرجو ، فأوغلا ‥ وكانت الطريق ملتوية مضلة ‥‥ فلما أن قطعا من الاغصان شيئا كثيرا ، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه ، فأمـر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التى كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى فى سكون الغابة ‥‥ وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ‥‥ ولكن وقتا كافيا طويلا مضى قبل أن يعود الفتى ‥‥ ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ‥‥ ثم ساعتان ‥‥ ثم أكثر من ذلك ‥‥ ثم أكثر ‥‥ ماذا ؟ ترى ما الذى عوق هيلاس ؟ أواه ! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا فى ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهرى ممشوق ، وصدر رحب أخيلى ، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق فى بريقهما لون من السحر لا يعرفه الا العذارى ، ولا تحسه الا قلوب الحسان ‥‥ وشفتان ان كانتا لرجل ، فقـــد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ‥‥ وجبين متلألىء وضاح ، لماح كاشراقة الشمس فى مولد الصباح ‥‥ تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى ، وما كان أجمل هيلاس !!

ذهب يملأ الجرة ‥‥ وما كاد ينثنى ليضرب بها الماء ، حتى رأته عرائسه الغيد ، الخرد الامالـيـــد ، فشغفهن وامتلك قلوبهن ، وبرزن من القاع ليسكرن بجمـــاله ، وينهلن من حسنه ، وليقسمن بسيد الاولمب ماهذا بشرا ، ان هذا الا ملاك كريم !! واقتربن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر ، ثم تأجج الهوى فى فؤاد احداهن وهى أجملهن ، ان كان فيهن من هى أجمل من أختها ،

فهتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها الى الماء

ــ ماذا بالله عليك يا عروس ؟

ــ تعيش معنا !

ــ أعيش معكن فى الماء وأنا بشر ؟

ــ لن تكون بشرا بعد اليوم ، بل تكون الها كريما

ــ وأنى لى هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمىء الى جرعة من مائكن تشفى جواده ؟

ــ ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ اذن هذا عقابه ! تعال ! سيمنحك الخلود سيد الاولمب !

وجذبنه الى القاع .. ولكنه لم يغرق .. وهو يعيش الى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحدا ، ولا يجوع ولا يظمأ !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى اذا انتهى الى النبع ، ووجد الاثار هابطة الى الماء ، الى غير عود ، صرخ صرخة تجاوبت أصداؤها فى أركان الغابة ، ثم جلس ساعة على حفافى المقبرة التى ابتلعت هيلاس ، ينشج ويبكى ... وأقسم لايذوقن من مائها قطرة ، وأقسم كذلك لايصحبن الآرجو فى هذا السفر ... وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه الى أرض الوطن ، وعاش حياته الطويلة المقاحمة لايفتأ يذكر هيلاس ، ولا يفتأ يبكى على هيلاس !

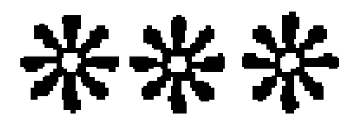
***

وأرست الآرجو فى شاطىء تراقيا ، ونزل جاسون فى نفر من رجاله يمتارون ، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فنيوس ، شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة .. ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق ، لها جسم الطير وريشه ومخالبه ، ورأس الانسان ولؤمه وخبث طباعه .. كانت هذه

الطيور تنزل بساحة القصر الملكى ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غداءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك فى أكثر الاحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لان هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شيء .. حتى على الفتـــات .. ولم يكن يردها عن قصر الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غــذاءه ، فــلا تبقى تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم ، وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الالباب ، ولم يحدث مرة أن أصــاب أحد الجنود منها غرضا ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجأر بالشكوى الى آلهة السماء

ودهش جاسون ،وذهب بالقصة إلى رفاقه الارجونوت، فتقـــــدم اليــــه البطلان الضرغامان ، ولدى بوريس ، يقترحان أن يذهبا معه الى الملك المسكين فيعرضا عليه حربا عوانا يشبان نيرانها على هذه الطيور ، فاما ان يتم لهما النصر عليها ، واما أن تكون لها الكرة عليهمـــا ... وصادف الاقتراح هوى فى نفس جاسون فانطلق معهما الى الملك الذى هش لهما وبش ، وفرح بما عرضاه فرحا شديدا ... فلما حان موعد الغذاء ، جلس الملك وضيفاه ـ وكان جاسون قد عاد الى السفينة ـ الى المائدة ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتدوم ، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه ببدنيهما ، بل هجما عليها هجوما ذريعا ، وأخذا يسقطان منها عددا كبيرا كان يهوى فوق الارض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يونانى مبين ... ثم فرت بقية الطير ... ولـكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك ، وهتفت به كى يأمر

بوقف الملحمة التي تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الاقسام وأوكدها أنها لا تعود الى الاعتداء عليه أبدا ، ولا تعود الى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة .. فقاسمته ملكة الطير ، وأشار الى ولدى بوريس فأغمدا حساميهما . وذهبت الملكة ، وعادت بعد قليل فى شرذمة من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها ، حملتها ، وذهبت الى غير عود (١) ... وبرت قسمها ، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبدا . وشكر الملك لولدى بوريس ، وعرض ان يستوزرهما ، فاعتذرا شاكرين ، ليصحبا جاسون



وكأنما ذاع نبأ الهزيمة فى عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهاربز ، فانه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا ، حتى رأى راكبوها سربا كبيرا من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع فى أشعة الشمس كالذهب ، حتى اذا كان فوق الارجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل ، فألحقت بهم أذى كبيرا .. ولم تنفع سيوفهم ولاقسيهم شيئا ، فاختبأت كل كوكبة منهم فى قمرتها ،وخلا جاسون الى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضربا شديدا فيحدثوا صوتا تنزعج الطير منه ، وتفر مروعة الى غير عود .. ودعا

(١) تعرف هذه الطيور فى الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروى أنها نفت نفسها فى جزيرة ستروفيد

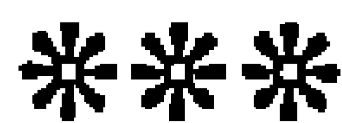
جاسون جنوده ففعلوا كما اشارت العصا وفرت الطير ذاهلة ممزقة فى رحب السماء

***

وحاقت بهم كوارث أخرى لا حصر لها .. ثم أقتربوا من برزخ سمبلجيدز الذى ليس لمسافرالى مملكة كولخيس سبيل غيره .. وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عدوتيه صخرة هائلة ، فلا تزال الصخرتان تنطبقان وتنفجران ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباء عفاء كأن لم يغن من قبل .. وكأين من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فحطمتهم وعفت على آثارهم .. ولم يدر جاسون ماذا يصنع وجلس رفاقه يقلبون الاكف على ما أنفقوا فى مخاطرتهم هذه ، وظلوا ينظرون الى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان ، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل فى الآفاق جعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الغشية وتقية الصمم .. وخلا جاسون الى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل ، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامة بين الصخرتين حين تنفجران، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ؟ ثم يرى ، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة .. ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، وكم كان عجبهم شديدا حين رأياها تفلت من بين الصخرتين الا ريشة واحدة انتزعت من ذنبها فصارت هباء نثره الهواء واستعدوا للمقاحمة ، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين فى البحر الذى هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتى أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق فى الجو .. وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع حتى وثقوا من

قدرتهم على قطع المســـافة فى مثل البرهة التى قطعتها فيها حمامتهم الاولى .. ودفعوا ســـفينتهم الى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة ، وأرواح ترتعــد فرقا من الموت فى أبدانها ، فمرقت السفينة ، كما يمرق السهم عن قوسه .. واحربا !! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وان حطمت الصخرتان سكانها (١) ، كما حطمته سئل عن طلبته فقال :

وما كادوا ينجون من هـــذه الموتة المحققــة ، حتى انسدحوا (٢) فى الفلك يلهثـــون ويتنفسون ، ويهنىء بعضهم بعضا ..



وبلغوا كولخيس بعد عناء وجهــد ، ومثلوا بين يدى ايتيس ملكها الجبار ، فسلم جاسون بسلام الملوك ، ثم سئل عن طلبته فقال :

ــ عز نصر مولاى ، لقد تجشمنا مشاق هذه السـفرة فى سبيل الفروة الذهبية التى يقتنيها ملك الملوك ، لانه نمى الى أنهـــا كانت من تراث آبائى .. ولا أدرى كيف حصل عليها السيد بعد اذ أفلتت من كنوزنا

وقهقه الملك ملء شدقيه كالســـاخر المستهزىء ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

ــ أى بنى ! أبق على شبابك الفض ، وجمالك الفينان، وعلى شباب هذه النخبة أولى القوة والفتوة ممن معك .. أى فروة ذهبية يابنى تبتغى ؟ وتراث آبائك من ؟ ! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عينى ، وسلخه بين

(١) دفتها (٢) انطرحوا

يدى ، وضحى باللحم والحوايا (١) للآلهة ، ثم أهدى الى الفروة الذهبية التى تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! ففيم اذن تجشمك تلك المشاق ، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتى سملجيدز ؟ ! وفيم كل تلك المهاوى والمهالك ؟ عد يابنى الى بلادك فهو خير لك ، وابق على حياتك ، وانعم بحضن أمك الدافىء ، فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الاشجان والاحزان !

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك ، فأخذ ايتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ،قال له :

ــ « لك اذن ماطلبت يابنى ، ولكن اسمع ، واصغ الى ، ان أمامك مخاطر كنت أوثر الا تلقى بنفسك فى تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غرتك الامانى وأزهدتك هذه النخبة من ابطال بنى جلدتك ، فاذهب اذن ، وحاول مااستطعت أن تلجم عجلى فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ويفتكان بكل من اقترب منهما ، ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الارض الجبوب (٢) التى تقدست باسم مارس ، فاذا فعلت فازرع ماحرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بانى طيبة ، فانك لاتلبث أن ترى الارض تنبت جيلا من المردة مقنعين فى الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح ، فاذا قدرت عليهم فان عليك أن تقتل التنين الهائل الذى يحرس الفروة الذهبية ، فاذا فعلت ، ولاأحسبك تفعل ، فان الفروة لك ، كنزا ليس كمثله كنز ، وذخيرة من الذهب الابريز ليست تعد لها ذخيرة ، هذا الى فخر يرفعك الى عليين ، وينقش اسمك فى لوحة الخلود الى آخر الزمان!»

وسمع جاسون .. وخفق قلبه ، ووجبت روحه وجيبا محزنا ، ثم أخذ على نفسه عهدا أن يفعل ! !

ونصحه رفاقه أن ينكث ، وأشفقوا عليه أن يضحى بهم

---

(١) الأحشاء (٢) الغليظة

وبنفسه فى مثل هذه المهالك ، بيد أنه صمم على أن يلجم عجلى فلكان ، وأن يحرث بهما الارض الجبوب ، وأن يزرع فيها أنياب التنين ، وأن يحارب المردة ، فاما هزمهم واما غلبوه ، وأن يقتل التنين الذى يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها وليعود الى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر ، فيحكم ويكون خير الحاكمين !

وكان يتكلم أمام رفاقه فى شجاعة مدعاة ، وفتوة مفتراة ، فاذا خلا الى نفسه حزن أشد الحزن ، وأسلم نفسه للتفكير العميق .. ثم استوحى عصاه السحرية ، فقالت له : انه ينبغى عليه أن يلقى ابنة الملك الاميرة ميديا ، فانها مشغوفة به حبا منذ أن رأته يحدث أباها .. وانها تكاد تجن به جنونا

ــ وكيف ألقى ميديا هذه يامعجزة جونو الحبيبة ؟

ــ اتصل باحدى عجائز كولخيس تقض حاجتك

ــ ومتى ألقاها وأين ؟

ــ يالك من فتى ؟ ! ألم تسمع من يقول : وكم لظلام الليل عندى من يد ؟ القها فى جنح الليل ، ولتكن له يد عندك ، والقها فى حديقة قصر أبيها الملك !

ــ ولم ؟ ألست ابن ملك مثلها ؟ ألست صاحب عرش عظيم ؟ أليس لى ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتى هذه ؟

ــ بلى يابنى ! ولكنها تخشى أباها أشد الخشية ، أليس يرى فيك عدوه الاكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التى هى أكبر كنوزه ؟

ــ دعى هذا اليوم يا أماه ، ولكن طمئنينى كان الله .. هل تحبنى ميديا حقا ؟

ومن أنبأك هذا ؟..

ــ نبأتنيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى ..

ـ ربة ؟ تقدس اسمها ؟ ! من عساها تكون ياترى ؟
ـ هى جونو يا أعز الامهات ؟ لا أكذبك ، انها جونو !
ـ أتعرف ماتقول ؟
ـ وهل يكذب بشر على آلهته ؟
ـ أن كان ماتقول حقا . فلا أذيع سرا أذاعته سيدة الاولمب ، ومليكة جوف الكبير المتعال ، ان ميديا يا بنى مولعة بك ولوعا شرد المنام من عينيها ، وجعلها فى أيام معدودات طيفا لايردد لسانه غير اسمك ، ولاتذرف عيناه الا من اجلك .. و ..
ـ ميديا تبكى ؟ ومن اجلى ؟ ولم تبكى ؟
ـ تبكى لانك كلفت بأمور لا تحملها الجبال!وأين أنت من عجلى فلكان والارض الجبوب التى لمارس ؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين ؟ ثم من أنت وما هذا كله فى مواجهة التنين الهائل الذى يحرس الفروة ؟ حقا لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة ..
ـ وما الرأى اذن ، ولابد مما ليس منه بد ؟
ـ الرأى أن تلقى ميديا فهى حبيبتك ، وان عندها ، فضلا عن ذلك ، أم كتاب السحر ، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حنق أبيها ، واغضاب أربابها

***

لقد كان الليل يضرب على الدنيا بجرانه، وكانت النجوم تلتهب فى فحمته كقلوب المحبين ، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المطلوبة بين العاشقة المدلهة ، والفتى المقاحم ذى الآمال ..

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفى ... وهمست اليه ، فسار فى اثرها ، حتى كانا عند منعرج مسوج بنبات ذى عساليج ، يؤدى الى رحبة

واسعة ينتشر فى أرجائها أرج الورود والرياحين ، حتى ليوقظ القلوب النائمة،ويعطرها بفغمة (١) الحبويسكرها برحيقه المختوم ، الذى كله لفو وتأثيم !

وهناك ، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثى (٢) ، وقلب ظامىء خفق ، فلما رأته غمرها احساس ثائر ، واستولت عليها عاطفة صارخة ، لم تستطع معها الا أن تلقى بنفسها على صدره القوى الرحب ، تبلله بدموعها ..

ووقف جاسون ساكنا هادئا ، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذى آقبل فجأة يهاجمه ويدارأ عليه ، ويدفع بعضه بعضا من حوله ·· لقد كان قلبه باردا كالثلج ، وذراعاه جامدتين كالرخام ·· وكانت ميديا تبكى وتنثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين ، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع··وكأنما كان يحس ، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله ، أن حية رقطاء تتحوى عليه ، وتنفث سمها فيه .. لماذا ؟ لم تكن الا الآلهة وحدها تدرى !!

ـ جاسون ·· أحبك ·· أحبك من أعمق أغوارقلبى!لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبى ، فلما رأيتك فنيت فيك ··

ـ أشكرك ياعزيزتى .. اشكرك شكرا لاأدرى كيف أعبر عنه !

ـ جاسون ! ألاتكون لى الابد ؟

ـ أنا خادمك .. بل عبدك اذا شئت !

ـ لم رضيت لنفسك ماعرضه عليك أبى ياجاسون ؟

---

(١) الفغمة : الرائحة الجميلة
(٢) غرثى : جائعة والمراد مشوقة

ــ وماذا يخيفني ياميديا ؟ نحن الاغريق لانرهب الردى، ولانخاف الموت !

ــ هذا جميل .. ولكن الموت أكره الاشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب !

ــ قد انتصر ، والنصر لا سيما في المخاطرات ، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب !

ــ هذا محال اذا لم أساعدك !

ــ تساعدينني ؟

ــ أجل !

ــ وكيف ؟

ــ عدني أولا !

ــ وبماذا أعدك يا أعز الناس !

ــ أن تكون لي .. أن نتزوج !

ــ أعدك !

ــ بل اعطني موثقك !

ــ اقسم لك !

ــ بل أحلف بجونو ، فهي حارستك واحلف بهياكاتيه!

ــ أ .. أ .. أحلف . أحلف بجونو ! وبهياكاتيه !

ــ تحلف بجونو ماذا ؟

ــ أحلف بجونو أن نتزوج !

ــ وأن يعيش كل منا للآخر الى الابد !

ــ ا .. ا .. الى الابد ؟ !

ــ اذن .. لاضيرعليك .. ستنجو من كل شيء ياجاسون .. خذ ! ..

ــ ماذا ياميديا ؟

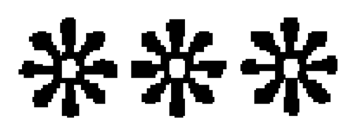
ــ أسلحتك التي تقيك !

ــ أسلحتي . ؟ هاتان علبتان .. وهذا حجر أسود صغير ! أكل هذه أسلحتي ؟ ماذا أصنع بها ؟

ـ علبة من فضة اذا فتحتها اصاعدت منها ريح تفل من حدة عجلى فلكان ، وتقى وجهك حر النار التي ينفثانها من منخريهما ، فتستطيع ان تلجمهما وتضع على عنقيهما النير حتى يكون المقوم (١) بيدك ، أما الحجر الاسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم ارض مارس الجبوب ، وانه لحجر مسوم من سجيل ، يجعلهم كعصف مأكول ! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتنثر مما بها من طيب في وجه التنين ، فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته ، ولك عندها أن تقضى عليه ..

وسكتت ميديا ..

ومدت فمها الى جاسون ، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد ، مما سمع من سحر الحجر الاسود ، وريح العلبة الفضية ، وطيب العلبة الذهبية !!



وكان الجو العبوس القمطرير يزيد فى منظر الحفل الحاشد روعة ورهبة ، وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم ، عرشه المرد ، فوق الاكمة المشرفة على الارض الجبوب المقدسة باسم مارس ، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مشاة وعلى كل ضامر ، يجلسون على الشعاف واحياد الجبال المطلة على الميدان ، متزاحمين متدافعين كأنهم فى يوم حشر ... وكان اخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفى قلوبهم حسرات على صاحبهم ، وألسنتهم ماتفتر عن الدعاء له ، والتوسل الى الآلهة من أجله .. وكانت ميديا العتيدة تجلس فى ركن من مقصورة الملك تشعوذ وتعوذ وتطلق الرقى ..

---

(١) المقوم الخشبة بين الثورين يمسك بها الحراث ، أما النير ، فالقصبة التى تشد المحراث على عنقيهما ( الثعالبى )

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب . . وانفتح باب الزرب فبرز عجلا فلكان ، ثم جعلا يعصفان ويتلبطان (١) وينفثان من منخريهما شرراودخانا يختلط بهما لهب أزرق ، مامس شيئا فى الميدان الاحرقه .. حتى العشب الرطب المندى ، بلهاالهشيم اليابس.. ، .. وبرز جاسون من مكمنه ، فانحبست أنفاس الناس ، وسكنت الريح ، وأشرف الآلهة من نوافذ السماء تنظر الى هذا اللقاء العظيم .. وأهطع (٢) أصحاب البطل ، وطارت ألوان وجوههم ، وتحسس كل منهم فؤاده ... ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب ، وعليه دروعه ، وفى يده سيفه ، فلما كان قاب قوس منهما ، جعل يتلطف بهما ، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدأت ثورتهما ، وأسلست قيادهما ، فأسرع الى النير فوضعه على عنقيهما ، وشد وثاقه ، ثم ربط اليه المحراث وبدأ عمله الشاق .. وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد ، فعاد العجلان الى سابق دأبهما من التوحش والتمماص والشيوب (٣) وعاد منخراهما يقذفان دخانا أبيض وشواظا .. بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حرث الارض كلها ، ثم قادهما الى زربهما وأطلقهما ، وغلق عليهما ، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين ليزرعها .. فدفعها الحراس اليه ، وطفق يغرسها فى الارض الرحبة ، حتى اذا فرغ من عمله ، نظر ، فاذا رؤوس مقنعة فى خوذات من حديد تنبت من الارض ، ثم تنمو فتبرز الرقاب ، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات ،

---

(١) الاعصاف السير السريع الذى يثير الارض ، ويتلبطان يختلطان فى سيرهما

(٢) مدوا رؤوسهم

(٣) أن ترفع الدابة يديها غاضبة

ثم تشقق الارض وتكون الجذوع كلها من فوقها ، وتخلص الاذرع وفى أكفها السيوف المرهفه تلاعب الهواء .. ثم ترتفع الافخاذ وعليها كل لامة دلاص (١) ، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغى وتزبد وتزأر ، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله ، وقد شرع كل جندى حسامه ، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة فى كر ، وحزم فى فر ، وحذق فى تحرف لقتال ، ورسم لخطط النضال .. وكان الملك ينظر الى كل ذلك ويتعجب ، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول .. وكانت ميديا — برغم ما سلحت به جاسون من سحر — تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين .. أما رفاق جاسون ، فوا رحمتاه لهم ! لقد كانوا يرون الابالسة يحدقون به من كل صوب ، ويزلزلون الارض تحت قدميه ، فتزيغ أبصارهم وتتقلب قلوبهم ، وتتثلج مشاعرهم ، وينظر بعضهم الى بعض ، لا يملكون لهذه ردا ولا دفعا ..

وظل جاسون يناضل ويناضل ، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها ، وكلما جندل مائة بدلت بألف ، فانقذف شيء من الرعب فى قلبه ، وسرى الى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله لولا أن أقبلت جونو تكلمه فى بسمة روحت عن قلبه ، وتذكره بالحجر الصغير الاسود .. ولكن الحجر الصغير الاسود كان فى جيب صداره ، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف !!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الاسود .. ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى ..

---

(١) الدرع الواسعة السابغة

وكان قد بلغ منه الجهد ، وتولاه الاعياء والضنى .. فلهج لسانه فجأة باسم جونو .. فأسرعت سيدة الاولمب لنجدته ، وأخرجت الحجر الاسود من جيبه ، ووضعته فى يده ، فقذفه جاسون وسط جيش الاعداء المحدقين به ، فما هى الا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله ، ثم تصرعوا غير مأجورين .. وماتوا جميعا

وأهرع أصحاب جاسون اليه ، وطفقوا يحيونه ويهنئونه ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء ، ثم حملوه وهم يهتفون أحر الهتاف ، وأهرعت الجموع الزاخرة فى آثارهم نحو البحر ، وهى لا تفتأ تردد صيحات الاغريق ، حتى خاف الملك على عرشه أن يمله شعبه ، وأن يجلس عليه جاسون .. لذلك اربد وجهه ، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره

وبلغ الاغريق سفينتهم فشكروا للكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم ثم خلوا بعد ذلك الى جاسون فنضوا عنه ثيابه ، وضمخوه بالطيوب والعطور ، ثم هيأوا له طعاما وشرابا ، من أفخر ما يقتنون . وفى الليل أسر لهم بسره وانطلق ليلقى ميديا

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها ... ثم تركها وقتا غير قليل تغمره بقبلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها ، وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لعجلى فلكان ، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه ، وهو صابر لهم ، ثابت لجموعهم ، حتى قذف الحجر فانقذفت فى قلوبهم المنايا

ـ أرأيت اذن يا حبيبى ما صنع الحجر الاسود من السحر ؟ أيقدر على مثل ذلك غير من أوتى من العلم ما أوتيت ؟

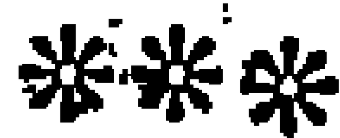
ـ كلا !

ـ ما لك لا تتكلم يا جاسون ؟

ـ الفروة الذهبية !أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل؟!

ـ الفروة الذهبية لك من غير ما ريب ، فلا تبتئس ! قبلني !

وطبع على ثغرها قبلة ميتة كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائما في فم ميديا ... وانطلقا الى الجانب القصي من الغابة المجاورة، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان ، وهناك، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه ، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر ... فترنح الوحش المخيف الرائع ، واستل جاسون جرازه ، وأغمده في صدر الافعوان الكريه ، فخر يتلبط في دم غزير ... وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة .. وعادا عجلين الى القصر الملكي الرهيب ، حيث كان وصيفاتها في انتظارها ، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر ، كما رسمت لهن ميديا من قبل ، وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير الى الآرجو .... اذا بالفتى أبستروس ، أخو ميديا غير الشقيق ، وولي عهد الملك ، يقبل لبعض شأنه ، فتغريه أخته بالسفر معها في رحلة جميلة الى أبدع بلدان العالم ... تساليا ... ويرضى ولي العهد ... وينطلق الجميع الى المرفأ حيث رست الآرجو ، فيركبون فيها ، وتقلع بهم في موج كالجبال

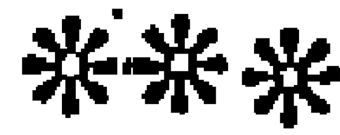


أقلعت الآرجو وطفقت تطوي عبابا من بعده عباب ،

ولجة من ورائها لجة ، وبدا الطريق كأنه يطول ، والافق كأنه يحلولك ، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز ايتيس وابنته وولى عهده ...

ونمى الخبر المفزع الى الملك فجن جنونه ، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفى آثار جاسون ، عسى أن يقبض عليه ، ويعود بابنيه وأعز كنزه ... وانطلق هو الآخر يطوى العباب ، ويتواثب بأسطوله فوق أعراف الموج ، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم ، ويستحثهم ويشجعهم ، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء فى حمرة الشفق ، أو المطوقة الورقاء فى صحيفة الافق ، فضاعفوا الجهود وشدوا الاذرع ، واستبقوا اليها من كل فج ، وكانت سفينة الملك فى المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب ، ونظر الارجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصى الموج نحوهم ، فراحوا بدورهم يعملون المجاديف ويهدهدون الشراع للريح ، وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر ، وكانت ميديا تنظر الى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفرق ... وفكرت فى ألف حيلة وألف سحر ، ولكن أفكارها ذهبت كلها آباديد ، وبطل سحرها كله ، فهو لا ينفع ولا يفيد ... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم ... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادى ، ويتوسل أن ترد اليه ابنه .. ابنه الأوحد .. أبستروس ... « ميديا ! ابنتى ! أنا أبوك ! أتوسل أليك ! ردى على ولدى واذهبى أنى تشائين ! انه أملى فى الحياة ! انه ولى عهدى وحافظ ذريتى ! ميديا ! أرسليه فى زورق واذهبى أنت ... ! » ولكن الفتاة غلقت فؤادها وسدت بالجحود سمعها ! واأسفاه ! يا للقاسية ! يا لبرودة القلب الذى لا يحس ، والنفس التى لا ترحم ؟ لقد أمرت

ميديا بالفتى فأحضر اليها ، ثم شحذت سكينا وأغمدته فى صدره ، وتدفق الدم الحار ... دم الشباب الفينان ... يلطخ اليد الاثيمة المجرمة ... اليد الشقية ، يد ميديا التى طوعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها ، ثم تقطيعه اربا .. ؟



ماذا خطر برأس الساحرة ؟ أواه ! لقد أخذت تمزق أخاها مزقا مزقا ، وكلما اقتطعت منه شلوا قذفت به فى الماء ، وأبوها المسكين المجنون يرى ، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله ، ثم يتلبث عند الشلو الذى يليه... وهكذا دواليك ، حتى انتشل آخر الامر الرأس العزيز ... الرأس الصغير الذى كان يبسم لاينع الآمال ، ويحلم بأجمل الامانى ... رأس أبستروس ... ولى العهد ، والامل المدخر لأمة بأسرها ...

لقد انتشر الظلام فى عينى الملك ... وغمر قلبه قنوط مر ... وأمر الملاحين فطووا الشراع ، وأخذوا يعودون أدراجهم الى الوطن فى بحر هادىء كله هم ، وكله حزن ، وجلس ايتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه ، ويخضبها بالدم الذى تذرفه عيناه

— آه يا بنى ! أية فروة وأى كنز ؟ ليتك خلصت لى بكل ملكى ! ميديا ! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة ! تبت يداك يا أغدر البنات ! ألا ليت أمك لم تلدك ... ! أبستروس ! رد على أيها الحبيب ... ! » وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد الى الوطن !

ولكن جاسون ما خطبه ؟ ! مسكين ! لقد كان ينظر الى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع ! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب هذا الاثم ... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان

يرقص فيها ألف جنى ، فسكت ! وهل كان فى وسعه أن يفعل شيئا ؟ ! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الاسود الذى أهلك جيشا بأكمله ؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبـــــــابرة ؟ ! بيد أنه عرف ماذا يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل ! لقد كان السر الرهيب المطوى فى صحائف الغيب هو الذى يصون جاسون من مبادلتها حبـــا بحب وغراما بغرام ، وقبلا حارة ملتهبة بمثلها !

وقد فكر جاسون فى ملكه الضائع المغتصب ، وفى أبيه الضعيف الطريد ، وفى عمه الجبار العتى ، وفكر فى قوة ميديا الخارقة ، فآثر أن يبقى عليها عسى أن تنفعه ... لهذا أظهر لها التودد ، وتعمل فى حضرتها البشاشة ... حتى وصلت الآرجو الى ايولكوس ، حاضرة تساليا ..

وحمل جاسون الفروة الثمينة ، وقصد الى عمه ...

وذهل بلياس ... وجعل يحملق فى الكنز العظيم الذى أتاه به ابن أخيه ... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق ... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعا ؟ !

ــ « ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هـــذا الكنز العظيم ؟ ان الملك كان أحرص عليه من نفسه التى بين جنبيه ؟ ألا كم هلك أناس طمعوا فى فروة فركسوس ؟ عجلا فلكان ! وأرض مارس ! وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين ... ؟ والأفعوان الهـولة الذى يحرس الفروة ؟ أظفر جاسون ــ هذا الفتى ــ بكل أولئك ؟ جاسون ابن أخى ؟ عجيب وحق الآلهة ... ؟ بل أسأله ، فلا بد من سر فى هذا الامر ... » وســـــأله ، وتبسم جاسون ، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب

فى جوانح عمه ، وظل يتغنى بشجاعته ، ويصف ما كان من ظفره بعجلى فلكان ، وحرثه الارض الجبوب ، وغرسه أنياب التنين ، ثم هذه الحرب الزبون التى شبها عليــه المردة وما كان من افنائه لجموعهم ، وتلك الملحمــة التى قتل فيها التنين الرهيب الذى وكلت اليه حراسة الفروة العظيمة ٠٠٠ ثم انه لم يشر بكلمة الى ميديا

وأكرم عمه مثواه وطلب اليه جاسون أن يتنزل له من العرش ، فمطله ، وراوغه ، وزخــــرف له الامانى ، حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به ، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها ، ولا يعكر عليه صفو الحياة أى من تلاميذ شيرون



ولقى جاسون أباه فراعه أن يرى كــــومة من العظام ، نخرها الكبر ، وجللها المشيب ، وأوهاها الحزن ، وأوهنها الالم المتصل ، وناءت تحت كــــوارث الزمان ٠٠٠ وبكى جاسون ! ولكن أباه انتهره وقال له : « أى بنى ! ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكى !انما يبكى النساء والمستضعفون من الرجال ٠ على أنه ماذا يبكيك ؟ ألا ان كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش ، فلهذا عهدت بك الى أستاذك العظيم ، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتى له حينما عهدت به اليه يهذبك ويؤدبك ، ولقــد أصبحت رجلا شيخا هالكا ، أما أنت فمن صباك فى ابان ، ومن عنفوانك فى ريعان ، وأنت بالعرش أحق منى وأولى ، وهو بك منى ومن عمك أليق ، ولن أغفر لك قعودك عنه ، وليس فى تساليا الا شعب يحبك ورعية تلهج بالثنــــاء عليك ، فشمر عن ساعدك ، واطلب حقك بالقنا يا جاسون»

وذهب الفتى ، وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة

على عمه ، فلقى أول من لقى ميديا

ــ ماذا ، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبى ؟

ــ لا شيء ••• لا شيء مطلقاً !

ــ لا شيء ؟ وكيف ؟ ألا تفهم ميـــديا ما فى نفسك ؟ حدثنى ولا تخف على ! •••

ــ لا شيء وحقك يا ميديا

ــ أومصر أنت على كتمان دخيلتك عنى ؟ اذن لقد كان أبوك يعظك !

ــ أجل ! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة •••

ــ قل يا حبيبى ! تكلم يا جاسون !

ــ ان لك الماما تاما بغرائب السحر ، وعلم التعــاويذ والرقى ، ولقد انفعنى علمك فى أحــرج مواقفى ••• ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عجلى فلكان ، وحاربت المردة ، وقتلت التنين ••• انما فعلت كل أولئك بمعونتك ، ولى رجاء اليك •••

ــ رجاء ؟ أى رجاء يا حبيبى ؟ انما لك أن تأمر •••

ــ شكرا • • ! الا تستطيعين يا ميديا أن تردى الشباب الى أبى ؟ أنه رجل شيخ محطم ، وان الايام لتنحدر به الى القبر ، كما تنحدر صفوانة (١) من شـــاهق •• فهل عزيز على علمـــك أن ترديه الى ما ولى من الصبى ؟ ••• خذى من عمرى فصلى عمره ان استطعت ! أتوسل اليــك يا ميديا أن تفعلى ! ••• »

ــ اطمئن يا حبيبى فليس أيسر مما طلبت ، وسأرده الى ميعة شبابه بقليل من العناء ••• وسأزيد فى عمره

(١) حجر

ما أحببت على ألا تنقص سنوك شيئا بل تزيد ان شئت؟!

لقد كان البدر تاما والليل الفضى الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة (١) ، وكل ما فى البـــرية نائما ساكنا والعشب الحلو كان نائما كذلك ... وكانت ميديا تخطر كالشبح الابيض بين الآكام وملء الادغال ، حتى أتت الى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها ... وتلبثت قليلا تفحص الطبيعة الرائعـــة فى الارض والسماء بعينيها الجبارتين ، ثم بدأت تتلو تعـــاويذها وتقرأ رقاها ... وتصلى للنجوم صـــلاة ســحرية كان يحملها الليل الصامت الى أرجاء السماء ، والى القمر الحالم الساهم ... ثم سبحت سبحا طويلا باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر ، وباسم تللوس ربة هذه الارض العجيبة النائمة التى تنبت البقل والعشب لما تعمل ميديا ، وصلت كذلك لآلهة الغاب والانهار والبحار ، والغدران ، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب ، وصلت لجميع الآلهة ، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرقى ...

***

ثم سكتت ، وصمت من حولها كل شىء ، حتى الرياح كتمت أنفاسها ، ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان ... ثم انفتح باب كبير من ذهب ، وبرزت منه عـــربة عجيبة يجرها أفعوانان هائلان ، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمى ميديا ... وتقدمت الســاحرة وهى تبتسم ، فركبت فى العربة وانطلق الافعوانان يجرانها فى الهواء ، ويرفان بها فوق الوديان والغـــيران ، وفوق قلل الجبال وهضاب الارض ، وفوق الغاب الساكن المستسر ، وفوق الانهار والبحـــار .. حتى انتهت الى آخر اقطار

(٢) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بنى أسد كرانة

الارض ، حيث تنبت الاعشاب العجيبة التى تنفعها فى سحرها ... وهناك ... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقى البقل ذا الاسرار ، ثم ركبت عربتها ، وانسابت فى الهواء حتى أتت بيت جاسون ، فنزلت بحملها العجيب ، وعرج الافعوانان فى السماء ...



وفى الصباح ، فوجىء جاسون بوجودها فذعر ذعرا يشوبه شىء من التفاؤل بعودة الشباب الى أبيه كما وعدت ... وأمرت أن يخلى بينها وبين ايسون حتى لا ترى عين الى ما تصنع ، ولا تنكشف أسرار سحرها لاحد ما من العالمين . ثم انها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتيه ربة السفر والسحر ، والآخر باسم هيب ربة الشباب ، وذبحت لكل شاة سوداء فاحمة السواد ، ثم صبت على دمائهما صلاة للربتين من خمر ولبن ... وتوسلت بعد ذلك الى بلوتو رب هيدز ، والى زوجته برسفونيه ألا يعجلا بقبض روح ايسون . ثم بدحت (١) نحو الرجل فتمتمت برقية أسلمته الى نوم عميق ، وأضجعته على فراش مهدته له من الاعشاب العجيبة التى حملتها من أقصى الارض ، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة، وشعرها المتهدل يداعبه النسيم ، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء .. حتى اذا أتمت دورات ثلاثا وقفت وشحذت سكينا ماضيا ، وجعلت تشعل أعوادا من عشبها وتنظمها حول المذبحين . ثم تناولت اداوتها التى حفظت بها أعشابها ذوات الاسرار ، وحفظت بها أزهارا فيها من الرحيق السحرى ما هو آية ، وجعلت فيها من حجارة

(١) اتجهت اليه

الشرق ورمال البحر المحيط ، ومن البرد الذى جمعته أثناء رحلتها فى ضوء القمر ، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها، وحوايا (١) ذئب ، وبقايا من صدفة سلحفاة ، ومـــزقا من كبد غزال ، ورأس غراب ومنسره ، وما الى أولئـــك من آثار الحيوانات المعمرة ، ثم صـــبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات ، واشـــعلت نارا فجعلت عليها الاداوة بما فيها ، وتركتها تغلى وتفور ، وهى فيما بين هذا وذاك تعــــوذ وتهمهم وتتمتم وتغمغم ، ثم تقلب ما فى الاداوة بغصن زيتون أملود ... فما كاد السائل يفور حتى تمت فى الغصن أفنان من الورق الاخضر وحبات من الزيتون ، يكاد زيتها يقطر منها ، وكلما نثرت منه على الارض شيئا نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينمو العشب فى ابان الربيع !



ثم شحذت سكينها مرة ثانية ، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته ، وتركت دمه ينبجس من الجرح الـكبير حتى سال أجمعه ، ثم انها صبت من الاداوة فى الجـــرح وفى الفم ، كأنما تجعل منه مكان ما ســـال من الدم . وما هى الا لحظة حتى دبت الحياة الفتية فى جوارح الرجل المهدم المحطم ... فهذا شعره يسود ويصير فاحماغربيبا ... وهذا وجهه الجعد ذو الاسارير يمتلىء باللحم وبالدم، وهذا ظهره المحنى يستقيم ويمتلىء قوة وعنفوانا ، وهذا دم الشباب يجرى فى عروقه كما كان قبل أن يكتهل ، وها هو ذا يثب كالغلام الامرد السمهرى ، ويشـــب على اخمصيه كأرشق ما يفعل الصبيان ! وها هو ذا الوجـــه يكتسى جمال العصر الخالى ... ثم ها هو ذا جاســـون

---

(١) أحشـــاء

يقبل من بعيد فينظر الى ابيه وكأنه فى حلم ... ويعانقه ويهنئه ... ويشكر ميديا ... ويبكى !!

ــ أرأيت يا حبيبى ؟ أليست لك حاجة بعد ؟

ــ وكيف يا ميديا ؟ انى مفتقر أبدا الى واسع علمك ، ومبين سحرك !

ــ أمهمة أخرى ؟

ــ أجل يا ميديا ! ألا ترين الى والدى مطرودا من عرشه ، وأن الحزن يقتلنى من أجل هذا ؟ ألا تصنعين شيئا ينفعنا فى ذلك ؟

ــ ولم لا تقتل عمك ؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم ؟

ــ أنا ضعيف ياميديا .. وهو رجل جبار وله جند...

ــ اذن أنا أكفيك مؤونة ذلك ..

***

وأخذ ايسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس ، ويعجبون لهذا الشباب الذى تدفق فى برديه ، فيسجدون له ، وان منعهم الجند وطاردوهم ... وعلم بنات الملك بما ردت ميديا على عمهن من رونق الصبى ، وما ألبسته من رواء الشباب ... وكان أبوهن قد بلغ منه الكبر ، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب، فوددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع ايسون ... واتصلن بالساحرة ، وأغرينها بالمال، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد الى ابيهن الصبى ، حتى لا يغلبه على الملك ايسون ولا ولده جاسون ... وأحضرت الاداوة بما وعت من عشب ، ثم جىء لها بالشاة السوداء ، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية ، وكانت الاداوة تغلى بما فيها من سائل عجيب ، قفزت الشاة فكانت فى الاداوة ، ثم قفزت منها فكانت حملا

وديعا جرى الى السهول يرعى العشب ... وطرب البنات حين شهدن آية السحر واعجازه .. ثم جيء بالملك وحراسه ليشهدوا ... وأعطت ميديا كلا منهن سيفا مسلولا وتمتمت بكلمات فدارت الارض برأس بلياس وصحبه وحراسه، فسقطوا وغطوا في سبات عميق ... وأشارت ميديا الى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره، لتبدأ هي عملها ... فتلكأن أول الامر .. ثم أطعن ، وحركن أيديهن بالسيوف في ضعف وفرق ، فأحدثن به جروحا أيقظته .. فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن : « ويلاه ! بناتي يقتلنني ؟! » وخافت ميديا أن يبطل سحرها ، فبدت في صورة احدى بناته ، واستلت سيفا مرهف السنان ، وأغمدته في صدر الملك اللص .. فمات الى الابد .. وأغمض عينيه ليفتحهما في هيدز ، وفي هيدز فقط !

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت اليها العربة التي يجرها الافعوانان ، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج ، فركبتها ولاذت بالفرار ، قبل أن يكشف صنعها أحد !

سبحان مقلب القلوب ! ان كل هذا السحر لم ينفع ميديا ! لقد كان قلب جاسون مغلقا دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالا أبرياء أطهارا أنقياء كالثلج !! لقد أحب جاسون الاميرة كروزا ملكة كورنث وأحب هذه المرة حبا صريحا لا يشوبه ذعر ، ولا تعكره التعاويذ ، ولا تتلفه رقى السحر .. وأعلنت الخطبة ، فجن جنون ميديا ! واسودت الدنيا في قلبها وعينيها .. وهالها نكران جاسون جميلها الذى ناله مثنى وثلاث ورباع .. ولم لا ؟ أليست هي التي مهدت له سبيله الى العرش ؟ أليست هي قاتلة بلياس ؟ اذن ، فالويل له !!

ودست الى أميرة كورنثا ثوبا لو اجتمعت الجن والانس لم تقدر على مثله ، فلما كانت ليلة الزفاف ، لبسته كروزا ، ولكنها ماتت لساعتها ! أواه ! لقد كان الثوب مسموما ، وكان ما به من سم يكفى لقتل شعب بأسره !

ولم تكتف الساحرة بذلك ، بل شحذت سكينها ، وأعادت مأساة أبستروس ، فقتلت جميع أبنائها من جاسون .. وأشعلت النيران فى القصر الملكى ، وفرت الى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها ايجيوس، ولتلقى ثمت مصرعها !

# فيـــــنوس

## ربـة الجـمال والحب



تعالوا يا أعزائى المحبين نسمع اغنية الجمال والحب، من ربة الجمال والحب ، بارزة من الشبج ، فوق الموجة الكبيرة ، وسط اليم

لقد كانت السماء زرقاء صافية ، ولكنها لطفت ورقت وتضاعف صفاؤها ، عندما ذاع فى ملكوتها النبأ العظيم، وبشرت بمولد فينوس !

ابتسمى ايتها الشفاه الحزينة ، وانبسطى أيتهـــا الاسارير المقطبة ، واثلجى يا صدور المكلومين !

وأنت أيها القلب الملتاع قف خفقانك ، وأنت أيهـــا الطرف الساهم كفكف عبرتك ، ويا نفوس العاشـــقين اطربى ، فقد ولدت فينوس !

برزت عرائس البحار يصلين فى بكرة الصباح لابوللو، فما راعهن الا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الابيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية ، وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نورانى فيسجد الماء تحت قدميها الصـــغيرتين ،

---

(*) اسمها اليونانى أفروديت ، وسميت فى أساطير كثيرة ديون ، كوثيريا ، وهى الهة الجمال والحب ، وربة الضحك والزواج.

متمتما بصلاة الحب لربة الحب ، مرتلا أنشودة الجمال لربة الجمال !

وافتر فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة ، يحيى الفم السعيد الحلو ، الذى سيملأ قلوب العالمين رضى وسعادة!

وأشرقت ذكاء تحمل أبوللو ، فلمح السوسنة الوردية تخطر على لازورد الماء ، فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء ، وانثنى هو يزف البشرى الى آلهة الاولمب !

وهرعت عرائس الماء الى فينـــوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين ، وحملنها الى قصورهن المرجـانية فى الاعماق ، حيث أرضعنها لبان الهوى ، ولقنها كلمـات المحبة ، ونشأنها على اساليب الصبابة والغــرام ، حتى أينعت وترعرعت ، فأزمعن المسير بها الى الاولمب حيث يتلقاها الآلهة ، فتأخذ مكانا بينهم ..

وكم كان جميلا رائعا أن يصطف التريتون والاوسيانيد والنيريد (١) من حولها ، وكم كان جميلا رائعـا رقص التريتون على صفحة الماء الجيـاش بالزبد ، وتغريد الاوسيانيد كأنها بلابل الروض الاخضر ترسل فى هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله !

وكم كان جميلا رائعا من النيريد أن يتضاحكن مترنمات فى الحلقة الاولى حول فينوس فتستجيب السماء لهن ، ويميد البحر من طرب بهن !

كم كان جميلا رائعا أن يخب موكب الحب فوق الماء ،

---

(١) التريتون هم أبناء نبتون اله البحار ونصـفهم الاعلى نصـف رجل والاسفل نصف سمكة ـ والأوسيانيد هن عرائس المحيطات وأجمل عرائس الماء وهن بنات أوسـيانوس رب المحيطـات ومنه اشتقت Oceans والنيريد طائفة اخرى من عرائس البحار وهن بنات الاله نيروس

حتى يكون على فراسخ من قبرص معدودات ، فينثنى الجميع ، الا فينوس التى يهدهدها زفيروس الطيب ، رب النسيم الجنوبى ، حتى يصل بها الشاطىء ، حيث يكون فى انتظارها بنات تيميز (١) ربة العدالة ، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن ، فيتقدمن الى ربة الحب ، فيصلين لها ، ويجففن شعرها الذهبى المتهدل فوق كتفيها العاجيتين ، ثم تدلف بينهن ، لفاء هيفاء ، غراء غيداء ، مهتزة الجيد ، وضاحة الجبين ، كلما خطت خطوة قبلت الارض قدميها المعروقتين ، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا ، واعشوشب وأزهر ، حتى يلقاها الهة الحب الاربعة ، رب الشهوة هيميروس ، ورب الغزل سواديلا ،ورب الالفة بوثوس ، وهيمين رب الزواج ، فينخرطون فى الجماعة ويهطعون الى الاولمب !

وتكون الانباء قد تواترت عن قدوم الربة الجـديدة ، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه ، حتى تصل فينوس فجأة فتستوى عليه ، وتتصارع أبصار الالهة العطشى حول جسمها الخصب ، المترع بالمفاتن ، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الاحوى الجميل ، وتسرى كهرباء الاشــــتهاء فى الاذرع القوية ، والصدور الهرقلية ، تحلم بضم الجيد الناهد ، ومخاصرة الوسط المياس ، و .. كأنها العنقاء ترسل اللمحة من طرفها الساجى فتصرع هؤلاء وهؤلاء !!

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد فينوس ، وكان كل اله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء . وكان مضحكا أن يسفه الالهة بعضهم بعضا بين يدى ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعا ، وخبرت من حماقتهم مالا يتفـق

(١) بنات ثيميز هن ربات الفصول الاربعة ، وبنات يورينوم هن تاليا وأحاليا ويوفروسين

وهذا الورد المتفتح في خديها ، والسحر النـــــائم في مقلتيها ، والفتنة الثاوية في كل جارحة من جارحاتها ، فرفضتهم أجمعين ، وان تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الاولمب

ولم يغض الآلهة عن تحقـــير فينوس لهم ، بل انقلب اعجابهم ثورة ، وارتد افتتانهم نقمة ، وود كل منهم لو خلى بينه وبينها فيبطش بها بطشا شديدا

وأجمعوا أمرهم ضحى ، وذهبوا الى زيوس يطالبونه بالاثئار لكرامتهم كأرباب مرهوبي الجانب مخـــوفي السلطان ، من ابنته ربة الحب الطائشة !!

وخاف زيوس من ثورة الآلهة ، وافزعه تجمهرهم في ردهة الاولمب يتصايحون ويصخبون ، فخرج اليهم هاشا باشا ، ودق بصولجانه على الارض المرمرية وقال : اخواني .. أبنائي :

« لستم أنتم وحدكم تنقمون من فينوس الجميلة ما بدر منها في حضرتكم من زهو وخيـــــلاء ، بل أنا معـــكم ناقم على هــــذه الابنة العـــاقة التي صعرت في حضرتي خدها ، وشمخت بأنفها ، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاما ..

لتطب نفوسكم يا اخواني ويا أبنائي .. لقد أصدرت الساعة ارادة أولمبية تقضي بأن تتزوج فينوس المتكبـرة المتغطرسة ، المختالة ، من فلكان الحداد ، صانع دروعكم ولجم خيولكم ! »

وما ســـمعها الآلهة حتى صـــاحوا لسانا واحدا :

« ليحي زيوس العـــادل ! تقدست يا زيوس ! طوبى لك يا أولمب ! »

وكان فلكان بين الجماعة وهي تهتف ، ولـــكنه كان

مشغولا عنها بتلك السعادة التى هبطت عليه من السماء ، وكان يحمل أرزبته الهائلة ، فلما سمع النطق الاولمبى ، ضرب بها الارض ضربة راجفة ، أحس بها بلوتو فى أعماق الجحيم ...

***

ـ « يحسب الآلهة أننا معشر الربات ملك ايمانهم دائما ، يتصرفون بنا كما يحلو لهم !! ما عليهم الا ان يأمروا ، وما علينا الا أن نطيع ! لقد كنت أوثر ان ألبث فى القصور اللرجانية فى أعماق الاعماق ، على ان تشرق على شعاعة من أشعة الشمس الدافئة التى يرتفع فيها أولئك الآلهة العتاة الظالمون ! »

ـ « هونى عليك يا مولاتى فقد يصفح غدا سيد الاولمب !

ـ « يصفح أو لا يصفح ...

ـ « يا للهول ! ...

ـ «أى هول يا فتاة ...

ـ « ينبغى ألا تعرضى نفسك لغضب رب الارباب ...

ـ « رب الارباب ! أنت تضحكيننى يا أجمل العرائس الاوسيانيد !

ـ « مولاتى ... !

ـ « ان رب الارباب يحكم دنيا من الخزعبلات .. أما القلوب .. أما قلوب العذارى .. فالحب وحده يتولاهن ، ويهيمن عليهن ..

ـ « الهتى فينوس ...

ـ « لا تنزعجى هكذا ياعروس الماء .. لقد ولدت لاكون ربة الجمال والحب .. فأولى لى ثم أولى ، أن أسعد بالحب ، وأن أختار من ذوى الحسن متعتى

الغالية ونعيمي الاوفى .. فلكان !! أنا أقســـم أن هذا الحداد لا يفرق بين القبلة والجذوة ، ولا بين نشـــوة الحب وزفير الكير ! وأخشى أن يغازلني يوما فيقـــذفني بارزبته • يحسبها ريحانة او زنبقة ! يا للحداد القذر ! »

ــ ولكن زواجكما تسجل فى السماء ياربتى !

ــ « ان كان سجل السماء مدنسا بكل هذه المقـــابح الاســـــتبدادية ، فأنا ••• فينوس ربة الجمال والحب والزواج .. آنف أن يدرج فى صفحاته أسمى !

والآن اســـمعي يا أوســيانة (١) ، اذهبي الى حبيبى مارس (٢) فبلغيه أننيمنتظرته الليلة ، بعد مغيب الشفق، تحت السنديانة الكبرى فى أول منعرجات الغابة .. »

***

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشـــــاء ، وتستعرض الآلهة (٣) ، تقبل منهم على من تشـــاء وتعرض عمن تشـــاء ... وما أكثر القطيع وما أشـــد نهم الذئب !

لقـد علقت مارس القوى اله الحرب ، ورب الدمار ، ولم تبال بزوجها الفظ القذر المنتن ، الـــذى لا يميز جرس الموسيقى من طرق الحـديد ، ولا نسيم الجنـــة من زفرات الجحيم !

وعلقها مارس وافتتن بها ، حتى لكان يعد دقات قلبـــه دقة فدقة ، حتى يلقاها ، فتهدأ اعصـــابه ، ويطمئن قلبه ، ويثوب اليه رشده

---

(١) واحدة الاوسيانيد (٢) اسمه اليونانى ايرس

(٣) فى الميثولوجية اليونانية الالهة هم أبناء الخلص فأنصاف الالهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر فى حين تكون الام الاخرى أو الاب الآخر من الآلهة ..

لقد كانت فينوس فتنة حقا !

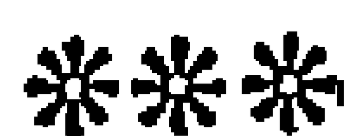
لقد كانت تتلألأ كتمثال من النور ، فى اهاب من البلور! وكان لها شعر كأشعة الشمس ، يغدودن فـــوق كتفيها العاجيتين ، فيظل النسيم العاشق يقبله .. بل يعبـــده فاذا تعب ، تركه لينتثر فوق الخصر أو الصــــدر ، ثم يعود اليـــه بقلوب الآلهـــة وارواحها ، فينثرها تحت القدمين الدقيقتين الرقيقتين ، لتسحقها فينوس الجبارة

والسعيد الســـــعيد من فاز بابتسامة من هذا الفم الاحوى المفتر ، أو غمزة من ذاك الطرف المفتر ، أو اشارة من ذلك البنان المخضوب بدم العاشقين !

وكان مارس لايخشى من أعين الرقبـــاء مثل ما يخشى من عينى أبوللو ، ولذا كان اذا وافى فينـــوس فى هـــذا المنزل الغرامى السحيق ، فى أعمق أحشــــاء الغـــابة ؛ ترك خادمه أليكتريون عنـــد أول الشــــعب المؤدى الى الطريق العـــام ، يلحظ المارين وينبه الى خطر الاعداء والناقمين ، حتى يكون الاليفـــان بنجوة من الفضيحة ، وفى حرز من ألسن الكاشحين .. فاذا تبين الخيط الابيض من الخيط الاســـود من الفجر ، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين ، فينهضان من غفـــوة الهوى الى يقين الفراق ، قبل أن تشرق الشمس

ولكن ! لقد ذهب العـــاشــــقان يتراشـــفان كؤوس الهوى دهاقا ، حتى اذا نال منهما الجهد وترنحت أعينهما تحت عبء الســـــهاد الطويل ، انبطحا على الحشيش الاخضر : هو الى جانبها وهى الى جانبـــه ، غريقين فى ســـــبات هنىء ! ولمح أليكتريون ظبيا نافرا ، يتفزع فى ظلام الغـــابة ، فتبعـــه ، وطفق يعدو وراءه حتى لحق

به بعد عناء شـــديد ، فاحتمله ، وعاد به الى مركزه من مكان الحراسة ... ولكنه ما يكاد يصـل ثمة ، حتى يساقط متهدما من التعب ، ويغلبه نعاس عميق ..



وأشرقت الشمس !! وبرزت المركبة الذهبيـة حاملة أبوللو ، رب هذا الكوكب المشرق المتـأجج ، وبـدأت رحلتها السـماوية ، وأخذت ترتفع فى العلاء رويدا ، حتى اذا كانت بمنزلة الضحى ، أطل ابوللو فرأى مارس الاثيم ، وفينوس الغـاوية ، متعـانقين على الحشيش الاخضر ، وكانت بين أمه لاتونا ، وأمهاديون ، مايكون عادة بين ( الضرائر ) من بغضـاء وشحناء ، وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعا بأنها أم فينوس وحسب! وكانت لا تعدل بابنتها واحدة من جميلات الاولمب ، بما فيهن ديانا أخت أبوللو ، وابنة لاتونا

انطلق أبوللو والشـماتة تضطرب فى قلبه الناقم على فينوس ، يحمـل الخبر الفاجع الى فلـكان ، فألفاه مستغرقا فى صنع شـبكة حديدية هائلة ، والنار تتلظى فى أتونها الكبير ، والدخان ينعقد فى جو المصـنع كأنه ينقذف من بركان ، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الاديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل ..

ـ « فلـكان ! ... »

ـ « هـلا ... أبوللو .. ماذا جاء بك فى هـذه الضحوة ... وأنى غادرت عربتك ؟ »

ـ « آثرت أن أطأ ثرى هـذه الأرض بقدمى على ان

تحملنى بوح (١) ، وقد تدنس شرف الاولمب بالفضيحة المزرية ! ... »

ــ « الفضيحة المزرية ؟ ماذا وراءك يا أبوللو ! .. »

ــ « فلكان ! أين زوجك ؟ .. هل أويت اليها الليلة ؟ »

ــ « ماذا ؟ ... »

ــ « أو لم تفقه بعد ؟ .. ولكن قل لى : ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة ؟ »

ــ « أصنع شبكة كبيرة ... »

ــ « ولم ؟ »

ــ « لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماى ... وأنا لابد صائده »

ــ « هلم ، هلم .. »

ــ « والى أين ؟ ... »

ــ « تصيده .. ألم تنته من صنعها بعد ؟ »

ــ « بل انتهيت .. وأين هو هذا الوغد ؟ »

ــ « على الحشيش الاخضر ، فى أول شعاب الغابة ، مما يلى الطريق العام »

ــ « ومع من ؟ ... »

ــ « مع .. .. انه قطعة واحدة مع .. فينس »

ــ « معها ؟ .. ياللهول ؟ .. ياللعرض الاحمر ؟ .. »

***

واحتمل شبكته العظيمة ، وانطلق الالهان الى حيث .. النائمان الحالمان الآثمان !

---

(١) الشمس

لقد كانا ملتصقين التصاقا تاما .. حتى ما يكاد ينفذ الماء بينهما !

ونسى كل الف شفتيه في شفتى الفه ، فهما جلنارتان تبثان نجوى الهوى الى جلنارتين

يا لله !

ليس هذا فسقا أيها الالهة ، بل هو التمـــازج الذى سميتموه الزواج (١) !

وانقض فلـــكان كالمذنب المدمر ، فألقى شـــبكته على الخائنين !

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر ، وانتفضت فينوس وهى تكاد تذوب من الخجل ! ولكن ! أى ذعر وأى خجل ، وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين !!

لقد مضى فلكان ، بعـــد اذ ربط الشبكة بما كسبت فى أصل دوحة كبيرة ، وعاد بـــكل الاسرة الاولمبية ( لضبط الحادثة ! )

***

وكانت ساعة رهيبة ، انصبت فيهـــا لمزات الآلهة الناقمين على رأس فينوس ، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها ، وهى ماتكاد تبين !!

وأطلق فلكان سراحهما ، أما فينوس فذهبت تنشـــد عشاقا آخرين !

وأما مارس ، فمضى الى حيث خادمه الاحمق اليكتريون ، فألفاه لا يزال يغط فى نومه غطيطا مزعجا ، فركله ركلة أطارت صوابه ، واخذ بتلابيبه فخضخضه تخضيضا !

ثم انه اقسم لينتقمن منه انتقاما يكون أحدوثة الابلد

(١) هذه السطور من كيتس وهى من أبدع شعره فى فينوس

وضحكة العباد ، فنفث فى آذنيه نفثتين ، ارتد بهمـــا الخادم المسكين ديكا عجيب الصورة ، أرجوانى التـــاج ، طويل الجناحين ، عظيم الذيل !

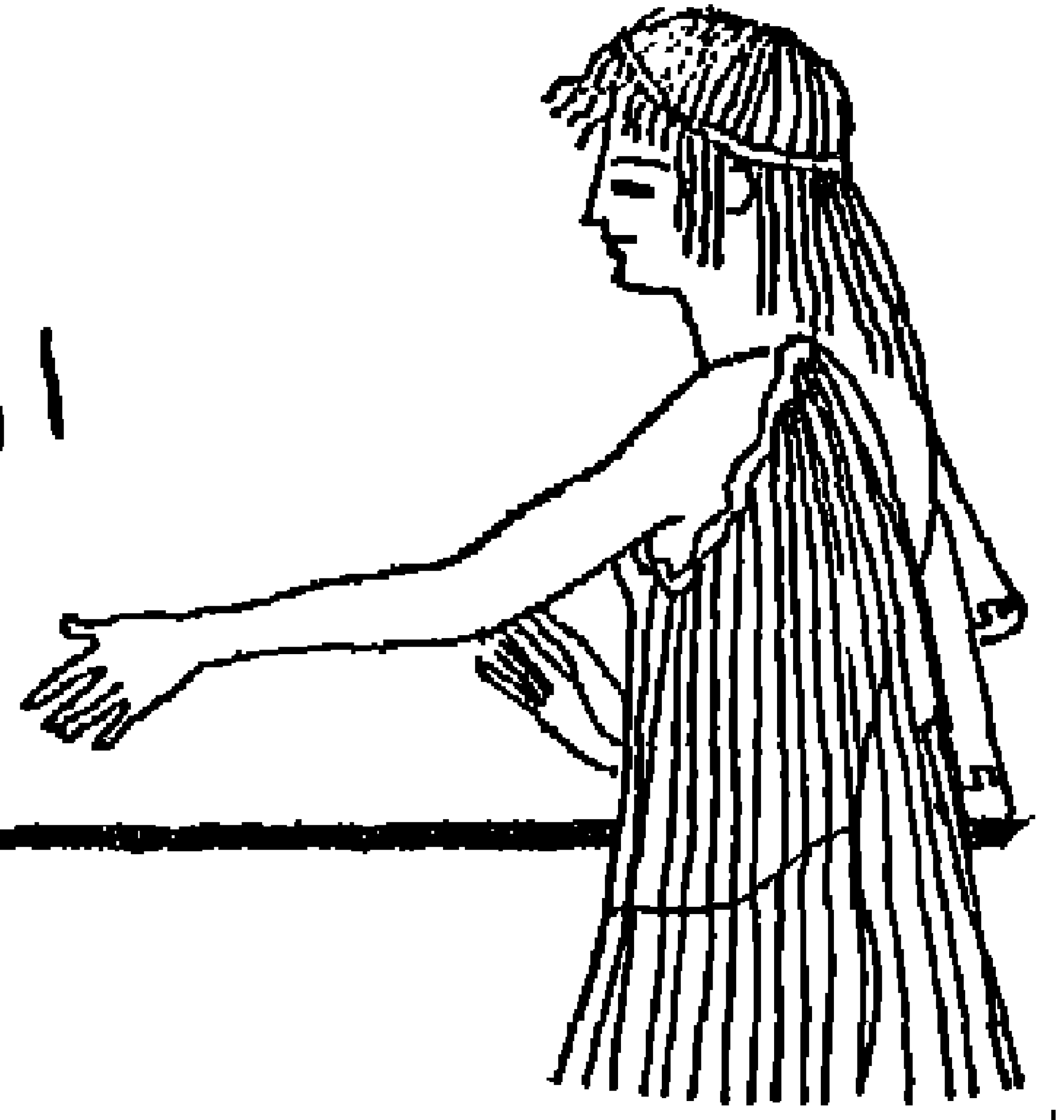
وركله مارس ركلـــة ثانية ، وقال له : « اذهب فلن تذوق عيناك غفوة الفجر أبد الابدين ، ودهر الداهرين ، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح فى النائمين :

ويحكم أيها الغفاة ، هبوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس !! ...

***

ولا يزال اليكتريون ، ديكنا المحبوب ، يوقظنا قبيـــل الشروق الى اليوم !! ...

# القرية الظالمة



ذهبا يدلجان فى هداة الليل ، ويضربان فى ظلام الوادى ، ويتحدث أحدهما الى الآخر حديث الآلهة ، وكلما نال منهما الجهد ، جلسا يتسامران أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة ، الى السحر الذى تنفثه قيثارة الفتى اليافع

— « حسبك يابنى ، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة »

— « وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه ؟ »

— « أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجبا هذه الليلة من طبائع الناس • أترى الى هذه القرية النائمة فى أكتاف الجبل ؟ »

— « أين يا أبى ؟ »

— « انظر جيدا »

— « الظلام دامس ، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئا ... »

— « انظر فى الجهة التى تشير اليها يدى »

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد كشفت القرية للفتى

ـ « آه • هذه هى • عمش خفيف أصابنى الليلة يا أبتاه ! »

وكان الفتى حلو الدعابة ، رقيق النكتة ، ثرثارا ، فقال له الشيخ يحــــذره :

ـ « اذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثا ، ولا تخاطبنى الا أن أخاطبك ، واياك أن تأتى باشارة تسقط هيبتنا فى أعين القوم ، فانهم لؤماء سفهاء ، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة الى هذه القرية ! »

ـ « نسيت القفل يا أبتاه ! »

ـ « أى قفــــل ؟ »

ـ « الذى أقفل به فمي فما يتحرك ببنت شفة »

ـ « يا خبيث ... أصمت »

***

وأشار الشيخ بيده الى الســـــماء فاربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها ، وانصبت ميازيبها بمــــاء منهمر ، وانطلقا الى القرية !

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذى شرفات ، فقال الشيخ :

ـ « تشبث يابنى بأحياد الحائط حتى تكون عنــــد النافذة ، فانظر ماذا ترى »

وفعل الفتى ، ونزل ، وقال للشيخ :

ـ « أبتاه ! نسوة عاريات يرقصن ، وندامى وخمر ، و .. وموسيقى وفتيات .. و .. »

ـ « وماذا يا صغيرى العزيز ؟ »

ــ « ودعارة وعهر يا أبتاه ··· لماذا جئنا هنا ؟ لماذا جئنا هنا ؟ ··· »

ــ « قلت لك جئنا لاريك عجبا هذه الليلة من طبائع الناس هلم الى باب هذا المنزل »

وطرقا الباب ، فبرز لهما فتى غرانق وقال : « ماذا ؟ شحاذان قذران ! » فقال الشيخ :

ــ « على رسلك يا بنى · أنا رجل شيخ غريب ، وهذا ابنى ، وقد فجأتنا العاصفة فلجأنا اليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة الى الصباح ، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات ··· »

ــ « غرفة ولقمات ؟ ها ها ··· اذهبا اذهبا ··· لصوص ! هذه حيل قطاع الطرق والسفاحين بلوناها من قبل »

ثم قذف بمصراع الباب فى وجهيهما · فنظر الشيخ الى ولده وقال : « أرأيت ؟ سر الى هذا البيت القريب »

وقال لابنه : « هلم الى النافذة فانظر ·· »

وتسلق الفتى وحملق قليلا ، ثم قفز وقال : « أبتاه ! أناس يخزنون الذهب فى خوابٍ عظيمة ، ويختمون عليها بالرصاص المذاب ، من أين لهم بهذا الذهب كله يا أبى ؟ ·· » فقال الشيخ : « هم لصوص يا بنى ، وان كانوا لا يقطعون طريقا ، ولا يسطون على دار ، ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعوز ، ويصهرونه ذهبا ويكنزونه هكذا ؟ ! انهم أصحاب هذه الضياع والبساتين ! هلم الى بابهم ··· »

وطرقا الباب ، وسألا طعاما ، ومبيت ليلة ، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار :

ــ « ان هذا العام عام شدة ، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع ، ماذا عندنا لنعطيكم ؟ هيكل زيوس قريب

من هنا فناما فيه ، وكهنته أسخياء كرماء ، وعندهم فى كل آونة خمر ... سيطعمونكما ويسقونكما ! وربما قدموا لكل منكما غادة ! فهم فساق عرابيد ... انطلقا اليهم ... اذهبا ... »

وقذفت بالباب فى وجهيهما ...

قال الشيخ : « أرأيت يا بنى ؟ » فقال الفتى مداعبا : « نحن نستحق أضعاف هذا الهوان ! ما لنا وللناس ؟ !» ، فقطب الرجل جبينه وقال : « مالنا وللناس ؟ اذن ما نحن فى هذه الدنيا يا بنى ؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة ، سر بنا الى ذلك القصر العتيق »

فلما كانا عنده ، تطلع الفتى فرأى صحبا كثيرا لا يزال يتعشى ، والموائد حافلة بالاشربات والاشواب ، وبكل مالذ وطاب . والندامى البيض كالنجوم رافلات ، ورافلون ، فى وشى وأفواف . وكأن الفتى استطير من العجب ، فقال للشيخ : « كل الناس هانئون هذه الليلة المقرورة الانحن !! الجميع يأخذ فى نشوة ولذة ونحن نضرب فى وحل وننشق من غيظ ؟ ! »

قال أبوه : « ألم أقل لك ألا تبدأ حديثا حتى ابدأك ؟ هلم الى الباب »وقرعا الباب فبرز لهما شاب مفتول العضل كأنه هرقل . فلما سألاه حاجتهما ، قادهما الى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع

قال الشاب المفتول : « اليكم أيها الاخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيرا فى قريتنا هذه . ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة ... ... انهما يطلبان مبيتا وعشاء ، ولا أدرى لم لم يقصدا الى هيكل الاب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير ؟ ! وحيث أشياء أخرى ... ... »

وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين ، ثم اخذوا معهما في الوان غير محتشمة من المزاح الثقيل . هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراء ، وهذه تعانق الشيخ وتقبله وتقدم له كأسا من الخمــر ، وتلك تركب الفتى « زقفونه ! » (١) ... ..

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى ، نظر أحدهما الى الاخر نظرات ، ثم غابا عن انظار الجماعة ، كأنما تحولا الى هواء ... ؟ ! فشده القوم وأوجسوا خيفة



لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الموحلة من بيت الى بيت ، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزىء بهما وطردا شر طردة وأخسها ، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البــــلد البخيل ... فقال له : « اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة في حيد الجبل ، وسأتسلى بموســـيقاي حتى تعود » فقال الشيخ : « وحــــكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك ؟ هلم ، هلم ... أترى الى ذلك الكوخ ، لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا »

وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت . فلما نظر الفتى تمتم يقول : « أبتاه ! امرأة مهدمة وشيخ محطم ايا لبؤس الحياة ، ويا لطف العيش ! لماذا آثرت العاصفة يا أبي ؟ ان الماء ينزع عليهما ويبلل فراشهما ... » .

— « ستري أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى »

— « ماذا تعني يا أبي ؟ هل تهدم القرية ؟ »

— « صه ! هلم فاطرق باب الكوخ »

---

(١) لم نعرف غير هذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الانسان مع لف الساقين والذراعين حول الوســـط والعنق وابتكرها ابو العلاء في رسالة الغفران فنقلناها عنه

ـ « قم يا فيلمون ·· ان بالباب طارقا » ··

ـ « نامى يا بوسيز ! انه البرد ترجم به العاصفة »

ـ « لا · ليس بردا · اسمع ! أناس ينادون · قدتكون بهم حاجة »

ونهض فيلمون متهالكا على نفسه ففتح الباب · وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش ، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء

ـ « مرحبا مرحبا ··· أنتما فى حاجة الى دفء · بوسيز · انهضى يا امرأة فأوقدى نارا · أنا أعرف أن الحطب مبلل ، ولكن حاولى ··· مرحبا يا كرام ومعذرة ، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر · بوسيز ، هاتى قربة النبيذ أولا ·· ليس فيها الا صبابة ! لا بأس ، فسيبارك زيوس للضيفين فيها ·· هاتى شيئا من المشمش الجاف يا امرأة ! ·· »

وتأتى بوسيز بقربة النبيذ ، وما يكون فيها الا ثمالة ، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء ، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلىء نبيذا من خير ما عصر باخوس ، وبعد أن يروى منها هو وابنه ، يدفع بها الى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد اليها فم ! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول : « بحق زيوس الا ما أخبرتنى أيها الصفى الصالح من أنت ؟ » فيقول الشيخ : « أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار ، وهذا ابنى الموسيقى البارع · أتطرب للموسيقى؟»

ويهتز الرجل ، ويوقع الفتى على قيثارته لحنا كأنه لسان العاصفة ، فما فيها من سنا برق ، وهزيم رعد ، ومكاء ريح ، وتنقير مطر ، ثم هو مع ذاك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب ··· وطرب فيلمون ، ورقصت جوانح بوسيز ، وأحضرت طبقا به قليل من

المشمش الجاف فقدمته للفتى ، ناسـيـة أن تقـدمه الى الشيخ ، وهذا من أثر الموسيقى فى أعصابها ، ثم قدمتـه الى أبيه فى أدب واحترام ٠٠ وما كادت اليد البيضـاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت اليها النضارة ، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة ، وتضاعفت فى الطبق حتى ملأته ٠ فأكل الشيخ ، وأكل ابنه ، وأكل فيلمون وزوجته ، وهما لا يصدقان ما يريان !

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم ، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف ٠ وكانت لديهما اوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحهـا ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين ، ليريا ماذا يكون من أمرها ٠ ولكن الاوزة فزعت فزعا شديدا ، وانطلقت فى ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه ٠ فابتسم ، وربت على ريشها الناعم النظيف ، وأجارها من سكين فيلمون

وكان نسيم السحر قد أخذ يهب فى الافق الشرقى ، فقال الشيخ :

ــ « أيها العزيز فيلمون ٠ ايتها التقية الكريمة بوسيز، من الهكما ! »

ــ « الهنا زيوس تبارك فى علياء الاولمب ٠٠ »

ــ « أو يسركما أن يكون معكما الآن ؟ »

ــ « معنا ؟ هو دائما معنا ! »

ــ « أجل هو دائما مع عباده المخلصـين ٠ ولـكن ، أيسركما أن تكونا فى حضرته يحدثكما وتحدثانه ؟ »

فيصيح فيلمون :

ــ « أنت هو زيوس ٠ تقدست ٠ تقدست »

ويسجد الرجل وزوجته ، وما تفتأ تأخذهما رعـــدة شديدة

ــ « أجل . أنا زيوس . أتيت أبتلى هذه القرية . وهذا ولدى هرمز . انهضا . والآن ستزلزل الارض زلزالهــا فلا تنزعجا .. »

ووقف زيوس ، وأشار بيده اشارة خفيفة الى الشرق ، ثم الى الغرب ، ثم الى الجنوب ، ثم الى الشمال ، ثم نظـر الى فوق وتمتم بكلمات وجلس

وما كاد يفعل حتى رقصت الارض ، وسمع كأن الجبل القريب يندك ، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها، وتنقلب القرية الى جحيم ملتهب ، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفـة الزلزال ، فيطمئنهما زيوس

ــ « الكوخ يا الهى ! أنا رجل فقير ! »

ــ « مال كوخك يا فيلمون ! »

ــ « اذا انهدم عشت فى العراء ! »

ــ « لا عليك ! فلن تقوض الزلازل الا قصور العتاة ؟ »

وأشرقت الشمس ، فنهض الاله الاكبر ، ونهض الجميع معه . وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب ، وارتد على عقبه مذعورا :

ــ « مولاى ! لمن هذا القصر المشيد ؟ »

ــ هو لك يا فيلمون ، أمرت الآلهة فبنى لك فى ساعة السحر جزاء كرمكما . هلما نشهد غرفاته »

وانطلق الجميع يتنقلون فى غرفات القصر وردهاته ، وكلما مر فيلمون وزوجته بتمثال اله سجدا له وأخبتا ، حتى اذا كانوا فى أكبر ردهات القصر، وقف زيوس وقال:

« فيلمون ، هذا هيكلى ! وقد جعلتك كاهنى الاكبر ، فتمن الآن على ، فسأجيبك الى كل ما تطلب »

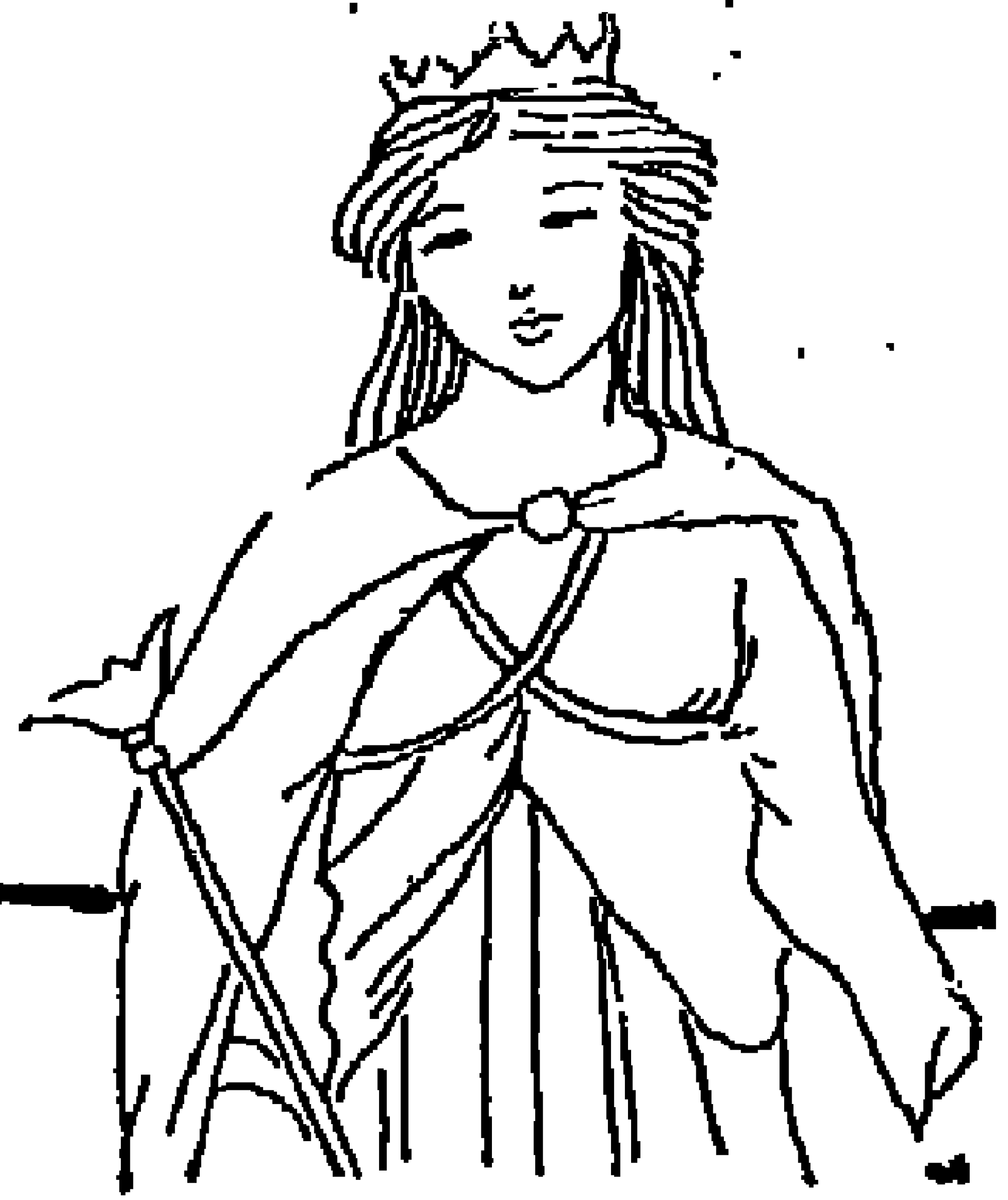
فتبسم فيلمون وقال : « مولاى ! الشباب يا مولاى ! ليعد الشباب الى والى زوجتى بوسيز ، ولنعش طويلا ، فاذا جاء وعدك فلنمت فى يوم واحد وفى ساعة واحدة !» وسجد يقبل الارض بين قدمى الاله الاكبر !

فقال زيوس : « انهض يا فيلمون فطلباك مجاب ، وستعيشان راغدين ! »



وسلم الالهان ، ثم غابا عن الانظار ، وخرج فيلمون وزوجته ليريا الى القرية ، فلم يشهدا شيئا غير بحيرة تعج أمواجها ، وجزيرة كبيرة خضراء فى وسطها قصرهما المنيف ! فآمنا بزيوس وسبحا له !

وعاشا طويلا واستمتعا بشباب دائم ، وماتا في يوم واحد وساعة واحدة ، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما فى العصور



# غـرام أورورا

رأته على رمال الهلسبنت (١) يرتع ويلعب ، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله ، ثم نظرت اليه وهو يداعب البحر المضطرب ، ويتواثب فوق عبابه الزاخر ، فسحرها قوامه ، وفتنتها قسماته ، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء ، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب ـ تيتون بن بربام ملك طروادة ـ جمـالا وأشـد فتنة ، وأخلق بحب ربة جميلة لعوب مفتان مثـل أورورا ... ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم فى قلوبهم ، ولا سلطان لاحدهم على فؤاده ؟ يستوى فى ذلك الارباب وغير الارباب

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج ، فتتقلب نفس أورورا فى جحيم من الهـوى ، وتتلظى فى سـعير من الحب ، وتنجذب نحو الفتى الجميـل المفتـول بكل ما فيها من نورانية وقداسة .. وكان يبرز من الماء ليسـتجم على الشاطىء الناعم الوادع ، فتكاد تجن به ، وتود لو ترشف قطرات الماء التى تنحدر على جسمانه ذى العضل ، وتتلألأ فى ثنايا شعره الاسود الفاحم

وطفقت توسوس لها نفسها بالاماني ! وتزخرف لهـا

(١) مياه الدردنيل

الاحلام ، فصممت أن تتكشف له ، وتتبرج على مقربة منه ، وتدل وتميس ، عسى أن تأسر لبه ، وتسبى قلبه ، فيسلس قياده ، وينخذل فؤاده ، دون مشقة أو عناء ...
ولكن تيتون أبى ، واستكبر قلبه أن يلين ، ولم يستطع ذلك المرمر الناصع الذائب فى ساقيها ، ولا هذا الورد المتفتح فى خديها ، ولا الابالسة الراقصة فى عينيهاوفوق ثدييها ، أن ترقق من عناده ، أو تنتصر على فؤاده ، أو تسكب فى نفسه صبابة أو هوى

ـ اذن أنت ماذا تشتهى !

ـ أشتهى ماذا أيتها الغادة ؟ اذهبى فاعرضى مفاتنك الرخيصة على غيرى !

ـ ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا ؟

ـ أورورا ؟ كيف ؟ ما يدرينى ؟

ـ أجل أنا أورورا ... أنظر

وأخذت ترف فى الهواء ، وتسبح فى السماء ،وتغوص فى الماء ، وتأتى من آيات الاعجاز ما بهر تيتون

ـ الصفح اذن يا ربة ؟ !

ـ لا صفح الا أن تهب لى حبك ، وتلقى بين يدى قلبك !

ـ وكيف وأنا بشرى عاجز ، ولا البث أن أفنى فى بضع سنين ، وهذا أبى الضعيف الشيخ قد خطب لى حسناءمن بنات الملوك ؟

ـ « أما أنك عاجز فلا ، وأما أنك لا تلبث أن تفنى فى بضع سنين فسأهبك الخلود ، وسيخلعه عليك زيوس سيد الاولمب فلا تموت أبدا ، بل تحيا كالآلهة الى لا نهاية الازل ، وأما أبوك الضعيف الشيخ ، فلا أحب اليه من أن يراك فى كل ما ذكرت ، ولا سيما اذا علم أننى سأكون

لك من دون هذه الفتاة التى خطبها لك ، والتى لا تلبث أن يخط الشيب رأسها ،ويعصرالزمان عودها فتجف وتذوى، وتحملهـــا أنت كأثقل الاعبـــاء الى القبر حيث الدود والذباب ... »

ــ ولكن ... ألا تأذنين لى فى لقاء أبى ؟

ــ لن يكون هذا أبدا ...

ــ هذه قسوة ياربة !

ــ ستفتنك هذه القسوة بعد قليل

وانطلقت تداعبه وتلاعبه ، وتضاربه وتغالبه، حتىزالت عنه وحشته ، فأنس لها ، وأقبل بكل مشاعره عليهـا ، واتفقا على الرحيل من فورهما الى أولمب ، فانطلقا يطويان الرحب

ــ من هذا يا بنية ؟

ــ ... ؟ ...

ــ صيد جميل ، ومجازفة جديدة ، أليس كذلك ؟

ــ أجل يا أبى .. وليست مجازفات ابنائك أروع من مجازفاتك ..

ــ مجازفاتى أنا ؟ أية مجازفات يا أورورا ؟ ..

ــ مجازفاتك الغرامية التى لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك

ــ أى غيد رعابيب يا أورورا ؟ تلك جراءة بالغة !

ــ لعل الاله الاكبر ، سيد الاولمب ، قد نسى ! وعلى كل حال فسيدة الاولمب ، حيرا العظيمة ، لا تنسى .... لقد شهدتك تلهو مع يو ، وتعبث مع لاتونا ، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا .. و .. و ..

ــ أسكتى ... انك ابنة لا خير فيك ... وماذا تبتغين

لهذا الشاب الفرانق الجميل يا اورورا ؟

ـ الخلود ... الخلود يا ابى ... ينبغى ان يعيش أبدا .. لن يموت .. الا تراه جميلا يا أبتاه ؟ الا تبهرك منسه وسامته وقسامته ؟ الا تنظر اليه كيف هو عبل قوى ، عبقرى سمهرى ؟ لقد لقيته عند شاطىء الهلسبنت ، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبى وهـويته نفسى .. وكان الموج يلفه فى أعرافه ، ثم يسجدا تحت قدميه كأنه يقبلهما، فلما خرج من الماء رأيت الدنيا كلها تحف به ، وتغازله وتناغيه ، فلم ار أن يفوز به غيرى ، ولا ان يستأثر بجمانه سواى ، وقد رضى أن يتبعنى الى أولمب ، فتفضل ايا أبتاه وامنحه الخلود ، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة . وذبول هذا الحسن شىء مخيف جدا ... ينبغى ان يعيش الى الأبد حبيبى تيتون ... أليس كذلك يا أبى ؟ أليس خليقا بالخلود كالآلهة ؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدى الأولمب ، وتفضل رب الارباب فمنحه الخلود .. وا أسفاه ! الاليته ما فعل .. الاليته ما فعل ؟ !

قال زيوس وهو يحدث نفسه :

« اذهبى يا أورورا ، ساعذبك بهذا الحبيب ، وسانتقم لكبريائى منك ، وسيكون تيتون عبئا ثقيـلا على قلبك وسيعيش الى الأبد بجانبك كما اشتهيت ، وسـاعلمك كيف تستبيحين ان تكلمى أباك كمـا فعلت .. فوعزتى وجلالى لأعذبنك بألف حبيب وحبيب ! »

***

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون احسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام ، وأنجبا طفلهما

اليافع الجميل ممنون (١) فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم

ومرت الأيام وأورورا جميلة وردية كما هي ، لانها ربة، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تنطبق على الالهة ، لأنه لا أول لهم ولا انتهاء ، فأورورا جميلة دائما ، وردية أبدا ، لاينى قلبها يخفق بالحب وينشده ، ويهيم بالجمال ويفتقده ، ونفسها عاشقة وامقة كذلك ، وان أماني الغرام تجيش في صدرها دواما ، فهى ان خلت الى حبيبها تيتون الزمته فنونا من الغزل ، وضروبا من النجوى ، اذا صبر لها الشباب ، واحتملها الصبا ، فليس المشيب بصابر لشيء منها ، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها ، ولاله جلد على أفانينها

ـ ما هذه الشعرة البيضاء التى بزغت فى سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر فى أخريات الليل يا حبيبى ؟

ـ « أية شعرة بيضاء يا أورورا ؟ ربما كانت نذير المشيب يا حبيبتى !

ـ « المشيب ؟! كلمة غريبة لم أسمعها الا منك ! ماذا تعنى ؟

ـ آه ! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب ، أما نحن ، معشر البشر ، فسرعان ما يذهب صبانا ، ويولى شبابنا ، فنشيخ ونهرم ، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه ابر الشوك ، يقول الشعراء انه نور قبيح يسعى بين أيدى الكهول ليشق لهم ظلام القبور !!

ـ يا للهول ؟ ان هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفنى !

ـ اطمئنى ! انا باق الى جانبك آخر الدهر . أليس قد وهبنى الخلود سيد الأولمب ؟

---

(١) قتله أخيل فى حروب طروادة

ـ بلى ! ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟

ـ هذه الشعرة البيضاء التي قال فيها شعراؤكم ما قالوا ؟

ـ الشعرة البيضاء ؟ مالها هذه الشعرة البيضاء ؟ ليست شيئا مادام سيد الأولمب قد وهبنى الخلود ، ان الذى افزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة !

ـ ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا ؟

ـ آه ! قد فهمت مايوسوس فى صدرك ؟ الم اعد جميلا يا أورورا ؟

ـ بل انت لا تزال جميلا يا حبيبى

ـ اذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء

***

وتمتماسنوات اخريات ، ولكن الشعرة البيضاء اصبحت شعرات وشعرات ، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب ، ولم تعد لطرة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة ، وذلك السحر الذى كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام فى قلوب العذارى ... بل حال (١) لونها الأسود الفاحم ، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر (٢) ذي اسارير ، يبعث الرهبة فى افئدة الشياطين !

ـ تيتون !

ـ نعم يا حبيبتى !

ـ لا ! لا ! لاتنادنى بهذا النداء

---

(١) تغير (٢) مقطب

— ولمه ؟

— لم يعد يصلح ... لقد اشتعل رأسك شـــيبا ، وتغضن جبينك ، وترهل خداك ، وبرزت عظامهما ، وغارت عيناك جدا ، وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض ، والصبى الغريض (١) • وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون ! وى ! مالك تنحنى هكذا ؟ هل ضاعت منك درة ثمينة ، فأنت تبحث عنها فى أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ ؟ آه ! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه فى هذا الثرى !

— حسبك يا أورورا ... حسبك يا ربة !

— « لا ، أبدا ، ليس حسبى ، أغرب عنى أيها المسـخ الشائه ! ظل فى عقر الدار حتى أرتد اليك !!

وانطلقت ربة الفجر الوردية غضبى صاخبة ، وذهبت تطوى الفيافى وتهيم فى الرحب حتى كانت من غير قصـــد عند شاطىء الهلسبنت ، حيث لقيت لاول مرة حبيبهـــا الجميل الشاب تيتون بن بربام ملك طروادة ، منذ نصف قرن من الزمان !! أواه تيتون !! يا للذكريات الحلوة التى تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعينى نائم !! هنا ، على رمال ذلك الشاطىء الهادىء ، وبين طيات ذلك الموج الذى يبدو كأنه لم يتغير ، رأت أورورا الوردية تيتون البارع ، وشعره الاسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح ، ثم لا يلبث أن يستوى حين تمر عليه أمشاط الامواج • وهنا •• ثارت عاصفة الغرام القديم فى قلب ربة الفجـر الوردية لأول مرة ، وشب لظى الحب ملء جوانحها ... وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه ، ولكنها ما استطاعت الى ذلك

(١) الغض الطرىء

من سبيل ، حتى تقلبت تحت قدميه ، وتبرجت بين يديه ، فرضى ما عرضت عليه ، وانطلق معها الى أولمب ! فمالها اليوم غضبى على تيتون ؟

مشت على شاطىء غرامها الأول ، فثارت فى فؤادها الذكريات ، وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة ، التى تطفو هناك .. هناك فوق ذلك الشبح كحلم جميل ... صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه ، ويغالب اللجة فينتصر عليها ... ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلىء بالذكريات ... وطفقت تبكى !

لاريب انها عنفت نفسها على ما صنعت أمس مع تيتون! ما ذنبه ؟ ماجريرته ؟ بأى حق تنعى عليه شيبته ولا يد له فيها ؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لان جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الكبر ؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغـــائرتين المنطفئتين ! ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليــه ، فتقول له انه يبحث عنه بعكازه فى التراب ؟

لاريب أنها كانت قاسية ، ولا ريب أنها لامت نفسها ، لأن كل تلك الافكار ترددت فى أعماقها ، وقد سألت روحها المتألمة الف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيمـــا صنعت ...

***

وعادت أورورا ادراجها الى تيتون البائس الهرم ، فهشت له وبشت وراحت تملق له ، وتتحايل على قلبهـــا ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشوه والدمامة ، قبعت فى ركن سحيق تحمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالى

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين ، ولكن للآلهة (١)

---

(١) ليذكر القارىء أن القصة من اساطير اليونان

كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال ، ومدى غير واسع من الصبر ، وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شـــاقة ، عادت بعـدها الى التبرم بتيتون ، والضيق بشيخوخته الثقيلة ، والنقمة على تلك اللحظة الاسيفة التى لقيته فيها ، ونوبة الجنون التى جعلتها تتورط لدى سيد الاولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخـلود

ــ وفيم كل هذا الحزن يا أختاه ؟

ــ وما العمل للخلاص منه ؟

ــ أنت المخطئة ، ذلك لا ريب فيه

ــ مخطئـــة ! وكيف ؟ هل كنت عامدة أن أقصــد الى الهلسبنت لاراه ثمة ؟

ــ ليس هذا ما عنيت

ــ اذن كيف كنت مخطئة ؟

ــ لانك سألت سيد الاولمب أن يهب حبيبك الخلود ، ونسيت أن تسأليه ان يديم له شـــبابه ، ويحفظ عليه صباه . اذن كنت تمتعت بجماله الفينان أبد الحياة !! أليس كذلك يا أورورا ؟

ــ بلى ، هو ذاك ولكن ... لقد سبق السيف العذل!

ــ على كل حال هناك من هو أجمـل من تيتون فــلا تبتئسى ..

ــ أجمل من تيتون ؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء ؟

ــ لا أيسر من ذلك ، اسحريه !

ــ أسحره ؟ ! آه ؟ فكرة يا أختاه ! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذى عنيت أنه أجمل من تيتون ؟

ــ وى !

ــ لابد من صيد آخر قبل أن يطلق سراح الصـــيد القديم ؟!

ــ اذن فاذهبي الى جبــــل هيماتوس حيث يــرعى سيفالوس الجميل قطعانه !

ــ ثم ... ؟

ــ ثم عودى فاسحرى تيتون واخلصى منه !

ــ وماذا ترين أن اسحره اليه ؟

ــ انه عجوز هرم يدب على عكاز ... الا تسحرينــه جندبا ( ١ ) ؟

ــ بلى ! فكرة نابغة يا اختاه !

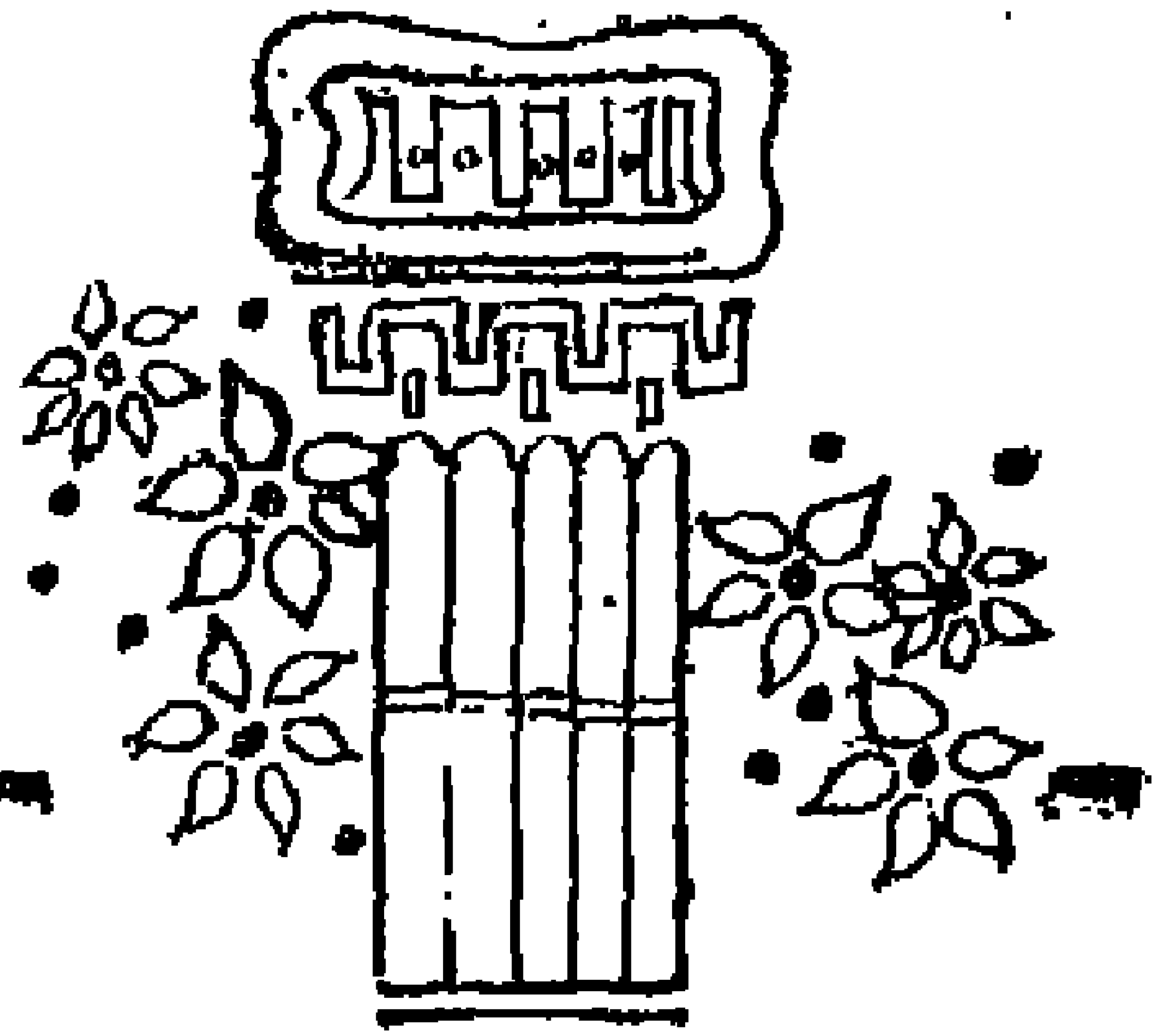
***

ولقيت اورورا حبيبها الجـديد سـيفالوس الــراعى فهويته وشغفته حبا ، أما تيتون فيا ويحـــه ، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى ! انه لا يزال الى اليوم يثب مع آلاف الجنادب فى الحقــول والفيطان ( ٢ ) بعد اذ سحرته اورورا

(١) نطاط (٢) السهل المطمئن الواسع من الارض

# بجماليون المثّال

## أسطورة الفنان الذى عشق تماثيله



فى مدينة أماذيس ، الراقدة كالحمل بين مهاوى الجبال على شاطىء قبرص الجنوبى ، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم ، وانزواء عن مشـاغل الحياة ، وهرب من الناس . كان يأوى الى ممثله اذا تنفس الصبح ، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب ، فيأوى الى فراشه ، سادر النفس ، مهمود القلب ، مكتئبا حزينا

ولم يكن حزنه من نوع هذه الاحزان التى تتعارفهـا قلوب أبناء آدم ، بل كان حزنا فريدا فى نوعه ، غريبا فى أسبابه ، شاذا فى دواعيه ، حتى لنحسب أن أحدا من الناس لم يشق بمثله من قبل .. ولا من بعد

كان فى بجماليون صدود عن الناس شديد ، لايراهم جديرين بتودد ، ولا خليقين بمؤاخـاة . ومع انه كان يضفى من عبقريته على تماثيل الالهة التى طالما تفننت فيها يده الصناع ، فكان يخرجهـا على نسق الفاتنـات الحسان ، وفى سمات الغيد القيان ، فانه لم يصب مرة الى امرأة ، ولم ترتبط أسبابه بفتاة . فكأنه كان يسمو بحبه على النساء ، وان كن فى الحقيقة صاحبات وحيه،

وفيض نبوغه ، واللمع الخاطفة التى يتجه شطرها مثله الاعلى ..

ولم تكن هذه الحيـــاة الصـــحراوية التى يحياها لترضيه ، ولا تلك المعيشـــة الالية التى اغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب ، وقلبه الرحب . لقد كان يقف منقبض الصـــدر ، مغلول الروح ، أمام هـــذه الدمى الصـــامتة ، والتماثيل الخرساء ، التى صنعها لابوللو ، ومينرفا ، وديانا ، وكيوبيد ، وفلكان !

ولقد كانت المناحت والازاميل ، والمثاقب والمناشير ، والمبارد والمناعم ، وكل عدده تثير فى نفسه السخط على الحياة ، والبرم بالايام ، كلما فكر فى حاله فعلم أنه يحيا بلا حب ، ويعيش بلا امل ، ويعمل بلا غرض ، ويسعى الى غير مطمح !

وبينما هو فى يقظته النائمة هذه، اذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة ، على جرارة ضخمة من هـــذه الجرارات الثقال ، التى ترى كثيرا فى محاجر اليونان ، ثم يقفـــون امام المثل ، ويطرقون باب بجماليون ، فينقـــدهم ثمن الرخامة ، وينصرفون كل الى طيته ، وكأنما كانت هـــذه الرخامة ، على ثقلها الهائل ، وحيا خصيصا من السماء ، أو آية من آيات الاولمب ، هبطت على هذا المثال المهمـــوم ، فبدلت يأسه املا ، وقنوطه المظلم رجاء نير الآفاق ! فانه لينظر اليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذى سيولده منها ، وانه لينزع ملابسه ، ويضفى عليه ملابس العمل ، ثم يتناول ازميله ومنحته ، ويهوى على الرخامة مستلهما الحول والقوة من « فينوس !! »

« يا فينوس الجميلة ، يا ربة الحسن والحب ، يا من تسبح لك القلوب العاشقة ، وتلهج باسمك النفوس الوامقة

ياسر الورد الجميل ، ونسمة الفن الضاحك ! يا أم كيوبيد الحالم ، وبنت ديون (١) الباسمة ، يا فينوس الجميلة ، العون ، العون يا فينوس ! »

***

وهكذا لبث هنيهة يصلى ، ثم اخذ في عمله ، وكأن فكرة تنزلت على فؤاده ، وامتزجت بشغاف قلبه ، فراح يصورها ويمثلها ، فى هذه الرخامة النقية كالندف ، البيضاء كالثلج . بل كأنما استجابت فينوس ربة الحب لصلاته ، فأودعت فى يده نفحاتها المباركة ، فما دق دقة ، أو نقر نقرة ، الا وتمثل فينوس الجميلة امامه ، ناذرا لها هذا التمثال ، برغم التماثيل البارعة التى نحتها لها ، والتى تملأ معابد اليونان وأقداسهم

وأقبل على عمله بروح جديدة ، ويد لا تكل ، فلم يكن يحول بينه وبينه الا الليل يرخى سدوله ، والا سنة من النوم ترقص فى جفنيه ، فاذا نام تتابعت الرؤى ، وتلاحقت الاحلام ، كل منها يبدى له ناحية كان يجهلها من جمال فينوس !

ولقد بدا له كفنان ، ان يروح عن نفسه بيوم يقضيه فى الادغال ، وبين مسارب المياه ، لكى يجدد نشاطه ، وينعش ما خمد من ذهنه ، وخبا من خياله ، لطول ما اكب على العمل ، فانطلق ذات صباح الى سيف البحر يناجى ابوللو ، وهو يوقظ الشمس من خدرها فتعاونه فى مركبتها الذهبية الاثباج ، وظل يعلو ويهبط ، ويروح غاديا الى هنالك ، حتى شارف ان ينتهى ، وعاوده هواه الملح ، فندم على ما قتل من ساعات فى هذه الراحة الخاملة ، والفسحة الباطلة ، فعاد أدراجه الى المثل مستغفرا فى طريقه

(١) فى الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان مزواجا ، يزير .. ربات . فمن زوجاته ديون التى أولدها فينوس

الطويل فينوس !

ووصل ما انقطع من عمله ، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال ، ويستوحي السماء فتلهمه من آديمها الصافي ، وتشيع في يديه وقلبه بطهرها ونقائها ، تنتقل من ثمة سحرا وفتنة فوق تلك العضلة ، وتحت ذياك الابط ، وبين انفراج هذين الثديين ، وبالقرب من العكن ، وحول الفخذين ، وعند هذا الانف الاغريقي الاشم ، وملء ذاك الذقن الدقيق ، والعنق الرقيق ، ولفتة الحدقتين ، وانفراجة الشفتين ، وتبسيم الثغر ، وتكويم الشعر ، وتمليس الردف ، وتدوير الكعبين ، وتنعيم العقبين .. وتباركت يافينوس !

لكأن بجماليون يحس الحياة تسيل من ازميله الحنون ، فوق هذا الجوهر المكنون ! وكان يتقدم فينظر ، ويتأخر فيرى ، ويميل من هنا وينثني هناك ، ثم يهطع الى عل ، وينحني الى اسفل ، ليتفقد التمثال من جميع نواحيه ، فماذا رأى ؟ لقد استطير من الفرح ، ومادت اعطافه من الخيلاء ! ولكنه سكن قليلا ، وانطلق يتحدث الى نفسه « ويحي !! لم صنعتك أيها التمثال ، مادمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم ؟ انا بجماليون التعس ، الذي يعيش في هذا العالم القفر ، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة ، لا أنيس لي ، ولا قلب ينبض بحبي ، فينبض قلبي بحبه ، ولانفس تصلي لي ، فأصلي من اجلها ! تكلم ايها الرخام الصامت ، وانفرجا بكلمة واحدة ايتها الشفتان الساحرتان ! انا بجماليون ! انا صانعك ايتها الانثى المتحجرة .. تكلمي ، ردي علي ، فوحق فينوس المعبودة لقد اودعتك سر روحي ، ولغز حياتي ! أوه ، ألا تردين على بجماليون المسكين ؟ آه فينوس ! النجدة يا فينوس ! انا لا اصلي الا لك يافينوس ... الغوث الغوث !... »

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التى صورها بقلبه كله ، وروحه جميعها ، يشكو اليها كأنها تسمعه ، ويبثها كأنها تصغى اليه ، ثم انتهى حاله الى هيام شديد ، وحب ودنف ، ولوعة وصبابة ، وانقلب عشقه المبرح الى لون كاسف من الوجد ، وضرب شديد من امر ضروب الحزن ، مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب .. اذ كيف يعشق هذه الكتلة المجسمة من الرخام ، وهى مما صنعت يداه ؟ واى امل له فى هذا العشق الشاذ ؟ لا ريب انه ضرب من الجنون ، ما له من ضريب !

ولج به هواه ، فأحضر عصبة من الحمالين الاقوياء ، نقلوا له تمثاله الى ردهة الآلهة — كما كان يسميها — وهى صالة واسعة فى الطابق الثانى من البناء الذى فيه ممثله ، وقصد الى امهر الصاغة وتجار اللآلىء ، فاشترى ماوسعه من الحلى البالغة والجواهر النفيسة ، وعاد فقرط الأذن ، وقلد الجيد ، وتوج الرأس ، ثم هام فى المروج الخضر ، والحدائق الغناء ، يجمع الورود والرياحين ، كيما ينثرها تحت قدمى التمثال !

وتحولت الردهة الى معبد من معابد البوذية المقدسة ، بما عكف يحرقه من مقتنى الند ، وفواح الرند ، فى مباخر المرمر الجميل المصففة حول قاعدة التمثال

وتلف تلفاً شديداً من الغرام العجيب ، فلم يكن يكتفى بالعبادة فى الحب والخبوت بين يدى ذلك الصنم المنتصب للفتنة ، بل كان يشركه فى كل أمره ، ويعرض عليه جميع شئونه ، حتى القراءة ! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ما جادت به القرائح وشدت به الالسن وتغنت بألحانه قلوب العاشقين !

معذور بجماليون ! لقد تعب وراء الحب ، ولكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة ، التى تستطيع التسلط على مشاعره ،

والهيمنة على فؤاده ، وكان يتخيل روعة الجمال فلايجدها مجتمعة الا فى هذا التمثال الذى نحته لهذه الانثى ، فعبده ، وراح يتمنى على الآلهة الامانى ، أن تنفخ فيه من روحها ، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش

***

وبينما هو نائم فى هداة فجر اليوم التالى ، اذا به يصحو فجأة على لغط شديد ، وهرج عال فى الشارع الذى يقع فيه بيته . فينهض الى النافذة ، ويرفع الستر ، ويفتح احد المصاريع قليلا ، ثم يحنى راسه ليرى . واذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحملون تمثالا كبيرا من تماثيل فينوس التى صنعها بجماليون ، واذا الدهماء ينشدون الاناشيد الشعبية ، ويرسلون فى غبشة الصبح اغانيهم ( الشعبية ) الجميلة .. وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة فينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمين ثلاث مرات كل سنة ، فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل فينوس ، أسرع فارتدى أبهى ملابسه ، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمى تمثاله ، وهرول على الدرج ، ثم انفتل فى الشارع ، واندمج فى صميم الشعب الذى يلهج بالصلوات والادعية باسم فينوس . ثم ماهى الا هنيهة ، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الاطفال والسذج ، ويردد من الصلوات مايرددون

ولم لا ؟ هل لحظة من الزمان هى خير من هداة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول آراد الصباح ، الى آلهة السماء ، وارباب الاولمب ، فتسمع وتلبى ؟

وكان كل همه ان ينتهى هذا الحشد الهائل الى المعبد ، حيث يستطيع ان يرتل دعاءه ، ويتمتم بصلاته

وقد تنظر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التى

اعتادوا أن يقوموا بها فى مثل ذلك اليوم ، وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة ، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من فينوس . ولما لم يبق فى المعبد الاكهنته ، وأفراد من الاتقياء الصالحين ، يصلون صلاتهم ، ويغمغمون بأدعيتهم ، تقدم بجماليون فى روعة التقى وخشوع الورع ، ووقف خابتا أمام المذبح ، حيث تصاعد ألسنة البخور المعطر ، حاملة الارج الشذى من لهب المحرقة الى السقف والسجف ، فتكسب الهيكل جوه القدسى البديع .

ثم القى فى اللهب بحفنة من فتيت الكافور والمسك ، وطفق يرتل هذا الدعاء الطويل : « فينوس الكريمةالبارة ، يااربة الحب الطاهر ، والهوى البرىء ، أيتها القديرة على كل شىء ، المتصرفة فى جدود العاشقين ، وحظوظ المدنفين : اصغى الى ، ولا ترفضى دعائى : منذ اهتديت اليك ، وأنا عبدك القانت لك ، الهاتف باسمك فى الغدو ، المصلى لك فى الآصال ، لا أنى عن ذكرك ، ولا يفتر لسانى عن التسبيح لك ، والنسك من اجلك ، باسمك اقبل على فنى ، ومنك استلهم وحى العبقرية ، فأنت لى قبل كل شىء ..

ولقد أيقظتنى صلوات الشعب لك من احلامى الجميلة بك ، فلم اطغ ولم استكبر ، بل هرعت اليك ، اتوسل بك ، والتمس البركات منك فحنانيك يافينوس !

حنانيك يااربة الحب ، وجابرة القلوب الكسيرة ، والنفوس الحائرة !

انت ، من غير ريب ، تعلمين ما ألم بى من برح هذا الهوى الطارىء وما تام قلبى من حب هذه الدمية التى صنعتها باسمك ونذرتها لك ، فدلهتنى ، وشدهت روحى المبلبلة ، وصارت لى أعذب الامانى وأعز الآمال . وهى بعد رخامة لاروح فيها ولا نأمة ، أكلمها فما ترد ، وأناجيها

فما تجيب ، واغنى لها فما تبتسم !

انت قديرة يا فينـوس ! فانفخى فيهـا من روحك ، وانشرى الحياة فى اركانها ، وامنحيها النبضات والانفاس

حنانيك يا فينوس ! وسلام لك من قلوب العاشقين ! »

وما كادت صلاته تنتهى ، حتى انهمر الدمع من عينيه يروى قدمي التمثال المنتصب فى المحراب . فانبعث الشرر عاليا من المحرقة ، حتى اضاء قبة الهيكل ، والتمع فى جميع ارجائه ، واقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه ، لان انبعاث الشرر هكذا ، عقب الصلاة ، هو فى اعتقادهم دليل رضى الربة ، وآية تلبيتها واستجابتها !!

ولكن مثالنا لم يشعر بقلبه يثلج ، ولا بنفسه تهدأ ، بل على العكس احس كانما الحيـاة تتدجى اكثر من قبل ، ويحلولك كل شىء فى عينيه وشعر بعد ذلك بقنوط قاتل ينفذ الى صميمه : فيطفىء فيه مارجى من الآمال البيض ، والامانى العذاب ! فتعثر الى الباب غير آبه لما حوله من الآس المنضود فى انحاء المعبد ، والزهر المبثوث فى صحنه الرحيب ، وما برح بين ونى وبطء حتى باب منزله ، فولج متساقطا على نفسه ، وانبطح على اول سـلاليم الدرج لا يحس ولا يعى !

***

وعفا اغفاءة مريضة ، فبدا له ان يحمل ارزبة هائلة ، يهوى بهاعلى رؤوس الدمى ، ويحطمبها التماثيل المنتشرة فى ردهة الآلهة .. الا تمثال فينوس الجديد ، المرصـع باللالىء واليواقيت ! ففزع فزعة مروعة ، ونهض يعـدو الى الصالة ، يتفقد التماثيل .. فما راعه الا ان يسـمع صوتا رقيقا يناديه :

« بجماليون ... بجماليون ... ارق الى هنا ... هلم الى !! »

من؟ صوت من هذا ؟ انه صوت مرمرى لا عهـــد لبجماليون به !! »

وقفز قفزات كان بها فى الطابق الثانى ، ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب فى المكان الذى غادره فيه ... « .. أين ؟ ويحى ! لصوص ! »

ولكن الصوت الرقيـــق الرنان عاد يطن ... ويرن « لا ، ولكنها فينوس ! » والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء فى طبق تمثاله ونسجه ، متكئة على الاريكة التى طالما وضعها امام التمثال وانشد عليها الاشعار ؟!

« من انت ايتها المعبودة ؟ »

« لست معبودة ، ولكننى هبة فينوس لك ! انا جالاتيا تمثالك المكنون ! »

وكيف ؟ انا لا اصدق . هذه خديعة لاشك ! »

« وكيف تخدعك السماء يابجماليون ؟ اتريد ان تكفر بآلاء فينوس ؟ »

« لا .. لا .. لا اريد ان اكفر ... وحاشاى .. ولكن كيف حرت انسية ، ومن وهبك الحياة ! »

« هذا سر فينوس . وهذه قبلاتك لا تزال مطبـــوعة على قدمى ! »

« ياللسعادة ! »

« انظر الى هاتين الشفتين القرمزيتين ، وهذين الخدين الموردين ، وتينك العينين الزرقاوين . هل استطعت ان تموه تماثيلك بهذه الاصباغ الفينوسية ؟ »

« وانظر الى الانفاس الحارة التى تتردد فى صدرى ، هل وسعك مرة أن تبعثها فى احدى دماك ؟ »

« حاشا . حاشا »

« اذن فهلم الى أحدثك حديثى »

« فدنا منها بجماليون المشدوه »

ــ بجماليون ! لقد استجابت فينوس لدعائك ، وقبلت صلاتك ، وحضرت الى هنا اذ كنت أنت فى الهيكل تبكى وتنتحب ، فمنحتنى الحياة ، وعلمتنى من العلم ما لم أكن أعلم

ــ « ولكن كيف بحق فينوس عليك يا جالاتيا »

ــ « كنت منتصبة كما وضعتنى على تلك القاعدة الناصعة ، فاحسست حدقتى تتحركان ، واذا بى أرى فينوس الجميلة أمامى ، تأمرنى أن أدلف نحوها ، ففعلت ، وكنت احس كان ثلجا ينفذ من كيانى ، وأن حرارة تشيع فى أركانى ، وكانت فينوس تقول لى .. « تعالى .. تعالى ، وكونى ربة هذا البيت ، احميه واحرسيه ، وانشرى السعادة فيه ! تعالى القنك دروس المحبة والحياة .. » ، ثم انها نفثت فى أذنى نفثات تعلمت بها هذه الكلمات . وأسبغت على هذا الثوب الحريرى الذى لابد أنك قد رأيته على تمثالها فى الهيكل .. ليشهد لك أنها هى التى منحتنى الحياة .. ومنحتك الحب ! »

ــ « وماذا ؟ وماذا يا حبيبتى جالاتيا ؟ »

ــ « ثم تقدمت الى فنولتنى قبلة مشتهاة لن أنسى ما حييت أسرها ، ودعت لى ولك بالوفاق الابدى ، والاخلاص السرمدى ، لنكون آية السماء فى هذه الارجاء! وابتسمت ابتسامة أرق من اطباق أوراق الورد ، ولم أعد أراها .. »

وأتمت جالاتيا حديثها ، فاستقر بجماليون فى أحضانها ؟

# ثيذيوس يقتل المينوطور
# ويخلص أثينا لعب بثير حربًا

كان الملك ايجوس ، ملك أثينا ، فى شرخ صـــــباه وعنفوان شبابه ، زير نساء وأخا شهوات ، وكان ذا نبرات تكاد تسعى به الى حتفه .. بظلفه ..

ذهب مرة يجوب ريف مملكته ، فلمح وجهـــا مشرقا ينبثق من كوة كوخ فى احدى القرى ، تتراقص حـــول ثغره الصغير بسمات هن رسل الحب ، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب .. حتى لا حراك به ..

وطرق الباب يستسقى ، وما به ظمأ ، فامتدت اليه ذراع عاجية لدنة تحمل كوبا من البلور ، مفعما برحيق الحب ، وان لم يحو غير الماء القراح !

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما فيه بعينيه ، دون أن يمتد فمه اليه ، ثم أرسل زفرة دفعت البــــاب فانفتح على مصراعيه ، ودخل غير مستأذن فروى فمـــه وبرد قلبه ، وبل جاحم الحب الذى زلزل أركانه

ثم تزوجها ، ومكث عندها شهرا كان عسلا كله !

ووصل الى قاعدة الملك ، وأم القرى ، أثينا ، بعد أن ترك وصاته المكتوبة الاتية : « فى الغرفة التى ضمتنا

لاول مرة نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش ، هنا ، وفى هذا المنزل الصغير الذى اتسع لدنيا من الآمال والأحلام ، وتحت الحجر الكبير الملون ، حيث كانت قدماى تحييان فى سكرة الهوى قدميك ، قد استودعت نعـــلى اللتين حملتانى اليك ، وسيفى الذى فريت به رؤوس الاعــداء حتى سعدت بك ، فاذا وضعته غلاما فسميه ثيذيوس ، ونشئيه وطرئيه حتى يصلب عوده ، ويشتد ساعده ، فخذيه الى الحجر فليرفعه ، وليلبس نعلى وليمتشـــق سيفى ، ثم ليمض الى أثينا ، لا حافظ له الا قلبه ،ولا حارس الا سيفه فاذا شاءت العناية فانه بحول زيوس العظيم ولى عهدى ، وصاحب التاج من بعدى »

وتتابعت السنون

وكانت أثينا تزهى كل سنة بعيدها الرياضى الفخم ، فتلبس حلة من البهجة والايناس ، وتؤمها وفود الاقاليم المجاورة تتفرج بالالعاب الجميلة ، وقد تشترك فيها

وكان لمينوس ملك كريت (١) ، ابن مفتول العضل قوى البنية حبيب الطلعة ، كان يقدم الى أثينا ابان عيدهـــا الرياضى ليبارى أبطالها ، ثم يعود مشمولا بحب الاثينيين واعجابهم الشديد ، ولقد كان يحدث الا يكون للموسم بهجته المعتادة اذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر الى أثينا

ومن غريب المصادفات أيضا أن ينشا ثيذيوس هذه النشأة الرياضية التى نشأها ابن مينوس ، والتى كانت أمارتها تبهر الاثينيين وتخلب ألبابهم فى موســـمهم الرياضى

ولم يكن الاثينيون يعلمون أن لملكهم ولدا ، ان لم يبرز

(١) كريت او كريد هى جزيرة اقريطش وقد آثرنا التسمية الاولى لسهولتها وذيوعها ٠

على ابن مينوس فى الالعاب الرياضية ، فانه لا يقل عنه شأنا فيها . ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئا ، ولو قد علم عنه شيئا لما سولت له نفسه الاثيمة أن يدبر غيلة ابن مينوس فى حلك الليل ، وفى طريقه المقفرة الى المرفأ ، حين آب بأكبر جوائز الموسم الرياضى فى المصارعة والملاكمة والعدو ورمى القرص !

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان ، وتلظى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته ، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين ، فذبحوا الشاب المسكين ، ونبذوا جثته بالعراء ، تنوشها الوحوش وسباع الطير !

واهتزت أثينا المضيافة ، أثينا أم القرى ، لهول الجريمة ، ونقموا على القتلة الاشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب ، وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت الاشاعات وراجت سوق الاقاويل ، لولا أن وصل فى صبيحة ليلة الجريمة ، البطل الصغير ثيذيوس ولى العهد ، فجأة ، ومن غير سابق علم ، ولا ترقب ولا انتظار !

« ثيذيوس ! ومن يكون ثيذيوس هذا ؟!

« ولى عهد المملكة ورجاؤها ، ومعقد آمالها

« وأين كان الشاب ؟ وابن من ؟ ومتى ولد ؟ »

« كان ينشأ فى الريف ، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم ، وولد منذ عشرين سنة

« ولم لم تعلم به أثينا من قبل ؟

« أراد الملك أن يفاجىء شعبه بهذا الخبر السار لولا اغتيال ابن مينوس ؟!

« وهل هو حقا أشجع من ابن مينوس ؟

« ومن يكون ابن مينوس وألف بطل كابن مينوس الى ولى عهدنا ثيذيوس ؟

وهكذا راحت الجماهير يتحـــدث بعضها الى بعض حديث ثيذيوس

أما كيف وصل هذا الامير الصغير ، فان امه لما آنست فيه القوة واكتمال البنية . ولما رأت من تـــدفق ماء الشباب في وجناته ، وسريان كهرباء الحياة فيعضلاته. قادته الى الحجرة التى لقيت فيها لاول مرة أباه ، ثم ناولته الخطاب المكنون الذى يحمل وصـــاة الملك . وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تاكدت له الامانى العذاب التى كانت أمه تهتف له بها ، فتقدم الى الصخرة فرفعها بأقل جهد ، ثم حمل السيف فقبله ، ووضـــعه هنيهة على رأسه ، ثم على عينيه ، ثم على قلبه ، كأنه يطبع به خاتم المحبة الابوية على أعز جوارحه !

وربط النعلين العزيزتين على قدميه ، وانهال على خدى أمه ويديها يقبل هذين ويلثم هاتين ، ثم ودعها ، وتزود من نصائحها ، وانطلق ميمما شطر أثينا

وكانت الطريق الى العاصمة صعبة شائكة ، محفوفة بالمكاره ، ككل طريق تؤدى الى جنة او نعيم ! فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون يأخذونها من كل حـــدب ، والسباع الضوارى تعج فى جنباتها ، والغيلان والابالسة تهمهم فى جميع منعطفاتها .. ولكن هذا كله لم يثن من عزم ثيذيوس ، فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص هذه البرية المرعبة ، وفرى رؤوس سباعها ، حتى لقد فر الكثيرون امامه يذيعون نبأ مقدمه فى اثينا . فما وصل اليها حتى كان صيته قد سبقه اليها وشاع فيها . ولما

ان تقدم الى أبيه الملك حتى عرفه ونزل من فوق العرش فعانقه وقبله ، ثم عاد به فأجلسه بجانبه ، وأرهف أذنيه يصغى الى قصة حياته ، ومجازفته فى الطـــريق التى تكتنفها الاهوال الى أثينا !

وأعلن السرور العام في المدينة ، وطفقت النواقيس تدق فى الهياكل ، وأطلق سراح المجرمين من جميـــع السجون ، وجعل الناس يتندرون بشجاعة ولى العهد وقصته العجيبة ، حتى لانساهم ذلك هول المأساة الدامية التى روعتهم وزلزلت قلوبهم

وانتظر مينوس أوبة ابنه ، بيد أنه قلق لانقطـــاع أخباره ، وساورته الظنون من أجله ، وحسب أن ريحـــا عاصفا ثارت بمركبه في البحر الايكارى (١) فأغرقته، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل فاحتملها الى الملك ، الذى تصدع قلبه من الاسى !

ولا تسل عما انتاب مينوس من الحزن ، وما شمل كريد من الهم ، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولى العهد

واتصل بالملك ما كان من فعلة ايجوس ملك أثينا ، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالى على صيحة الحرب، تدوى فى غبشة الفجر فتقض المضاجع ، وترن فىالاذان فتتجاوب لها حبات القلوب ! وما تطلـــع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل ، هائجـــة بالمتحمسين من الشبان والشيب ، هرعوا جميعا فـــدى للملك ، وزيا لمجد الوطن ، واثئارا لولى العهد !

وترامت الاخبار الى أثينا ، فاعتكرت أفراح البلاد ، وسكن ضجيج الشعب ، وسارع الجميع يستعدون للقاء

---

(١) نسبة الى ايكاروس ( أسطورة سابقة )

العدو ، فها هى ذى القلاع قد سهر عليها حراسها ، والسبل منبثة فيها الجنود شاكى السلاح ، والمرافىء تعج بالسفائن الحربية ، وكل رجل فى المملكة قد اضطلع بنصيبه فى الذود عن بيضة الوطن !

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب ، وعسكره المجر ، وفرسانه العديدين ، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة ، وذخيرة يا لها من ذخيرة .. ومخر الاسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة ، ولا يقف من دونه محمق ولا مجنون

ووصل الاسطول الى اثينا ، غادة هيلاس ، وهدية الآلهة الى فينوس ، وعروس الاحلام الجميلة ، فوجد الاسوار مخفورة ، والبوابات مغلقة ، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها ، فالقت الفلك مراسيها . واندفع الكريديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأوه ، وحتى لا ترى الا خياما تصل اقصى الشمال بأقصى الجنوب ، وتربط أول الشرق بآخر الغرب .. جنود وضوضاء .. وصهيل ورغاء .. وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ أوله عين ، ولا يذهب الى آخره خيال !

وصابر مينوس يحاصر المدينة أياما طوالا حتى قلت الاقوات داخلها واخذ اهلها يشكون الجوع والجهد ، وزاد فى شدتهم أن نضب الماء ، فعم البلاء

ولم يكن امام الاثينيين الا احدى اثنتين : اما الموت داخل الاسوار صبرا ، وهذا ما لن يكون ، واما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم ، وذلك ما لا طاقة لهم به ولا قدرة لهم عليه

أمران احلاهما مر ، واخفهما فيه الويل ، وعقباه الدمار والبوار ، واجمع بعض عقلائهم على ان يذهبوا الى ملكهم يرجونه فى أن يذهب الى الهيكل فيقدم القرابين

الى الآلهــة حتى تأتيهم نبــوءة الســماء ووحى اولمب بما ينبغى أن يكون .. ولكن الملك أبى وإســتكبر ، ثم قبل بعد الحاح أعيان القوم ان ينوب عنه فى هذا الشأن أحدهم

وقصــد قائم مقــام الملك الى هيكل فينوس فتقرب بالضحايا وعقر القرابين ، وقبل الارض بين يدى تمثالها المنتصب فوق المذبح ، ولبث غير قليل ..

وخشعت الابصار وسكتت القلوب ، وعم المعبد وجوم عجيب

ثم انبعث الصوت القدسى الضعيف من خلوة الكاهن يقول :

« ليفعل الاثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت .. الويل لهم ان حاربوا !! » ..

وهلعت الافئدة .. وطاشت الاحلام ! !

وتلقاها الملك كما يتلقى الانسان حكما عليه بالاعدام.. ولكن ما العمل ؟ ولا حيلة لبنى الموتى فى دفع أحــكام القضاء ؟

وأرسل ايجوس الى ملك كريد يعرض عليه الصلح ، ويســأله عن شروطه .. فقال مينوس لرســل الملك : « قولوا لايجوس ، الآن عرفت كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتلك ابنه وولى عهده

ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء ، ولن تكفينا أثينا كلها ثمنًا لها ! أما وقد ذللت ، فحسبنا ان نرجــع بسبعة من خير شبابكم واجمل فتياتكم ، وسبع من ابكار الاثينيــات وابهى حســانها ، ليكون الجميع غذاء حلالا للمينوطور ، على أن ترسلوا كل عام فى مثل هذا الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا واكرمهم حسبا ، فان رضى الملك وسلم فدية هذا العام رحلنا عنكم الى

العام المقبل »

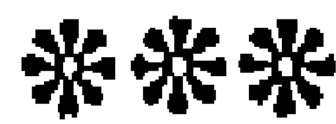
وسكت الملك وتحدرت من عينيه دموع غلاظ ، وثار في قلبه هم قديم

طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة ! غير أن قتل ابن مينوس غيلة ، في رحاب أثينا ، وفي دجنة الليل ، وبتدبير الملك ، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت !

وكاد ايجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب اليه أن يؤديه عن يد وهو صاغر ، ولكن الشعب هاج هائجه وضج الرعاع يطلبون الخبز ، أو تسليم المدينة أو .. دم الملك ! !

فذل ايجوس المسكين وصغر ، وقبل شروط مينوس مرغما ، واختير من شباب المدينة سبع كواعب أتراب ، وسبعة فتيان في ريعان الصبي ، وشيع هؤلاء وهؤلاء الى الاسوار بين بكاء الامهات وعويل الآباء وآلام المحبين !

وهرع الكريديون الى خيامهم فاقتلعوها ، والى شراعهم فنشروها ، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن ألقوا على كبرياء ايجوس هذا الدرس المهول !



ومضت سنون وآثينا العظيمة تؤدي الفدية عن يد وهي ضارعة ، حتى ثارت كبرياء ثيذيوس وفارت نخوته ، وتقدم الى أبيه الملك الشيخ ، حين دعا النفير العـــام لتقديم الفدية ، يضرع اليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام : « على الاقل يا أبي يكون في هذا بعض العزاء للاثينيين ، وليثقوا أننا لا نذلهم ، وأننا منهم وهم منا ، وأننا آخر الامر ، نشرب بالكأس التي يشربون ! »

وصعق الوالد حين تقدم اليه ولى عهده بهذا الطلب ؛ ورفض رفضا باتا .. ويغلى الدم فى رأس البطل الشاب فيقول للملك : « اذن فأنا أحطم كأس الحياة التى أنعمت مذلة وهوانا ، وسأريق مع سمها الأسود هذا الدم الارجوانى الذى لا أستحقه ، ولا أشرف به .. أبتاه ! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتى ، وأرويها بدمى ، ليكون قربانا لمن عليها من عشيرتى ولداتى .. »

وقبل أن يفصل البطل الشاب ، ناداه والده باكيا ؛ ونهض فباركه ، وقبل ، والهم يمزق أحشاءه ، أن يكون بين الضحايا ..

***

وفى الحق أن ثيذيوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة ، ولكنه كان واثقا من شجاعته ، مؤمنا بما وهبته الآلهة من جلد وبأس ، وقلب لا يفله الا الحديد ، لانه من حديد . ولقد صمم أن ينازل هذا المينوطور الخبيث ، فاما قتله وعاد مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، ليعيش فى وطنه منقذا لأثينا ، واما قضى القضاء أمره فيه ، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف !

وقال لابيه وهو يودعه ، حينما ركب المركب السوداء التى يرفرف عليها علم الموت « أبى ! لا تبك ! انك ملك ، ودموع الملوك لا تذرف الا فى سبيل الوطن ! اننى ذاهب الى معركة أرجو أن يكتب لى النصر فيها ! لقد فزت على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما اكن بعد الا طفلا .. ادع لى أن أفوز به ، فأريح اثينا العزيزة من شره »

***

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد ، ومخرت فى بحر تلاطمت أمواجه ، وزخرت اثباجه ،

وطم أذيه (ا) ، وانتفخت أوداجـــــه ، حتى وصلت الى كنســـوس حاضرة كريت . وهرع النـــاس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوطور ، وفى وجه كل منهم عبوسة حزن ، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الاسى ، على هذا الشاب الناضر الذى أقبل الى الموت من قرار بعيد !

وكانت فى الجماهير فتاة غضة الأهاب ، بضة الشباب ، حلوة ناعمة ، نهضت فى مركبتهـــا لمشـــاهدة الضـــحايا الاثينيين ، فما كادت عينها تصيب نظـــرة من ثيذيوس ، حتى أحست فى أعماقها بنفحة السماء التى تسبق لفحة الحب ! !

وترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتى الرقيق ؟

« انه يقبل فى غير وجل ، ويقتحم الجماهير فى غير هيبة ! أعبر بحار الموت قبلَ هذا ؟

« لا شك يا فتاة أنه أمير ان لم يكن ابن ملك !

« ان الحمرة التى تطير من الورد اذا قطف ، ما تفارق خديه ، وهو مقدم على الردى ! !

« ان صفرة الموت تستحى أن تموه هذه الوجنات !؟ .

« أمن السماء هذه الزرقة التى تملأ عينيه ؟ . .

« بل مثـــله لم يخلق الا ليـــكون زهرة هذه الحيـــاة الدنيا . . .

« أيها الشاب . . . لن تموت !

وهكذا جعلت تتحدث تلك الغادة . . . الاميرة الجميلة بنت مينوس . . !

وكأنما قرأت وصيفتها الامينة مادهى سيدتها من حب الفتى فى كتاب عينيهـــا ، فقـــالت : « أتحس ســـيدتى بتعب ؟ » . .

---

(ا) الأذى : الموج

« لا يا فتاة ... ولكن انظرى الى هذا الفتى المتفتح كالزهرة !

« والله يا سيدتى انه جدير بعطفك ، خليق برحمتك ...

« وما العمل يا فتاة وليس لنا فى انقاذه يدان !

« هونى عليك يا مولاتى ! انه وأيم الله من سلالة الملوك ! ان لم يكن ابن مليك ! وهو بادى الشجاعة ظاهر الفتوة ! وان له لسيفا طويل النجاد ما حمل أحد مثله ، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوطور من جاء بذى غرارين من شنه .. فلم لا ندبر معه قتل المينوطور ! ؟ .. »

« قتل المينوطور ؟ انك تهرفين ! ومن يجسر أن يدخل والمينوطور فى معترك ؟

« لا عليك ؟ نرشو السجان فيفلت الشاب فى ظلام الليل ، ونهديه الى باب اللابيرنث (١) فينطلق الى الوحش الغاط فى نومه العميق ، فيجذ رأسه بهذا الجراز الذى ترين ! »

« يا له من تدبير ! ولكن كيف يعود الشاب وأنت تعرفين من منعرجات اللابيرنث وشعابه ما تعرفين ؟.. »

« لا أسهل من هذا أيضا ! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الاول ، ونمسك نحن بطرفه الاخر ، يهديه فى ذهابه ويرشده فى ايابه !! »

***

وطربت بنت مينوس لتدبير وصيفتها ، فمنحتها قبلة شهية وخلعت عليها جائزة سنية ... وانطلقتا تترقبان المساء ..

---

(١) اللابيرنث هو التيه الذى بناه ديدالوس للمينوطور وقد حدثناك عنه فى أسطورة سابقة

وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستطير من الفرح ، وعرفت أنه ابن ايجـــوس ، فكبر رجـــاؤها وتلألأت آمالها ....

وقتل المينوطور ، وفك أسار رفاقه ورفيقاته ، وأقلعت بهم الفلك ، حاملة جوهرة جديدة غالية : هى ابنـــــــة مينوس ... وربيبة كريد

أما الملك !

فقد صبر ! وأرضاه أن يحرض ايجوس فيعتذر لـــه ويصالحه ! ...

وهكذا حسم الحب هذا الخصام الطويل



# بنـــدورا

## وسرقة النار المقدسة

توزع الآلهة تعمير الكون ، فكانت الارض من نصيب برومیثیوس بن يابيتوس ، أحد ذرارى التيتان العمالقة ، الذين حبسهم أبوهم خشية جبروتهم ومخافة بأسهم ..

وطفق برومیثیوس یفكر ، حتى بدا له أن يجعل فى الارض أناسى يخلقهم على صور الآلهة ، فاستعان أخـــاه أبيمثيوس فهداه الى الحمأ المسنون أو الطينة البشرية . فخلقا منها الانسان الاول ، وذهبا الى ايروس (١) فنفخ فيه من روحه ، التى هى الحياة ، وقصدا الى مينرفا فنفثت فيه نفثتين ، هما النفس والعقل

وخلق برومیثیوس رجالا كثيرين على هيئة آدم الاول ، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين !! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع فى أعطافه ، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه ، ويسجدون له ، حتى فكر فى نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم !

« النار ! النار المقدسة تنفعهم وتلين لهم حديد الحياة ! ومع أن برومیثیوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم ، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة ، وأن كل من استباحها

(١) هو كيوبيد اله الحب

لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الاله الاكبر ونكاله ، لقد ذهب الى الاوليمب وتغفل زيوس ، ودس قبسا من النار فى تضاعيف ثيابه ، وعاد كالبرق الى عباده المخلصين ، يقدم اليهم هديته التى سرقها من أجواز السماء !

ونظر زيوس من علياء الاولمب ، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك فى أديم الارض ، ففطن الى السرقة المنكرة ، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب !

وارتجف الاولمب ، وزلزلت السماء ، وارتعدت فرائص الآلهة ، وأمر الاله الاكبر فأحضر بروميثيوس مكبلا بالاصفاد ، ملطخا بالوحل ، وعبثا حاول الدفاع عن نفسه، ثم حكم عليه فسيق الى جبال القوقاز ، حيث غل عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان ، وفخذاه اللتان تزريان بفخذى فيل ، فى قنة عالية ، وسخر الاله الاكبر رخا عظيم الجثة ، حاد الاظافر ، كبير المنسر ، فذهب الى حيث بروميثيوس ، ينوشه ، ويمزق جسمه ، وينفذ أظافره ومنسره فى أحشائه حتى تبلغ الكبد ، فيهرأه ويطعمه حتى يأتى عليه ، وينصرف الى غد

فاذا كان الليل ، وهبت الريح سجسجا ، التأمت جراحات الاله المسكين ، ونما له كبد آخر ، وينام حتى تشرق الشمس ، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس ، وليأخذ فى تعذيب بروميثيوس التعس ، الى أن تغيب ذكاء !! وهكذا دواليك ، أحقابا وأحقابا ...

ويلبث الاله المنكود فى هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل الجبار فى أحد أسفاره ، فتثور الشفقة فى قلبه ، وينقض كالصاعقة على الرخ ، فلا يتركه حتى تزهق روحه، بعد صراع عظيم ، ثم يفك أغلال بروميثيوس ويحرسه ، حتى يقبل الليل فيشفى مما به ، ويسير بين يديه حتى يبلغ

أوطانه ، حيث عباده الصالحون !!

وفرح الناس بالههم وسروا بلقائه ، وقـــدروا ما لقى فى سبيلهم ومن أجل سعادتهم ، فعنـوا له وأحبتوا ..

وكانوا يحيون في بلهنية ، غارقين فى طـــراوة من العيش وسعة من الرزق ، هواؤهم رخاء وماؤهم صفاء ، لا يشكون متربة ولا يعرفون ضنكا ، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس . ولم يعرفوا المـــوت ، ولم يدروا ما البكاء ، فكأنما كانت حياتهم طوبى ، ونعيما مقيما

وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس وفرح الناس بأوبته اليهم ، فغيظ غيظا شديدا ، وآلى ليكيدن اهم كيدا ، وليرسلن عليهم من مكره ما لا طاقة لهم به ...

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صـور الآلهة ، ولكنهم كلهم ذكران ، « ومن الآلهة أنثيات ، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم ان صح أن يكون لهم نسل ؟ ... »

وأرسل دعوة عامة الى جميع الآلهة فسعوا اليه من كل فج عميق ، وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس ، ثم أخبرهم أنه يريد أن يخلقوا له أنثى جميلة يودع فيها كل منهم سرا من أسراره : « لانني سأرسلها هدية الى هذا المجنـــون بروميثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعبـــاده الذين خلق ... »

واقترح الاله أن يفرغ هيفستوس (١) اله النار والفن وابن زيوس ، الى ابتداع هذه الانثى ، فسواها من نفس الحمأ الذى خلق منه الانسان ، وجاءت آية من آيات الحسن ، رقيقة كأنها صورت لتكون فتنة الاولب

واحتملها الى زيوس ، وأقبل الآلهة ينفثون فيهـــا

(١) هو فلكان الرومانى

أسرارهم ، ويستودعون نفحاتهم . فهذه فينوس تهبها من جمالها ، وحيرا من ثرثرتها ، ومينرفا من حكمتها ، ولاتونا من استيحاشها ، وديانا من رشاقتها ، وكيوبيد من حبه ، وأبوللو من شعره وموسيقاه ..

أما هرمز الخبيث ، فقد انتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من اسباغ آلائهم ، ثم تقدم ، وملء وجهه ضحكة ساخرة فأودع الحواء (١) قلب كلب ، ونفس لص ، وعقل ثعلب !! ...

ثم نفخ فيها زيوس من روحه ، فدبت الحياة فى أعطافها ، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين ، مأخوذين بسحر جمالها ، فولت مدبرة ولكن الى غير مهرب :

وشرع الآلهة يتخيرون لها الاسماء ، ثم سماها ربها « بندورا . » وأومأ الى هرمز فاحتملها كالطفلة المدللة ، وذهب بها ، هدية غالية من السماء الى التعس بروميثيوس الذى رفضها غير شاكر وأباها غير حميد !

وكان لديه أخوه أبيمثيوس فكادت نفسه تذهب شعاعا حين أبصر هذه الغادة الهيفاء ، يرفضها أخوه هدية من السماء ! وتقدم هو فضرع الى هرمز ان ينزل له عنها ، وأن يغفر لاخيه حماقته ، وقلة بصره ، وكفرانه الذى لا كفران بعده !!

ومع ذاك فقد نصح بروميثيوس لاخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة ، وأن يرفضها ، غير مشكورة ، كما رفضها :

ــ « انها فتنة يا أخى ، بل هى خدعة من خدع السماء حرى بنا ألا تنطلى علينا ! »

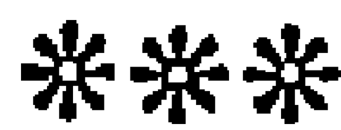
ــ خدعة ؟! خدعة ماذا يا أخى ؟ خذ عينى فابصر بهما ،

(١) الحواء . الأنثى الاولى

وقلبى فضحه على مذبح هواها ٠٠ ألا ترى الى عينيهـــا النجلاوين ، وشفتيها القرمزيتين ، وثدييها الناهدين ، وفخذيها المملوءتين ، وساقيها الجميلتين ؟ ٠٠

ــ « بل بحسبى عيناى يا أخى ! انى أستشف بهمـــا فتونا نفثته الآلهة فى كل جوارحها ، فحذار ! انها ستكون خراب هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداى ! »

ــ « حسبك يا أخى وحسبى ! هى لى من دونك ، فتول عنا أو دع ! »



وعاشت بندورا مع ابيمثيوس كما يعيش الآلهـــة فى الفردوس ٠٠ حياة كلها مرح ، وأياما جميعها لذة وايناس، يخلو اليها فتمتزج روحاهما وتختلط نفساهما ، وتكون هى فتنة زوجها المسكين ، تأسر لبه بموســـيقاها الحنون : وتسحره بالزرقة العائمة فى عينيها ، وتبهره بكلماتهـا الغوالى فى الحكمة والموعظة الحسنة !!

وتركهما زيوس حينا من الدهر ينهلان خمر الحياة ، ويعبان من عسلها المصفى ، ثم دعا اليه هرمز ، فحمله صندوقا ثمينا ، وأنفذه به اليهما ٠٠٠ « واياك أن تعبث به فى الطريق ، فانه هديتى الى بندورا ، وفيه انتقامى من عباد بروميثيوس ، فسر به الى الفتـــــاة ، وأوصها به خيرا ٠٠ »

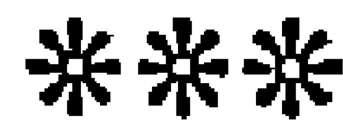
وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الاخضر امـــام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصـــندوق ، يتعاثر فى مشيته ، وقد بدت عليه وعثاء السفر ، وعلق الثرى بأسماله البالية ، فلفتت بندورا نظر زوجها اليه ، وذهبا سوية للقائه والاحتفاء به ، ولكن هرمز أبى الا أن يذهب الى القصر ، ليسلم الهدية ، وليبلغ رسالة السماء ٠٠فسار

الجميع حتى كانوا فى المخدع الوثير ، وجلس هرمز يستريح قليلا ، ثم قال :

« هاك يا بندورا العزيزة هدية الاله الكريم اليك ، خصك بها من دون براياه أجمعين . واحسبك فى غنى عن ان أصفها لك ، فها هى ذى أمامك تتكلم عن نفسها . ولكن الاله الاكبر يشترط الا تفتحيها الا باذنه ، فلا تتعجلى ، حتى يأتيك أمره . وانه لقريب »

ونهض هرمز ، وسلم وانصرف ، ولا تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التى كانت عليه ، يوم استودع بندورا قلب الكلب ، ونفس اللص ، وعقل الثعلب ...

وكان ابيمثيوس قد قدم اليه من ثمر حديقته الشيء الكثير ، ولكنه لم يمد يده اليه ...



وكان الليل قد قارب أن ينتصف ، وكان الكرى قد لعب بطرفها الوسنان ، فاستلقت على أريكتها الحريرية وغرقت فى سبات عميق ، ممتلىء بأحلى الرؤى ، وأطيب الاحلام ..

وخيل اليها ان فى الصندوق أرواحا سحرية تكلمها ، وتنسج الأمانى العذاب لها ، وأن دنيا بأكملها تتفتح وتزهر حولها ، فلما نهضت من نومها فى بكرة اليوم التالى ، أحست أن املا كبيرا يملأ قلبها ، وان رغبة ملحة تسوقها الى الصندوق كلما ابتعدت عنه ، وحدثت زوجها بما تجد ، فعللها هو الآخر بالآمال وأخذ يهدىء من روعها الذى بدا اضطرابه بأجلى مظاهره ... ودعاها الى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت ، بل لا تغادر الغرفة التى تضم الصندوق الصغير ، « الذى أحس أنه مغلق على قلبى ونفسى جميعا .. ! » فرثى لها ، وانطلق هو ،

لأول مرة منذ عرفها وحده ، ينادم اخوانه الآلهـــة ويلاعبهم ، وبندورا وحدها فى مخدعها ، تقلب الصندوق العجيب ، وتتحدث اليه ، كأنه يسمع ويرى

وغبرت أيام وهى فى حال من الهم لم تعهدها من قبل، وكانت تجلس وحــدها حزينة كاســفة ، تنتظر بشــير الآلهة الذى يأذن لها بفتح الصندوق . ولكن هيهات !.. لقد طال ما انتظرت حتى نفد صبرها وعيل ، ونهضت الى الصندوق تقلبه ، وهى مأخوذة بجمال صنعه ودقــة زخرفته ، وهذا الغطاء المزركش الذى انغلق على آمالهــا وأحلامها ..

وحاولت أن تفتحه ، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهة وأرباب ، ولكنها فشلت غير مرة ، وضاقت بها الدنيا بما رحبت ، فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة،فانصدع ..ولما تناولته ثانية هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت ، ثم هالها أكثر أن تســمع هذه الأصوات ، منطلقة من الداخل :

« بندورا ! بندورا ! بندورا العزيزة ! حنانك ! خلصينا من هذا السجن السحيق ! اننا نتعذب هنا ... انقذينــا يابندورا فقد ضقنا بما نحن فيه ... اننا لم نصــنع شيئا حتى نرسف فى هذا الحيز الضيق .. »

« ماذا ؟ ...

ما الذى يتحدث هكذا فى هذا الصندوق ... ؟

انها أصوات حزينة مكلومة ، وانى لابد منقذتها !

ماذا انتظر ؟ أمر السماء ! هذا لا يهم !

انفتح أيها الغطاء ... »

وضغطت الصــــندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء ، وسرعان ما انطلقت خفافيش ســود ذوات مخالب حادة

فملأت هواء الغرفة ، واهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح بدنها الغض ، وكلما وخزها خفاش لعين ، انطلق قائلا : « انا المرض ! »، ويقول آخر : « أنا الفقر »، ويقول ثالث : « انا الجوع ! » . ويصيح رابع : « انا البخل ! » . وخامس : « انا القحط » وسادس : « انا النفاق ! » . وسابع .. وثامن .. الى آخر الرذائل التى تكظ الحياة الى يومنا هذا ؟!..

وانطلقت الخفافيش من الغرفة الى القصر ، فجرحت الخدم والخول ،ثم انطلقت الى الحديقة ... والى الطريق حيث كان أبيمثيوس وأقرانه الآلهة ، فأوسعتهم عضا وقضما وتجريحا . وتركتهم يترنحون من الالم ، وذهبت تفسد فى الارض ، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد بروميثيوس المخلصين ، فكثرت الآلام ، وعم الفقر ، وامتلات الأرض رذائل واشجانا !! ...

وكانت بندورا قد اسرعت الى الصندوق فأغلقته ، حين رات من أمر هذه الخفافيش ما رأت

ولكن : وا أسفاه !!

انها حين اغلقت الصندوق ، حبست فيه الروح الطيب الوحيد ، الذى خبأه فيه زيوس ... الا وهو : « روح الامل ! »

وانبطحت بندورا على ارض الغرفة تئن وتتوجع وتشكو الجرح الذى ألم بها ، حتى أقبل أبيمثيوس فانبطح الى جانبها يشكو شكاتها ، ويألم لآلامها ...

ولبثا يبكيان ..

وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق ، تسخط الاله التعس وتبرم ، وحدجها بنظرة فاترة ، قائلا « نصحتك فلم تصيخي ... ! »

وسمعا صوتا ضعيفا فى الصندوق يقول : « بندورا ! بندورا ! لماذا حبستنى وحدى ، وأنا روح الخير ... افتحى ... افتحى .. انى سأشفيك من جراحك ، وآسو آلامك وأوجاعك .. افتحى ... »

ولكن بندورا كانت فى شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب ، ولكن ابيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه ، فانطلق فراش ابيض جميل ، هو روح الامل ، ما فتىء يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعا ، ثم شفى جراح الزوجة كذلك ، وانطلق الى عباد بروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم ، وما فتىء الى اليوم ، هذا الفراش الابيض الجميل ، روح الأمل ، يشفى اوجاع المحزونين والمكلومين

بورك الفراش الابيض !

ولا بوركت خفافيشك السوداء يا بندورا !



# هيرو و ليـاندر

## المأساة الغرامية المؤلمة

ارسلوها الى الدير ، طفلة بريئة النفس ، طاهرة القلب ، بسامة الثغر ، وضاحة الجبين ، كلما وضعت ابهاما فى فمها تمصه ، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودعتها

ونذروها لفينوس ، فكانت ربة الحب تنسرق فى القمراء الصافية لترعى طفلتها ، ولتنفث فيها من رقى السحر ما تعدها به لمستقبل غرامى ملىء . وكان الكهنة يتفرسون فى شفتى هذه الوديعة الصغيرة الفاترة لا يدركون لهما كنها ، وأسرارا لا يفقهون لها معنى ، الا كنه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة ، والا معنى القبل ، الناضجة يختلسونها كلما افترتا عن ابتسامة ، أو انفرجتا لدغدغة أو تخميش (١)

وشبت هيرو ..

وتفتح الورد فى خديها الناعمين ، واستيقظ النرجس فى عينيها الناعستين ، وضحكت فينوس فى شفتيها

---

(١) هما : « الزغزغة »

الحمراوين ، ونبت الخمل الحريرى يطرىء صـــباها الغض ، وشبابها الفينان !

ورسمت راهبة لفينوس في سيستوس ، المدينة الخالدة ، التى تربض على شاطىء الهلسبنت (١) الأوربى ، قبالة أبيدوس ، مدينة الاحلام على الشاطىء الاسيوى

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدى الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب ، فى برج مشيد مشرف على البحر فى قصر ابيها ، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها فى المدينة الكبيرة ، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الاهلين كما يتحدث الشذى عن ورده ، والارج عن رنده ، حتى اصبح اسمها اغنية كل فم ، وهتاف كل لسان

وسمع لياندر ، فتى ابيدوس وأشجع شبابها ، والذائد عنها فى كل حومة ، بهيرو الراهبة ، فعجب ان تكون حقيقة كما يصفها الناس ، ، وحسب ان المبالغة هى التى نفحت فى شهرة هيرو ، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها ، وصرف ذهنه الشاب الفتى عن هذه الطوبى التى سلبت البـــاب الفتيان ، وغدت حلما ذهبيا لكل مدله ولهان

ولكنه كان يزداد تذكرا للفتاة كلما بالغ فى نسيانها او تناسيها ، واذا صح ان الاذن تعشق قبل العين احيانا ، فلقد كانت اذن لياندر عاشقة وامقة ، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة (٢) ، وما برح يعرض عنهـا ولا يصغى لها ، حتى اعلن فى سيستوس عن حفل ضخم يقام فى هيكلها تكريما لفينوس وتقديسا ، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة فى الاحتفال بربة الجمـــال والحب ، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب

(١) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف
(٢) المحبـــة

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطىء الاسيوى فى ابيدوس وحتى سمع به لياندر ، فابتسم ، وشعر فى سويدائه بأول قبس من نار الحب ، فألهب احساسه واشعل قلبه ، وملأ أضالعه شوقا الى هيرو وتحنانا

واعتزم المشاركة فى الاحتفال ، لا تقديسا لفينوس ولكن لينظر الى الراهبة الحبيبة التى مــلأت خياله ، واصبحت مثاله الاعلى الذى ينجذب دائما اليه ، مدفوعا بالقوة الخفية الخارقة ، خاضعا للسحر المنطوى العميق..

واذ كان اليوم المنشود ، ارتدى الفتى ابهى ملابسه ، وانطلق يحدث نفسه امانى الحب ، ويتغنى اغرودة الجمال وظل يحلم فى طريقه الى سيستوس بهذا الامل اللماح ، الذى يشبه فى تحجبه فى ثنايا المستقبل قمر ليلة مكفهرة قمطرير ، ما يفتأ يتخايل فى تضاعيف السحب !

وعبر الهلسبنت فى زورق ابيض جميل ، مخرما بين العدوتين فى ساعة كانت فى فؤاد العاشق المشتاق اطول من احقاب واحقاب !

وقصد الى الهيكل ، وطفق يدافع الجماعات ، ويزاحم الجماهير ، حتى كان بين يدى هيرو

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمى الراهبة الصغيرة التى استوت على منصة ترتفع قليلا عن مقاعد المدعوين ، مشرقة مونقة ، كأنها زنبقة ، ملتفعة بردها الحريرى الابيض،متكئة بذراعها اللدنة الجميلةعلى سنادة المنصة ، مقلبة عينيها الدعجاوين فى الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات ...

وكانت فينوس قد اقبلت من مملكة الاولمب تشهد المهرجان الحاشد ، وتشبع خيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها ، المترنم بعبادتها ، وكان معها ابناؤها الغر

المياسين ، وفيهم كيوبيد وهرمونيا ، فاختبأوا فى ابراج الهيكل ، ولبثوا ينظرون الى الملأ ويعجبون

وأرسلت فينوس عينها الفاحصة فى الملأ ، فرأت لياندر العاشق يرنو الى هيرو الراهبة ، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاما ، ولاحظت ان هيرو منصرفة عن الفتى المسكين ، لا تكاد تعيره نظرة ، ولا تمنحه التفاتة ، وهو مع ذلك مشرئب اليها ، ينظر نظرات كلها عبادة ، وعيناه مغرورقتان بدموع تكاد تنهمر

وتحرك حنان الحب فى فؤاد ربة الحب ، وأقسمت لتعاونن فى هذا المشروع الغرامى العظيم !!

وذلك ان فينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط ، بل كان يثلجها ويملؤها غبطة ان ترى الى عبرات المحبين ، وتسمع الى رنين القبل فى شفاه العاشقين ، فأشارت الى ولدها كيوبيد — رب الحب ، وصاحب السهام الذهبية ، والقوس ذات الوتر العرد — فأقبل عندها ، والقت اليه اوامرها ..

فوتر (١) كيوبيد قوسه ، وتخير واحدا من سهامه ، وانتهز فرصة من هيرو كان نظرها متجها فيها الى لياندر ، وأرسل الى قلبها السهم الذى يحمل رسالة الحب ، فدخله غير مستأذن ، وملأه لوعة وصبابة .. وجنت للحظتها بالفتى ..

وتخير كيوبيد سهما آخر ، وأرسله هدية حارة ، دامية ، الى فؤاد لياندر . فما كاد يستقر فيه ، حتى أحس الفتى أنه لم يغد واحدا من هذه الاجسام الفانية الهالكة بعد ، بل هو قد صار طيفا نورانيا ، وأحس مع ذلك بحب غامر لم يكن له به عهد من قبل ، جعله يفنى فناء تاما فى هيرو

(١) أى ركب بها وترها

الراهبة ، التي نظر فألفاها تلتهمه هي الاخرى بعينيهما وقلبها التهاما !

لله يا حب ما أجملك ، وما أبر فينوس بعبادك !

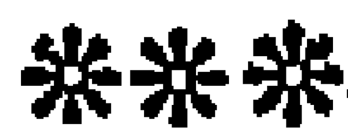
ودلف لياندر نحو المنصة ، وتمتم بكلمات خافتة ، ( كأنما هي بث الورد للمطر ! ) يفهمها المحبون وحدهم ، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون ، فعلمت هيرو ان حبيبها يقرئها حبه ، ويسرها هيامه ، ويرجو منها أن تمنحه ميعادا يلقاها فيه على حدة ، ويعبدها خلاله على انفراد ! ...

وارتبكت هيرو ، وتصارع في نفسها الخوف والحب ، الخوف من ان يلحظ احد ان راهبة فينوس تصبو ، وبذلك يهوى احترامهما الى حضيض السخرية ، حينما يفتضح الحب الذي تكتمه في صميمها للياندر ، والذي اثاره فيها سهم كيوبيد ، ولم تر الا ان تنهر العاشق الملح لينصرف ، ولكنه ما يزداد الا تعلقا بها ، وتشبثا بما طلب اليها ، ورجاها فيه ، وتكون هيرو قد بلغت حالة بين الهيام والاشفاق لا تحتمل ، فتهمس اليه ان ينتظر حتى ينصرف الناس ، فاذا انصرفوا ، خلت اليه ، وحدثته حديثا موشى بالورد مبللا بدموع الحب ، يختلط فيه انين الآهات برنين الموسيقى . وتذكر له ان اتصالهما سيظل حبا في حب ، وبكاء في بكاء ، ولوعة في اثر لوعة ، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة : « لاني راهبة كما تعلم ، وانا خادمة هذا الهيكل الفينوسى المقدس ، وسأظل عذراء ابد الدهر ، فلن ينتهى حبنا الى هذا الزواج الذى اوثره واتشهاه . فاذا كان الغسق يا حبيبي ، وتألق النجم في كبد السماء يردد أناتنا ، فاقصد الى شاطىء البحر عند ابيدوس ، واخلع ملابسك : ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك اشارة من مصباحى ، حيث اكون فى برج قصرنا المشرف

على البحر عند أقصى حدود سيستوس . فاذا وصلت ، وستصل سالما فى رعاية فينوس ، فهلم الى فى البرج نلتذ آلام الحب ، ونتغن اشجان الهوى ، واضعة راسى على صدرك ، او واضعا رأسك على صدرى ، شاكيين الى الآلهة مابنا من برح ، حتى يطلع الفجر فنفترق ، وتعود ادراجك الى الشاطىء الاسيوى سابحا ، فاذا كان غد ، عدت لافنى فيك واغمرك بالقبل ، ولا قرأ فى نفسك ، وتقرأ فى نفسى ، كتاب الحب وآى الطهر .. وبوركت فينوس ! »

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر فى صلتها الغرامية بليآندر ، لان شطئان الهلسبنت كانت حراما على السفائن والزوارق وسائر الجوارى ، بعد ساعة من غروب الشمس ، فلو قد ركب زورقا وعبر به البوغاز ، لعرض نفسه لاخطار جسام ، من بينها عقوبة الاعدام دون محاكمة ! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحا كما رسمت له هيرو ..

« معبودتى ! سأخوض العباب فى سبيلك »
« وأطوى بحار الجحيم لو أنها تحجزنى عنك »
« فلا الموج جياشا باللهب ، ولا الاعماق تقذف بالحمم »
« ولا الفزع الاكبر فى الارض أو فى السماء ، لا هذا ولا »
« ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتى ! (١) »



فلما كان غد ، وتوارت الشمس بالحجاب ، واقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه ، يمم ليآندر شطر البحر ، ووقف فوق رمال الشاطىء كأنه يعدها ، ولبث يرقب البرج على العدوة الاخرى ، وفى قلبه أمل مضطرب ، وفى نفسه قلق مستعر ، وملء يديه منى تملأ العالم بأسره !

وظل يذرع الشاطىء جيئة وذهوبا ، وهو حين يروح أو

(١) من أدوين أرنولد

حين ينثني ، يحملق فى البرج المشيد لا تريم عيناه عنه ، وكانت الرياح تدمدم فى جنبات الاكام الممتدة على الساحلين والموج يزخر فى غيران طوروس الشامخة ، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية ، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء فى خضم السماء ..

وفجأة لمح لياندر بصيص النور فى كوى البرج الشاهق ، فانفلت من ثيابه كأن الشعاعة تجذبه ، ولم يعنه أن يمزق هذا الكم ، ويشق ذاك الجيب ، ولم يبال أن يقــــذف بالقميص هنا وبالبرد هناك ، ثم ينقذف فى الماء ويأخذ فى سباحته ، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء ، وتخفضه موجة حتى ليخال البحـــر ينشطر بحرين ، ويهوى فى أعماق القرار يؤانس التريتون ويجالس الاوسيانيد (١) !!

وكانت فينوس تنظر من علياء الاولمب وتلهو ..

ما برح يصارع البحر والبحر يصرعه ، وما برح يتقدم الى أمام ويسحبه التيار الى وراء ، وكلما خانته قواه نظر الى البرج يتزود من بدره قوة ، ومن القبل الحارة التى تنتظره ثمة دفئا ونشاطا مجددا !

وبلغ الشاطىء ..

ووجد هيرو تنتظره كأنه الامل المرتقب ، والمنية المرتجاة ، فهرعت اليه واستقرت فى حضنه ، ولبثت تتسمع الى دقات قلبه الواجف الذى يخفق — لاول مرة — بموســــيقى الحب ! !

« وامتد فم الفراشة المرتجف ، يرشف رحيق القبلة الاولى من الثغر الحبيب الذى تفتحت عنه جلنـــــارة الحب (٢) »

---

(١) التريتــون : فتيـــان البحر . والاوســـيانيد : عرائس المحيطـات
(٢) من لورد بيرون ، والجلنار : زهر الرمان الاحمر

وتمزقت السحب ، وتكشفت السماء ، وأطلت النجوم ترنو الى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان ، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر ونعيم الحب البرىء !!

وكانت فينوس تنظر من علياء الاولمب وتلهو ...

ونسمت في الافق الشرقي أنفاس الفجر ، فنهض الحبيبان يودع أحدهما الآخر ، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات !

وفصل لياندر ، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر اليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه ، ويلبس الزبد والزبد يلبسه ويخلعه ...

وفينوس تنظر وتلهو ..

***

وأشرقت الشمس وتوارت ، وأقبل الليل وتنفس الفجر ، وعصفت الريح أو هبت رخاء ، والتمعت الشعلة تضىء للعاشق ظلمات العباب ... واطمأن البحر الى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الارض ، فكان يطويه الى منية نفسه وهوية قلبه ، في كل موعد منتظر ، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء ، وكأنه يمتطى من ظهـــور الموج الصافنات الجياد ..

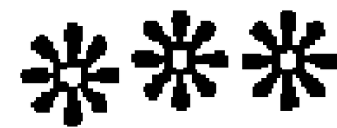
وكان فجرا شاتيا يكاد سنا برقه يخطف الابصار ، وزمزمة رعوده تهد جوانب الافق ، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه ، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها ، وتعلقت به ، وراحت تغمره بالقبل ، متوسلة ضارعة ، ترجوه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته في هذا اليم المصطخب ، وهي تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم ، حتى تسكن العاصفة ، وينام الماء ...

وثارت النخوة في نفس لياندر ، وشاعت الكبرياء في

جسمه القوى المقتول ، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى ، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة فى يديه الجبارتين ، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها ، ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين ، وهرع الى البحر فخوض فيه ، ملتفتا بين برهة وأخرى ، محييا البدر الصغير المشرق عليه من الشاطىء ...

وفينوس البارة تنظر من الاولمب وتلهو ...

وأحس فى منتصف الطريق برعشة واعياء ، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة ، وباسم فينوس أخرى ، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية ... ورثت لحاله ربة الحب ، فنفخت فى ذراعيه المجهودتين ، حتى وصل الى شاطىء أبيدوس مهدودا محطما ... وتهالك على نفسه ، فوصل الى منزله ، وأوى الى فراشه ، ليحلم بالموت المحقق الذى نجا منه منذ ساعة ...



وغابت الشمس ، ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفوانا ، والبرق ما فتىء يطوى السماء ، وكان كل شىء ينذر لياندر بسوء المنقلب ومع ذاك فقد نهض غير مستيئس وقصد الى الهلسبنت ، فوقف بشاطئه يبتسم للاهوال التى يضطرب بها بطنه ، ثم لمح الضوء ينبعث من كوى الكوخ .. فخلع ملابسه ، وبدأ رحلته ...

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو ..

لانها كانت عند حبيبها أدونيس الراعى الجميل تستمتع به ، بعد اذ فضحها أبوللو فى حبيبها مارس

ولم يبل لياندر من البحر ما بلا هذه الليلة ... فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين ، وتصدع ذراعيه وترتطم برأسه ...

ولقد كان الماء هذه الليلة كان شيئا من الصبر قد ذاب فيه ، بعد اذ كانت ملوحته تستحيل شــــهدا فى فمه ، وعسلا مصفى !

ولقد كان البرد ينهل من السحب القاتمة ، والصقيع يساقط كندف القطن الابيض ، فيعلق بشعر لياندر ، وينسج فوقه قلنسوة من برودة الموت ..

وجاهد العاشق ...

وسبح باسم هيرو بين موج كالجبال ، وليل كلــــه ظلمات ....

وا أسفاه !!

لقد نظر المسكين الى البرج يتزود من نوره . ولكنه لم ير الشعاعة تتألق كما عودته ...

لقد أطفأتها الرياح الهوج ، فأطفأت فى قلبه بصيص الامل ..

واستولى عليه خور الفجر السابق ، ودهاه القنوط فى عضلاته ، فيئس منها جميعا ... وضاعف النكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو !

فغاص ! ...

ولفظه اليم جثة هامدة .. ثم ابتلعه ، ثم لفظه ..

ثم انتصف الليل ، وهيرو المشوقة حاملة مصباحهـــا الخافت ، بعد اذ أشعلته ثانية ، ولكن الساعات تمضى .. ولا يصل لياندر ....

وتنفس الصبح ، فسارعت الراهبة الهيمانة الى البحر ، وحملقت فى الماء .. فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج ، كأنه حنين الجسم الى أحلام الروح !!

وصعقت هيرو ..

ودارت بها الارض ، وانطفأت فى عينيها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام ، فألقت بنفسها فى الاعماق ! ..

وما هى الا لحظة ، حتى كان الحبيبان مسجيين على سرير الماء ، ملففين في أكفان الزبد (١) !

---

(١) شغف لورد بيرون بهذه الاسطورة فنظمها ، وذهب بنفسه الى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز ، وتمنى لو غرق مثله هناك ، فلا يفوتن القارىء الاطلاع على تحفة بيرون فى ديوانه



# هـــرقـــل

كان قلب الاله الاكبر شيوعية فى دولة الحب ...

ولم يكن يقتصر هواه على ربات الاولمب فحسب ، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء ، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الاماليد من ظباء دار الفناء ... هذه الحياة الدنيا ! ..

ولقد كانت زوجته حيرا تقعد له بالمرصاد ، لما تعرف من تصابيه ، ولقلة ثقتها فيه ، فلما علق الفتـــاة الفتانة « ألكمين » احدى أميرات هيلاس ، كان يبالغ فى الحـــذر حتى لا تفجأه زوجته معها كما فجأته مع الحسناء « يو » من قبل

ونعم الحبيبان بحياة راضية ، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل ، وما كاد النبأ يذيع فى دولة الاولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط فى يدها ... لانها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها فى قلب زوجها

(1) Hercules أو Heracles ويسميه بعضهم Alcides وعربه العرب هرقل

( زيوس ) ، تلك المنافسة التى ارتفعت الى مرتبة الآلهة، بعد اذ وضعت غلامها ابنا لسيد أرباب الاولمب

ولكنها ، وهى هى المجبولة على الشر دائما ، آلت الا أن يرتد نور الحياة المتلألىء ظلاما فى عينى الام ، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب ، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا الى مهد الطفل ، وأن تندسا فيه ، حتى اذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته ، وعادتا بأثارة منه تشهد على انفاذ ما أمرتا به

وسعت الحيتان حتى استقرتا فى المهاد الوثير ، وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة ، وأوشكتا أن تظفرا بها ...

ولكن هرقل الصغير الهادىء افتر عن ثغر شتيت مشرق وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعا ، وكان الخدم قد أقبلوا ، فلما شهدوا الافعوانين ، صرخوا وأعولوا ، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير ، المنبطح على ظهره ، يضرب برجليه ها هنا وها هنا، قد قضى على الحيتين العظيمتين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية !!

وقدمت ألكمين فضمت الى صدرها الحنون طفلها الهائل ! فرحة مستبشرة ، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معانى الامومة

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيها ، وأيقنت ألا سبيل الى القضاء عليه ، ولكنها لم تيأس ، وأقسمت أن تنثر الشوك فى مستقبله القريب ، وتبث العراقيل فى حياته الجائية

وشب هرقل ...

ونشأه مؤدبه « شيرون » زعيم السنتور (١) ، تنشئة حربية حافلة ، ولقنه كل ما تحتاج اليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان ، فمهر هرقل فى زمن قصير فى استعمال الاسلحة بأنواعها ، ونبغ فى جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدى ، يمسكه العضل البارز ، ويزينه الكيان المفتول ... وكان اذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوى، آثر أن يشركه فى نزال مع الثيران والعجول ، والضخم ذى الايد من بهيمة الارض . وكان هرقل لا يخشى شيئا من خصومه العجماوات ، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب ، فلا يدعها حتى يلقيها على الارض معفرة بالتراب! وخشيته الحيوانات جميعا ، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلا نحوها ، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه!

وكان الفتى كلما ازداد قوة، وذاب الحديد فى عضلاته، ازدادت حيرا تغيظا ، وهاجت فى فؤادها الاحقاد !

ولم تعد تطيق صبرا على هذا الخصم العنيد ، ومادت بها الارض ، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن فى رأسها تغريها بهرقل ، ومن يلوذ بهرقل ، فانطلقت الى زوجها ولم تزل به حتى أصدر ارادة أولمبية تقضى أن يصبح هرقل خادما لابن عمه النذل الخسيس : يوريذوس أمير أرجوس، وأن يظل فى خدمته بضع سنين ..

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون ..

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس ملىء بالرغائب ، مفعم بالمجازفات . فبينما كان يعبر طريقا معروشا بفروع السنديان ، بين غابتين عظيمتين ، اذا غانيتان جميلتان

(١) السنتور جيل خرافى نصفه الاعلى نصف رجل والنصف الاسفل نصف حصان

تعترضانه وتأخذان عليه سبيله ... فأشـــاح عنهما ، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء ، أو من أولئك اللائى يتخذن الفسوق حرفة قذرة لعيش وضيع . لكن الفتاتين تشبثتا به ، وأبتا الا أن يقف معهما هنيهة ، يتخير منهما واحدة تكون رائدته فى هذه الحياة ، تهديه وترشده وتأخذ بيده فى سبلها المتشعبة

وكانت احدى الفتاتين ، ( كاكيا ) شيطان الاثم وابليس الفجور فى هذه الارض . فتقدمت اليه متبرجة متهتكة ، تغمز بهذا الطرف ، وتبتسم بذاك الثغر ، وتهز ما سكن من الجليد ، وتمط ما اشرأب من العنق وتحسر عن الساقين ، وتكشف عن الذراعين ، وهى تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء فى نفس الشاب ، وتستولى بها على مشاعره : « أنا حبيبتك كاكيا ، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود فى خدود العذارى ، أضع قلبى وجسمى بين قدميك يا هرقلى العزيز مطية الى الفردوس الذى تجد فيه ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة .. فاتبعنى أجعـــل الدنيا كلها من حولك سعادة ، وأصير طريقك انى ذهبت فى الحياة منضورة بالورد زاهرة بالرياحين ... هلم الى نحى حياة كالحلم ، بعيدين من عناء العالم ، نائمين عن شقاء الدنيا ، لانفتح أعيننا الا على متعة ، ولا نرهف سمعينا الا لموســـيقى ، ولا نغلق قلبينا الا على نعيم ...

مالك ولوجه الحياة المربد يا حبيبى هرقل ؟ ان الدنيا فرصة سانحة فانتهزها ، وان العمر قصير فلا تلق به بخوراً فى نار البأساء ، وان الايام لتخب بنا دون أن نشعر بها ، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبـــوس الاسود الحزين القاتم ؟ ولم لا نرسلها فى وشى وأفواف ؟ لم لا نستمع دائماً لما توحيه الينا قلوبنا ونفوسنا مادامت الدنيا مخلوقة لها ؟

لم تطرق هكذا يا حبيبى ؟ أمتعب أنت ؟ هات راسك اذن ، ودعه ملقى على صدرى الجميل الخصب ...

ولكن الفتى نفر نفرة بادية ، وأرسل نظرة فاحصة الى ( أريتيه ) الفتاة الأخرى ، التى كانت تقف عن كثب ، مصغية الى حديث كاكيا ، مشفقة على الشباب المسكين

أما أريتيه هذه فربة الفضيلة ، ونفحة السماء ، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا ...

وسألها هرقل : « أنت أيتها الفتاة ، بم تشيرين ؟ »

وقالت أريتيه ، وهى تكفكف عبرة غالية : «أنا لا أشير عليك بشىء أيها الصديق الا بالحذر من هذه الفــــادة ! انها توشك أن تضلك وترديك ! »

فغيظت كاكيا وأخذها الحنق ، وأجابت فى غلظـــة ومخاشنة : « أضله وأرديه ؟ هاها ... وأنت ؟ أتسلكين به سبيل الفضيلة التى زرعت أرضها قتادا ، وبذرت فيها أنياب الذئاب ؟ اسمع يا هرقل ، اصــغ الى يا حبيبى ، دعك من هذه الفتاة المحتشمة ... تول عنها ... انهـا تفطش حياتك أو تبعتها ... »

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول : « ان الآلهــة يا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة فى بنيانك لغرض أســمى من جميع الأغراض الحيوانية ، وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثورا ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد فى عضلاتك ، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك . أجل ! ان طريقى لا ينمو بها الا الشوك ، وانها تدمى الأقدام وتجهد السائرين ، ولن ترى فيهــا زهرة ولا ريحانة ، بل لن تسمع فيها عصفورا يغنى ولا بلبلا يغرد ، وبالعكس ، قد تقتتل فيها مع الســـباع والضوارى والثعابين ، ولكنك فى آخر كل نصر ، وعقب كل ظفر ، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر ، وترقص بين

يديك بالغواني والقيان . أما ما تغريك به هذه الأنثى الهلوك ففيه حتفك ، فحـــذار . وليس أحب اليـــك ، كرجل ، كان له الشرف أن يكون ابن اله ، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له »

وسكتت أريتيه ، ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج ، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز ... غير أن نخوة الرجولة ثارت في قلب هرقل ، فانتهر الغانية الغاوية وأغلظ لها ، ثم تقدم الى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة ، وطبع عليها قبلة تفيض وقارا واحتراما ، ثم قال لها بصـــوت متهدج خافت : « هلمى بنا يا فتاة فلن أخشى في سبيلك بأسا ولا رهقا »

وانطلقا ... وغابا في ظلام الغابة ...

ولم يبرح هرقل معينا للضعفاء ، مغيثا للملهوفين، اذا رأى مظلوما انتصف له من ظالمه ، واذا لقى جائعا نزل له عن زاده ، ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار ، ولم تبرح الفضيلة تمشى في أثره أيان ولى ، حتى ضاقت الدنيـــا بحيرا ، ولم تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم ، ولا سيما بعد أن أتصل بالملك كـريون ، ملك طيبة ، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا

لقد أحب هرقل زوجته حبا جما ، وأحبته هى كذلك وأخلصت له ، وكانا يذهبان الى الغابة القريبة يتناجيان نجوى الحب ، ويرشفان كؤوس الهوى ، ويعـودان مع الاصـــيل فيسامران الملك الشـــيخ ، ويدبران معه أمور المملكة ..

ثم مكرت حيرا مكرها ! ...

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشده ، وتتركه يهيم في الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين. فبينما كان غارقا في أحلام السعادة الى جانب زوجته ،

آمنين مطمئنين ، اذا حيرا الآثمة تندس فى ظلام المخدع ، وتنفث سحرها الفظيع فى أذنى هرقل ، وتمضى لشأنها ، فتختبىء فى الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط .. وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين ، فتشهد المأساة التى تتفزع من هولها الارض وتميد الجبال ! ..

وأشرقت الشمس !

واستيقظ هرقل ، ونهضت ميجارا ، ولكن نارا كانت تقدح الشرر فى عينى البطل ! وزبدا حارا كان ينقذف من فمه المخرف ! واصواتا كأصوات الشياطين كانت تدوى فى رأسه الضخم ...

والدم ! ...

لقد كان ينبثق من كل جارحة فى جسمه الارجوانى ، فينضح اللحف والأرائك ، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس !

وذعرت ميجارا ، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها ..

ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر ، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع : «تعالى يا خائنة ! أين كنت طيلة الليلة الفائتة ؟! آه أجل ! كنت تتمرغين بين ذراعى عشيقك الجبان ! الويل لكما ! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب ! »

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين ، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثة هامدة ، قربانا للموت فى عنفوان الصبى ، وضحية للردى فى ريعان الشباب ...

وانطلق يصرخ فى ردهات القصر ، وهرول يزمجر فى حنيات الحديقة ، ثم أطلق ساقية للريح ...

وفى قنة جبل تزمزم الأعاصير فى جنباته ، جلس هرقل المسكين ليثوب اليه رشده ، وليذكر أنه قتل زوجته

المحبوبة فى نوبة جنونية ، فينشج ويبكى ! ...

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس ، فتنشق عن اله كريم ، هو هرمز رسول السماء ، حمل الى هرقل تلك الارادة الاولمبية القاسية ، التى أصدرها زيوس ، متأثرا بالحاح زوجته الآثمة حيرا ، والتى تقضى أن يظل هرقل فى خدمة ابن عمه يوريذوس اثنى عشر شهرا يصدع خلالها بما يؤمر !

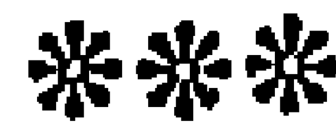
ــ « لقد كان عليك أن تظل فى خدمته بضع سنين ... ولكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المدة ، واختزلهما الى ما ترى ! »

ــ « يختزلها أولا يختزلها ، لقد أصبحت الحيـــاة سجنا بدون ميجارا ! »

ــ « عليك بالصبر يا صديقى ، فقد تفيدك طاعــة الآلهة .. »

ــ الآلهة التى لا تحسن عملا غير هذا العبث ! .. »

ــ « صه صه ... هلم الى يوريذوس ، وستكون حرا بعد سنة واحدة ... »



وجن جنون هرقل لهذا القضاء الأولمبى الاعمى ، وفر من هرمز فى مسارب المياه ، ولجأ الى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم ، ولكنه عبثا حاول الفرار مما كتبته السماء عليه ، وهنا ، بدت له صديقته ربة الفضيلة أريتيه ، فنصحته ، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس ، فذهب اليه كسير القـــلب مهيض الجناح ، كأن جبلا من الهم والسخط مستقر على قلبه

وقال له يوريذوس : « واخيرا وصلت الى آخر الدرب يا هرقل ! ... ان أمامك أمورا فأعد لها عدتك ، فمــا دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئا .... »

وخذجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له :
« أجل ، لقد وصلت الى آخر الدرب ... ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا ... ألا فاذكر حاجتك التى أرسلتنى الآلهة لاقضيها لك ، واقصر ! »

وضحك يوريدوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه ، وقال : « حاجتى ؟! ان لى لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها . وكيف تصبر مثلا على سبع نيميا الذى يقطع الطريق الى غاباتها ذات الكنوز والأذخار ؟ »

وقال هرقل : « سبع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا ، عليك أن تكلفنى ولو بهدم السماء أفعل ما تكلفنى به ... والآن ، أاذا جئتك برأس هذا السبع ، أأكون طليقا ؟ »

ــ « تكون طليقا ؟! ان أمامك اثنتى عشرة مسألة ، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا هرقل ، فهلم اذن ، وسنرى ... »

# مجازفات هرقل



## ١ – الى غابة نيميا

كانت الغابة تثير الرعب فى قلوب الجن ، وكانت الظلمات تضرب فى أنحائها فتجعلها تيها يعج بالافاعى ، ويضج بالتنانين

وكان ملكها الضرغامة يربض فى المغارة المفزعة ، المنشقة كالقبر فى أول الطريق المؤدى اليها ، وكان يخرج فى أول الليل فيصول فى القرى المجاورة ويجول ، وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير ، فلم يكن يبقى على دابة فى الأرض ، ولا انسان فى الطريق . ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها . ثم يحتملها الى كهفه فيلتهم منها ، وينبذ الباقى لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع

ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التى يتحدث عنها السودان هذه الايام ، بل كان أسدا فى جرم الفيل وقوته ، ورشاقة النمر وخفته ، وخباثة الثعلب وحيلته ... يثور فينقدح الشرر من مقلتيه ، وتمور الأرض وتسجد الجبال بين يديه . وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم ، وبطنتها بحمى المنية !

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبال ، ويهز جوانب السماء ، ويهيج الجنون والفزع في رؤوس الوحوش ، فترى الى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان !!

ولقى هرقل أصدقاءه فنصحوا له الا يلقى هذا الاسد ، وأن يضن بشبابه ... على أنيابه ، وبماء الحياة المتدفق في بردتيه ، على جمر الغضى المتأجج في حدقتيه ...

ولكنه أبى !! وانطلق كالعاصفة الى حيث يربض أبو أسامة ... وانه لعلى خطوات من الكهف ، وانه لينظر الى السيف الذى كان الى هذه اللحظة في يمينه فلا يجده !!

« أين ؟ أين سيفي ؟ ... آه ! هاها .. لقد سرقته حيرا !! أرادت الخبيثة أن تجردني من السلاح الذى انازل به خصمي ! خاب فألك يا حيرا !! سأنازله بغير ما سلاح ... سأحطمه .. سأشد لسانه حتى انتزعه من غلاصمه ... الى يا سبع نيميا .. الى يا ملك الغابة وسيد وحوشها .. الساعة ساعتك .. لا مفر لك يا أبا لبدة ! ... »

وطفق هرقل يرعد كالمجنون ، وكان سبع نيميا نائما فاستيقظ على هذه الصيحات المدويات ، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل ، وجها لوجه ..

وبدأت الزوبعة ...

والتقى الجبل بالجبل ، وتصارع الجباران ساعة ، لا هذا ينال من ذاك ، ولا ذاك يصل الى وطر من هذا ..

وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب ... وغضب أبو أسامة ، وهاله الا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصرعه ...

وتعب هرقل .. ونال منه الجهد ، ورأى أن لابد من آلة ، فدار دورة اقترب بها من شجرة باسقة ، فانتزعها والقى بجذعها فى شدقى الأسد ، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه ، وانقذف الدم يتدفق من هنا وهناك ... وتسيل به أودية الارض !!

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل ، فقبض على فكى الاسد ، وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ ، وخر ملك الغابة يتقلب فى آجة من دمه الغزير !

وهمهمت الوحوش مشدوهة !

لقد قتل ملكها ... فلا خوف عليها بعد اليوم ! ستكون حرة طليقة ، تجيء وتروح ، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامة !!

ونظر هرقل ، فرأى سيفه وراء ظهره !!

لقد جاءت به حيرا بعد اذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها وتناول السيف باسما ، ثم تقدم الى الاسد فسلخ جلده الكبير ، وأبقى على اللبدة الهائلة ، وعاد أدراجه الى يوريذوس ، ملتفعا دثاره الغريب الذى كان الى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها

## ٢ ـ مع الافعوان الهائل « هيدرا »

ولقى صديقه يولوس ، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا ، فأخذه العجب ، ونذر ليصحبن هرقل فى جميع مجازفاته . ثم فصلا ، وما كادا يفعلان حتى قابلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه الى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الارقم هيدرا : « ... فاذا لقيته ثمة فعليك به ، ولا تعودن الا برأسه . فقد حدثنا من عرفه أنه لايبقى على دابة ولا بهيمة ، ولا يعفى من القتل أحدا ... ونحن

ارفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان ... »

وانطلقا ، حتى اذا كانا عند المستنقعات المترامية ، شهد هرقل حيوانا ضخم الجثة فظيع المنظر ، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية . وايقن انه هيدرا ، فتناول قوســـه الكبيرة ، وارسل الى الوحش سهما يهيجه به ، ليخرج من الماء ، وليأخذه معه فى نزال وقتال ...

وتم له ما أراد . وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوســه السبعة . ويقلب فى كل فم لسانا طوله ذراعان ، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف ، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها ، وشرع الفحيح المرعب يصم أذنى هرقل وأذنى صاحبه

وبدات المعركة ...

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف ، وبضربة قاضية اطاح رأسا من الرؤوس السبعة ....

ولكن ... ياللعجب !! لقد نبتت فى لحظات قليلة ، فى مكان الراس المقطـــوع ، رؤوس سبعة أخرى ، اخذت تنمو بسرعة فائقة ، حتى أوشـــكت أن تساوى الرؤوس الكبيرة فى حجمها ...

وريع هرقل ، وهتف بصاحبه يولوس قائلا : « أوقد النار ياصاح ، وأجج هذا الجذع فاكو به كل رأس يطيح ... اننى أخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس ! »

ونفخ فى النـــار وأجج الجـــذع ، وأخذ كلماطاح رأس كوى مكانه بالنار ثم بدا له أن يدع السيف ، ويقضى على الأفعوان العجيب بجذع الشجرة الذى كان يكوى به يولوس

وحدث ما لم يكن فى الحسبان ... لقد أرسلت حيرا سرطانا بحريا يعض قدمى هرقل وهو يحارب هيـدرا ،

تود بذلك لو تشغله فيستطيع الافعوان الظفر بخصمهما العنيد ... ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه ، وسحق عظامه سحقا

وانتصر هرقل ....

وطفق يغمس سهامه فى دم الأفعوان ليسممها ، حتى اذا أصابت رمية لا تفلتها من الموت • وعاد الى يوريذوس ثملا بخمرة النصر

## ٣ ـ ظبى سيرينيا

وأسقط فى يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال فى بردة السبع ويتيه ، وفى قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة ..

وكان فى مقاطعة سيرينيا ظبى له قرنان من ذهب ، وأيطلان من نحاس ، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب • وكان الملوك اذا أرادوا اعجاز أحد من الناس ليقتلوه ، كلفوه باقتفاء ظبى سيرينيا وامساكه ، فان لم يفعل ، ولن يستطيع احد ان يفعل ، لشدة عدو هذا الظبى ، كان جزاؤه القتل • وقد أراد ملك أرجوس أن يعجز هرقل هذه المرة ، فأمره باقتفاء ظبى سيرينيا : « ... فان لم تعد الينا به فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام .. »

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبى ، لانه كان يعدو كزوبعة ، فما تكاد حوافره تلمس الارض الا كما تلمس السماء كف سكران ، فلجأ الى الحيلة ، واحتفر فى طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشائج رقيقة من الثلج ، وطارد الظبى حتى الجأه الى الحفرة ، ووقع فيها ، فنزل اليه واحتمله ، ومضى به الى الملك الغاشم

## ٤ ـ خنزير أرمنثيا

ثم أمره بقتل خنزير برى مخـــرب ، كان يأوى الى غابات أرمنثيا ، ويقطع الطريق على القبائل الرحل ، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف معه فى ميدان . وكان ذلك الخنزير لا يبالى شـــيئا فى الارض أو فى السماء ، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة فى الشر، وتحالف على ايذاء الناس . فلما اشتبك هرقل واياه فى نزال تشيب من هولة الولدان ، وشعر الخنزير أنــه مقضى عليه لا محالة ، خار خوارا عاليا يستنجد حلفاءه السنتور ، ولكنهم لم يصلوا الى مكان المعركة الا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز ، فنشب قتـــال مروع بينهما ، وأخذ هرقل البطل يسدد ســـهامه التى كان قد غمسها فى دم هيدرا ، الى صـــدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعا . وأقبل شيرون ــ وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه ــ ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه ، ولكن وا أسفاه ! لقد أصماه هرقل بســـهم مسموم فأرداه وهو لا يعرفه ! فلما أدرك أنه أستاذه ، أقبل عليه ، وعنى به ، وجمع من الاعشـــاب الطبيـة ما حسب أنه ينقذ أستاذه من براثن الموت ، ولكن بلا جدوى ! ومات شيرون ، وأهوى عليه هرقل يقبله ، وفى عينيه دموع المحبة والاعزاز

وتعاون هرقل ومن بقى من السنتور فدفنوا القتلى، ثم أقاموا قبرا مشيدا دفنوا فى ثراه شيرون ، ومضى كل لطيته . .

## ٥ ـ زرائب اوجياس ملك اليس

كان الملك أوجياس ، ملك اليس ، يقتنى عددا عظيما

من الماشية والخيل والغنم ، تزدحم فى زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة . وكانت النظافة فى هذه الزرائب مهملة اهمالا تاما ، حتى لكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ او فرسخين ، وأنتن الروث فأحدث طاعونا مروعا أوشك ان يأتى على جميع الاهلين ، وقرر الاطباء ان لاسبيل الى مقاومته الا اذا عنى بتنظيف زرائب الملك .. وعلم يوريذوس بما شغل بال صديقه ملك اليس ، فابتسم ابتسامة صفراء ، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث السنتور : « اذن فعليك أن تتوجه الى صديقى أوجياس ، ملك اليس ، فتنظف زرائبه مما بها من خبث ، وتكون بذلك قد أديت خمسا من المسائل الاثنتى عشرة ، التى كتبتها عليك الالهة »

وامتعض هرقل فى أعماقه ، وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبى ، ولكنه ذكر نصيحة أريتيه ، فصدع بالامر ، وذهب من فوره الى اليس ، ليرى كيف ينظف زرائب الملك ..

وثمة ، رأى مجرى عظيما من الماء ، يتدفق من الجبل الشاهق الى يمين الزرائب ، وينحدر انحدارا شديدا حتى ينتهى الى البحر ، فبدا له أن يغير مجرى الماء ، بحيث ينصب فى الزرائب نفسها ، فيكتسح الروث ، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد

وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الاهلين !

وحاول ملك اليس أن يستبقيه ليجزيه ، ولكن هرقل أبى شاكرا ، وقصد الى يوريذوس يتلقى أوامره

## ٦ ـ عجل مينوس

وكان نبتيون اله البحار قد أهدى عجلا جسدا

لصديقه مينوس ملك كريد ، كى يقدمه قربانا للالهة فى العيد الاكبر الذى يحتفل فيه بميلاد نبتيون ، ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها وضحى به مكان هذا العجل الالهى السمين ، واستبقى لنفسه هدية الاله

وغضب نبتيون ، واقسم ليكونن هذا العجل نقمة على مينوس وملئه ، فسخر عليه طائفا من الجنون ، فطفق العجل يخرب ويدمر ، ويقتل الناس تقتيلا ..

وعلم يوريذوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد فى عجله ، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل أو على الاقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه ..

وأبحر هرقل ، ولقيه مينوس فرحا متهللا ، وذهب من فوره لينازل العجل ، فكانت معمعة ، وكانت حربا عوان ..

لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه ، فيخبط به الارض فتندك ، ومع ذاك ما استطاع أن يقتله ! وأخيرا اكتفى بأن صفده بسلاسل والاغلال وعاد أدراجه الى أرجوس ، وودعته كريد كلها

## ٧ ــ خيول ديوميديز

وكان الملك ديوميديز ، ملك تراقيه ، يقتنى مجموعة طيبة من خيول السباق التى لايشق لها غبار ، ولا تباريها خيول فى مضمار ، ولكنها لم تكن كهذه الخيول التى يقتنيها الناس ، بل كانت بالوحوش أشبه ، والى السباع أقرب لانها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيغ النبات ، بل بالعكس ، كانت لاتأكل الا اللحم تنهشه نهشا ..

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم ، وتستطيب لحم الانسان وتلذه ، ولم يكن الملك القاسى يبخل عليها به . ولكى يوفر لها الغذاء الغريب ، اصدر امره بالقبض على كل أجنبى تطأ قدماه أرض البلاد بدون اذن من الملك ! فلما نمى الخبر الى يوريذوس ، ارسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله

وشد هرقل رحله الى ارض تراقيه ، ودخلها غير مستأذن لا مستأنس ، فلما سأله ديوميديز فى ذلك ، انقض عليه كأنه الحتف ، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به الى خيوله فألقاه اليها ...

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقا ، واغتذت بلحمه الملكى الفاخر ؟ ! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم ، ونثر الورد والريحان تحت قدمى هرقل ، ومضى البطل فألجم الخيول كلها ، وساقها هدية غير مبرورة الى يوريذوس ! !

## ٨ ـ منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء مشغوفة باقتناء الحلى والجواهر النادرة ، تضحى فى سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا ، اذا اقتضت الحال حربا من اجل ياقوتة أو زبرجدة ؟

وكان أبوها الافين يلبى رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمرا ، فلما وصفت لها منطقة هيبوليت ، مليكة الامازون وما رصعت به من اللآلىء ، وثار فى نفسها فضول الذهب ، والم بها مرض الحصول عليه ، فانطلقت الى ابيها تبكى ، وتشكو العطل وقلة الحيلة ، ولو أن خزائنها

كانت تحوى نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها ؟ فتاهت قليلا ودلت ، ثم ذكرت منطقة هيبوليت ! !

وربت الملك على كتفى ابنته ، ودعا اليه هرقل ، وامره بالذهاب الى الامازون والحصول على منطقة الملكة ، ولو أدى دمه ثمنا لها ؟ !

أما الامازون ، فقبيل عظيم من النساء المحاربات، يحيين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحير الالباب وتذهل العقول.. فمنهن فريق يعمل فى الحصون ويسهر على قلاع المملكة ، وفريق للغزو ومناوشة الاعداء، وثالث يقوم بمهمة الشرط والعسس ، ورابع للعمل فى الأسطول الذى يلقى الرعب فى الشواطىء ... ...

ولا يعيش بين شعب الامازون أحد من الرجال، فاذا جازف رجل وانسرق بينهن ، ترصده الموت فى كل مكان:

وكانت مملكتهن فى جزيرة نائية قاصية ، ذهب هرقل فى البحث عنها كل مذهب ، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه اليها

ونصح له أحدهم أن يدع هـــذه الرحلة القاسية الى مملكة الامازون ، ولكنه أبى ، لان مجازفاته التى يتعرض بها للهلاك ، ان هى الا ثمن الحرية التى ينشدها ويحلم دائما بها !..

ووصـــل هرقل الى المملكة ، وتحايل حتى مثل بين يدى الملكة ، فلقيته بما هو أهله من التجلة والاكرام ، كابن اله عظيم ... وأبدى رغبته فى الحصـــول على المنطقة الغالية التى تزين وسط الملكة ، وتحلى خصرها ، ليقدمها ثمنا لحريته الضائعة ، للفتاة المزهوة ( أدميت ) بنت ملك أرجوس ...

وتبسمت الملكة ، ووعدته أن تخلعها عليه ، ليصنع بعد ذلك ما يشاء ، ثم تفضلت فدعته الى حفلة راقصة، وعشاء فاخر ...

وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها ؟! ..

لقد هالها هذا النجاح المطرد الذى يظفر به خصمها فى كل مكان ، فتحولت الى أمازونة جميلة ، واندست بين رعايا الملكة ، وألقت فى روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن ، وانه انما أقبل ليسبى الملكة ، ليفر بها الى ملك أرجوس، وانه اتخذ المنطقة تعلة لذلك جميعا ، فثارت ثائرة الامازون ، وتجمهرن حول الملكة ، وصارحنها بما قالت لهن حيرا . فأمرتهن بالحرب . ولكن هرقل ، البطل الاعزل ، انقض كالمنية على الامازون ففرق شملهن ، وأظفرته شجاعته بهن ، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها ، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة ، فأشار اليها قائلا : « وهنا أيضا أنتصر عليك ، وسأنتصر عليك دائما »

## ٩ ـ طيور بحيرة ستيمفالوس

وطربت ابنة الملك لمنطقة هيبوليت ، أيما طرب ، وكبرت فى نفسها منزلة هرقل ، فاستوصت به أباها خيرا ..

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته فى هرقل ، فلم يكلفه هذه المرة شططا ، بل اكتفى بأن أمره بالتوجه الى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التى تدوم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك ، ثم تذهب فتأكله قريبا من القرى، فتنتشر بذلك الامراض والطواعين ، ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه المرنان،

وفى كنانته سهامه التى رويت من دم هيدرا

## ١٠ - قطعان الجريونز

وكان يأوى الى سفوح الجبال فى مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز . وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم ، عرفت فى سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها ، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم

وطمع يوريثوس فى نعم جريونز وشائه (١) فأمر هرقل أن ينصرف الى أريثيا فلا يعود الا بها

واغذ هرقل السير ، والفى المارد ممددا فى كهفه السحيق يغط فى نوم عميق ، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد ، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته الا جثة لا نأمة فيها ولا نفس ! وساق القطعان ، وتولى الى ملك ارجوس بالثروة الطائلة ، والوفر الكثير

وأرخى الليل سدوله ، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق ، فأناخ فى منحدر معشوشب ، ولعبت سنة من النوم بعينيه ففغا ، وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لاحلامه الخمرية الحلوة

وكان يأوى الى هذا الجبل ، جبل آفنتين ، مارد لص قطاع طريق ، يدعى كاكوس ، وجد هرقل غارقا فى سبات ناعم ، فذهب بنصف القطيع أو يزيد ..

واستيقظ البطل على رغاء يتجاوب فى حدود الافق ، فلما تفقد قطعانه انطلق فى اثر اللص حتى لحق به ، وحطمه تحطيما !

وقبيل شروق الشمس ، كانت مدينة ارجوس كلها

(١) النعم : الماشية ، والشاه : الغنم

عند الابواب تستقبل الرزق والغنم ، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذى بهرها بشجاعته ، وخلب البابها بما أبدى ، وما ينفك يبدى ، من ضروب القوة والاستبسال ..

واحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الاهالى من المحبة والافتتان بهرقل ، فسخط وحنق ، وبيت الشر المستطير ..

## ١١ ـ تفاحات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ماينقم الملك من هرقل ، فوسوست اليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية ، وهيهات هيهات ان يستطيع احد الحصول عليها !

ولقد أهديت هذه التفاحات الى حيرا ، ليلة زفافها الى زيوس ، رب الارباب ، فيما أهدى اليها من تقدمات وتحف ، أهدتها اليها « جى » ربة الارض ، فكانت أثمن الهدايا جميعا وأغلاها . لانها فضلا عن أنها من الذهب الخالص ، فقد رصعت بأندر اللالىء ، وزينت بصور الآلهة ، ونقشت فيها حدائق الاولمب ، ثم هى تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت : ذلك أنها اذا غابت الشمس ، واقبل الليل بظلامه ، شعت أضواء ، ولألاء قل أن تصدر الا عن كوكب درى ، أو شمس وضاءة ، فتنقشع الغياهب وتنجلى الدياجير !

وحسبك ان تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الاولمب وحراسها الغلاظ على هذه القنية النادرة ، فأرسلت بها الى الهسبريد ، بنات هسبروس اله الغرب العظيم ، ليحرسنها . ولتكون عندهن فى مأمن من كل سارب بليل ، أو سارق فى نهار ، وقد عرف الهسبريد لهذه

التفاحات قيمتها ، فعلقنها فى دوحة باسقة فى قصرهن المنيف ، وأقمن على حراستها التنين الهائل لادون الهولة، الذى قيل فى وصفه ان له سبعين ألف رأس ، فى كل رأس سبعون الف عين ، وسبعون الف ناب يتدفق السم منها جميعا ، ثم انه يبلغ الف ذراع طولا وخمسين سمكا، وان له لاظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز ، وان له لفحيحا تضيع فيه زمزمة الجن ، ومكاء الشياطين :

وانقلب هرقل على وجهه فى الارض حيران !

اين هى تفاحات هسبريا هـذه ؟

« أفى الارض ام فى السماء ؟ لأمض ! فرب اله دلنى اليها ... »

وشرق وغرب ، وذرع الارض من اقصاها الى أقصاها ، وانسرق الى الكهوف والغيران ، وأوغل فى الجبال ، تحدر فى القيعان ، ومر بكل حنية ، ووقف عند كل عين ، حتى كان لدى نهر اريدانوس ، ووقف بشاطئه يتناجى ، فخرجت من الماء النمير عرائسه ، ورحن يسرين عن هذا اللاجىء الحزين ..

وانه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا ، فيبتسمن له ويتلطفن معه ، ثم ينصحن له أن ينطلق الى نريوس اله البحر ، عسى ان يهديه الى ما يريد . ويهيم فى الارض محاذيا سيف البحر ، وحتى يكون آخر الامر أمام شيخ هرم ، وخط الشيب رأسه ، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذى النتوء ، وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون ، وتطل من حدقتيهما الاحداث !

وجده جالسا القرفصاء مقلبا ناظريه فى مملكة الماء التى تتصل باللانهاية ، فألقى عليه تحية هينة ، رد عليها الشيخ بهذه العبارة :

« ايها الفتى لماذا قطعت على تأملاتى ؟ ! »

« فقال هرقل : أستحلفك بسيد الارباب يا أبتاه الا ما أخبرتنى عن حدائق الهسبريد ، فتــكون لك على يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها ! »

وتجهم نريوس وقال : « حدائق الهسبريد ! أوه ! .. أنت هرقل اذن ! »

فبهت هرقل وأجـــاب : « أى وحقك انا هو ، فمن ذكرنى عندك ؟ ! »

« ليس هذا من شأنك يا بنى ، ولــكن لعلك تبتغى تفاحاتها الذهبية ؟ »

ــ « أى وزيوس يا أبتاه ! »

ــ « بشراك اذن ! فلن يحصل عليها الا انت ، ولكنك لست انت الذى ستنفذ الى حدائق الهسبريد ! اذهب اذن فالتمس المسكين بروميثيوس مكبلا فوق جبال القوقاز، فأحسن اليه وسله حاجتك، فهو وحده الذى يستطيع ارشادك الى ما تريد ... »

وشكره هرقل ، وحياه ، واطلق ساقيه يطوى الفيافى الى القوقاز . وهناك وجد بروميثيوس والرخ ينوشــه، بحيث يمزق كبده ويهرأه ، ويتغذى به ، فوتر قوسه، وسدد الى الطير سهما فأصماه ، وخلص الى الاله البائس فأزال أصفاده ، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه ، ثم تحدث اليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية ، فحدجه بروميثيوس بنظرة فاحصـــة ، وقال له : « لكأنك هرقل اذن ؟ »

ــ « أجل أنا هرقل يا أبتاه ! »

ــ « وأنت عدو حيرا يا بنى ؟ »

ــ « عدوها المبين يا أبتاه ! »

ــ « مسكين ! »

ولم يلبث الفتى أن انهمـــرت عبراته ، وطار لونه ، وهاجت فى فؤاده البلابل والاشجان ، ثم اتصل الحديث، وقال برومثيوس :

ــ « انطلق يابنى الى أخى أطلس ، هناك ... هناك فى افريقية المظلمة شمالا بغرب ، تجده على قنة جبل السماء على منكبيه ، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب . فأقرئه سلامى ، وزف اليه بشرى خــلاصى مما أوقع زيوس بى ، ثم حدثه بحاجتــك يقضيها لك ، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسبريد ، وهو وحده يستطيع أن ينفذ اليها ، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذى يحرس تفاحات هسبريا الذهبيــة، فاذا أتاك بها ، فاحذر أن يأخذك بشىء من مكره ، فانى قد علمت أنه بدأ يتململ من حمـــله الثقيل ، ويود لو ينجيه منه أحد ، ولو انتثرت الكواكب ، وانتقض نظام الكون ! »

## ١٢ ــ هرقل يصارع أنتيوس

وفى طريقه الى أطلس ، لقى من الاهوال والخطوب ماتفتأ تتحدث به الايام الى زماننا هذا ، فمن ذلك أنه مر بقــوم من الاقزام ضئال الاجسام قصارها ، كانوا يؤجرون ماردا عظيم الجسم ، مفتول العضل : ليحميهم من جيرانهــم الاعزاء الاقوياء ، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسـية التى كانت تتلف أعنابهم وتبيد زروعهم كلما تم نضجها فى كل عام . وكان ذلك المارد «أنتيوس» ذا حول وذا طول حتى لكان يخشاه الوحش ، ويتخوفه الجن ، وترجف من صولته أفعوانات البحار ، فلما شهد هرقل يخب فى أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى ، أخذ أهبته لمنــــازلته ، ولم تساوره ذرة من الشك فى أنه منتصر عليه

فلما وصل هرقل ، حيا أحسن تحية ، ولكن أنتيوس لم يجب ، بل انه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل !!

ــ « ماذا بك أيها الاخ ؟ دعنى ، فليست لى عندك حاجه ! »

ــ « لا ، لا نجوت ان نجوت ! لا أرى الا ان أصرعك ! »

ــ « ولمه ؟ ! »

ــ « هذا ما لا أعرف ، ولكن لابد من أن أصرعك على أية حال ! » ..

وتصارع الخصمان ، وأقبلت الاقزام ترى الى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلببه تلبيبا !

وكان انتيوس كلما خانته قواه ، وأيقن أن هرقل لابد صارعه ، وقف قليلا على أديم الارض يستمد منها قوة ، ويستلهم الحول من أمه ( جى ) ..

فهو ابن (جى)اذن ، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد ، اذن ، فلتمده بكل ما فى سرها من قوة ليصرع هرقل !

وخارت قوى البطل ! وراح يلهث من شدة النصب ، بيد انه تنبه الى السر آخر الأمر ، عندما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض ، فرفعه رفعة هائلة، ولم يمكنه لحظة من الوقوف على قدميه ، ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل ، حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت ....!

فألقى به ... ومضى لشأنه !!

وتلفت فرأى عرائس ماءيلعبن على الشاطىء ويترامين بلآلىء مما يعد لديهن من حصباء البحر ، فوقف غير بعيد وهتف بهن :

« يا عرائس الماء الجميلات ! هل لكن ان تهديننى الى

اطلس الذى يحمل السماء ، ويمسك كواكبها ان تقع !؟ »

وفزع عرائس الماء وهرعن الى البحر ، ولكن فتـــاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت : « امض ايها الرجل حتى اذا لقيت السد الذى يفصل البحر المحيط من مائنا هذا ( وكان البحر الأبيض ) ، فاذا استطعت ان تنفذ فانك تكون على فراسخ من أطلس ..

وشكرها هرقل ، وانطلق ..

وكان امام السد ، ولكنه كان جبلا شامخا ذا قنن وقلل وأحياد ، فلم يستطع ان يتسلقه ، ضربه بيمينه ضربة ، وبشماله أخرى ، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منهـــا ، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية ، وما تزال تعرف الى يومنـــا هذا بأعمدة هرقل ! ! (١)

ونظر فما هاله الا هذا الاله العظيم ســـامقا فى الافق ، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء . والنجوم منتثرة من حوله كأنها قطرات أمطار فى يوم عاصف !

وتقدم هرقل فحيا الاله الضخم ، وحياه الاله الضخم بأحسن مما حيا ، ثم أقرأه هذا تحية برومثيوس ، وزف اليه بشرى خلاصه من الصـــخرة التى ظل مكبلا فوقهـــا أحقابا وأحقابا !

وطرب أطلس لهذه البشرى ، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطاة بالثلوج ، ثم قال :

ـ « ومن ينقذه من عذابه الطويل يا صاح ! »

ـ « أنا ، ان كان يسرك ذاك النبأ »

ـ « أنت ؟ انت من المكرمين اذن ! مرحبا بك أيها المخلص الامين ! لقد كدت ألقى بهذا الحمل الذى ترى لانقذ أخى ، ولكنى خفت أن يهلك العالم بمن فيه .... و .... على ذكر أخى ، كيف هؤلاء الناس الذين خلق ؟ أبخير هم ؟ وهل

---

(١) بوغاز جبل طارق

يخبتون له حقا ؟ ان زيوس مغيظ منهم ، وامرأته حيرا محنقة كذلك ، أعندك من أخبار هؤلاء شيء ؟

ـ عندى اشياء يا ابتاه .. انا ابن زيوس من الكمين ، وقد نقمت حيرا على والدتي ، فأرادت أن تفجعها في ، وقد أغرت رب الارباب بي ، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر ، وقد أرسلني أجوب الافاق واذرع الارض من أجل تفاحات هسبريا الذهبية ، وقد ذكر لى أخوك ، بعد اذ اطلقته ، انك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد وانك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات ، فهل أسعد بأن تؤدى لى هذه اليد؟ لقد كادت حيرا كيدها هذا ، وان لم تنصرنى أغدو من الهالكين ! »

وشاعت الخيلاء فى أعطاف أطلس ، وسرت حميا الزهو فى ظهره الشاسع ، فقال : « أجل ياصاح ، لن يستطيع قتل لا دون غيرى ، ولن يدخل حدائق الهسبريد سواى ، ولكن كيف أترك حملى هذا لآتيك بالتفاحات ؟ »

ونظر هرقل الى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال : « انا احمل عنك هذه القبة يا أبتـــاه ، حتى تعـــود بالتفاحات !! »

وما كاد يتم كلمته ، حتى تقدم فركز كتفيـــه تحت السماء ، وانطلق اطلس لاول مرة منذ أحقاب وأدهار يمتع نفسه بمشية حرة طليقة فى حدائق الارض الفناء !!

وغبرت أيام ..

ثم ذكر تفاحات هسبريا ، فذهب الى حدائق الهسبريد ، واقتحم الاســـوار ، وانقض على التنين لادون فزلزلت الارض تحتهما ، ولم يدعه يفلت ، برغم مرونته فى الوثب وسرعته فى الالتفاف ، حتى خر صريعا

ومد يده الى الايكة الذاهبة فى السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاءة ، وعاد يزهى ويختال الى حيث هرقل المجهود المتعب

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذى يؤود هرقل حتى ذكر الادهار السحيقة التى لبث يتململ طوالها تحت عبئه ، فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود الى حمله الشاق .. وبدا له أن يدع هرقل ويمضى ، ولكن هرقل المتعب فطن الى ما وقر فى قلب أطلس ، فناداه : ابتاه ! لعمرى أن حملك لأخف من الهواء ، ولعمري انني لأستطيع أن أثبت له الى نهاية الابد ! »

وبهت أطلس وقال :

ـ « اذن لتمض فى حملك ما دام يسرك ! »

فأجاب هرقل : « ليس أيسر من هذا ! ولكن هل تسمح فتحمل مكانى برهة حتى أضع حوبة فوق كتفى ، فانى أشعر بنتوء أديم السماء !! »

وقبل أطلس المغفل ، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الاخضر وتقدم فحل محل هرقل !!

والتقط صاحبنا التفاحات ، وانطلق لا يلوى على شىء!!

وبعد رحلة طويلة مضنية : دخل على يوريدوس بالقنية الغالية التى خلبت لب فتاته أدميت ، فخرت مغشيا عليها حين وقع بصرها عليها ..

## ١٣ ـ رحلة هرقل الى الدار الآخرة

لم تكن محفوفة بالمكاره هذه الرحلة الى الدار الآخرة، فقد سلك هرقل سبلا من قبل ، كان الموت يجثم فى كل خطوة فوقها ، وكانت المنايا تتربص فيها ، ثم تفر منه

آخر الامر ، كأنما هو موت للموت ، ومنية للمنية وفناء للفناء ..

أسقط فى يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا ، واستولى عليها الجزع حين رأت التنين لادون مضرجا بدمه ، فوسوست فى صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الاخرة !!

وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة ، الذى رأيناه يعدو فى أثر بلوتو ــ اله الموتى ــ حينما زار الدار الاولى ليخطف برسفونيه ، وهو ابدا يربض عند قدم سيده الجالس فوق عرش هيدز ، يقلب فى غيهب السفل أعينه الست ، كأنها انجم تحترق فى فحمة ليل بهيم ، وهو أيضا أداة تعذيب فى دار الابدية ، ينشب أظفاره فى أرواح المجرمين ، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى !

وكانت الحرية تشيع بالامال فى قلب هرقل ، وكان هو قد برم بهذا الرق الاسود الذى كتبته عليه السماء ، فانطلق يعدو الى دار الموتى ، وبين يديه طائفة من الالهة تهديه وترشده ، حتى اذا كان قاب قوسين من السدة القاتمة الدجوجية ، ووجد سيربيروس مقعيا يغط فى نوم عميق ، واله الموتى مستلقيا يقلب فى حضنه القوى برسفونيه الجميلة ، انقض على الكلب فخنقه حتى لا يعوى فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة! ... وانفتل من دار الظلمات وفى نفسه من الرحمة لهذه الارواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين

وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل !

لقد كانت الظلماء تتدجى فى اشداقه فتكسف الشمس الوضاءة ، وترد نور النهار المتلألىء ديجورا يلج فى ديجور !!

وكان الزبد ينتشر من افواهه كأنه ندف يساقط من عل في ليل عاصف !

وكان ذيله الطويل الضخم يتـــلوى وينثنى كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون !

وكان يعوى وينبح فيقلقل الجبال المجاورة ، ويزلزل قصور أرجوس !

وانظر الى الملك الجبان !

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع ، وانطلق الى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق ، وآلى الا يخرج حتى يعود هرقل بسيربيروس الى هيدز !

***

وهكذا أصبح هرقل حرا ، والقيت عن كاهله هـــــذه الربقة التى أذلته طويلا ، وتلفت حواليه فوجد الحيـــاة تتبرج كأنها غانية ، ووجد كل شيء بساما ضاحكا يدعوه الى اللهو والمرح ، والاخذ بنصيب مما تفيض به هـــــذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من اصدقائه والمعجبين به من الآلهـة الى الاولمب ، ليلقى أباه ويقدم له طاعته ، وليرى هـــل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيرا ولا قليلا ..

ولقيه أرباب الاولمب هاشين باشين ، وأخذوا يتندرون بمجازفاته العجيبة التى انتصر فيها على سبع نيميـــا والافعوان هيدرا ومحاربات الامازون ..

اغرقوا في الضحك عندما ذكر اطلس وما كان من امـر الحوية ..

واقترح هرمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه، ويباروه في العدو والسباحة والعاب القوى ، لتتم بذلك

بهجة لقائه ، وليعبروا عما يكنونه له من حب ، ويضمرون من اعجاب . فأقيم ملعب الاولمب الفخم ، وشيدت على جوانبه المدرجات التى تتسع لألف ألف مشاهد من الالهة وأنصاف الالهة وكبار المدعوين من عباد بروميثيوس (١)

وتم مهرجان الالعاب ، وحاز هرقل قصب السبق فى أكثر المباريات ، وكان هذا هو الاولمبياد (٢) الاول الذى أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات

وتتابعت السنون ..

ومر هرقل بقوم يبكون ، وقيل له ان أدميتوس (٣) ملك تساليا مرض ، فتمنى على الآلهة ان تمنحه الخلود فى هذه الدار الدنيا ، فأجيب الى ما تمنى ، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته اذا حضره الموت ، وهنا تقدمت زوجته المخلصة الستيس فضحت بنفسها كى ينجو بعلها من الموت ، وليخلد ما شاء له الخلود . وماتت الزوجة الوفية فداء للملك .. وينظر أدميتوس الى ملكه الشاسع فيراه بغيضا لا خير فيه ، ويكون فى حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش فى صحراء ، ويقدم اليه الطعام فلا يكاد يسيغه ، وترقص القيان بين يديه فيثرن فى نفسه الاشمئزاز كأنهن جنة تدمدم فى ظلام غابة ..

ويبغض الدنيا ...

ويود لو كانت زوجته الجميلة المخلصة الى جانبه لحظة واحدة ، وتتلاشى بعدها الحياة بكل من فيها .!.

---

(١) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجية

(٢) الاولمبياد وهو دورة الالعاب الاولمبية

(٣) اسطورة أدميتوس وزوجته اليستيس وطرد أبوللو من السماء هى من أبرع الاساطير الاغريقية

لذلك يبكى الملك ، ويبكى حوله شعبه الامين !

ويذكر هرقل انه وحده يستطيع ان ينفذ الى هيدز ـ دار الموتى ـ فيستنقذ الستيس من براثن الفنــاء ، ويردها معززة مكرمة الى زوجها المسكين فيهدأ قلبــه ، ويرقأ دمعه ، وتستقر نفسه ، ويفىء الى أمر هذا الشعب الذى تكبكب حوله يعول وينتحب ..

ونفذ البطل الى ظلمات الدار الآخرة ، وسأل الارواح الهائمة فدلته على منامة الستيس ، فتغفل حارسهـــا الجبار وخنقه ، واختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون ان تشعر به زبانية بلوتو

وعادت الطمأنينة الى قلب الملك ، ورفرف السلام على المملكة

## ١٤ ـ هرقل واومفاليه

وذهب هرقل يزرع الارض ، واشـــترك فى حمــلة الارجونوت ضد السنتور ، وانضـــم الى الاغريق فى حصارهم الاول لطروادة

ولقى رجلا ذا خيلاء وكبر فقتله ظالمــا ، وكان زيوس ينظر من علياء الاولمب ، فعبس وبسر ، وقضى أن يظل هرقل فى خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين

وتجهم هرقل ، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهـــة للملكة ، حتى راعه جمالها ، واستهوته مفاتنها ، وأحس للمرة الاولى فى حياته المشحونة بالمخاطر أن قبسا يتأجج فى قلبه يوشك ان يجعله ضراما

وحلا فى فمه ما مر من الذل ، وطلب ما كـــره من العبودية وود لو قضى الحياة فى ظـــلال هذا الحب الاول مغمورا برضى الملكة ، سعيدا بما أفاء عليه جمالها من هناء

ونعيم بال . ولكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى

## ١٥ ـ زواج هرقل

وطوف هرقل فى اقصى الارض حتى انتهى الى كاليدون مملكة أونيوس ، ولقى ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور فى خميلة غناء . وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب ، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل ، وكان لسانه قد انحلت عقدته عن وحى الهوى ، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها ، وينمق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى ، وتهتف بالخضرة والحمرة ، وتصافح الروح بالعبير الفياح

وأنست ابنة الملك بهرقل واطمأنت اليه ، وبثها وبثته، وتشاكيا ما شاء لهما الغرام الروى ، والحب الفتى ، والدمع المسكوب !

وعلم منها أن أخيلوس ، أحد آلهة الانهار ، قد خطبها الى والدها وأن الملك قد اجابه الى ما أراد :

« فهل أسعد بأن تزيح هذا الكابوس عن قلبى ، »
« وتقف حائلا بينى وبين الشقاء الذى يتربص بى ، »
« فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب ، ويرفلان »
« فى برد السعادة ، ويتغنيان مع الطير »
« ألحان الهوى والحياة .. .. .. .. » (١)

هكذا بكت ديانيرا الى هرقل ، فهاجت فى قلبه نخوة البطولة ونحيزة المغامرة ، وأطلقت فى كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال :

(١) هذه السطور من سوفوكليس فى مأساته الخالدة « عذارى تراقية »

« قسرى عينيا ايتهـا الحبيبـة فليس أيسر »
« على هرقل من حرب الآلهـة ، لقـد صرعتهم »
« جميعا فى حفل الاولمب ، وقد مر بى من المغامرات »
« ما ينخلع من بعضه قلب اخيلوس . . . . » (١)

واستأذن هرقل على الملك ، وحيا أحسن تحية ، ثم طلب يد ديانيرا .. وكان اونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وامرائها ، وكان قد أجاب أخيلوس الى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم ، فلما تقدم اليه هرقل استبشر وقال : « .. لقد كنت يا بنى وعدت أخيلوس أن يبنى على ديانيرا ، وهو من تعلم فى الحول والطول والجبروت ، لكننى مع ذاك لا أفضله عليك ، بل نجعل لكما يوما تلتقيان فيه ، فمن يصرع صاحبه كان كفؤا لديانيرا »

وقبل هرقل ، ورضى أخيلوس ، واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين .. وكان كل واثقا بنفسه ، لا يخامره أدنى شك فى انه فائز على صاحبه . فلما تقابلا ، ثار من حولهما النقع ، كانت أنظار الناس كأنها متصلة بسواعدهما بأمراس شـداد ، وبعد قليل أخذت الارض ترتجف من تحتهما ، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير .. وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها اشفاقا على هرقل ، وكان هو كذلك ، كلما خارت قواه ، نظر اليها النظرة فتتجدد بها روحه وتتضـاعف قوته ويمتلىء قلبه بالآمال .. وكأن أخيلوس قد فطن الى جبروت هرقل ، وكان يستطيع ان يتشكل بأى خلق أراد ، فجعل يتقلب من ثعبان ضـخم

(١) هذه السطور من سـوفوكليس فى مأساته الخالدة « عذارى تراشينيا »

الجثة ، الى تنين عظيم الجرم ، الى أسد بادى النواجذ ، الى .. ما شاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع .. ثم انقلب الى عجل جسد ذى قرنين كبيرين ، وشرع ينطح هرقل ، وهرقل يتقيه ، حتى استطاع البطل ان يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه ، وجعل يخبط برأسه الارض فى عنف وغل ، حتى كسر أحد القرنين وفر اخيلوس من الميدان هاربا .. لا يلوى على شىء ..

ودوى الملعب بالتصفيق ، واندلعت الحناجر بالهتاف ، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الاعناق .. وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة فردوسية خالدة ، لا يزال صداها يرن على شفاه المحبين ..

وتم العرس .. وانطلق هرقل بزوجه يجوب الافاق

وحدث ان اعترضه نهر عظيم لم يستطع ان يعبره ومعه ديانيرا . فبينما كان يعمل فكره كيف يقتحمه ، اذا سنتور عظيم يعرض عليه ان يحمل زوجته فيعبر بها الى العدوة الثانية سالمة آمنة ، ثم يرتد فيحمله اليها كذلك ، وقبل هرقل ، ونسى ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء ، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم ، وتقرح نفوسهم ، وأعان هرقل زوجته فاستوت على ظهر السنتور ، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح ، ويحلم بالمنى والامال . فما كاد يبلغ الشاطىء الاخر حتى عدا عدوا شديدا ليكون بمنجاة من سهام هرقل . ولكن ديانيرا صرخت صرخة مدوية نبهت ما غفل من سمع زوجها ، فلما فطن الى خيانة السنتور ، شد قوسه العظيمة ، وأرسل الى دبر السنتور سهما مراشا كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى !

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته ، وبرودة

الفناء تشيع فى جسمه البدين ، فأقسم ليكيدن لهرقل فيذيقه من هذا السم الذى سقى به سهامه ما يودى به .
فهمس لديانيرا . « ايتها الفتاه ! لا تنفى ان حب هرقل دائم لك ، بل اكبر الظن انه منصرف عنك الى فتاة اخرى تكون اسبى واصبى . وما احسبك الا ذاكرة كيف كان يتمانى فى حب اومفاليه . فخذى قميصى هذا فاحفظيه لديك ، حتى اذا احسست من زوجك جفوه ، اورايت فيه ازورارا ، فابعثى به اليه ليلبسه ، والقى فى روعه انه يحفظه من أعدائه . فانه ان فعل ، عاد اليك بقلب مفعم بالحب ، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق .. » ، ثم خر النسنتور ميتا !

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة ، وفى نفسها من الهم شىء عظيم ! « من اومفاليه هــــذه ؟! كان يحب اومفاليه ؟ كان يحب فتاة غيرى ؟ وحق زيوس لأسألنه ! ها هو ذا قد سبح الى الشاطىء ! »

ولقيته فسألته ، فاعترف لها بكل شىء ، وطمأنها على محبته واخلاصه .. ولكن قلب المرأة لا يعــرف هذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة ! فقد ظل الوسواس يدب فى نفس ديانيرا ، حتى كان هرقل فى احدى جولاته، وكانت هى عند أبيها ملك كاليدون ، فطـــالت غيبته ، وذهبت بها الظنون من أجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور ، فنهضت من توها وأرسلته مع احدى وصيفاتها (١) الى هرقــل فى منآه البعيد . وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ماوسوس به السنتور . فلما لبســه هرقل ،

(١) فى أحد المصادر أنها ارسلت خادمها الصناع ليخاس

التصق به التصاقا ، وأخذ السم يشيع فى جسمه الحديدى فيذيبه ويفتته ..

وصرخ البطل بلا جدوى ! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق ، ولحمه يتهرأ ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت ... ثم أخذت نفسه تساقط أنفسا .. وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل فى دموع وآهات حارة ...

ولفظ نفسه الاخير وهو يبكى ويقول : « فدى لك نفسى .. يا .. ديا .. نيرا ! »



« وهوى الى الارض ما كان من الارض ، ورفرفت »
«الروح الكبيرة فى جمهرة من أرواح الآلهة التى أقبلت»
« من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم . والكل ضاحك»
«مستبشر ان القى اخوهم حمله الثقيل ،وخرج الاولمب»
« جميعا يستقبل البطل ويهتف باسمه فى عليين (١) »

وحمل الجثمان الطاهر الى جبل أويتا ، حيث دفن فى اجلال واعظام ، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها الغزير ..

(١) هذه السطور من شللر الالمانى . وفى بعض المصادر أن الذى أثار الغيرة فى قلب ديانيرا ، انها سمعت أنه عاد الى احدى صويحباته القدامى « ايول » وانه هام بهاومع ذاك فلو قد علمت ان القميص مسموم لما أرسلت به اليه



# التوت الأبيض والتوت الأحمر
# أو
# (بيرام وتسبيه)

كان أجمل شباب بابل ، وكانت اجمل حسانها

كان فتنة فى فتنة ، فى جسم قوى ، وقلب حمى ، وخلق حيى ، وقوام مفتول ، ونفس حلوة ساكنة سجواء (١) ..

وكانت قسيمة وسيمة خفيفة لطيفة ، غضـــة كالوردة ، عطرية كأنفاس البنفسج ، تفتر عن فم خمرى شتيت ، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين ، وترسل شــــعرها المغدودن (٢) على ظهرها العاجى تارة ، وصدرها المرمرى أخــرى ، يداعبه النســيم ، وتقبله الآلهة ، وتنتظم فيه حبات القلوب ..

وكان بيتاهما متلاصقين ، فكـــــان يراهــا وكانت تراه ، وكان يلقاها وكانت تلقاه ، وكانا يتلاعبان فى الصغر، طفلين كالملائكة ، ثم شبــــا ، فكانا ينفران الى الخـــلاء والادغال ، ويلتقيان عند النبع القــريب ، ويتسلق بيرام أشجار التوت الابيض ــ ولم يكن التوت الاحمر قد عرف بعد ــ فيهز اغصانها وأفنانها ، ويساقط الثمر الشهى اللذيذ على سندس العشب ، رطبــا جنيــا .. فتأكل تسبيه ، وتقر عينا ! !

(١) ساكنة

(٢) المغدودن : الناعم الطويل

ثم ترعرعا أيضا ، ودبت الحياة الحلوة الجميلة ، حارة متدفقة زاخرة ، فى قلبيهما الصغيرين ، وأخـذ الفؤادان الصغيران يثبان الى الاعين السعيدة الطاهرة يرى كل الى صاحبه ، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب ، للايام المقبلات

ولم يعرفا أنه الحب ، ذاك الذى يخفـق فى صدريهما أول الامر ولكنهما عرفاه ، وعرفاه معرفة كلها شجـو وكلها حنين ، حين ألح عليهما ، وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان الى لقاء ، وأصبى ما يكونان الى اجتماع ، ثم عرفا كيف يتشاكيان ، وكيف يتباكيـان ، وكيف يكون الليل جحيما حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه ، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه ، وكيف يكون فردوسا خالدا حينما يجمع بينهما فى يقظة أو فى منام

ولم يقو بيرام على عذاب البعد ، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها فى الخطبـة ، ولكن والد بيرام أبى واستكبر ورفض أن تكون هـذه الفتاة التى هى مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده ، وكذلك أبى والد الفتاة ؛ ثم شجر الخلاف واتسع ، وكثرت شياطينه ، وأحيا عداوات قديمة ، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما فى قلب الحبيبين ظل على ما كان عليه ، بل ألهب البعد الذى جرت اليـه الخصومة أوار حبهما ، فازدادا هياما ، وذابا غراما ، وكانت عداوة أهليهما عليهما بردا وسلاما ..

ولم يعد يفكر الا فيها ، ولم تعد تفكر الا فيه ، وراح ينظر الشعر يتغنى به برحاءه ، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسى ... وراحت هى تبكى وتتكلم بلغة الدموع الى نفسها الملتاعة ، وترسل اهاتها فى صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة الكلمى ، تتوسل الى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها

ضعف الحبيبين المظلومين

وتصدعت السماء ، وانهمرت شآبيب الرحمة ، وانهل فيض الحنان ، وأمرت الآلهة فزلزلت الارض زلزالها .. وكانت الغرفة التى ينام فيها بيرام ملاصقة للتى تنام فيها حبيبته تسبيه ، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين ، فأحدث الزلزال فى هذا الجدار صدعا صغيرا كالشعرة فوصل هواء الغرفتين ، وحمل كلام الحبيبين ، واخذت موسيقى بيرام وغناؤه ينسابان الى غرفة تسبيه، واخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب فى غرفة بيرام ، وأخذت النجوى الحلوة ، والشكوى الجميلة ، وغزل الكلام ، وحنين القلوب ، ينتقل فى برج هذا الشق كأنهـــا كواكب السعد تحدوها الاهات الملتهبة ، وتذهب بها القبلات الحارة ، ترف بأجنحة من أثير ، من فم الى فم ..

ـ تسبيه ، تسبيه !

ـ من ؟ من ينادينى ؟

ـ تسبيه ، هو أنا ـ انا بيرام !

ـ من أين تتكلم ؟

ـ من هنا .. الم تشعرى بالزلزلة ؟

ـ آه ! شعرت بها فى العشاء ليلة امس

ـ انها أحدثت فى الحائط الذى يفصل بيننا شقا .. وانا أكلمك منه

ـ بيرام !

ـ تسبيه !

ـ اذن لقد رثت الآلهة لحالنا !

ـ واستجابت دعاءنا ياتسبيه ، لقد حركتها موسيقاى !

ـ اذن كنت تعزف وتتغنى ، بينمـا كنت أبكى وائن واذوى !

ـ لا ! ولكنى كنت أسـكب نفسى دمـوعا على أوتار القيثار !

ـ يا لقسوة هـذا الجـدار يا بيرام ! انه يفصل بيننا بشدة !

ـ هو على كل حال أرحم بنا من ابوينـا .. أليس قد انفرج ليصل حديثنا ؟

ـ نشكره جدا ياتسبيه .. واشكره أنا خاصة لانه فرج عن قلبى بالتحدث اليك

ـ بيرام !

ـ حياتى !

ـ هل الجنة اجمل من سجننا هذا ؟

ـ انه اجمل من انضر الجنان يا تسبيه !

ـ وهذا الظلام! أليس هو أضوأ من سنا الضحى ؟

ـ لاننا نتحدث فيه يا اختاه !

ـ أحب ان أسمع موسيقاك يابيرام تتـدفق فى روحى خلال هذا الجدار

ـ ليس أحب الى من ذلك ياتسبيه

ـ أنا لم أسمعك تغنى مذ تناكر أهلونا

ـ سأفعل ان وددت !

ـ وماذا عساك تغنى ؟

ـ كل اغنياتى التى ترنمت بها فيك ؟

ـ الا تغنى شيئا اخر ؟

ـ للآلهة ! لانها انعمت على بحبك !

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنهمـا الليل ، وضمهما غاشي الظلام ، أحاديث كأوشية الروض، وافواف الزهر ، ونجوى البلابل ، ممزوجة بعبرة او عبرتين يريقانهما على جفاء الاهل ، ولدد الطباع ، وقسوة الايام

ولم يحتملا هذه الحال طويلا ، فلقد شفهما الهوى ، وأنحلتهما الصبابة ، وفعل الحب فى قلبيهما الضعيفين أفاعيله . ففى ليلة سافرة البدر ، ساجية النسيم ، صمتت فيها الطبيعة ، وتكلم القمر ، دار بين العاشقين الحديث الآتى :

ــ تسبيه ؟ !

ــ بيرام !

ــ أيوشك القمر أن يكون بدرا يا حبيبتى !

ــ انه جميل الليلة ، وحبذا ان يظل جميلا الليالى المقبلة ...

ــ ان القمر جميل دائما ... أليس هو ابتسامة هذه الدنيا فى ليالى العاشقين ؟!

ــ لكنه صامت ابدا ... انه ابكم لا يعى !

ــ سو ... لا تقولى ذلك يا تسبيه ... قد تسمعك ديانا فتغضب !

ــ هل يتكلم ؟ هل يفهم ؟

ــ أما أنه يتكلم فحق ... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا .. انه يتكلم بلسان من فضه ياتسبيه ، لسان له رنين حلو فى أعماق الروح ... ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد اليه مع آهاتهم ...

ــ خيال شاعر وفلسفته ؟!

ــ بل هو الحق يا حبيبتى ! لقد كان يكلمني وكنت

أكلمه . وكان يفهمني وكنت أفهمه ، كان يكلمني بآراده(١) واضوائه ، وهى لسان صامت ولكنه بليغ لسن ، وكنت أكلمه بوجداني مرة ، وموسيقاى اخرى ، فكان يضحك فى الاولى ، ويرقص فى الثانية .. تسبيه !

ـ ماذا يا بيرام ؟

ـ أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غدا ، فى هذا السهل المنبسط ..

ـ غدا ؟ وكيف ؟

ـ ولم لا ؟ ألا ترغبين ؟

ـ وكيف أرفض ؟ أنا أتمنى ذلك ..

ـ اذن سنلتقى !

ـ وكيف أفعل يا بيرام ؟

ـ تنسرقين اذا نام أهلك ... لن يشعر بك أحد ..

ـ وأين نلتقى ؟

ـ عند مقبرة نينوس

ـ ... ؟ ..

ـ الا تعرفينها ؟

ـ مكان رهيب :

ـ لكنه جميل رائع ! سنجلس ثمة بين يدى القمر ونتحدث ، ونشفى أنفسنا مما تجد :

ـ وتعزف وتغنى ؟

ـ وقد نبكى ؟

ـ .. ؟ ..

ـ اتفقنا ! أليس كذلك ؟

ـ اتفقنا

---

(١) اشعته

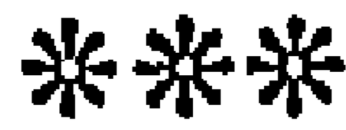
ــ اذن أنتظرك ، اذا لم أجدك هناك ، عند النبع القريب، تحت التوتة البيضاء ! وكذلك تفعلين

ــ أفعل ماذا ؟

ــ تنتظرينني ثمة اذا سبقتني !

ــ ترى ماذا تبتغي ديانا مني ؟

ــ لا شيء .. لا شيء ..



ما كان أجملها ليلة سطع في حواشيها القمر ، ودحرج لألاءه على مياه النبع ، ودغدغ (١) بأضوائه العشب وأفنان الشجر ، فتبسمت وتضاحكت ، ونشر في أجوائها بخوره المتصاعد من مجامر الورد ، ومداهن البنفسج ، احتفاء بمقدم تسبيه ، يا لجمال الطبيعة ! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسرقت تحت أسدال الظلام ، تمشي كالقطاة ، وترسل من فوق رأسها خمارا رقيقا كسحابة الصيف ، تستر ما وراءها وليست شيئا ! لقد كانت توجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل ، كما يسرى الحلم الجميل في خلد النائم

وذهبت تطوى الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة ، وبلغت مقبرة نينوس آخر الامر ، ولكنها لم تجد حبيبها عندها .. ترى ماذا عوقه ؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفا ناصعا ، ولقد كان شبح الفناء جاثما فوقها يلمع في ضوء القمر ، كأنه يتلاعب بالسنين والاحقاب ، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الارض ! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي ، ولكنها

(١) الدغدغة : الزغزغة

أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل ، وتصاوير الوهم المريض ، ثم سخرت من خوفهـــا وذكرت التوتة البيضاء ، والنبع الذى عندها ، فارتدت اليهما لتجلس ثمة ، ترتقب زورة الحبيب

وجلست عند جذع التوتة ، وجعلت تحـــدج الثمر الابيض ، وتشتهى لو سقط منه شيء فتأكله حتى يحضر بيرام .. ثم سمعت دبيبا يقترب ، فلم تشك أن بيرام قد أقبل ، ونبض قلبها بشدة واندرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة فى أن تذرفها .. ثم أبطأ الدبيب .. ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيـــــا الصامتة الرهيبة ، ولكنها لم تر شيئا ، وعادت عفـاريت الليل ترقص فى وهمها ، ولكنها لم تبال ، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة ، عنيفة مرة اخرى ، وهى فى هذا وذاك تفكر فى بيرام ، وتضرب لتأخره أخماسا لاسداس .. ثم ذعرت الفتاة ذعرا كبيرا ، وساخت الارض تحت قدميها المرتجفتين الواهنتين .. ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذى تعرش من فوقه التوتة . ماذا ؟ انها لبؤة ضارية أقبلت ترتوى من ظمأ ملح وجواد (١) شـــديد .. وهى تتبهنس (٢) مع ذلك كأنها عروس ، ولكن عروس من الجن

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح ، ولم تحفل بها اللبؤة ، لانها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها ، وهـــذا فمها ملوث بالدم الفريض الدافىء ..

لم تصنع اللبؤة شيئا ، الا انها رأت الخمـار الابيض الذى كانت تسبيه ملتفعة به ، ملقى على الارض ، فعاثت فيه ، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به ، فلوثته بالدم .

(١) الظمأ (٢) تتبختر .

ثم هممت نحو النبع فارتوت على مهل ، وعادت أدراجها نحو الدغل الذى تركت فيه فريستها لتأتى على بقاياها

أما الفتاة فقد ظلت تجرى حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت فى أصلها فراغا فاختبأت فيه ، وراحت تلهث من الذعر والتعب ، وتتمنى الا ترتد اللبؤة اليها . . وقد أيقنت أن ديانا الهة القمر ، قد سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه ، فساقت اليها ذاك الوحش فى هذا الليل

ولم يمض وقت طويل على تلك الاحداث حتى أقبل بيرام وفى نفسه لهفة ، وبقلبه قلق ، فقصد الى مقبرة نينوس فلم يجد عندها شيئا ، ووقف قليلا يبحث عن تسبيه فى كل شىء ! فى شجيرات الورد وفسائل الزنبق ، وفى العشب الخائف المذعور حول المقبرة ، وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث فى السحابة الرقيقة البيضاء التى انتشرت على وجه القمر فى هذه اللحظة ، مشبهة خمار تسبيه ، اذ يكون على وجهها الرقيق الناحل . . ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء ، فانثنى ميمما شطرها . .

« يا للهول ! ويا للفزع الاكبر ؟ ! ما هذا ؟ خمار حريرى ابيض ؟ لمن هذا الخمار يا ترى ؟ أواه ! انه خمارها لاريب ! لقد شهدتها تلتفع به مرارا ! يا ارباب السماء ! ما هذا الدم ؟ وا أسفاه عليك ياتسبيه ! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم ! انا السبب يا حبيبتى ! لقد جررت عليك هذا باقتراحى الضال ! الا ليت أمى لم تلدنى ! اى وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه ؟ ايها القمر القبيح الابكم ، لماذا اغريتنا بهذا اللقاء ؟ أنت تتستر الان حياء وخجلا من فعلتك التى فعلت ، وكنت بالامس سافرا متبرجا ! اغرب أيها الاصفر كصفرة الموت ، فلا جمال

فيك ! رد على موسيقاى وأغانى فأنت جبس (١) لئيم لا تستأهل منها شيئا !؟ هات كل ما عندك لى هات ! هات دموعى وأشجانى وآهاتى ! هات سهدى وعبادتى ومناجاتى ! قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك!؟ ماأقساك يا صاحب الليالى المواضى ! أوه .. ولكن لا .. انا الذى قتلتها ، ولا ذنب لك يا قمر . انى أستغفرك ، ابق كل ذكرياتى عندك ، فلا آمن عليها الا أنت ! أما أنا .. فهلم يا حسام أسكن هنا .. فى حبة القلب . ارو من هذا الدم الدافىء ، فلا أمل لصاحبك فى الحياة بعد اليوم »

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله ،لاحرصاً على الحياة المرة ، ولكن لينظر الى كل مانظرت اليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش ، وليتزود من الاثر الذى تركته فى الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان ..

ثم أغمد سيفه فى صدره وسقط يتجرع غصص الموت!

وهدأ روع تسبيه ، فبرزت من مكمنها فى أصل الدوحة ، لترى من أين كان يتردد فى أذنيها هذا النداء الحبيب . وكان شبح اللبؤة لا يزال يتمثل لها فيفزعها فى الفينة بعد الفينة ، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة لانها ماشكت مطلقا فى ان النداء هو لحبيبها ، لان الصوت الفضى الذى كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر اذنيهاوقلبها، كان لا يزال يداعب أذنيها الصغيرتين .. ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام الى وجود لبؤة فى هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة .. فأسرعت وأسرعت !

ــ من هذا المستلقى على حفافى النبع ؟ هو من غير شك! ثم أسرعت اكثر من ذى قبل

ــ بيرام ؟! ما هذا ؟ السيف فى صدرك ؟ لم ؟ حبيبى ! رد على! كلم تسبيه ! هاأناذى ! لم قتلت نفسك يابيرام ؟

(١) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم

آه ! هذا الخمار الابيض ! وى انه ملوث بالدم ؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة !؟

ــ تسـ . . بيه !

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج فى صدره ، ثم فتح عينيه قليلا فرأى فتاته تبكى فوق رأسه ، فتبسم . . ثم مات !

ــ بيرام ! لا ! لاتمت ! لابد أن تعيش من أجلى ..

ولكنه مات برغم هذه الامانى

ــ اذن انا التى قتلتك يا حبيبى ؟ اشهدى ياتوتتنا البيضاء !

ثم رفعت بصرها الى فوق ، ولكنها بدلا من أن ترى الثمر الشهى الابيض ، رات ثمرا احمر يقطر دما قانيا

ــ أوه ! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من حبنا وسعادتنا ؟ يا للقسوة !؟ تعالوا يا أهل ! تعالوا أيها القساة ! فتشوا عن الرحمة فى قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا . . احذروا ان تفرقوا بعد اليوم بيننا ، فقد ربطت جسومنا المنايا . . لقد أبيتم أن نجتمع فى الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت . . وداعا أيها القمر . . وداعا فقد ظلمناك ! »

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته فى صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع . . وسقطت تتخبط فى دمائها الى جانبه . . ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل ، وشعرها المغدودن ، فوق صدره . . ولفظت ثمة آخر أنفاسها

وأقبل أهلوهما فى الصباح فبكوا كثيرا ، واستغفروا لذنوبهم ، ثم أقاموا للحبيبين قبرا واحدا من الرخام الناصع عند حفافى النبع . . تحت التوتة الحمراء !؟



# أدونيس

كان جميلا كالكأس المترعة .. وله وجه أبيض كالحبب، تتدفق الخمر فى دمه ، وتكمن فى عينيـــه ، وتنثال على لسانه ..

رأته فينوس يستحم فى بحيرة مزهرة ، فوقفت تنظر الى هذا التمثال من بلور ، يسبح فى لجة من لجين !

ولمحها الغلام فخجل واستحيا ، وطفق يخصف عليــه من أوراق اللوتس .. ولكن الحياء ورد وجنتيه ، وصبغ خديه ، وفتر ناظريه ، وتصبب فى شفتيه فاحمرتا !وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة ، وعجبا يشيع فى الماء ..

وسبح الى الشاطىء المقابل ، بيد ان فينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو ، فانثنى يريد الشاطىء الاخر ، فكانت فينوس عنده كذلك ، فارتد يحسب أنه يسبقهـــا الى الشاطىء المقابل كرة أخرى ، ولكن الالهة العنيـــدة كانت تسابق الوهم فى الوصول الى أحد الشاطئين ، فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بدا من البروز الى البر ، وليكن فى أمر هذه الغادة التى تهاجمه بحبها ـ وهو لايعرف من هى ـ مايكون !

ـ « أدونيس .. أليس كذلك ؟ »

ـ « ؟ .. »

ـ « ألا تتكلم ؟ .. »

وكانت قطرات الماء البلورية تتحدر على جسمه الرشيق ، فمن يدرى ؟ أهى من ماء البحيرة أم من ماء الخجل ! ...

ـ « تكلم يا أدونيس ! ألا تعرف من أنا ؟ .. »

ـ « ؟؟ .. .. .. »

ـ « أنا التى سجد عند اخمصيها مارس الجبار ! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الاولى التى زلزلت بها أركان قلبه ! ألا تصدق ؟ أدونيس ؟ ! .. »

ـ « أرجوك .. ان رفاقى ينتظروننى ، ونحن جميعا نتخذ أهبتنا للصيد .. »

ـ « صيد ؟ .. وماذا تصيدون فى هذه البرية الموحشة ؟ .. »

ـ « الخنازير يا غادة .. انها متوحشة جدا .. »

ـ « وهى خطرة أيضا ، وكل يوم لها ضحايا .. أدونيس ! ألست ترى الى جمالك الفينان ! ألا تشفق عليه من أن يصيبه سفع من شمس هذه البرية المحرقة ؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة ؟ .. تكلم ! لا تصمت هكذا ! » ..

ـ « أرجوك ؟ »

ـ ترجونى ؟ أنا التى أرجوك يا حبيبى ! ..

ـ « ... ؟؟ ... »

ـ أراك ارتبكت اذ دعوتك حبيبى ؟ وى ! ما هذا الحياء ، يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس ؟ تعال .. هات قبلة ! »

ـ « لا ·· لن يكون شيء من هذا ! اسمعى ! ها هى ذى سلوقياتى تنبح ولابد أن أسرع اليها ·· دعينى ·· دعينى ! »

ـ « لن أدعك ، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما اســـتطعت أن تفلت من ذراعى يا حبيبى ! ·· هات قبلة قلت لك ! ·· »

ـ « ··· ؟ ؟ ··· »

ـ « اذن أنال بالقوة كل ما أشتهى ! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتى المشتعلتين ! »

ـ « أ ·· ر ·· جوك أوه ·· حسـ ·· بك · »

ـ « فمك جميل شهى ، ولكن خديك جميلان كذلك ·· ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغـــــــــلام الفتان ! ·· »

ـ « ··· ؟ ؟ ··· »

ـ أنفاسك تتضوع من فمك الرفيق ، وأنفك الدقيق، فهل فيك حديقة من بنفسج ؟ ·· »

ـ « أر · جوك ·· كفى ·· كفى سلوقياتى تنبح ، ولابد أن أذهب ! ·· »

ـ « تذهب ؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافىء الـــذى يضمك ؟ حقا أنت غرير ! ·· »

ـ « أجوك ·· قلت لك ! »

ـ « كل هذه القبل أغمر بطوفانها فمك ، ولا تحييها بقبلة ؟ ·· قبلنى ! ·· »

ـ « لا ·· لا أقدر ·· أرسلى ذراعيك عن عنقى ·· »

ـ « أنت لا تقـــدر ؟ آه يا ســـاذج ؟ .. اننى لن أفلتك ما دمت تتباله على ! ·· »

ــ « أرجوك ، دعينى أذهب ! أوه •• »

ــ « قبلنى قلت لك ! لن يقهر كبريائى فتى غـــرير مثلك ! اذا قبلتنى أرسلتك ! •• »

ــ أقبلك ؟

ــ اجل ، قبلنى يا أدونيس !

ــ أقبلك كيف ؟

ــ هكذا يا صغيرى •• ••

ــ •• ؟ •• ؟ •• دعينى اذن !

***

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع ، فارتجفت ارتجافة هائلة ، وخرت الى الارض كأنما غشى عليهـــا ، وارتبك الفتى الذى لم يألف مثل هذا الموقف النـــادر من مواقف الحب ، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو ، ثم يذهب الى صيده بعد • ولكنه لم يدر ماذا يفعل ، وعلى كل ، فقد طفق يدلك قدميها ، ويربت على صدرها ، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها ، فلما لم تفق ، أهوى على فمها الحلو يلثمه •• ويرد اليه دينه من القبل !

وكانت فينوس الخبيثة تحس وتصمت •• ولا تأتى بحركة قد تطير بهذه الاحلام السعيدة التى تطيف بها ، وتتنزل من السماء الصافية عليها ، ألم تكن تضرع الى من أجل قبلة واحدة ؟ فكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القبل ؟!

ولم تطق فينوس ••

ففينوس ربة ولكنها هلوك ! لقـــد طوقت أدونيس بذراعيها ثم أمطرت فمه الخمرى ، ووجهه العطرى ، آلافا

من القبل العذاب ، والنولات الرطاب (١)

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر ، وعينين تتقدان اشتهاء ، ولكنه كان يصم أذنيه ويغلق أبواب قلبه . وضمته بحرارة وعنفوان الى ثدييها ، فما زادته الا شموسا وعنادا ..

قالت له : « الا تقبل على الا ميتة يا أدونيس ؟ أيسرك أن أقضى بحبى أذن ؟ ألست أعدل عندك خنزيرا بريا ؟ أكلما خلعت عليك شبابى ونضرتى وحبى ، ألقيت بها فى تراب كبريائك غير آبه لدموعى وتوسلاتى ؟ افتح قلبك للحب يا صغيرى !! .. »

ولكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها : «أهذا كله عندك هو الحب ؟ .. »

فتنظر فى عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما فى قرارة نفسه وتسأله : « اذن ما هو يا أدونيس ؟ »

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها : « ان كنت تجهلين ما هو ، فالحب أجل من هذا وأقدس يا غادة .. انك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره ، وروحك

---

(١) لا نستطيع متابعة الموقف ، ولكننا نثبت هنا أسطرا من شكسبير الذى لم نعرف فيه تفحشا ، فى وصف ماكان بينهما ــ وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais « مجموعة وارك ولوك ص١٥٢٤ )

He will not manage her, although he mount her,
All is imaginary she doth prove,
Her champion mounted for the hot encounter
Now is she in the very lists of love
He on her belly falls, she on hor back.
She sinketh down, still hanging by his neck,
and on his neck her yoking arms she throws :

والقصة رائعة ، وبها اكثر من ثلثمائة بيت فى وصف القبل وحدها ، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص . والنولة القبلة

للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعا ·· دعيني أذهب اذن ·· دعيني ·· سلوقياتي تنبح ولابد أن أذهب اليها ··»

***

وكأن ثلجا ذاب في أعصاب فينوس عندما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها ، فتقلصت ذراعاها ، وفترت نفسها ، وخمدت في قلبها تلك الشهوة الملحة التي سلطت عليها تعذبها وتضنيها ·· واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها ، فانطلق يعدو كالظليم الى سلوقياتة التي كانت تناوش خنزيرا كبيرا بادى النواجذ ، بارز الانياب

وجلست فينوس تنظر الى ادونيس يعدو ، وتجتر كلماته وتتعذب

وغفت اغفاءة قصيرة ، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق ، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد ، فهبت مروعة ، لان الصوت كان بصوت يا للهول !!

أدونيس مضرج بدمه ، وعيناه مستسلمتان للموت (١)، وسلوقياته تبكي حوله ؟! لقد انقض عليه الخنزير الضاري فمزق لحم الفخذة ، وسرى في الدم سم الكلب !

ووقفت فينوس ذاهلة تنظر الى حبيبها الصغير ، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكي ·· ثم أسندت الرأس الذابل الى صدرها ، وجعلت تقول :

« ألم يكن حبا حبي يا أدونيس ؟! يا للقضاء ؟! كنت أعرف هذه النهاية ، وكنت أشفق عليك منها ، ولذا كنت أتشبث بك ، وأحاول أن أنسيك بقبلي ودموعي

---

(١) اقرأ مرثاة شلي (أدونيس) في كيتس ، طبعة اكسفورد ص ٤٢٥

خنازير هذه البرية ، ولكنك قلت ان حبى شهوة وصبابتى غلمة ، فجنيت على نفسك وعلى !! أوه ! يا لبرودة الموت ؟ أدونيس ؟ أدونيس ؟ رد على يا حبيبى ! لقد حسبتنى غادة ! أنا فينوس أكلمك فرد على ‥ آه ‥ »

وألقت به على الكلأ السندسى ، وانطلقت تبكى وتنتحب حتى كانت عند عرش الاولمب فقالت تكلم رب الارباب زيوس العظيم :

ــ « أدونيس يا أبى !! »

ــ ماله ؟ ‥

ــ قضى ‥ قتله الخنزير ‥

ــ ومالك مذعورة هكذا ؟ ‥

ــ « مذعورة ؟! وحقك ان لم تأمر برده الى الحياة الدنيا لاذهبن معه الى هيدز ! »

فوقف اله كان يجلس قريبا من السدة وقال : تذهبين الى هيدز ؟! يا للهول ! والجمال والحب ؟ أيذهبان فى اثرك الى دار الموتى ؟ وهذه الدنيا يا فينوس ؟ »

ــ « هذه الدنيا تنعى من بناها ‥ تخرب ‥ لا زهر ‥ لا شفق ‥ لا طير ‥ لا موسيقى ‥ لا خمر ‥ لا حب ‥ لا حنين ‥ لا غزل ‥ لن تكون دنياكم شيئا اذا ذهبت الى هيدز مع حبيبى أدونيس !! »

فسجد الاله الذى تكلم أمام زيوس ، ثم نهض وقال :

ــ أنا بلسان الآلهة أضرع الى مولاى أن يلبى طلبة فينوس ربة الحب ‥

فتبسم آله خبيث كان بالقرب منه ، وغمز اليه وقال :

ــ وربة الجمال يابن العم !!

وأرسل زيوس العظيم الى أخيه .. بلوتو .. الـــه هيدز ، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه ، ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا ، فأبى أن يلبى رجاء أخيه .. فألح عليه ، فلم يقبل ..

ثم اتفق الاخوان ، زيوس وبلوتو ، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة ، فيقضى ستة أشهر فى هيدز ، أشهر الخريف والشتاء ، وستة أشهر فى الدنيا ، حيث تأخذ زخرفها فى الربيع وتؤتى أكلها فى الصيف !!

ولما لقيت فينوس حبيبها عائدا أدراجه من دار الفناء قالت له :

« أتستطيع اليوم تعريف الحب ؟ » . فقال أدونيس : « هاتى قبلة يا فينوس .. هاتى قبلة .. هاتى ألف قبلة .. »

# فهرس

صفحة

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

النز. ـــة : السيد نخلة سكاف

جـــ ـة : السيد هاشم بن على نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحـ رين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

البـــر ـيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

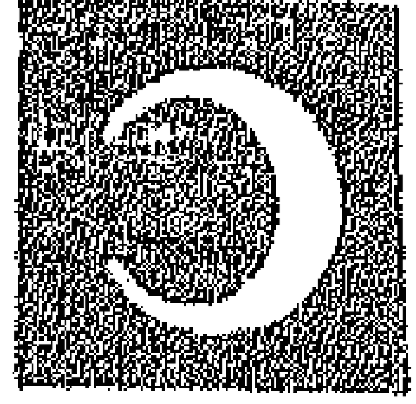
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

## هـــذا الكتاب

يضم هذا الكتاب اربعة وعشرين اسطورة من اساطير الحب والجمال عند الاغريق ، كتبها بأسلوب فنى مترق نفيد الادب العربى الراحل دريني خشبة . ومن بين ابطال هذه الاساطير ما أصبح له شهرة فى انحاء العالم تفوق شهرة الابطال الاحياء ،ومن هؤلاء الابطال اللامعين اسماء مثل كيوبيد وفينوس وأرفيوس الموسيقى وبجماليون وبندورا وهرقل ، طافت هذه الاسماء الدنيا كلها ومرت خلال القرون المتتابعة فلم تزد الا وضوحا وتألقا . ومن بين ابطال هذه الاساطير عدد اخر لم يعرف عندنا بصورة شائعة ، ولكن الحديث عنه يملأ الاداب الاوروبية وكانت المكتبة العربية تشكو من النقص فى هذا الميدان ، فلم يكن واحد يجمع هذه الاساطير ويعرضها بطريقة تحافظ على ما فيها من سحر ، حتى جاء درينى خشبة فألف هذا الكتاب ، الذى هو اول مرجع من نوعه فى المكتبة العربية ،والذى يجمع بطريقة رائعة بين البحث العلمى ، وجمال الفن ، حيث يمكننا أن نقرأه كما نقرأ الملحمة او القصة المثيرة الممتعة ..

١٠ قروش

كتاب الهلال



# عشرة أدباء يتحدثون

فـــؤاد دواره

محمود تيمور

طه حسين

توفيق الحكيم

عزيز أباظة

نجيب محفوظ

يحيى حقي

حسين فوزي

فتحي رضوان

محمد مندور

محمد فريد أبو حديد

# كتاب الهلال

**KITAB AL-HILAL**

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

**العدد ١٧٢ ربيع الاول ١٣٨٥ – يوليه ١٩٦٥**

**No. 172 — Juillet 1965**

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

**قيمة الاشتراك السنوى** : ( ١٢ عددا ) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

**سعر البيع للجمهور** : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا ( بنغازى وطرابلس ) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف : بريشـــة
الفنــان حلمى التونى

# عشرة أدباء يتحدثون

بقلم

فؤاد دواره



دار الهلال

# تقديم

عمل الاديب قطعة من نفسه ، وصورة لشخصيته وموقفه من الحياة . لذلك يحرص نقاد الادب ومؤرخوه على دراسة حياة الادباء ، ليستعينوا بها فى تفهم انتاجهم وتحليله ، والتعرف على بواعثه واهدافه

ودراستنا لحياة الأدباء القدماء تعتمد ، فى المقام الاول، على كتاباتهم عن أنفسهم وكتابات المعاصرين لهم ، وقل أن نحظى من هذه الكتابات بما يشفى الغلة ، فنضطر فى كثير من الحالات الى استنتاج ما ينقصنا من الحقائق ، وسد الفجوات بالاحتمالات والفروض . اما بالنسبة للادباء المعاصرين ، فمن الخير دائماً أن نتصل بهم ، ونناقشهم فى مؤلفاتهم وآرائهم ومختلف جوانب حياتهم ..

واذا كانت النظرة الجامعية ما زالت متحفظة ، بشكل عام ، تجاه دراسة الادباء الاحياء لما قد يكتنفها من مجاملات أو تحيزات تفرضها طبيعة العلاقات الانسانية ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر قيمة الاتصال المباشر بالاديب فى التعرف على شخصيته ومختلف ارائه ومواقفه ، مما يكمل ويوضح كتاباته ، ويتيح للدارس فرصة أكبر للانصاف

والاقتراب من الحقيقة فيما يكتبه عنه • وحتى لو سلمنا بأنه لن يستطيع الانتهاء الى تقويم كامل لانتاجه بسبب قربه منه من ناحية ، ولما قد يضيفه الاديب من مؤلفات من ناحية اخرى ، فالذى لا شك فيه أن ما سيكتبه الدارس عن الاديب الذى اتيح له أن يعرفه معرفة وثيقة ، سيكون عظيم النفع والقيمة بالنسبة لمن يأتى بعده من الدارسين ، ولا يتاح لهم أن يعرفوا هذا الاديب مثل معرفته له

ومنذ قدر لى أن أكرس معظم جهودى للنقد الادبى ، وأنا أحس بأنه مما يكمل عملى ، ويعيننى على النجاح فيه ، أن أتصل بكبار أدبائنا أتتلمذ عليهم ، وأناقشهم فى مؤلفاتهم وارائهم وبعض جوانب حياتهم ، دون أن ألتزم كل الالتزام بهذه الاراء فيما اكتبه عنهم

وزاد من اقتناعى بسلامة هذا الرأى ما حدثنى به توفيق الحكيم ذات يـــوم من أن بعض الدارسين الاوربيين والامريكيين يتجشمون مشقة السفر الى بلادنا ليقابلوه هو وغيره من كبار ادبائنا ، قبل أن يشرعوا فى الكتابة عنهم، فى حين أن نقادنا لا يتجشمون مشقة اجتياز عدة شوارع ليقابلوه ويتحققوا من صدق معلوماتهم قبل أن يكتبوا دراساتهم عنه وعن أدبه

وما جمعتنى الظروف بواحد من أدبائنا الـــكبار الا وخرجت بزاد وفير من الخبرات والذكريات والاراء النافعة كنت اشفق دائما أن تتبدد من ذهني مع مرور الايام دون أن يفيد منها احد

وهكذا نشأت لدى فكرة تسجيل هذه اللقـــاءات فى أحاديث ادبية انشرها ، بعد أن لاحظت أن معظم ما تنشره صحفنا من أحاديث لادبائنا يغلب عليه الطابع الصحفي

المتسرع ، ولا تتاح له المساحة الكافية ليفيض الاديب في التعبير عن نفسه

وقد حرصت على أن أعرض كلا من هذه الاحـاديث على صاحبه قبل تقديمه للمطبعة ، ليحذف منه ما يرى حذفه، ويضيف اليه ما يرى اضافته ، ليكون لهذه الاحاديث قيمة المرجع العلمى المعتمد

ومما اعتز به أن معظم من أجريت معهم هذه الاحاديث اصدقاء اعزاء تربطنى بهم صلات مودة وثيقة ، لا شك انها هيأت جوا من الالفة ساعدهم على الافاضة فى اجاباتهم على أسئلتى • أما القلة التى لم يسعدنى الحظ بصداقتهم وكان الحديث مناسبة للتعرف عليهم ، فقـــد كان من الطبيعى ألا تتوفر لاحاديثهم مثل ذلك الانطلاق والافاضة، وان كانوا لم يبخلوا مع ذلك باجابات شافية تحقق قدرا كبيرا من الهدف المطلوب

وسيلاحظ القارىء أن كل الادباء الذين يضم هـــذا الكتاب احاديثهم من الرواد الذين تتلمذنا جميعا عليهم ، وكان لهم دورهم الواضح فى ارساء وتطوير فنون ادبنا الحديث ، ورغم التفاوت بين اعمارهم ، فكلهم قد جاوز الستين من عمره المديد انشاء الله باستثناء الدكتور مندور وفتحى رضوان ونجيب محفوظ ، وهؤلاء لهم من غزارة انتاجهم وتميزهم ما يضعهم فى صف أولئك الكبار أو قريبا منهم • ولا شك أن بين ادبائنا المعاصرين عددا آخر لا يقلون منزلة ومكانة عمن تحدثت اليهم فى هذا الكتاب ، وأملى كبير فى أن أوفق الى لقائهم وجمع احاديثهم فى كتاب آخر ••

ولست فى حاجة الى القول بأنى قد لا أقر كل ما جاء فى الكتاب من آراء ، لأنها تتباين ، وقد تتعـــارض ،

باختلاف اتجاه كل أديب ومنزعه الفنى ، بحيث يستحيل أن يؤمن بها جميعا شخص واحد ، ولكن الذى لا شك فيه أن اجتماع هذه الآراء المتباينة بين دفتى كتاب واحد لمما يساعد على تبين كثير من القضايا التى تشغل حيـــاتنا الادبية ، خاصة وأنى حرصت على طرح نفس القضايا على معظم الادباء الذين تحدثت اليهم ، فأدلى كل منهم بدلوه فيها وحدد موقفه منها

ولم أعن بمناقشة هذه الاراء وتحليلها لانى اعتقد أن ذلك خارج عن نطاق هذا الـــكتاب ومهمته ٠ ان المنهج العلمى السليم يقضى بأن يبدأ الدارس بعرض وجهة نظر الاديب أو المفكر بأمانة كاملة حتى ولو لم يكن يقرها، فاذا تم له ذلك شرع فى الدرس والتحليل والمناقشة ٠ وقد حقق هذا الكتاب جانب العرض على خير وجه ، اذ قدمه على ألسنة الادباء أنفسهم وبكلماتهم ، وترك جانب الدرس والتحليل والمناقشة لسواه ، أو لدراسات اخرى تستعين بهذه الاحاديث ، التى لم تخل مع ذلك من شىء من التحليل والمناقشة تمثلت فى بعض الاسئلة التى وجهتها الى المتحدث لاستيضاح نقطة او اعتراض على أخرى

يبقى بعد ذلك أن أقرر ان جهدى فى هذا الكتاب أقل بكثير من جهد المتحدثين ٠٠ فليس لى فيه سوى فضل التسجيل وتوجيه المناقشة ٠٠ أما الكتاب نفسه فعبارة عن ارائهم وذكرياتهم ٠٠٠ فاذا جاز لى أن أهديه ٠٠ فلن يكون الاهداء الا لهم ٠٠

**فؤاد دواره**

— ١ —

# طه حسين

* كيف تحولت من الدراسة الأزهرية الى الدراسة الأدبية .. ؟

* حرصت على أن أكون أول دكتور يتخرج فى الجامعة المصرية ..

* تأثرى بالمستشرقين شديد جدا ، ولكن بمناهجهم ، لا بآرائهم ..

ذلك الفتى الفقير الضرير الذى قهر ظروف حيـــاته وبيئته ، واستطاع ان يصبح عميدا للادب العربى ، ومديرا للجامعة ، ووزيرا للمعارف .. وقبل هذا وذاك صـاحب أكبر ثورة فكرية عرفها أدبنا العربى الحديث .. كيف تأتى له ذلك ؟.. فلتكن عبقريته الفردية الفذة ، ولتـكن ارادته القوية الصامدة ، ولكنه يظل مع ذلك احدى معجزات زماننا ، ودليلا لايدحض على خصوبة ملكاتنا ، خصوبـة قد تفوق ما اشتهر من خصوبة أرضنا .. والا فكيف أمكن لريف بلادنا ان ينبت فى احدى قرى الصعيد مثل هـذه العبقرية النادرة ؟ ...

ومنذ زمن بعيد وأنا أتوق الى رؤيته والتحدث اليه ، بعد ان قرأت له وتعلمت منه الكثير .. واذا كنت لم اتتلمذ عليه تتلمذا مباشرا ، فقد كان معظم من علمونى بقسم اللغة العربية بجامعة الاسكندرية من تلامذته ، الذين يعتز بهم ويفخرون بتتلمذهم عليه ، ومن ثم فأنا تلميذ تلامذته، أو بمثابة الحفيد فى العلم على حد تعبيره هو ..

وحين نزحت الى القاهرة منذ عدة سنوات ، كان من بين أمانى أن أرى الاهرام والازهر والجامعة ، وغيرها من معالم الحضارة المصرية العريقة ، وكذلك طه حسـين

والعقاد وتوفيق الحكيم ، فكل منهم يمثل وجها من وجوه ثقافتنا المصرية الحديثة ، ومعلما بارزا من معالم حضارتنا وشخصيتنا القومية ...

وقابلت العقاد ، ثم توفيق الحكيم ، وأخيرا ها أنذا يتاح لى ان اسعد بلقاء طه حسين وأتحدث اليه وأسمع منه ..

بمثل هذا كانت تحدثنى نفسى وانا فى الطريق الى داره الانيقة النائية فى طريق الهرم ، وكنت أخشى ألا تسمح له صحته بلقائى او التحدث الى ، ولكن سكرتيره الوفى طمأننى ، وأكد لى أنه سيسره ان يجيب على أسئلتى ، وان أسعد ساعات يومه هى التى يلتقى فيها بالادباء الذين يزورونه ويتبادل معهم المناقشات والذكريات

وكان مساء عاصفا شديد البرودة ، أعاد الى الدكتورطه حسين ذكريات شتاء آخر قارس البرد ، عاشه فى فرنسا وهو طالب فى السوربون عام ١٩١٧ ، فشرع يحدثنا عنه وهو فى جلسته الوثيرة بحجرة مكتبه الدافئة .. انه أقسى شتاء عرفه ، فلم يكن يجد الدفء الا فى مكانين اثنين فى باريس كلها : فى السوربون ، وفى مكتبة سان جنفييف ، فموارده المالية المحدودة اذ ذاك لم تكن لتسمح له بشراء الوقود او التدثر بالصوف ..

ومضى حديث الذكريات عذبا سلسالا يمر بفترات الكفاح والنضال ، ومعارك السياسة والرأى ، ومواقف الاساتذة والزملاء .. سعد زغلول ، ولطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، والعقاد .. وحديث « الشعر الجاهلى » ومقالة « ضعاف » التى قدم الدكتور طه حسين من أجلها للمحاكمة ..

ومرت ساعة أو أكثر قبل أن اجرؤ على مقاطعة الذكريات المتدفقة لإستأذن الدكتور فى تسجيل طرف من

حديثنا .. فضحك فى بشاشة وهو يقول :

ــ حسنا .. جاء دور الصحافة اذن ..

واجبت :

ــ ابدا ، بل أدب خالص .. هل تحب ان تسمع أسئلتى ؟..

ــ هات ما عندك ..

وبدات اقرأ الاسئلة التى أعددتها ، ومحدثى يهز راسه بين الحين والاخر مبديا اعجابه بسؤال مرة ، واستنكاره لسؤال مرة اخرى .. وحين انتهيت طمأننى الى انه سيجيبنى على أسئلتى كلها أو معظمها فى جلسة خاصة نتفق عليها فيما بعد ..

ومضت عدة ايام قبل ان يسمح وقت عميد الادب العربى بلقائى مرة اخرى .. وفى الموعد الذى حدد لى كنت جالسا أمامه أطمئن على صحته ، وارجوه الا يجهد نفسه فى الاجابة على الاسئلة ان بدا له ذلك ، ولكنه شرع يملى اجاباته فى هدوء وثقة ، وصوته يتردد فى الحجرة الصغيرة رخيما وقورا ، كأنه صوت البعث الضخم الذى احدثه فى أدبنا العربى العريق .. ومضت يدى تتابع كلماته كلمة كلمة ، وانا اتمنى الا يتوقف ابدا ، بل يظل يحدثنى ويحدث الاجيال عن حياته وكفاحه ، وثورته الفكرية ..

***

سألته :

**● كل الظروف كانت مهيأة امامك للمضى فى دراستك الدينية التقليدية ، كيف تحولت الى دراسة الادب ؟**

ــ رأيت أخى الشيخ احمد حسين مع نفر من زملائه وكانت دراستهم متقدمة يكثرون من حديث الادب ،

ويتذاكرون فيما بينهم شيئا كانوا يسمونه « ديوان الحماسة » ، ويذكرون شيخا كان يدرس لهم هذا الديوان ويتندرون بفكاهة هذا الشيخ وعبثه بشيوخ الازهر وبالتقاليد الازهرية بوجه عام ، فأحببت ان احضر هذا الدرس ، ولكن أخى وزملاءه نصحوا لى بالانتظار قليلا حتى اتقدم فى الدراسة الازهرية ، وكنت أسمعهم يقرأون الشعر الذى اشتمل عليه الديوان ، وكنت احفظه بمجرد سماعى منهم . وقد استجبت لنصحهم أشهرا ولكنى أحببت هذا الشعر وما كان هؤلاء الطلبة يقرأونه من شروحه وذكر مناسباته ، فلم أطق صبرا ، وجعلت أحضر هذا الدرس ، وكان درسا خارج برنامج الدراسات الازهرية ، كان الشيخ يلقيه فى الضحى ، بين درس الفقه الذى كان يلقى فى الصباح ودرس النحو الذى كان يلقى بعد صلاة الظهر ، وكان يلقى فى مكان ممتاز هو الرواق العباسى الذى كان الاستاذ الشيخ محمد عبده يلقى فيه درسه بين المغرب والعشاء

ولم أكد اختلف الى هذا الدرس أياما حتى شغفت به شغفا شديدا ، فواظبت على شهوده ، وعنيت بحفظ كل ما يلقى فيه من شعر

وكان الازهريون يعدون هذا الدرس بين دروس العلوم الحديثة التى أدخلها الشيخ محمد عبده فى الازهر ، كالحساب والجغرافيا . وما هى الا ان أحببت الشيخ وأحبنى أشد الحب ، وأصبحت من أقرب تلاميذه اليه .. وهذا الشيخ هو سيد على المرصفى ، وكان أشد صفاته انه يكره الازهريين وتقاليدهم ، ويزدرى دراستهم ومذاهبهم فى هذه الدراسة . وكان يقضى أكثر وقته عابثا بالشيوخ ساخرا منهم ، محاولا ان يحبب الادب الى تلاميذه ، ويبغض اليهم دروس الازهر المألوفة وكتبه

التقليدية . وكان ينصح لنا ان نقرأ النحو والبلاغة والفقه في الكتب القديمة التي كان الازهر يجهلها اشد الجهل

ومنذ ذلك الوقت فتنت بالادب واستاذه ، وجعلت أسخر من شيوخنا وطرقهم في الدرس

وفي ذلك الدرس لقيت زميلين لم تلبث المودة ان اتصلت بينهما وبيني ، وهما الاستاذ احمد حسن الزيات ، والشيخ محمود زناتي رحمه الله ، وكنا جميعا من اشد الناس سخطا على الازهر وشيوخه وعبثا بالدروس والاساتذة . وكنا مشغوفين بالادب الى أقصى حدود الشغف ، وكنا نسمع الدرس في الضحى ، ثم نترك غيره من الدروس ، ونذهب الى دار الكتب لنقرأ فيها كتب الادب التي لم تكن تتاح لنا . ثم غير الشيخ موضوع درسه ، فترك « ديوان الحماسة » لأبي تمام ، وأخذ يقرأ علينا كتاب «الكامل» للمبرد ، فازداد افتتاننا بالادب ، وحرصنا على ان ننقطع له ، ونقف عليه جهودنا واوقاتنا

واتسعت المودة بيننا وبين الاستاذ ، فكنا نذهب اليه في داره ، ونتلقى عليه بعض الدروس فيها ، ونتلقى عليه بنوع خاص العبث بالشيوخ والاستهزاء بهم

كذلك بدأ تحولي من الدراسة التقليدية الازهرية الى الدراسة الادبية ، ولم تمض اربع سنوات على انتسابي للازهر حتى انشئت الجامعة المصرية ، فأسرعت الى الالتحاق بها ، وفعل زميلاي مثلي ، ووجدنا فيها دروسا لموضوعات لم يكن الازهريون يسمعون بها . فدرس للحضارة الاسلامية ، ودرس لتاريخ مصر القديم ، ودرس للصلة بين الادب والجغرافيا . ذلك الى دروس أخرى اضيفت الى هذه الدروس بعد السنة الاولى للجامعة . ودعي كبار المستشرقين الاوروبيين لالقاء المحاضرات ، فكنا نختلف الى دروسهم في كثير من الشغف . وكان

يخبهم الينا انهم كانوا يلقون محاضراتهم باللغة العربية ، وكانوا كلهم يحرصون على اللغة العربية الفصحى ، وهو الشيء الذى لم يكن الازهريون يحفلون به ولا يلتفتون اليه

ومع اتصال اختلافى الى دروس الجامعة جعلت انسى الازهر ودروسه شيئا فشيئا ، وتغير اتجاهى فى الدرس تغيرا تاما . ومع ذلك فلم أقطع صلتى بالازهر مرضـــاة لوالدى رحمه الله الذى لم يكن يتمنى شـــيئا كما كان يتمنى ان يرانى استاذا ذا عمود فى الازهر ، أى ذا كرسى يشد الى عمود من أعمدة الازهر ، ويجلس عليه الاستاذ ويتحلق حوله الطلاب . وأظنك تعلم انى حاولت آخـــر الامر أن أتقدم لامتحان العالمية فى الازهر ، فلم أنجح . ويشهد الله ان لجنة الامتحان حالت بينى وبين النجـــاح ظلما ، لان شيخ الازهر اذ ذاك ـ الشيخ سليم البشرى ـ طلب الى اللجنة أن تسقطنى فى الامتحان كما كان يقال . ومصدر ذلك أنى هجوته بشعر نشر فى بعض الصحف . ولم أحزن على هذا الرسوب ، بل اكاد اقول انى فرحت به لانى اتجهت بعده الى الدراسة الجامعية ، وكانت فى ذلك الوقت قد نظمت وانشئت فيها شهادة الدكتـــوراه ، فحرصت على أن أكون أول دكتور يخرج منها ، وأتاح الله لى ذلك . وكان نجاحى فى الجامعة سببا لســفرى الى اوربا ..

**● ماذا أفدت من الدراسة فى الأزهر ؟**

ـ أفدت من الدراسة فى الازهر شيئا كثيرا جدا ، وهو الحرص الشديد على التعمق فى فهم النصوص وتجنب السطحية والعلم المحفوظ . ودراسة الازهر فى تلك الايام كانت تمتاز بتنشئة الملكات التى تتيح الفهم والتعمـــق والصبر على البحث . وليس هذا بالشيء القليل

**● من أهم اساتذتك الذين لهم فضل كبير فى توجيهك وتكوين ثقافتك ؟**

ـ أولهم الشيخ سيد على المرصفى الذى وجهنى الى الدراسة الادبية . ثم اثنان بعده من المستشرقين الايطاليين انتفعت بدروسهما فى الجامعة الى ابعد حد . احدهما الاستاذ « نلينو » الذى كان يدرس لنا تاريخ الادب العربى فى العصر الاموى خاصة ، والثانى الاستاذ « سانتيلانا » الذى كان يدرس لنا تاريخ الفلسفة الاسلامية وترجمة الثقافة اليونانية الى العربية بنوع خاص . اما الاساتذة الاوروبيون الذين تأثرت بهم حين اختلفت الى دروسهم فى «السوربون» فكثيرون أهمهم اربعة : «دوركايم» استاذ علم الاجتماع ، و « بلوك » استاذ التاريخ الرومانى ، و « جلاتس » استاذ التاريخ اليونانى ، و « ليفى بريل » استاذ الفلسفة

**● ومن أهم تلامذتك الذين تعتز بهم ؟**

وتردد الدكتور طه حسين قليلا ، ثم ضحك بمرح وهو يقول :

ـ انهم كثيرون ولا اريد ان اذكر بعضهم فأغضب البعض الآخر ..

***

**● أنا اعلم ذلك ، واعلم انك استاذ جيل بأسره ، بل عدة اجيال من الادباء والاساتذة الجامعيين ، ولكنى اريد أن تخص بالذكر بعض تلامذتك الذين برزوا بأعمالهم العلمية وجهودهم الادبية ، ولن يغضب هذا الباقين**

ـ اذن فقل انهم الاساتذة الذين يدرسون الآن اللغة العربية وآدابها فى كليات الاداب

**● أنت ناقد ودارس أدب واستاذ جامعى ، واديب**

**منشىء ، ومترجم ، ومؤرخ ، ومفكر اجتماعى وتربوى ؛ ولك فى كل هذه الميادين نشاط ملحوظ • ما الجهد الذى تعتز به بصفة خاصة ؟ وأى هذه الميادين أقرب الى نفسك ؟**

ـ دراسة الادب العربى القديم

● **كنت اتمنى لو استعرضنا جهودك فى كل ميدان من هذه الميادين لنقف عند أهم ما حققته فيه**

ـ اذا كنت تريد الحق فهو ما قلته لك

● **اذن كيف نفسر هذا التشعب ؟**

ـ لقد حرصت على أن أتثقف ما وجدت الى ذلك سبيلا ، وعلى الا تكون ثقافتى أدبية خالصة ، فعنيت بالفلسفة والاجتماع والتاريخ اليونانى والرومانى ثم بالادب اليونانى خاصة

● **ما خصائص الثورة التى أحدثتها فى منهج الدراسة الادبية ؟**

ـ أهم ما تمتاز به دراستى للادب هو حرصى على الا أكون عبدا للتقاليد وللاشياء المقررة ، وأن أعمل عقلى فى كل ما أدرس ، وان اتجه بدراستى للادب العربى نفس الاتجاه الذى يصطنعه العلماء الاوربيون فى دراسة الآداب القديمة اليونانية واللاتينية

● **ما مقدار تأثرك بالمستشرقين ؟**

ـ تأثرى بالمستشرقين شديد جدا ، ولكن لا بآرائهم بل بمناهجهم فى البحث . وهذا يوصلنى أحيانا الى أن استكشف كثيرا من الخطأ فى ارائهم ، لأن علمهم بالعربية واسرارها ودقائقها أقل من علم المتخصصين العرب

● **كان القدماء يحددون اربعة كتب او خمسة لابد للمتأدب من دراستها ، هل تحدد للأدباء الشبان الكتب**

**القديمة التى لابد أن يقرأوها حتى لا يتهموا بالتقصير فى حق تراثهم ؟**

ـ الكتب التى حددها ابن خلدون وذكر أنها هى المصادر الممتازة للدراسات الادبية هى قليل من كثير ، والواقع ان كل ما كتبه القدماء فى الادب والعلوم المتصلة به مهم جدا ، وعلى الأديب أن يحسن العلم به ما وجد الى ذلك سبيلا. وأشهد بأنى عرفت النحو من كتاب سيبويه ومن «المفصل» للزمخشرى أكثر جدا مما عرفته فى الكتب الأزهرية التقليدية . ومع ذلك فقد كان الازهريون يعيبون علينا قراءة هذه الكتب القديمة فى النحو ويرون ذلك بدعة

**● هل تحدد اسماء كتب بعينها تنصح الادباء الشبان غير المتخصصين فى الادب العربى بقراءتها الى جانب ما يقرأون من كتابات المحدثين وادباء الغرب ؟**

ـ هناك كتب كثيرة جدا ، كالكامل للمبرد ، وكتب الجاحظ كلها ، وليس كتاب « البيان والتبيين » وحده كما ينصح البعض ، وكتب النقد عند القدماء مثل « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، وكتاب قدامة بن جعفر فى الشعر ، والكتاب المنسوب اليه فى النثر

**● هل تذكر متى أطلق عليك لقب عميد الأدب العربى؟ وفى أى مناسبة ؟**

ـ اطلق على هذا اللقب شعبيا عندما أبعدنى صدقى باشا عن الجامعة سنة ١٩٣٢ ، وكنت عميدا لكلية الآداب ، فلقبتنى صحف المعارضة بعميد الادب العربى وليس عميد كلية الآداب وحدها ..

**● كتابك « أديب » أقرب إلى الترجمة الذاتية منه للقصة المتخيلة .. من ذلك الصديق الأديب الذى لازمك فى كل صفحاته ؟**

ـ هذا صحيح ، وصاحبى فى الكتاب شخصية حقيقية لن يفيدك ذكر اسمه بشيء ، ولا أنصح بنشره لان أسرته ما زالت موجودة . لقد كان زميلى فى الجامعـــة ثم فى السوربون ، وكان فى غاية الذكاء والامتياز ، وقـــد انتهى نفس النهاية التى صورتها فى الكتاب . فجن أولا ، ومازال به مرضه حتى انتهى الى شلل عام ثم الوفاة

**● فى خاتمة هذا الكتاب تقول أن صـــديقة صـــاحبك أرسلتلك حقيبة ضخمة مملوءة بأوراق فيهـــا « أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للغتنا بمثله فيما يكتب ادباؤنا المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بـين يديه هـــذا الكتاب . ولكن هل تسمح ظروف الحياة الادبية المصرية باذاعة هذه الآثار يوما ما ؟! » .. وسؤالى عن هذا الادب، أما زلت محتفظا به ، وهل تنوى نشره ؟**

ـ هذه الاثار الادبية التى ذكرتها فى خاتمة كتاب«أديب» آثار وهمية ، وهى تشير الى اشياء كنت احب أن أكتبها أنا وأضيفها الى هذا الصديق الكريم رحمه الله

**● يقول بعض المراقبين ان الفكر عندنا لم يضف الى اليوم جديدا الى الفكر العالمي رغم النهضة الثقافيـــــة الملموسة ، وان كل انتاجنا ليس الا من قبيل الدراســـة لانتاج الآخرين والاختلاف حول تفسيره . هل ترى هذا الرأى ؟ واذا كنت تراه فما تعليلك له ؟**

ـ لا أرى هذا الرأى ، وانما ارى اننا على الاقل قـــد استطعنا أن نقرأ الاداب الاوربية ، ونحاول تقليدها ، ثم لم نلبث ان تجاوزنا التقليد الى الابتكار ، ووطنا الادب العربى القديم : القصص ، والادب المسرحى ، والنقـــد . وليس معنى هذا اننا نستطيع ان نستغنى عن الاداب الاجنبية على اختلاف لغاتها . فنحن نريد لأدبنا العربى ان يكون

حيا ، والأدب الحى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة هو الأدب الذى يأخذ ويعطى . وقد بدأنا بالاخذ . ثم جعلنا الآن نعطى ، وجعلت كتبنا تترجم الى اللغات المختلفة ، وليس هذا بالقليل ..

**( مارس ١٩٦٣ )**

— ٢ —

# توفيق الحكيم

❋ كيف نفرق بين الأدب الحق حين يعالج الجنس ، وبين الكتابة الرخيصة ..

❋ أنا عملة ضائعة أبحث عن نفسى وسط أكوام من القش ..

❋ العمل الفنى الكامل هو الرفيع فنيا ، النافع انسانيا واجتماعيا ..

منذ زمن بعيد وهو يستأثر بأكبر قدر من اهتمـــام الكتاب والقراء على السواء ، فأحاطت به هالات من الاثارة والغموض لا تدرى مدى نصيبه فى صنعها .. فهو مرة عدو المرأة ، ومرة حبيس « البرج العاجى » ، وثالثة « راهب الفكر » ، ورابعة « صديق العصا والحمار » .. يتهمونه حينا بالبخل والشح ويروون عنه نوادر تفوق حـــكايات « أشعب » و « أرباجون » ، ويصورونه حينا آخـــر سارحا شاردا لا يكاد يعى شيئا مما يدور حوله ..

على أن ذلك كله اذا كان موضع جدل وخلاف ، فالاتفاق منعقد حول دوره الخطير فى أدبنا . والميادين العديدة التى ارتادها فى مجالات المسرحية والقصة والمقال تشهد كلهـا بمدى أصالته وبفضله العميم على من جاء بعده من الادباء..

وما من مرة جلست اليـــــه ـ وقد جلست اليه كثيرا خلال العامين الماضيين ـ وسمعت أحاديثـــه العميقـــة المتحمسة فى كل مجالات الفن والفكر ، الا وتذكرت شكوى الاديب الروسى « تشيخوف » من أنه ليس هنـــاك كاتب اختزال متفرغ يقيم بصفة دائمة بجـــوار « تولستوى »

ليسجل كل ما يتفوه به الحكيم الشيخ من أفكار رائعة على غير انتظار • وقد حاول « تشيخوف » أن يقنع الاديب الشاب « سولرز ـ هيتسكى » بالقيام بهذه المهمة لان « تولستوى » كان مغرما به وكثيرا ما حدثه بأحاديث هامة ..

ولكم تمنيت لو وجد الاديب الذى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة مع توفيق الحكيم ، ليخرج علينا بعد ذلك بصورة رائعة صادقة لاحاديثه الحارة المتدفقة ، تكمل الصورة التى صنعها لنفسه بكتاباته العديدة ، وتصحح الصورة الاخرى المهزوزة التى رسمتها الصحافة له .. وان كنت أدرك مع ذلك أن تحقيق هذه المهمة ليس بالامر اليسير ، فتوفيق الحكيم لا يألف الناس بسهولة ، ولايثق بهم الا بعد اختبارات دقيقة شاقة تستغرق زمنا طويلا ، وهو لا يمكن أن ينطلق فى التعبير عن أفكاره على سجيته الا اذا ألف من يتحدث اليه ووثق به ، وحتى بعد ذلك لابد أن يطمئن الى أن ما يقوله لن يسجل ولن ينقل عنه ، فاذا استشعر أى نية لذلك لم يتردد فى تحذيرك وصرفك عما تحاوله بكل وسيلة ممكنة • فما أكثر ما سألته فى موضوعات تتصل بأدبه وحياته فلم يتردد فى الاجابة المسهبة المطولة ، وما أكثر ما تحدث الى عن كثير من ذكرياته وآرائه دون أن أسأله ، ولكن ما أن أعلنته برغبتى فى أن أجرى معه حديثا حتى تردد ، وحاول اقناعى بشتى الحجج بألا ضرورة لمثل هذا الحديث ، واحتاج الامر الى مناقشات عديدة وصمود من جانبى قبل أن يقبل الاجابة على أسئلتى ، ولكنه لم يجب عليها كلها ، بل اختار مايقرب من ثلثها واعتذر عن الباقى بأعذار مختلفة ، فمنها ماأحالنى الى كتبه للعثور على الاجابة فيها ، ومنها ما قال ان الاجابة عليه من شأن النقاد وليست من شأنه هو ، ومنها ما رأى

أن الاجابة عليه تحتاج الى تأليف كتاب ٠٠ ومع ذلك فقد كانت الحصيلة التى خرجت بها منه كبيرة نسبيا ، ذلك أنى كنت قد احتطت للأمر وأعددت أكثر من ثلاثين سؤالا فضلا عما أثارته اجاباته من اسئلة لم أكن قد أعددتها من قبل ٠٠ وهكذا كان التقليل الذى أجاب عليه كثيرا بالنسبة لما عرف عن حرصه الشديد فيما يدلى به من أحاديث ٠٠



**• بدأت بسؤاله عن حقيقة موقفه من المرأة ، ومدى صدق وصفه الشائع بأنه « عدو المرأة » وهل طرأ تغير أو تطور على هذا الموقف ؟ فجاءت اجابته تقول :**

ـ ربما تدهش اذا قلت لك أن موقفى من المرأة لم يتغير على الاطلاق فى أى مرحلة من مراحل العمر ، وان هناك فرقا كبيرا بين شعورى الخاص نحوها وشعورى العام ، فشعورى الخاص نحو المرأة تجده فى كل ما كتبت : شعور المحبة أو ما هو أكثر من المحبة ، أما شعورى العام نحو المرأة باعتبارها تطالب فى المجتمع بوظيفة تشابه وظيفة الرجل تماما ، فهذا هو ما أخالفها فيه ، ولم تتغير طبيعة هذا الخلاف منذ مسرحية « المرأة الجديدة » حتى اليوم الا قليلا جدا ٠ فأساس الخلاف هو ما تزعمه المرأة من أنها مساوية للرجل فى كل شىء وما تريده من أن تكون مثله فى كل عمل من أعمال الحياة ٠ وقد تضخم عندها هذا الاحساس الى درجة تكاد تكون مرضية ، وبصورة يمكن أن نسميها « عقدة الرجل » ، وهنا موضع الخلاف بينى وبينها

والسبب فى « عقدة الرجل » عند المرأة ربما كان ما ترسب من أجيال عديدة فى كل المجتمعات من تفضيل الذكر على الانثى ، وفرح الأهل حين يسمعون أن المولود ذكر ، وحزنهم اذا كان أنثى ، ولعل ذلك يعطى المرأة

العذر والحق فى أن تصاب بهذه العقدة ، ولكن شعورى الخاص أن المرأة مخطئة حين تتعقد لهذا السبب ، كما لا أبرىء المجتمع من مسئولية هذا الخطأ الجماعى المتأصل منذ القدم فى تفضيل الذكر على الانثى تفضيلا مطلقا جزافيا .. لعل المجتمعات القديمة كانت معذورة لان الرجل هو الذى يحارب ويتحمل مشاق الحياة الجسدية الضرورية ، ولكن هل هناك أمل فى أن تصحح المجتمعات المقبلة فكرتها عن المرأة فتجعلها فى مكانة مساوية فى الاهمية لمكانة الرجل ، فيسر الرجل حين يرزق بأنثى نفس السرور الذى يشعر به حين يرزق بذكر ؟!

ان هذا لو تحقق وزال من المجتمع هذا التفريق فان العقدة التى حدثتك عنها ـ عقدة الرجل ـ ستزول بدورها من شعور المرأة وتفكيرها

وموقفى اذن هو ضد هذه العقدة عند المرأة وليس كراهية فى المرأة ذاتها ، ولعل هذا هو الذى جعل كثيرا من النقاد والقراء يلاحظون شيئا من التناقض فى هذا الموقف . فكثيرا ما سمعت من بعضهم ، وعلى الاخص من المرأة ذاتها ـ قارئة أو ناقدة ـ عبارات الدهشة من بعض كتاباتى ، لانها تفيض حبا وتقديرا للمرأة ولا يمكن أن تصدر عن شخص يكرهها . والواقع أنى أحيانا ـ ربما دون تخطيط سابق متعمد ـ أصور المرأة فى صورة مشرفة جدا ، مثل « ايزيس » ، والغانية فى مسرحية « السلطان الحائر » ، ولكن هؤلاء يتساءلون من جهة أخرى عن سر ومصدر تسميتى « عدو المرأة » والحقيقة أنه ليست هناك عداوة ، بل خلاف حول عقدة الرجل عند المرأة ، فأنا لا أريد للمرأة أن تضع فى حياتها دائما هذا السم المروع الفظيع الذى يفسد عليها حياتها حين تضع

نصب عينيها بصفة مستمرة الرجل ومصيره ورسالته

وليس معنى هـذا أنى أنكر على المرأة حق العمل والكفاح ، فالعكس هو الصحيح ، بل أنا مؤمن بأن المرأة تكون أحيانا أكثر قدرة على الكفاح من الرجل · كل ماأنكره عليها هو هذه العقدة المرضية المستولية عليها ، ورغبتها فى محاكاة الرجل الى درجة مضحكة فى بعض الاحيان ، فاذا لبس البنطلون لبست مثـله ، واذا احترف عملا جعلت همها أن تقوم بنفس العمل لا لشيء الا لتثبت أنها ليست أقل قدرة منه

وهذا الموقف يجعل المرأة تبدو أحيانا فى مظهر بعيد عن الجدية والصدق والاخلاص مع نفسها ، وأنا ـ لتقديرى للمرأة ـ أنزهها دائما عن أن تكون مجرد ببغاء أو قرد كل مهمته المحاكاة،ولا أريدها أن تتفرد بالشخصية الخاصة التى استطاعت أن تكتشفها فى تشابهها مع الرجل ، ولكنى أريدها أن تكتشف نفسها وتتعرف الى عناصر أصالتها هى ، وهذا هو كل موقفى من المرأة

## منطق المرأة

**● ولكنى الاحظ أنك فى كثير من كتاباتك تصور المرأة ذات طبيعة مختلفة تمام الاختلاف عن طبيعة الرجل وكثيرا ما تكون ادنى منه ·· على الاقل من الناحية العقلية ··**

ـ أما أنها مختلفة عن الرجل فهذا صحيح ، وأما أنها أدنى عقليا فهذا ما لا أعتقده ·· وما ترى أنه أدنى تتمثل فيه طبيعتها وأنوثتها وشخصيتها المتميزة · أنا أفضل امرأة تجيد الزينة فى موضعها والبكاء فى موضعه وتظهر لنا طبيعتها الحقيقية بكل صدق واخلاص عن تلك المرأة

المسخ التى تريد أن ترتدى طبيعة غير طبيعتها لمجرد أن تقول أنا لست أقل من الرجـل ! وبعضهن يصنعن ذلك بالفعل ، فقد أخذن يدخن الغليون والسيجار الكبـــير متشبهات بالرجال ..

وطبيعة المرأة ليست أدنى من طبيعة الرجل فى رأيى، ولكنها مختلفة عنها ، فهى من الناحيـــة العقليـــة تفكر تفكيرها الخاص ، ولها منطقها الخاص المختلف عن تفكير الرجل ومنطقه ..

**● كيف تفسر اذن سخرياتك الكثيرة من منطق المرأة وتصرفاتها ؟**

ـ اذا كان فى بعض كتاباتى ما يمكن أن يعتبر سخرية من المرأة ، فليس المقصود بهذه السخرية جرحها ، بل أن أظهر اختلاف تفكيرها عن تفكير الرجل . وهذا يثير فينا نحن الرجال خصوصا ، وفى المرأة أيضا ، بعض السخط أو الضحك ، لا لأن المؤلف أراد ذلك ، ولكن لأن المجتمع اعتاد أن يجعل منطق الرجل وتفكيره هو المقياس الحقيقى فى حين أن عواطف المرأةودموعها لا تثير فينا غيرالابتسام. ومن يدرى ؟ لعل الحقيقة غير ذلك ، وأن القيم السـائدة بيننا لا تعدو أن تكون أوضاعا اجتماعية قديمـــة تعيش فينا . والدليل على ذلك أن المرأة تتغلب علينا دائمـا بدموعها ومنطقها وتحقق كل ما تريد ، ألا يدلك ذلك على أنها على حق ، وأنها تستخدم وسائل أفعل من وســائل الرجل ، وان كان هذا لا يمنع أن التصوير الفنى لهــذه الوسائل قد لا تسر له المرأة

**● بالاضافة الى موقفك العام من المرأة من الممكن أن نلمس موقفا خاصا لك من المرأة المصرية تغلب عليـــه الاستهانة والتحقير ، فما أسباب هذا الموقف الخاص ؟**

ـ هـذا الموقف من المـرأة المصرية قاصر على الثقافة وحدها ، وفى مرحلة معينة من مراحل تطورنا الاجتماعى، خصوصا المراحل السـابقة حين كان تعليم البنات فى نطاق محدود جدا ، ولم تكن القراءة والاطلاع وكل مطالب الثقافة من الامور التى تشـغل المرأة المصرية والشرقية عموما فى المراحل الاولى التى تلت السفور مباشرة ،ولكن ذلك عارض يزول مع الزمن ، وقد زال بالفعل جزء كبير منه ، وأصبحنا نجد أمثلة رائعة من نسائنا لا فارق كثيرا بينهن وبين المرأة المثقفة فى أى بلد متحضر . وكتاباتى التى ظهر فيها هذا المعنى الذى تشير اليـه انما كانت تنصب على مرحلة اجتزناها والحمد لله

## الفشل فى الحب

**● أوحيت لنا فى كثير من كتاباتك أن الفشـل فى الحب من أهم عناصر نجاحك الفنى ، أولست القـائل « ان صاحب الحياة السعيدة يعيشها ولا يكتبها » .. فالى أى مدى يصدق هذا الفهم على انتاجك الادبى ؟**

ـ اذا كان المقصود بالحب مغامرات الشباب الطارئة ، فانها لا يمكن أن ترقى الى ما نسميه الحب بمعناه المرتفع أو الباقى كما يتحقق فى حياة الاسرة مثلا ، لذلك فاننـا عندما نكتب فى القصص عن مرحلة الشـباب فان الذى يهم الفنان فى ذلك الوقت هو أن يبرز نواحى ألمـه بصدق أمام العواطف المختلفة ،وأن يتجنب الظهور بمظهر المتباهى المفاخر بانتصاراته العاطفية ، لان هذه النتائج ليست مما يهم التصوير العاطفى الحقيقى بالقدر الذى تهمه لحظات الشعور بالحـرمان والالم ، فهى التى تصهر النفس ، ولذلك فان ما نكتبه أحيانا يتجه هذا الاتجاه ، وكثير من

الفنانين يعنون بتصوير هذه المشـــاعر لدواعى التحليل النفسى مثلا ..

وفى رأيى أن تصوير حالة الشبع العاطفى عمليـــة ممجوجة ثقيلة الدم ، أشبه بمن يحدثك عن تفصـــيلات وجبة دسمة اكلها ، فى حين أن من يحدثك عن جوعـــه وحرمانه أنبل وأقرب لنفسك ومشاركتك . وهذا هـــو الفرق بين كاتب الادب الجنسي وكاتب الادب العاطفى .. الاول أكل وشبع والآخر لم يأكل . وفى روايتى «الرباط المقدس » عالجت الناحيتين ، المرأة التى تعانى من الجوع الجنسى ، والراهب المحروم جنسيا ، فوجـــود الناحيتين جعل الرواية مقبولة . أما لو كان المقصـــــود هو ابراز نواحى المتعة الجنســـية فقط لاصبحت الرواية مظاهرة جنسية ..

## الاثارة الجنسية

**ه ها أنت ترى ان الحديث قد تطرق بنا الى مشكلة تشغل الاذهان هـــذه الايام .. كيف نفرق بين الادب الحقيقى حين يتعرض لموقف جنسي وبين الكتابة الرخيصة التى تصور المواقف الجنسية بقصد الاثارة والرواج ؟**

ــ الفارق بينهما هو نية الكاتب وفلسفته ، وهذا شيء لا يمكن الحكم عليه الا بشعور القارىء وما خرج به مـــن القصة أو العمل الفنى ، فاذا خرجت من مطالعة القصـــة باحساس المتعة الجســــدية فقط ، وكان هذا هو كل ما ترسب فى نفسك منها فأنت أمام عمل الغرض منـــه الاثارة الجنسية ، لان هذا هو ما حصلته منه فعلا . ولكن عندما تبقى فى نفسك مبادىء أخرى تترسب من الموقف الجنسى ، بمعنى أنك عندما تطالع عملا أدبيا موضـــوعه الجنس ولكنه يؤدى بك الى التفكير فى شيء اجتمـــاعى

**أو روحى أو فكرى ، فأنك فى هذه الحـــالة لا تكون أمام** عمل القصد منه الاثارة الجنسية لا أكثر

مثال ذلك كتاب لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » لقد صورت فيه مواقف جنســـية كأصـــدق بل كأفظع ما يمكن أن يصور فى هذا المجال ، ولكن كل هذه الصور تؤدى بك فى النهــــاية الى فكرة معينة وفلسفة محددة أرادها المؤلف ، ويدركها القارىء الذى يعـرف ماذا كان يتفشى فى المجتمع الانجليزى اذ ذاك من عـــدم مبـــالاة بالناحية الجنسية فى الحياة الزوجية ، فعنـــدما يقول لنا « لورانس » ان الحياة فى انجلترا وصلت الى درجـة من الانحراف عن الطبيعة لابد معها من هزة ، وقد حاول هو أن يحدث هذه الهزة بكتاباته، فآننا نجد بعض المفكرين يعتبرونه لذلك كاتبا أخلاقيا رغم ما فى رواياته من مواقف جنسية شديدة الصراحة والوضوح

## الترجمة الذاتية والفن

**● الى أى حد نستطيع أن نعتبر « عودة الروح » ، و « يوميات نائب فى الارياف » و « عصفور من الشرق » و « زهرة العمر » و « راقصة المعبد » ، و « الرباط المقدس» تراجم ذاتية لك ؟**

ــ الواقع أن سؤالك هذا يثير مشـــكلة أدبية قديمة ، فحيثما يوجد أدب تصويرى للعواطف والمشاعر يصـــبح من الصعب أن تفصل ما هو ترجمة ذاتية عما هو عمـــل فنى موضوعى خارج عن ذات الفنان • فمثلا الى أى مدى يمكن أن تسمى بعض روايات دستويفسكى تراجم ذاتية، مثل « المقامر » و « رسائل من بيت الموتى » وغيرهما ممـــا نعرف تماما مطابقة بعض وقائعها لوقائع حياة المؤلف ؟ • •

وهناك أمثلة كثيرة لذلك ٠٠ « ديكنز » مثلا وما نعرفه عن طفولته ثم ما ظهر فى رواياته متصلا بهذه الوقائع ٠٠

الواقع أن القصاص أو صاحب العمل الفنى الذى يصور فيه جانبا من حياة الناس والاشخاص لا يعطينا ترجمة ذاتية حقيقية حتى وان تطابقت الوقائع والشخصيات والطباع مع ما نعرفه عنه وعمن حوله ، وهو فى نفس الوقت لا يعطينا عملا منفصلا عن ذاته تماما ، بل يقدم عجينة أو طبخة تمتزج فيها وقائع حقيقية مع وقائع متخيلة مع مشاعر وتأملات صادقة ومفترضة ، وكل هذا يقلب تقليبا جيدا ويمزج مزجا بارعا ليصب فى قالب نسميه القصة او الرواية أو غير ذلك من الانواع الادبية

ولذلك لا أستطيع أن أسمى أى عمل فنى ترجمةذاتية الا اذا كان مكتوبا بهذه النية ولهذا الغرض بالضبط ،أى أن يقول لنا المؤلف هذه هى مذكراتى ، أو هذه هى حياتى ، ويكتبها بأسلوب السرد المباشر لحياته ٠ أما اذا صب هذه الحياة فى قالب روائى أو فني أيا كان فانه فى الحال يصبح عملا فنيا لا ينبغى لنا بأية حال من الاحوال أن نسميه ترجمة ذاتية ، وان كان للناقد أحيانا أن يستشف من هذا العمل الفنى بعض القرائن التى تعينه على رسم صورة ذاتية للمؤلف أو عصره ، ولكن على أن يكون ذلك مجرد قرائن من اجتهاد الناقد أو الدارس وتحت مسئوليته الشخصية ، وليس له بأى حال من الاحوال أن يستند إلى هذا العمل الفنى باعتباره ترجمة ذاتية للمؤلف ، لانه متى دخلت يد الفن والصياغة الفنية فى عمل من الاعمال لم يعد بوسعنا أن نفرز أو نميز بين ما هو حقيقى وما هو متخيل ، فالفن هو الفن والترجمة الذاتية هى الترجمة الذاتية

**● أن ما دفعنى الى توجيه سؤالى السابق هـو تلك المشابهات الكثيرة بين أبطال هـذه الكتب وبينك فى مراحل مختلفة من حياتك .. ولقد دفعت هذه المشابهات باحثا نابها كالمرحوم « اسماعيل أدهم » الى اعتبـار كل من « عودة الروح » و « عصـفور من الشرق » ترجمة ذاتية لك ..**

ـ وجود تشابه بين حياة أبطال هذه الروايات وبـين حياتى لا يمكن أن يعطى النـاقد أو الدارس الحق فى اعتبارها وثائق تاريخية دقيقـة ، وذلك لانها كما قلت اختلطت فيها عوامل كثيرة وعناصر مختلفة منها ما هـو حقيقى وماهو غير حقيقى ، لان الاعتبارات الفنية تنسينا عند الكتابة أن ننقى الوقائع الحقيقية مما تقتضيه ظروف الحبكة الروائية . ولذلك فان من يعتمد على هذه الاعمال باعتبارها وثائق تاريخية لابد أن يتعـرض للوقوع فى الخطأ . كل ما يمكن فى هذا الصدد هو أن تعتبر هـذه الاعمال مصادر تنوير تكميلية

**● من الممكن اذن أن نعتبر هذه الكتب صـورة عامة لتطورك الفكرى والعاطفى ..**

ـ يصح أن تكون كذلك ، ولكن حتى هذه الصـورة دخلها جزء كبير من الخيال ، فاذا اسـتطاع الانسان أن يذكر حقيقة الوقائع المجردة قبل أن تصاغ فى القصص ثم بعد أن صـارت جزءا من القصة ، فان الفارق بين الحالين سيكون مثيرا للدهشة

ان ما نسميه من الروايات تراجم ذاتيـة يكون فى الغالب مبالغـا فيه ، فأغلب القصص والروايات التى ظهرت حتى الآن فى جميع اللغات اذا فحصناها جيـدا لوجدناها تقوم على تجـارب ذاتية للمؤلف . وعلى ذلك

فاما أن تكون الرواية فى أغلبها فنا يعتمد على التجارب الذاتية للمؤلف ، وحين نقول ذاتية لا نقصد شخص المؤلف فقط ، بل كذلك الاشخاص المقربين اليه فى بيئته ومجتمعه ، واما ألا نقرن كلمة الترجمة الذاتية بأى رواية ما دامت قد اتخذت شكل الرواية ودخلت في القالب الروائى باعتبار أن ذلك شيء بديهى . وفى هذه الحالة لا نطلق كلمة الترجمة الذاتية الا على ما تدل عليه فعلا من حيث الحقيقة والنوع . وربما كان هذا أسلم ، لانه حتى فى الحالات التى يبدو فيها للناقد أن الرواية موضوعية ، أى بعيدة عن شخص المؤلف ، فان الفحص الدقيق سيدلنا قطعا على أن ملامح الشخصيات لا يمكن أن تكون متخيلة كل التخيل الا اذا كان المؤلف غير صادق أو كان يصنع عالما لا وجود له مثل شخصيات « روكامبول » و « طرزان » و « أرسين لوبين »

وما دام المؤلف لم يقل صراحة أن كتابه ترجمة ذاتية له فلابد أن نحتاط فى اعتبارها كذلك

## الحمار والعصا

**● ما حكاية العصا والحمار معك ؟ .. يخيل الى أحيانا أنهما ليسا أكثر من وسيلتين فنيتين لاستخدام الحوار الذى برعت فيه ..**

ــ من الممكن ، ومن الأسهل ، أن أقول انهما وسيلتان فنيتان لاستخدام الحوار ، وربما يبدو الامر كذلك لمن لا يريد أن يتحرى حقيقة الامر ، وعندئذ يكون مصيبا فى اعتبارهما وسيلتين فنيتين لا أكثر،ولكن الذى يعرفنى شخصيا سيرى معى العصا دائما لا تبرح يدى ، واذا تحرى تاريخها عرف أنها منذ سنة ١٩٣٠ هى هى لم

تتغير • اشتريتها وقتذاك من طنطا حيث كنت أعمل وكيلا للنيابة • فالعصا اذن ليست مجرد وسيلة فنية ، بل هى حقيقة واقعه لها دورها فى حياة صاحبها • ومن الطبيعى بعد ذلك انه اذا أراد يوما استخدام وسيلة لاجراء الحوار ، فسيكون اهمال العصا التى لازمته كل هذه الاعوام جريمة فى حقها ، وهى أولى من كل الناس بهذا الحديث لانها عاصرت ورأت طوال هذه المدة كثيرا من الاشخاص والاحداث

والحمار قد يبدو هو الآخر وسيلة فنية صالحة جدا للحديث ، وقد استخدمها كتاب كثيرون لما للحمار من صفات تغرى بمحاورته ، ولكن من يريد ان يعرف حقيقة الحمار عندى فسيجد أيضا أن له وجودا فعليا منذ الصبا حين اشتروا لى جحشا صغيرا بثمن زهيد ، وقد ذكرت ذلك فى مقدمة كتابى « حمارى قال لى » ، كما قدر لى بعد ذلك أن أشترى حمارا آخر عام ١٩٤٠ وكنت قد اصبحت موظفا ، وهو الذى أوحى الى بكتابى « حمار الحكيم » ••

## اشاعة البخل !

**• ما رأيك فيما يشاع كثيرا عن بخلك ؟ •• هل لهذا البخل ـ اذا صح ـ صلة بتفضيلك لشكل المسرحية وهو كما نعلم أكثر الاشكال الادبية ميلا للاقتصاد فى الكلمات ؟! ••**

ـ لا أريد أن أدافع عن نفسى ، وأنفى عنها خصلة من الخصال السيئة كالبخل او غيره ، لانى لم اعبأ بالدفاع عن نفسى فى أى موقف من المواقف ، بل كنت دائما

أقرب الى تأييد التهم التى توجه الى من محاولة دحضها ، فالسكوت على التهمة أو تركها بلا دفاع أسهل بكثير من بذل الجهود فى دحضها ، ومن يدرى لعل هذا الضن بالمجهود الذى يبذل فى دحض تهمة البخل مثلا هو أيضا من قبيل البخل !

على كل حال اذا أردت أنت أن تدافع عني فباستطاعتك أن تسمى البخل اقتصادا مثلا ، فأنا فعلا أحب الاقتصاد فيما لا فائدة فيه من نفقة وغيرها ..

وعندما ندخل الفن من باب الاقتصاد فاننا نجد أن أنسب الاشكال الفنية لمن يرغب فى الاقتصاد هو بالفعل الشكل المسرحى ، فالعدو اللدود للمسرحية هو الاسراف ، والمؤلف السخي بالكلمات والمترادفات والاسترسالات يلحق بالمسرحية أبلغ الضرر . فأنت فى المسرحية محدد بحيز معين من الوقت ومن عدد الكلمات والصفحات ، ويجب أن تكون خازنا ورقيبا شديد اليقظة على أشخاصك فلا تجعل احدهم يطغى بكلام أزيد مما ينبغى ، وكلما استطعت ان تضغط حوارك وتجعله يصيب ويؤثر بغير اسراف ولا دردشة ولا انفاق بغير حساب ، فانك تكون أقرب للاجادة المسرحية . لذلك أسمى الفن المسرحى بالفن الاقتصادى ..

وهنالك بعد ذلك مسألة تغرى حقا ببحث النقاد ودرسهم ، فيما لو أمكنهم متابعة حياة كبار المؤلفين المسرحيين لمعرفة مدى اتصافهم بالبخل من قريب أو من بعيد ، فنحن نعلم مثلا أن شكسبير كان مرابيا فى آخر أيامه ، فهل يا ترى كان يضن بالمال ويوصف بالبخل ؟ . وموليير مثلا ما صلته بالبخل ؟ .. أما أنا والحمد لله فلست مرابيا بعد ، ولكنى احب أن أكون كذلك لو صح

أن شكسبير كان مرابيا حقا ، فالتشبه بأمثاله فلاح وأى فلاح ·· !

## المسرح والشعر

**● حديثك عن خصائص الشكل المسرحى يغرينى بأن أسألك سؤالا يشغلنى كثيرا حول العلاقة بين الشعر والمسرح ··**

ـ هناك مسرحيات نثرية عادية جدا ، ولكنك تشم منها رائحة الشعر فى حين أن هناك مسرحيات منظومة نظما جيدا لا تشم منها أى رائحة تمت للشعر . فالشعر فى المسرحية ـ اذا لم يكن المقصود به النظم ـ كالعطر فى الزهرة والضوء فى المصباح ، أى أنه شىء لا يلمس بمجرد لمس الزهرة ، ولا يقبض عليه بمجرد امساكك بالمصباح · وقد قلت مرة فى هذا المجال « ان الشعر ليس النعناع ولكنه روح النعناع » ، لذلك لا استطيع أن أحدد لك طبيعة العلاقة بين المسرح والشعر اذا كان المقصود بالشعر هو ذلك الشىء الذى لا يمكن لمسه بصورة مادية

أما اذا كان المقصود هو المسرحية المنظومة ، فان النظم وحده لا يجعل الكلام شعرا ، وكل ما يمكن أن يقال هنا انها مسرحية منظومة ، فاذا تضوعت منها شاعرية ، أى ذلك العطر والضوء وروح النعناع ، فقد اصبحت المسرحية الشعرية الكاملة ، والا كنا أمام مسرحية منظومة لا اكثر

**● هل تعتقد أن وجود هذا العنصر الشاعرى فى المسرحية يزيد من قوتها وجمالها ؟ وما هى الالوان المسرحية التى يناسبها هذا العنصر اكثر من غيرها ؟**

ـ لا شك أن العنصر الشاعرى يزيد من قوة المسرحية

وجمالها ، لانه الشيء الزائد على اطارها المـــادى ، وحتى المسرحية الواقعية أو الفكاهية ، أو أى نوع مسرحى آخر لا يفترض فيه وجود الشاعرية ، اذا تضوعت منه ــ رغم واقعيته او هزله وضحكه ــ رائحة شـــعرية ، فان ذلك يزيد قطعا من القيمة الادبية والفنية للمسرحية

أما تحليل كلمة الشاعرية فى هذا المجال فهو صعب جدا ، اذ ما هو تحليل العطر أو الضوء او روح النعناع ؟ كل ما يمكن أن يقال هو أن الشاعرية فى المسرحيـــة بمثابة انبعاث شيء غير مرئى ولا ملموس يحدث بمجـرد انبعاثه تأثيرا غير مفهوم فى نفسك ، ولكنك تشعر بعده كما لو كانت أشعة لا ترى قد كشفت لك عن عالم مجهول فالشاعرية اذن هى عملية كشف عن عالم مجهـــول . والقيمة الادبية تأتي هنا من أن هذا الكشف الشاعرى قد أضاف أبعادا غير متوقعة للبعد المادى المتوقع والمنظور

## لغة المسرح

**● الاحظ أنك كتبت مسرحياتك الاخـــيرة باللغـة الفصحى ، فهل معنى ذلك أنك عدلت عن الكتابة باللغـة العامية أو باللغة الوسطى التى دعوت اليهـا فى مسرحية (( الصفقة )) وما أنسب لغة للمسرح فى بلادنا ؟**

ــ أنسب لغة للمسرح هى اللغة العربية المبسطة التى تفهم فى كل البلاد العربية ، وهى اللغة العربية الصحيحة المبسطة التى تسمى بلغة الصحافة ، فهى أنسب لغـــة تكتب بها المسرحية حتى يمكن فهمها وتمثيلها فى كل بلد ينطق باللغة العربية ، خصوصا اذا طبعت المسرحية ، لانها حينئذ تكون موضوعة فى أداة الاتصال العامة التى

يفهمها كل اقليم داخل البلد الواحد من صعيدى وبحراوى ونوبى وغير ذلك ، كما يمكن فهمها فى كل أنحاء العالم العربى ..

أما التمثيل فهو متروك لكل بيئة حسب لهجتها ، فاذا رأت أن تجعل الممثلين ينطقون باللهجة الاقليمية فما عليهم الا أن ينطقوا الشخصيات بهذه اللهجة ، كما أن لهم أن يمثلوها باللغة التى كتبت بها اذا شاءوا . أما أن تكتب المسرحية وتطبع وتنشر من أول الامر بلهجة اقليمية خاصة فسيؤدى ذلك الى تفتيت الادب والفكر، واستحالة ايصاله الى كل من يتكلم باللغة العربية ، سواء فى البلد الواحد أو فى البلاد الاخرى المتعددة

وهناك أمر يدعو الى شىء من التفكير وهو امكان ارتفاع اللغة العامية قليلا الى مستوى يمكن معه أن تصبح لغة عامة يفهمها ويتذوقها كل شخص فى أى بيئة من البيئات العربية فى داخل البلد الواحد وفى مختلف البلاد . وفى هذه الحالة يجب أن تختفى من اللغة العامية كل الكلمات والعبارات ذات الصبغة المحلية البحتة مثل « يا دلعدى »، « اديله بالروسية » ، بمعنى أن يكون الكلام العامى له أساس صحيح عربى مثل : « الموضوع ده مهم جدا » ، « ولابد من كونك تساعدنى فى حل على أحسن وجه » . فأمثال هذه العبارات عربية سليمة ولكنها فى الوقت نفسه مما يدخل فى الحديث العامى العادى للاشخاص العاديين فى كل الاقطار العربية

لقد لاحظت اثناء دراستك لمسرحية « المرأة الجديدة » التعديلات التى أدخلتها على لغتها حين أعددتها للنشر ، فجعلت « الشنطة » « حقيبة » و « البرنيطة » « قبعة » وغير ذلك مما سجلته فى مقالك عنها ، كما حذفت كثيرا من

العبارات النابية ، وهذا ما أريده من كتـــــاب المسرح الشبان ، فليس المفروض أن يعودوا بنا الى لغة المسرح منذ أربعين سنة ، بل عليهم أن ينظفوا لغتهم العاميـــة ويتطوروا بها . وفى هذه الحالة تصبح الفصحى المبسطة لغة مسرح كتابة وتمثيلا ، كل ما هناك أنها ستقبل مزيدا من التبسيطات فنقول « ده » بدلا من « هذا » مع بعض التساهل فى النحو ، وضبط أواخر الكلمات ، فنقول : « هات لى كتاب اقرأه » بدلا من «هات لى كتاباً أقرؤه »

وهكذا نرتفع باللغة العامية عن المستوى الهابط الذى تصل اليه فى بعض المسرحيات ، ونجعلها لغة نظيفة بقدر الامكان ، ولا ضرر بعد ذلك من بعض التجـــاوزات أو التساهلات النحوية والصرفية

**● هل ترى أن يطبق ذلك على كل الالوان المسرحية بما فيها المسرحيات الهازلة أو « الفارس » ؟**

ـ فى كل ألوان المسرحيـــات يجب أن يكون الضحك نتيجة للمواقف ورســـــم الشخصيات وليس بالنكت والقفشات المحلية البحتة التى تعودنا أن نضحك منها منذ خمسين سنة او اكثر لبذاءتها ، اللهم الا اذا كان هنا او هناك كلمة من هذا القبيل فرضها الموقف فـــــلا بأس « فالقافية تحكم » كما يقولون

وكل ذلك قاصر على المسرحية المحلية العصرية ، أما غير ذلك من الموضوعات فانه يترك لتقدير الفنان ، فهو الذى يعرف بذوقه الفنى اللغة التى يتطلبها جو المسرحية ونوعها وما يتناسب معها

أما اللغة العامية القح الهابطة ، حتى لو كانت بعض الشخصيات تتكلمها فى الحياة الان ، فان المجتمع سوف يرفضها غدا ، اما لانه سيرتقى قطعا بحكم التنور السريع،

وأما لان الوعي الاجتماعي سيجعل وجود مثل هـــذه الشخصيات الهابطة فى لغتها نادرة الوجود ، مما يجعل المؤلف الذى يتصيدها من المجتمع أقرب الى التكلف منه الى الصدق ..

ومما يساعد على الارتقاء باللغة العامية ارتفاع الموضوعات نفسها وارتفاع مستوى المشـــــكلات التى تتناولها المسرحية ، فان ارتفاع المشكلة ورقى الموضوع نفســه يؤديان الى ارتفاع اللغة المستخدمة فى عرضه حتى وان كانت تدور على ألسنة أشخاص متوسطى الثقافة ، فى حين أنك اذا أتيت بأشخاص مثقفين وجعلتهم يتناولون موضوعا منحطا فى شبه « غرزة تنكيت » مثلا ، فاناللغة ستنحط بانحطاط الموضوع ..

وحيث أن المنظور والمفروض أن أدبنا المسرحى سيسير نحو السمو والارتفاع فى موضوعاته ومشـــــكلاته ، وسيتعمق فى دراسة نفسيات الاشخاص وتصوير المجتمع الدائم التطور الذى نعيش فيه ، فانه مما لا شك فيه أن المؤلفين سيستخدمون اللغة المناسبة لجدية هذه المشكلات المتعمقة ..

وخلاصة القول ان أساس اللغة العربية مفهوم لناجميعا فى كل البلاد العربية ، وكذلك نتلاقى فى بعض المحليات، فعلى كتاب المسرح أن يقللوا قدر الامكان من استخدام اللغة العامية الذاتية ، ويجتهدوا فى خلق لغـــــة عامية عمومية للبلد الواحد والبلاد العربية جميعا

وفى حوار الشخصيات المحلية يجوز مثلا أن نقـــول « دا راجل محترم » أو بلغة أحد الاقطار الشقيقة « هادا رجل محترم » ، ولكن يستحسن عدم تشجيع التعبيرات المحلية البحتة فى هذا المجال مثل : « دا راجل كروديا »

أو « هادا زلمه .. » ، وبذلك نتخلص من طريقة الاضحاك القديمة المبتذلة التى تعتمد على غرابة اللفظ بدلا من رسم الشخصية وطرافة الموقف

**● وما رأيك فيما يدعو اليه البعض من ترجمة روائع المسرح العالمى الى اللغة العامية ؟**

ـ أنا لا أوافق على ذلك ، لان اللغة العامية المحلية ستفقد المسرحية الاجنبية جوها الاصلى . واذا كان لابد من تقديم مسرحية أجنبية بلهجة محلية فان انسب طريقة لذلك هى الاقتباس ، أى نقل الجو ، لان اللغة العامية متصلة اتصالا وثيقا بالبيئة المحلية

## البحث عن أسلوب

**● هل تأثرت بأحد من كتاب المسرح المصرى السابقين عليك أو المعاصرين لك ؟**

ـ لقد نشأت فى مسرح يقوم على الترجمة والاقتباس ، وكتاب المسرح القائمون بذلك كانوا مجموعة موزعة بين المسارح المختلفة فى ذلك الوقت ، وقد وجدت نفسى بين هذه المجموعة أصنع ما يصنعون دون أن ألتفت الى واحد منهم بالذات

**● الملاحظ ان الكاتب المسرحى يبرز عادة اما فى التراجيديا أو فى الكوميديا وأنت برزت فى النوعين ، فكيف تفسر ذلك ؟ وأى اللونين أقرب لطبيعتك ؟**

ـ الواقع أن هذا ليس شرطا ، لان « شكسبير » نبغ فى النوعين ، أما فيما يختص بى فانى أبحث عن نفسى فى كل الانواع كمن يبحث عن عملة ضائعة فى أكوام قش ، ولعلى بطبيعتى أنفر من بكاء التراجيديا

وأميل الى أن أضحك وأســـخر ولو من نفسي ومن نتيجة بحثي الدائم ..

● **لقد كانت المرحلة الاولى من حياتك الفنية بحثـــا دائما عن أسلوب تتميز به . فمتى اعتقدت انك اهتديت الى أسلوبك ؟**

ـ وهل أنا اهتديت الى أسلوبي بعد ؟! ألم أقل لك من لحظة انى عملة ضائعة فى كومة من القش أبحث عن نفسى باستمرار ، وكلما أبصرت شيئا لامعا وسط القش وظننته العملة ومددت يدى لالتقاطها فرت من أمامى واختفت مرة اخرى وسط الظلام

● **فى مسرحيـــاتك قضايا انسانية عامة وقضـــايا اجتماعية محلية .. ترى ما القضية التى شـــغلتك أكثر من غيرها ؟**

ـ لا أستطيع تغليب جانب على آخر ، ولكن الذى يهمنى هو قضية الانسان فى صراعه مع القوى الاقوى منه ، ومع مشكلات مجتمعه سواء ما تعلق منها باعتباره فردا فى جماعة أو باعتباره محكوما أو حاكما ، أو باعتباره جماعة سياسية فى مجتمع يريد أن يتطور .. كل هذه القضايا تهمنى ، وتبرز أمامى كل منها فى الوقت الذى يتحتم عندى أن أهتم بها ، وهذا الوقت لست أنا الذى أحدده ولكن الظروف هى التى تفرضه على

## الالتزام السياسى

● **هل أفهم من ذلك انك ممن يؤمنون بالتزام الفنان التزاما اجتماعيا وسياسيا ؟**

ـ فى رأيى أن التزام الفنان سياسيا واجتماعيـــا

يجب أن يرجع أولا وأخيرا الى اقتناعه الخاص وايمـــانه الشخصى ، فاذا لم يكن مؤمنا تماما باتجاه سياسى بعينه فانه يحسن أن يكون صادقا مع نفسه لان كل شيء يغتفر للفن والفنان الا الكذب على نفسه وعلى النـــــاس ، واتخاذ المواقف المفتعلة لمجرد أن يقال انه اتخذ هـــذا الموقف الملتزم دون أن يكون قد اتخذه فى أعمـــاقه عن ايمان واقتناع ..

ومهما يكن من علاقة الفنان بالسياسة فما من فنـــان أيا كان يمكن أن يتنصل من مســــئوليته نحو عصره ومجتمعه ، وأنا شخصيا لا أستطيع أن أتصور فنـــانا بهذا الشكل خصوصا فى عصرنا الحاضر

فاذا كان من الممكن فى العصور الغابرة تصور كاتب عظيم مثل « جوته » يهتم اهتماما بالغا بمناقشة علميـــة بحتة ولا يهتم أو يشـــــعر بأن « نابليون » وجيوشه قد دهمت بلاده ألمانيا ، فان عصرنا الحاضر لا يمكن أن يتصور امكان حدوث ذلك لان عالميـــــة الادب والفن والعلم فى القرن الماضى كان يمكن أن توجد بعيدا عن معترك سياسى قد لا يمس الفرد ، عالما كان أو أديبا ، الا من بعيد ، ولكننا اليوم عندما ننظر الى السياســـة فى العالم فاننا نجدها لا تمس كيان الفرد نفسه ولا كيان المجتمع كله ، بل تمس أيضا صميم القيم التى يدافع عنها كل اديب وفنان

لذلك كانت كل كلمة يرن صداها فى العـــــالم فى مجال السياسة تمس كيان الفن والفنـــان مباشرة ، لان مصير العــــالم ومصير المجتمع الانســـــانى فى بلادنا وفيما يحيط بنا من بلاد انمـــا هو الموضــــوع الذى يجب أن يشغل الفنان والاديب . ومعنى هـــذا أنه ما من فن

أو أدب يمكن أن ينتج خارج هذا النطاق، وهـو مصير الانسان ..

**● ما قولك فى الادب الذاتى القاصر على عرض التجارب والتاملات الشخصيه بمعزل عن كل اهتمام اجتماعى أو سياسى ؟**

ــ نعم ، هناك فنان يهتم بمصير عصره كمواطن ولكنه لا يهتم به كفنان ، ينتج فنا لا علاقة له الا بـذاته . وهذا ممكن ، وهو يحدث كثيرا ، وربما نجد ذلك فى بيئة الشعراء والمصورين والنحاتين أكثر مما نجده فى بيئة الكتاب ، لان القلم أقرب أدوات التعبير الى الافصاح المباشر عن الكاتب ..

وهؤلاء المنعزلون من أهل الفن عموما ، وأهل القـلم خاصة ، يختلف الحكم فيهم ، فنحن لا يمكن أن نجبر أحدا على أن يعمل بخلاف ما تمليه عليه طبيعته والا كنا نجبره على التصنع والتكلف ، وهذا شر لا يمكن أن يؤدى اليه الادب والفن ، والمسألة غاية فى البساطة مع ذلك ، فاذا كنا نتيح للفنان حريته كاملة ، فنحن أيضا أحرار فى تقييمنا للاعمال الفنية ، فلا نمنح تقديرنا الا لمن يقدم لنا العمل الفنى الكامل ، وهو العمل الرفيع فنيا النافع انسانيا واجتماعيا ..

**( يونيو ١٩٦٤ )**

## — ٣ —

# محمود تيمور

* يتنازعني منذ فجر حياتي عاملان ، وتهيمن على وجداني زوحان ..

* باتت القصة سلطة ذات سيادة في الأدب العربي ..

* نصيحتي للأديب الناشيء أن يباعد بينه وبين النقد والنقاد ..

« .. وسبقت أنت الى شيء لا اعرف أن أحدا شاركك فيه فى الشرق العربى كله الى الآن . واذا ذهب أحـــد مذهبك ، أو جاء فيما بعد بخير مما جئت به ، فلن يستطيع أن يتفوق عليك ، لانك فتحت له الباب ، ومهـــدت له الطريق ، ويسرت له السعي واتحت له ان ينتج وان يمتاز وان يتفوق . هذا الذى تفوقت فيه وامتزت ، وسجلت به لنفسك خلودا فى تاريخ الادب العربى لا سبيل الى أن يمحى هو القصص على مذهبه الحديث فى العـــالم الغربى ..

وانك لتوفى حقك ، اذا قيل انك أديب عالمى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها .. ولا أكاد أصدق أن كاتبا مصريا مهما يكن شأنه قد وصل الى الجماهير المثقفة وغير المثقفة كما وصلت أنت اليها .. فلا تكاد تكتب ولا يكاد الناس يسمعون بعض ما تكتب حتى يصل الى قلوبهم كما يصل الفاتح فى المدينة التى يقهرها فيستأثر بها الاستئثار كله .. »

بهذه الكلمات استقبل عميد الادب العربى الدكتور طه

حسين الاستاذ محمود تيمور حين اختير عضوا بالمجمع اللغوى عام ١٩٤٧

والحق أن محمود تيمور واحد من حفنة قليلة من أدبائنا الكبار كان لها الفضل الاكبر فى بعث الحياة فى أوصال أدبنا العربى ، واثرائه بألوان فنية جديدة ، وكان لجهودهم الرائدة فيها أعمق الاثر فيما تلاهم من نتاج أدبى ترسم خطاهم واهتدى بهديهم

واذا كانت قد سبقت قصص محمود تيمور محاولات أخرى عديدة فى تأليف القصة العربية كمحاولات المويلحى ، ولطفى جمعة ، وطاهر لاشين ، ومحمد تيمور وغيرهم ، فالذى لا شك فيه أن هذه المحاولات لم تكن ، فى معظمها ، أكثر من ارهاصات أولية فى علاج القصة ، ظلت فى حاجة الى موهبة أصيلة ناضجة لتتحول الى قصص فنى مكتمل العناصر ، وكان محمود تيمور هو صاحب هذه الموهبة الاصيلة المثقفة التى أرست للقصة مكانا راسخا فى أدبنا العربى ، ولم يكن ليوفق الى شىء من ذلك لولا تلك المحاولات والارهاصات التى سبقته ومهدت لظهوره وبنفس الطريقة لم يكن نجيب محفوظ ومحمود البدوى ويوسف ادريس وغيرهم من فرسان الحلبة فى القصة والرواية المصرية ، لم يكونوا ليوفقوا لشىء مما وفقوا اليه من تقدم وتطور بقصتنا العربية لو لم يسبقهم تيمور ويضع لهم الاساس الثابت الوطيد ، وما زال الى اليوم يواكبهم بانتاجه الغزير المتنوع

وقد شاركتنا أكثر شعوب الارض فى الاعتراف بقيمة محمود تيمور والاستمتاع بفنه ، فترجمت تسعة من كتبه الى اللغة الفرنسية ، وثلاثة الى الالمانية ، وثلاث مجلدات ضخمة الى اللغة الروسية ، بالاضافة الى مؤلفات عديدة

ترجمت الى عشر لغات أخرى ، بحيث يصدق عليه أكثر من أى أديب من ادبائنا وصف « الاديب العالمى » الذى يقرأ بأكثر من خمس عشرة لغة ، كما ألفت عنه كتب ودراسات أكثر من أى أديب آخر من معاصريه ، فصدرت عنه خمسة كتب عدا الابحاث والمقالات والاحاديث العديدة فى مختلف الصحف والمجلات العربية

ومن الحقائق التى يشرف بها تيمور ، أنه وهـــو ابن الطبقة الارستقراطية الثرية ، استطاع أن يتجـــاوب فى الكثير من قصصه ورواياته مع أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة تجاوبا عجز عنه الكثيرون من الادباء الذين نشأوا فى هاتين الطبقتين ..

وقل أن تعثر على أديب من أدباء الاجيال اللاحقة على تيمور لم تكن له صلة وطيدة به ، ولم يتلق هداياه من الكتب ، وتوجيهاته الادبية ونصائحه الشفوية أو المكتوبة فهو لا يهمل رسالة واحدة من الرسائل العـــديدة التى يرسلها اليه الادباء الناشئون ، ولم يغلق بابه أبدا فى وجه أديب يطلب العون والتوجيه ، وما أكثر من أخذ بأيديهم فى خطواتهم الاولى فقـــدم كتبهم أو قدمهم الى الصحف ودور النشر ، بصورة تذكرنا بسلوك كبار الادباء فى أوربا وما يبذلونه من وقت وجهد فى معاونة الادباء الناشئين والاخذ بيدهم . وهو سلوك ما أحوجنا الى أن يقتدى به كثير من كبار أدبائنا

هذه المعانى وغيرها كانت تطوف برأسى وأنا أتوجـــه لتيمور بعدد من الاسئلة تسهم فى اضاءة جوانب من تفكيره ومزاجه الفنى ، وكعادته أجاب عليها فى طلاقة ويسر ودون كبير جهد ..

● **فى مؤلفاتك الاولى ميل واضح الى استخدام العامية**

**دون تحفظ ، ثم تحولت عنها ، فاذا بك تقاطعها مقاطعة التحريم ، بل تذهب الى حد نحت كلمات فصحى جديدة ، ووضع المعاجم ، متى حدث هذا التحول ؟ وما أسبابه ؟ وهل كان اختياركم عضوا بالمجمع اللغوى من بين هذه الاسباب ؟**

ــ وجدتنى ــ منذ فجر حياتى الادبيــــة ــ يتنازعنى عاملان جوهريان : عامل المحافظة على القديم والاعتداد به ، وعامل التجديد ومجاراة سنة التطور ..

عن أبى « أحمد تيمور » ورثت العامل الاول ، والى أخى « محمد تيمور » يرجع العامل الاخر . كان أبى من ذوى الحمية للغة ، لا يدخر وسعا فى سبيل احياء تراث العرب . وله فى شتى ميادين البحث العلمى واللغوى والتاريخى مؤلفات لها وزنها ، وانى لأضع على رأسها «معجم الالفاظ العامية » ، ذلك الذى تتــولى اليوم نشره الدار المصرية للتأليف والترجمة . وهو معجم يدرس الكلمات الشائعة فى حياتنا العامة ، ويردها الى أصولها ، وينقب فى الدخيل منها عن مقابله فى الفصيح . أما أخى « محمد تيمور » فقد كان أديبا فنانا ، نهل من الادب الفرنسى ما نهل ، وتأثر بالثقــافة الاوربية العصرية تأثرا استبانت ملامحه فيما هتف به من دعوات ، وفيما انشأ من قصص ومسرحيات

فأنا فى الحق مزاج من أبى وأخى .. ولعلك تعجب اذا قلت انى كنت فى محــــاولاتى القصصية الاولى أوثر المصطلحات العربية الفصحى على الكلمات المســتعملة الشائعة ، فاتخذت لفظ « المسرة » بدل « التليفون » ولفظ « الصفة » بدل « البوريه » ، هذا على حين أنى كنت أوثر العامية الصميمة لغة للحوار القصصى . وقد بدا ذلك واضحا فى بواكير مؤلفاتى « الشيخ جمعة » و «عم متولى»

و « الشيخ سيد العبيط »

وما زالت حياتى الأدبية صراعا بين المذهبين ، أو بين لغة الكتابة والتدوين والمشافهة والحديث

وفى وسعى أن أصارح بأن تجاربى فى التأليف طوال الاعوام السالفة أقنعتنى بأن الادب الجديد باسمة فى لغتنا العربية وحياتنا القومية يقوم على دعامتين : تعبير مشرق يعول أكبر ما يعول على بلاغة الفصحى وأساليبها البيانية ، وفن أصيل رقيق يرتوى من ينابيع الثقافة العصرية فى أوسع نطاق ..

ومهما يكن من أمرى ، فانى أعد نفسى امتدادا لشخصية أبى وشخصية أخى معا ، أحس روحيهما تهيمنان على ع لى ووجدانى ، وتوجهاننى الوجهة التى ترتضيانها بظهر الغيب فى عالمهما النورانى

وانى بذلك جد سعيد ..

**● عاصرت « المدرسة الحديثة » ، وكان لك دور واضح فيها ، فهلا حدثتنا عن بعض ذكرياتك عنها وعن أعضائها وناظرها « أحمد خيرى سعيد » وحقيقة الدور الذى قامت به فى حياتنا الفكرية فى مستهل هذا القرن ؟**

— أطلق الزميل المرحوم « أحمد خيرى سعيد » اسم « المدرسة الحديثة » عنوانا للرفقة الادبية التى التفت به فى « قهوة الفن » ، تناقش قضايا الادب العصرية . وكنت واحدا من الرفاق ، وقد أسلمنا « لخيرى » قياد الزعامة ، اذ كان أعلانا سنا ، وكانت شخصيته تتميز بالطرافة والحيوية وخفة الروح ، وكان فوق ذلك غيورا على الادب والفن غيرة لا تجارى

وكان هدف تلك المدرسة هو الوثوب بالادب وثبة جديدة تخرج به من دائرة التحفظ والتقاليد الموروثة الى رحاب فساح تلائم التطور الحديث فى العالم المتحضر ،

والى هذه الدعوة سبق أخي « محمد تيمور » اذ كان ينادي بالتجديد ، ويحث على خلق أدب يعبر عن شخصيتنا ، ويصور مجتمعنا ، ويمثل استجابتنا للحياة من حولنا .
وعلى ذلك السنن جرى الرواد الاول للمدرسة الحديثة ، وفي الصف الاول منهم « خيرى سعيد » و « طاهر لاشين » و « حسين فوزى » و « يحى حقى » و « محمود عزى » و « ابراهيم المصرى »

ومما لا أنساه لاخينا « خيرى سعيد » أنه كان منهوما بالاطلاع على الادب الاوربى ، تواقا أن يطلع الجيل الناشيء عليه ، حتى لقد أزمع أن يترجم ما ينتخب من المعلمة البريطانية . ولما علم بأنى أقتنى طبعة قديمة منها جعل يختلف الى دارنا فى حى « الحلمية » ويقضى ساعات طوالا وهو منكب على المجلدات الضخام يقلب الاوراق ويفتش فيها ويختار من محتوياتها ، ولم يكن فى وسعنا أن نعينه الا بأباريق القهوة ، نعدها له واحدا بعد آخر ، فى الفينة بعد الفينة ، وهو يرتشف الشراب فى وعى وفى غير وعى ..

وقد أكبرت فى « خيرى سعيد » أنه على رقة حاله وضئولة موارده المالية ، لم يكن يضن على تحقيق مشروعاته الادبية بكل ما يملك . وحين أنشأ مجلة « الفجر » بذل فى الانفاق على اخراجها ما بذل ، لا يبالى ربح أو لم يربح مسوقا بفكرته المثالية فى نشر أدب عصرى مبتكر ..

ومن الحق الاعتراف بأن شباب المدرسة الحديثة كانوا فى صدر حياتهم الادبية غير موفورى الحظ من المعرفة والتجربة والمرانة ، فجاءت بواكير كتاباتهم خفيفة الوزن ، ليس لها من القيمة الادبية ما تستطيع به مغالبة

الادب التقليدى وزحزحته عن المقام الاول فى الاعتبار ٠ ولكن الفضل الكبير لشباب المدرسة الحديثة هو ما بعثوه فى الجيل الصاعد من روح اليقظة والتوثب ، وما بشروا به من تطور فى الادب والفن ، وما بصروا به من اتجاهات تسلم الى تقدم وازدهار

**● هل ترى ان جيلكمأدى دوره كاملا فى خدمة الأدب؟ وما مدى تأثيره فى الأجيال اللاحقة ؟**

ــ حاول جيلنا أن ينقل الادب نقلة جديدة تلائم العصر الجديد ، وأحسبه قد نجح فى أداء هذه المهمة الى حـــد بعيـــد ٠٠

لقد انصرم أربعون عاما بل يزيد ، منذ قدم « محمـد تيمور » مجموعة قصصه « ما تراه العيون » على صفحات مجلة « السفور » وكانت يومئذ نماذج غضة ، أراد بها كاتبها أن يجارى الاداب العالمية العصرية فى انشـــاء اللون القصصى فى الادب العربى

وها نحن أولاء فى يومنا هذا نجد تلك البذور الصالحة وما تبعها من أمثالها قد حسن نباتها وزكا عودها ، حتى باتت القصة سلطة ذات ســيادة فى دولة الادب بين الناطقين بالضاد ٠ جذبت اليها كتابا كانوا بغيرها مشاغيل مثل « الدكتور طه حسين » و « ابراهيم عبد القـــادر المازنى » ، واستخلصت لها كتابا موهوبين ، مثل « توفيق الحكيم » و « نجيب محفوظ » وجاوزت نطاقهـــا المحلى الضيق الى محيط العالمية الارحب

وتلك هى الصحف والمجلات ودور النشر فى الغرب ، تواصل نشر نماذج من قصصنا العربى الناشىء ٠ ولا أقول ــ مغاليا ــ أن قصاصينا العرب قد كسبوا المعركة ولكنى

أقول – فى اعتدال – وقلبى مطمئن مستبشر ، بأنهم فى سبيل كسبها ..

ولن يمضى وقت طويل حتى تتبوأ القصة العربية مكانا سامقا فى أفق الادب العالمى

وان غدا لناظره قريب ..

**● فى حديث سابق لك معى حذرت الادباء الشبان من النقاد ، ونصحت لهم الا يكثروا من قراءتهم . وأن يأخذوا آراءهم بحذر ، لان مدرسة الأدباء الحقيقية هى النصوص الادبية الممتازة وحدها . هل قصدت بهذا التحذير النقاد على الاطلاق ، أو النقاد العرب وحدهم ؟ وهل يحق لنا أخذ هذه النصيحة على أنها تصوير لموقفك من النقـــــد والنقاد ؟**

– قصدت بقولى النقاد على وجه عام ، والنقاد العرب على وجه خاص . فقد عرفت من تجاربى ومن صـــلاتى بالادباء الناشئين أن الضرر الذى يلحق الاديب الناشىء حين تدور به تيارات النقد وتتنازعه أهواء النقاد أكبر من النفع الذى يفيـــــده بما يقرأ من آراء وما يتبين من نظرات ..

انى اعد الناقد آخر مرحلة ينشدها الأديب الناشىء فى حياته الادبية . والمراحل الاولى التى يجب أن يفرغ لهــا بجهده هى أن يستكمل حظه من الاطلاع على النصوص ، ومن دراستها دراسة واعية ، فالنصوص هى التى تذكى ملكاته وتنميها ، وهى التى تعمل على تكوين شخصية له ذات طابع متميز ، وهى التى تصقل ذوقه ، وتؤتيه القدرة على الفهم والمقارنة ، وتمهد له سبيل الابداع والافتنان ..

النقد – كالحديث – ذو شجون ، ووجهـــات النظر فى مذاهبه متعددة ، بل متضاربة ، وليس فى مســتطاع

الاديب الناشيء أن يقف منها موقف التثبت والاطمئنان . ذلك يستطيعه الأديب المتمرس ، العـــريق فى دراسته ، المحنك فى فنه ، فهو بخبرته وتجاربه قادر أن يمحص الآراء ، ويرجح منها ما يؤمن بأنه أهل للترجيح

والنقد بالنسبة للاديب الناشيء فرض واملاء ، شـــأنه شأن التعليم بالنسبة للتلميذ البادىء ، فيجب أن يقتصر فيه على القواعد المقررة ، والاصول المسلمه ، مما لا نزاع فيه ، ولا خلاف عليه . وأما النقد بالنسبة للاديب المتمكن فهو مدرجة الى مناقشة فطنة ، ومجــــادلة مثمرة ، لأن اختلاف الاراء فيه وليدة معرفة وتفكير وتأمل ، بمثل هذا النقد يستفيد الادب والادباء

والاديب الناشيء اذا صــــدم بالنقد القائم على تنــازع الآراء ، وتصارع الافكار ، وترددها بين التطرف والاعتدال، لم نأمن عليه أن يدور رأسه ، ويضطرب ذهنه ، ولا يلبث أن يصيبه من جراء الغذاء النقدى المتفلسف عسر هضم ، أو عسر تفكير وتأليف ، وربما لازمه ذلك فيما يستقبل من كتاباته ، فيفسد عليه سليقته ، ويجعله أسير نظريات غير مهضومة حق الهضم ، أو مفهومة كل الفهم

وأخشى ما أخشاه على ناشئة الادباء تلك النــــدوات الادبية التى يتصيد أصحابها الاديب الناشيء المسكين ، فيحصرونه فى أضيق مجال ، ويكتفونه كتفا ، ويجرون عليه عملية دق وعصر ، بأسلوب منهجي فلسفي تتعقــد فيه المصطلحات والتعليـــلات ، حتى يخرج ذلك الاديب الناشيء المسكين دائخا ، لا يعرف له وجهة سير

نصيحتى للأديب الناشيء أن يباعد بينه وبين النقــــد والنقاد ، حتى يشتد عوده ، وله بعد ذلك أن يقرأ ما يشاء وأن يلقى من يشاء ، وذلك لكى يظل بمنجاة من أن يترنح فى

مهب العواصف الهوج ، عواصف المذاهب والآراء والأهواء وهو بعد لين العريكة ، غض الاهاب

ليترك الاديب الناشىء نفسه على سجيتها ، حين يكتب .. لا يستلهم الا فطرته وملكته وفهمه . وليتحرر من كل ما يثقل عليه من التوجيهات ، وليرفع عن رأسه ذلك السيف المصلت الذى يهدده بالويل والثبور وعظائم الامور ان جانب الطريق المرسوم وخالف النظام المعلوم !

**● ألفت عنك كتب ودراسات كثيرة ، هل تعتقد أنها وفت أدبك حقه من الدرس والبحث ؟ ما قيمة كل منها ؟ وهل أفدت منها شيئا فى انتاجك اللاحق ؟**

ـ الميزة الاولى التى تتجلى فى هذه الكتب ان أصحابها كانوا يصدرون فيما كتبوا عن صدق طوية ، واخلاص نية وكل كتاب منها يحمل طابع مؤلفه ، ويعبر عن شخصيته، ويمثل منازعه فى الأدب والحياة . واما وفاؤها بحق أدبى فذلك ما يجب أن أترك الحكم فيه لغيرى ، فانى آخر من يحسن به أن يجيب عن هذا السؤال .

على أنى أقرر أن هذه الكتب على تعددها هى مرايا متعددة لى ، وفى كل كتاب منها أرى نفسى فى وضع خاص ، فهى جميعا تصورنى فى الجملة ، ولكن فى أوضاع مختلفة ما أشبهها بالصور المتعددة الآلية التى تسمى «فوتوماتون» كل منها يحمل وضعة خاصة ويبرز ناحية معينة وان التقت كلها فى التعبير عن شخص واحد ..

ولا مرية فى أنى أفدت منها ، فانها جلت لى ملامح من صورتى الذهنية فى انعكاسها على أذهان الكتاب الذين قاموا بتأليف هذه الكتب ، وليس بالقليل أن يتعرف المرء رأى الناس فيه ، ويتبين ما يرسمونه له فى أذهانهم من صور ، وبخاصة اذا برىء الرأى من فتنة الهوى ، وصفت

الصورة من شوائب الغرض

أما الاثر الذى تركته تلك الكتب فى انتاجى اللاحق ، فانى أترك بيانه لسواى . وعلى من يشاء معرفة ذلك الاثر أن يوازن بين مؤلفاتى السابقة واللاحقة ، فيؤلف كتابا جديدا يزيد به عدد المرايا التى أرى فيها صورتى . وأرجو ألا يفهم من هذا أنى أغرى الباحثين بالتحـــــدث عنى ، وتأليف الكتب حولى !

**( ديسمبر ١٩٦٣ )**

— ٤ —

# حسين فوزى

* يجب الفصل التام بين أجهزة الاعلام وأجهزة الثقافة ..

* الموسيقى والسينما عندنا مظهريات مزيفة ..

* يجب أن يظل الانسان طالب علم أبدى ..

يعيش فى رحلة دائمة ·· جاب خـــلالها معظم بلدان الشرق والغرب ، وتجول بين خير ما أنتجه العقل البشرى فى الكتب والموسيقى وبقية الفنون ·· وكتبه كلهـا ـ باستثناء « الموسيقى السيمفونية » ـ رحلات فى الزمان والمكان ··

« سندباد عصرى » ( ١٩٣٨ ) « جولات فى المحيـط الهندى » كما كتب تحت عنوانه ويصفه فى مقدمته بأنه ليس سوى « صفحات ضمنتها صـورا وخطرات أوحت بها الى جولاتى فى أنحاء المحيط الهندى ، وحيـاتى على ظهر السفينة · » ·· هذه السفينة التى تخلت عن مهمتها العلمية فوقف الكاتب على ظهرها فى خاتمة كتابه يستعيد ذكريات « تلك الحيـــاة العجيبة الضـــاربة فى أرجاء الاقيانوس الواسع وسط ذلك المعسكر العائم ، بـين جنود تسلحوا للفتح العلمى لا للمذابح البشريه ، خفت جرسها فوق هذه السفينة · ولقد عاد كل منهم الى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا وفى نفوسهم ذكـــرى يزيدها الزمن ائتلافا · ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى أبكى فوق الدمن واستبكى الرائح والغادى !

تركونى أجوس خلال هذه القمرات والمعامل ، فتتألب على أشباح ذكراهم حتى لاخال نفسى شبحا بين الاشباح • ايه أيتها السفينة ! ايه أيها الجواد الاشهب ! هل قدر لنا ان ننوء بحمل الذكرى ؟ أو اننا سوف نعود الى خوض البحار النائية ، حيث للموج اصطخاب وهدير وللاعصار صرير وصفير ؟ »

وكتابه « حديث السندباد القديم » ( ١٩٤٣ ) « رحلة خياليه فى الزمان والمكان على السواء بقدر ما كان « سندباد عصرى » رحلة واقعية • فأنا أعود بخيالى الى المحيط الهندى لا كما عرفته منذ نحو عشر سنوات ، بل كما عرفه البحريون العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر •• دليلى وقائدى فى رحلتى الخيالية ، ذلك الرحالة العظيم الذى أخرجته للناس مخيلة كاتب عربى مجهول ـ ربما كان مصريا ـ يعزى اليه جزء أو كل كتاب « ألف ليلة وليلة » أوسع مؤلفات الادب العربى صيتا فى الخافقين •• والسندباد هو معلمى البحرى الاول • فأنا أرجع برحلتى الخيالية الى القرون الوسطى ، أعود بها أيضا الى طفولتى حينما عرفت البحر أول ما عرفت فى قصة « السندبادالبحرى» وكتاب « عجائب الهند » المنسوب الى بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزى •• »

ويختتم الدكتور حسين فوزى كتابه « حديث السندباد القديم » قائلا : « هذا آخر المطاف ونهاية التجوال • لحظة يتوادع فيها السفار على لقيا ، والاغلب أن يتوادعوا على غير لقاء •• عدتم الى الديار وعدنا ، من بطون العصور السالفة الى أواننا ، ومن آذى البحر الشرقى القديم الى بحرنا الاوسط رفأتم ورفأنا بهذا الثغر الجميل ذات يوم صحو من مطالع الربيع وقد

غادرناه سويا نحو عامين فى بواكير الخريف ، لا هجـــرة ولا هجرانا ، بل هروبا من الحاضر تبرما به ، الى الماضى ملاذ ذوى الهوى ، وضيقا بأرض قسى أهلها بعضهم على بعض وبحر امتنع علينا ركوبه ، الى بحار وأراضين بـين الواقع والاساطير » ..

وكتابه الثالث « سندباد الى الغرب » ( ١٩٤٩ ) رحلة هو الآخر ، يتضح ذلك من عنوانه ومن وصـــفه له فى المقدمة مرة بأنه « كتاب رحلاتى » ومرة أخرى « رحلتى الغربية » ، وهو يختمه كذلك بالعودة الى الديار وذكريات عودته الاولى اليها فى نوفمبر سنة ١٩٢٥ بعد رحـــلة الدراسة الطويلة التى استغرقت خمس سنوات متصلة ، ثم يقول :

« ولا أدعى لكتاب « سندباد الى الغـــرب » أكثر مما ادعيت لكتابى الاول ، فهو أيضا صفحات ضمنتها صورا وخطرات أوحت بها الى حياتى بين مصر وبعض أنحـــاء العالم الغربى ، لا أتوخى فيها غير أمانة التصوير ،وصدق الاحســـاس ، وصراحة التعبير . رائدى لحن لبيتهوفن يبتهل فيه الى العلى القدير : « هبنا من لدنك الجمال معقودا بالخير » وقد اتخذته للكتاب شعارا ، لانى على يقين بأن الفضائل مهاد الجمال ، مؤمن بأن الجمـــال يؤدى الى الخير .. »

أما كتابه الاخير « سندباد مصرى » فهو « جولات فى رحاب التاريخ » جاء فى خاتمته :

« آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة فى الزمان ، الى ركنى من هذه الارض ، وزمانى من تاريخهـــا ، فهل أقول بلغة الجدات : توته توته ، فرغت الحـــدوتة . وأدينى كنت عنـــدهم وجيت ، وان ما كانشى طاقيتى

مخروقة ، لجبت لكم معايا فته ومسلوقة ؟ ·· ولـــكن الجدة كانت تعود من عندهم فى عالم القصص والاساطير، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسست بوجيبه كمـــا أحس به فى دمه ولحمه ساكن نخن وبوطو ومنف وطيبة وتأنيس الاسكندرية ومصر والقاهرة

أنا الذى بدأت رحلتى بانسرى فى ظلام العبــــودية وانتهيت من رحلتى الى ضياء العصور القديمـــة ، ونفسى تشرق بنور الامل فى العصر الحديث · حاشا وكلا ، أن أعود من رحلتى خاوى الوفاض ! »



هذه كتبه ، وهذه حياته ·· رحلات دائبة فى الزمان والمكان ·· وحين تجلس اليه ، ويطمئن اليك ، فان خير ما يكرمك به أن يصحبك معه فى رحلة ذهنية خصـــبة خلال تجاربه ورحلاته وقراءاته ·· ومن هذا القبيل رحلة اليوم مع سندباد عصرنا ·· الدكتور حسين فوزى ·· بدأتها بسؤال شغلنى طويلا ·· فما من مـــرة جلست الى هذا العالم الفنـــان المنوع الثقـــافة الا وأحسست أنى أجالس ابن بلد أصيل ، يضحك للنكتة من أعماقه ، ولا تفوته « الواحدة » كما يقولون ، ويعبر عن أفكاره بصدق وانفعال ، ولا يتردد فى استخدام الكلمة النابية أحيانا ما دامت تناسب المقام ·· وبدا لى هذا غـــريبا بالنسبة لانسان عميق الثقـــافة دقيق الحس ، اتصلت حياته بحضارة الغرب أوثق اتصال ·· وما أن عبرت له عـــن سؤالى حتى ضحك طويلا ، ثم بدأ يجيب فى جد :

ــ يذكرنى سؤالك بحادثة وقعت للموسيقى الكبـــير « فرانز ليست » ، فقد جاءه مصور مشهور لا يحضرنى اسمه الآن ليرسم صورته ·· مثلما تحـــاول حضرتك أن ترسم صورتى الآن فلما حان وقت الجلسة الأولى التفت

المصور الى أشهر الموسيقيين فى عصره وقال : أرجوك ألا تحاول اتخاذ مظهر العبـاقرة وكن طبيعيا حتى أبلغ منك في صورتي ما توحي الى به طبيعتـك • ومعنى ذلك بالكلام الدارج :

« اذا كنت عاوزنى أصورك كويس ، ارجوك تخليك بسيط ، ولا تعملش على أبو على »

أتعرف ماذا كان رد « ليست » على ذلك المصور ؟ لقد قال له :

« معذرة أيها الصديق ، فان الاعوجاج الذى تراه فى من أثر نجاحى كعازف بيانو منذ صغرى ولم أبلغ الحلم • فما أسوأه أثرا على الشخصية والطبيعة الانسانية ذلك النجاح الباكر »

وسؤالك يؤكد أننى لا أعانى من ذلك الاعوجاج الذى عانى منه « ليست » ، وملاحظتك فى محلها ، فأنا ابن بلد فعلا ، لان نشأتى هى نشأة ابن البلد فى تلك الطبقة التى يسميها برنارد شو الطبقة المتوسطة الدنيا

وقد تربيت مع جدتى تربية اسبرطية صارمة ، ولكن تربيتى الحقيقية كانت فى المدارس ، مدرسة محمد على الابتدائية والسعيدية الثانوية ، وكان معظم زملائى فى هاتين المدرستين من الطبقة الارسـتقراطية أبناء الوزراء والحكام وكبار أثرياء مصر وجعلنى ذلك أميل الى اتخاذ الموقف الارستقراطى المتعالى ، ولم ينقذنى من ذلك سوى شىء واحد ، فبمجرد أن تركت المدرسة الثـانوية الى المدارس العالية ، أو الجامعة فى أيامـكم ، تعرفت على أعضاء المدرسة الحديثة • ودعك من كل تفاصـيل عن هذه المدرسة ، فهى فى نظرى معناها شخصان اثنـان ، أو على الاقل من ناحية تأثيرها على ، هذان الشخصان هما

أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين . وكان أثرهما على أنهما عالجا فى كل العيوب التى كان يمكن أن تتطرق الى نفسى نتيجة لمعاشرتى للطبقة الارستقراطية . فقد كانا يتميزان بالصدق والصراحة الى أبعد حد ، وهما قاهريان أصيلان ، خصوصا طاهر لاشين وان كان يضع بين أجداده الامير المملوكى البرديسى ، وحين احتككت بهما ووقعت تحت تأثيرهما وجدتنى أرتد الى طبيعتى الاصلية ، ومن يومها لم أتخل عن تلك الطبيعة التى تلمسها فى ، وهى الصراحة والصدق الى أقصى الحدود

والشىء الثانى الذى تلاحظه على أننى رغم حياتى الطويلة فى الخارج متأثرا بجو حضارى رفيع جدا ، ورغم زواجى من فرنسية باريسية من البورجوازية العالية ، فان صلتى بوسطى الاول لم تنقطع فى يوم من الايام باستثناء الخمس سنوات التى عشتها فى فرنسا . فأنا أعيش اليوم فى هذا البيت حياة أوربية كاملة ، ولكنى أعيش يومين كل أسبوع على الاقل مع أسرتى ( والدتى وأخواتى ) فى بيئة قريبة من البيئة التى نشأت فيها . لقد ولدت على بعد خمسين خطوة من باب سيدنا الحسين، ولذلك سميت باسمه

ولما تركنا باب الشعرية انتقلنا الى فم الخليج وكان شبه مهجور وقتها ، فكان مركز اللعب بالنسبة الى السيدة زينب والبغالة . فلا تتصور أن انسانا قضى طفولته وشبابه حتى سن الخامسة والعشرين فى مثل هذه البيئة ، ولم يغادرها الا حين سافر فى بعثة الى فرنسا ، لا تتصور أن مثل هذا الشخص يمكن أن يتحول عن أصله ..

● **ولكن ما حدث معك لا يمكن أن يكون قاعدة عامة ،**

**فكثيرا ما نرى أشخاصا نشأوا فى بيئة مثل بيئتك ، أو فى بيئة ريفية خالصة ، فاذا سافروا الى الخـــارج عادوا أشخاصا آخرين لا صلة بينهم وبين شخصيتهم الاولى ..**

ـ ذلك أن الانسان مظهر ومخبر . وبعض الناس يتغلب عندهم المظهر على المخبر ، فيقدموا على المسرح الصورة التى يودون أن يراهم الناس عليها ، وهناك فئة أخرى من الناس تحب أن تعيش على الطبيعة . ولا شك انى من هذه الفئة الاخيرة وان كنت أحتاج الى شىء من هـــذه المظاهر عندما أوجد فى مجتمع أوربى . والفــرق بينى وبين الشخص الاخر ان التظاهر اصـــبح عنده طبيعة ثانية ، فى حين ان التظاهر بالنسبة الى لا يعدو ان يكون استجابة لضرورات اجتماعية . وهنـــاك طريقة بسيطة جدا للحكم على الاشخاص ، كثيرا ما استخدمها ، وهى تتلخص فى ملاحظة الفارق بين مظهر الشخص وحقيقته وكلما كان البون شاسعا بين المظهر والمخبر كان الاصطناع فى الشخصية اكبر ، وبمجرد ان تزيح ستار المظهر فانك تجد شخصية ضعيفة فى أغلب الاحوال .. وما المظهر الذى يتخذه مثل هذا الشخص الا وسيلة للدفاع عما يحسه فى نفسه من ضعف . وكلما كان هناك تقارب بين المظهر والمخبر كان الشخص من المعــروفين بالصراحة الـذين لا يحتاجون الى ستار لتغطية شخصيتهم . وانا اعتقد انى معتز بشخصيتى لانى احس انها موجودة . ســـمه غرورا أو أى شىء اخر ، ولكنى لا أجد داعيا لاخفاء هذا الاعتزاز . وكثيرا ما يصبح الصدق طبيعة فى الشخص او خطة فى الحيـــاة تنأى به عن الرذائل ، وتلزمه ممارسة الفضائل ربما رغما عن ارادته ..

# العامة والفصحى

**● يتصل بسؤالى الاول ما نلاحظه على كتاباتك من كثرة استخدامك للالفاظ والتعبيرات العـــامية ، وهى ظاهرة نلمسها فى أول كتبك بوضـوح تام ، وما زالت واضحة فى كتاباتك حتى اليوم ، فهل لها سبب خاص ؟**

— لعلك أخذت الاجابه مما سبق ، فالأســـاس فى استخدامى للعامية هو الاحساس بالصدق ، وأن بعض الكلمات والتعبيرات العامية أصدق فى الدلالة على ما أريد قوله من نظيراتها الفصحى .. على أن للمسأله وجها آخر فنيا يدركه العقل . فحين بدأت أمارس الكتابة فى صغرى بدأت بتقليد العرب القدماء . وكنت قد درست الادب العربى دراسة منظمة فى وقت مبكر من حياتى وحفظت كثيرا من الشعر الجاهلى بادئا بالمعلقات . فى تلك الفترة كان المثل الاعلى في نظرى حين أكتب ان « اجعلص » الجملة ، وقد تأثرت فى ذلك بمدرسى اللغة العربية ، وهذه المرحلة تتفق مع فترة معاشرتى للارستقراطيين من زملاء المدرسة . ولكننى ما أن ارتددت الى أصولى وطبيعتى حتى وجدت ان معظم هذه الالفاظ الرصينة المرصـــعة لا معنى لها ولا استجابة لها فى النفس ، انها أشبه ما تكون بقطع الصدف « الملطعة » فى الكرسى المصنوع على الطراز العربى . ما أن يقدم الكرسى بعض الشىء حتى تطير ثلاثة أرباع هذه القطع الصدفية لتكشف عن فقر المادة الخشبية التى صنع منها الكرسى . ومنذ دخلت مرحلة الصـــدق اصبحت ابحث عن اللفـــظ الذى يؤدى المعنى بدقة . واللغة العربية شحيحة جدا من ناحية الفـاظ المعـانى المجردة فى حين أنها فى غاية الغنى فى كل ما يتعلق بالماديات وأوصافها . ولكى تثرى نفسك بالفاظ الفكر تحتاج الى

أن تخوض بحر الفلسفة الاسلامية ، وتربيتنا الأدبية — مع الاسف — تجعلنا ندخل الى اللغة العربية من باب الادب وحده ، وفى الاغلب نبقى فيه ، وهذا — فى رأيى — مصدر كبير من مصادر قصورنا فى التعبير باللغة العربية . أنك ما أن تقتحم بابا فى التراث العربى كالطب أو الفلسفة او العلوم أو الرحلات أو غيرها حتى تحس على الفور بفنى لغتك ، وتدرك كذلك حقيقة هامة وهى أن العربى فى عهد حضارته الزاهرة لم يكن يتردد بالمرة فى اقتباس الكلمة الاجنبية . وقد احتفظت فى كراسة عندى بمئات الالفاظ العربية من العصر العباسى ، كلها مأخوذة من اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، ولم يدخل عليها أى تحول الا فى نطقها أو ما يسمى بتعريبها

معنى هذا ان الانسان حينما يبحث للفكرة عن كسائها اللغوى المضبوط الدقيق ، فالامر لا يقتصر على ترصيع الجملة بألفاظ منقولة عن النثر أو الشعر العربى ، بل يجب أن يتوازن معنى الجملة مع كسائها اللغوى ، أى أن يجمع الى الدقة فى التعبير جمال الديباجة . ولكن الدقة فى التعبير أهم من جمال الديباجة .. واذا عن لك فى الوقت الحاضر أن تعالج موضوعات مصرية كالقصة والتمثيلية فكيف تتصور ان تجعل ابن البلد والفتوة وفاطمة وخدوجة يتحدثون بنفس اللغة التى يستخدمها رجال القضاء وخريجو الجامعات وأضرابهم . واذا كنت صادقا فى التعبير فأنت مضطر الى أن تضع على السنة هؤلاء الناس اللغة المناسبة لهم . ونحن فى هذا لم نخترع جديدا ، فكل ما نطالعه من ادب أجنبى ممتاز حرص على هذا اللون من الصدق فى التعبير ، بحيث تستطيع وانت تطالع ادبا اجنبيا لا تعلم شيئا عن بيئات شعبه ، أن تدرك هذه البيئات وتفصل بينها بمجرد فهمك

اللغة ألتى تتحدث بها ألشخصيات المنتسبة ألى هــذه البيئات . تجد هذا عند «ديكنز» و «بلزاك» و «فلوبير» . فالاسلوب يدل على البيئة الاجتماعية التى خرجت منها الشخصية . وتصور أنك تنطق كل هذه الشخصيات باللغة العربية الفصحى اذن لضاعت هذه الفوارق التى تميز بين الشخصيات المنتسبة الى بيئات مختلفة ..

اننا أنصار العامية لا نريد فرضها ، أو جعل الفصحى كاللاتينية وخلق لغة جديدة تأخذ مكانها . وانا نفسى من اضعف الكتاب قدرة على الكتابة باللغة العامية ، يستحيل على أن أكتب بالعامية حتى لو أردت . لغة التعبير عنــدى لغة عربية فصيحة ورصينة ايضا ، وهى اللغـــة التى درســـتها ونشأت عليها . كل ما فى الامر أنى فى بعض الحالات اضطر الى استخدام كلمات او تعبيرات عاميــة لانها تعبر عما اريد أكثر من اى كلمة فى القواميس المشهورة . وهذا ما جعل الدكتور طه حسين حينما صـــدر كتابى الاول « سندباد عصرى » يستنكر ولا يستطيع ان يتصور كيف أن هذا الكاتب العارف للغته المتقن لها يسمح لنفسه بالهبوط الى درك الكتابة بلغة الحديث الحوشى ، لغــة الحوارى والازقة !!

**● هل أفهم من هذا انك تلجأ الى الكلمة العامية حينما لا تجد كلمة فصحى تؤدى معناها بدقة ؟**

ــ أبدا ، فأنت تجد كلمات عربية تعبر عن كل ما تريد ، ولكنك حينما تســـتخدمها تكون كمن يترجم المعنى الى لغة أخـــرى . وانا لا أرى فى استخدامك بعض الكلمات والتعبيرات العامية خطرا على اللغة العربية ما دمت تحبها وتعتبرها لغة تعبيرك الاساسية . ولن يضـــيرنا ان نتخذ الحرية لانفسنا فى استعمال الكلمات العامية فى موضعها ، بل ان فجائية الانتقال من اللغة الفصيحة الى العـــامية

مقصودة ، ولها طرافتها الفنية فى نظرى

العامية والقومية العربية

**● ألا تعتقد أنه من الضرورى أن تكون لهذه الحرية فى استخدام العاميه حدود لئلا يختلط الحابل بالنابل كما يقولون ؟**

ــ كلمه « حدود » سيئة جدا . فالمقياس الوحيد هو صدق التعبير نفسه . ومن الموضوعات ما ترتفع عن مستوى العامية حتى فى لغة الحديث ، كوصف الشروق مثلا ، وكتابى « حديث السندباد القديم » مثل صادق على ذلك ، فكلمة عامية واحدة تفسده ، اذهب الى المحاكم واستمع الى لغة المناقشة بين القضاة والنيابه والدفاع والمتقاضين عندما تكون حول سرقه زير ، أو قطع جيوب ، أو وقائع فى مواخير ، واستمع الى المناقشه بين نفس هؤلاء الاشخاص حينما يكون موضوع القضية خلافا بين موسيقيين أو ادباء أو قضية تتناول آراء سياسية ، وستلاحظ فرقا كبيرا بين اللغة التى يستخدمها نفس الاشخاص فى كل حالة من الحالتين

**● ولكن ألا ترى أن توسعنا فى استخدام العامية يجعل أدبنا محليا يصعب على أشقائنا فى الاقطار العربية تذوقه ، كما أنه قد يوهن من احدى المقومات الهامة للقومية العربية وهى اللغة ؟**

ــ هناك مبالغة فى الزعم بأن اللهجات العامية العربية غير مفهومة فى بقية الاقطار العربية ، فقد ثبت لى من أسفارى فى مختلف البلاد العربية أنه ما أن يمضى أسبوع أو اسبوعان على اقامتك حتى تجد نفسك تتحدث بلهجة قريبة من لهجة اهل البلد العربى الذى نزلت به . فهناك اذن مغالاة فى القول بأن هذه اللهجات تخلق حواجز بين

الشعوب العربية وأنا شخصيا اذا كنت أقرأ كتابا لاديب عراقى أو لبنانى أو جزائرى يستخدم اللهجة العامية فى الحوار فانى قد اجد صـــعوبة فى فهمه فى بادىء الامر ؛ وقد لا أفهم بعض الجمل فهما كاملا ، ولكننى استطيع مع ذلك أن أتتبع السياق وأفهم ما يريده الكاتب ، وهو نفس ما يحدث فى اللغات الاجنبية ، فأنا لست متفقها مثلا فى لهجة أوباش امريكا أو السود ، وأعانى بالطبع صـــعوبة فى قراءة « شتاينبك » و « فوكنر » لانهما يكتبان اجزاء كثيرة من حوار قصصهما بهاتين اللهجتين ، ولكن ذلك لا يمنعنى من فهم ادبهما والتمتع به ، والقياس مع الفارق الكبير بطبيعة الحال بالنسبة للهجات الشعوب العربيـــة ، بل انى لاجد متعة كبيرة فى قراءة هذه اللهجات العربية ، ويا حبذا لو سمعتها من أصحابها

**● فى حديث اخير لى مع الاستاذ نجيب محفوظ قرر أنه يرى أن العامية آفة كالفقر والجهل والمرض ، أو هى مرض سببه نقص الثقـــافة ، فاذا أضفت هذا الرأى الى فكرة القومية العربية ألا يدعونا هذا الى التقليـــل قدر الامكان من استخدام العامية فى كتاباتنا ؟**

ـ أولا أحب أن أقرر أننى ارفض الدعوة الى الكتابة باللغة العامية ، لان اللغة العامية قد تعبر عن أعمق المشاعر الانسانية فى الحب والكره ومختلف العلاقات ، ولكنها تقصر عن التعبير عن الافكار العليا والعواطف السامية ، وتقصر كذلك عن التعبـــير عن الفلسفة ونقد الفنـــون والنظريات الحديثة فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد . ولكنى أرفض مع ذلك وصف العامية بأنها مرض أو آفة ، فاللغة العربية لغة اجنبية بالنسبة للمصرى ولاهل المغرب جميعا ، وحين تعلمها المصرى بسطها ويسرها وجعل لها

جمالا موسيقيا ، فلا يمكن أن يكون ذلك مرضا . ولا يغيب عنك بعد ذلك أن توحيد العرب سياسيا وروحيا أمر حادث فعلا لا يمكن أن يؤثر عليه استخدامنا لبعض الكلمات والتعبيرات العامية فى كتابتنا ، انه يحدث نتيجة لاتصالهم فى كل المجالات الدولية : فى اليونسكو ، والامم المتحدة ، والجامعة العربية ، بالاضافة الى ما يؤدى اليه انتشار التعليم والثقافة وتبادل المطبوعات والاستماع الى الاذاعات ، كل ذلك لا يؤدى الى التقارب بين الشعوب العربية فحسب ، بل يؤدى كذلك الى التقارب بين لغة الكتابة ولغة الحديث . الا تلاحظ اليوم مع انتشار الاذاعة والتليفزيون أن العوام أصبحوا أقدر على فهم اللغة العربية ، وانهم يستخدمون فى لغتهم العامية كثيرا من الالفاظ العربية الصحيحة وكانوا فى الماضى يخطئون فى نطقها • اضف الى هذا شيئا هاما جدا ، وهو ان لغة عربية جديدة قد نشأت خلال المائة سنة الاخيرة نتيجة للتشريع والسياسة والاقتصاد والصحافة . واذا كانت هناك فوارق ضخمة بين الاداء باللغة العامية واللغة الفصحى ، فما بالك بكل الاشياء الجديدة التى دخلت فى اللغة العربية المكتوبة

وخلاصة رأيى فى هذا الموضوع هو أن للكاتب الحرية المطلقة فى ان يكتب باللغة التى يمليها عليه احساسه ، فاذا كان قديرا على ان يكتب قصصه كلها باللغة العامية فليفعل ، فما بالك اذا أراد أن يكتب بالفصحى ، فليس لاية قوة ان تحجر على حرية الفنان . ومع ذلك فانى أكره الى أبعد حد أى خطأ فى النحو والصرف ، لأن مراعاة قواعد النحو والصرف هى التى تؤدى الى الدقة فى التعبير . فيجب عدم التهاون فى هذا عندما نكتب باللغة الفصحى ..

**• مع أنك ابن بلد بحكم نشأتك وتكوينك ، وما زلت محافظا على كل سمات ابن البلد فى شخصيتك وأخلاقك فانى الاحظ انك تكاد تقصر اهتمامك على الثقافة الرفيعة .. ثقافة الخاصة .. ألا تعتقد أن الجماهير العريضة فى حاجة هى الاخرى الى ثقافة جادة .. كيف نوصل هـــذه الثقافة الى عامة الناس ؟**

ـ لا توجد ثقافة رفيعة واخرى خفيضة . مجـــرد قولك « ثقافة » معناه الارتفـــــاع عن الحاجات المادية والظروف العملية المحيطة بالانسان الى الحيـــــاة فى عالم مثالى من الفن والفكر والعلم والادب ، وثق أن الثقافة فى المعنى الذى نستخدمه الآن ، فهى قد تعنى الحضـــــارة فى ظروف اخرى ، هذه الثقافة لا يمكن بحال ان تصـــل الى العامة ، فهى أشبه بشعاع المصباح يبلغ ضوؤه المدى الذى يتفق مع قوته ، ويضىء لمجموعة من الناس حوله دون تفريق بين الواقفين تحته المتلقين لضوئه الـــكامل وبين البعيدين عنه الذين يتلقون بصيصا من ضـــــوئه ، وبين الأبعدين الذين لا يبلغهم هذا الضوء . هذه هى حـــــال الثقافة فى كل المجتمعات مهما صنعت . كل ما يمكن ان تصنعه هو أن تقوى « فولتات » المصباح فتزيد من قدرته على اضاءة مساحة اوسع ، ويبلغ ضوؤه جماعات كانت تقف منذ لحظة فى الظلام . وهذا يقتضى من الصـــــفوف البعيدة ان تحاول دائما الاقتراب من مصدر الضوء وعلى المنظم الاجتماعى ان يحقق لها ما يمكنها من الاقتراب من مصدر الضوء .. فتوصيل الثقافة للجماهير ليس ابدا بأن تهبط بها عن مستواها ، وليس مسألة « عافية » فتطرد الواقفين تحت المصباح بالقوة لتخرج من الصــــــفوف

الخلفية اشباحا هزيلة تضعها مكانها ، بل عليك ان تقوى فيهم الرغبة فى الاقتراب من المصباح والاستمتاع بضوئه، وتمكنهم من ذلك ..

والثقافة ليست العلم ولا المعرفة ولا قراءة الكتب ولا الرحلات ولا الاطلاع على الصور والتماثيل ، ولا الاستماع الى الموسيقى . وأعود الى مثل المصباح لاقول ان الثقافة هى رؤية كل نشاط العقل والاحساس البشرى رؤية عامة وكأن هذا المصباح يضيؤها او ينيرها جميعا ، الثقافة هى الاحساس بكل مظاهر الفكر والفن والعلم والادب . هى الاحساس بكل علاقات هذه الاشياء وادراكها . والثقافة هي الاحساس بأن هذا الادراك الذى اشرت اليه توا أهم للانسان من الغذاء والهواء والاحتفاظ بالنسل

ان فى الثقافة نوعا من التجرد الروحى والتقشف النفسى يجعلك تعزف عن زينات الحياة الدنيا المعروفة وهى المال والبنون

## الفن الحديث

**● فى الحقل الادبى هذه الايام مناقشات حامية أثارتها مسرحية صموئيل بيكيت التى قدمها مسرح الجيب أخيرا . ما رايك فى هذه المسرحية وما رايك فى الفن بصفة عامة ؟**

ـ بعد ما قلته لك يجب ان تتصور ان الشخص الذى تتحدث اليه مفتح النوافذ لكل التيارات الفكرية ، وأن حبى أو عدم حبى لحركة معينة لا يمنعنى من الحكم عليها حكما عقليا . فأنا مثلا اتابع الموسيقى الحديثة المعاصرة ، وهى تفوق بل تزيد فى بعض الاحيان عن تقاليع الفنون التشكيلية حالا ، ولا استطيع ان اقول انى مغرم بهذه

الموسيقى الحديثة ، أو حتى ان يبنى وبينها حبا مفقودا، ولكن هذا لا يمنعنى من ان اتابعها على البعد ( اذاعات واسطوانات ) ، وعلى القرب كلما وجدت فرصة لذلك . ومن الخطأ فى الفنون ان نقف فى تقديرنا للاشياء عند حد معين . فالفنان المجدد اليوم هو الفنان القديم غـــدا . ويجب أن نقدر هذه الحقيقة دائما فى حكمنا على الفنون الحديثة . فالمسألة ليست مســـألة كره أو حب بل هى محاولة صادقة لفهم الفنان . هذا كلام عام ينطبق على مسرحية « صامويل بيكيت » التى قدمها مسرح الجيب وعلى مسرحية « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم ، وعلى كل نماذج الفن الحديث

**● ولكن ألا ترى أن أشكال الفن الحديث شــــديدة التعقيد والغرابة بحيث يصعب علينا أن نميز بين الفنان الأصيل والأفاق المحتال ؟**

ـ معك حق . وهذا ما تشكو منه الفنون الحديثـــة فعلا . ولعلك سمعت عن قصة اللوحة التى رسمها حمار بذيله وعرضت فى أحد المعارض . لقـــد ذكر خروشوف هذه القصة فى خطابه المشهور عن الفن التجريدى . وهى قصـــة حقيقية حدثت فى « معرض المستقلين » بباريس منذ سنوات ، ولكن هذا المعرض نفسه خرجت منـــه معظم مدارس الفن الحديث فى التصوير : فالمطلوب أن تفتح ذهنك ولا ترفض شيئا ومن الاكيد ان الصـــالح سيبقى والزائف سيجرفه التيار . واسمح لى أن اقول لك عن هذا الفنان المحتال بالبلدى « وانت حتناسبه ؟ » اذا لم يعجبك فدعه الى غيره والزمن كفيل به وبغيره

**● كيف يمكن أن تتحول اجهزة الاعلام المنتشرة بين**

**الجماهير ـ كالصحافة والاذاعة والتليفزيون ـ الى أجهزة تثقيف حقيقية ؟**

ـ يجب الفصل التام بين ما يسمى أجهزة أعــــلام وأجهزة ثقافة ، ولاأقصد بذلكأن يتم هذا الفصلعندنهايتها عندما تصل الى جمهور المتلقين لان هذا متعذر ، فبائع الكتب يعرض كل أنواع الكتب ، الجيد منها والغث ولا نستطيع ان نمنعه من ذلك ، بل أقصد الفصل عند « الام » أو عند المنبع أن شئت ، لانالاعلام بطبيعته اقوى من الثقـــافة ، فاذا لم تفصـــــل بينهما عند المنبع فلابد ان يحول الاعلام الثقافة الى عبد له، ويسخرها فى خدمة اهدافه ، وهذا أخطر ما يمكن ان تتعرض له الثقافة . ونشر الثقـــافة لا يعنى ان تضعها فى محفظة تحت ابطك ، وتذهب الى الناس فى القرى وتقول لهم « خذوا ثقافة » أبدا فالثقافة مقترنة بالعمران والتعمير بمعناهما الواسع ، ولا يمكن ان تنتشر ثقافة حقة دون أن يسبقها ويصاحبها تعمير وبناء فى شتى الميادين

## الثقافة والأميــة

**● كيف نستطيع أن نشـــعر بالاطمئنان ونحن نرى مختلف اجهزة الثقافة تنشـــط فى أداء دورها فى الوقت الذى ما زلنا فيه متخلفين من ناحية محو الأمية بين مختلف طبقات الشعب ؟**

ـ بصرف النظر عن أى احصاءات ، أذكرك بأننا ظللنا طوال الثلاثين أو الاربعين سنة الماضية نردد كالببغاوات أن عدد الاميين فى مصر يزيد على التســـعين فى المائة . واستيقظنا ذات صباح لنعلم أن الامية انخفضت الى أقل

من سبعين فى المائة ، وسيتكرر ذلك فى وقت قريب حين نكشف ان نسبة الأمية قد انخفضت الى خمسين فى المائة أو أقل . أضف الى ذلك أن الاذهان قد تفتحت فى المجتمع الحديث الذى نعيش فيه عن طريق الاجهزة التى تعتمد على السماع والرؤيه كالاذاعة والتليفزيون والسينما . ويجب أن تتأكد من أن القارىء الواحد ينقل معارفه الى المجتمع الذى يعيش فيه كالاسرة والاصدقاء والمعارف .. وكل ذلك يساعد على انتشار الوعى الثقافى بين مختلف فئات الشعب

على أن سؤالك يوحى بفكرة أستنكرها تماما وهى أن نقلل من نشاطنا الثقافى ونزيد من جهودنا فى محاربة الامية ، أى أن نوقف حركة التقدم الفكرى لنزيد عدد من يفكون الخط ! وخطأ هذه الفكرة ناشىء من اعطاء وزن أكثر من اللازم لمسألة القراءة والكتابة . القراءة والكتابة ما هى الا وسيلة ، وسيلة هائلة لا أنكر ،ولكنها ليست أكثر من وسيلة ، ولست الوحيد الذى دهش أكثر من مرة حين تعرف على أشخاص لا يعرفون القراءة والكتابة ومع ذلك فهم مطلعون متابعون منفعلون بالحياة انفعالا يزيد فى بعض الاحيان عن انفعال من يقرأ ويكتب. ولم تمنع أمية الكثيرين من الجيل السابق من أن يبلغوا أرفع الدرجات فى المجتمع والثراء والنجاح

## السينما والموسيقى

**● فى الفترة التى عملت معك فيها فى مجلة « المجلة » لاحظت أنك ترفض نشر كل ما يتعلق بالسينما والموسيقى المحلية .. اعلم أن هذين الفنين بالذات ما زالا متخلفين بشكل عام فى بلادنا ، ولكن كيف ننهض بهما ونقوم**

**ما بهما من اعوجاج وضعف اذا لم تنبر الاقلام والمجلات الجادة لنقدهما وتوجيههما ؟**

ـ سؤالك يدل على ايمانك بالكلمة المكتوبة ، وهو شيء مشكور ٠ انك تعتقد أن مقالة ترفع وأخرى تخفض وتؤمن بما يسمى بتقويم الاعوجاج عن طريق الخطب الرنانة ، وفى الحقيقة أن هذا ما يجعل للادب عند أهله القوة التى ليست له فى الواقع ٠ وعندما كنت أرفض أن تعالج « المجلة » الموسيقى المحلية أو السينما المحلية فان الاعتبار فى ذلك أنها ليست سوى مظهريات مزيفة لفنين جميلين فى ذاتيهما ، ولو أننى عثرت فى موسيقى الاغانى السائدة حالا أو فى السينما المصرية على بصيص من الفن لما ترددت فى تشجيع هذا القليل ووضعه فى مقابل السماجة والسوقية والسخف السائد ٠ أما والسينما بحالتها الراهنة ، وبلوى المطربين والملحنين على ما هى عليه فانك لا تجد أمامك الا وسيلتين : اما أن تكتب عنهما فلا تجد على لسانك سوى الهزء والسخرية ، وهى عندى أسوأ من الاهمال ولا داعى لها ٠ لماذا نهزأ أو نسخر أو نسب نوعا من الناس ينتجون سلعة يعشقها الملايين ، أو يعشقها ٩٥ ٪ أو ٩٠ ٪ من السكان ٠ كل من المنتج والمستهلك راض ، و « يا داخل بين القشرة وبصلتها ما ينوبك غير ٠٠ » فاذا كنت تنأى بنفسك عن أن تنزل الى مهاترة سواء أكانت عن طريق السخرية أو السباب ، فلن تجد وسيلة أمامك غير أن تهمل هذه السلعة اهمالا تاما

وأنا لا أقصد باستعمال كلمة سلعة التقليل من شأنها ، فالتجارة عمل مشروع فى كل أشكالها ٠ وما دمنا قد استعملنا هذه الكلمة فلنمض بالتشبيه الى غايته ٠ ان الطريقة التى أرى أن نعالج بها الفراغ الفنى فى السينما

والموسيقى هى أن تفتح دكانا صغيرا تصنع فيه السلعة التى تعتقد أنها السلعة الطيبة ، ليجىء الى هذا الدكان الزبون الذى يحتاج الى هذه السلعة • وهى الطريقة التى أتبعناها فى ترقية الفنون عندما كنا مسئولين عن بعض وسائل ترقيتها • لم نقفل باب الاغانى والطرب ، ولم نحارب السينما لان ذلك عبث ، وهو اجراء غير ديموقراطى لا يقوم به الا مهاويس النازية والفاشية • كل ما فعلناه أننا فتحنا بضعة دكاكين صغيرة نبيع فيها الموسيقى السيمفونية وبقية مواد البرنامج الثانى ، ومجلة «المجلة» والكورال ، وندوة السينما • ان خير ما تصنع فى المجتمع أن تقدم الامثولات الطيبة لمن يطلبها دون أن تطمع فى أن تتسع تجارتك يوما الى أحجام « هانو » و « سمعان »

ولاحظ بعد ذلك أن مجرد أن تعالج « المجله » أغانى المطربين والمطربات وأفلام السينمائيين بشكلها الحالى يعد اعترافا من « المجلة » بأن هذا الانتاج يدخل فى باب الفنون الجادة مهما كانت الاقوال التى تجىء فيما تنشره من مقالات ••

**● ألا تعتقد أن هذه الدكاكين الصغيرة التى تتحدث عنها فى حاجة الى دعاية لكى يقبل الناس عليها ، أو بمعنى آخر ألا تعتقد أن هذه الامثولات الطيبة فى الفن والثقافة تحتاج الى شىء من الدعاية حتى تصل الى أكبر عدد من الناس لكى ترتقى بوعيهم وأذواقهم ؟**

ـ كلما كانت القيمة الذاتية للعمل كبيرة يجب أن تصدر الدعاية له من صميم ذاته • والاعلان يسىء الى العمل الفنى الطيب اذا استعين بالتهريج فى وسيلة الاعلان • ان مهرج المولد يقف على باب جوسقه أو كشكه ملونا بالاصباغ ويحمل جرسا ويتفوه بكلمات كلها

مبالغات غير معقولة عما يقدمه داخل الجوسق . فاذا فرضنا انك تفتتح فى هذا المولد ـ وهو الحادث حالا ـ جواسق لبيع الكتب الادبية فهل تتصور أن يقف مهرج بجرس ليعلن عن هذه الكتب . وليس فى هذا دعوة الى أرستقراطية الثقافة أو غيره ، فقد ألقيت حديثا عن السيمفونية الثالثة لبيتهوفن فى دمنهور ، ومن رأيى أن نتوسع فى رحلات الاوركسترا السيمفونى والفرق المسرحية الى الاقاليم ، وتنظيم الندوات والمهرجانات الثقافية فى كل المحافظات . يجب أن نعطى الجمهور حاجته من مختلف ألوان الفنون والثقافة ، والديموقراطية الحقة تقضى بأن نعطى لكل فئة حاجتها ، واذا كان طلاب الموسيقى السيمفونية مثلا قلة بالقياس الى عشاق الاغانى ، فالديموقراطية تفرض علينا ألا نهمل مطالب القلة فى سبيل الكثرة . علينا أن نعمل بالنماذج الطيبة نعطيها للناس ، وعلى الناس أن يختاروا ما يريدونه

## سيد درويش

**● ما دام هذا رأيك فى المطربين والملحنين عندنا ، فلماذا اختصصت فن سيد درويش بالثناء مع أن كل ما تركه عبارة عن أغان فردية وجماعية ؟**

ـ سيد درويش فنان أصيل تشعر بالاصالة فى كل ألحانه ، ومهما قلت فيه فلن تستطيع أن تتهمه بأنه اتخذ الفن وسيلة للكسب . وانظر ماذا خلف وراءه من ثروة وأنت تعرف أولاده وأهله . ان سيد درويش فنان أصيل ظهر فى حياتنا فى لحظة من لحظات يقظتنا القومية وأدى واجبه كفنان ومواطن كأحسن ما يكون الاداء . ونحن نصر

فلى توكيد هذه الحقيقة اليوم فى وجه المسيطرين على سوق الالحان لسبب بسيط ، وهو أننا نود أن يحيا فن سيد درويش على رأس التلفيقات الغنائية القائمـــة حاليا . ونعتقد أن احياء موسيقى هذا الرجل الاصيل فى حياتنا الفنية جدير بأن ينقى الجو ولو قليلا

## تراثنا الموسيقى

**● مادام الحديث قد تطرق بنا الى الموسيقى .. هـــل لدينا فى مصر تراث موسيقى .. ما قيمته وما واجبنا نحوه ؟**

ـ لا شك أن لدينا تراثا موسيقيا قيما ، ودراسة هذا التراث من اهم ما احض على العمل فيه . فحين تدرس تاريخ بلدك وحضارتها ، مرتفعاتها ومنخفضاتها ، أدبها وعمارتها وفنونها التشكيلية ، فان الموسيقى تصـــبح هى الاخرى عنصرا هاما من عناصر هذه الدراسة

يجب أن ندرس علاقة موسيقانا بموسيقى مصر القديمة ، مصر الفرعونية . ولا ازعم اننا سنعثر على الموســـيقى الفرعونية نفسها ، ولكننا سنعثر على صور ولوحات فى المقابر تمثل الآلات الموسيقية . وأذكر بهذه المناسبة انى شاهدت فى احدى مقابر الاقصر رسما عجيبا على حائط يمثل رجلا يعزف على ناى وأمامه شخص آخـــر يغنى . وطريقة امساك العـــازف للناى هى نفس الطريقة التى يمسك بها الناى الى يومنا هذا ، والمغنى يضع يده عـــلى خده ، ويمد ذراعه الاخرى بنفس الوضـــع الذى يتخذه ابن البلد اليوم وهو يقول « ياليل يا عين » . مثل هــذه اللمحة تعتبر خيطا نستطيع عن طريقه وأمثاله من الخيوط

ان نقول بشكل عام كيف كانت موسيقانا فى العصر الفرعونى
ومن هذه الخيوط موسيقى الكنائس القبطية . فاللغة القبطية هى اللغة التى كان يتحدث بها المصريون القدماء بعد ان دخلتها تعديلات طفيفة . ونلاحظ فى ألحان الكنيسة القبطية نوعين من الالحان ، نوع تدركه الاذن على الفور للشبه الشديد بينه وبين الحاننا العربية ، والنوع الثانى لا تستطيع أن تحدد له صلة واضحة بالموسيقى العربية ، فالسلالم المؤلفة منها تخالف السلالم العربية . يجوز ان يكون هناك تشابه بين هذا النوع الاخير من الالحان وبين موسيقى الكنيسة الشرقية الارتوذكسية ، ولكنها قطعا تختلف عنها . فالغالب اذن ان موسيقى الكنيسة القبطية تحتوى على عنصر مصرى اصيل . وعلى عالم الموسيقى أن يبحث هذه النقطة ، واعتقد أنها ليست من المسعو به بمكان ..

واذكر بهذه المناسبة ظاهرة أخرى عجيبة ، فقد استمعت مرة الى مجموعة من المنشدين من سكان الجبل الشرقى فى مديرية أسيوط ، قدمهم زكريا الحجاوى فى احدى حفلات وزارة الثقافة . وما ادهشنى ان هؤلاء المنشدين الصعايدة المسلمين كانوا يغنون فى مجموعتين كل مجموعة ترد على الاخرى بطريقة يسمونها فى الغناء الكنسى فى اوروبا « انتي فونير » ، وان الشبه واضح جدا بين الحان هذه المجموعة وبين الحان الكنيسة القبطية

ومعنى هذا أن الموسيقى المصرية القديمة لا تزال موجودة فى الكنيسة القبطية وفى بعض موسيقانا الشعبية فى الصعيد . واذا بحثت فى الالحان البلدية والحان الفلاحين بصفة عامة ، وقارنت بينها وبين الموسيقى من عهد عبده الحامولى ومحمد عثمان للاحظت فرقا واضحا يدل على أن الموسيقى المصرية التى كانت معروفة أيام

« ادوارد لين » ـ أى فى النصـــف الاول من القـرن التاسع عشر ـ قد تطورت تطورا جديدا ، الاغلب أنه نشأ من اتصال البلاط الاميرى فى ذلك الوقت بالباب العالى، فكان هذا الاثر التركى فى موسيقانا

ومن المؤكد ان الموسيقى المصرية فى القرن التاسع عشر تأثرت فى عصور سابقة بألحان اجنبية على طول التاريخ المصرى منذ دخول العرب مصر . واذن فمهمة العـالم الفولكلورى فى الموسيقى ، او ما يسمى « الموسيقولوجى »، أن يبحث عن هذه الاصول والمؤثرات التى خضعت لها الموسيقى المصرية على مدى الاجيال والقرون . وهـــذه ناحية علمية فولكلورية لا شأن لها بالموســيقى الحيه وتطورها فى الغد ، بل شأنها شأن ما يصنعه الاثرى والمؤرخ فى البحث عن تاريخ بلاده ..

وهذه الدراسة لابد ان تنتهى الى أن هذه الموسيقى القديمة لا تزال آثارها حية فى الشعب واهمية تسجيلها والاحتفاظ بها أن تصبح بعـــد ذلك مصدر وحى ومادة اولية للموسيقى المتطورة التى تؤلف فى عصرنا على القواعد والصيغ والاشكال المتطورة

بقيت بعد ذلك نقطة ، وهى ضرورة الاحتفاظ بالتراث الفنى لمـا يسمى بالموسيقى الشرقية ، وهو موضوع آخر، ومن أجله بالذات أنشىء معهد الموسيقى العربية ، وتتلخص مهمته فى جمع وتسجيل الالحان العربية الفنية واهمهـا التواشيح والادوار ، وفى موسيقى الآلات : السماعيات والبشارف ، والانتهاء من هذه الدراسات والتجميع الى انشاء مجموعة انشاد أو مجموعة غنائية ومجموعة آلات وظيفتها تأدية هذا التراث الموسيقى على الوجه الصحيح. وهكذا نحيى الموسيقى الشرقية كفن شرقى أصيل ، كما

نحتفظ بالتحف الجميلة فى المتاحف ، أتكون بعد ذلك أساسا نستوحى منه خلق موسيقى جديدة • وهو ماصنعه سيد درويش وداود حسنى وكامل الخلعي وجيلهم ، وزكريا احمد من بعدهم . أما معظم الجدد فقد حادوا عن هذا السبيل فلم يصنعوا شيئا ذا قيمة ، ومن يؤلفون منهم موسيقى سيمفونية انما يقلدون الموسيقى الغربية تقليدا اعمى لايرتفع عن مستوى تدريبات طلبة معاهد الموسيقى فى الخارج . وليس هذا مانريده

## الموسيقى الاسلامية

**● معظم قدماء الموسيقيين الذين ذكرتهم بداوا حياتهم الفنية بترتيل القرآن وحفظ التواشيح الدينية وكان لذلك أثره الواضح فى فنهم ، ألا يعنى هذا أن لدينا تراثا من الموسيقى الدينية الاسلامية جديرا بالدراسة والتسجيل هو الاخر ؟**

ـ بلا شك ، وهو يتمثل فى الاذان وتلاوة القرآن والاذكار والمولد النبوى والتواشيح الدينية . ومن المؤكد ان هذه الموسيقى الدينية كان لها اثرها الواضح فى كبار ملحنينا فى القرن الماضى واوائل هذا القرن ، وهذا الاثر أوضح ما يكون فى الشيخ سلامة حجازى وألحانه المسرحية • والموسيقى الدينيه الاسلامية فى مصر لها طابع محلى ، طابع قومى مختلف عن مثيلاتها فى بقية البلاد العربية

**● بقيت تلك الاشارات فى كتاب « الاغانى » الى طريقة عزف ألحان أبيات الشعر التى أوردها المؤلف • ألا تعتقد أنها تمثل كذلك خيطا من الخيوط التى اشرت الى أهمها ؟**

ـ بالتأكيد ، ففي كتاب « الأغاني » اشـــارات الى الايقاع واللحن . وقد اشتغل فيها علماء اجانب مثـــل البارون « ايرلانجيه » الذى نشر مجموعة كبيرة من كتب الموسيقى العربية ، ولكنهم لم يصلوا فيها الى شيء ذى قيمة ، وهى مازالت فى حاجة الى عمل كثير لاكتشاف سرها ..

**● ألم تفكر في دراسة هذا التراث الموسيقى العربى كما صنعت فى تراثنا فى علوم البحار فى كتابك « حـــديث السندباد القديم » ؟**

ـ لاتنس ان ماحدثتك به فى التو واللحظة يتطلب لاحياة شخص واحد بل حياة فرقة من الباحثين ، واشك فى ان الجيل الحاضر يستطيع أن ينتهى منه ، وفى سنى ومع المسائل الكثيرة التى اعالجها فى وقت واحد ، لا تطلب منى أن أركز نفسى فى موضوع واحد . حقا أنا استطيع ان أوجه فى نواح كثيرة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الدولة تأخذنى ذات يوم من جامعة الاسكندرية الى وزارة اختصاصها الانتاج الفكرى

## رواية ومسرحية

**● هل أستطيع أن أعرف مشاغلك الحالية بالاضافة الى مقال « الاهرام » وحديث البرنامج الثانى الأسبوعيين ؟**

ـ ليست هناك مشاغل محددة ، فالمقال والحـــديث يستغرقان جانبا كبيرا من وقتى بما يتطلبانه من قراءات ومراجعات . لدى رواية طويلة انتهيت من كتابة ثلثيها تقريبا ، وفكرة مسرحية واضحة الخطوط ، ولكن هذا لا يعنى ان واحدة منهما ستكون كتابى القادم . فأنا الان

فى حالة يمكن ان تسميها فترة هذيان داخلى ، أفكر فى موضوعات كثيرة وأقرأ حولها ، وقد اكتب فيها ، الى ان تجىء لحظة يتجمع فيها فكرى حول موضوع واحد قد لا يكون له علاقة باى شىء مما مضى ، ومنذ تلك اللحظة أظل اتابع الفكرة واطاردها بقـــوة ، واذا كانت فى حاجة الى اطلاع قرأت كل ما يحيط بها وبما حولها • وبعد كتابى « سندباد مصرى » انا فى هذه الحالة • ومن صـــفاتى الغريبة اننى لا استطيع أن أقوم بعملين فى وقت واحد أبدا • فطوال فترة عملى فى وزارة الثقافة توقف تأليف كتاب « سندباد مصرى » توقفا تاما من أول يوم وضعت فيه قدمى فى الوزارة حتى يوم غادرتها ، وفى اليوم التالى مباشرة استأنفت العمل فى الكتاب ، كأن فترة أربــع سنوات لم تفصل بين البدء فى الكتاب والانتهاء منه

## فترات من التركيز

**• ولكن هذه التقيفة لا تتفق مع ما أعرفــه عنك من تشعب قراءاتك واهتماماتك ••**

ـ بالنسبة للقراءة هى مستمرة ومتنوعة فى كل وقت، اما بالنسبة للعمل الجاد فالامر يختلف • فقد مررت بفترات أو ادوار من حياتى تفرغت فى كل دور منها الى اهتمام واحد • فمنذ سنة ١٩٢٥ حتى ســـنة ١٩٣٩ تفرغت تفرغا تاما لعلوم البحار فى البعثة وفى معهـــد الاحياء المائية • ومن ســـنة ١٩٣٩ الى ١٩٤٢ اقتضت اجراءات الحرب توقف البحث والعمل فى معهد الاحياء المائية ، فانتهزت الفرصة لدراسة المعارف البحـــرية والقصص البحرية عند العرب فى عصر ازدهار الحضارة العربية وكان كتابى « حديث السندباد القديم » • ومنذ

سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٥٤ تفرغ تام للعلوم بكليـــة العلوم ، ومن سنة ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٥٨ حدث تركيز كامل لاعمال وزارة الثقافة • والموسيقى هى اكثر فن يسيطر على منذ سن السادسة عشرة حتى اليوم ، وهى تصطحبنى طوال هذه الفترات كلها بصورة متصلة لم تنقطع عنى ولم انقطع عنها • وعندما انتهت عمادتى لكلية العلوم بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٨ اتيحت لى فرصة التركيز على دراسة علم الموسيقى جماليا ونظريا حتى سنة ١٩٥٥ فهى كما ترى حقبات من التركيز ، الخيط المتصل فيها كلها هو الموسيقى والاطلاع العام

● **هل كانت هناك دوافع معينة لتوجيه هذا التركيز ؟**

ـ ابدا ، لا شيء غير مقتضيات الحياة العملية • مثلا كنت طبيبا للعيون ، لم اختر الرمد لولع خاص به ، بل لاننى اخذت جائزة فيه ، وقضيت سنتين للتخصص فى مستشفيات الرمد ، شعرت بعدها انى لا استطيع ان اجعل حياتى كلها محصورة فى العين ، فمن طبيعتى حب التوسع ولو انى عملت فى الطب فى فرع آخر غـــــير العين كالباثولوجيا « علم دراسة الامراض » او الفسيولوجيـا « علم وظائف الاعضاء » ، لما تركت الطب الى العلوم لان هذه الانواع من الدراسات من صميم العلم وان كان الطب يعتمد عليها • وفى حياتى كنت دائما قائد نفسى لم أكن كالسفينة التى فقدت ربانها تلعب بها الأمواج ، وانما قدت حياتى بنفسى فاخترت ان أترك الطب الى دراسة علم جديد على ، لم أكن اعرف منه حرفا واحدا ولم يكن فى مصر كلها من يدرى ما هو هذا العلم ،واقصد «الاوقيانوغرافيا» او علوم البحار • وأرسلت فى بعثة لدراسة هذا العلم ودراسة احياء المياه العذبة • وبطبيعة الحال انصرفت خلال خمس سنوات بعثتى الى تعمق هذا العلم وكان يجب

على أن أحيط بكل نواحيه ، لانني كنت اعلم انى اول من يطرق بابه فى بلادى • وعندما عدت كان على أن أطبق ما درسته على الثروة المائية فى مصر ، واعمل على تنظيمها علميا ، واضع أساس البحوث التى يجب أن تجرى فى الحال والاستقبال على المياه المصرية والاحياء التى تعيش فيها ، فكان من ذلك : معهد الاحياء المائية بقايتباى ــ دراسة البحار المصرية على ظهر السفينة « مباحث » ــ الخروج الى البحر الاحمر والمحيط الهندى مع بعثة جامعة كامبريدج ••

وأذكر كل هذه التفاصيل لترى بنفسك انك فى حقبة من هذه الحقب التى لايمكن ان تؤدى عملك أداء سليما وتكون مفيدا فيه الا بالتركيز التام فى هذا العمل • ولا تحسب أن وضع كتاب مثل « سندباد عصرى » يتنافى مع هذا التركيز ، فما هو الا مجرد انطباعات على الهامش من فترة من فترات حياتى العلمية ، وهى الفترة التى قضيتها أتجول فى البحر الاحمر والبحر العربى والخليج العربى والمحيط الهندى • وطبق هذا الوضع على انشاء كلية العلوم وفترة العمل فى وزارة الثقافة •• سمه سوء حظ أو حسن حظ ــ لا أدرى ــ أنى حملت أعباء الانشاء من أولها ، ولا اتردد فى القول ان هذا الانشاء يتناول الثلاث منشئات الاتية :

معهد الاحياء المائية بقايتباى ــ كلية العلوم بجامعة الاسكندرية وتضم معهد الكيمياء الصناعية قبل أن يلحق بكلية الهندسة ــ تحويل وزارة الارشاد القومى الى وزارة للثقافة او سمها وزارة للاشراف على الانتاج الفكرى والفنى « أى الثقافة بمعناها الواسع »

فمن كان من حظه أو من سوء حظه أن وضع في هذه

المواضع لا يمكنك ان تتصور أنه يستطيع ان يتكافأ مع المهام الملقاة عليه الا بتركيز كل قواه فى تحقيقها

## بين العلم والفن

**• مارست ألوانا مختلفة من النشاط الانسانى ، ما بين العلم والفن والادب والادارة ، وقد حدثتنى عن الظروف التى صاحبت عملك فى كل ميدان ، احب الان ان اعرف احساسك وانت تمارس كل عمل من هذه الاعمال وهل تأثر أحدها بالآخر أم انها منفصلة فى نفسك تماما ؟**

— من حسن الحظ انى تعلمت الادارة فى مستشفيات الرمد ، وكانت من ادق المنشئات المصرية من حيث الادارة وكان طبيب الرمد المبتدىء لا يعلم أمراض العيون وحدها، بل يضطر كذلك الى دراسة طرق الادارة فى الحكومة المصرية : من شئون موظفين ، واجراءات مالية ، وميزانية وارشيف ، ومخازن وغير ذلك • وقد نفعنى ذلك فى حياتى العملية • أما الجانب المقابل ، الجانب الروحى ، فاذكر انى كنت ولوعا بالادب والموسيقى منذ مطلع شبابى ، وبلغ هذا الولوع ما يقرب من الحالة المرضية اثناء دراستى الطب •• انها نوع من الرومانتيكية اخشى ان أقول اننى لم اشف منه ، وبالطبع لا ينتظر أن أشفى منه ، وهذا عيب نفسى خطير ، لا أقصد من ناحية الفن والادب فقط ، وانما كذلك من ناحية التكوين النفسى للانسان • واحساسى بهذا العيب او الرومانتيكية المتمثلة فى توهج المشاعر وجموح العواطف ، جعلنى اتجه الى البحث عما يكبح جماح هذه العواطف ويتغلب عليها ليسوقها المرء بنفسه لا لتجمح به

وهذا الاحساس هو الذى دفعنى بكلياتى وجزئياتى

الى دراسة العلم والانصراف الى البحث العلمى ، واظنك تلاحظ أن هذا العـــلاج هو انجح عـــلاج للرومانتيكية الجامحة • ومن العجيب اننى نقلت حماسى الطبيعى الى ميدان البحث العلمى فتحمست له وتعمقت وركزت فيه كل جهودى • وادى ذلك الى ازدواج فى شخصيتى يبدو بين الحين والاخر • الشخصية الارادية التى رباها البحث العلمى ودربها وحكمها ، ثم شخصيتى القديمة العاطفية الرومانتيكية ••

اذن ما تبحث عنه هو عملية نقل روحية ، نقل الحماس الرومانتيكى فى صورته الفنية والادبية الى الحمـــاس العلمى في صورته الموضوعية • فالتكنيك العلمى يتميز بموضوعية غريبة ومعالجة الامور فى برود لا دخـــل للعاطفة فيه ، اللهم الا عاطفة التحمس لما أنت بسبيله ، فلا تقول هذا يعجبنى وهذا لا يعجبنى ، هذا الاسلوب فى النظر الى المسائل لازمنى حينما انصرفت الى الادب : اذا كنت قد انصرفت اليه فى يوم من الايام ولا اعتقد ذلك فاذا بالشعر والشعر المنثور والقصص الوجدانية تتحول الى دقة علمية فى الاسلوب وفى معالجة الموضوعات الفنية والادبية ••

وساعدنى العلم على شيء آخر هام ، وهو الثـــورة الفكرية • فأصبح العقل ، وهو المسيطر ، لا يدين الا بما يقول به العقل ، ولا يتقبل المسائل على عواهنها الا ان تناقش وتبحث موضوعيا ، لان الحقيقة بعيدة المنال ، هذا اذا كان فى الاستطاعة بلوغها ، واشك فى ذلك

لقد خلقت دراسة العلم فى نفسى الشك فى كل شيء • وكاستاذ علوم كان اهم ما اعنى به فى تدريس العلوم ان أخلق في نفوس طلبتى روح العلم الصحيح ، وتتمثل في المبدء

بالشك فى كل شيء ، وان كل مسألة يجب ان تناقش وان ما يقرأه الطلبة فى كتب العلماء ليس كلاما منزلا ، بل يجب ان يناقش على اساس الشك فى صحته . وأهم ما حصلته من العلم الاعتقاد الصارم بأهميـــة ادراك الانســـان لحقيقته فى كل لحظة ، وان الانسان فى اللحظة الحاضرة جاهل بالنسبة للحظة القادمة ويترجم ذلك عمليـــا بأن الانسان يجب ان يظل طالب علم أبدى . والحقيقة مكانها عند طرف ظل الانسان ، فمهما صنع لا يستطيع ان يبلغ هذا الطرف الا فى لحظة واحدة ربما عند ما تبلغ الشمس السمت ، فهو حينئذ واقف فوق ظله

هـــذا ما تعلمته من العلم ، وحين رجعت الى الأدب اصطحبت هذه الاسس معى الى نشاطى الادبى وتفكـيرى الاجتماعى والفنى

## السندباد والبحر

**● كل كتبك تحمل اسم « الســـندباد » ، وبعض مقالاتك فى «الاهرام» تحمل عنوان «سندبادات طيارى» ، ما حقيقة صلتك بالسندباد ، وما تأثيره فى شخصيتك ؟**

ـــ من اوائل الكتب التى وقعت فى يدى وانا طفـــل كتابان فى مكتبة أبى هما « الف ليلة وليلة » ، و « عجائب الهند بره وبحره وجزائره » لصاحبه بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزى . ولاحظ أن « الف ليلة وليلة » فى طفولتنا ليست سوى امتداد لقصص الجدة و « الدادة » حول المدفأة فى ليالى الشتاء تسمعها وتعيش فى وجدانك الصغير ، فاذا كبرت وعرفت كيف تفك الخط ووجدت نفس القصص التى سمعتها مكتوبة امامك اقبلت عليها بحماسة شديدة ، وقد استهوتنى من « الف ليلة وليلة » بصـــفة خاصة رحلات « السندباد » . اما الكتاب الثانى فـــكله

قصص وعجائب بحرية ، انه رحلات سندبادية دون ان يرد اسم السندباد . وحينما تتذكر ان الشخص الذى يحدثك ولد فى الحوارى القديمة الضيقة ، تستطيع ان تتصور اثر السندباد فى « الف ليلة وليلة » وبزرك بن شهريار فى حبى لشىء لم اكن رأيته حتى ذلك الحين . أنت سكندرى ولدت بالقرب من البحر ، اما انا فلم أر الا النيل فوصلنى هذان الكتابان بعالم المجهول ، المجهول المادى فى البحر وعجائبه ، والمجهول الفكرى بعد ذلك ، فأصبحت حياتى ومؤلفاتى رحلات فى الزمان ورحلات فى المكان ، وقد عبرت عن هذه الفكرة بوضوح فى خاتمة كتابى « حديث السندباد القديم » اذ اعتبرته رحلة فى الزمان بين معارف العرب فى علوم البحار وادبهم البحرى ووصفت ما حققته فى هذه الرحلة قائلا :

« شفينا غلة ، وأطفأنا الظى ، وحققنا حلم صبا . آلفنا بين نوازع نفوسنا الى البحار وركوب الجوارى المنشئات ، وامان انا قديمة فى فهم سر علينا استغلق ، وفك سحر آخر من اسحار الطفولة والمراهقة . ولاءمنا بين حاضرنا المادى الموضوعى ، وماضينا الخيالى الوجدانى ، ومزجنا القديم والحديث ، وجهدنا ان نحبس روحنا الجياشة وراء اسوار عتيقة ، تنزف منها الرطوبات ، وتكسوها خضراء الطحالب . لا كلفا بالقديم ، ولا قلى للجديد . بل ترويضا للروح واسلاسا لقيادها الجموح ، ومراننا لها على ركوب السهل والصعب

لم يكن ليقدرنى على هذا غير السندباد ، معلمى البحرى الاول . فقد كان بطبعه وطبيعته من زمن غير زمنى . يمت بصلة الى آل « كابوليت » وأنا من مونتاجو . ولكن حبا مشتركا بيننا ، اشد من أواصر القربى ، واقوى من وازع العصبية .. حبا أضاع فيه معلمى شبابه وكهولته ،

واصرف فيه شبابى وما يقدر لى من كهولة وما بعدها .
ذلك هو حب البحر ، قيعانه وأمواجه وبرزره وجزائره ..
بيد أن أستاذى لم يعلمنى من حب البحر أن أدون فيه الكتب أو انشىء القصص . بل ان اركبه ملجحا ، وذلك أصدق الهوى »

**● يذكرنى حديثك عن البحر بحبك الواضح للاسكندرية ، فأنا أعلم أنك ما زلت محتفظا بمنزلك هناك، وكثيرا ما تزورها فى الشتاء فضلا عن الصيف ، فهل لذلك سبب خاص ؟**

ـ حينما اقتربت من سن المعاش عام ١٩٦٠ وضعت نفسى امام هذا السؤال : هل استأنف حياتى العلمية أم استمر فى عالم الادب والفنون ؟ ولو انى قررت العودة الى العلم لكنت تركت القاهرة وعدت الى معملى بالاسكندرية حيث أستخرج أوراقى العلمية لأستأنف ابحاثى . ولكنى قررت بينى وبين نفسى ان اشتغل بالفن والأدب ، ومرجع ذلك الى أنى أعتقد أنى أستطيع أن أخدم بلدى فيهما خدمة تحتاج الى فيها اكثر من حاجتها الى فى ميدان العلم . ففيما يختص بدراسة البحار والاحياء المائية التى قضيت فيها الفترة من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٥٥ تقريبا ، وهى تخصصى الوحيد ، نشأت لى فيها مدرسة ، والحمد لله انها مدرسة كلها خير تضم كل من تخرجوا على يدى فى قسم « الاوقيانوغرافيا » بكلية العلوم ، أو عملوا معى فى معهد الاحياء المائية . وأحب ان اقول بهذه المناسبة انى لم أهجر عملا الا وأنا مطمئن أن بعدى عنه لا يضيره . هذا من الناحية العامة ، أما من الناحية الشخصية فربما كان اسهل عليك ان تضع اسمك فى تاريخ الادب من أن يبقى اسمك فى تاريخ العلوم ، اذ قد يكفى كتاب أدبى واحد يعيش به اسمك على الاقل الى

مدى معقول من الزمان ، اما في العلم فندر ان يبرز بين العلماء الاسم التاريخي الذى يبقى على الايام مثل لامارك ، وداروين ، وكلود برنار ، واينشتين . فالمباحث العلمية تزحزحها دائما مباحث جديدة ، وكل ما يبقى على القديم انها تحفظ فى المراجع « الببليوجرافيا » لا أكثر . فمن الناحية الشخصية لعل طمعي في بقاء اسمي اقرب للتحقيق فى عالم الآداب منه فى عالم العلوم

وما دمت قد اخترت الادب فلا شك ان الاصلح ان ابقى في العاصمة ، ولكنى اعرف فى نفسى أن للاسكندرية اثرا دائما فى يقظتى الروحية ، وعودتى المتكررة اليها ؛ بحيث لا يكاد يمضي شهر لا أزورها فيه ،سرها انني احس دائما انني بحاجة الى جو الاسكندرية فهو منشط يثير فيك حماسا أنا شخصيا ، اعزوه الى البحر . وفى الخرافة الاغريقية ان ماردا كان لا يغلبه احد حتى الآلهة ، ولكن هرقل استطاع أن يهزمه حينما علم أنه بمجرد أن يرفع هذا المارد عن الارض فيفصل بين قدميه وسطحها يفقد قوته كما فقد شمشون جبروته عندما جزت دليلة شعره . وشعوري نحو البحر يذكرني بأسطورة هذا المارد . اننى اتنشق هواء البحر واراه واسمع وجيبه ووش أمواجه فأحس بالقوة وباندفاع الشباب ، واستعيد حياة ربع القرن في تلك المدينة العظيمة الساحرة . وهناك تنشط قواي للكتابة والقراءة ، ومن الغريب أن معظم كتبي اشتريتها وما أزال اشتريها من الاسكندرية

## الكتب والرجال

**• ما دمنا قد ذكرنا الكتب ، ما أهم الكتب التى اثرت في ثقافتك ؟**

ـ ليست هناك كتب محددة أستطيع ان اسميها لك ، فكتب الحضارة الاغريقية كلها اساسية في حياتي وثقافتي . وكذلك أعلام كتب التاريخ ابتداء من بلوتارك وتاسيتوس ، ويأتي بعد ذلك عصر الاحياء في اوربا ، ثم عصر التنوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والثورة الفرنسية والاعداد لها ، ثم التفكير الاشتراكي ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر حتى كارل ماركس . كل ما كتب عن هذه العهود من كتب لها قيمتها كان لها أثرها في ثقافتي وتفكيري

اما بالنسبة لتاريخ بلادي فأهتم بصفة خاصة بما كتب عن مصر القديمة ، والحضارة العربية في العصر العباسي وخصوصاً عهد المأمون ، ثم العصر المملوكي وسلاطين مصر من المماليك ..

وهناك عامل مثل الكتب واهم ، وهو الرحلات . فالرحلة عندي كتاب . أول ما أصنعه حينما اصل الى بلد هو أن أزور متاحفها ومسارحها وسينما الطليعة وأحضر حفلات الموسيقى وأقرأ عن تاريخها ونشاطها . حدث هذا في كل بلد زرته سواء في الغرب أو الشرق ، فدرست حتى الهندوكية والبوذية

**● هل في حياتك أشخاص أثروا في ثقافتك وشخصيتك ؟**

ـ كان لابي تأثير كبير في حياتي لا لأنه كان شخصا مثقفا فحسب ، بل لانه حرص على تحقيق كل رغباتي الثقافية في حدود ممكناته المادية ، فسمح لي بدراسة الفرنسية بمدرسة « برليتس » وأنا في المدرسة الثانوية، ثم الالمانية وأنا بكلية الطب ، كما استطعت أن أقنعه بأن يسمح لي بدراسة العزف على الكمان على يد مدرس ايطالي

ويأتى بعد ذلك تأثير المدرسين فى المرحلة الثـانوية وبصفة خاصة مدرسى التاريخ واللغة الانجليزية ومدرس عربى واحد · والمدرسة الثانوية فتحت آفاقى الى أبعد حد ، فكل ما تسمع به فى أيامكم مما يسمى النشـاط المدرسى ، كان موجودا بالمدرسة السـعيديه على أيامى ، كالجمعية الجغرافية ، والتاريخية ، والعلمية ، وجمعية الرسم ، والتصوير الفوتغرافى ، والرحـلات ، وكان الاشتراك فى هذه الجمعيات اختياريا نظير رسم لايزيد على خمسة قروش · ولا تضحك حينما أخبرك أنى كنت عضوا فى كل هذه الجمعيات بلا استثناء ، كما مارست الالعاب الرياضية منذ طفولتى ، وان قل اهتمامى بهـا حينما انصرفت الى مسائل الفكر والفن

وتعرفت وأنا طالب بمدرسـة الطب بمجموعة من الشباب الارستقراطى : محمود اسماعيل ومحمدتيمور ، وقدمونى لابيهم العلامة أحمد باشا تيمور · وقد تزوج محمد تيمور ·· بنت ابراهيم رشيد بك ، وعن طريق هذا النسب تعرفت الى محمد رشيد بن ابراهيم رشيد بك ، وكان متخرجا فى مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت ، وهو يمثل فى نظرى المثل الاعلى فى الثقافة من ناحية اطلاعه العميق فى الادبين الانجليزى والفرنسى ، والموسـيقى ثقافة وممارسة ·· أذكر أنه أثناء ثورة ١٩١٩ انقطعت مواصلات الرمل فى الاسكندرية ، فانتهز محمد رشـيد الفرصة وبدأ يتعلم اللغة الاسـبانية حتى أتقنها · وفى العام التالى زرته فوجدته يدرس اللغة الروسية ، وكان يتابع السياسة العالمية باهتمام ووعى ، وعن طريقه كنا نتتبع أخبار الثورة الروسية

بقى بعد ذلك محمود طاهر لاشين وأحمد خيرى سعيد وقد حدثتك عن أثرهما فى شخصيتى فى مستهل حديثنا

**• ألم تشارك يوما فى النشاط السياسى ؟**

ـ لم أشتغل بالسياسة الا أثناء ثورة ١٩١٩ ، وكنت وقتها طالبا بمدرسة الطب ، فشاركت فى المظاهرات والاضرابات ، وكنا نذهب الى الازهر لنخطب ونلهب المشاعر

ولم يبعدنى عن الاشتراك فى أعمال العنف كالقاء القنابل أو كتابة المنشورات الا زميل لى بمدرسة الطب كان أبوه من كبار أقطاب الوفد ، وعن طريقه كنا نتلقى التوجيهات والتعليمات لنعمل بمقتضاها ، وكانت حمايته مبسوطة علينا فأبعدتنا عن أعمال العنف

**• الآن وأنت فى قمة نضجك ، وبعد أن تقلبت فى العديد من مجالات النشاط العلمى والثقافى هل تعتقد أنك حققت كل ما كنت تصبو اليه لبلدك ولنفسك ؟**

ـ الاجابة على سؤالك : لا .. ومع ذلك فأنا مطمئن الى أنى أديت واجبى بأقصى ممكناتى فى كل المراكز التى شغلتها . انما شعرت وأشعر دائما من أول لحظة أن كل هذه الاشياء تحتاج الى مثابرة وشجاعة أدبية كبيرة . ويحدث أحيانا أن أشعر بشىء من تثبيط الهمة ، وكأنى أنفخ فى قربة مقطوعة ، أو بتعبير آخر كأنى أحارب طواحين هواء كدونكيشوت . وفى قرارة يأسى هذا ، لان معنى ذلك بلوغ قرارة اليأس ، يرسل القدر لى شخصا يعيد الى ثقتى بمقدرات هذا الشعب الفنية والثقافية . وقد يسرك أن تعلم أن هذا الشخص ، هذا الـ « جودو » الذى يحضر يكون دائما من الشباب . وثمة شعور آخر يملؤنى بالفرح وهو أنى ألاحظ قطعا أن جيل الشباب الطالع ـ ولو فى قلته ـ أكثر تقبلا واستعدادا للتطور من الجيل الذى نشأت فيه ، وهذا أمر طبيعى . ولعلك

لاحظت تتابع هذه الاجيال التى يفضل آخرها أولهـــا ، فلا شك أن جيل توفيق الحكيم يفضل جيل طه حسين ومحمد حسين هيكل • وأملى أن يتحقق هذا جيلا بعد جيل

ولقد علمتنى الايام الا أتسرع فى الحكم على الاشياء ، وألا أتوقع النتائج العاجلة ، والا أعنى فى قليل أو كثير بأن يعترف الناس لى بفضل أو لا يعترفوا • فالصـــورة العملية للثقافة عندى أنها تشـــبه عود ثقـــاب أو عقب سيجارة يلقى فى هشيم ، فترعى النار فى داخل الهشيم، وقد لا ترى لها فى ظاهره من أثر • وما دامت النــــار مشتعلة فاطمئن الى أن دخانها يظهر وشـــيكا ولهبها لابد أن يشتعل قريبا • والعـــــلم والثقافة والتربية ليست كأسا يترع ويجرع للشباب ، انما هى شمعة مضيئة ، علينا أن نسلمها له وعليه الباقى • وما دامت هذه الشمعة تضىء فى حياته فعليه أن يتكشف ما تضيئه من أشـــياء ، ولك أن تحـــكم على رجال الثقافة ـ وأنا منهم ـ بهذا المقياس • ثم أننا لا نطلب من الاجيال الطالعة أن تعترف لنا بحق أو بفضل ، كل ما نطلبه منهم أن يحسوا أننـــا وضعنا فى أيديهم بعض هذه الشموع

فى التربية العائلية نطالب من الابنـــاء البر بالآباء • وهذا المثل الاخلاقى العائلى ، يجب ألا يطبق بحــــال فى المجتمع الثقافى • فنحن لا نريد من الابنـــاء البر بالآباء أبدا • كل ما نريده منهم أن ينتفعوا أقصى انتفاع بالقليل الذى ورثوه عن آبائهم الروحيـــــين • وحين أجلس الى شـــــاب مثقف وأشـــعر أنى أكلمه بعقلية جيله وأحس باحساسه ، وأعتقد أن أقصى ما يمكن أن يكرمنى به أن يشعر أن عقلى واحساسى أقرب الى عقله واحساسه من كثير من زملائه الشبان

**( يناير ١٩٦٣ )**

— ٥ —

# يحيى حقي

* حين قرأت « ألف ليلة وليلة » انزعجت انزعاجا شديدا ..

* الأدب الصادق هو الذى يرتفع الى مرتبة التبشير

* تعبت جدا فى العثور على ناشر لقنديل أم هاشم

لا يذكر اسمه الا وتذكــر معه رائعته « قنـــديل أم هاشم » وكأنها بقية الاسم .. وقد سمعته أكثر من مرة يبدى ضيقه بهذا التلازم الشديد فى أذهان الناس بين اسمه والقصة ويقول : « .. كأنى لم أكتب غيرها .. ! » .. ولكنه فى مرة أخرى تطرق الحديث اليها ، فسارعت انا الى القول : « غريب حقا اهتمام الناس بها على هــذا النحو كأنك لم تكتب غيرها .. » ، فاذا به يسرح قليلا ثم يقول بسرعة وهو يهم بالوقوف :

« أتعرف لماذا ؟ .. لقد خرجت من قلبى مبـــاشرة كطلقة الرصاص ، فكان أن استقرت فى قلوب الناس.. »

ولعل هذا اصدق وصف « لقنديل أم هاشم » ، وان كان وصولها الى قلوب القراء قد احتاج مع ذلك الى بعض الوقت ، فقد صدرت فى كتيب صغير عام ١٩٤٤ مع عدد من القصص القصيرة ، واذكر انى اشتريتها ، ولكننــى لم اقرأها ، فلم يكن يحيى حقى مشهورا فى ذلك الحــين ، وكان فى اسم « حقى » شىء من الارستقراطية التركيــة صرفنى عن الاقبال على كتابه .. حتى لفتنى اليه صديق ذواقة قائلا انه من أروع القصص التى قرأها فى أدبنــا

الحديث .. وقرأت الكتاب وأمنت على رأى صـديقى ، وتأكد لى أن مؤلفه فنان عريق مرهف الحس رائع الاداء .. وبحثت عن كتابات أخرى له فلم أجـد .. وظللت فترة طويلة أتساءل فى قلق : لماذا .. لماذا لا يكتب هـذا الرجل الموهوب ؟ .. أهى بيضة الديك جمع فيهـا كل طاقته الفنية .. ثم لا شىء بعد ذلك ؟ ! .. وقال الصديق الذى لفتنى اليه :

« ان يحيى حقى هو أكسل أديب فى مصر .. ولو كان على شىء من النشاط والاقبال على الكتابة لكان له اليوم شأن آخر فى عالم الادب .. »

وقد حرصت من جانبى على تنبيه زملائى الى هـذا الكتيب الصغير الحجم الكبـير القيمة ، وظللنا فى تلك الفترة المبكرة نترنم بثلاثة أعمال أدبية بالذات : « مليم الاكبر » ، و« قنديل أم هاشم » ، و« زقاق المدق » .. فقد اكتشفناها فى وقت واحد ، ووجدنا فيها نمـاذج أدبية ممتازة تصمد للمقارنة بما كنا نقرأه لاكبر أدباء الغرب ، وكان مؤلفوها جميعا كتابا جددا لم نسمع بهم من قبل ..

على أن الرصاصة لم تلبث أن اسـتقرت فى قلوب كثيرة مثل قلوبنا الشابة ، ولم يلبث يحيى حقى أن أصبح كاتبا مشهورا ولم يصدر له سوى ذلك الكتيب الصغير ، وتتابعت كتبه بعد ذلك لتضعه فى الصـف الاول من أدبائنا المشهورين ..

التقيت به لاول مـرة فى أول يوم دخلت فيه وزارة الثقافة ، ومن يومها أصبحنا صديقين ، وتوطدت الصداقة أكثر حين رأس تحرير مجلة « المجلة » التى أعمل بها ، ولى الآن سنتان ألتقى به كل يوم تقريبا ، وأرقبـه عن

كثب وهو يستقبل كبار الكتاب وشبابهم ، ويصرف مختلف شئون العمل ، يجزع أحيانا كثيرة لهبة النسيم الرقيق ، ولا يأبه حينا آخر لاعتى العواصف ، بل لا يحس بوجودها .. يرضى ويشرق وجهه حينا ، ويقطب وتشرد عيناه وتكفهر قسماته حينا آخر ، وأشهد أن رضاه بالقليل هو القاعدة الغالبة ، وان ثورته واحتجاجه هما الخروج النادر على هذه القاعدة

حين جلست أعد أسئلة أطلب منه الاجابة عليها ، تمثلته امامى وهو يتصرف فى كل شئونه واعماله دون اعداد سابق وبكراهية شديدة للقيود والرسميات ؛ فالبساط عنده أحمدى ، والقفشة الذكية تغنى أحيانا عن الرأى الصريح ، والكلمة الحلوة ، ولو لم تتحقق بعد ذلك ، تحل أعقد المشاكل .. واذا بصورته تغلبنى على أمرى ، وتنفرنى من الذهاب اليه وفى جعبتى مجموعة من الاسئلة المعدة ، ووجدتنى أقول لنفسى تعبيره المشهور « خليها على الله » ..

ويبدو أن هذه الحالة الذهنية المستريحة قد أثرت على سلوكى بشكل عام ، فوصلت الى بيته متأخرا عن موعدى ما يقرب من الساعة ، وانا مطمئن فى قرارتى أنه لن يغضب ولن يثور ولن يفسد مزاجه الفنى الاصيل .. وبالفعل فتح الباب وعلى وجهه ابتسامة عريضة مشرقة ، فاعتذرت عن تأخرى ، ولكنه لم يدعنى أتم اعتذارى ، وبدأ يرحب بى وهو يجلسنى الى مائدة طعام من طراز كلاسيكى وقور ، كان من الواضح أنه كان جالسا يقرأ عليها ، وكان الكتاب المفتوح كتابا فرنسيا عن أفضل الطرق للتجسس ، وأمامى عند مدخل الشقة حقيبته الزرقاء الشهيرة المنتفخة دائما بقصص الادباء وأبحاثهم وقصائدهم ، والى جوارها على مشجب قصير مجموعة من

العصى تعود أن يتوكأ كل يوم على واحدة منها ٠٠لايخرج يومين متتالين بعصا واحدة ..

كان وحيدا بالبيت ، فالسيدة حرمه في زيارة لاهلها بباريس ، وكان من الواضح أنه ليس سعيدا بوحدته ، وحين سألته فى ذلك وطلبت اجابة صريحة ، قال بتواضعه الاصيل :

ـ صدقنى أنا دون زوجتى لا أساوى شيئا ٠٠ انها النظام فى حياتى ، وهى التى تحد من كثير من نزواتى وانطلاقاتى البوهيمية ٠٠

وبعد ان قدم الى شيئا من المرطبات قال فى شيء من القلق :

ـ هل لديك أسئلة جاهزة ؟

فلما أجبت بالنفى انبسطت أساريره وقال :

ـ بم تحب ان نبدأ ؟..

● **قلت : أريد أن تستعرض حياتك بسرعة مع الاهتمام بالجوانب الفنية فيها**

فأشعل سيجارة وعصر جبهته ، ثم اعتدل فى جلسته ووضع احدى ساقيه تحت الاخرى ثم بدأ يملى :

ـ نشأت فى وسط يحب القراءة .. والدتى وأبى ، وأخى الاكبر ابراهيم كون لنفسه مكتبة عربيةوانجليزية كانت أول معين استقيت منه ٠ وأنت تعرف أن ابراهيم شارك فى تحرير جريدة « السفور » ، وأخى التالى اسماعيل كتب مسرحية لم تمثل ، وعمى محمود طاهر حقى تعرفه مؤلفا مسرحيا وقصصيا وصحفيا ٠ أذكر أنه حين كانت تظهر قصيدة لشوقى فى الصفحة الاولى من « الاهرام » كان البيت يقف على رجل ٠٠ كنا نقرؤها بصوت عال ونحفظها ونظل نرددها ، وما زلت اذكر وانا طفل صغير أننا كنا نردد قصيدة شوقى فى البكاء على خلع

السلطان عبد الحميد :

سل « يلدزا » ذات القصور
هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع اجابة
لبكتك بالدمع الغزير »

وكان عمى « محمود طاهر » على صلة وثيقة بشوقى ، وقد سعدت فيما بعد بالجلوس الى شوقى عدة مرات سواء فى محل « صولت » الحلوانى أو فى بيته • وفى احدى هذه المرات أعطانى قصته « أميرة الاندلس » وهى مخطوطة لأبدى له رأيى فيها وكنت لا أزال شابا فى السادسة عشرة

● **وماذا كان رايك فيها ؟**

ـ تجرأت ونقدت له القصة بشىء من العنف ، وكان ذلك غرورا منى • ومن الكتب التى كنا نقرؤها فى بيتنا، الى جانب القرآن ، مقامات الحريرى ، البخلاء للجاحظ ، وديوان المتنبى

● **وألف ليلة وليلة ؟**

ـ كانت عندنا نسخة منها ولكنها لم تكن من الكتب التى نقرؤها قراءة مشتركة • وأعترف أننى حين قرأتها لاول مرة انزعجت انزعاجا شديدا من الالفاظ الجنسية المكشوفة ••

فالجو الغالب على هذا البيت كان أولا : شىء من الاعجاب برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق فى العثور عليه ، لذلك كانت الخطابات التى يتبادلها أفراد الاسرة أغلبها بأسلوب أدبى متأنق ••

ثانيا : نوع من الحياء بحيث ينتبه الى زلة اللسان مهما كانت طفيفة

ثالثا : نوع من الانطوائية لاننا كنا أسرة موظفين من أصل تركى وليس لنا أملاك الا قليل

## خلاص الروح

● **متى بدأت تكتب ؟**

ـ بدأت أكتب فى سن مبكرة فى حوالى السادسة عشرة ، ومعظم هذه الكتابات لم اجمعها بالطبع . ولكنى بدأت أكتب القصة القصيرة بشكل منتظم عام ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ حين تخرجت فى مدرسة الحقوق ، وكنت متأثرا بالادب الروسى أكثر من الادبين الانجليزى والفرنسى

● **وما تفسيرك لذلك ؟**

ـ لقد وجدت في الادب الروسى كل شخص تقريبا مشغولا بقضية كبيرة هى خلاص الروح ، ويخيل الى أن الادب الصادق هو الادب الذى وان سجل وعبر وحلل وكتب بأسلوب واقعى ، الا أنه لا يكتفى بذلك بل يرتفع الى حد التبشير . وهذا ما وجدته فى الادب الروسى وسحرنى . ويخيل الى مرة أخرى أننا لا نستطيع أن نفهم روسيا الا اذا فهمنا أنها تؤمن ، ولا أدرى لماذا ، أن لها رسالة عالمية هى تخليص البشر كافة ، وفى هذا تفسير للدعوة العالمية للشيوعية . وقد يكون من الموضوعات الممتعة حقا مراقبة أثر التعايش السلمى الذى أصبحت تنادى به اخيرا على هذا الشعور الذاتى المتغلغل فيها

● **هل تذكر أول قصة كتبتها ؟**

ـ أوائل قصصى نشرتها فى صحيفة « الفجر » من بينها قصة كتبتها متأثرا بادجار آلن بو ، وأخرى عن الحيوان اسمها « فلة مشمش لولو » ، أما أول قصة نشرتها فى

« السياسة » فهى «قهوة ديمترى» ؛ وهى قهوة حقيقية موجودة فى مدينة المحمودية • وقد أعطتنى هذه القصة درسا انتفعت به طول حياتى • فقد سجلت فيها الواقع كما هو ووصفت العمدة بطربوشه المائل كما هو فى الحقيقة •• مجرد وصف برىء لا أقصد به شيئا ، فاذا بالعمدة يغضب غضبا شديدا ويظننى أهزأ به • فتجنبت ذلك فيما بعد ، وفهمت أن الادب الواقعى ليس هو التصوير الفعلى ، وأصبحت الشخصيات التى أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد بل عن مجموعة من الافراد

## الحب الأول

تلا ذلك سنتان مهمتان جدا فى حياتى ، وهما سنتا ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ حين اشتغلت معاونا للادارة فى منفلوط • وتتمثل اهميتهما فى اربعة اشياء :

أولها : استقلالى فى المعيشة ، أدخل وأخرج كما أشاء، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أضع فيها المفتاح فى الباب اذا عدت متأخرا كنت أشعر بشىء من التهيب كأنى فى بيتنا القديم وأمى تنتظر

والشىء الثانى :اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات • كنت قبل ذلك لا أفرق بين القمح والشعير ولا أعرف عن الريف سوى منظر الحقول • ولعلك تلحظ فى القصص التى كتبتها فى هذا العهد مقدار التحامى بالنبات والحيوان •• حقل القطن ، الجاموس المربوط على البرسيم

ثالثا : اتصالى المباشر بالفلاحين

رابعا : اتصالى المباشر ايضا وبحرية بالجنس الآخر ، وقد عشت هناك تجربة خصبة عميقة وعرفت أول حب فى حياتى ••

وقد سجلت هذه المرحلة على مستويين : المستوى الوصفي في « خليها على الله » ٠٠ وقد كتبتها بعد مرور ثلاثين سنه على التجربة دون أن تكون لدى مخطوطات أو مذكرات ، وجعلت محورها تأمل أسباب تلك الهوة التي تفصل بين الحكومة والفلاحين في ذلك العهد ٠ وقد دهشت أشد الدهشة حين وجدتني وأنا أكتب هذا الكتاب بعد ثلاثين سنة ، أني لا أزال أعيش بكل وجداني في منفلوط سنة ١٩٢٧ ، ١٩٢٨

أما المستوى الثاني فهو التصوير القصصي في مجموعة « دماء وطين » وهي صعيديات تدور في منفلوط ، ولها بقية في مجموعة « أم العواجز » كقصة « قزازة ريحة » و « حصير الجامع »

وتأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة من حياتي وهي سفري الى الخارج الذى انتهى بي الى أوربا سنة ١٩٣٤ مارا بالحجاز وتركيا ٠ هذه مرحلة اتصالي بالحضارة الاوربية، وبدء تتلمذي في الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، لكنني كنت دائما أشعر أن في داخلي شيئاً صلبا لا يذوب بسهولة في تيار حضارة الغرب ، وقد وضحت ذلك مرة في مقال قارنت فيه بين الاثر الذى تتركه روما في القادمين اليها من الشمال والقادمين اليها من الجنوب، فأهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة أما أنا فقد وصلتها وعندى قدر أكبر من اللازم من الشمس وعندى حضارة ان لم تفق، فهي تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء

**● ما الاثر الذى تركته هذه المرحلة في كتاباتك ؟**

ـ يظهر أثر هذه المرحلة في اتساع أفق ثقافتي بشكل عام ، ويبدو لك ذلك مثلا في المقال الذى كتبته عن توفيق

الحكيم سنة ١٩٣٤ ، ففيه مراجع كثيرة حين أتأملها الان اندهش لانى نسيتها . لقد اكتشفت الجبرتى مثـــلا فى جدة سنة ١٩٢٩ ضمن مكتبة القنصلية التى قرأتها من أولها الى آخرها ، ومنذ ذلك الحين وانا شــديد الاتصال الروحى بالجبرتى ، وكنت أوقع بعض مقالاتى الاولى باسم مستعار هو « عبد الرحمن بن حسن » وهو اسم الجبرتى كما تعلم ، ومن هذه المقالات دراســـة عن « الدعابه فى المجتمع المصرى » استمددتها من كتاب الجبرتى ونشرتها فى « البلاغ » ، وللاسف لم أضع هذا البحث فى أى من كتبى التى نشرتها بعد ذلك

وفى استامبول انتفعت أشد الانتفاع بمراقبـــة تلك التجربة الخطيرة التى قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية الى دولة حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة وقد قرات اغلب ما كتب عن مصطفى كمال والتقيت به وربما اتيح لى يوما أن أكتب عنه .. على كل حال فى تلك الفترة كانت الكتابة بالنسبة الى هواية ، وقد لا يزيد عدد القصص القصيرة التى كنت أكتبها عن اثنتين فى العام ، وكنت راضيا بذلك ..

## أيها الشعب تحرك

**● أثناء اقامتك الطويلة فى أوربا ما أكثر ما كنت تحن اليه فى مصر ؟**

ــ كنت أحن للاحياء القديمة التى أسمع فيها كلمات مثل « اجرنها » و « يادلعدى » ، أحن لهذه الجموع الغفيرة من المساكين والغلابة الذين يعيشون برزق يوم بيوم ، هذا ما كنت احن اليه فى مصر

**● فقط ؟!**

ـ فقط ! كنت أريد أن تستمر صلتى بهم دائما • وبعد أن عدت من أوربا شعرت بجميع الاحاسيس التى عبرت عنها فى « قنديل أم هاشم » ، ان بطلها شخص يهز هذا الشعب هزا عنيفا ، ويقول له : اصح ، تحرك فلقد تحرك الجماد ..

انها قصة غريبة جدا كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين حيث عشت لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التى ألحقتها بالكتاب ..

واسم اسماعيل بطل القصة أخذته عن اسم صديق لى يدعى اسماعيل كامل كان آخر منصب له سفيرنا فى الهند ، وكان يمثل فى نظرى محاولة المزاوجه بين الشرق والغرب ، وشخصية نعيمة البغى استلهمتها هى الاخرى من انواقع ..

وقد تعبت جدا فى العثور على مجال لنشر « قنديل أم هاشم » ، والفضل فى نشرها فى مجموعة « اقرأ » يرجع لمحمود شاكر ، ثم للدكتور طه حسين الذى قرأهاورشحها للنشر ..

والمرحلة الرابعة فى حياتى الفنية تتمثل فى تتلمذى على محمود شاكر سنة ١٩٣٩ ، فقد قرأت عليه قدرا كبيرا من الادب العربى القديم ، من الشعر الجاهلى الى بقية أمهات الكتب العربية ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربيه وأسرارها ، وفى اعتقادى أن اللغة العربية لغة غريبة جدا فى قدرتها على الاختصار الشديد مع الايحاء القوى ..

● **هل أفهم من هذا انك لم تتأثر فى أسلوبك بأى من أدباء الغرب ؟**

ــ لا ، لقد تأثر أسلوبى بكثير من بلغـــاء الغرب ، وبالانجليز أكثر من الفرنسيين ، وممن أثروا فى أسلوبى تأثيرا واضحا ليتون ستراتشى ، وفيرجينيا وولف

ولست أخجل من القول بأنى منذ تناولت القلم فى سن مبكرة وانا ممتلىء ثورة على الاساليب الزخرفية ، متحمس أشد التحمس لاصطناع اسلوب جديد أسميه الاســلوب العلمى الذى يهيم أشد الهيام بالدقة والعمق . وقد أرضى أن تغفل جميع قصصى ولكن سيحزننى أشد الحزن الا يلتفت لهذه الدعوة التى عبرت عنها فى القصة ، ثم فى محاضراتى « حاجتنا الى أسلوب جديد » وقد نشرتها فى كتابى « خطوات فى النقد »

أما الظاهرة الغريبة التى احار كثيرا فى تحليلها فهى انى وان كنت من أصل تركى الا انى احس انى شديد الاندماج بتربة مصر واهلها ، وفى بعض الاحيـــان يرجنى هــذا الشعور رجا شديدا .. ومعرفتى باللغة العامية وتعبيراتها تفوق ما حصلته منها مباشرة . قد يكون ذلك راجعا الى الفطرة والحدس والاحساس غير الواعى ، ولعل هــذا الحب هو الذى يميل بى كثيرا الى استخدام بعض الكلمات العامية فى كتاباتى رغم انى من المهووســين بالفصحى ، ولكنى لم أكتب فى حياتى كلها قصة بالعامية من اولها الى آخرها ..

**● فى كتابك « فجر القصة المصرية » تفسير لهــذه الظاهرة التى تحيرك ، فقد قلت وانت تتحدث عن محمد تيمور : « وانك لتحس ان نزعة تيمور فى الادب مبعثها حب صادق لمصر واهلها ، وليس من الغريب ــ كما يظن لاول وهله ــ ان الذى يضمر هذا الحب كله ، ويحمل لــواء المناداة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى فى عــروقه دماء مصرية ، بل دماؤه خليط من التركية والكرديـــة**

**والاغريقية ، فهذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الغير كما عندنا في أن العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضائله وجماله .. »**

ـ نعم ، فهذه حقيقة مدروسة اجتماعيا ، وتجد مصداقا لها فى ادبنا عند توفيق الحكيم ، وقاسم امين ، والبارودى ، وشوقى ، فكلهم من اصل تركى ولكن كتاباتهم تفيض حبا لمصر

**● وانت ما نسبة الدم التركي فى عروقك ؟**

ـ أول أصل لاسرتى فى مصر هو جدى المباشر الذى وفد من المورة الى مصر ، ولكنى نشأت فى بيت لا يتكلم الا العربية ، فأبى واعمامى نشأوا مصريين . وهذا يعطيك فكرة عن مقدرة مصر على الهضم والتمثيل . ومع ذلك فمن السخرية أنى ، وأنا المصرى دما ولحما ومزاجا وعاطفة ، لا أسير فى الشارع الا ونوديت « يا خواجة » ، ولا يعرض على بائع صحيفة غير « بورص .. بورص » .. أضحك واقول فى سرى : « آه لو كنتم تعلمون » !

## قوة الجذب

**● ما اهم الافكار التى تلح عليك فى قصصك ؟**

اولا : الاعلاء من شأن الارادة وجعلها اساسا لجميع الفضائل . وهذا ناتج عن تصورى ان العالم معركة كبيرة ، والسلاح هو الارادة . وقد أغرمت بأن اصف مرارا شخصية رجل طيب ولكنه ضعيف الارادة فتكون النتيجة انه يجزر وتجد هذا فى قصة « نهاية الشيخ مصطفى » وقد نشرتها فى « السياسة » ولم أضعها فى أى

من مجموعاتي اللاحقة ، ثم فى قصة « أم العواجز » ، و و « السلحفاة تطير »

ثانيا : الشغف بالدراسات النفسية وكانت لى قراءات مستفيضة جدا فى علم النفس وفى تراجم كبار الفنانين المصابين بتمزقات روحية ونفسية ، ومن القصص التى يتضح فيها هذا الاهتمام قصة « مرآة بغير زجاج » ( فى مجموعة « أم العواجز » ) ، « سوسو » فى مجموعة « عنتر وجولييت » . ففى القصة الاولى اشير الى أن كل منا خزانة مقفلة لا يعرفها احد وان سر الحياة فى المقدرة على الجذب ، وفيها تعبير غريب جدا من اربع كلمات : « وعجز يدى عن الامتلاك » ، انه اصدق وصف لاشخاص تضيع منهم محافظهم واموالهم وزوجاتهم لانه ليست لديهم قدرة ايجابية على الجذب

ثالثا : التنبه للمفارقات فى الحياة ، واولى المفارقات جبروت الانسان وضعفه فى وقت واحد . ومن هنا تنشأ نغمة السخرية التى تتمشى فى كثير من قصصى

ومن المبادىء التى كانت تلح على ايضا وصف الحيوان من امثلة ذلك قصة « فلة مشمش لولو » ، « عنتر وجولييت » ، ووصف الحمار فى « خليها على الله » ، والجمل والبقرة والماعز فى « صح النوم »

وفى المرحلة الاولى التى كنت منشغلا فيها بالجنس صورت الغريزة الجنسية كقوة واعية لها ارادتها المستقلة التى تنفذها من خلال البشر غيرمهتمة بقوانينهمولا بأعرافهم

وفى قصة « احتجاج » صورت سيطرة هذه الغريزة على بيت ، لذلك تعمدت ان اكثر فيها من المصطلحات الفسيولوجية : قىء الحامل ، ليلة الدخلة ، غسيل الفوط الصغيرة المبقعة ، رائحة العرق ..

**● يذكرنى هذا بناقد قال عنك أنك مغـــرم بوصف الدمامة ..**

ـ نعم ، لقد اخطأ بعض النقاد فى تفسير وقوفى طويلا لوصف بعض المناظر الدميمة ، فأنت تعلم أن كلاما كثيرا قيل حول انه ليس هناك شىء دميم فى ذاته ولكن فى الطريقة البدائية التى تصفه بها . فأنا فى الواقع قصـــدت الى الوصول بالوصف الى مستوى أعلى تذوب معه الدمامة فى القدرة التعبيرية ، ولاتنس ايضا ان هذا يتيح الفرصة للسخرية . اقرأ مثلا قصة « السلم اللولبى » وستجدنى اصف فيها كلبا يخرج فضلاته .. والمشكلة هنا هى كيف تصفه بحيث لا يبدو دميما ..

**● وما قولك فيما ذهب اليه ناقد آخر من ان « قنديل أم هاشم » ليست قصة ؟**

ـ أنا ادرى الناس بعيوب هذه القصة ، واهمها خلوها من الحوادث ، وربما كان رشاد رشدى على حق حين نفى عنها صفة القصة ، ولكنها تمثل مع ذلك فهمى الخاص للقصة ، فأنا ضيق الصـــدر بالسرد وتتابع الحوادث ، وأحب أن أصل بسرعة الى المغزى والدلالة . وقد شعرت ان لقنديل أم هاشم تأثيرا كبيرا على مختلف المستويات الثقافية ، وكل ما كان يهمنى فيها أن أصور الصدام بين الشرق والغرب ، بين المادة والروح ، بين الثورة على خمول الشعب والرغبة المتأججة فى تحريكه .. كثيرون حدثونى عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم ، منهم اديب يمنى قال لى لقد أحسست انك تصفنى حين اعود من القاهرة الى اليمن . ومرة سألت بائع كتب قديمـــة عنها فقال : امال عارفها مش القصة اللى بتحكى عن الواد اللى سافر اوربا وكان بياكل بفتيك وابوه بياكل طعمية فى مصر !!

ومما يطمئننى بالاضافة الى ذلك ان النقـــاد الاجانب معترفون بقيمة « قنديل أم هاشم » ..

## بينى وبينك

**● يبدو أن روعة « قنديل أم هاشم » قد صرفتنا عن الاهتمام بالمقطوعات الغزلية (( بينى وبينك )) التى الحقتها بها مع ان فيها نغمة شاعرية غريبة النكهة اكاد احس معها بروحانية الصوفية رغم ان موضوعها ارضى حسى ..**

ـ ملاحظتك صائبة فمن التيارات التى سيطرت على اثناء كتابتها نزعة شديدة للتصوف واعلاء شأن الروح ، وقد قرأت فى تلك الفترة كثيرا فى التصوف العربى والاجنبى وفى هذه الاناشيد دعاء الى الله غريب جدا فى صـــدقه وتســـاميه ، وفيها كذلك جانب رمزى يتمثل فى ايحاء الكلمة من بعيد ، وفى عدة مواضع محددة مثل المقطوعـــة الاخيرة التى تحدثت فيها عن انقطـــاع مسبحة من ٣٣ حبة فى حين أن عدد الاناشيد نفسها ٣٣

لقد احسست أنى بكتابة « بينى وبينك » قد دفعت التهمة عن ادبنا من انه ليس قادرا على كتابة شىء مثـــل « انت وانا » لبول جيرالدى

لكم اتمنى ان اعيد طبعها على ورق انيق مزين برسوم صلاح جاهين ، واهديها للفتيات الصغيرات ..

على كل حال تستطيع ان تصف اغلب انتاجى بأنه تأملى وصـــفى تحليلى ، ولذلك فعنصر الخيـــال فيه ضعيف والحادثة كذلك ليست بذات أهمية . ولعل ذلك هو الذى حولنى الى كتابة لوحات كتلك التى نشرتها فى القسم الثانى من مجموعة « عنتر وجولييت »

وبوســـعى أن أزعم انى ساهمت فى الكتابة الفكاهية ، ولعل خير ما يمثلها كتابى « فكرة فابتسامة » ، وان كان الاتجاه الغالب أن الناس الآن تريد فكاهة قائمة على حادثة أو مقلب ، لذلك أعتقد انه قد لا يبتسم من هذا الكتاب الا المثقفون . ومن المقالات القريبة من قلبى فيه « خرج ولم يعد » و « الحكاية وما فيها » و « سبعة فى قارب » التى قدمت فيها تفسيرا لكل النوازع الفنية . وقد شاركت كذلك فى كتابة المقالة الادبية لا الصحفية رغم انها تنشر فى صحيفة يومية

**● هل تعتقد أنك أضفت جديدا للقصة المصرية من حيث شكلها الفنى ؟**

ــ منذ اشتغلت بكتابة القصة القصـــيرة وانا احاول دائما العثور على اشكال جديدة . وربما كنت فى قصـــة « البوسطجى » اول من استخدم « الفلاش باك » ، أى البدء بالاحداث المتأخرة فى القصة . لقد كتبتها فى استامبول وما زلت اذكر تلك الليلة التى وصفت فيها ليل الصعيد ، وكيف شعرت برجفة شديدة وانا اكتب هذا الوصف ، وقد سرنى ان لاحظت بعد ذلك ان بعض الذين قرأوها أحسوا فى هذا الجزء بنفس الرجفة .. « ليل فى ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرغما ، هبط على الفضـــاء حملا ثقيلا ، احاط بالارض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد ، وانحدر ولا حد لاتساعه الى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التى يعلم انها تستقبله وتتشربه فاحتلها يتمطى فيها .. »

ومن الاشكال الجديدة التى حاولت الكتابة فيها الشكل الدائرى . كما فى قصة « السلحفاة تطير » ، أى ان القصة تنتهى من حيث بدأت . وفيها ايضا لعبة فنية اخرى كانت

وليدة احساسى ، وتتمثل فى اختفاء البطل الحقيقى وراء بطل ظاهرى . فبطل القصة الحقيقى هو العامل وليس « داود أفندى »

كشكش بك

**● ما دمت قد ابديت رايك فى معظم كتبك فلنتحدث من بقيتها .. ماذا عن (( صح النوم )) مثلا ؟**

ـ « صح النوم » يمثل فى نظرى التطرف المضر فى تطبيق مبدأ الدقة والعمق فى الاسلوب . فليس فى هذا الكتاب لفظ واحد لم يكن موضع جس ووزن . وفيه صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . والمسألة مع ذلك ليست مسألة صنعة بل مسألة ثراء فى المعانى والاحاسيس التى تتطلب الفاظا لا تتكرر . ومن الاجزاء التى اعتقد انى وفقت فيها منولوج التربى الذى يناجى الطبيعة ، فالانسان لا يلتحم مع الطبيعة التحاما كاملا الا عند الموت . والتربى فى الرواية هو صاحب الحانة الذى لا يستطيع ان يرى الناس الا على حقيقتهم ، فلما اغلقوا له الحانة لم يجد امامه سوى الموتى ليرى فيهم الانسان على حقيقته

**● و « فجر القصة المصرية » ؟**

ـ لقد كتبت تاريخ هذا الفجر بأسلوب درامى فكأنك تقرأ قصة عن القصة . وركزت الكتاب فى نقاط مختصرة واهتممت بابراز المفارقات التى تثير السخرية كقولى عن محمد حسنين هيكل حينما نشر روايته « زينب » بتوقيع « فلاح مصرى » انى لم أر رجلا مثله يتنكر حين يتشرف !

**● و (( خطوات فى النقد )) ؟**

ـ يدل هذا الكتاب على اتصالى منذ وقت مبكر بالوسط

الادبى فى مصر ، ففيه مقالات عن محمود طاهر لاشين ، ورامى ، و « مصرع كليوباترا » لشوقى . واعرف انى متهم بأنى ناقد تأثرى ، ولكنى فى هذا المقال الاخير مثلا تحدثت عن ادق تفصيلات المسرحية فلم اترك حتى الشخصيات الثانوية . وفى مقالى عن توفيق الحكيم قد اكون اول كاتب فى مصر تكلم فى قضية الفن للفن والفن للمجتمع ، وكذلك نقدت « عودة الروح » نقدا شـــديدا لان الذى يدافع عن مصر فيها رجل فرنسى ..

وفى مقالى عن مصطفى محمود تحدثت عن كيفية نشوء الفكرة لدى الكاتب ثم كيف يخرجها على الورق ، كما قدمت تفسيرا اجتماعيا لشخصية كشكش بك يتضح فيه مدى حبى لمصر واشفاقى عليها

## النقد والترجمة

**● من المعروف أن فى قلب كل فنان كبير ناقدا كبيرا ولكن قل أن يخرج هذا الناقد الى حيز الوجود ، وقل من استطاع ان يجمع مثلك بين النقد والانتـــاج الفنى الممتاز ، كيف تفسر اهتمامك بالنقد الادبى على هـــذه الصورة الواضحة ؟**

ـ اعتقد ان المثل الاعلى هو الفنان المحـــض الصرف الذى لا يشغل نفسه بالنقد . الفنان فيض ، اضافة ، نافورة تتفجر بالجمال . ومن المعروف انه لا نقد الا بعد انتاج . وفى اعتقادى أن الفنان الذى يشتغل بالنقد اما أن تكون تدفقه غنى جدا وموهبته كبيرة جـــدا بحيث لا تؤثر اشتغاله بالنقد على فنه ، واما أن تكون قدرته على الفيض الفنى محدودة ولا ترضيه ، فيحاول التعبير عن افكاره بكتابة المقالات النقدية ما دام لم يشملها تدفقه

الفنى . وعندنا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ لم يكتبا سطرا واحدا فى نقد الانتاج الادبى المعاصر

وبهذه المناسبة يحضرنى البيت القائل :

انام ملء جفونى عن شـــــواردها
ويسهر الخلق من جراها ويختصم

وهذا هو مثال الفنان الذى يعلو عن الاشتغال بالنقد لانه مكتف نفسه بنفسه

**● هل معنى هذا اننا نســـتطيع الربط بين اهتمامك بالنقد الادبى فى الفترة الاخيرة وبين قلة ما تكتبه من قصص ؟**

ــ قلة كتابتى للقصة راجع الى التحول الجذرى الذى شمل مجتمعنا . فجميع الامال التى كانت تشغل خيالنا قد تحققت . اصبحنا فى مجتمع جديد ما زال الانســان يتحسسه ليرى من اين يقبض على ناصيته . وانا ضيق الصدر بكل القصص التى تعالج مساوىء العهد القديم . اريد قصة تصور فلاحا تسلم خمسة فدادين من الاصلاح الزراعى ، وتأثير ذلك عليه ، وكيف حمل المسئولية .. كيف تغيرت حياته . واقول لعل الامل ان ينشـــأ مع محاولات محو الامية ووسائل نشر الثقافة من بين هـــذه الجموع ذاتها من يعبر عنها وعن حياتها

**● لم نتحدث عن جهودك فى الترجمة ..**

ــ ان اهتمامى باللغة العربية الذى حدثتك عنه يجعلنى احب جدا ان اشتغل بالترجمة لانها هى التى تجبرنى على تطويع العربية للاستجابة لمطالب العصر الحديث .والترجمة عمل شـــاق مرهق جـــدا . وقـــد حدثت فى مصر تجربة رائعة لم يلتفت اليها أحد ، وهى صدور مجلة «المختار» فى عهـــدها الاول حين كان يتـــولى ســـكرتارية تحريرها

محمود شاكر ، فقد استطاعت ان تجد التعبير العربى للحياة الامريكيةالمعاصرة . وكان ذلك عملا عجيبا وفريدا لم يحظ بأى اهتمام مع الاسف ، وكنت اسهم بالترجمة فيه الى جوار اعلام كبار مثل فؤاد صروف ، والمازنى ، وعلى حسنى ، فى حين كان محمود شاكر يراجع كل الترجمات ..

## استمرار الفنان

**● لوحظ انك فى السنوات الاخيرة كتبت مقدمات كثيرة لمجموعات القصاصين الشبان ، ويقول البعض انك كتبتها بأسلوب دبلوماسى ..**

ـ لم أكذب فى أى مقدمة كتبتها ، بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق جدا ، ولكنى أغضب حين يوصف نقدى بأنه دبلوماسى لأن هذا معناه أنه نقد منافق . وأنا سعيد جدا بتقديم عدد كبير من هؤلاء الادباء الشبان وبخاصة محمد سالم ، والشبان الستة الذين اشتركوا فى اصدار مجموعة « عيش وملح »

**● لاحظ كذلك انك شديد الاحتفاء بعدد غير قليل من الادباء الشبان تقرأ كتاباتهم وتناقشهم فيها باهتمام ..**

ـ انا لا انسى ابدا ما فعله « فلوبير » بجى دى موباسان اذ كان الثانى يقف من الاول موقف التلميذ من الاستاذ يعرض عليه انتاجه ويتقبل نصائحه ، فالحنو على الجيل الصاعد ليس مسألة عاطفية ابدا ، والفنان الصادق هو الذى يشعر أن المعبد أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن يسلمه جيل الى جيل آخر وهكذا . وطبعا هناك لذة الاب حين يرى ابنه يتقدم ، ولكن اللذة الاساسية تتعلق بوجود الفنان واستمراره

**● انت بهذا كله من أقرب أدبائنا الكبار لكتابات الأدباء الجدد ، ما أهم العيوب التى تلاحظها عليهم بشكل عام ؟**

ـ عيوب الجيل الجديد واضحة جدا وهى : فقر لغوى شديد ، ولا أقصد بذلك الاخطاء اللغوية او النحوية ، وانما اقصد بالفقر الثروة اللغوية التى فى أيديهم . فالوصف مثلا هو نقل من العام الى الخاص ، وهم لا يستعملون فى الاغلب الا الالفاظ التى تصلح للعام مع ان المطلوب نقلها الى الخاص الذى يصفونه . عند « توماس مان » مثلا لا تجد شيئا الا موصوفا بصفتين أو ثلاث على الاقل ، والمقصود بذلك التخصيص لا التعميم . ولذلك ترى هؤلاء الادباء الشبان يهيمون هياما شديدا بكلمات بعينها تتكرر عندهم مرارا مثل « دلف الى » ، وفى بعض الأحيان حين ينقضى نهارى فى الاستماع الى هذه القصص من فم كاتبيها اجدنى اقول فى سرى وانا أهم بالنوم « ها انا ادلف الى فراشى »

وثانى العيوب تتمثل فى فقر الاحاسيس .. العواطف عندهم ان لم تكن فى المرتبة الدنيا فهى فى المرتبة الوسط

ويلى ذلك فقر فى الاتصال بالطبيعة عن طريق الحواس الخمس ، ثم سذاجة فى استعمال الرمز الواضح ، والمفروض فى الرمز ان تكون القطعة مفهومة على نحو ولكنها تخفى وراءها معنى آخر

ويبقى بعد ذلك تقيد معظم الادباء الشبان بطريقة سرد رتيبة ، وان كان هذا لا يمنع من وجود محاولات للتجديد عند بعضهم مثل محمد حافظ رجب ويحيى عبد الله ، ويجب أن نحتفى بهذا التجديد ولا نخاف منه

## دور المجلة الأدبية

**● أدبنا الحديث ماذا ينقصه ليصبح أدبا عالميا ؟**

ـ ادب الامم المتحضرة وصل الى الغايات النهائية فى الكشف عن النفس البشريه وعن المسائل الاجتماعية والقضايا الروحية والفلسفيه ، ويخيل لمن يقرا ادبنا الحديث اننا لا نزال فى منتصف الطريق ، كلامنا وسط. فالامل عندى هو بلوغ الغايات الممكنه لطاقة الانسان ، وحين نبلغ هذه الدرجة سنجد أدبنا الحديث يحتل مكانه فى المكتبة الغربية

أما الآن فما زالت القضايا فى أدبنا غير مدروسة باستيعاب وعمق انسانى يوافق العصر الذى نعيش فيه، انها ما زالت اشبه بموضوع انشاء يكتبه تلميذ متخرج من مدرسة ابتدائية بالقياس الى بحث يكتبه خريج جامعة ، لذلك اعلق أهمية كبيرة على الترجمة لانها هى التى تبصرنا بالمستويات التى بلغها الادب لدى هذه الامم المتحضرة ..

**● تتعرض المجلات الادبية بين الحين والآخر لهجمات قاسية ، ما رأيك فى وضع هذه المجلات ودورها باعتبارك رئيس تحرير مجلة « المجلة » ؟**

ـ سأقصر اجابتى على مجلة « المجلة » وقد يصدق ما أقوله عنها على بعض المجلات الادبية الأخرى ولا يصدق على بعضها الاخر • لقد نشأت « المجلة » عن فكرة تقول انه لا يمكن لشعب يحترم نفسه ان يعيش ويتغذى على قزقزة اللب والحمص والفول السودانى ، بل لابد له من اكل حقيقى يغذيه لكى يجعله بنى آدم لا يلهث مع المتسابقين ولا يتخلف عن الذين يجرون ، ولا تكون

جبهته معتمة بل وضاءة ، ونظرته غير منطفئة بل لماحة ، وركبتاه غير مخلخلتين بل ثابتتين فوق قدمين راسختين على الارض . وكانت هناك شكوى تتردد من ان كثيرا من الابحاث الجادة لا تجد مجالا للنشر لان الصحف والمجلات لا تنشر الا الكلام السهل البسيط المسلى ، اللب والحمص والفول السوداني .. كنا في حاجة الى مجلة نتبادل بها مع الجامعات والمؤسسات الثقافية في الخارج .. مجلة تفك عزلة الجامعات المصرية وتقوقعها داخل الجامعة فتكون مهيئة لنشر أبحاثها أيضا . هذه هى رسالة مجلة « المجلة »

هل معنى هذا انها منعزلة عن المشاكل الواقعية ؟ العكس هو الصحيح ، فهى كلما عثرت على بحث يعالج هذه المشاكل على المستوى الذى تتطلبه ، أى البعد عن النغمة الخطابية والدعائية والتبسيط ، فانها تنشره ، بل تسعى اليه وتطلبه

وخدمة الشعب ، وهذا مما يغيب على الكثيرين ممن يكتبون فى هذا الموضوع ، لها طريقان : طريق مباشر ، وطريق يدور ليصب على بعد ، ولكنه لا يقل أهمية عن الطريق الاول فى سند المجتمع وانهاضه وتحصينه ضد الامراض ، وأول هذه الامراض واخطرها الجهل العام ، والجهل بما يجرى حولنا

وهل هناك خدمة للشعب اجل واسمى من اثراء التفكير القومى ورفع مستواه ، ووضعه على قدم المساواة — ما امكن — مع البلاد المتحضرة ؟

قد لاتباع «المجلة» بعشرات الآلاف ، ولكنها لو استطاعت احداث تاثير فى الصفوة من الامة العربية التى تتولى القيادة فى جميع المجالات تكون قد أدت رسالتها

**● هل تعتقد أن « المجلة » أدت هذه الرسالة فعلا ؟ ما العقبات التى تحول بينها وبين ذلك ؟**

ـ أهم هـذه العقبـات ترجع الى أن زحمـة العيش وتشابك المصالح يحولان بين العنـاصر العلمية والادبيـة وبـين التنبه الى رسالتها فى احتضان « المجلة » وتبنى رسالتها . فما لم تشعر الطبقة المثقفة ان هذه المجلة هى مجلتها ، فانها ستظل تنضح من بئر غير فياضة ، ولا تنس أن من أهم أغراض « المجلة » الكشف عن المواهب الناشئة فى الجيل التالى وتشجيعها

**● يأخذ عليك البعض ـ وأنا منهم ـ أنك تكاد تكون رئيس التحرير الوحيد الذى لا يكتب بانتظام فى المجلة التى يرأس تحريرها**

ـ أنا أتصور وظيفة رئيس التحرير لا على أن الدولة سلمته مجلة ليتبجبح فيها كما يشاء ، ويطلع على القراء بمقال له كل شهر ، بل ان ينشر على القراء احسن ما يصله ، ومن بين ما يصله مقالته هو ، فاذا وجد فيمـا يصله ما هو افضل منها نشره دونها . وارجع الى ما ذكرته لك فى مستهل حديثنا عن عامل الحياء فى أسرتى

**● ما المشروعات الادبية التى تشغلك فى الوقت الحالى؟**

ـ أريد ان أنتهى من كتابة الجزء الثانى من « خليها على الله » ، وقد كتبت بعض فصوله فعلا . وفى ذهنى موضوع رواية أريد أن أكتبها ، تدور حـول الخوف فى النظام السابق .. خوف صاحب المصنع من العمـال ، وخوف العمال من صاحب المصنع ، ومن بين الشخصيات الرئيسية فى الرواية عامل يتجسس على زملائه لحساب صاحب المصنع .. انها شخصية الوصولى الطفيلى .. وقد تنتهى القصة بحريق المصنع كله ..

وامتدت يد يحيى حقى الى علبة سـجائره تبحث عن

ســـــيجارة ربمــا للمرة العشرين ، فاذا بالعلبة خاوية ، وكذلك كانت علبتى .. لقد اســـتغرقنا الحديث حتى أتينا على كل سجائرنا .. ونظرت الى ساعتى لاول مرة منذ جلست ، فاذا بهــا قــد جاوزت منتصف الليـــل ، ومعنى هذا أن حديثنـــا قد اســـتغرق أكثر من اربع ساعات ، ومع ذلك وجدتنى مشــوقا لســماع المزيد من ذكرياته وآرائه وتأملاته ، ولكنى خشيت ان ارهقه أو أثقل عليه ، فاستأذنت وقمت لاودعه وأنصرف ، ولكنه أصر على توصيلى حتى محطة المترو ، وظل منتظرا معى حتى جاء القطار ، وقبل أن يتحرك قطــار المترو نظرت اليه لاحييه ، فاذا به سارح شارد يسير بخطى وئيــدة ثقيلة أحسست معها أنه قد عاد بخياله الى بعض ذكريات حياته الماضية التى كان يجترها معى الليلة .. وسرعان ما غاب عن ناظرى ..

( اكتوبر ١٩٦٤ )

— ٦ —

# محمد فريد أبو حديد

❋ كتبت أوبرا لأم كلثوم وعبد الوهاب ..

❋ أرفض الشعر الجديد الا اذا كان ملحمة أو مسرحية

❋ جعلت « عنترة » رمزا للشعب المصرى الذى كان محروما من حريته ..

حين يؤرخ لادبنا الحديث تأريخا علميا دقيقا سيكون لمحمد فريد أبو حديد مكانته البارزة فى هـــذا التاريخ لسببين هامين ، أولهما جهده الغزير فى كتـــابة القصـــة التاريخية والتقدم بها وبأهدافها الفنية والانسانية . وثانى الاسباب التى سيحتل من اجلها محمد فريد أبو حديد مكانة بارزة فى تاريخ أدبنـــا الحديث ، هو اســتخدامه للشعر المرســل لاول مرة فى أدبنـــا فى ترجمته لمسرحية « ماكبث » لشكسبير وغيرها من المسرحيات الشعرية ، ومن ثم فهو يعتبر الاب الروحى الذى مهد لظهور حركة الشعر الجديد المتحرر من الوزن والقافية ، وان كان له مع ذلك رأيه الخاص فى هذه المدرسة الشعرية ، وهـــو رأى قد لا يرضى اتباعها والمتشيعين لها .. على أن هذا حديث طويل فى حاجة الى تفصيل وتوضيح ، ومن الخير أن نسمعه على لســـان صـــاحبه مع كل ما يتعلق بأدبه وحياته ..

ــ حياتى .. ليس فى ظروف حياتى ما يمكن ان اقول

انه شاذ أو خارق للعادة .. طفل نشأ فى بيئة متوسطة الحال .. أبوه موظف فى الدائرة السنية ، ظل يعمل بها حتى صفيت ، وبعد تصفيتها اشتغل بأعمال خاصة كثيرة أهمها الزراعة .. كانت عنده قطعة صغيرة من الارض البور ، فعمل فى استصلاحها وزراعتها ، وقد نشأت مع ذلك الاب فى حضن الريف فى بيئة بجوار دمنهور ، وتعلمت فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى المدينة ، ولم يكن بها مدرسة ثانوية ، فانتقلت الى الاسكندرية حيث التحقت بمدرسة « رأس التين » الثانوية ، ثم « العباسية » الثانوية ومنها حصلت على البكالوريا سنة ١٩١٠ .

**● وما تاريخ ميلادك ؟**

ـ أول يوليو سنة ١٨٩٣

**● هل لتسميتك « محمد فريد » صلة بالزعيم الوطنى الكبير محمد فريد ؟**

ـ بالطبع فقد كان والده فريد بك المدير العام للدائرة السنية التى كان والدى يعمل موظفا بها ، فلما رزق بولد أسماه محمدا ، وأسمانى والدى محمد فريد تيمنا باسمه

**● ماذا بعد البكالوريا ؟**

ـ بعد البكالوريا كنت أطمع فى الالتحاق بمدرسة الحقوق ، ولكن حالت بينى وبين ذلك بعض الظروف أهمها عجز والدى المادى ، فالتحقت مضطرا بمدرسة المعلمين العليا ، اذ كانت الدراسة فيها بالمجان فضلا عن أنها كانت تمنح طلابها مكافأة شهرية قدرها جنيهان

وأقول التحقت بها مضطرا لانى لم أكن راضيا عن المستقبل الذى ينتظرنى كمدرس ، وخاصة أنى من القسم

الادبى والمفروض ان تكون اللغة الانجليزية من بين المواد التى اقوم بتدريسها بعد تخرجى ، وانا مؤمن ان اللغات لا يجيد تدريسها غير ابنائها ولم اكن مستعدا لتدريس لغة غير لغتى

المهم تخرجت سنة ١٩١٤ ، وكانت ظروف الحرب العالمية الاولى قد جعلت وزارة المعارف توقف التعيين نهائيا فى مدارسها ، فعملت مع بقية دفعتى فى المدارس الحرة .. مدرسة القاهرة والمدرسة الاعدادية ، ومدرسة وادى النيل ، حتى كانت سنة ١٩١٩ فدعتنا وزارة المعارف للعمل فى مدارسها وعينت فى مدرسة بنى سويف الابتدائية ..

**● ألم تشارك فى احداث ثورة ١٩١٩ ؟**

ــ بل شاركت مع بقية الشباب ، فكنا نحضر الاجتماعات الوطنية فى الازهر وفى حى الحسين ، وكنت اسير فى المظاهرات ، وأشترك فى الاجتماعات التى تعقد فى الاحياء الوطنية لتصفية الخلافات بين مختلف الطوائف للمحافظة على وحدة الشعب

**● ألا تذكر حادثة معينة من احداث الثورة قمت فيها بدور ايجابى ؟**

ــ اذكر وانا مدرس فى مدرسة وادى النيل ، وكانت مكان المدرسة الالمانية بباب اللوق الان ، وكان الى جوارها مطبعة جريدة ــ المقطم ــ التى كانت متهمة بمناصرة الانجليز ضد الوطنيين ، وتعرضت بسبب ذلك لهجمات المتظاهرين الذين أشعلوا فيها النار اكثر من مرة . ويبدو أن بعض الوشاة أوحوا للسلطات الانجليزية ان مدرسى مدرسة وادى النيل وتلاميذها هم الذين يحرضون على اشعال هذه الحرائق . فاذا بنا ذات صباح امام قوة

كبيرة من قوات الاحتلال تريد اقتحام المدرسة والتنكيل بمدرسيها وتلاميذها ، فتعرضت لهم واستطعت أن أقنع قائدهم أن هذا العمل لا يليق وأن لدور العلم قداستها ، وأنه ليس من المعقول أن تكون المدرسة كلها تحرض على اشعال الحرائق ، وحتى اذا صح أن من بين أفرادها من قام بذلك ، فمن الخطأ أخذ البرىء بذنب المخطىء وبعد مناقشة طويلة أمكننى اقناع الضابط وانقـــاذ الاطفال والمدرسين مما كانوا سيتعرضون له من بطش وتنكيل

● **نعود الى أهم احداث حياتك .. ماذا بعد مدرســة بني سويف الابتدائية ؟**

ـ ظللت فيها ثلاث سنوات ، ثم وجـــدت من ظروف الحياة الوظيفية ما جعلنى أفكر فى الاســـتقالة والعــودة للتعليم الحر مرة أخرى

● **ماذا تقصد بظروف الحياة الوظيفية ؟**

ـ معاملة رجال وزارة المعارف فى ذلك الوقت للمعلم لم تكن كريمة ، فبعد أن عملت فى بنى سويف ثلاث سنوات طالبت بنقلى الى القاهرة ، وهذا حق أو تقليد كان متبعا حينئذ ولكن وكيل الوزارة فى ذلك الوقت رد على طلبى بقســوة ، ورفضه بجفــاف دفعنى الى التصــميم على الاســتقالة . وفى نفس الاســبوع قابلت صديقا يعمــل بوزارة الاوقاف ، فعرض على أن أنتقـــل للتـــدريس بمدارسها ، فقبلت ، وظللت بها أحــد عشر عاما ، حتى اضيفت مدارس وزارة الاوقاف الى وزارة المعـــارف ، فوجدتنى فى وزارة المعارف مرة أخرى

فاتنى أن أذكر لك أنى ظللت على تعلقى بدراسة القانون رغم اشتغالى بالتدريس ، فالتحقت بمدرسة الحقــوق وأنا مدرس وحصلت على الليسانس سنة ١٩٢٤ أى بعد

عشر سنوات من تخرجى فى مدرسة المعلمين

● **وهل اشتغلت بالمحاماة ؟**

ـ الواقع أننى أثناء ممارستى للتدريس أحببته وتعلقت به ، وبخاصة عندما أتيح لي أن أستقر فى مدرسة « الامير فاروق » روض الفرج الثانوية الان ، فقد تعاملت فيها مع مجموعة ممتازة من الطلبة أحسست بمدى أثرى فيهم ، وبجلال رسالة المعلم من خلال اتصالى بهم ، فبقيت مدرسا ولم أحاول الاستفادة من ليسانس الحقوق

## صدمة مسرحية

● **هل كان لك نشاط أدبى فى تلك الفترة ؟**

ـ نعم ، بدأت أقوم ببعض الاعمال الادبية فترجمت ملحمة « سهراب ورستم » للشاعر الانجليزى ماتيو أرنولد ، وحولتها الى مسرحية ، مثلها طلبة المدرسة وكان من بينهم مواهب ممتازة كالمرحوم فاخر فاخر ، والاستاذ عبد الخالق صالح ، وحققت بالفعل نجاحا كبيرا ، كان من شأنه أن أستمر فى الكتابة للمسرح ، ولكنى لم أفعل

● **ولكنى أعلم أن لك محاولات أخرى فى المسرح مثل « ميسون الغجرية » ؟**

ـ هذا صحيح ، ولكنه في مرحلة متأخرة بعض الشىء وقد كتبت « ميسون الغجرية » فى شكل اوبرا بقصد أن يجتمع في تمثيلها وغنائها ام كلثوم وعبد الوهاب ، ولكن عبد الوهاب غضب على وقتها ففشل المشروع . وقبلها كتبت مسرحية غنائية اسمها « وردة » مثلتها فرقة « أولاد عكاشة » وكانت اصواتهم رديئة فى الغناء ، ففشلت المسرحية فشلا ذريعا وصدمتنى هذه التجربة

صدمة كبيرة لعلها كانت من أسباب انصرافى عن الكتابة للمسرح • غير أنى فى نفس الفترة تقريبا كتبت مسرحيتين أخريين ، ولكنهما لم تمثلا وهما « خسرو وشيرين » و « عبدة الشيطان » . والاولى كتبتها حوالى سنة ١٩٣٢ على ما أذكر . .

**● ولا بد أن أذكر هنا أيضا ترجمتك لمسرحية « ماكبث » بالشعر المرسل وأثرها فى نشأة الشعر الجديد المتحرر من قيود الوزن والقافية**

ـ وكل المسرحيات التى ذكرتها لك كتبتها بالشعر المرسل ..

**● ما السبب فى ذلك ؟**

ـ سببه أنى أحس أن شعرنا العربى التقليدى المقفى ضيق على موضوعات كثيرة ، والمسرحية بحكم تنوع مواقفها ومشاعرها أحوج ما تكون لشىء من التحرر فى الوزن والقافية وكم كنت أتمنى لو كتب شوقى مسرحيته ـ مصرع كليوباطرة ـ بالشعر المرسل اذن لكان الميدان يصبح أرحب أمامه للاجادة والتفوق

على أن الشعر المرسل أو الحر او المنطلق يجب أن يكون موضوعه اما ملحمى او تمثيلى ، أما فيما عدا ذلك فيجب ان يكون الشعر موزونا ومقفى ، لان الموسيقى فى الشعر الغنائى أهم من التحرر

**● اذن فأنت ترفض الشعر الجديد كله باستثناء ملحمة (( من أب مصرى الى الرئيس ترومان )) ، ومسرحية (( مأساة جميلة )) لعبد الرحمن الشرقاوى ؟**

ـ نعم أرفضه حين يكون من نوع التعبير عن عاطفة او فكر ..

● **أى أنك ترفض شعر صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وأمثالهما من أتباع الشعر الجديد لان كل قصائدهم أما تعبير عن عاطفة أو فكر ؟**

– اذا شئت أن تؤول كلامى هكذا فأنا موافق ..

● **نعود الى ما انقطع من حـــديثنا عن انتاجك الادبى المبكر ..**

– أثناء عملى بالتدريس كان التـــاريخ من بين المواد التى أدرسها ، وقد شغفت به وقرأت فيه كثيرا ، وتوفرت على دراسة التاريخ المصرى وبصفة خاصة تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ففيهما تقع الاحـداث التى تمهد او تبشر بصحوة الوعى العربى السابقة لمحمد على . لذلك فقد تعلقت بتلك الفترة تعلقا عاطفيا ، فقد اكتشفت أن روح مصر المناضلة بدأت تظهر فيها ، كما وجد خلالها زعماء شعبيون امثال السيد عمر مكرم ، وكانت هـذه الدراسة وهذا التعلق العاطفي بمثابة التمهيد لتاليف اول رواية تاريخية عن ذلك العصر وهى « ابنة المملوك » كتبتها حوالى سنة ١٩١٨ ، ولكنى لم أنشرها الا سنة ١٩٢٤

وقد حاولت فى هذه القصة أن أرسم صورة لمصر كما بدت لى من دراستى التاريخية . وليس معنى هذا أنى قصدت الى رواية احداث التاريخ ، فقد اكتفيت بخلق الجو التاريخى لتلك الفترة ، واهتممت بعد ذلك بابراز الروح الانسانى العام متمثلا فى « على » بطل القصـــة وبطلتها ابنة المملوك . على أن أهم ما فى القصـــة هو الدور الذى لعبه الشعب المصرى وعمر مكرم فى مرحلة بدء الوعى الوطنى التحررى

.....

# الزير سالم

اتجهت بعد ذلك الى تأليف روايات من نوع اخر . حاولت أن أبرز فيها الروح العربى من خلال دراستى للتراث العربى القديم سواء أكان ادبا ام تاريخا ام « فولكلور » . فكتبت « الملك الضليل » عن مأساة الشاعر الجاهلى امرىء القيس ، و « المهلهل بن ربيعة » وهو المعروف فى الادب الشعبى باسم « الزير سالم »

وتوقفت كثيرا عند شخصية عنترة بن شداد المطالب بحريته وبمكانته بين قومه الذين لم يبلغوا فى الدفاع عن قبيلته مثلما بلغ ، ولكنهم حرموه من مكانته اللائقة به لانه عبد .. وقد اتخذته رمزا للرجل الحر فى نفسه المغمور بين قومه ، وكان فى نفسى رمزا للشعب المصرى الذى كان محروما من حريته ومن حقوقه مع أنه العمود الفقرى فى الانتاج والدفاع عن البلاد ، فعالجت قصته على هذا الاساس فى روايتى « أبو الفوارس »

ومن التراث العربى استوحيت كذلك رواية « سيف ابن ذى يزن » وهو شخصية فولكلورية ذات أصول تاريخية ويعرفه ادبنا الشعبى باسم « سيف اليزل » . وهذه الرواية محاولة لاظهار سعى الامة العربية فى اليمن الى تحقيق حريتها والتخلص من الطغاة المتحكمين فيها كما أنها تصور الحب الصحيح حين تتعرض له صروف القدر فتحول بينه وبين تحقيق أمنيته ، فقد انتصر سيف ابن ذى يزن فى مغامراته الحربية ، ولكن انتصاره لم يحقق له السعادة التى توقعها لانه فقد أثناءه حبيبته

وفى سلسلة القصص التاريخية اذكر رواية « زنوبيا » التى نشرتها مسلسلة فى مجلة « الثقافة » القديمة منذ

انشائها قبل جمعها فى كتاب • والفكرة المنطوية فيها هى فكرة العاطفه الانسانيه الماثله فى الحب وكيف كان لهذه العاطفه اثرها الكبير فى حياة الامم والشعوب • وحاولت أن احلل فيها معنى الحب الاسمى الذى يؤثر تأثيرا عميقا فى الحياة وما يرتبط بهذا الحب من معان عقليه ونفسية وتحليلات للوجود الانسانى

أما قصة « آلام جحا » فهى من القصص الفولكلورية وان عالجت موضوعا اجتماعيا بأسلوب ساخر ، وهى جزآن ••

الجزء الاول يصور جحا فى حياته الخاصة ببلدته « ماهوش » ومعناها « ما هو شىء » ومضمون هذا الجزء يتلخص فى التعبير الشعبى « قلنا كده قالوا اطلعوا من البلد » • وفعلا غادر جحا بلده « ماهوش » الى مدينة « جانبولاد » ومعناها باللغة التركيه « النفس الحديديه » ويروى لنا الجزء الثانى « جحا فى جانبولاد » وقد نشر وحده فى سلسلة « اقرأ » مغامرات جحا فى هذه المدينة المختلة القيم ، وكيف استطاع أن يبذر بذور الثورة فى نفوس أهلها على ما يتعرضون من ظلم واستبداد ، حتى اذا قبضت عليه السلطات الحاكمة ، ثار الشعب واخرجه من السجن وبدل حاكميه بحكام صالحين بعد أن رفض جحا تولى الحكم ، واكتفى بأن يصبح مستشارا للحكم الثورى الجديد فى جانبولاد

● **هل تأثرت فى رواياتك التاريخية باحد من مشاهير كتاب الغرب ؟**

ـــ نعم ، بسير والتر سكوت فقد أغرمت به من زمن بعيد وقرأت معظم رواياته وتأثرت بها بلا شك ••

● **يروى بعض النقاد أنك تأثرت كذلك بمآسى شكسبير التاريخية ؟**

ـ لا أستبعد ذلك ، وربمـــا وضح ذلك فى « الملك الضليل » و « المهلهل بن ربيعة » حيث شخصية البطل ذات طبيعة تراجيدية بمعنى أنه يحمل فى نفسه نقصا أو عيبا يؤدى الى سقوطه فيما بعد ويتسبب فى مأساته .. وعلى كل حال لقد قرأت شكسبير وتأثرت به تأثرا عاطفيا كبيرا ، وان كنت أختلف معه فى بعض أفكاره ، وفى الجزء الذى كتبته فى الكتيب الذى صـــدر عنه فى سلسلة « اقرأ » اخترت نصوصا من مسرحياته توضح أن رأيه فى الوجود ناقص ، ويتضح ذلك فى « العاصفة » و «عطيل» بصفة خاصة ، حيث نرى وجود النفس البشرية مقيدا بالظروف المحيطة به وحدها ، وهى نظرة ناقصة تلغى ارادة الانسان . وهو يعتقد أن الفناء كلى ، وأنا أرى أن هناك جزءا يبقى من الانسان بعد فنائه ولو لم يكن ممثلا فى جسد بشرى . فوجودنا لا ينتهى بالوفاة . بل يظل ماثلا فى استمرار الوجود الانسانى والمجتمع البشرى

**● ما منهجك فى كتابة الرواية التاريخية ؟ هل تكتفى بعرض أحداث التاريخ بأسلوب مشوق ، أم تتخذهـــا وسيلة لعرض أفكار معينة ؟**

ـ التاريخ فى نظرى وسيلة لتهيئة الجو لاحـــداث الرواية لا أكثر . وداخل هذا الجو التاريخى أتصرف كما يحلو لى حســب الروح التى تمليهـــا على الاحـــداث والشخصيات والافكار التى أعالجها . وكل جـو تاريخى أرى داخله النفس البشرية الخالدة التى اســـتمرت فى الماضى ولا تزال مستمرة فى الحـاضر وستستمر فى كل وقت . فقد تختلف الوجوه والملابس والعقائد والعادات ولكن النفس البشرية واحدة فى كل زمان ومكان

أما اذا وجـــدت فى الرواية شخصـــــيات تاريخية حقيقية ، فانى احافظ على الوقائع التى ثبتت تاريخيـا ، وأجتهد فى تفسيرها وتاويلها بما يتفق مع منطق الظروف والشخصيات • فمثلا فى قصتى القصيرة « حبيب آمون » فى مجموعة القصص التاريخيـــة التى أســـميتها « مع الزمان » صورت رجوع « توت عنخ امون » عن عبـــادة أتون بعد أن كان مؤمنا بها ، وفسرته بتأثير الكهنة عليه وخوفهم على مصالحهم ، وتحذيرهم له من الآثار المـــادية والدنيوية التى ستحيق به لو ظل على عقيدته فى عبـادة أتون ، وهو ما لم تذكره المراجع التاريخيه

وفى رواية « زنوبيا » نجد أن المصادر التاريخية ــ مثل « نهضة الدولة الرومانيه وسقوطها » لجيبون ــ تقـول انه بعد هزيمة زنوبيا امام الجيوش الرومانية ، واثنـــاء محاكمتها أمام القائد الرومانى ، وقف معلمها الفيلسوف « لونجين » ليعترف بأنه هو الذى حرضها على مقـــاومة الجيوش الرومانية ، فحكم عليه بالقتل مع « زنوبيـــا » رغم اعتراضها على أقواله . ولكى أبرر هذا التصرف فى الرواية جعلت « لونجين » يحب زنوبيا من طرف واحـد حبا قويا عميقا مبعثه العقل والقلب معا ، اذ كانت زنوبيا بالاضافة الى جمـــالها من أرقى نســـــاء عصرها ثقافة وأسماهن فكرا • وكان هذا تأويلى للموقف التاريخى

## الفوارق الطبقية

● **ألم تحاول تاليف رواية عصرية ؟**

ــ بل حاولت •• فى « أزهار الشـــوك » وهى تدور حول الفوارق الطبقية ، والموانع التى تفصل بين مختلف الطبقـات ، وكيف أن بعضها مادى •• ولـــكن الموانع

النفسانية ، والاجتماعيـــة أقوى • فقد أحب فؤاد بطل القصة فتاة ريفية اسمها « تعويضة » وبادلتـــه الحب ، ولكن كان في نفسيهما جدار مشترك صنعته الفـــوارق الطبقية ، وجعلت كلا منهما يشعر أنه لا يمكن أن يصلح زوجا للآخر ..

وتزوجت « تعويضة » الفتى البـــدوى « قوية » ولم تقدر لهما السعادة لان مالك الارض الجـــديد اشتهى الزوجة ، فلما امتنعت عليه وصـــدته ، دبر تهمة باطلة لزوجها ، وألقى به فى السجن وعاد يراودها عن نفســها فقتلته وهربت بعد أن دمرت حياتها • وخرج الزوج من السجن محطما مجذوبا لا يصلح لشيء ، وهنا تلمس الاثر المادى للفروق الطبقية وللنفوذ الظالم الذى كانت تمارسه طبقة الاثرياء ومالكى الارض الجشعين مع الطبقة الدنيا الكادحة وآثاره المدمرة فى حياتهم

وفى الوقت نفسه نجد فى الرواية علاقة عاطفيةأخرى بين « فؤاد » وفتاة من نفس طبقته فكر فى الزواج منها ، وحينما ازداد اقترابا منها وجد أن بينه وبينها من الموانع النفسية والعاطفية والعقلية ما لا يقل عما كان بينه وبين « تعويضة » الفلاحة فآثر الانسحاب

ان الفتاة الفلاحة فى هذه الرواية اشبه بزهرة البازلاء الجميلة النضرة ، ولكنها موجودة وسط حقل من الاشواك تتمثل فى الفوارق والحوائل الطبقية التى قضت عليها وعلى زوجها وحرمتها الحب والسعادة

**● روايتك « أنا الشعب » هل تعتبرها رواية تاريخية أم اجتماعية عصرية ؟**

ـ الواقع انها تاريخية واجتماعية عصرية فى نفس الوقت ، فهى تاريخية لانها تعرض لفترة من تاريخنـــا المعاصر هى الفترة السابقة لقيام ثورة ٢٣ يوليو ، وهى

اجتماعية لانى حللت فيها بعض مشكلاتنا الاجتماعية الحضارية • لعل أهمها مشكلة الفتاة الفقيرة التى تتطلع الى التمتع بمتع الحياة ومباهجها ولو كان الثمن شرفها ، فينتهى الامر بها الى الاحتراف ، وتصبح نهبا لكل من يملك الثمن •• فالانقلابات السياسية لها آثارها فى الاخلاق والفضائل ، والطموح الى الترقى المادى ليس دائما طموحا نحو الحياة الفضلى .. وكثيرا ما يؤدى الى التضحية بالغالى ، كما حدث مع « فطوم » فى الرواية

● **أعلم أنك شاركت فى التأليف للأطفال •• ؟**

ـ نعم ، فقد ألفت لمجموعة « أولادنا » قصة « كريم الدين البغدادى » و « عمرون شاه » ، وترجمت « آلة الزمن » و « نبوءة المنجم » • وفى اعتقادى أن الكتابة للنشء دين فى عنق كل قاص مقتدر ، يجب أن يؤديه بقدر ما يستطيع ليسهم فى الارتقاء بأذواق الجيل الجديد وتثقيفه وتوسيع مداركه

## حتمية التاريخ

● **فى كتابك التاريخى القيم «أمتنا العربية» إيمان قوى يصل الى مرتبة اليقين بأن العرب فى طريقهم الى صنع حضارة جديدة مجيدة تفوق حضارتهم القديمة •• ما مبررات هذا الايمان المتفائل رغم ما يواجه العالم العربى من مشكلات وأزمات ؟**

ـ هناك اصطلاح مريح يتردد كثيرا هذه الايام وهو « حتمية التاريخ » • فاذا كانت الامة العربية قد بدأت الان بالفعل فى صنع حضارة جديدة ، فانها ستستمر فى طريقها لا محالة ما لم يقف فى سبيلها مانع يوقف سيرها •

وهذا المانع اما أن يتغلب عليها فيقضى عليها ، وهو احتمال ضعيف ليس هناك ما يرجحه ، واما ان تتغلب الامة العربية على المانع تغلبا كليا فتقضى عليه ، وهو الارجح ، وعندئذ تزداد قوة اتجاهها وسرعته ، فيصبح هذا المانع عنصرا يساعد على زيادة قوتها ، فالموانع والشدائد قد تكون نعمة خفية للأمة

والاتجاهات الآن فى مختلف البلدان العربية ، وأقصد اتجاهات الشعوب لا الحكومات ، كلها تستهدف غاية واحدة ، وهى تحقيق حياة حرة عادلة تكملها رحابة عدم التفرقة بين الشعوب • وفى اعتقادى ان الحضارة العربية لم تصل من قبل الى ما وصلت اليه الان من تبلور

ان أصالة الروح العربية قائمة فعلا فى كل العالم العربى ، وفى أى قطر من اقطاره توجد تحس انك وسط شعب عربى . قد تختلف مع أهله فى الفكر أو المبادىء ولكنك تظل تحس مع ذلك أنك وسط شعب عربى • وهذا ما يدعونى الى الايمان بأننا سائرون بالفعل الى صنع حضارة عربية واحدة مجيدة

**○ أتسمح بأن نعود الى استعراض مراحل حياتك لنسجل اهم الوظائف التى تقلدتها بعد التدريس !**

ـ عملت فى سنة ١٩٣٧ فى رقابة الصحافة بوزارة الداخلية ، وفى سنة ١٩٤٢ أصبحت مديرا للرقابة ثم نقلت فى نفس العام سكرتيرا عاما لجامعة الاسكندرية وهى فى مرحلة الانشاء ، وفى العام التالى نقلت وكيلا لدار الكتب المصرية ، ثم عدت عام ١٩٤٥ الى وزارة المعارف عميدا لمعهد التربية ، فمديرا للادارة العامة للثقافة سنة ١٩٤٧ ، وفى العام التالى شغلت منصب مدير التعليم الثانوى ، وفى عام ١٩٥٠ نقلت مديرا

للجامعة الشعبية ، فمديرا لادارة مكافحة الامية ، وفي عام ١٩٥١ أصبحت مديرا لمعاهد المعلمين حتى رقيت في العام التالي وكيلا مساعدا للوزارة

وفي عام ١٩٥٣ بلغت الستين فمدت الوزارة خدمتي وشغلت وظيفة المستشار الفني لها . كما عملت منذ سنوات قليلة مستشارا فنيا لوزارة المعارف الليبية وأسهمت في انشاء الجامعة الليبية

**● ما أقرب هذه الوظائف الى قلبك ، وفي أي منها احسست أنك أكثر نفعا لبلادك ؟**

ـ في كل عمل قمت به كنت أشعر اني أؤدي خدمة لبلادي تجعل العمل الذي اقوم به محبوبا في نظري • وحتى حينما نقلت الى الجامعة الشعبية وكان المقصود اقصائي عن منصب مدير التعليم الثانوي ، لم أحس بغضاضة في ذلك ، وكنت دائما أقول : ما أسعدني بالعمل في الجامعة التي تحمل اسم الشعب وأن اكون في خدمته بشكل عملي

أما أكره الاعمال التي مارستها فهي مدة عملي مديرا للرقابة أيام الحرب العالمية الثانية ، فكنت شديد البؤس ، اذ كان وكيل الرقابة انجليزيا وكان يملك سلطات أوسع من سلطات المدير الذي هو أنا ، فلم ألبث سوى بضعة أيام قدمت بعدها استقالتي ، ولكنها لم تقبل الا بعد ثلاثة اشهر ..

## « الثقافة » بين عهدين

**● توليت رئاسة تحرير مجلة « الثقافة » في عهديها القديم والحديث ، ما الفرق بين المجلة في العهدين ، وهل**

**ترى أنهـــا الآن تؤدى نفس الدور الذى كانت تؤديه فى الاربعينات ؟**

ـ مجلة « الثقافة » الجديدة أقدر بكثير على خدمة الثقافة من المجلة القديمة ، على الاقل من حيث امكانياتها المادية الميسرة . «فالثقافة» القديمة ماتت من الجوع لانها كانت تتسبب في خسائر لم تستطع لجنة التأليف والترجمـــة والنشر تحملها ، فماتت المجله موتا طبيعيا . أما « الثقافة » الحالية لتجد من امداد الدولة لها بالمال ، والكتاب بالادب ما يكفل لها حياة رخية . واذا كان ينقصها شيء فهو ما تشعر به أحيانا من أن من يكتبون يحاولون مجرد مجاراة الحياة الحاضرة على أساس أنها تفسير للميثاق، فى حين أن « الثقافة » القديمة كانت تجد نفسها حيال مجتمع معاد ، تجد في كل ما فيه موضوعا لمقال أو قصة مخلصة في بيان عيوب الاوضاع التى كانت قائمة ، فكأنها كانت محاربة فى وقت يقتضى الصراع والحرب . أما « الثقافة » الحالية فهى تعيش في عصر لا توجد فيه مثل هذه الظروف ، بل تجد أن من واجبها أن تقوم بشرح المفاهيم الجديدة شرحا جديدا مخلصا لتعميق الفكر الحاضر وتزويده بعنـــاصر الحياة ، فهى تتطلب الفكر العميق المخلص لجهادها فى تعميق المعانى الحاضرة فى القلوب ، وقد يكون كثير من الكتاب والادباء محتاجين الى تعميق هذه المعانى فى قلوبهم الى درجة الايمان الحار . هم فى حاجة الى هذا الايمان الحار لتكون كتاباتهم حارة تصل الى القلوب بحرارتها ، ولا يكفى فى حياتنا الحاضرة أن تكون الاحاديث نابعة من العقول وحدها ، فالايمان فى نظرى يبعث حرارة لا تبعثها العقول المجردة وحدها

● **بالمناسبة ، لاحظت انك فى بعض افتتاحياتك الاخيرة حملت على اتجاهات معينة لبعض كتابات النقاد .. فهل**

**افهم من هذا أنك غير راض عن حركتنا النقدية ؟**

ـ بالعكس ، فأنا أحس أن الحركة النقديه مزدهرة ، وقد بدأت تلمع فيها اسماء جديدة اتابعها بسعادة ، ولكن ما آخذه على بعض النقاد أولا حماستهم الشديدة لما يسمونه بأدب اللامعقول ، ثم تعسفهم فى تأويل أعمال أدبية على اساس رموز شديدة البعد عن روح العمل المنقـــــود وطبيعته ، مثلما فعل بعضهم مع رواية « الطريق » لنجيب محفوظ ..

● **ما العمل الذى يشغلك هذه الايام ؟**

ـ أكثره قراءات عامة ، ثم كتابة مقالات مجلة «الثقافة» ومراجعة موادها . وأتمنى أن يتاح لى من القوة والوقت ما يمكننى من أن أكتب تسجيلا فنيا للمرحلة التاريخية التى توقفت عندها فى روايتى « أنا الشعب » فتكون استمرارا أو تكملة لها

● **سؤال لا يخلو من فضول ، ماذا صنعت بجائزة الدولة التى فزت بها اخيرا ؟**

ـ أشياء كثيرة ، كانت الابواب مفتحة أمامها من جميع النواحى . ولا تنس أنى رب أسرة كبيرة من بينها ثمانية أبناء ، منهم من لا يزال فى سن الطفولة أو الصبا ، ومنهم من هم فى سن الشباب ، وهم يحتاجون جميعا الى الكثير ولا سيما فى هذه الايام التى وصلت فيها المطالب الى حد الاعجاز ..

● **ماذا تتمنى بعد ان نلت أكبر جائزة فى الدولة ؟**

ـ ارجو أن أتمكن من مواصلة جهودى فى خدمة بلادى بالرغم مما احسه من ضعف صحتى وعجز حركتى

**( نوفمبر ١٩٦٤ )**

— ٧ —

# عزيز أباظة

* لسنا أغبياء لنطالب بالحجر على الشعر الجديد !

* لماذا منحنى فاروق الباشوية على مسرحية « العباسة » ؟

* لجنة المسرح بمجلس الفنون منفصلة تماما عن الحركة المسرحية ..

ارتجف صوته مرتين وهو يحدثني وارتخت جفونه ، ربما على دمعة ·· وملأ الحجرة ، لا أدرى كيف ، جو من الشفافية الروحية والصفاء النفسى المريح ·· وفى المرتين احسست بحواجز الطبقات ، والسن واختـــلاف الاراء والمواقف ·· تنهار كلها ، لاجدنى اقرب ما اكون من ذلك الشيخ الثرى الذى عرف الحب كأعنف ما يكون ، وعاش حياته يتغنى به ·· وله ، حتى اذا امتدت يد القدر لتسلبه الحبيب ، قضى بقية عمره ناسكا فى محراب ذكراه ··

مثل هذا الحب الذى يقهر الزمن ويتخطى عتبات الفناء، ويظل حيا فى سويداء القلب أكثر من عشرين عاما بعد رحيل المحبوب عن عالمنا ·· مثل هذا الحب الكبير لا يمكن ان يعرفه الا شاعر كبير ، ولو لم يقل بيتا واحدا من الشعر ··

على أن حديثنا لم يكن حزينا كله ، بل على العكس شابه مرح كثير ·· وفى لحظات لمحت نظرات المقاتل العنيد تتوثب فى عينى الشاعر النضر الشيخوخة ، وكأنه نمر مسن ما زال واثقا من قوته ومضاء اسلحته ·· وكان ذلك بالطبع حين اثرت موضوع خصومته للشعر الجديد ··

بدأ اسم « عزيز أباظة » يتردد فى الحياة الادبية منذ عام ١٩٤٣ حين نشر ديوانه « أنات حائرة » و مثلت فى نفس العام مسرحيته الشعرية الاولى « قيس ولبنى » أما قبل ذلك فقل من كان يعرف عنه اكثر من انه واحد من افراد الاسرة الاباظية المشهورة بثرائها وتشعب فروعها ، وأنه تقلب فى عدد من المناصب الادارية الكبيرة ..

وقد قلت له ذلك ، واقترحت عليه ان نبدأ حديثنا بمحاولة استكمال هذا النقص ، والتعرف على طرف من ظروف نشأته وتكون ملكاته الفنية

وحين بدأ يقول :

ـ ولدت فى الزقازيق ، وكان أبى مزارعا وصاحب أرض ..

قاطعته متسائلا :

● **ومتى ولدت ؟**

أجاب :

ـ ٣ أغسطس ...

وتردد لحظة قبل آن يكمل

ـ سنة ١٨٩٩ .. وهذا أول اعتراف ، وقد جاء على يديك ..

ثم ضحك بمرح وهو يضيف :

ـ وآمل أن يكون عدد السيدات من قرائك أقل من عدد الرجال ...

وكان أبى المرحوم محمد عثمان أباظه باشا عمدة فى مستهل حياته ، ثم اصبح عضوا فى مجلس شورى القوانين ، وفى الجمعية التشريعية ، كما انتخب فى ثانى مجلس نواب سنة ١٩٢٥ .. وكانت نشأتى الاولى فى قرية « الربعماية » . وأستطيع أن أقول ان عينى تفتحت على بيئة أدبية شديدة الخصوبة فأعمامى وأبناء عمومتهم،

وكلهم كانوا يسكنون القرى المجاورة لقريتنـــا .. كانوا جميعا يعنون عنايه بالغة بالأدب وبالشعر بصفة خاصة ، وكانت مجالسهم تحفل بمدارسات الادب ومطارحات الشعر ، وكان لى عمان هما : عبد العزيز باشا أباظة كبير مفتشى وزارة الداخلية وقتذاك ، وجمال الدين بك أباظة وكان مستشارا بمحكمة الاستئناف ، كان الاثنان من كبار حفظة الشعر بصورة لا يكاد يتصورها العقل ..

وحين دخلت المدرسة الابتدائية بالقاهرة أقمت مع بعض أعمامى هؤلاء فى منزل كبير بحــــارة « قوارير » بحى الناصرية ، وفى مندرة هذا البيت التقيت بأعلام لا يمكن أن ينساهم تاريخ الفن والادب فى بلادنا فقد كان من أصدقاء أعمامى الخلص : محمد السـبـاعى ، الشيخ عبد العزيز البشرى ، حافظ ابراهيم ، امام العبد ، محمد صادق عنبر .. وغيرهم ، وكنت أحضر مجالسهم وأستمع الى ما يدور فيها من مناقشات أدبية ومطارحات شعرية ..

## تذكار من حافظ

**● ألا تذكر بعض المواقف الطريفة مما كان يدور فى هذه المجالس ؟**

ـ بل اذكر الكثير ، أذكر انى حينما كنت فى السنة الثانية الابتدائية نشر الشاعر الخالد احمد شوقى قصيدته « نهج البردة » فى كتيب مصحوبة بشرح وتفسير للاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ، وكان وقتها الشيخ سليم البشرى .وفى جلسة نوقش الشرح ، وأجمع أغلب الحاضرين على أن واضعه هو الشيخ عبد العزيز البشرى وليس والده الشيخ سليم البشرى ، وضيقوا الخناق على الشـــيخ عبد العزيز حتى اضطر الى أن يعترف بذلك بعد أن طلب

منهم أن يقسموا بحق آلاء الله وحق رسول الله القمر على ألا يشيعوا ذلك ، وكان هذان القسمان هما القسمان المحببان الى الشيخ عبد العزيز البشرى ، لا تجلس اليه ، ولو خمس دقائق ، الا وتسمعه يقسم بهما عدة مرات

ومن حسن حظى أن بعض أصدقاء الاسرة من هؤلاء الادباء وغيرهم كانوا يحضرون لتمضية جزء من فصل الصيف فى قريتنا « الربعماية » وفى هذه الاجازات قرأت مع الشيخ عبد العزيز البشرى معظم كتب الجاحظ وكثيرا من أجزاء « الاغانى » وقرأت مع حافظ ابراهيم ديوان « الحماسة » لابى تمام ، ويخيل الى أنه كان يحفظه كله عن ظهر قلب ، كما قرأت معه ديوان « البحترى » ومنذ ذلك العهد والبحترى يلازمنى حتى الآن ، ان صد عنى طالبته ، وان اهملته لحق بى

وقد بقى عندى تذكار عزيز لهذه الفترة ، لعلى أشرك المتأدبين فى تذوقه معى ، وهو عبارة عن عشر كراسات من مختارات الشعر العربى ، جمعتها من املاء المرحوم حافظ ابراهيم خلال سنوات متعاقبة ، منها ما قد تجده فى بعض المراجع ، ومنها مايتعذر عليك العثور عليه الا بجهد يبذل ، وفى اعتقادى ان هذه المختارات تكون ذخيرة ادبية بالغة القيمة

وقرأت كذلك على الشيخ محمد الخضرى عددا غير قليل من كتب النحو واللغة والتراث العربى ، فقد كان رحمه الله أديبا ذواقه بالاضافة الى شهرته كمؤرخ ، وكان صديقا لوالدى أقنعه بشراء سبعة افدنة الى جوار ارضنا ، وهكذا أتيح لى أن ألقاه كثيرا ..

**● ألم تحاول قول الشعر فى تلك المرحلة ؟**

— لقد بلغ بى الغرور والادعاء انى كتبت شعرا وانا فى

السنة الثانية الابتدائية ، واذكر انى حينما نجحت فى امتحان هذه السنة اهدانى والدى قاربا صغيرا ، وقريتنا تقـع على نهر اسـمه « بحر مويس » ، فقلت هـذين البيتين :

« انى لاكرم والدى
واعـزه واجـله
فلقـد هـدانى قاربا
فوق الجياد محله

وحين قال لى احد اعمامى ان «هدانى» خطأ، وصحتها « اهدانى » قلت له ان الشاعر له ان يتحرف ، واذكر انى ضغطت كثيرا على كلمة « الشاعر » .. غير اننى بعد خمسين عاما من ذلك التاريخ اجزم لك اننى لـم اصلح بعد كى اتسامى الى هذه المنزلة الكبيرة .. منزلة الشاعر ..

وحين كنت فى السنة الثالثة الابتدائية قامت الحرب التى كانت معروفة بحرب طرابلس . وقد قاد فيهـا الجيش التركى ببرقة القائد عزيز المصرى — مد الله فى عمره — وحوكم عزيز المصرى ، وحكم عليه ، فهـز ذلك المصريين وأثار غضبهم فكتبت هذه الابيات :

« دار الخـلافة لاحيا ربالك حيـا
ولا سلمت من الاحـداث والنـوب
لقـد ظلمت عزيزا فاختـرعت لـه
ما شئت من تهم مفضوحة الـكذب
صدقت فيه افتراء التـونسى فمـا
احراكما بامتهان العجم والعـرب »

و « التونسى » هذا بكل اسف هو المجاهد العظيـم العالم الفاضل الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان لـه

لموقف لا أذكره الآن بالضبط ، ولكنه مناهض لعزيز المصرى على كل حال

وفى السنة الرابعة قلت شعرا كثيرا من هذا النوع ، اختار لك منه المقطوعة التى كتبتها مهنئا احد اعمامى بنواله الليسانس، وفيها ذكر لقيس ولبنى ، ولعله ارهاص عجيب :

« هذه هاتى المدامة دنا
واطرحى اللوم واللجاجة عنا
وأسقنيها عتيقة عصروها
من خدود يشبهن خديك حسنا
واعيدى على ما قد اتانا
من حديث وكررى ما سمعنا
فهو اشهى على الفؤاد واحلى
من حديث مضى لقيس ولبنى »

ولك ان تقول ان قيسا ولبنى قد جاء بهما القافية ولك ان تقول غير ذلك

وفى المرحلة الثانوية كتبت شعرا يمكن اذا نشر ان يقرأ وقد يستجاد ، فمما قلته فى السنة الاولى هذه الابيات ، وهى تمثل واقعة حقيقية لا متخيلة :

« شاهدتها والثياب السود تغمرها
وشعرها كحواشى الليل معتكر
فقلت : ياصاحبى انى بصرت بها
فراعنى منظر يعنو له النظر
فقال لى صاحبى : هون عليك فما
هذا سوى فلك فى وسطه قمر »

وفى السنة الثانية الثانوية قلت هذه الابيات فى زميل صديق كرمه الله بجمال مرموق جاء الى المدرسة وهو فى عروة سترته وردة حمراء :

« ومورد الوجنات يخمـــل وردة
حمراء ما فى حســـنها من بأس
يلهو بها – ياويحـه – متغافـــلا
والنـــار تأكـــل فى قـلوب النـــاس
ياظبى قد روعت فيهـــا غصـــنها
والوعتـــا مـــن غصنك الميـــاس
وجنيتهـــا فأتيت ثم جنـــــاية
هـــلا رحمت دموعهـــا يا قاسى »

وصديقى الكريم هذا كلما قابلته يقول لى انه يفضل هذه المقطوعة الصبيانية على مسرحياتى كلها . وقال لى أخيرا انه حفظها لحفيدته

**● وهل نشرت شيئا من شعر هذه المرحلة**

– نشرت بعض القصـــائد فى مجـــلتى « السـفور » و « الصاعقة » ، وكان يهدينى ويقوم شـــعرى استاذنا أحمـد رامى ، مد الله فى عمره ، وكان قد حصـــــل على دبلوم المعلمين ويعمل بالتدريس ، فكنت بمثابة تلميذ له

**● ألم تقل شيئا من الغزل فى تلك الفترة ؟**

– معظم شعرى فى تلك السن كان غزلا

**● فى بنت الجيران مثلا ، او فى حبيب متخيل ؟ ..**

– بل فى شخص واحد ، هو حبى الاول والاخير . كنت طالبا فى المدرسة الثانوية وكانت هى الاخرى طالبة ، وهى بنت عمى وام أولادى . واعترف لك الآن أن كل ما قلته من شعر غزلى كان موجها لها وحدها ، اما وقتها فلم يكن من الممكن أن يظن ذلك من قريب أو بعيد

**● وشعر الوطنية ؟**

– جاءت ثورة ١٩١٩ وانا طالب بمدرسة الحقوق ، فألهمت كثيرين من الشبان ، وقد قلت انا كذلك بعض القصائد الوطنية

## سعديون وعدليون

**• هل كانت لك مشاركات أخرى فى ثورة ١٩١٩ ؟**

ــ بدأت ثورة ١٩١٩ وأنا فى أواخر المرحلة الثانوية ، وكل ما كان يتجه اليه الطلبة وقتذاك هو الاضرابات والمظاهرات ، وأنا بطبيعتى لست مندفعا لاعمال العنف حتى منذ أيام الشباب ، فكنت أكتفى باظهار شعورى فى المناسبات ذات الشأن . واستمر الحال على ذلك مدة الدراسة بالحقوق . فبعد ثورة ١٩١٩ مرت البلاد بفترة اضطراب داخلى شديد ، وانقسمت على نفسها الى وفديين ودستوريين وكانوا فى ذلك الوقت يلقبون بالسعديين والعدليين ، وأغلب طلبة الحقوق كانوا متجهين بآرائهم ناحية الوفد ، وكنت مختلفا معهم . وكان الطلبة الوفديون يضيقون أشد الضيق بمن يخالفهم لدرجة أنهم كانوا يسعون اليه بالاذى والاهانة ، ووقع ذلك بالفعل لبعض زملائى فى الرأى ، ولكن لم يقع لى شخصيا شىء من هذا لان العلاقة بينى وبين زملائى الطلبة الوفديين كانت علاقة احترام متبادل . وقد يهمك أن تعلم أننى بعد عشرين سنة أو أكثر من تخرجى ، حاولت أن أسأل بعض زملائى من قادة الوفد كالأستاذ محمود غنام وحافظ عمار والمرحوم محمود عبد الرحمن : لماذا كانوا يعاملوننى هذه المعاملة الخاصة ونحن طلاب ، فكانوا يقولون لى ضاحكين : انك بتوقرك قد قطعت علينا هذا السبيل

**• لا شك انك قد تأثرت فى موقفك السياسى بما عرف عن أسرة الاباظية من ميل قديم للاحرار الدستوريين ؟**

ــ الواقع أن الاسرة كلها كانت من الاحرار الدستوريين، وقد كان لجدى لامى ــ اسماعيل باشا أباظة ــ واقعة

عنيفة مع سعد باشا زغلول أثناء مناقشة مد امتياز قناة السويس فى مجلس الشورى . وكان سعد باشا يدافع عن وجهة نظر الحكومة فى مد الامتياز ، فى حين كان جدى يعارض بشدة فى ذلك . وقد عشت انا فى هذا الجو فتأثرت به فى تقديرى لزعامة سعد زغلول

**● أما زلت ترى هذا الرأى حتى اليوم ؟**

ـ سعد باشا كان زعيما يعتمد على قوة خطابته وتأثيره على الجماهير ، وحين اضفت عليه الامة هذه الثقة البالغة يخيل الى انه لم يلق كبير وزن لآراء زعماء مصريين آخرين لهم احترامهم ومكانتهم ويمثلهم بطبيعة الحال عدلى باشا . والنظر للموضوع الآن بصورة تجريدية ربما يثبت أن الخلاف كان خلافا على الوسيلة أو الاداة ..

ولكن الشىء الذى أسفت له أشد الاسف ولا ازال الى الآن كلما ذكرته ينغصنى فهو اننى فى مناسبة بعينها كتبت مع بعض أخوانى ردا على خطاب القاه سعد باشا قبل رجوع الوفد الرسمى برئاسة عدلى باشا من لندن ، ورمينا فى ردنا سعد باشا بالتدجيل ، واستعملنا هذه الكلمة بالذات ، ونشرت لنا بعض الصحف هذا الكلام . وكلما تذكرت الآن وقبل الان ، هذه السقطة البالغة اكاد أذوب خجلا من نفسى ، فمتى كان لشاب يطا عتبات الحياة من أولها أن يحكم على قمة من القمم المصرية التى لها أثرها فى تاريخ هذه البلاد بلا شك

**● متى تخرجت فى مدرسة الحقوق ؟**

ـ تخرجت سنة ١٩٢٣ ، فاشتغلت بالمحاماة ما يقرب من عامين فى مكتب صديق والدى الاستاذ وهيب دوس ، ثم التحقت بخدمة النيابة العمومية سنة ١٩٢٥ ، فعملت فى طنطا حتى سنة ١٩٢٨

**● لعلك التقيت بتوفيق الحكيم فى فترة اشتغاله بالنيابة ، فقد عمل فى طنطا حوالى تلك السنة ..**

ـ لا لم ألتق به ، لعله جاء بعد نقلى ، ولكن بمناسبة ذكرك لتوفيق الحكيم ، أحب أن أقول لك اننى فى فترة عملى بطنطا ، كان رئيس النيابة يعتقد أنى أجيد الكلام والالقاء ، فكان يحيل الى أغلب القضايا الجنائيـة امام محكمة الجنايات ، فأتاح لى ذلك أن أتصل بعدد كبير من المستشارين ربما لم يتح مثله لاحد من زملائى ، وكان من بين هؤلاء المستشارين اسماعيل بك الحكيم والد صديقنا توفيق الحكيم . وأذكر أنه حينما انس عنـدى ميلا للادب ، أهتم بأن يسمعنى كثيرا من شعره الذى ألفه فى صباه ، وكان شعرا لا بأس به . والغريب أيضا أننى سمعت من اسماعيل صدقى باشا ، وكان زميلا لاسماعيل بك الحكيم ، أنه يحفظ أغلب شعر اسماعيل الحكيم ، وكان ينشد بعضه بين الحين والآخر

ومما أذكره عن اسماعيل بك الحكيم انه كان يعتبـر جهد ابنه توفيق الحكيم فى ذلك الوقت جهدا ضـائعا ، وكان يقول لى : « لو الولد ده يهتم ويكتب له بيتين شعر كنا نقول انه اديب صحيح أو يرجى منه ، انما هو ماشيلى ورا الجماعة المشخصاتية وفاهم انه بيكتب لهم شىء ذو قيمة » ..

ترى ما الذى كان يقوله اسـماعيل بك الحكيم الآن لو امتد به العمر فوجد « هذا الولد اللى مش نافع » قد ملأ الدنيا وشغل الناس

**● وماذا بعد عملك فى نيابة طنطا ؟**

ـ نقلت سنة ١٩٢٨ الى ميت غمر ، وهناك رشحت نفسى فى انتخابات مجلس النواب لاول مـرة ونجحت ، وكان مجلس النواب كله من الوفديين ، فكنت واحدا من

سبعة أو ثمانية يمثلون المعارضة ، وقد أفادني هذا الوضع كثيرا اذ ساعد على لفت الانظار الى والى كل ما أقوله في المجلس . فلما اقيلت وزارة الوفد وحل المجلس عدت الى الوظيفة الحكومية مفتشا بمصلحة التجارة والصناعة، وانتخبت مرة اخرى في مجلس النواب ١٩٣٠ فلما حل عام ١٩٣٤ عينت مفتشا بوزارة الداخلية ، ثم رقيت مديرا لتحقيق الشخصية ، فوكيلا لمديرية البحيرة ، ثم وكيلا لمديرية الجيزة ، الى ان انتخبت في مجلس النواب سنة ١٩٣٦ وكنت مستقلا عن الاحزاب كما كنت دائما في كل الانتخابات السابقة واللاحقة ..

وفي وزارة محمد محمود باشا التي تلت هذا المجلس عينت مديرا للقليوبية ثم مديرا للفيوم لمدة سنتين نقلت بعدها مديرا للمنيا سنتين أخريين

وقبل ان اتابع هذا التاريخ احب ان اذكر لك انني في المدة التي قضيتها في هذه الوظائف حتى تعييني مديرا للمنيا كان انتاجي الادبي قليلا جدا لدرجة ان بعض أصدقائي ، كالاستاذ مصطفى مرعي والاستاذ محمد احمد غنيم ، كانوا يقولون لي ان الله قد استرد منك ما وهب . ولكن حدث بالمنيا وعلى غير سابق اعداد ان بدأت أكتب مسرحيتي الشعرية الاولى « قيس ولبنى »

ولهذه المسرحية حكاية ، فقد كنت قبل سنوات من تفكيري في كتابتها أحضر مسرحية « مجنون ليلى » مع شاعرنا الكبير احمد شوقي ، وكان معنا في المقصورة الاستاذ محمد توفيق دياب ، والاستاذ الجديلي ، والاستاذ رامي ، وبين الفصلين الاول والثاني وجدتني أقول لشوقي انه يحسن صنعا اذا كتب مسرحية شعرية عن قيس ولبنى

فسألني : ليه يعني ؟ ..

واجبته بأن عناصر الدراما متوفرة فى هذه القصة وباستطاعته ان يعمل منها شيئا قد يفوق ما عمله فى « مجنون ليلى » ان كان هذا التفوق مستطاعا

واشترك فى تأييد فكرتى توفيق دياب ، والجديلى ، وشوقى صامت ..

وبعد ان انتهت المناقشة التفت الى وقال :

ـ ما تعملها انت

ويخيل الى أن نغمة صوته لم تكن تخلو من الاستهزاء. وقد اخبرنى صديقى رامى بعد ذلك ان شوقى لم يكن يحب أن يقترح عليه بشىء ..

لست أدرى ما الذى دفعنى الى كتابة «قيس ولبنى»، قد تكون بقايا هذه المناقشة ، وقد يكون اقتناعى بأن القصة صالحة للعلاج المسرحى .. المهم أنى أتممتها فى المنيا فى أواخر سنة ١٩٤١ ، وظللت اراجعها وانقح فيها المرة بعد المرة حتى عام ١٩٤٢ ، وكنت قد نقلت الى بورسعيد محافظا وحاكما عسكريا لها

وفى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٣ مثلت لاول مرة ، ولا أذكر ان مسرحية الى ذلك العهد قد مثلت ٤٦ ليلة متعاقبة كما مثلت « قيس ولبنى » بعد ان اخرجها فتوح نشاطى ..

## كيانى ودمى .. فى كتاب

● **أعتقد أن ديوانك « أنات حائرة » قد صدر قبل « قيس ولبنى »**

ـ هذا صحيح ، لقد وصلنا الى عام ١٩٤٣ لانى كنت احدثك عن حكاية المسرحية ، ولكن سنة ١٩٤٢ بالنسبة الى سنة لا يمكن أن تنسى ففى شهر يونية من هذه

السنة توفيت زوجتي وأم أولادي ، فضعفت أشد الضعف أمام هذا الرزء الكبير واعتقدت وقتها ان وجودي كانسان قد قضي عليه ، ولم اكن اعلم ان الزمن في دورانه يسلي ، ويدفع الانسان طائعا او مختارا في طريق الحياة التي قدرت له ..

وقد دفعتني هذه الكارثة الى حالة لا أستطيع وصف كنهها ، ولكني يخيل الى انني عبرت عنها بديوان كامل هو « انات حائرة » ، كتبت بعض قصائده في مواطن معينة بمصر وكتبت بعضها الاخر في مكة والمدينة حين قصدتهما حاجا اسأل الله أن يلهمني الصبر ، وان يقوي من عزيمتي لاقوم على رعاية ابنائنا

ولكل ناقد حريته المطلقة في ان يرى في انتاجي ما يراه ، سواء ارضي عنه ام انكره ، ولكن الشيء الذي اعتبره جزءا من دمي وكياني هو كل ما جاء في كتاب « انات حائرة» سواء رضي عنه الناس أم لم يرضوا ، فهو يمثل في نظري حالة من حالات السمو الروحي

● **هل نتابع حديثنا عن الوظائف التي تقلدتها ؟**

ـ بعد بورسعيد نقلت مديرا لاسيوط ، وفي أسيوط كتبت مسرحية « العباسة » ثم مسرحية « الناصر » ، ثم استقلت من خدمة الحكومة في أواخر سنة ١٩٤٦ واتجهت الى الاعمال الاقتصادية . وأنا الان رئيس جمعية الشعراء ، ولجنة الشعر بالمجلس الاعلى للفنون والاداب ، وعضو المجمع اللغوي واتحاد الادباء

● **هل صحيح انك منحت رتبة « الباشوية » بسبب مسرحية « العباسة » ؟**

ـ في العهد الماضي شاء البعض أن يفهم هذه المسرحية على أنها تؤيد حق الملك في التصرف في وزرائه ، ويبدو أن هذا الرأي وصل فاروق ، فاهتم بها لانه كان قد

اختلف مع وزارة الوفد ، وبطش بها والحقيقة اننى عالجت فى المسرحية موضوع المرأة وعواطفها اكثر من موضوع استبداد الملك بالسلطة . وقد حضر فاروق المسرحية وكنت موجودا ودعيت لمقابلته عدة مرات بين فصولها . وفى نهـــاية المسرحية أوقفونى أمام المقصورة فى انتظار أن يستدعينى وسمعت بأذنى النقراشى باشا رئيس الوزراء وقتها يحتج لان هناك وزراء ووكلاء وزارات لم يأخذوا الباشوية ، فكيف يعطيها لمدير أسيوط ، فأجابه فاروق :

ـ أنا بديله باشوية عشان الادب ودى مالهاش دعوة بالوزراء ..

وبعد أسبوعين أقيم حفل شـــاى فى عابدين ودعى الفنانون الذين اشتركوا فى المسرحية ولجنـــة القراءة ومديرو الفرقة واعطانى اللقب ، وأعطى المرحوم سليمان نجيب لقب « بك » وفى السنة التالية منح الاستاذ محمود تيمور البكوية بسبب مسرحيته « حواء الخالدة »

ولست أريد أن أدعى بطولة ، ولكن الجميع يعلمون أنه ما لبث أن غضب على ، واضطهدنى كثيرا ، وكان يوعـز لمديرى الشركات بعدم الاستعانة بى فى مجــــالس الادارات ، هذا الى الجفاء الواضح فى المعاملة ، فكان اذا وجدنى فى مكان لا يسلم على . وقيل ان ســبب هــذه الجفوة مسرحيتى « الناصر » التى صورت فيها فساد اسرة حاكمة ، وكيف انعكس هذا الفساد على البلاد كلها وجلب لها متاعب لا أول لها ولا اخر ، فلا يمكن للامة أن ترقى والبيت الحاكم فيها ينخر فيه سوس الفناء ، مما اعتبره فاروق تعريضا به وبأسرته

## شوقى وحافظ

**● من الشعراء الذين تأثرت بهم ؟**

ـ تأثرت جدا بالبحترى ، فهو شاعرى المفضل وأستاذى الأول ، وأحببت من الشعراء العرب من جرى مجراه ، كالشريف الرضى الذى يعتبر امتدادا لاسلوب البحترى . ومن شعرائى المفضلين أيضا أبو نواس . والحقيقة أنى أقدر فى كل شاعر جوانب معينة ، ولذلك فلاغلب الشعراء المعروفين مكانة عندى تكونت نتيجة لاتصالى الوثيق بهم ومعرفتهم حق المعرفة ، واجيز لنفسى استخدام هذا التعبير لأنى درستهم دراسة جادة . ولست أدرى لماذا لم يكن المتنبى على شهرته وقيمته صديقا لى أو أستاذا

**● ألم يستهوك فيه تغنيه بالعظمة ؟**

ـ التغنى بالعظمة يستهوى ، ولكنى ممن يرون أن الشعر لا يبلغ مداه من الروعة الا اذا كان رفيع الاسلوب ، وفى تقديرى أن المتنبى وان كانت له ارتفاعات ضخمة من هذا النوع الا أن له انهيارات تعبيريه عديدة قد يصعب على الأنسان أن يتصور كيف يهبط الى أمثالها . والمعانى فى نظرى ليست صعبة الادراك أو المنال لانها تتوارد على أفواه الحكماء والاوساط والحمقى . ويكفى أن تلقى نظرة على ما يسمى بالامثال العامية والبلدية فستجد فيها روائع من المضامين والمعانى ، ولكن فى تقديرى أنها لن تبلغ أوجها من الجمال الا اذا صيغت صياغة جزلة

**● ولكنك بهذا الرأى تتناقض مع مبدأ نقدى شبه مسلم به ، وهو عدم امكان الفصل بين الشكل والمضمون ، فما دمت قد احسست بجمال المثل الشعبى ،**

**فلا شك انه قد صيغ صياغة جميلة موحية نجحت فى نقل مضمونه اليك ..**

– الذى أقصده أن الفكرة قد تكون لا بأس بها ولكنها لكى تصل الى بالقوة التى تؤثر فى لا بد أن توضع فى ألفاظ جميلة

**● وماذا أحببت فى البحترى على وجه التحديد ؟**

– أحببت فى شعره المعنى واللفظ والموسيقى ، وأنا اعتبر الموسيقى عنصر من اهم العناصر التى تجعل للشعر قيمة ومكانة ودوران ، وهذا العنصر بارز جدا فى شعر البحترى . ونفس الحالة تجدها عند أبى نواس مع صياغة أقرب لصياغة الامويين ، فحين تبتعد عن خمرياته تجد رصانة تمثل أصدق التمثيل العصر العباسى الاول ، فاذا انتقلت الى خمرياته وغزله ومجونه تجده من شعراء اليوم ، فهو شاعر باق على الزمن

والشريف الرضى كما قلت لك امتداد لمدرسة البحترى . يبقى الشاعر الرابع الذى تأثرت به وهو أحمد شوقى ، وهو فى رأيى خلاصة شعراء متعددين وضعوا فى بوتقة وانصهروا فأصبحوا شوقى ، ففيه لمحات واضحة من البحترى ومن المتنبى وأبى نواس والشريف الرضى وغيرهم من كبار الشعراء أخذ من كل منهم بطرف . ويضاف الى ذلك ما زودته به المعلومات الحديثة والمدنية المعاصرة ، لقد أخذ بالثقافة الحديثة على أساس حضارى متوارث

**● وحافظ ألم تتأثر به ؟**

– حافظ على علاقته العائلية بنا ، فلم يكن يتركنا أبدا ، انما هو نوع آخر . انه الشاعر الذى يجد فى القراءة ويتأهب فيجيد . أما شوقى فالى جوار جده

وأجتهاده جانب الالهام كان أكبر . فيه شىء علوى ليس من السهل تحديده

**● كيف تعرفت بشوقى ؟**

— لنا قريب يدعى محمـــد بك أباظة الذى كان مديرا لمصلحة الأملاك وكان صـــديقا لشوقى ، وحافظ أيضا ، وحين عاد شــوقى من الاندلس كان يســكن الى جوار قريبى هــذا ، فرجوته أن يصــحبنى لزيارته وكنت فى أوائل عهدى بمدرسة الحقوق ، فاعتبرت هــذه الزيارة من الاحداث الهامة فى حياتى . وكنت من كثرة مجالستى لحافظ أعتقد أننى سأرى رجلا شاعرا بالمعنى الــذى تخيلته أى انه يجيد الكلام ، ويرصع حديثه بين الحين والآخر باستشهادات من الشعر القديم والحديث ، ولكن الذى حدث أننى رأيت هذا الشاعر الضخم لايكاد يتكلم ، فاذا تكلم فبعبارات لا يمكن أن يتصــور الانســان أنهــا صادرة عن ذلك الشاعر الخلاق . كلام عادى جدا حتى لا تكاد تحس أنك تجلس مع شاعر ، بعكس حافظ الذى تجلس اليه فتعتقد أنه أشعر الجن والانس

وبعــد ذلك زرت شــوقى زيارات متعددة وعرضت عليه كثيرا مما كنت أكتبه ، وكان فى غاية الصراحة معى لدرجة أنه كان ينقد القصيدة بيتا بيتا ، بل عبارة عبارة ، وقد أفدت من ذلك الى أبعد حد

**● هل كان لاعجــابك بشــوقى أثر فى اتجــاهك الى المسرحية الشعرية ؟**

— لقد قرات مسرحيات شوقى كثيرا ، وانا كما قلت لك شديد الاعجاب بشعره وبكل ما يصدر عنه . ولكنى قرأت الى جواره كثيرا من الشعراء الآخرين ، والفتــرة التى حدثتك عنها والتى انقضت بغير انتاج ، لم تكــن فترة جدب تام ، فقد كانت خصبة بالنسبة للقراءة .

أعدت قراءة المعلقات العشر أكثر من مرة ، وقرأت كثيرا فى الأدب الأوربى ، والكلاسيكى منه بصفة أخص ، واقبلت على مسرحيات شكسبير وكورنى وراسين ، وغيرهم من كتاب المسرح من الشعراء ولعل لذلك أثره ، فى اتجاهى للكتابة بالمسرح ....

## « أوراق الخريف »

**● ما الفرق بين مسرحياتك الشعرية وبين مسرحيات شوقى ؟ ..**

ـ النقاد أحرار فى تقديراتهم .. ومنهم من ذهب الى ان « قيس ولبنى » مماثلة لمجنون ليلى ، « والعباسة » مماثلة « لمصرع كليوباطرة » .. وان كنت أنا شخصيا لم يخطر ببالى أن احاكيه فى أى منهما .. وقد استفدت من مسرحيات شوقى فى مسرحياتى فحاولت أن أجعل الكلام فيها على قدر الحركة المسرحية والقدرات الدراميه، لانى احسست فى مسرحيات شوقى ان النفس الشعرى يمتد به ، وهو قادر على هذا الامتداد وينتقل فيه من جميل الى أجمل ولكن هذا الجمال محل شك فى الموضع المسرحى أو الموقف الذى يتطلبه السياق .. ففى « مصرع كليوباطرة » نجد انطونيو ينشد خمسين بيتا بعد « روما حنانك واغفرى لفتاك » .. وهذا مستحيل ان يكون دراما . وفى مسرحياتى لا تجد شيئا من هذا أبدا ، فالبيت عندى يقسم أحيانا ثلاثة أو أربعة أقسام والمناقشة تبلغ مداها

**● ولكننا نجد هذا العيب فى بعض مسرحياتك أيضا ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك تلك القصيدة الطويلة التى يتغنى بها قيس فى مسرحية « قيس ولبنى » انها قصيدة غنائية**

**قائمة بذاتها ، والدليل على ذلك انها موجودة فى ديوانك « أنات حائرة » ، وقد غناها عبد الوهاب بعد ذلك باسم « همسة حائرة » ..**

ــ ان الموقف كان موقف غــــزل بين قيس ولبنى ، وقد كتبت ابيــــاتا من نفس الروى الــــذى كتبت به قصيدة رثاء فى ديوانى « انات حائرة » وعنوانها « ليــــلة وليلة » فلما طالت الابيات فى المسرحية بعض الشيء أدمجت فيها بعض ابيات القصيدة التى تحتل مكانة خاصة فى نفسى، ولذلك فلما طلب منى عبد الوهاب شيئا يلحنه وجــــدت هذه القطعة مناسبة فعدلتها تعديلا ثالثا وأعطيتها له ..

● **لماذا لم تلحن لك قصائد أخرى ؟**

ــ لانى لا أعرض انتاجى على الملحنين ، ولم يطلب احد منهم منى شيئا ..

● **ألاحظ فى مسرحياتك ألفاظا غريبة يصعب على القارىء المثقف فهمها ، فكيف تتصور ان يفهمها جمهور المسرح العادى ؟**

ــ أنا أؤلف مسرحياتى بطبيعتى، اختار الكلمات والصيغ وأبتعد عن الالفاظ غير الشعرية ، وادقق اشد التدقيق فى تحديد مكانة الشعر ورسالته . ووقت الاخراج يقــول المخرج هذه الكلمة صعبة فأغيرها بأسهل منها . وفى كثير من المسرحيات ادخلنا تبسيطا لتتمشى مع فهم الجمهور دون ان نسيء للمسرحية

● **لقد كتبت عدة مسرحيات شعرية بعــد « غروب الأندلس » ولكن واحدة منها لم تمثل ما سبب ذلك ؟**

ــ لا اعرف على وجه التحديد .. فقد انتقل الاشراف على المسرح القومى الى ايد جديدة .. وكانت اخر صلة لى به يوم اتصل بى الاستاذ يحيى حقى وهو مديرا لمصلحة الفنون وطلب ان يستمع الى أحدث مسرحياتى ، فرحبت به

وكان فى صحبته شخص آخر لم أكن أعرفه حتى قـــدمه الى فعرفت أنه الاستاذ حمروش المدير الجـــديد للمسرح القومى وقد قرأت عليهما مسرحيتى « أوراق الخريف » فأبديا اعجابهما وبدآ يناقشانى فى توزيع أدوارها على الممثلين . ولكنى عرفت فيما بعد ان لجنة القراءة لم توافق على المسرحية ، وانقطعت صلتى بالمسرح منذ ذلك الحين وعلمت أنه لا المسرحيات الرفيعة المســـتوى ، ولا حتى المسرحيات المكتوبة باللغة الفصحى لها مكان فى التنظيـم الجديد ..

**● وهل تعتقد ان المسرحية الشعرية يمكن ان تـلاقى نجاحا لدى الجمهور اذا قدمت اليوم ؟**

ــ اعتقد انها يمكن ان تنجح بدليل نجاح التجــارب الماضية ، وكل المسرحيات الشعرية التى قــدمت كانت ناجحة وكنت ألمس السرور بها من الاشخاص العاديين فما بالك بالمثقفين والمتعلمين واعدادهم آخذة فى التزايد. وسيظل الشعر سحره سواء على خشبة المسرح أم بعيدا عنها ..

**● ما هو مفهوم الشعر عندك ؟**

ــ مفهوم الشعر عندى هو فى نطاق ما قاله أحد كبــار نقاده ، وأظنه « هازلت » ان لم تخننى ذاكرتى . فقد قال ان الشعر ، ويقصد الشعر الجيد بطبيعة الحال هو كلام من دم ونبض وايمان ، وأنا أفهم الشعر على هذه الصورة . وافهم الشعر كذلك على انه هدية السماء للأرض ، وعلى أنه أكرم وأسمى اداة تصل بين جمال الحياة الانسانيـــة وجمال الله ..

وأفهم الشعر كذلك على انه التعبير الصحيح الرائع لاكرم عواطف الحياة وأحاسيسها .. وكل تعبير بفن غيره يقصر عنه وان بلغ اقصى غاية الجودة ..

وأفهم الشعر كذلك على انه معنى جميل ولفظ اجمل

يتلابسان فى اعطاف موسيقى رقيقة او دسمة ولكنهما موسيقى لا غنى عنها والا فلا شعر . وافضل ، ولو كره الكارهون ، موسيقى الخليل بن احمد

ومفهومى للتجديد فى الشعر ان هذا الجديد هو الذى يعبر به الشاعر عن نفسه لا عن غيره ، فكما ان الوجوه والقسمات تختلف فان احاسيس النفوس تختلف كذلك، وكل تعبير ذاتى عنها هو نوع من التجديد

**● من أعظم شعراء العصر فى رأيك ؟**

ـ كان ت . س . اليوت ومات

**● الأصد الشعراء العرب .. ؟**

ـ كان شوقى ومات ايضا

**● اقصد الشعراء العرب الاحياء ..**

ـ كان « شوقى » ومات . .!!

## مذكرة لجنة الشعر

**● ماذا قرأت من الشعر الجديد ؟**

ـ قرأت كثيرا من نماذجه ، كل ما كتبه صلاح عبد الصبور ، واحمد عبد المعطى حجازى ، وكثيرا ما حضر الى ليقرأ لى قصائده وقصائد زملائه الجدد ، كما قرأت نماذج كثيرة للشعراء الجدد فى العراق ولبنان وغيرهما من البلاد العربية ..

**● ما الذى ترفضه فى هذا الشعر ؟**

ـ الخلاف بسيط جدا . فشعرهم الخالى من الوزن والنظم لا يمكن ان يعتبر شعرا . لقد تساهلنا جدا فيما يتعلق بالقافية ، وأصبح من حق الشاعر ان ينتقل من قافية الى أخرى كيفما شاء ، ولكنى أرفض ان يكون شعر بلا وزن ..

● **ولكنهم يقولون ان شعرهم موزون على اســـاس التفعيلة ..**

ــ التفعيلة لا تحدث موسيقيتها الا بانضمامهـــا الى تفاعيل اخرى يضمها « بحر » وبحور الشعر لها مجزوءات ومجزوءات المجزوءات . اما ما يقولونه فهو فى حقيقته نثر ، قد يكون نثرا جميلا ولكنه يظل مع ذلك نثرا . وليس هناك فن بلا قيد . الفن الذى بدون قيد يصبح فوضى ، والمقدرة فى الفن ــ كما يقول « نيتشة » ــ ان تستطيع الوثب بين هذه القيود لتصل الى الانطلاق

● **هل قرأت « مأساة جميلة » للشرقاوى ؟**

ــ قرأتها وشهدت فصلا منها على خشبة المسرح

● **الا ترى ان الشعر الجديد كان ادعى للنجاح فى علاج المواقف الدرامية ؟**

ــ « مأساة جميلة » معظمها شعر تقليدى موزون ، وفى بعض الاجزاء يزيد الوزن قليلا او ينقص قليلا ، ومن هذا القبيل شعر فوزى العنتيل فهو موزون مع شىء من التصرف وفى رأيى ان هذه رخصة يجوز قبولها

● **من المعروف ان اوزان الشعر العربى قد استقرت منذ وضعها الخليل بن أحمد فى القرن الثانى الهجرى ، ألا ترى ان نسمح للشعراء بمحاولة التجديد فيها واجراء التجارب التى قد تعبر عن روح العصر ؟**

ــ لست ضد أى تجارب ولا أى تجديد ، كل ما اريده ان نسمى الاشياء بمسمياتها فحين اجد شاعرا كالبياتى يقول: « رأيت وجه الله فى واجهة احد المخازن ، يبصق عليه الشرطى واللوطى والقواد .. الخ .. » فانى لا املك نفسى من ان اتساءل مخلصا اين الجمال فى هذا الكلام وأين الوزن ؟ ودعك من الكفر فأنا رجل واسع الافق . وحين اجد شاعرا كعبد المعطى حجازى لا يستطيع ان يحفظ قصيدة واحدة

من الشعر الجديد غير شعره ، أحس بأن هذا الجديد الذى ينادون به لا يمكن ان يعيش او يستقر

**● بصفتك رئيس لجنة الشعر بالمجلس الاعلى للفنـــون والآداب .. ماحكاية المذكرة التى تقدمت بها اللجنة الى وزير الثقافة والارشاد فأثارت تلك الزوبعة الـكبيرة فى الوسط الأدبى ؟**

ـ الحكاية بمنتهى البساطة اننا تناقشنا فى لجنة الشعر حول مجلة « الشعر » التى تصدرها وزارة الثقـــافة وتصرف عليها ، وقد لاحظنا ان هذه المجلة فى ثمانية اعداد متتالية لم تنشر من الشعر الاصيل شيئا له قيمة ، وكان تسعون فى المائة مما نشرته من الشعر الجديد ، وانتهينا الى اننا لا نستطيع قبول هذا الوضـع فكتبنـــا المذكـرة وقدمناها ..

واحب ان أذكر لك أنى فى حديثى مع أحد المتحمسين للشعر الجديد قلت له ان الغباء وحده هو الذى يدعونا أو يدعو غيرنا الى طلب الحجر على نوع معين من الاراء ، لان الحجر فى ذاته هو اكبر وسيلة لاستفاضة هذه الاراء وانتشارها ، ولسنا اغبياء الى هذا الحد لنطالب بالحجر على الشـــعر الجديد فنساعد على انتشاره

**● وكيف انتهى الامر فى هذه المذكرة ؟**

ـ استجابت وزارة الثقافة لها وعينت الاســـــتاذ محمود حسن اسماعيل مشرفا على مجلة الشعر بصـــفته عضوا فى لجنة الشعر ، وفى اعتقادى أن المسائل ســتسير على صورة معقولة

**● ماذا فعلت لجنة الشعر للنهوض بالشعر العـــربى بالاضافة الى هذه المذكرة ؟**

ـ لجنة الشعر من انشط لجان المجلس الاعلى للفنون والآداب ، وقد حققت دواوين كثيرة ونظمت مسابقـــات،

وكل أجهزة الدولة تستشيرها ، وهى تقوم بفحص الدواوين وكتابة مقدمات لها وباستطاعتى ان ازودك بقائمة الدواوين التى نشرتها .

**● وأنت لجنة المسرح بالمجلس أكثر من خمس سنوات فماذا فعلت اللجنة طوال هذه المدة لخدمة حركتنا المسرحية ؟**

ـ من رأيى أن تلغى لجنة المسرح فهى منفصلة تماما عن الحركة المسرحية رغم ان معظم المشتغلين بالمسرح ممثلون فيها ، وكل ما يعرض عليها أعمال ادارية وميزانيات واقتراحات ببعثات .. اما الحركة المسرحية الفعلية فهى فى واد واللجنة فى واد اخر . وهذا يصدق عليها حتى وقت خروجى منها الى لجنة الشعر ، ولا أعرف ما هو حالها الان

**● لا شك أنك تنتمى الى الطبقة الارستقراطية الثرية، لذلك أحب أن أعرف رأيك فى التحول الاشتراكى الذى نعاصره الآن ؟**

ـ قبل ان نكون ارستقراطيين نحن فلاحون ، نعم نحن من الاعيان ، ولكننا مقيمون فى الريف أساسا ، وعلاقاتنا بالفلاحين كانت دائما علاقة الاهل ، والمعاملات بيننا وبينهم كانت قائمة على هذا الاساس . والتحول الاشتراكى وان كان قد أدهشنى فى مظهره الا أنه فى مخبره لم يغير كثيرا فى علاقتنا بالفلاح ، وانا شخصيا لم يسىء الى بشىء ، لان قانون الاصلاح الزراعى لم ينطبق على ، فأنا ممن يصدق عليهم مثلنا الشعبى « الصيت ولا الغنى » ..

**● فيم تعمل الان ؟**

ـ أكتب مسرحيتى الشعرية العاشرة وهى « زهرة » فى اطار مأساة «فيدرا» كما كتبها «يوربيديس» «وراسين» ، وقد أدخلت عليها تعديلات كثيرة أهمها أننى جعلت بطلة الرواية تحب زوج ابنتها لا ابن زوجها كما فى الاصل لانى

أرى ان ذلك يجعل الصراع الدرامى أشد واقوى.

**● ما العمل الأدبى الذى تتمنى أن تنجزه ؟**

ـ اريد كتابة عمل يحقق للفن الذى أعالجه شأوا كبيرا وفى نيتى كتابة مسرحية شعرية اما عن صلاح الدين او معاوية ، فكلا البطلين قام بالمجهود الذى يبذل فى الوقت الحاضر لجمع كلمة العرب

**( فبراير ١٩٦٥ )**

— ٨ —

# محمد مندور

* ٩ سنوات فى فرنسا كونتنى عقليا وعاطفيا وانسانيا
* كتبت مقالات وأنا فى السجن ضد الملك والانجليز
* الأدب .. انعكاس ايجابى للحياة .. يحث خطاها ..

عام ١٩٢٥ ، والجامعة المصرية الاهلية قد تحولت الى جامعة حكومية ، وأنشئت كلية الحقوق الى جوار كلية الآداب ، وان ظل طلاب الكليتين يدرسون معا فى السنة الاولى برنامجا تحضيريا فى الادب والتاريخ وعلم النفس والاجتماع واللغات الكلاسيكية .. وذات يوم دخل عليهم استاذهم الدكتور طه حسين ليعلنهم انه سيلقى عليهم محاضرة فى ثلث ساعة عن « الشعوبية وانتحال الشعر » ، وبعد أن ينتهى من القائها على كل منهم كتابة ملخص لها فى مدة لاتزيد عن خمس دقائق ..

وبعد ان انتهوا من كتابة ملخصاتهم حملها الاستاذ معه وفى اليوم التالى عاد ليعلن ان أحسن تلخيص قراه هو تلخيص الطالب محمد عبد الحميد موسى مندور ، واستدعاه لمقابلته بعد انتهاء المحاضرة وسأله :

ـ ما الكلية التى طلبت الالتحاق بها ؟

وأجاب الطالب :

ـ كلية الحقوق يا دكتور ..

ـ ولماذا ؟

ـ لاتخرج وكيلا للنيابة ..

فقهقه الدكتور طه حسين وعاد يسأل تلميذه :

ــ ولماذا وكيلا للنيابة بالذات ؟

ــ لانه الرجل التى تهتز له بلدتنا كلها عندما يحضر اليها ..

ــ أما فلاح صحيح .. يا بنى ان لديك استعدادا أدبيا لاشك فيه ، وخسارة ان تدفن نفسك فى هذه المهنة . أنا أنصحك بأن تعدل عن الحقوق الى الآداب ، وأملى كبير فى ان تتفوق وأن تسافر فى بعثة الى اوربا بعد تخرجك لتعود وتعمل استاذا فى الجامعة ..

ولكن الطالب الريفى رفض عرض استاذه فى أدب وأصر على البقاء فى كلية الحقوق ، فقال الاستاذ :

ــ أما فلاح مخه ناشف ..

ثم صمت قليلا ليستطرد قائلا بعد لحظات :

ــ طيب يا سيدى ، ابق فى الحقوق كما تريد ، ولكن على ان تلتحق أيضا بكلية الاداب فى نفس الوقت ، وأنا أتعهد باعفائك من مصروفات كلية الاداب ، ولن يصعب عليك الجمع بين الكليتين لان الدراسة بعد السنة الاعدادية ستكون فى الصباح بالحقوق وبعد الظهر بكلية الاداب ..

ووافق الطالب على هذا الرأى والتحق بالكليتين معا ، ولولا ذلك لكان من الممكن ان يكتفى بدراسة الحقوق وحدها ويعمل وكيلا للنائب العام كما تمنى ، ويستمر بعد ذلك فى السلك القضائى ليصبح اليوم المستشار محمد عبدالحميد مندور ، ولفقدنا بذلك أكبر ناقد عرفه أدبنا الحديث ، ولفقدت مكتبتنا عشرات الكتب القيمة المؤلفة والمترجمة التى أضافها اليها ، والتى كان لها اكبر الاثر فى توجيه حركة النقد المعاصر ..

واذا كان لهذا الموقف أثره الحاسم فى توجيه مستقبل ذلك الشاب ، فقد سبقته مواقف اخرى هامة ، وتلته

مواقف اخرى اكثر اهمية هى التى صنعت لنا الدكتور محمد مندور شيخ النقاد المعاصرين ، فلنستمع اليه وهو يحدثنا عن أهم المواقف فى حياته ، عن قراءاته ، واحداث طفولته ونشاطه الفكرى والسياسى ، والمعارك الادبية التى خاضها .. عن قصة حياته :

## الطريقة النقشبندية

ــ ولدت فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٧ فى كفر مندور بالقرب من منيا القمح بالشرقية . تريد ان تعرف لماذا سمى كفر مندور .. كان جدى يقيم فى بلدة كبيرة قريبة من كفرنا اسمها « التلين » ، وكان له فيها « بنك » يتخذه مقرا لتجارة القطن والحبوب فضلا عن الزراعة التى كانت مهنته الاصلية ، ويبدو انه كان يقرض النقود بالربا ، وكان فيما علمت رجلا ناجحا فى عمله الزراعى والتجارى ، فقد ترك عند وفاته ٤٥٠ فدانا تفتتت بين ابنائه الذكور العشرة وبنته الوحيدة التى عاشت بعده ، ومن هذه الفدادين تكون الكفر الذى يحمل اسمنا ، وكان قبل ذلك يعرف باسم « كفر الدير » اذ كانت به كنيسة وكان معظم سكانه من الاقباط

وكان والدى رحمه الله يقرأ ولكنه لا يستطيع ان يكتب ، وكان متدينا ينتمى لمذهب صوفى اسمه الطريقة النقشبندية ، ومعناها النقش على القلب . وكان رائد هذا المذهب الشيخ جودة ابراهيم بمنيا القمح ، وما زال له هناك جامع كبير يحمل اسمه . وما اكثر ما حدثتنى والدتى وانا طفل صغير عن خطوات ابى فى هذه الطريقة وكنت اتأثر جدا بما اسمع ، وبصفة خاصة قصة الخلوة وهى حجرة صغيرة اقامها ابى فى حقله وخلا فيها لذكر الله اربعين يوما لم يأت فيها الى البيت قط ..

وشاهدت فى البيت سبحا طويلة من ذوات الالف حبة ، وعلمت ان ابى ظل يردد عليها اسم الله حتى انتقش على قلبه . وبالفعل كان أبى رجلا متسامحا يبغض العنف والشر رغم ما اشتهرت به اسرة مندور من ضراوة وقوة شكيمة فى الجهة كلها ، ولكن والدى كان خلقا آخر ، يردد دائمـــا قوله تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ، وقوله : « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »

وكان رحمه الله يحفظ العديد من آيات القرآن الكريم ويرددها فى كل مناسبة ، فجعلنى ذلك أحرص على حفظ اكبر قدر اســـتطعت حفظـــه من القـــرآن وقد عزز هـــذه القـــيم الروحيـــة فى نفسى ان جـــدى « موسى مندور » أوقف خمسة وعشرين فدانا لدوار الضـــيافة والجامع ، وكان الدوار يظل مفتوحا ليلا ونهارا ليأوى اليه عابرو السبيل حيث يجدون المأوى والطعام ، وكان الناس لا ينقطعون عن العبادة فى المسجد ، ويخيل الى ان هـــذه النشأة الاولى فى ذلك الوسط الروحى والاخلاقى هى التى غرست فى نفسى التمسك بالقيم الاخلاقية والحفاظ عليها دائما مهما كلفنى ذلك من ثمن

## مجزرة عند « بحر مويس »

فى حوالى الخامسة من عمرى ، أرسلنى أبى الى كتـــاب الشيخ عطوة الذى بنت له الاسرة فى أرض الوقف حجرة واحدة كبيرة كانت هى الكتاب كاله . وعلمنى الشيخ عطوة رحمه الله القراءة والكتابة والحساب وجزء عم وجزء تبارك على اللوح الصـــفيح الذى كنا نكتب عليه الآيات المقـــرر حفظها بالقلم البوص . .

وذات صيف اصطحبنى احد ابناء عمى الكبـــار الى القاهرة حيث اشترى لى بدلة أذكر انها كانت شبيهة ببدل

ضباط البحرية ، وعلمت بعد ذلك ان شراء هذه البدلة كان معناه اننى سأذهب فى الخريف الى مدرســـــة الالفى الابتدائية بمنيا القمح حيث يلبس التلاميذ بدلا ..

وفى المدرسة الابتدائية كانت ظروفى ســـيئة للغاية ، فقد كان الناظر فى منتهى القسوة وكان يضربنـــا ضربا فظيعا ، فشلت شدة الخوف ملكاتى ولم المع خلال هـــذه المرحلة ابدا . وكان على ايضا ان استيقظ مع الفجر لاركب الحمار واقطع به حوالى ستة كيلو مترات لاصل الى منيـــا القمح حيث المدرسة . وفى الطريق الطويل كنت اتعرض لمضايقات من اولاد وتلاميذ يكبروننى سنا ، وكنت اخشاهم، كل ذلك اثر على واربكنى فى مرحلة الدراسة الابتدائية ..

## أستاذان أدين لهما

وقامت ثورة عام ١٩١٩ وانا طالب فى مدرســـــة الالفى الابتدائية بمنيا القمح ، وما زلت اذكر بوضـــــوح تام يوم خميس خرجت فيه من المدرسة وتوجهت الى الوكالة التى كنت اترك بها حمارى ، واخذته وسرت به حتى وصلت الى جسر ترعة « بحر مويس » واذا بى امام مظاهرة ضخمة يقودها رجل اسمه «البيطار» مهنته صنع حدوات الخيل .
وكان يهتف بسقوط الانجليز فى الميدان امام المركز وتردد جموع الفلاحين الهتاف وراءه فى حماسة كالهدير . وفجأة خرج من المركز اثنا عشر جنديا انجليزيا حموا ظهورهم فى حائطه ونصبوا مدافعهم الرشاشة واستقبلوا المتظاهرين بسيل من الرصاص راح ضحيته ما يقرب من ١٥٠ شهيدا فى طليعتهم البيطار . وقد رأيته وهو يجرى وقد استقرت الرصاصات فى جسده ليلقى بنفسه فى بحر مويس لتبرد النار التى أحرقت جسده ، وصنع كثير من المصابين مثل

صنيعه ، وعلمت بعد ذلك ان تيار بحر مويس حمل بعض الجثث حتى وصل بها الى القناطر التسع فى الزقازيق.

وظل أهل المركز وقراه يتحدثون عن هذه المجزرة مدة طويلة . واذكر ان أهل قريتنا قرروا أن يخرجوا جميعا بفؤوسهم لتدمير سكة حديد الحكومة التى تحمل القوات البريطانية الى جميع انحاء البلاد لقمع الثورة ، غير ان رسولا من قبل محمد عثمان باشا أباظه جاءهم من بلدة « الربعماية » يخبرهم ان الباشا لا يوافق على خروجهم لتحطيم السكة الحديد ويحذرهم من مغبة هذا العمل ، وكم كان غيظى عندما رأيت رجال القرية يستمعون لهذه النصيحة ويعودون الى منازلهم وحقولهم . وان كانوا قد نفسوا عن غضبهم بعد ذلك ببضعة ايام عندما حل موعد السوق الذى كان يقام فى « التلين » كل ثلاثاء ، فحطموا السوق تحطيما وحمل كل منهم ما استطاع حمله من قطع الحديد والخشب التى تخلفت من هدمه ، وتعرضت قريتنا والقرى المجاورة بهذا السبب لحملة بوليسية انتقامية استمرت بضعة أيام

وفى سنة ١٩٢١ نجحت فى امتحان الشهادة الابتدائية نجاحا عاديا ، ولما كانت الزقازيق عاصمة مديريتنا لم تنشأ بها مدرسة ثانوية بعد ، فقد الحقنى ابى بالقسم الداخلى بمدرسة طنطا الثانوية . ورأيتنى بذلك انتقل من جحيم مدرسة الالفى الى جنة مدرسة طنطا حيث الامن وعدم الضرب ونظافة الحياة ونظامها وراحتها ، فبدأت مواهبى المكبوتة تتفتح ، ولم البث ان اصبحت الاول فى فصلى ، ثم الأول على السنة الأولى كلها ، وحافظت على السبق طول مرحلة الدراسة الثانوية ، وحصلت على البكالوريا من القسم الأدبى عام ١٩٢٥ ، وكان ترتيبى الثانى عشر على القطر كله رغم انى

فصلت فترة غير قصيرة فى اواخر العام بسبب تزعمى للطلبة فى الاضراب والمظاهرات ضد الانجليز وحكومة زيور التى خلفت حكومة سعد زغلول اثر مقتل السردار

وكانت نتائج امتحاناتى فى المرحلة الثانوية تنتشر فى اسرتنا وكفرنا كله ، فاعتقد الجميع انى موهوب وان المجد ينتظرنى ، وصدقت هذا الزعم ، وكان لترديده على اذنى اكبر الاثر فى ملء نفسي بالثقة والاعتزاز وحفزى على بذل المزيد من الجهد للتفوق ، وقد لفت ذلك الى انظار بعض خيار المدرسين فى مدرسة طنطا الثانوية ، وبخاصة الشيخان السباعى بيومى، واحمد هاشم عطية، اللذان كانا يدرسان لى اللغة العربية وآدابها ، واصبحا بعد ذلك استاذين بكلية دار العلوم . واذكر ان هذين الاستاذين الفاضلين تبرعا لى ولزميلى على حافظ بهنسى « الاستاذ الآن بكلية آداب جامعة الاسكندرية » بدروس خصوصية فى الأدب العربى ، خصصاها ليقرأ معنا صفحات من امهات الادب العربى القديم مثل « العقد الفريد » و « الكامل » ، فاحببت الادب منذ ذلك الحين ، واستقر فى نفسى انه الوسيلة السليمة لتهذيب النفس والذكاء . واخذت أدخر كل ما أستطيع من مال لاشترى امهات الكتب العربية القديمة ، وبدات بما قراته على غلاف « الكامل » للمبرد ، وهو قول احد شيوخ الأدب أن امهاته اربعة هى : « الاغانى » للأصفهانى ، و « الكامل » للمبرد ، و « الامالى » لابى على القالى ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، فاقتنيتها جميعا وأنا فى أواخر المرحلة الثانوية

وفى السنة الثالثة احسست بضعفى فى اللغة الانجليزية، فانتهزت فرصة زرت فيها القاهرة ، واشتريت من مكتبة اجنبية فى شارع قصر النيل عددا من الكتب

محتفظا بها الى اليوم ، وكتاب آخر فى الانشاء الانجليزى ، واذكر انى بحثت فى القاموس عن الاف الكلمات الواردة فيه وحفظتها فى العطلة الصيفية مع الجمل التى وردت فيها . وكان لذلك أثره فى تقويتى فى اللغة الانجليزية ، حتى حصلت فيها فى امتحان البكالوريا على درجة اكبر من درجتى فى اللغة العربية

« ذو الرمة »

---

ومن حسن الحظ ان افتتحت الجامعة المصرية فى نفس العام الذى حصلت فيه على البكالوريا ، فالتحقت بكلية الحقوق لاتخرج وكيلا للنيابة كأولئك الوكلاء الذين كانوا يحضرون الى كفرنا بين الحين والآخر فتهتز لحضورهم القرية كلها ويجرى لهم الخفر والمشايخ بل والعمدة نفسه

واستطاع استاذى الدكتور طه حسين ان يقنعنى بالالتحاق بكلية الآداب قسم اللغة العربية بالاضافة الى دراستى للحقوق . وكذلك اعجب الأستاذ « هوستليه » استاذ علم الاجتماع باجتهادى فى مادته ، فعرض على ان التحق بقسم الاجتماع بدلا من قسم الادب العربى واللغات السامية ، فلما رفضت عرض على ان اجمع بين القسمين فقبلت أيضا ..

وجاء ترتيبى فى السنة التحضيرية الأول مكررا ، مع الاستاذ محمود محمد محمود ، على طلبة الآداب والحقوق معا . وظللت أمتحن فى كل عام فى قسم اللغة العربية وقسم الاجتماع بكلية الآداب وفى كلية الحقوق ، وكان ترتيبى الاول فى قسم اللغة العربية ، ومن الخمسة الأوائل فى الدراستين الاخريين ..

وحصلت على ليسانس الآداب سنة ١٩٢٩ وكان ترتيبى الاول لان مدة الدراسة بها كانت اربع سنوات ، وبقيت لى سنة خامسة بكلية الحقوق . ووقع اختيار كليـــة الآداب على عضوا ببعثتها الى جامعة السوربون بفرنسا ، ولحسن الحظ قررت الكلية ان تستبقينا سنة ندرس فيها اللغة الفرنسية قبل سفرنا ، فاستطعت ان اكمـــل خلالها دراستى للحقوق وحصلت على الليسانس سنة ١٩٣٠ ، وجاء ترتيبى بين الأوائل ، واستدعيت بالفعل لتحقيق امل الطفولة واصبح وكيلا للنيابة ، ولكنى بعـد تردد فضلت الســـفر فى البعثة الى باريس على التعيين وكيلا للنيابة فى أحد الدساكر

وفى الكشف الطبى سقطت فى النظر ، وكادت البعثـة تلغى ، اولا ان تدخل استاذى الدكتور طه حسين ، فذهب بنفسه لمقابلة المرحوم محمد حلمى عيسى وزير المعـــارف وقتذاك ، وقرأ عليه فقرات من بحث كنت كتبته عـــن الشاعر الأموى « ذى الرمة » واعجب الوزير بالبحث ، فقال له الدكتور طه حسين ان كاتب هذا البحث هو الذى اسقطوه فى الكشف الطبى وكانه سيعمل خفيرا . وكتب حلمى عيسى مذكرة قدمها لمجلس الوزراء الذى وافق على اعفائى من الكشف الطبى ، وبدات اتهيأ للسفر

واذكر ان ابى اعطانى ثلاثة جنيهات ذهبية لاستعين بها وقت الحاجة ، وصحبنى الى الشيخ جودة ابراهيـم شيخ الطريقة النقشبندية فاعطانى منديلا بنفسجيـــا ظللت محتفظا به فى حقائبى الى ان عدت من باريس ، اما جنيهات ابى الذهبية فقد انفقتها فى احدى ســـاعات « الزنقة » ، وما كان اكثرها فى باريس . .

كان الهدف من بعثتى فى باريس الحصول على ليسانس من السوربون فى الاداب واللغـــات اليونانية القديمـــة

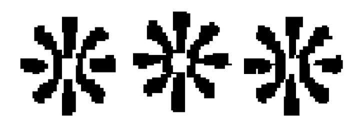
واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن مع حضور محاضرات المستشرقين وتحضـــير دكتوراه فى الادب العـــربى مع احدهم ..

وقد نفذت الجزء الاول فى تسع سنوات من عام ١٩٣٠ الى ١٩٣٩ ، ولكننى لم أقدم الدكتوراه لان الجو السياسى كان قد اكفهر فى أوربا عقب فشل مفاوضات تشـــمبرلن المشهورة مع هتلر ، واحسسنا ان الحرب قائمة لا محالة، ففضلت العودة الى مصر دون أن أكتب رسالة الدكتوراه، وقدمتها بعد ذلك فى الجامعة المصرية ، وان كنت قـــد حصلت من السوربون بالاضافة الى الليسانس ، على دبلوم فى القانون والاقتصاد السياسى والتشريع المالى ، بعـــد دراسة مفيدة جدا لمذاهب الاقتصـــاد وفلســـفته والنظم الضريبية والتشريع المالى ، كان لها اكبر الاثر فى تكوينى الثقافى ، كما كنت أحضر محاضرات الفلسفة والتـــاريخ والاجتماع وعلم النفس بالأضافة الى البرامج المقررة

## « مسمط » باريس

تريد ان احدثك بتفصيل اكثر عن فتـــرة دراستى فى فرنسا .. ان هذه الســـنوات هى التى كونتنى عقليا وعاطفيا وانسانيا .. وباريس مدينة بالغة الخطورة ، فيها الجد والصرامة ، وفيها المغريات المهلكة ، وقد أخذت من الاثنين بطرف . والغريب ان المغريات أفادتنى كثيرا من الناحية العاطفية والثقافية لانها مكنتنى من الاختلاط بدهماء الفن والادب فى مونبرناس والحى اللاتينى ، وفى علب الليل حيث الأحاديث التلقائية والاعترافات الصادقة فى ساعات الحظ ، ولمس نفوس البشر عن قرب عـــارية صريحة غير مقنعة ولا متوارية ..

وجبت باريس كلها متنقلا بين احيائها الشعبية والارستقراطية . كنا فى باريس نحيا حياة « جافروش » الطفل الخالد فى رواية هوجو الكبيرة « البؤساء » . وعندما تنفد نقودنا فى اواخر الشهر لانهتم بذلك كثيرا ، فكنت اعرف فى ازقة الحي اللاتينى مطاعم صغيرة تشبه المسامط فى القاهرة ، وكان لى صديق المانى ، كنا نلتقى فى تلك الايام العجاف أمام قهوة « كابولاد » فى مواجهة حديقة لوكسمبرج ، ونذهب معا الى المسمط حيث يشترى كل منا ببضعة فرنكات قطعة كبيرة من اللحم المسلوق ، ثم نشترى الخبز من المخبز ونذهب الى حديقة لوكسمبرج ونجلس على احد مقاعدها ونلتهم طعامنا بلذة لا تعدلها لذة مليونير على مائدة فاخرة . وحين يتقدم الشهر اكثر كنا نضطر الى مزيد من التواضع فنقنع بالقهوة مضافا اليها اللبن وقطعتين من الكعك المعروف باسم « الكرواسان » وكانت تكاليف الوجبة من هذا النوع لا تزيد على ما يساوى قرشين ونصف قرش



كنت فى باريس احاول الا التقى باخوانى المصريين الا فى حالات الضرورة ، واختلط طوال الوقت بالفرنسيين وغيرهم من الاجانب المقيمين فى باريس تجنبا لمواصلة الحديث باللغة العربية ، حتى لاحظت بعد السنة الاولى من اقامتى فى باريس انى لم أعد افكر باللغة العربية ، بل انتقلت الى التفكير باللغة الفرنسية ، ويخيل الى ان تغيير لغة التفكير الى لغة اكثر تحديدا ودقة واقل ميوعة قد غير منهج تفكيرى كله ، بالرغم من ان تفكيرى منذ دراستى الجامعية فى مصر كان يمتاز بالدقة والوضوح والنفور من الشقشقة اللفظية او افتعال الغموض ، وربما كان للمزاوجة بين دراسة القانون

والأدب أثر فعال فى تكوين هذا المنهج الفكرى فى نفسى ، فالقانون يقوم أساسا على الدقة ومناقشة الفروق الدقيقة لمعانى المفردات ذاتها ، وترتيب أحكام كبيرة على تلك المفارقات باعتبار ما يترتب على ذلك من نتائج عملية خطيرة قد تودى بحياة شخص او بماله . وهذا الجزاء المادى الصارم للميوعة فى التفكير القانونى هو الذى يكاد يحيل فقه القانون الى ما يشبه العلوم الرياضية الدقيقة ، فى حين يتسع الادب للكثير من الميوعة والاحتمالات والمفارقات دون جزاء محسوس بمثل هذا الخلل أو البلبلة فى التفكير

ومع كل هذا فمن المؤكد ان تغيير لغة التفكير لا لغة الكلام فحسب هى التى تكون النقلة الكبيرة فى منهج تفكيرى العام ، بل واحساسى أيضا ، فاللغة هى ضابط الاحساس كما هى ضابط الفكر ، والانسان لايعى احساسه ولا يتبينه الا اذا استطاع ان يسكنه اللفظ المحدد الدال

وقد ساعد على ذلك ان منهج دراسة الادب فى السوربون هو الاخر لا يقوم على المحاضرات النظرية او الاخبارية عن تاريخ الادب والادباء ، بل يقوم كله على ما يسمونه بتفسير النصوص ، فكان منهج ليسانس اللغة الفرنسية مثلا يقوم على تفسير الاساتذة لنصوص مختارة من اعلام هذا الادب فى عصوره المتتابعة ، وحول كل نص كانت تتبلور دراسة الكاتب كله وأسلوبه الخاص ووجهة نظره فى الحياة مع المقارنة بخصائص الكتاب الآخرين

وفى كل هذا ما يوجه منهج النقد نفسه نحو الدقة والارتكاز على ما يشبه الحقائق المادية الملموسة المتركزة فى النص ذاته . وكان تفسير نص لأحد أعلام الادب يغرينا نحن الطلبة بالبحث عن المؤلفات الاخرى لنفس الكاتب وقراءتها ومحاولة تفسيرها وفهمها على اساس

من المنهج الذى استخدمه استاذنا ..

فاذكر مثلا ان نقطة انطلاقى نحو ادب جوستاف فلوبير كانت شرح استاذنا لأقاصيصه الثلاثة المعروفة باسم « ثلاث أقاصيص » ، وبالرغم من أنهـا أقاصيص قصيرة فان أستاذنا استطاع ان يلمح فيها خصائص فلوبير العامة التى تزخر بها رواياته الكبيرة وبخاصة « مدام بوفارى » التى يجمع أساتذة الأدب فى فرنسا على أنها أروع قصة فى الأدب الفرنسى ، بل وربما كانت أروع وأحسن قصة فى العالم بشهادة أساتذة الآداب الأوربية الأخرى وبخاصة اساتذة الادب الانجليزى ونقاده

ومما لا شك فيه أيضا ان جو الحرية الفكرية الواسعة المنتشر فى سماء باريس وأرضها قد كان له أثر فعال فى تفتيح نوافذ النفس على كافة الآفاق ، فضلا عن أننى لم أقتصر على القراءة بل أحسست ان فى المشاهدة منبعا للمعرفة لا يقل اهمية عن القراءة ان لم يفقها أحيانا .

ولذلك لم أكن امكث فى باريس بعد انتهاء العام الدراسى ، بل كنت أغادرها للتنقل اما فى أرجاء فرنسا واما فى الدول الأوربية الأخرى ، وكان للمشاهدة وقع السحر فى نفسى، فما زلت أذكر مثلا كيف تحول وصف فلوبير لكنيسة مدينة « روان » فى احدى قصصه الى حقائق حية نابضة موحية عندما زرت تلك الكنيسة ، وشاهدت القصص الدينية التى نقشت على نوافذها لتحكى قصة القديس « سان جوليان » . وعندما وصلت الى الدار الريفية المتواضعة التى اعتزل فيها فلوبير الى جوار « روان » فى شمال فرنسا مدة خمس سنوات ليكتب فيها روايته الخالدة « مدام بوفارى » خيل الى اننى أمام معبد رهيب ..

# جزيرة الآلهة !

وبعد أن فرغت من دراسة اللغة اليونانية القديمة وآدابها سنة ١٩٣٦ ، احسست برغبة عارمة فى زيارة بلاد اليونان للبحث عن الأماكن التى ورد ذكرها فيما قرأت من التراث اليونانى القديم ، وكان لى زميل فى هـذه الدراسة اسمه « جاك ترپليه » ، فاتفقنا على أن نقوم معا برحلة الى بلاد اليونان وجزرها المتناثرة فى بحر ايجة وجزيرة صقلية باعتبارها جزءا من بلاد الاغريق القديمة ، وسافرنا بالفعل رغم اعتراض مدير البعثة فى باريس على سفرى ، لأنه كان يظن الامر مجرد نزوة سياحية مع أن هذه الرحلة هى التى ثبتت فى ذهنى جميع ما عرفته عن التراث اليونانى القديم الذى يكون أضخم معجزة بشرية ، فأذكر مثلا أننى عندما زرت الاكروبول فى أثينا وبقايا المعابد التى لا تزال قائمة فوق هذه الربوة ، خيل الى أننى أرى مواكب ديونيزوس ومسابقات التمثيل المسرحى ، وأننى ألمح على البعد ربات الفنون التسع فوق قمة الهليكون ..

وفى ضواحى أثينا رحت أبحث مع صديقى عن أكاديمية أفلاطون التى كان تلاميذه يتلقون فيها عنه المعرفة والفلسفة ، ثم ليسيه ارسطو ومماشيها التى كان يسير فيها ومن حوله تلاميذه ليناقش معهم أعوص مسائل الفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة وكافة فروع المعرفة . وبالرغم من أننى لم أعثر الا على بعض الحجارة المتناثرة فى مكان الأكاديمية ومكان الليسيه الا أن قراءاتى السابقة حركت خيالى ، فتصورت الاكاديمية والليسيه قائمتين ووسط كل منهما فيلسوفها الجليل افلاطون أو ارسطو ..

وعند ضاحية كولونا المجاورة لأثينا اخذت أبحث عن الغابة المقدسة التى لجأ اليها أوديب بعد أن هزمه القدر ففقأ عينيه وهام على وجهه فى الأرض حتى انتهى به المسير الى تلك الغابة ، وبالرغم من أنى لم اجد هناك الا شجرة زيتون واحدة فانى احسست كانى اجوب خلال غابة كثيفة من أشجار الزيتون هى الغابة التى لجأ اليها اوديب

وفى بحر ايجة أخذنا نتنقل فى زوارق صغيرة من جزيرة الى أخرى ، واذكر اننا عندما رسونا على شاطىء جزيرة تيلوس البالغة الصغر ، لم نجد أحدا فوق ارضها غير حارس الآثار ، وأرض الجزيره كلها مغطاة ببقايا المعابد القديمة ، وبخاصة معابد اله الفنون الخالد « أبوللو » .. فى وحدة هذه الجزيرة ووسط انقاضها تشربنا الروح الهلينية كلها ، وهى روح تمتاز بالصفاء وهدوء القلب وحرارة الفكر وانفعاله ، لأن اليونانى القديم كان يحس بعقله ويدرك بقلبه ، ففى عقله حرارة العاطفة وفى قلبه ضوء العقل ..

## بيت الراعى

عدت من هذه الرحلة التى تفوق فى أهميتها قراءة الف كتاب لأفاجأ بمدير البعثة وقد أوقف مرتبى لأننى خالفت رأيه ، وعلمت كذلك أنه كتب الى الجامعة يطلب فصلى من البعثة ..

ولحسن الحظ كنت قد وفقت الى ما لفت نحوى نظر الحكومة القائمة وقتذاك ثم نظر مدير الجامعة المرحوم أحمد لطفى السيد ، فقد كتبت عدة مقالات نشرتها فى الصحف الفرنسية أنبه فيها الفرنسيين الى أن معارضة حكومتهم فى الغاء الامتيازات الاجنبية فى مصر ستجعلهم

يخسرون وضعهم فى مصر وحب أهلها لهم ، ورد على وكيل وزارة الخارجية الفرنسية وكان يرأس الوفد الفرنسي فى مفاوضات مونترو ، فعقبت على ما كتب واستمر الامر بيننا سجالا حتى ثاب الفرنسيون الى رشدهم وسلموا بما لم يكن منه بد وهو الغاء الامتيازات الاجنبية. وبالطبع تابعت السفارة المصرية هذه المساجلة الهامة وأبلغتها الى وزارة الخارجية فى القاهرة

وحدث أن مر الوفد المصرى للمفاوضات بباريس عائدا من لندن عقب توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكان يضم الرئيس السابق مصطفى النحاس ، والمرحوم مكرم عبيد وزير المالية ، وعلى الشمسى ، فذهبت الى الفندق الذى نزلوا فيه ، وقابلت الشمسى وشرحت له المأزق المالى الذى وجدت نفسى فيه دون مرتب ، فدهش الرجل وقادنى الى مكرم عبيد واخبره بما حدث وأبدى استهجانه لتصرف مدير البعثة ، فما كان من وزير المالية الا ان اخرج ورقة بيضاء من جيبه وكتب عليها أمرا بصرف مرتبى فورا ، وبذلك انحلت الأزمة بصفة مؤقتة ، وان بقيت مع ذلك مهددا بالفصل من البعثة فيما لو استجاب مدير الجامعة لطلب مدير البعثة ، ولكننى لحسن الحظ كنت قد نجحت فى كسب ثقة مدير الجامعة ، لأن الدكتور طه حسين حين جاء الى باريس فى الاجازة الصيفية التى تلت أول سنة لى فى فرنسا ، وكنت قد نجحت بما يشبه المعجزة فى ليسانس الادب الفرنسى التحريرى بعد عام واحد ، طلب منى ان أحقق أمنية قديمة لمدير الجامعة احمد لطفى السيد ، وهى أن يترجم احد المصريين الذين درسوا الأدب الفرنسى وأتقنوا لغته ، قصيدة عويصة للشاعر « الفريد دى فينى » ، وهى قصيدة « بيت الراعى » التى تجمع بين عمق التفكير الفلسفى وشطحات

الروح الرومانسية المجنحة ، فترجمتها واهديت الترجمة الى احمد لطفى السيد ، فراقته وأرسلها الى مجلة « الرسالة » فنشرت فى عدديها الاول والثانى

ومن المؤكد ان هذه الحادثة الصغيرة كان لها اثرها فى عدم استجابة مدير الجامعة لطلب مدير البعثة بفصلى منها ، فبقيت فيها وواصلت دراساتى ، وان كنت قد عدلت عن دراسة النحو المقارن للغات الكلاسيكية ، وفضلت ان التحق بمعهد الأصوات الشهير بباريس حيث درست اصوات اللغة دراسة معملية ، وقمت ببحث هام عن موسيقى الشعر العربى وأوزانه مسجلة ومقاسة بالكيموجراف ، وهو آلة تسجيل الاصوات لحساسة وحساب الذبذبات الصوتية ، وكم التفاعيل والايقاع وعمليات التعويض التى لا تظهر الا عند التقطيع الصامت للتفاعيل الى فواصل وأوتاد مجموعة ومفروقة وما اليها

وكتبت فى ذلك رسالة بالفرنسية أثبت فيها تسجيلاتى لأربعة بحور عربية كبيرة هى : الطويل والكامل والوافر والرجز ، واستخلصت من هذه الدراسة نتائج كبيرة عن موسيقى الشعر العربى وعلله وزحافاته وما يحدث عند انشاده ، ولسوء الحظ لم استطع نشر هذا البحث الهام حتى الآن ، وان كنت قد ارسلته فى نهاية الامر للدكتور حسن عون بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية التى انشأت معملا للاصوات ، لعل هذا المعمل يقوم بنشر هذه الرسالة مع تصوير التسجيلات الصوتية العديدة الموجودة بها ، كما اهديت هذا المعمل مجموعة كبيرة من كتب الدراسات اللغوية النادرة اشتريتها من فرنسا ومن مختلف عواصم اوربا فى اثناء رحلاتى الصيفية اليها

## العودة والزواج

عدت الى مصر فى يوليو سنة ١٩٣٩ ، وكان المرحوم أحمد أمين قد أصبح عميدا لكلية الاداب ، ولم أكن قد حصلت على الدكتوراه فى الأدب العربى ، فرفض الدكتور طه حسين أن أدرس فى قسم اللغة العربية ، ورفض قسم اللغات القديمة أن أدرس به لاننى درستها على المنهج الفرنسى ورئيس القسم انجليزى يدرسها بالمنهج الانجليزى ، أما رئيس قسم اللغة الفرنسية فقال ان لديه من الاساتذة الفرنسيين ما يكفيه وزيادة ، وهكذا وجدتنى ضائعا ضياع اليتيم فى مأدبة اللئام ، ولم يجد الدكتور أحمد أمين أمامه سوى أربع ساعات خالية طلب منى أن ادرس فيها الترجمة من الانجليزية الى العربية بالرغم من انى عائد من فرنسا لا من انجلترا . وفى السنة الدراسية التالية ( ١٩٤١/٤٠ ) تمكن العميد من أن يحصل لى على بضع ساعات ترجمة من الفرنسية فى قسم اللغة الفرنسية ..

ثم افتتحت كلية الاداب المعهد العالى للصحافة فدرست فيه الترجمة من الفرنسية واللغة الفرنسية وآدابها، حتى اذا كان عام ١٩٤٢ وتقرر انشاء جامعة الاسكندرية اتخذ مديرها وقتئذاك الدكتور طه حسين قرارا بتعيينى بها أنا وزملائى العائدين من فرنسا دون دكتوراه

وكنت قد تزوجت سنة ١٩٤١ ملك عبد العزيز وكانت وقتئذ طالبة بالسنة الثالثة بقسم اللغة العربية ، ورزقنا بتوأمين ، وحصلت ملك فى العام التالى على الليسانس وبذلك استطعنا الانتقال الى الاسكندرية ..

وحمدت الله على بعدى عن جامعة القاهرة لان العلاقة بيني وبين اساتذة قسم اللغة العربية وادابها كانت قد ساءت بسبب تقرير كتبته عن منهج دراسة اللغة والادب في جامعتنا ، وانتقدت فيه الاساليب البالية التي كانت مستخدمة عندئذ ، وقدمت نسخة من التقرير الى مدير الجامعة واخرى الى عميد كلية الاداب ، وطالبت فى هذا التقرير بانشاء معمل للاصوات وقلب مناهج التدريس رأسا على عقب ، واحال العميد تقريرى الى رئيس قسم اللغة العربية وكان وقتها المرحوم عبد الوهاب عزام

وذات يوم التقيت به فى الممر المؤدى للقسم ، وتجرات وسألته عن رأيه فى التقرير فاجاب قائلا :

ـ تقرير ايه يا عم ، انت جاى تعلمنا ازاى ندرس امال احنا هنا بنعمل ايه ؟

وكان هذا كل ما عرفته عن ذلك التقرير ومصيره

وكان الدكتور احمد امين فى تلك الفترة يلح على فى أن اجتهد فى كتابة رسالة الدكتوراه وأن أفرغ منها بأسرع ما أستطيع لتصحيح وضعى فى الجامعة ، وكان مدفوعا فى ذلك بعدالة القاضى ونزاهة العالم وعطف الأستاذ المحب لتلميذه ، واقترح على موضوع « تيارات النقد العربى فى القرن الرابع الهجرى » فوافقت على الفور ، وقام الدكتور احمد أمين باجراءات التسجيل والاشراف على هذا البحث ، وتفرغت انا للعمل الجاد فانتهيت من كتابة الرسالة فى مدة تسعة اشهر ، وهى نفسها كتابى الكبير الذى اعيد طبعه عدة مرات ، واصبح مرجعا جامعيا من المراجع الاساسية لدارسى الادب ،

والعربى خاصة فى جامعاتنا العربية كلها ، ويكاد يكون المرجع الوحيد فى هذا الحقل البكر واسمه الحالى «النقد المنهجى عند العرب »

## صدام مع الجامعة

ويظهر ان تحضيرى الدكتوراه باشراف الدكتور احمد امين قد اسخط على استاذى الدكتور طه حسين ، فأعلن أكثر من مرة انه لن يعترف بهذه الدكتوراه ، ورفض أن يشترك فى اللجنة التى ناقشتنى فى الرسالة

غير انى وجدت فى رعاية الدكتور احمد امين لى بعض ما عوضنى عن اعراض الدكتور طه حسين عنى ، فقد عرض على أحمد أمين لتفريج أزمتى المالية بعد ان زادت اعبائى، ان اترجم الى العربية كتاب « دفاع عن الادب » لجورج ديهامل الذى نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كما ضمنى الى عضوية هذه اللجنة ، وترجمت لها كتابا اخر هو « من الحكيم القديم الى المواطن الحديث » وهو كتاب بالغ النفع والعمق الفه اربعة من كبار اساتذة السربون وتحدث كل واحد منهم عن المثل الاعلى الذى ساد العالم المتحضر فى فترة من فترات التاريخ

وكلفنى استاذى احمد امين كذلك بترجمة كتاب ثالث بناء على اقتراح من مستشار الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية وكان وقتها الاستاذ ساطع الحصرى ، فترجمته وهو كتاب « تاريخ اعلان حقوق الانسان » للفيلسوف الفرنسى التقدمى « ألبير باييه » . وفى نفس الوقت كان أحمد أمين طيب الله ثراه قد فتح امامى باب الكتابة فى مجلة « الثقافة » التى كانت تصدرها وقتئذ لجنة التأليف والترجمة والنشر وكان يرأس تحريرها .

فبذلت أقصى جهد ممكن استجابة لهذا العطف الابــوى الكريم وكتبت سلسلتين من المقالات ، الأولى بعنــوان « نمـــــاذج بشرية » ، والأخرى بعنوان « فى الميزان الجديد » . .

وبالرغم من أن مكافأة هذه المقالات كانت زهيدة لا تتجاوز جنيها ونصف جنيه للمقال ، فانها اسهمت فى حل الكثير من المشاكل المادية ، كما بنت اسمى العام عنـــد جمهرة القراء ولفتت الى الأنظار بشكل واضح كان له أكبر الاثر فى مستقبلى بعد ذلك

ويبدو أن كل ذلك قد زاد من حنق استاذى طه حسين على ، فبعد ان حصلت على الدكتوراه ســــنه ١٩٤٣ من جامعة القاهرة بمرتبه الشرف الممتازة ، تقدمت اليــــه بوصفه مديرا لجامعة الاسكندرية التى أعمل بها بطلب ترقيتى الى وظيفة مدرس «أ» من الدرجه الرابعة ، فاذا به يرفض طلبى ويحتد فى رفضه بصورة دفعتنى الى التفكير الجدى فى الاستقالة من الجامعة رغم انى كنت قد ارتحت الى التدريس فى كلية الاداب التى عهـــدت الى بتدريس الادب العربى والنقد القديم والحديث ، بل والعروض أيضا ، وكنت قد اهتديت فى اثناء تحضيرى للرسالــــة التى اعددتها فى معمل الصوتيات بباريس الى اســــاس حديث لتدريس العروض ، فأخذت ازن بحور الشــــعر العربى المختلفة على اساس من المقاطع لا على اســــاس الحروف الساكنة والمتحركة كما قال الخليل بن احمد . ولاحظت ان هذه الطريقة قد يسرت فهم العـــــروض على طلبتى ، وكان من بينهم عدد غير قليل من النابهين اذكـر منهم الدكتور محمد عاطف سلام والدكتور محمد زكى العشماوى الاستاذين الان بكلية الاداب بالاسـكندرية ، والمرحوم الدكتور محمود السعران الذى كان اول دفعته ،

وكان اتجاهه واضحا نحو الدراسات اللغوية فى حين كان زميلاه يغلب عليهما الاتجاه الى دراسة الأدب ونقده

حدثت هذه الازمة بينى وبين جامعة الاسكندرية عام ١٩٤٤ فى منتصف العام الدراسى ولم أكن قد اكملت بها عامين بعد ، فبدأت أبحث لنفسى عن عمل اخر قبل أن يحتدم الصدام بينى وبين جامعة الاسكندرية وعلى رأسها استاذى الدكتور طه حسين ، ولم ألبث أن قدمت استقالتى بالفعل ..

وكنت منذ تأزمت الامور بينى وبين الدكتور طه حسين قد بدأت أبحث لنفسى عن عمل اخر تمهيدا للاستقالة من جامعة الاسكندرية . وتصادف ان التقيت فى مقهى «التريانو» بالاسكندريه بالمرحوم أنطون الجميل رئيس تحرير « الأهرام » ، وقدمنى اليه أحد الزملاء ، وانطلق الرجل يثنى على مواهبى الادبية وثقافتى الواسعة واسلوبى العربى الرصين ، فانتهزت الفرصة لأسأله عما اذا كان من الممكن ان يجد لى عملا بالاهرام ، فرحب بذلك وعرض على وظيفة رئيس قسم الاخبار بالجريدة ، فقبلت على الفور ووعدنى أنطون الجميل أن يوافينى بقرار التعيين فى القاهرة ، ولكن انتظارى طال دون جدوى ، ويخيل الى انه عرض هذا الاقتراح على مجلس تحرير الجريدة وكان به وقتئذ مصطفى أمين . وقد فوجئت بعد عدة سنوات بمصطفى أمين يقول اننى حاقد عليه لانه عارض فى مجيئى الى « الاهرام » ، والحقيقة أنى لم أعرف هذه الحقيقة الا من قوله هو . ومن غرائب الامور ان على أمين حينما كان سكرتيرا لامين عثمان وزير المالية فى احدى وزارات الوفد عمل كل جهده لتعطيل تسوية معاشى بعد استقالتى من الحكومة وعملى بالصحافة

وكنت قبل ذلك قد انتدبت لتدريس مادة الترجمة

الفرنسية في كلية التجارة بجامعة الاسكندرية ، حيث تعرفت بالدكتور سيد ابو النجا ، الذى كان مدرسا بها ، ثم ما لبث ان استقال من الجامعة ليعمل مديرا لجريدة «المصرى» وكان هو الواسطة بينى وبين المرحوم محمود ابو الفتح الذى رحب بعملي في جريدته ، وعينت بالفعل مديرا لتحريرها على ان اباشر عمل رئيس التحرير الى ان يتخلى لى محمود ابو الفتح عن هذا المنصب رسميا بعد ذلك

## التشريع والضمير الانسانى

ونجحت فى هذا العمل الجديد نجاحا واضحا رغم المقاومات العنيفة التى وجدتها داخل الجريدة من بعض العاملين فيها اذ اعتبرونى دخيلا على الصحافة ، وحدث ان كانت هناك قضية كبيرة معروضة على القضاء بسبب اعتناق احد كبار الاثرياء الاقباط الدين الاسلامي لكي يطلق زوجته، فطعنت الزوجة فى اسلامه بقصد التحايل على طلاقها ، ووكلت عنها المحامى الكبير عزيز خانكى . ولم يكتف عزيز خانكى بالابحاث والمذكرات التى قدمها للمحكمة ، بل نشر فى جريدة « الاهرام » مقالا خطيرا يطالب فيه باصدار تشريع يحرم تغيير الدين . واثارنى هذا المقال فكتبت ردا عليه استنكر فيه ان يمتد التشريع الى ضمير الانسان فيفرض عليه التزام دين معين ، لان نطاق الضمير لا يجوز للمشرع ان يقتحمه . ولكن محمود أبو الفتح رفض نشر المقال فى « المصرى »

فأخذت المقال وذهبت على الفور الى جريدة «الاهرام» حيث قابلت انطون الجميل وطلبت منه ان يتفضل بنشر ردى فى نفس المكان الذى نشرت فيه مقالة عزيز خانكى ، فرحب انطون الجميل ونشر المقال بالفعل

وفى الصباح فوجئت بمندوب من الجريدة يخبرنى ان

محمود ابو الفتح يطلب منى أن الـزم البيت حتى يدرس الموقف بعد خروجى على شروط العقـــد المبرم بينى وبين الجريدة ، بنشرى مقالا فى الجريدة المنافسة لها

وجاءتنى بعد ذلك رسل تخبرنى ان محمود ابو الفتح قد يصفح عنى اذا اعتذرت له ووعدت بألا أعود الى فعلتى ولكنى رفضت وقلت لهم ان محمود ابو الفتح لم يشـترنى ولم يشتر قلمى ولا فكرى ، وما دام قد رفض نشر مقـالى فى جريدته فمن حقى كمواطن ، بل كانسـان ، أن أنشر رايى حيث أستطيع ، ولكنه لم يقبل قولى ، ولم ألبث أن تلقيت منه خطابا بفصلى من الجريدة لمخالفتى لاوامره ، ولم يكن قد مضى على بدء عملى فى الجريدة أكثر من ثلاثة أشهر

ومررت حينئذ بأزمة عاتية ، اذ ظللت متعطلا اكثر من أربعة أشهر ، لا مورد لى الا بضعة دريهمات معدودة كنت أكسبها فى كتابة بعض المقالات فى مجلات كـ « الرسالة » و « الثقافة » ، ومن تدرس بعض المحاضرات بمعهـــد التمثيل الذى افتتح مسائيا عام ١٩٤٤

## الأوراق الصفراء

فى ذلك الوقت صدرت جريدة « أخبار اليوم » وأعلنت سياستها فى مناصرة الملك ضد الوفد الممثل وقتذاك للشعب، وأخذت تنشر سلسلة من المقالات الصاخبة بعنوان : «كيف فسدت العلاقات بين الوفد والسراى.» ، تشنع فيها على الوفد وتشيد بالملك الصالح والعامل الاول ، والتقى الاول، وتسرف فى مناصرة الملك المتآمر مع الانجليز . وكانت حكومة الوفد قد اقيلت سنة ١٩٤٤ ، وحلت محلها حكومة الاقلات من السعديين وحزب الكتلة ، وكان للسعديين مجلة صغيرة اسمها « بلادى » يصدرها محمود سمهان ابن احد كبـار

اثرياء الهيئة السعدية ، وكنت أعرفه منذ اقامته معنا فى باريس بعض الوقت ، فاغريته بنشر مقال فى مجلته ردا وتسفيها لما تنشره « أخبار اليوم » وأسميته « الاوراق الصفراء » ..

ولسبب لا اعرفه حتى اليوم نشر محمود سمهان المقال كافتتاحية لمجلته ، فكان بمثابة قنبلة انفجرت فى الوسط السياسى كله ، فاستدعى الحزب السعدى محمود سمهان وأنبه تأنيبا شديدا،ولولا مكانة والده فى الحزب لتعرض لما هو أكثر من التأنيب ،وفى الوقت نفسه رضى الوفدالمصرى ورئيسه عن المقال رضاء شديدا ، واعتبروا كتابته ضد « اخبار اليوم » وضد السراى جرأة لامثيل لها تصل الى حد الفدائية ، وكان للحزب فى ذلك الوقت جريدة اخرى ميته تصدر مسائية باسم «الوفد المصرى» ، ففوجئت ذات يوم بمكالمة تليفونية من الاستاذ حامد طلبة صقر صاحب امتياز هذه الجريدة ، يطلب منى مقابلته فى مكتبه ، فذهبت اليه حيث عرض على رياسة تحرير هذه الجريدة مقابل مرتب يزيد على ما كنت اتقاضاه من جريدة « المصرى » ، ففرحت طبعا وقبلت ، وبدأت عملى كرئيس لتحرير هذه الجريدة ابتداء من فبراير ١٩٤٥

وفى الوقت نفسه كنت قد عهدت الى الاستاذ المحامى زهير جرانة ، برفع دعوى على جريدة « المصرى » وصاحبها محمود ابو الفتح مطالبا بتعويض قدره خمسة آلاف جنيه وقد ظلت هذه القضية منظورة فى المحاكم ما يقرب من خمس سنوات ، حكم لى بعدها بالتعويض المطلوب ، الذى اتخذته بعد ذلك متكأ لى فى أزمات الحياة الى يومنا هذا

## منشور ثورى

أما جريدة « الوفد المصرى » فكنت أكاد احررها بأكملها

بمفردى ، ثم جمعت حولى عددا من الشبان النابهين قبلوا العمل كسكرتيرين لى ، مثـــل الاساتذة : أحمد رشدى صالح ، وسعد لبيب ، وانور كامل ، ومصطفى منيب . وكان قسم الترجمة فى الجريدة يضم الأساتذة : عبـــد الحميد الحديدى ، وأبوسيف يوسف ، وابراهيم نوار ، ورسلان البنبى .. وغيرهم ..

وما لبثت هذه الجريدة أن أصبحت مركزا لحـــركة تقدمية داخل حزب الوفد نفسه رغم معارضة باشواته ، فقد حولتها الى ما يشبه المنشور اليومى الثورى ، ووصلت فيها بالمعارضة السياسية الصلبة الى أبعـــد الحدود ، وجعلت منها سوط عذاب على الانجليز والسراى وأذنابهما من الاقليات التى لم يكن لها هم سوى التربص للحـكم ومغانمه ..

ونشرت عندئذ سلسلة من « البراويز » كلفت باعدادها الاستاذ مصطفى منيب ، الذى اعتمد فى كتابتها على تقرير سنوى كانت تصدره الجاليات الاجنبية فى مصر باللغة الفرنسية بعنوان « حولية الشركات » ، ويتضمن ملخصات لميزانيات الشركات ، والمرتبات التى يتقاضاها أعضـــاء مجالس الادارات ، فقمنا باستخراج المكافآت التى كـان يتقاضاها كل باشا من الباشوات من الشركات « العديدة التى يعمل فى ادارتها » وقد ذهلنا حين رأينا بعضهم ، من أمثال حافظ عفيفى ، وحسين سرى ، يبلغ مجمـــوع مكافآت كل منهم ما يزيد على المائة الف جنيه سنويا من مجالس عشرات الشركات ، وكل يوم كنا ننشر اسم واحد من هؤلاء الباشوات ثم قائمة بالشركات التى يعمـــل عضوا بمجالس ادارتها ، وأمام كل شركة مقدار المكافأة التى يتقاضاها منها ، ثم مجموع هذه المكافآت ، ونكتفى بعد ذلك بالتساؤل عن العمل والجهد الذى يبـــذله كل

منهم فى هذه الشركات مع أنه لا يمكن أن يمر عليها كلها حتى مجرد مرور ولو مرة كل أسبوع ..

## الحملة البربرية

ولكنى بالرغم من ذلك ، وبالرغم من عدم مهاجمتى لباشوات الوفد ، فقد أحسست بحركة تذمر ضدى بين الجناح الاقطاعى اليمينى فى الحزب ، فى الوقت الذى أصبحت فيه الجريدة مكان تجمع لما عرف وقتئذ بالطليعة الوفدية والشباب الوفدى التقدمى الذى يبدو أنه كان يضم عددا من الشيوعيين ، ولكننى على أية حال لم يكن لى فى يوم من الايام اتصال بالحزب الشيوعى ومنظماته . واذا كنت وضعت بين شعارات جريدة « الوفد المصرى » التى كانت تنشر تحت عنوانها كل يوم شعار « العدالة الاجتماعية » ، فقد كنت مدفوعا فى ذلك بنزعة اصلاحية خالصة كانت تدعونى الى مناصرة العدل بين المواطنين وتقريب المسافة بين الثراء الفاحش والفقر المدقع الذى كانت تتردى فيه الملايين

كل ذلك سبب لى متاعب كثيرة واشعل نار حرب خفية ضدى فى جناح الباشوات الاقطاعيين المسيطرين على الحزب آنذاك . وعلمت أخيرا أن بعض هؤلاء الباشوات كان يحرض الشبان الوفديين على الانفضاض من حولى ، بل ومحاربتى ، فى الوقت الذى كنت أحمل فيه مسئولية المعارضة كلها ، وذهبت بسبب كتاباتى الى الحبس الاحتياطى ما يقرب من عشرين مرة فيما بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ ، حتى كانت الحملة البربرية التى شنها اسماعيل صدقى فى يوليو سنة ١٩٤٦ باسم محاربة الشيوعية ، اذ أغلق ذات مساء ١٢ جريدة ومجلة ، واطلق رجال

البوليس فى ظلام تلك الليلة ليلقوا القبض على مائتين من الكتاب والصحفيين كنت من بينهم

وكان من الصحف التى أغلقها صدقى جريدة « الوفد المصرى » ، ومجلة « البعث » الاسـبوعية التى كنت قد أصدرتها منذ ستة أشهر بما ادخرته من مرتبى . وكنت أحررها مع عدد من الكتاب الشبان ، كنت ادفع لهم اجورا زهيدة ، وعاوننى فى تحـريرها المرحوم الدكتور محمود عزمى بمقالات اسبوعية عن السياسة الدولية ، وكنت بعد ان أجمع موادها احملها بنفسى الى مطبعة « الرغائب » فى شارع محمد على ، حيث أسهر الليل كله حتى تجمع المقالات ، وأصححها ، ثم تطبع المجلة ، وأسلمها بنفسى للباعة والمتعهدين ، ثم أمر بعد ذلك فى شوارع القاهرة أفتش على التوزيع ، كل ذلك دون أن أنال أى قسط من النوم أو الراحة

فى تلك الليـلة المشـئومة فاجأنى البـوليس فى بيتى بلورياته وعساكره وضباطه ، فأزعجوا زوجتى وأطفالى ازعاجا شديدا ، ثم ساقونى معهم الى المحافظة رغم انهم لم يجدوا فى منزلى أى كتاب أو ورقة تشـير الى أنى شيوعى من قريب أو بعيد

## محاولة للرشوة

كان ذلك مساء يوم جمعة ، وفى صباح السبت ظهرت جريدة « أخبار اليـوم » وقد كتبت « مانشـت » فى صدرها بالحروف الحمراء الكبيرة يقول : « القبض على الدكتور محمد مندور الواسطة بين الوفد والكومنترن »

وأحدث هذا العدد من « أخبار اليوم » ضغطا شديدا ضدى من جانب البوليس السياسى والنيابة ، أحسست

بثقله داخل الزنزانة التى وضعت فيها رهن التحقيق مدة ٤٦ يوما ، أى معظم أيام الصيف فى يوليو وأغسطس ..

والواقع انه لم يلق القبض على الا بعد أن رفضت « الرشوة » التى حاولها معى اسماعيل صدقى ، اذ أرسل الى ذات صباح وزير ماليته المرحوم عبد الرحمن البيلى ، ليخبرنى بلسان الملك ورئيس الوزراء أن معاهدة « صدقى ـ بيفن » ستوقع ، أردت أم لم أرد ، وانه لا جدوى من معارضتى ، وانه من الخير لى أن أريح واستريح بأن أقبل منصب سفير فى سويسرا ، فأجبته بأنى أفضل الانتحار على مثل هذه الخيانة الوطنية

وانصرف عبد الرحمن البيلى ليأتى البوليس ويقبض على ، ثم تشن على « أخبار اليوم » حملتها التى رفعت بسببها دعوى عليها باعتبار أن ما نشرته يعتبر قذفا صريحا فى حقى . وفى أثناء نظر القضية طلب رئيس المحكمة اسماعيل صدقى ـ وكان قد خرج من الحكم ـ ليدلى بشهادته ، فقال اسماعيل صدقى ان المباحث كانت قد رفعت اليه تقريرا يفيد اننى أعمل وسيطا بين الوفد والكومنترن ، أى الشيوعية الدولية ، ولكنه تبين بعد ذلك أن هذا التقرير لم يكن صحيحا ، كما اعترف بأنه هو الذى أرسل بهذا الخبر الى « أخبار اليوم »

وعلى ذلك فقد حكمت المحكمة بادانة « أخبار اليوم » وبغرامة على صاحبها ، وبتعويض مدنى لى قدره ألفا جنيه ، خفض فى الاستئناف الى خمسمائة ، وأشادت المحكمة بوطنيتى واخلاصى ودفاعى الصادق عن بلادى وحريتها ، ومعارضتى الشريفة لمعاهدة « صدقى ـ بيفن » ..

# صوت الأمة

وبالرغم من كل هذه الأهوال التى تعرضت لها ،فاننى لا أستطيع الا أن أثنى على وطنية شعبنا بمختلف طوائفه، فقد كان جميع أبناء الشعب الشرفاء متضامنين معى فيما أحسست ، بما فى ذلك رجال البوليس انفسهم الذين حرصوا على أن يوفروا لى فى السجن أكبر قسط من الراحة معرضين أنفسهم بذلك للاخطار ، فكانوا يحملون لى الغذاء والصحف من الخارج ، بل لقد مكنونى من كتابة مقالات ضد صدقى والسراى والانجليز من داخل السجن ، وحملوها للجريدة فنشرتها ، مما كاد يطيح بصواب الحكومة الظالمة القائمة وقتذاك ، وتسبب ذلك فى نقل بعض رجال البوليس وتشريد بعضهم الآخر

ورغم ذلك كله فقد خانتنى قيادة الوفد بتحريض من جماعة الباشوات واعضاء الجناح اليمينى فى الحزب، الذين رأوا فى قلمى خطرا يهددهم ويهدد ثرواتهم الضخمة، فقبل الوفد أن يتعهد لحكومة صدقى بعدم أسناد رياسة التحرير لى فى مقابل أن تعطيهم الحكومة رخصة جريدة جديدة أسموها « صوت الامة »

ولكن الامور ما لبثت أن حلت نفسها بنفسها ، اذ استطاع الشعب أن يسقط حكومة اسماعيل صدقى ، وأن يوقف مفاوضاته مع الانجليز ، ويرفض المعاهدة التى كان يريد أن يبرمها مع « بيفن » والتى كانت تقضى بدفاع مشترك أبدى بين مصر وانجلترا يخفى بين طياته تبعية أبدية من مصر لانجلترا ، واستمرار قناة السويس تحت النفوذ الانجليزى ، والزامنا بدخول الحرب كلما أرادت انجلترا ، وبالجملة استمرار الاستعمار الانجليزى

لبلادنا أبد السنين ، فى حين أن معاهدة سنة ١٩٣٦ كانت موقوتة بعشرين سنة

وبسقوط وزارة صدقى أمكن أن أتولى تلقائيا رياسة تحرير « صوت الامة » وأواصل فيها كفاحى ضد الاستعمار والاستبداد واحتكار رأس المال الاجنبى والوطنى لكل ثروات بلادنا

## مجلس النواب

ولكن تلك الازمة ، وتلك الخيانة التى واجهتنى داخل حزب الوفد ، نبهتنى الى ضرورة الاعتماد على نفسى ، والاستقلال بحياتى المادية عن الحزب والمسيطرين عليه ، فقررت فى أوائل عام ١٩٤٨ أن أقيد نفسى فى نقابة المحامين، وان انتفع بدراستى للقانون فى مزاولة المحاماة. وكان اسمى قد انتشر فى جميع انحاء البلاد ، وملأ جميع الاسماع ، مما يسر لى العمل بالمحاماة ، فازدهر المكتب الذى افتتحته ، وكان يأتينى الموكلون من أقصى الصعيد وأقصى شمال الدلتا فى القضايا الجنائية الكبيرة ، وبلغت وقتئذ مبلغا كبيرا من الرخاء المادى رغم حرصى الشديد على شرف مهنة المحاماة

وواصلت فى نفس الوقت الكتابة والاشراف على تحرير جريدة « صوت الامة » حتى هزمنا حكومات الاقليات هزيمة مطلقة ، فاضطر الملك الى التسليم بضرورة اجراء انتخابات جديدة تشرف عليها حكومة محايدة برياسة حسين سرى ، وتولى الدكتور محمد هاشم وزارة الداخلية التى أجرت الانتخابات بنزاهة ، وطالبت من الوفد ترشيحى لدائرة السكاكينى

وجرت الانتخابات وفزت فيها فوزا ساحقا ، ودخلت

البرلمان عضوا فيه لاول وآخر مرة عام ١٩٥٠ ولم أعلم الا فى هذا العام «١٩٦٤» أن حكومة الوفد كانت قد أعدت مذكرة لتعيينى وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية مع وزيرها الدكتور أحمد حسين ، ولكن أحدا لم يفاتحنى فى ذلك . ولو فاتحونى لكان من المؤكد أن أرفض مفضلا الاستمرار فى تمثيل الشعب بمجلس النواب، والاستمرار فى عملى الصحفى ، وعملى المستقل الناجح فى المحاماة ، وان كان القدر قد اعترض سبيلى لسوء الحظ

## فتح الجمجمة

فلم يكد يمضى عام ١٩٥٠ على عضويتى فى مجلس النواب ، وعملى المتواصل داخله كرئيس للجنة التعليم ، وعضو فى اللجنة المالية ، ومقرر لميزانية وزارة المعارف ، حتى فوجئت بمرض داهم تبينته من الضعف الذى أحسسته فى احدى عينى . وبعد ان عرضت نفسى على أكبر أطباء العيون فى القاهرة ، نصحنى الدكتور عبد الحميد عطية بعمل أشعة على الغدة النخامية بأسفل المخ ، وصورت هذه الغدة فتبين أن بها ورما طارئا أحدث ضغطا على عصب ابصار عينى اليسرى، فأصابه بالضمور، وبعد مشاورات بين الاطباء قرروا سفرى الى لندن لفتح الجمجمة ، وازالة هذا الورم حتى لا أفقد بصرى كله

وفى لندن مكثت فى المستشفى القومى بضعة أيام للتحضير للعملية ، وذات صباح وضع طبيب حقنة فى شريان ذراعى غبت على أثرها عن وعيى ، فلما أفقت سألت الممرضة الرحيمة عن موعد العملية ، فاذا بها

تخبرنى أن العملية قد أجريت بالفعل ، وأنى قد مكثت غائبا عن الوعى أسبوعا كاملا ، التأم خلاله عظم جمجمتى بل وجلد رأسى أيضا ، وتحسست رأسى فلم أجد غير هذه الفجوة الصغيرة التى لا تزال موجودة الى اليوم من أثر نشر الجمجمة

ونقلت بعد اسبوع الى قسم الاشعة بمستشفى الجامعة حيث عولجت بالاشعة العميقة شهرا كاملا

***

حين عدت الى مصر عام ١٩٥١ بعد انتهاء العلاج فى لندن ، وجدت أن الخبر الذى نشرته جريدة « أخبار اليوم » قبل سفرى عن اصابتى بالعمى ، قد أحدث أثره السيىء فى مكتب المحاماة ، فقل اقبال الموكلين ظنا منهم انى أصبت بالعمى فعلا .. فأقبلت على عملى فى مجلس النواب ابذل فيه ما استطعت من جهد سواء فى اللجان أو فى الجلسات والمناقشات السياسية ، حتى استطعنا ان نصدر قرارا بالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من جانب مصر وحدها ، وان نعلن حرب العصابات على الجيش البريطانى المعسكر فى منطقة القناة ، ولكن الانجليز والسراى دبروا بعد ذلك حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ لاسقاط الحكومة وحل البرلمان ، وتحقق لهم ما أرادوا ، وتقلبت على البلاد خلال بضعة اشهر عدة وزارات من صنع السراى ، حتى رحم الله الشعب بقيام ثورة ٢٣ يوليو التى وضعت حدا لسيطرة الانجليز والسراى معا على مصير البلاد

## مدرس بالفطرة

وطوال هذه الفترة ، ومنذ تركت الجامعة فى ابريل سنة ١٩٤٤ ، لم استطع ان أغالب جاذبية الثقافة

والتدريس ، فقد ظللت منتدبا بمعهد الصحافة ثم بقسم الصحافة بجامعة القاهرة منذ انشائهما ، لتدريس مادة التحرير الصحفى والنقد الادبى بفروعه • ورحبت بانتدابى للتدريس بمعهد التمثيل منذ انشائه حتى عينت فى اكتوبر ١٩٥٩ استاذا دائما ورئيسا لقسم الادب الدرامى فيه ، وذلك بعد ان تحول الى معهد نهارى

وفى احدى السنين أخذت كراسة محاضرات من أحد الطلبة ونشرتها فى كتاب هو المعروف الآن باسم « فى الادب والنقد » ••

ولما كان عملى فى معهد التمثيل يهدد بحصر اهتماماتى الادبية فى مجالات النقد والادب الدراميين ، فقد رحبت كذلك بدعوة الاستاذ ساطع الحصرى لالقاء محاضرات فى المعهد العالى للدراسات العربية الذى أنشىء عام ١٩٥٣ تابعا لجامعة الدول العربية • ولما كانت لوائح هذا المعهد تقضى بأن يكتب الأساتذة والمحاضرون محاضراتهم ويقدموها لعميد المعهد لينشرها على نفقة المعهدفى كتب فقد خرجت من تدريسى فى هذا المعهد ، منذ عام ١٩٥٣ حتى الان دون انقطاع بمجموعة كبيرة من الكتب عن ادبنا المعاصر الذى تخصص فيه المعهد ، باعتبار أن مجال عمله هو العالم العربى بنواحيه المختلفة ، التشريعية والاقتصادية والادبية واللغوية • وهذه المجموعة من الكتب هى التى عوضتنى عما كنت أستطيع انتاجه لو بقيت فى الجامعة ••

والواقع أن مستوى التدريس فى هذا المعهد يفوق مستواه فى كليات الجامعة المناظرة ، باعتباره معهدا للدراسات العليا • فطلبته ممن اتموا المرحلة الجامعية ، وهو يمنحهم دبلوما بعد دراسة عامين فى كل قسم ، ثم

درجة ماجستير عن رسالة علمية يكتبها كل طالب فى مجال تخصصه ، وهو بكل هذا يعتبر معهدا جامعيـــا ممتازا ..

أما مجموعة الكتب التى خرجت بها من تدريسى بهذا المعهد فهى :

- ابراهيم عبد القادر المازنى
- خليل مطران
- اسماعيل صبرى
- ولى الدين يكن
- مسرح شوقى
- مسرحيات عزيز أباظة
- المسرح النثرى « يشمل التعريف بمسرحيات كل من : ابراهيم رمزى ، فرح انطون ، محمد تيمور ، أنطون يزبك » ..
- مسرح توفيق الحكيم . ( وهو الجزء الثـــانى من « المسرح النثرى » )
- الشعر المصرى بعد شوقى ( فى ثلاثة أجزاء : الأول عن مدرسة الديوان - والثانى عن جمـــاعة ابوللو - والثالث عن روافد جماعة ابوللو واتجاهات الشـــعر الجديد ) ..
- الادب ومذاهبه : ( منذ الكلاسيكية حتى الوجودية فى حدود الكليات والخطوط العامة الفاصلة )
- الادب وفنونه ( عن فنون الشعر المختلفة ، وفن النقد ، وفن المسرحية ، وقد تناولتها من حيث اسسها الفنية المميزة مع استعراض تاريخى واستاتيكى لنشأة كل فن )

وصدر لى كتابان آخران غير هذه المجمـــوعة وهمـــا « قضايا جديدة فى ادبنا الحديث » ، « النقد والنقـــاد

المعاصرون » ، كما ترجمت عدة كتب من بينها « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير ، وقد صدرت فى مجموعة « مطبوعات كتابى » ، و « نزوات ماريان » و « ليالى موسيه » وقد صدرتا عن الدار القومية ، فضلا عما راجعته من كتب ومسرحيات

وفى عام ١٩٥٤ أغلقت مكتب المحاماة ، وانصرفت الى التدريس والتأليف والكتابة فى الصحافة ·· فكتبت فى جريدة « الجمهورية » منذ انشائها ، وفى جريدة « الشعب » حتى أغلقت فعدت الى « الجمهورية » وفصلت منها عدة مرات ثم أعدت

فهل بقى بعد ذلك كله ما تريد ان تسأل فيه ؟

***

حين وصل الدكتور مندور الى هذا الجزء من حديثه ، كنا قد امضينا ثلاث جلسات ، بل ثلاث سهرات طويلة ، هو يملى وانا اكتب ، لا نكاد نتوقف الا لنشعل سجائرنا أو لنحتسى فنجانا من القهوة أو الشاى ، وقد أسعدنى اقباله على الاملاء بهذه الحماسة والانطلاق ، واحسست انه لا يدلى بحديث صحفى ، وانما يأتمننى على وثيقة تاريخية هامة ، فهو لم يرو قصة حياته وحدها ، وانما أرخ فى الوقت نفسه لفترة هامة من تاريخنا السياسى والثقافى ، وكان ذلك امرا طبيعيا بالنسبة لرجل ارتبطت حياته بحياة بلاده فترة طويلة من الزمن على مثل هذا النحو الرائع الخصب ··

والحقيقة انه أجاب أثناء ذلك على كثير من الاسئلة التى كنت اريد ان اسألها له ، لذلك فقد حرصت على ألا اقاطعه الا فى القليل النادر مستوضحا بعض ما غمض على من جوانب حياته وكفاحه ، ورغم ذلك فقد بقيت فى جعبتى اسئلة كثيرة لم أتردد فى القائها عليه ، ولم يتردد

فى الاجابة عليها ، وهاكم الاسئلة والاجوبة لعلها تسهم فى اكمال اللوحة العريضة التى رسمها الـدكتور مندور لحياته وثقافته وانتاجه وافكاره ..

**● أليست لك محاولات فى الكتابة الفنية بالاضافة الى تراثك المعروف فى النقد والدراسات الأدبية ؟**

– لى محاولات بدائية فى قول الشعر فى اوائل المرحلة الجامعية ، اذكر منها هذين البيتين الغزليين :

« احسان » كم كابدت فيك مصائبا
لم يلقهـــــا فى المغرمين خـــــلافى
كم طفت شـــــبرا علنى بك ألتقى
والبرد قاس والرياح ســـــــواف

وكان غزلا صادقا فى فتاة احببتها بالفعل فى ذلك الحين ، وكانت تلميذة فى مدرسة اجنبية ، وذات يـوم القت الى بورقة رسمت فيها دائرة وكتبت فيها باللغة الانجليزية « حبى لك مثل هذه الدائرة لا ينتهى »

واطلعت ابن عمى على الرسالة وكان مهندسا . فمـا كان منه الا أن قال :

« بس اوعى البنت رخرة تكون دايرة »

فأيقظتنى هذه النكتة الواقعية القاسية من ذلك الحب الافلاطونى العظيم

**● يشجعنى حديثك هذا على أن اسألك عن عـلاقتك العاطفية قبل الزواج ؟**

– فى الكفر كنت استلطف الفتيات الريفيات ، ولكنى لم أكن اجرؤ على التحدث اليهن ابدا ، وبعد ذلك شغلتنى الدراسة الجادة والمذاكرة المستمرة عن انشاء اى علاقة عاطفية ، فكانت حياتى « من الغيط للبيت » كما يقولون

فى بلدنا ..

● **أذكر أنك كتبت قصة لأحد الأفلام السينمائية ؟**

ـ نعم ، كانت فى الاصل قصة قصيرة نشرتها مجلة « الثقافة » بعنوان « الخطيئة » ، وهى قصة تاريخية عن الفترة المسيحية فى روما ، وتدور حول امرأة بـــدأت عاهرة وانتهت قديسة . وحين عاد المخرج السينمائى بهاء الدين شرف من الخارج بعد ان درس فن الاخراج هناك ، قرأ القصة واعجبته ، فاتصل بى ، وطلب منى ان أنميها وأغذيها بالاحداث ، ففعلت ، ثم عملوا لها ســـيناريو و « عكوا » فيها ، وأفقدوها مضمونها الانسانى العميق الذى يدور حول انتقال الانسان من حــــالة الدعارة الى القداسة ، فكأن الدعارة كانت بمثابة نار مطهـــــرة ، وعالجوا هذه الفكرة علاجا مسرحيا سطحيا ، وظهر الفيلم باسم « الهام » فاذا به فيلم عادى لا بأس به ، ولكنه أقل مما كنت أرجو بكثير

● **ولماذا لم تحاول كتابة قصص اخرى غير هذه القصة اليتيمة ؟**

ـ شغلنى النقد ولم اجد لدى الاستعداد للخلق الفنى . والحقيقة ان الفترة الاولى من حياتى كانت فترة قاسية من الناحية المادية .. من اليد الى الفم ، فكنت اضطر الى حصد القمح عشبا لاوفى التزاماتى ، ولعل هذا ماصرفنى عن كتـــابة أعمال فنيـــــة كالقصص والمسرحيات . ثم تخصصت بعد ذلك فى النقد ولم أرد أن أمارس كل المهن ولا أتفوق فى أى منها

## الشعر المهموس

● **ما المراحل المختلفة التى مررت بها كناقد ادبى ؟**

ـ لقد مررت بثلاث مراحل : الاولى تتمثل فى المنهج الجمالى فى النقد ، وكنت أركز فيها على القيم الجماليه فى النص الأدبى ، وفى الشعر بصفه خاصه لانه الفن الادبى الذى يعتبر أكثر جمالية من أى فن أدبى آخر ، حيث يصنب فى هذا الفن او ذاك مضمونا انسانيا معينا قد يرضى عنه الناقد وقد لا يرضى ، اما الشعر فمن الممكن ان يعتبر فنا جماليا خالصا ، والجمال له اكبر قيمة فيه ..

وهذا الاتجاه واضح فى مجموعة مقالاتى الاولى التى نشرتها فى « الثقافة » و « الرساله » ، ثم جمعتها بعد ذلك فى كتابى « فى الميزان الجديد » ، حيث فصلت رأيى فيما اسميته « بالشعر المهموس » ، وفى القيم الجماليةفى الشعر ، وهذه النظرة الجمالية متغلغلة كذلك فى الرسالة التى كتبتها للدكتوراه عن « التيارات النقدية عند العرب فى القرن الرابع الهجرى » ، وهى التى اصبحت الان كتاب « النقد المنهجى عند العرب » وقد رأيت أن أضم اليه فى طبعته الخامسة كتاب « منهج البحث فى اللغة والادب » الذى ترجمته عن اكبر علماء اللغات فى عصرنا الحديث ، وهو العالم الفرنسى « جورج مايبه » ، وعن اكبر أساتذة ونقاد الادب الفرنسى وهو الاستاذ « جوستاف لانسون » ، وذلك لكى أضع بين يدى القارىء والدارس العربى حصيلة منهج التاريخ للادب ونقده عند العرب والغربيين جنبا الى جنب ، وكذلك الامر بالنسبة للدراسات اللغوية ومنهجها لكى يستطيع القارىء أن يوازن ويقارن ويستكمل دراسته مستفيدا من تجارب الغربيين الى جوار تجارب اسلافنا العرب

والمرحلة الثانية التى مررت بها كناقد هى منهج النقد الوصفى التحليلى ، وهو المنهج الذى صدرت عنه فى

الثلاثة عشر كتابا التى ألفتها لمعهد الدراسات العربية العليا ، فقد التزمت فيها اسلوبا علميا محايدا يهدف الى الوصف والتحليل والتعريف والتثقيف أكثر مما يهدف الى التوجيه ..

## النقد الأيديولوجى

وتأتى بعد ذلك المرحلة الثالثة ، وهى مرحلة النقد الايديولوجى ، وهو يقوم على منهج يحدد وظيفة اجتماعية محددة للادب والفن ، ويصدر الناقد فى نقده عن عقيدة ، أو على الاصح عن هذا المنهج الفكرى والفنى الذى يعتنقه

وقد دفعت الى اعتناق هذا المنهج نتيجة لاهتمامى بالقضايا العامة وبالنواحى السياسية والاجتماعية فى حياتنا ، ثم لايمانى بالفلسفة الاشتراكية . وازدياد ايمانى بها كلما ازددت معرفة بواقع مجتمعنا أثناء عملى فى الصحافة والمحاماة والبرلمان ، وبحكم نشأتى الريفية واستمرار صلتى الوثيقة بالريف وأهله ، وطبقات شعبنا الكادحة المظلومة

● **وما القيم التى حافظت عليها خلال هذه المراحل الثلاث ؟**

ـ حافظت على القيم الانسانية العامة والقيم الجمالية، ولكن المسألة اصبحت مسألة موازنة بين مختلف القيم . فاغفال القيم الجمالية يخرج الادب عن طبيعته كأدب ، ولكننى اهتممت بالمضمون الى جوار القيم الجمالية ، وأحيانا اعطى للمضمون اولوية فى التقييم ، وقد ظهرهذا الاتجاه فى كثير من مقالاتى ، وان كنت لسوء الحظ لم اجمع من كل هذه المقالات المتناثرة التى تعد بالمئات الا

ذلك العدد الذى نشرته فى كتاب « قضايا جـــديدة فى أدبنا المعاصر » ، وأرجو أن أتمكن من نشر ولو مختارات من المقالات التى تمثل هذه المرحلة الهامة من حيـــــاتى كناقد ..

**● كيف ترى الصلة بين الادب والسياسة ، وهل ترى أن للادب وظيفة سياسية ؟**

ـ للادب وظيفة سياسية ، ولكنه لا يؤديها بأسـلوب مباشر والا انقلب الى مجرد دعاية سياسية . فوظيفـــة الادب فى التطوير السياسى أن يستخلص القيم المحركة التى تكمن خلف مظاهر التطور المادى والاجتماعى للحياة ، وهو بكشفه عن هذه القيم الكامنة يحيلها الى قوة ايجابية فعالة تدفع نحو مزيد من التطور فى نفس الاتجاه

ومعنى هذا أن الادب انعكاس لواقع الحياة وتطورها ، ولكنه ليس انعكاسا سلبيا ، بل انعكاسا ايجابيا ، فهو يرتد ثانية الى تلك الحياة ليحث خطاها ، ويدفعها نحـو مزيد من التطور والتقدم ، وبذلك يأخذ من الحياة ، ثم يعطيها اكثر مما أخذ ، وهذا هو المفهوم الـــديالكتيكى للفلسفة الاشتراكية بالنسبة للادب ، وهو يختلف عن المفهوم الميكانيكى للاشتراكية ، الذى يعتقد أن التطـــور المادى للحياة هو الذى يطور الفكر فى حين أن الفكر لا يمهد لهذا التطور ولا يسبقه ، فهو يضع الفـــــكر فى موضع الذنب لا الرأس ، بينما المفهوم الديالكتيكى يجعل الفكر قوة فعالة نحو التطور والتقـــدم لا مجرد انعكاس آلى لذلك التطور

**● الى أى حد وفق أدبنا المعاصر فى تحقيق هذا الدور السياسى فى حياتنا ؟**

ـ لا شك أن الاتجاه النقدى فى الادب بفنونه المختلفة

كان له أثر كبير فى نشر الوعى بضرورة التغيير وارادة التغيير فى مجتمعنا ، ولكن الادب لم يقم بدوره بعد فى مرحله البناء التى بدأناها كما قام بدوره فى مرحله التمهيد للهدم الذى تم فى أعمدة المجتمع القديم الفاسدة

وأنا ألتمس العذر للادب فى ذلك ، لان مرحلة البناء بعد الهدم لم تتبلور بعد فى قيم أخلاقية واجتماعية جديدة تدعو الى الثقة والاطمئنان بالدرجة الكافية ، بحيث يمكن أن يتحول الادب تلقائيا من الواقعيةالنقدية الى الواقعية البناءة ، أى الواقعية التى لا تبحث فقط عن مواطن الضعف والفساد ، بل تبحث أيضا عن مواضع الثقة والتفاؤل ، وتبعث الاطمئنان فى قدرتنا على النهوض بعبء البناء بأسلم أسلوب وأسرع وقتوأضمن نجاح • والبناء كما هو معلوم أشق وأطول مدى من الهدم والتقويض

## أفلاطون الشاعر

● **من النقاد الذين تتلمذت عليهم أو تأثرت بهم سواء من العرب أم الاجانب ، وما أهم ما أفدته من كل منهم ؟**

ــ من العرب القدماء أعجبت وتأثرت بابن سلام الجمحى ، والآمدى صاحب « الموازنة بين الطائيين » ، وعبد العزيز الجرجانى فى « الوساطة بين المتنبى وخصومه » • وهؤلاء النقاد الثلاثة أعتبرهم أعمدة النقد الجمالى السليم فى تراثنا النقدى كله • كما تأثرت بعبد القاهر الجرجانى فى اهتمامه البالغ بنقد أساليب التعبير اللغوى وتراكيبه ، وفى رأيى أنه اهتدى الى علمى التراكيب والاساليب بمفهومهما الاوربى الحديث

ومن المحدثين أخذت عن طه حسين تذوق النصوص الشعرية بعد اجادة فهمها باعتبار أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره • وتأثرت بالعقاد فى اهتمامه بالنواحى الفكرية أى المضمون الانسانى للعمل الادبى الفنى ، وتأثرت بميخائيل نعيمه فى كتابه « الغربال » من حيث الفطنة الى الحاجات النفسية التى يشبعها الادب ، كحاجتنا الى الموسيقى والى التعبير عن الذات والى القيم الجمالية النابعة من اللغة

وان كان تأثرى الاكبر فى الحقيقة هو بأساتذة السوربون ، وبالنقاد الغربيين ، وبخاصة الفرنسيون منهم ، وكذلك بعلماء الجمال والنفس الفرنسيين من أمثال البير بابيه ، وبلوك ، وشارل لالو ، ثم كبير أساتذة الادب فى فرنسا جوستاف لانسون ، الذى وان لم أتتلمذ عليه وهو حى ، الا أنى تتلمذت وتأثرت بمؤلفاته ، وبخاصة كتابه الدسم العميق عن تاريخ الآداب الفرنسية ، ومقاله عن منهج البحث فى الادب



ومن الصعب أن يحصى الانسان مصادر تأثره فى الثقافة والآداب الاوربية ، فأنا قد تأثرت تأثرا انسانيا عميقا بالاغريق القدماء وتقديسهم للجمال ، حتى رحت وأنا شاب أتساءل عما اذا كان الاثينيون قد قاتلوا أهل طروادة عشر سنوات كاملة ، ذلك القتال المرير الذى تمخض عن ملحمتى « هوميروس » بسبب اختطاف « باريس » أمير طروادة للحسناء « هيلانة » باعتبارها امرأة ، أم أن هيلانة كانت مجرد رمز للجمال ، وأن القتال قد دار للاستحواذ على هذا الجمال أو فقده

وكان لأفلاطون وقع السحر الشعرى فى نفسى ،

وما زلت أنظر لأفلاطون كشاعر أكثر منه فيلسوفا ، وكنت فى شبابى أنفر من أرسطو وتفكيره العقلى الجاف ، وأعتبر سيطرته على عقول البشر قرونا طويلة ، وبخاصة خلال القرون الوسطى ، نكبة تاريخية كبرى جمدت الفكر الانسانى ، وحولته الى جدل وسفسطة واستغراق فى تفتيت الكليات و « التفعيص » فى جزئياتها . وقد عبرت عن هذا الرأى فى كتاب « النقد المنهجى » ، وانتهيت الى أن منطق أرسطو لا يساعد على كشف حقائق جديدة ، بل يكتفى بتعليم وسائل التعامل فى الحقائق المعروفة عن طريق الاقيسة والمقولات وما اليها ، واستنتاج أحكام جزئية عن طريق القياس ، أو على الاصح يساعده على الوصول الى أحكام تطبيقية تفريعية على الحقائق المعروفة ، ولا يساعد على كشف حقائق جديدة ..

وانما أخذ الفكر الانسانى يسترد قدرته على كشف حقائق جديدة بعد أن تحول ، عن طريق بيكون الانجليزى وديكارت الفرنسى ، من المنطق الشكلى لأرسطو الى المنطق الاستقرائى الذى يعين على الكشف عن حقائق جديدة فى فهم الحياة والطبيعة ، واستكناه قوانينهما والقوى الدافعة فيهما ، وطربت كذلك بعودة البشر الى استلهام القلب والخيال لحقائق الحياة والطبيعة بعودة الرومانسيين الى أفلاطون وتخليهم عن أرسطو والكلاسيكية التى تتلمذت عليه

وكذلك اعتبرت « برجسون » استمرارا لمنهج الاستكناه الداخلى الذى أحس أننى كنت أصدر عنه فى المنهج الجمالى للنقد الذى آمنت به وطبقته فى مطلع حياتى ..

**● ما أهم المعارك الادبية التى خضتها ؟**

ـ فى عام ١٩٤٢ وما تلاه خضت ثلاث معارك هامة ٠٠ الاولى معركه لغوية مع الاب انستاس الكرملى حول « عثير » وعثر على ، وهى معركة كبيرة رغم انطلاقها من نقطه صغيرة ، فقد تطورت الى أبحاث طويله فى فقه اللغات المقارن ، وكان الاب الكرملى على شىء من الدراية باللغة اليونانية القديمة ومنهج فقه اللغات الكلاسيكيه ، وكنت أنا عائدا حديثا من أوربا والحقيبة مليئة بالدراسات اللغوية نتيجة لاهتمامى بها طوال السنوات التى قضيتها فى السربون فى دراسة فقه اللغات القديمة واللغة الفرنسية ، وكنت قد عدت من فرنسا بمكتبة كبيرة فى علم اللغات وعلم اللسان ، وهى المكتبة التى أهديتها أخيرا لمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، وكانت معلوماتى متطورة متمشية مع أحدث مكتشفات علم اللغة وفقهها ، فكانت كفتى واضحة الرجحان مع هذا العالم الفاضل ، وظلت هذه المعركة فى حدود الموضوعية الخالصة ٠٠

## معركة عنيفة مع العقاد

ولم أكد أفرغ من هذه المعركة اللغوية حتى ابتدأت المعركة الكبرى العنيفة مع الاستاذ عباس محمود العقاد٠ ابتدأت المعركة حول جزئيات مثل ما أكده الاستاذ العقاد فى كتابه « مطالعات فى الكتب والحياة » عند حديثه عن « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى ، من أنه لم يسبقه فى الرحلة الى العالم الآخر غير « لوسيان » الشاعر الرومانى ، فاندهشت لهذا التأكيد لأنى كنت أعلم علم اليقين أن تخيل الرحلة الى العالم الاخر أقدم

من لوسيان وكل شعراء روما ، لأن الاساطير الاغريقية سبقت الى وصف رحلة « أورفيوس » الى العالم الاخـــر بحثا عن زوجته الفقيدة ، ثم وصف هوميروس لرحـــلة « أوليس » بطل ملحمة « الاوديسة » الى العالم الاخـــر أيضا ، بل وعند الرومان أنفسهم سبق « فيرجيليوس » « لوسيان » فى وصف رحلة الى العالم الآخر فى ملحمته الشهيرة « الالياذة »

وكنت فى تلك الايام أقوم ببحث عن أبى العـــــلاء المعرى وفلسفته وشعره وتشاؤمه و « رسالة الغفران » بحكم عملى بالتدريس فى الجامعـــــة ، فعلقت على زعم الاستاذ العقاد ، وقلت ان فيه قصورا لا يبيح لكاتبـــه تعميقا وتأكيدا كالذى زعمه ، فهاج العقاد هياجا شديدا، ورد فى « الرسالة » على مقالى مبديا دهشته من ظهـــور غلام يدعى « مندور » « غندور » يدعى العلم ويجرؤ على مناقضته ..



واستمر السجال بيننا فترة من الوقت حتى تطور الى مناقشتى لمنهج الاستاذ العقاد العام فى التفكير والكتابة ؛ حيث أخذت عليه التأكيدات الجازمة المسرفة التى تحتاج الى استقراء كامل قبل الجزم بها وأنا أعلم أن التفــكير العلمى السليم يأبى التعميمات التى لابد أن يتسرب اليها الخطأ ، لان أحدا لا يستطيع أن يزعم الاحاطة بكل شىء كما أوضحت أن منهج العقاد الفكرى منهج جدلى كثـــيرا ما ينهض على أقيسة فاسدة لمجرد اللجاجة فى الجـــدل ومحاولة الافحام لا الاقناع

ولضراوة ردود العقاد على ، واستهانته بأمرى كناشىء لم يألف اسمه بعد ، انســـقت أنا الآخـــر الى شىء من

الوحشية فى النقاش ، حتى كتبت ردا عنيفا على الاستاذ العقاد بعنوان « جورجياس المصرى »

## المنهج النفسى

وتطرقت الخصومة مع الاستاذ العقاد الى جدل ومناقشات حول المنهج النقدى ، حيث أخذت على العقاد ومدرسته أنهم يريدون أن ينزلوا بالأدب الى مستوى الوثائق النفسية ، فيصبح همهم كنقاد استخلاص العقد النفسية للشاعر او الاديب من انتاجه الادبى ، وبذلك يتحول الناقد منهم الى باحث نفسانى لا ناقد أدبى له منهجه الخاص بعمله باعتبار أن الادب شيء قائم بذاته له منهجه الخاص ، وفن جميل ، ووعاء لقيم انسانية وأخلاقية واجتماعية تكتسب وجودها المستقل عن صاحبها ..

***

وعندئذ دخل هذه الخصومة الاستاذ محمد خلف الله أحمد ، وكيل جامعة عين شمس الآن ، وكان وقتها مدرسا معي بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . واستمرت المناقشات بينى وبينه حول المنهج النفسى والمنهج الجمالى عدة أشهر

وأخذت هذه المناقشات تثور من وقت لآخر بينى وبين العقاد ومن ينهجون نهجه كالاستاذين سيد قطب وطاهر الجبلاوى وغيرهما ممن اعترضوا على اهتمامى بالشعر المهموس وتفضيلى لشعراء المهجر ولفت النظر اليهم على نحو مدو لأول مرة فيما أحسب فى تاريخنا الأدبى الحديث ، وراح المعجبون بالاستاذ العقاد ينكرون على تفضيلى للمهجريين على شعرائنا العرب فى المشرق رغم

وجود أمثال الاستاذ العقاد بينهم وقد جمعت معظم هذه المقالات فى كتابى « فى الميزان الجديد »

## معركة الشعر الجديد

وشغلتنى المعارك السياسية الوطنية زمانا طويلا على نحو ما قصصت عليك ، فلم أخض معركة أدبية كبيرة أخرى الا عام ١٩٥٦ ، وكانت حول الشعر الجديد وهل هو شعر خال من الموسيقى ، أم له موسيقاه الخاصةوهى من نوع جديد لا تقوم على ايقاع الطبول مثل موسيقى الشعر العمودى .. وقد تدخل الاستاذ العقاد فى هذه المعركة أيضا وأنكر وجود أى موسيقى فى الشعر الجديد ورفض اعتباره شعرا ، وكان - رحمه الله - يحول القصائد التى ترسل اليه فى لجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ، الى « لجنة النثر للاختصاص »

واتسعت هذه المعركة اتساعا كبيرا ، ودخل فيها بعض الرقعاء الذين حاولوا محاربة هذا التجديدالشعرى بأسلحة خسيسة مثل سلاح الاتهام بالشيوعية ، بل وبالصهيونية أيضا

وأهم ما أوضحته فى هذه المعركة أن للشعر الجديد موسيقاه القائمة على التفعيلة ، وله أسلوبه فى التعبير الشعرى الجديد الذى يجمع بين الواقعية والرمزية دون أن تسلباه طابعه الغنائى . وهو بذلك تركيبة شعرية دقيقة معقدة تجمع بين الرمزية والواقعية والغنائية وضرب جديد من الموسيقى ، توقعت أن تألفه آذاننا على نحو ما ألفت الموسيقى الغربية المتعددة الانغام والالحان التى لا يحتل فيها الايقاع مكان الصدارة ، بالرغم مما لقيته

هذه الموسيقى فى بادىء الامر من مقاومة ، ثم لم تلبث الآذان أن ألفتها وأحبتها ، بل وفضلتها أحيانا كثيرة على الايقاع الجسدى الذى يغلب على موسيقانا الشرقية ..

## مجلد للنقد

وبعد أن أخــذ يظهر ، بل ويســيطر ، منهجى الايديولوجى الجديد فى النقد ، وهو المنهج الذى يولى مضمون العمل الادبى والفنى اهتماما لا يقل عن الاهتمام الواجب بالقيم الجمالية فى الادب ، أزعج هــذا المنهج بعض الذين رأوا فيه اتجاها سياسيا واجتماعيا أقلقهم وقض مضــاجعهم ، فانبرى نفر لمحاربتــه باسم الفن وحريته وقيمه الجمالية ، وألف الدكتور رشاد رشــدى جماعة من تلاميذه ومساعديه فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب لمحاربة اتجاهى هذا . واذا بعدد كبير من زملائى وأصدقائى النقاد وأساتذة الادب فى الجامعــات يعقدون ندوة فى بيتى ، رددنا فيها الاتجــاه التخريبى لرشاد رشدى وتلاميذه ، وسجلنا ما دار فى هذه الندوة من مناقشات ونشرناها فى جريدة « الجمهورية »فكانت كالصاعقة التى أهلكت خصومنا

وبالرغم من الدس السياسى الذى استخدم فى هــذه المعركة فقد انتصرنا فى النهاية ، بانتصار الفلســفة الاشتراكية الشعبية النابعة من الثــورة والمؤيدة لها ، وأصبح رشاد رشدى نفسه ، فضلا عن آذنابه ، يعترف اليوم ، بل ينادى ، بالوظيفة الاجتماعية والاخلاقيــة والانسانية للأدب والفن

**● لك مدة طويلة لم تخض مثل هذه المعارك الادبيــة المثمرة ؟**

ـ نعم ، ولكن ليس هذا لضعف فى الحيوية أوتهافت فى الحافز .. ولكن لتضييق مجال النشر وخاصة فى الصحف اليومية أمامى . وقد تحملت الكثير من الاهانات الماسة بكرامتى لكى لا آتخلى عن المنبر الصحفى اليومى وأظل أؤدى واجبى فى الميدان الذى كرست له حياتى

وقدمت اقتراحا للمجلس الاعلى للفنون والآداب بانشاء مجلة للنقد ، أناقش فيها القضايا الكبرى للأدب والفن التى لم تتبلور بعد فى حياتنا الادبية ، وكتبت مذكرة طويلة بهذا الاقتراح ، ولكن أحدا لم يستجب رغم مرور الشهور ، ورغم النشاط الكبير فى مجالات النشر المختلفة ..

## تصفية الحساب

**● يرى البعض ـ وأنا منهم ـ انك خلال السنوات الاخيرة لم تعد تضيف اضافات ذات قيمة كبيرة الى حركتنا النقدية على نحو ما فعلت فى مطلع حياتك الأدبية ، ما ردك على هذا الاتهام ؟**

ـ فى السنوات الاخيرة ركزت اهتمامى على الادب الدرامى ، وأظن أننى أسهمت فى تصحيح المفاهيم الدرامية ، وربطت الاصول الدرامية بأهداف الأدب ووظائفه ، ووضحت أنها ليست قيما لذاتها ، وانما هى مجرد وسائل . وحللت مشكلة الجدل حول الشكل والمضمون بأن الشكل فى خدمة المضمون ، وهذا مفهوم جديد فى النقد الادبى ، وقلت انه ليس هناك ما يمنع من أن تتغير المبادىء والاشكال الفنية لخدمة الاهداف الجديدة والنجاح فى توصيلها الى النفوس والنفاذ بها الى قلوب الناس وعقولهم

وقد أيدت هذا الرأى بثلاثة مقالات طويلة تعتبر أبحاثا عن تطور الفن الدرامى فى العصر الحاضر فى العالم على أساس من تطور مفهوم وظائف الأدب وأهدافه منذ ظهور ما يسمى بالاوتشرك ، أى الاستطلاع الدرامى ، حتى المسرح الملحمى ، والمسرح الوجودى ، وأخيرا مسرح اللامعقول ، وقومت كلا من هذه المذاهب فى ضوء ما تحققه للانسانية من مكاسب أو ما تلحقه بها من أذى

ونشرت هذه المقالات فى أعداد يوليو وأغسطس وسبتمبر من مجلة « المسرح » بعنوان «تصفية الحساب»، أى حساب الاصول الدرامية وتطورها بتطور الوظائف والاهداف • وبالرغم من أننى لم أفصح عن هدفى من تقديم هذه الدراسة التى نشرها رشاد رشدى نفسه فى مجلته ، فان الهدف من السهل الاحساس به ، وهو تبرير وتعزيز اتجاهى نحو تركيز الاهتمام الاكبر على مضمون الادب والفن ، وهو بالطبع المضمون الذى يخدم الحياة والانسان ويتمشى مع الفلسفة السياسية والاجتماعية التى ارتضاها شعبنا ، بدليل أن تطور المضامين والاهداف أدى الى تطور الشكل الفنى والاصول الدرامية الخالصة ، فالشكل تابع لا متبوع ويكفى أن يسهم فى ابراز المضمون وايصاله الى الناس

***

هذه هى الخلاصة التى يسهل الخروج بها من تصفيتى لحساب الأصول الدرامية ، أى الشكل الفنى للدراما ، وهى أكبر رد غير مباشر على من يعارضون اتجاهى الايديولوجى الجديد ، وان لم يتخذ هذا الرد صورة المعركة او الحرب الدونكيشوتية المقعقعة بالسلاح

وفضلا عن ذلك فقد احتفظت بمنهجى الوصفى التحليلى العلمى الخالص حتى اليوم ، مقيما فاصلا بينه

وبين منهجى الايديولوجى الذى استخدمته فى مجـــال جماهيرى خطير كمجال الادب المسرحى والفن التمثيلى ، ولا أدل على ذلك من أننى استخدمت هذا المنهج الوصفى فى دراستى للنقاد المعاصرين أنفسهم سواء أكانوا ممـن اشتبكت معهم فى معارك أم لم أشتبك ، اذ جعلت هدفى من هذه الدراسة التعريف العلمى المحايد باتجـــاهات وجهود هؤلاء النقاد منذ حسين المرصفي حتى العقـــاد ، والمازنى ، وشكرى ، وميخائيل نعيمـــة ، ويحيى حقى ، ولويس عوض • وذلك فى كتابى الاخير « النقد والنقاد المعاصرون » ••

وأنا أعلم أن هـــــــذا المنهج العلمى الهادىء لا يلفت الانظار مثل المنهجين الآخرين اللذين استتبعا معـــارك ونزالا استلفتا الانظار ، وأولهما بعض الناس أننى كنت أكثر حيوية واضافة للحـــــركة النقدية منى فى فترات أخرى اشـــتغلت فيها بالنقــــد العلمى الهـــــادىء ، أى الوصــــفى التحليلى الاكاديمى مثلمــــــا فعلت فى الثلاثة عشر كتابا التى نشرها لى المعهد العالى للدراسات العربية ••

## الأدب وفنونه

**● بالمناسبة ، ما الكتاب الذى تعمل فيه حاليا ؟**

ـــ فى الحقيقة أنا مرهق بلجان القراءة الفنية للفـــرق التمثيلية المختلفة ، مثل فرقة المسرح العمـــالى والمسرح القومى ، والمسرح الكوميدى ، حيث اقرأ لهذه الفـــرق الثلاث عشرات المسرحيات الجديدة كل شهر وأكتب عنها تقارير وافية ، مما يستنفد الكثير من وقتى وجهدى

ومع ذلك فلا استطيع اهمال قراءاتى الخاصة ، أى الكتب التى اقرؤها لاستكمال ثقافتى الخاصة وتنميتها بصفة مستمرة ، واعداد محاضراتى فى المعاهد والكليات المختلفة ..

ومن سوء الحظ أن التقارير التى اكتبها عما اقرؤه من مسرحيات ، لا تنشر مع أن بعضها ، أو معظمها ، يتضمن نقدا تطبيقيا لشبابنا ولتوجيه الحركة الادبية بعامة فى بلادنا ، وبصفة خاصة بالنسبة لجهاز جماهيرى جبـــار كالمسرح ..

وفضلا عن ذلك اعمل عملا شاقا متواصلا فى لجنـــة الترجمة بالمجلس الاعلى لرعاية الفنـــون والاداب ، وهى اللجنة التى تختار الكتب الواجب ترجمتها الى العربية ، وتفحصها هى والكتب الاخرى التى يقترحها رجال الادب واساتذة الجامعات ، وأشترك فى ترجمة بعض هـــذه الكتب ، وأراجع ترجمة بعضها الاخر ، ثم فى فحص جميع هذه الكتب قبل تقديمها للطبع

وأقوم بمثل هذه المساهمة بالنسبة لمؤسسات النشر المختلفة ، وبخاصة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، التى تحيل على كثيرا من الكتب والمؤلفات لفحصها وكتابة تقارير عنها قبل نشرها ، وأراجع العديد من المسرحيات لسلسلة روائع المسرح العالمى وأكتب مقدمات لبعضهـــا تعتبر دراسات كاملة للمسرحية ومؤلفها وانتاجه الادبى بشكل عام ..

كل هذه الاعمال التفصيلية تكون فى مجموعها عمـــلا ضخما مجهدا ، وان يكن مبعثرا غير مجسد أمام الانظار . ومع كل هذا فأنا لا أنسى نفسى ولا واجبى فى مواصلة التأليف لحسابى الخاص .. كنت قد ابتدأت فى المعهد العالى للدراسات العربية بحثا طويلا عن الادب وفنونه

قسمته على سنوات ، درست في السنة الاولى نظرية الأدب وأقسامه الكبرى الى فنون شعبية وفنون نثرية ، وفصلت القول فى فنون الشعر وخصائص ومقاييس كل فن ، وهى الفن الملحمى ، والفن الدرامى ، والفن الغنـــائى ، والفن التعليمى ..

وفى العام الثانى درست فنين كبيرين من فنون النثر ، وهما فن المسرحية بمقوماته وأصوله الفنية وأهدافه وتطور ذلك كله عبر العصور ، وفن النقـــد من حيث مناهجه المختلفة ووظائفه

وفى العام الثالث ، وهو العام الماضى ، درست الفنون القصصية الثلاثة المختلفة ، وهى الرواية ، والقصـــــة القصيرة ، وما يسميه الفرنسيون بالقصة الاخبـــارية ، ورائد هذا الفن الاخير فى القرن التـــــاسع عشر هو « بروســـبير ميريميه » مؤلف « كارمن » و « كولمبا » ، وناقشت الرأيين المتصارعين الان فى بلادنا حول نشـأة الفن القصصى فى أدبنا المعاصر ، وهل كانت هذه النشأة نتيجة لتطور بعض الكتابات العربية القديمة ذات الطابع القصصى مثل الملاحم الشعبية والمقامات وغيرها ، أم أننا أخذنا هذا الفن بمفهومه التكنيكى الدقيق عن الغربيين على نحو ما أخذنا فن المسرحية دون أن نزعم أنه نشأ فى العربية تطويرا عن بعض الفنون الشعبية التى تشبه فن التمثيل من قريب أو بعيد مثل خيال الظل والاراجوز

وفى عزمى أن أنشر هذه الدراسة اما فى الطبعة الثانية لكتابى الذى نشرته متضمنا الحلقتين الاولى والثانية من هذه الدراسة بعنوان « الادب وفنونه » ، أو أنشرها فى كتاب جديد يعتبر جزءا ثانيا للكتاب الاول ، بعـــد أن أضيف اليه ما أقوم به الان من دراسات حول بعض الفنون الادبية الاخرى مثل فن المقالة ، وفن الخطابة ، ومقومات

كل منهما من الناحيتين الفنية واللغوية

وأترجم الآن كذلك مجموعة من الشعر الروماني ، وقد سبق أن ترجمت مجموعة من القصص الروماني أيضـــا ونشرتها بالفعل ..

## زغزغة الأرواح

**ما رأيك بشكل عام فى حركتنا النقدية المعاصرة ؟**

ـ عيب النقد الحالى كله أنه لا يقوم على فلسفة أو حتى فلسفات متصارعة ، وحتى الان ليست لدينا مجلة واحدة تعنى بالقضايا العامة الكبيرة المتعلقة بفلسفة الادب والفن ووظائفهما ، وبدون وجود تلك الفلسفة كأساس و «فرشة» خلفية لن يستقيم النقد التطبيقى ، ولن نستطيع ارساءه على أساس قيم ومفاهيم كبيرة • ورغم بذرى بعض البذور التى تصلح أساسا لمناهج عامة فى النقد ، كبذور المنهج الجمالى والمنهج الوصفى والمنهج الايديولوجى ، فانه لم تتبلور حتى الان مدارس كبيرة حول أى من هـــــذه المناهج ..

وفى اعتقادى انه لو اتيح لى منبر أستطيع من خلاله أن أكافح فى سبيل دعم الخط المنهجى فى النقـــد ، فلربما استطعت أن أجمع حول هذه الفكرة مدرسة تستطيع أن تنهض معى وبعدى بعبئها الخطير

**● ما أهم المشكلات التى تواجه مسرحنا ؟**

ـ من حيث الاتساع هناك نهضة أفقية فى حـــركتنا المسرحية ، نرجو أن نوفق الى تحويلها الى نهضة رأسية أو كيفية لا كمية فحسب • وفى رأيى أن تنظيم الحركة المسرحية كله فى حاجة الى اعادة النظر ، والاهتمام باختيار

النصـــــوص الاصلح بواسطة أناس على دراية ونزاهة وليست لهم مصالح شخصية

ومن ناحية التأليف ، التوجيه غير سليم ، والرؤية الفنية والجمالية والوعى بأهداف المسرح ووظائفه ما زالت غير كافية ورازحة تحت رواسب الماضى حين كان فن التمثيل مجرد تجارة رابحة ، وكان الاهتمام بالجمهور أكثر من الاهتمام بالفن ذاتـــه ووظيفته الاجتمـــاعية والذوقية والتهذيبية ..

فالمسرح الكوميدى مثلا لا تزال الفكرة المسيطرة عليه هى اثارة الضحك بأية وسيلة غالية كانت أم رخيصة ، والظن بأن هذا الضحك يروح عن الجمهور فى حين أن مثل هذا الترويح لا يحدث حقيقة الا عن طريق الرضـــا الداخلى والاطمئنان الى هزيمة الشر والفساد والسخرية منهما .. وهذا المفهوم الخاطىء ورثناه عن المسرح الكوميدى الغابر الذى كان يشبه الزغزغة لاجســـاد النـــاس لا أرواحهم ..

## الاحترام لا الحب

**● هل تستطيع أن تعرف النقد الادبى فى كلمات قليلة ؟**

ـ النقد الادبى هو فن تمييز الاساليب ، على أن نأخذ لفظ الاسلوب بمفهومه الاوربى الواسع عندما نقـول ان الاسلوب هو الرجل نفسه ، ووظائف النقد هى التفسير والتقييم والتوجيه • ومن الممكن أن يصبح النقد مشاركة فى خلق العمل الادبى نفسه باضفاء مفـــاهيم ، وابراز اهداف ، وتحديد قيم قد تكون كامنة فى العمل الادبى أو مستكنة فى باطنه

**● أخيرا .. ما النصائح التى توجهها للناقد الناشىء ؟**

ـ قراءة الكثير من النصوص ، واستخدام المنهج المقارن فى فهم الادب والفن وتقييمهما ، والبدء بقراءة النصوص قبل كتب النقد والدراسات ليستطيع بعد ذلك أن يقيم من نفسه ناقدا على النقاد أنفسهم قبل أن يتـــأثر بهم ويفنى فيهم ، ولكى يحتفظ باصالته الخاصة

وأنصحه بالنزاهة والشجاعة وتفضيل الحـــق على أى اعتبار آخر ، فالصديق الذى يفقده الانسان لانه تمسك بالحق صديق مفقود على كل الاحوال ان قريبا أو بعيدا ، وأما الصديق الصلب فهو الذى لا يغضبه الحـــــق بل يرضيه ..

وفى اعتقادى دائما أن الناقد الناجح هو الذى يحظى باحترام الادباء والقراء أكثر مما يحظى بحبهم ومودتهم ، وأنا أفضل دائما الاحترام الباقى على الحب المهدد دائمـا بالزوال ، والاحترام شـــــعور أقوى وأصلب وأبقى من الحب ، كما أنك تســـتطيع أن تحظى بالاحترام لا من أصدقائك وحدهم ، بل ومن خصومك أيضا . وخــــير للانسان أن يكون محترما من أن يكون محبوبا لدعارته الفكرية والخلقية

( ديسمبر ١٩٦٤ )

– ٩ –

# فتحى رضوان

* السياسة والأدب شيء واحد ..
* مصر وطن ورسالة ..
* أنا مدين بتكوينى الفكرى لتولستوى ..

اذا كنت أحرص فى هذه الاحاديث الادبية على أن أبرز الجوانب الفنية فى حياة من القاهم وانتاجهم ، فقد بدأ هذا الحرص معه مجافيا للامانة ، بعيدا عن أن ينقل صورته الصادقة .. فما أكثر ما شغلته السياسة عن الفن ، وما أكثر ما أعرض عن الفن بسبب السياسة والكفاح الوطنى .. ومهما قلنا فى انتاجه الادبى ، فلاشك أن أثره السياسى فى حياتنا ، أقوى وأعمق بكثير من أثره الادبى .. ولقد تفرغ لفنه فى السنوات الاخيرة أو كاد ، فأضاف الى مكتبتنا العديد من الكتب والمسرحيات ، ولكن الدراسة الواعية لكل هذه الاعمال لابد أن تنتهى الى أن الخط السياسى فيها أوضح وأقوى من بقية الخطوط .. لذلك فقد سألته عن رايه فى العلاقة بين الادب والسياسة ، وجاءت اجابته مؤكدة لكل ما ذهبت اليه ، بل أكثر حسما ووضوحا من كل ما تصورت ..

— ليس من الجائز فى رأيى تصور كيانين منفصلين ، أحدهما يسمى أدبا والاخر سياسة ، فالادب والسياسة فى نظرى شىء واحد ، لان موضوعهما واحد ، وهو الناس فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، وفى محاولاتهم أن يحققوا

لأنفسهم قدرا أكبر من السعادة عن طريق تحقيق قدر أكبر من الحرية .. فمجال النشاط السياسى والعمل الادبى ، بعد تجريد كل منهما من الظروف الخاصة به ، هو فى حقيقة الامر مجال واحد ، وهو حرية الانسان ..

ولذلك لم يعل قدر أديب ، الا وكان له موقف من الدولة التى يعيش فيها .. وكان لهذه الدولة موقف منه مهما حاول أن ينأى بنفسه عن عالم السياسة والحكم والحكام .. فقد يؤرق الحكومة ، فتتقى شره وتخطب وده ، وقد تضطهده وتصادر أفكاره .. الى غير ذلك من المواقف ..

تولستوى كان معاديا لحكومة بلاده ، ودستويفسكى اتهم فى مستهل حياته الادبية بالتآمر على نظام الحكم وعندنا شوقى نفى .. والامثلة كثيرة لا تنتهى ..

**● هذا الاعلاء من شأن الادب من جانب رجل قضى معظم حياته فى العمل السياسى الايجابى ، دفعنى الى أن أسأله عن مدى ايمانه بالكلمة ، وقدرتها على المشاركة فى تغيير مصائر الشعوب ..**

ــ لست متعصبا للكلمة ، أو للفكر على حساب العمل، ولكنى مؤمن مع ذلك أن كل شىء يزول ما عدا الكلمة ، وما عدا الرأى .. ومن العجيب أن الاديان الثلاثة الكبرى فى تاريخ الانسانية وهى اليهودية والمسيحية والاسلام اعتمد كل منها على كتاب .. وبالتأمل نجد أن القصة تقوم بدور أساسى فى هذه الكتب المقدسة الثلاثة فالتوارة هى تاريخ حياة قبائل بنى اسرائيل وأنبيائهم وحروبهم ، والمزامير ليست أكثر من مجموعة من القصائد الغنائية .. والانجيل ليس أكثر من قصة حياة المسيح كما رواها أتباعه .. والقرآن ينشر أفكاره ومبادئه من

خلال دراسات قصصية لحياة الانبياء والرسل ويتلخص منها الى المعانى المتصلة بفكرته ..

وفى التاريخ الحديث لا يوجد سياسى ذو أثر الا وكان كاتبا أو قصاصا أو خطيبا .. موسوليني كان صحفيا وكاتبا مسرحيا .. ومن بين مسرحياته مسرحية عن نابليون اسمها « المائة يوم » ، وأسلوبه من أعلى طراز ، ومقدرته الخطابية تضعه على رأس خطباء اللغة الايطالية .. وهتلر كان كتابه « كفاحى » من العمد التى قامت عليها الحركة النازية ، وكانت موهبته الخطابية هى العدة الاساسية التى جمعت الشعب الالمانى حوله .. وعندك كتب غاندى ، ونهرو ، وتشرشل وكليمنصو .. وكثير غيرهم ، بحيث يحق لى أن أسأل : من هو السياسى الكبير الذى لم يكن له رصيد أدبى كبير ؟!..

وأنا مؤمن بأنه لا شىء يتغير الا عن طريق الكلمة . وقد يؤلف الانسان كتابا ولا يترك أثرا ، ثم يأتى بعد عشر سنين أو عشرين من يلتقط هذا الكتاب ، ويجعله الاساس الروحى لحركته ، فتنسب الحركة السياسية من أولها الى آخرها الى هذا الكتاب أو هذا الرأى . وليس عبثا أن تقول التوراة : « فى البدء كانت الكلمة » ، وأن يقال عن المسيح انه « كلمة الله » ، وان الوهابيين لم يستطيعوا أن يقيموا حركتهم السياسية الا على أساس كتاب محمد بن عبد الوهاب ومذهب ابن تيمية

ان الذى يعذبنا فى الحياة هو الكلام ، ونحن فى الواقع نختلف ونتفق ونتحاب ونتشاجر من اجل كلمات ، وقد جاء فى القرآن أن الرسول أنب اليهود لانهم قالوا له « راعنا » ، ولم يقولوا « انظرنا » فقد رأى أن استعمال اللفظ الاول يستحق التأنيب ، واستخدام اللفظ الاخر جائز ...

## أنف الأسد

**● ومن المهم أن ندرك بعد ذلك أن هذه الآراء ليست وليدة الفترة الأخيرة من حياته التي انصرف فيها للانتاج الأدبي ، بل هي في الحقيقة خلاصة خبراته الفكريةالطويلة وحصيلة حياته كلها التي امتزج فيهـــا الفن والأدب بالسياسة منذ طفولته المبكرة ٠٠ وثمة صورة فنية جميلة من تلك الايام الخوالي ما زالت حية في خيـــاله تنبض بالحركة والالوان والشذى ٠٠**

ـ كنا في طفولتي نسـكن في حي السـيدة زينب ، في شارع سلامة ، وهو نفس الشارع الذي سكن فيه توفيق الحكيم في صـباه مع أعمـامه ، وذكره كثيرا في « عودة الروح » .. وكانت صاحبة البيت ممثلة مشهورة اسمها « ميليا ديان » كانت « بريمادونة » ذلك الزمان ، وبطلة فرقة سلامة حجازي ٠٠ وكانت كلما زارتنا لتتســـلم الايجار أو لغير ذلك من الشـئون ، أشـاعت الحركة في الشارع كله .. وأذكر أنها طلبت مني مرة ، ولم أكن قد تجاوزت السادسة ، أن أحضر لها علبة سجائر « كيريازي » وأذكر أن العلبـة كان عليهـا رسـم ملون لامرأة جميلة تنفخ الدخان في وجه أسد قوي .. وقد ظلت مشاعري طوال الزيارة موزعة بين « ميليـا ديان » المـاثلة أمامي بجمالها الرائع وزينتهـا وعطرها ، وبين المرأة الاخـرى الفاتنة التي تنفخ الدخان في أنف الاسد !.. وكان هـذا أول اتصال لي بعالم الفن والجمال .. والمسرح ..

ـ أما السـياسة والوطنية ، فقد كان حي السيدة يموج بهما وما أكثر المظاهرات التي شهدتها ، وما أكثـر الخطب الوطنية التي سمعتها داخـل المسـجد وخارجه فقد كان مسجد السـيدة زينب هو المنبر الثـاني لثورة

١٩١٩ بعد الجامع الازهر ..

وفى شارع سلامة بالقرب من بيتنا كان يسكن المرحوم على الجارم ، وكان قد عاد حديثا من بعثته الى انجلترا ، ويبدو أن شبان الحى لم يكونوا راضين عن موقفه من الانجليز ، فكانوا يتظاهرون أمام بيته ، ويهتفون ضده ، وكانت تلك المظاهرات أول تنبيه وطنى لواعيتى وأنا طفل صغير ..

وأذكر من تلك المرحلة المبكرة شخصيات وطنية كثيرة كانت تسكن الحى كالدكتور محجوب ثابت الذى لم يكن يسير الا وحوله رهط من الشبان الوطنيين .. وشخصيات أخرى كانت تفد على الحى لتخطب فى المسجد فى المناسبات الوطنية كمحمد أمين عبده ، وأمين عز العرب ، وكان كل منهما يمثل فى الخطابة مدرسة مختلفة عن مدرسة زميله ..

وكانت شقيقتى تلميذة متفوقة فى مدرسة « السنية » تزعمت الطالبات فى المظاهرات الوطنية ، ففصلتها الناظرة الانجليزية ، وكان هذا الحادث من العوامل التى نبهت مشاعرى الوطنية فى فترة مبكرة

ويأتى بعد ذلك العامل الاقوى والاهم فى تكوينى الوطنى والادبى ، وهو والدتى .. فقد نشأت لاجد فى البيت ثلاث مجموعات من الكتب ، كلها كتبها .. المجموعة الاولى كتب دينية ومعها بعض كتب التراث العربى القديم ، والثانية روايات جرجى زيدان ، وكانت والدتى قد قرأت كل هذه الكتب ، مضطرة فى باذىء الامر لتسلية جدها الشركسى المشلول ، ثم بمحض اختيارها حين بدأت تفهم ما فيها وتتذوق معانيه ..

اما المجموعة الثالثة فكانت عبارة عن اعداد جريدة ( اللواء ) التى كان يصدرها مصطفى كامل ، و « مجلة

المجلات » وهى احدى مجلات الحزب الوطنى ، اذكر من بينها عددين بالذات ، الاول خاص بوفاة مصطفى كامل ، والاخر عن حادث دنشواى ، فقد استعنت بهما بعد ذلك فى بعض المجلات التى توليت تحريرها .. ومع هذه المجلات كتاب « تاريخ مصطفى كامل » لشقيقه على فهمى ومجموعة الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل ومدام جولييت آدم حول القضية المصرية .. وغير ذلك من الكتب والمطبوعات التى اصدرها الحزب الوطنى ..

جمعت والدتى كل هذه الكتب والمجلات لانها كانت من أتباع مصطفى كامل المتحمسات ، وكانت تعلق فى بهو البيت صورة فوتغرافية كبيرة له ، فنشأت وانا اعتقد أنه احد اقربائنا ، وكنت وانا طفل صغير اتيه على زملائى بأن لنا قريبا من الباشوات .. وما زلت أذكر ما حكى لى عن يوم وفاته ، وكيف حاول أبى اخفاء النبأ عن والدتى لانها كانت مريضة ، وحين علمت حزنت عليه حزنا كبيرا لاأذكر انها حزنت مثله على أحد بعد ذلك أبدا ..

ومن الغريب أن والدتى أصبحت فيما بعد من أشد المتحمسات لسعد زغلول ايضاً ، وكان ذلك موضع خلاف ومناقشات بينى وبينها حين كبرت . واذكر انها صحبتنى مرة الى بيت الامة لوداع السيدة صفية زغلول بعد ان سمحت لها السلطات باللحاق بزوجها فى جبل طارق سنة ١٩٢٣ ، وحين دخلنا هناك وقفت سيدة طويلة وهتفت فى وجهى « يحيا الخطيب » وكنت حدثا صغيرا لم امارس الخطابة بعد ، فكان ذلك الموقف من الذكريات الاليمة التى عاشت فى نفسى طويلا ، ودفعتنى بعد ذلك الى ان أحاول التفوق فى الخطابة

# أصل الأنواع

**● حدثتني عن نشأتك في حي السيدة زينب ، فهل ولدت فيه أيضا ؟**

ـ لا ، لقد ولدت في ١٤ مايو سنة ١٩١١ بالمنيا ، ولو أنى لست من أهلها فقد كان والدى مهندس رى تنقل بين كثير من المدن • وحين نقل الى الجيزة سكنا فى السيدة والتحقت هنـاك بالمدرسة الاهلية المصرية ، ثم مدرسـة محمد على حيث حصلت منها على الابتدائية سنة ١٩٢٤. وبعد ذلك نقل والدى الى أسيوط فبنى سويف ، وفيهـا قضيت مرحلة التعليم الثانوى

وفى هذه المرحلة وضح ميلى الى الكتـابة والخطابة فأصدرت فى مدرسة أسيوط الثانوية مجلة ، لعلهـا أول مجلة مدرسية تصدر فى الصـعيد . وكنت كل يوم سبت القى درسا دينيا فى مسجد المدرسـة ، كنت أحوله الى محاضرة عامة فى الدين والادب والسـياسة وأذكر أنى كتبت مقالا فى مجلة المدرسة عن « داروِن » ونظريته قبـل أن يقرر تدريس التاريخ الطبيعى فى المدارس ••

**● وما المراجع التى اعتمدت عليها فى كتابة هذا المقال ؟**

ـ دائرة معارف محمد فريد وجدى ، وترجمة اسماعيل مظهر لكتاب « أصل الانواع » ، وأذكر انى القيت محاضرة فى بيتنا على مجموعة من الزملاء وأولاد الحـارة عن نظرية أصل الانواع ، ونجحت فى افهامهم بسـذاجة تلك السن ان الانسان أصله قرد .. وطبعـا لم يكن لهذا المقـال أى أهميـة وانما ذكرته لك لانه يمثل نوعا من القراءات العلمية عرفتهـا فى تلك الفترة الى جانب القراءات الادبية والوطنية ، وكان لهذه القراءات اثرها فى اكتسابى

قدرا من النظرة العلمية للامور

ومن المقالات التى كتبتها فى مرحلة الدراسة الثانوية مقال نقد عن أبطال قصص المنفلوطى وأيهم أشد تعاسة ومقال آخر عن الثورة الفرنسية تأثرت فيه بكتاب « روح الجماعات » لجوستاف لوبون ، وكتاب حسن جلال عن الثورة الفرنسية ، كما ترجمت مقالا قرأته فى مجلة انجليزية عن الكاتب الفرنسى اسكندر ديماس

والحقيقة أننا كنا فى تلك الفترة كنا ندرس فى المدارس كتبا قيمة كان لها أقوى الاثر فى تكوينى ، أذكر متهابصفة خاصة كتابا يضم مجموعة من المقالات والصور الادبية لعدد من كبار كتاب المقالات الانجليز ، وكتابا آخر عن الحضارة المصرية من تأليف السيدة « كوبيل » وعنوانه « التاريخ والفن المصريين » ، وهو يعتبر بداية صحيحة للربط بين الفن والادب والتاريخ

ودرسنا بعد ذلك تاريخ حياة « نلسون » ومسرحية « يوليوس قيصر » لشكسبير ... هذه الكتب وغيرها كانت بمثابة تحضير أدبى ، وأذكر أيضا أننى اشتركت وأنا فى مدرسة بنى سويف الثانوية فى تمثيل مسرحية « سيرانودى برجراك » باللغة العربية ، و « يوليوس قيصر » باللغة الانجليزية ..

تأتى بعد ذلك مرحلة كلية الحقوق ...

**● أحب أن أسألك أولا ، لماذا اخترت كلية الحقوق رغم ميولك الادبية الواضحة ؟**

ـ الواقع أن الحقوق كانت المدرسة الادبية الوحيدة فى ذلك الحين ، وطابعها الادبى كان أظهر من أى مدرسة أخرى كمدرسة المعلمين مثلا .. ومعظم من أسهموا فى الحركة الادبية السياسية ، أو الادبية الخالصة كانوا من خريجى الحقوق .. مصطفى كامل ، محمد فريد ،

آمين الرفاعى ، هيكل ، أحمد وفيق ..

ومنذ المدرسة الابتدائية وأنا مصمم على الالتحاق بالحقوق ، ولم يكن يساورني الامل فى ان أصبح ذات يوم قاضيا أو وكيلا للنيابة ، وانما كانت رغبتي الوحيدة ان أكون محاميا . وقد قلت لك ان تحضيري الاول كان تحضيرا وطنيا ، أما التحضير الادبى ففرع من الوطنية . فالجو الذى كان يحيط بى من خطب ومقالات وقصائد كانت كلها تدور حول موضوعات وطنية ، وقصائد شوقى التى كنا نقرؤها فى البيت معظمها ينظم وينشر فى مناسبات سياسية ووطنية ..

## مشروع القرش

**• ننتقل اذن الى مرحلة كلية الحقوق ..**

ـ التحقت بها سنة ١٩٢٩ ، وكانت دفعتنا أول دفعة تدخل فيها الفتاة المصرية الجامعة ، وكان من زميلاتنا الدكتورة سهير القلماوى ، والاستاذة نعيمة الايوبى التى كانت من بين من تطوعوا للمرافعة عنا حين قبض علينا عقب تخرجنا بسبب بعض ما كتبناه فى جريدة « الصرخة »

وفى السنة الاولى درسنا مع طلبة كلية الآداب ، فتوثقت صلتى بالدراسات الادبية ، ونشأت علاقتى بالدكتور طه حسين ، وأمين الخولى ، ومنصور فهمى ، وأحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، وغيرهم من أساتذة الادب ..

وفى هذه المرحلة كان لنا وجهان من وجوه النشاط ، الاول مشروع القرش وكان مصدر الروح والحركة فيه أحمد حسنين ، ووقتها كنت اراه نسخة من مصطفى كامل أروع من الأصل . ومن أهم ما استفدته من الاسهام فى هذا المشروع توثيق صلتى بعدد كبير من مشاهير الادب

والصحافة ... شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، والعقاد ، والمازنى .. وغيرهم ..

وفى تلك الفترة كتبت سلسلة من المقالات فى مجلة « المصرى » التى كان يصدرها المرحوم سلامة موسى ، دعوت فيها الى استبدال المنديل المحلاوى بالكرافتة وتحمس بعض الزملاء للفكرة ونفذناها بالفعل

أما الوجه الآخر من أوجه نشاطنا فكان تفكيرى فى عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين من طوكيو حتى الدار البيضاء فقد كنت أعتقد أن الحركة الاستقلالية العربية كانت لا تزال عاجزة فى ذلك الوقت عن الوقوف بمفردها ، وان مما يقويها ويشد أزرها أن تضم اليها الدول الاسيوية كالهند واندونيسيا لتبادل التجارب وتقوية الحركة الوطنية فى بلاد الشرق كلها ، وكتبت عددا من المقالات فى الصحف والمجلات أشرح فيها الفكرة وأدعو الى عقد المؤتمر

وسافرت بالفعل انا وزميلى الشهيد كمال الدين صلاح الى تركيا والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين للدعوة للمؤتمر ، وقوبلنا بالحفاوة فى كل مكان ، وألقينا خطبا ومحاضرات ونشرنا مقالات فى كل هذه البلاد . وحين عدت كتبت مجموعة اخرى من المقالات عن مشاهداتى فى هذه الرحلة وللاسف كانت هذه المقالات أنجح من فكرة المؤتمر نفسها ، اذ أصدر محمد حلمى عيسى وزير المعارف وقتها أمرا بحل اللجنة التحضيرية للمؤتمر ، وكانت برئاسة الدكتور على ابراهيم مدير الجامعة

● **ألم تكتب أعمالا فنية خلال هذه المرحلة ؟**

ـ بل كتبت عددا من القصص القصيرة . الاولى كانت بعنوان « الام » وقد نشرتها فى مجلة « الصرخة » التى كنا نصدرها ونحن طلبة فى الجامعة كما بدأت أنشر فيها

رواية مسلسلة عنوانها « الغيور » ولكنى لم أتمها . ومن القصص القصيرة التى كتبتها قصة بعنوان « الظمأى » نشرت فى البلاغ ، واخرى بعنوان « أشكو » نشرت فى مجلة « المصرى » وثالثة بعنوان ( ليلة فى تل أبيب ) فى ( السياسة الاسبوعية ) ..

**● بعد تخرجك .. اشتغلت بالمحاماة بالطبع .. ؟**

ــ الواقع أنى كنت محاميا ، ولكنى لم أكن أمارس المحاماة الا فى حالات نادرة ، كان معظمها مرافعات فى قضايا سياسية ، فقد كنت أعتقد ان العمل السياسى لا يمكن أن ينتج الا اذا انقطعنا له تماما . وقد ظللت عضوا عاملا فى حزب « مصر الفتاة » من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٣٧ ثم ابتعدت عنه وان لم أقطع صلتى به بصفة نهائية الا فى فبراير سنة ١٩٤٢

وحين بدأت ابتعد عن حزب مصر الفتاة سنة ١٩٣٧ ، مررت بأزمة روحية عميقة سببها أننى لم أكن أتبين أمامى طريقا آخر للعمل الوطنى المثمر ، ولم ينقذنى من هذه الازمة سوى نشوب الحرب العالمية الثانية ، وتغير اسلوب العمل الوطنى فى ظل الاحكام العرفية بعد أن أصبح العمل العلنى ممنوعا . فى ذلك الوقت اجتمع معى عدد من الشباب الوطنى من طراز آخر استهدفوا لمخاطر كثيرة طوال فترة الحرب وما بعدها

وقد اعتقلت فترة غير قصيرة عقب حادث سقوط طائرة الفريق عزيز المصرى ، على النحو الذى تجده مفصلا فى كتابى « قبيل الفجر »

وحين وضعت الحرب أوزارها عدت للعمل فى المحاماة ، وبدأت أجمع جيلا آخر من الشباب الوطنى للاشتغال بالسياسة على مبادىء الحزب الوطنى بعيدا عن الحزب الوطنى نفسه ، اذ كنت اعتقد انه انتهى رغم وجود رجاله

ثم دعانا الصديق مصطفى مرعى الى العمل تحت زعامة حافظ رمضان ، على أن تكفل لنا الحرية الكاملة فى العمل فوافقنا وتعددت جهودنا لبعث الحياة فى أوصال الحزب القديم ، ثم ما لبثت أن تبينت عقم هذه المحاولة ، فانفصلنا عن الحزب مرة اخرى وبدأنا نعمل مستقلين باسم « اللجنة العليا للحزب الوطنى » . واصدرنا « اللواء الجديد »

وأعتقلت أثناء ذلك عدة مرات ، كان آخرها عقب حوادث يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وظللت فى المعتقل الى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ، فأفرج عنى وذهبت مباشرة لمقابلة على ماهر رئيس الوزراء اذ ذاك بناء على طلبه ... والباقى أنت تعرفه ..

## فلسفة تولستوى

● **من أساتذتك ؟**

ــ أساتذة بالمعنى الكامل لايوجد سوى مصطفى كامل كقدوة ومثل ، ومحمد فريد ، ثم تولستوى ، فأنا مدين له بتكوين مزاجى الفكرى مائة فى المـــائة ، وما عدا ذلك فروافد مختلفة سواء فى الفكر السياسى أو الفكر الادبى الخالص .. ديفاليرا مثلا وحركة المقاومة الايرلندية من هذه الروافد .. وكذلك غاندى .. وقد تعددت مطالعاتى فى الادب عموما وفى الادب السياسى خصوصا ، وكان للادب الروسى النصيب الاكبر من مطالعاتى

● **ولماذا الادب الروسى بالذات ؟**

ــ ربما لان الروس كانوا محتجزين مثلنا ولديهم مدخرات وفيرة . ومع ذلك فلم أقع فى قبضة تشيكوف بالقـــدر الكافى ، ولم تقم بينى وبين جوركى مودة كمـــا يجب أن يكون ، وهو أمر يحيرنى . أما تولستوى فأنا مـــدين له

بتكوينى الروحى والادبى مائة فى المائة ، وسيبقى دينه فى عنقى لاخر العمر ، لانه بالاضافة الى كونه فنانا ضخما عظيما ، فالجوانب الاجتماعية والسياسية التى تناولها فى كتبه وجدت صدى كاملا فى نفسى

أذكر وأنا طالب فى الحقوق بينما كنت أسير فى شارع عبد العزيز ، اذ رأيت على الارض وسط مجموعة من الكتب كتيبا صغيرا عنوانه « ما هو الفن » لتولستوى ، فاشتريته . وما ان انتهيت من قراءته حتى كنت قد تعلقت بمؤلفه ، فترجمت الكتيب ، وقبل أن أتخرج كنت قد قرأت كل مؤلفاته ، وترجمت له رواية «المساكين» ولكنى لم أنشرها ، كما كتبت عنه عددا من المقالات فى « الهلال » و « السياسة الاسبوعية » ومجلة « الجامعة المصرية »

**● وما الذى استهواك فى تولستوى ؟**

ـ استهوانى منه الجانب الفلسفى . قد يكون ذلك غريبا بالنسبة لشاب لم يتجاوز الثامنة عشرة ، ولكن وضوح أفكاره وبساطة عرضه لها ، ثم اقتصار أفكاره على فكرتين او ثلاث ، والحاحه فى عرضها ، كل ذلك جعلنى أرضى عن نفسى حين وجدتنى قادرا على أن أقرأ باللغة الانجليزية افكارا فلسفية ودينية واستوعبها وأهضمها ، فأحسست انى قريب من تولستوى ، وانه فى متناولى لا يتعالى على . ولو وجدت صعوبة فى فهمه لكان من الممكن أن أنصرف عن القراءة باللغة الانجليزية بصفة عامة ..

ولذلك فلم أتذوق تولستوى الاديب الا فى مرحلة متأخرة ، وفى القراءة الثانية أو الثالثة لأعماله

ولهذا السبب فحين كتبت عن تولستوى قبل أن أفرغ من التعليم العالى ، تناولته من ثلاث نواح .. لخصت

له قصة « سوناتة كرويتزر » ، ثم كتبت فى « السياسة الاسبوعية » مقالا عن الموت فى أدب تولستوى ، وكتبت بعد ذلك فى « الهلال » مقارنة بينه وبين « جان جاك روسو » بعنوان « صراع الدعاة » بينت فيها ما قد يتورط فيه صاحب الدعوة حين يعجز عن تطبيق مبادئه فى سلوكه ، ويضبط متلبسا بما يخالفها ، فاما أن يحاول تبرير هذه المخالفة بما يشبه السفسطة ، واما ان يسلم بعجزه عن الارتفاع بسلوكه الى مستوى النظرية التى يبشر بها . اما المقال الثالث فكان فى مجلة « الجامعة المصرية » عن رواية « الجريمة والعقاب » وفلسفة العقاب عند تولستوى

**● قلت ان فلسفة تولستوى تقتصر على فكرتين أو ثلاث رئيسية ، ما هى هذه الافكار ؟**

ـ اولا فكرة الحب وعدم العنف ، والالحاح على ان العنف هو أصل البلاء فيما يصيب البشر ، وانه لا علاج للفقر والجرائم فى المجتمع والاضطراب فى الحياة الدولية والحياة الزوجية العائلية الا بأن يسود الحب ، بحيث لا يجوز لانسان أن يرفع اصبعه ، فضلا عن يده ، فى وجه ألد أعدائه تطبيقا لمبدأ « احبوا أعداءكم » ..

والفكرة الثانية هى القضاء على الملكية الزراعية ، اما الثالثة فهى الطهارة او العزوبة فى العلاقات العاطفية

**● بالنسبة للفكرة الأولى وهى فكرة المسالمة المثالية ، أليس من الغريب أن تتأثر بها وأنت الرجل الذى مارس فى مختلف أطوار حياته العمل السياسى الايجابى ؟**

ـ لقد انطبعت هذه الفكرة فى نفسى تماما ، وان كان يحرجنى كرجل أشتغل بالمسائل العامة فى فترة ما أن أنادى بها او أحاول تطبيقها . ولكنى من الناحية النظرية أعتقد ان خلاصة الفكر الانسانى هى « أحبوا اعداءكم

وباركوا لاعنيكم » .. وان كل محاولة لاصـــلاح المجتمع الانسانى ، والمجتمع الدولى بعيدا عن هذا المبدأ ان لم تكن عبثا ، فهى على الاقل ليست الحل الامثل ، ولعل ماوصلت اليه الانسانية بعد اعلان هذا المبدأ هو ما وضع الاسـلام أسسه ، والاسلام لم ينقض هذا المبدأ ولم يسـتنكره ، وانما اعتبره الهدف الابعد الذى يجب أن نستحث خطى الانسانية نحوه

وقد وقعت فى هذا الحرج فعلا فى حياتى السياسية ، لانى بعد اشتغالى بالسياسة كنت موزع الخاطر بين الحركة الغاندية فى الهند ، وحركة « الشين فين » فى ايرلنـدا . وكانت الحركة الاولى تقوم على مبدأ تولستوى أو المسيح ان أردنا الدقة ، والاخرى تقوم على العنف ورد العدوان بمثله أو أكثر . ولكى أضع حدا لهذا الحرج اعتبرت أن مقاومة الضعفاء للاقوياء بالقوة لا تتأتى الا اذا كان هؤلاء الضعفاء قد اعدوا أنفسهم للمقاومة السلمية او الروحية ضده ، بصرف النظر عما قد يصيبهم من خسائر أو آلام مما يسلطه عليهم الاقوى

## مقاومة العنف

**● وصف بعض النقاد أفكار تولستوى بأنها دعوة الى السلبية ، ومن ثم فهى رجعية لا تساعد على تقدم المجتمع الانسانى ، بل على العكس قد تعوق تقدمه .. ما رأيك فى هذا الاتهام لافكار تولستوى ؟**

ـ هذا الاتهام صحيح من حيث الظاهر ، ولكن الحقيقة ان الاستسلام لارادة القوى الظالمة ، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أبعد ما يكون عما يدعو اليه تولستوى ، لانه يطلب من المؤمنين بمذهبه المناداة بالفكرة ، والالحاح فيها ،

وتعبئة كل الساخطين روحيا ضد القوى الظالمة ،وتنظيمهم، وعدم التعاون مع القوى الباطشة . وفى اعتقـــادى ان ما يحدث فى جميع الحركات الثورية ، ويؤدى الى نجاحها لا يزيد فى أساسه عن هذا الذى دعا اليه تولستوى ، وأن العمليات المادية الاخرى ليست سوى نتائج فرعية وتافهة فى تحقيق الرسالة الثورية

خذ المسلمين مثلا ، ماذا كان عندهم من سلاح أو عتاد ليحاربوا المجتمع القرشى الوافر الثراء ، والمسيحيون ماذا كانوا يملكون ليثلوا عرش الامبـــراطورية الرومانيـــة ، والشيوعيون فى روسيا ، كم عـــدد الذين اغتـــالوهم وهم يعملون فى الخفاء فى عهد القيصر ؟ .. بل خذ الجزائر ، وهى فى رأيى أوضح مثل يرد به فى هذا السبيل . لقد كان الجزائريون موجودين قبل أول نوفمبـــر ١٩٥٤ ، وكانوا بطبيعة الحال غير راضين عن الحكم الفرنسى ، ولكن الذى تغير هو ان ارادة المقاومة ورفض الاذعان تجمعت ، وكان هذا التغيير الداخلى لازما وضروريا قبل قيـــــام التغيير الظاهرى المتمثل فى الثورة المادية

والهند من أبلغ الامثلة كذلك ، فالانجليـــز قطعا كانوا قادرين على البقاء فى الهند بعد سنة ١٩٤٧ حتى اليوم ، ولكن الذى تغير هو أن الهنود كانوا قد صمموا على ألا يذعنوا لارادة الانجليز ، فأدركت بريطانيا عدم جدوى مقاومة التغير العظيم الذى حدث فى الهند ، هذه القارة الفسيحة، وأن محاولة البقاء فيها معناها الوقوف فى وجه تيــــــار متدفق ، وانها ستدفع فى سبيل هذا الوقوف مالا كثـــيرا وجهدا باهظا ، وانها ستخسر السمعة والمكانة

ولتوضيح هذه النقطة أكثر خذ ألمانيا كمثل على وجهة النظر الاخرى ، لقد غلبت على أمرها فى الحرب العالميـــة الاولى ، فخرجت منها أقوى ممـــــا كانت ، ثم غلبت على

امرها مرة اخرى فى الحرب العالمية الثانية ودمرت تدميرا شاملا ، وهاهى الان قد أصبحت أقوى دولة فى اوربا .
فتدميرها ماديا لم يحقق لخصومها وأعدائها ماكانوا يعلقونه من آمال على انزال الهزيمة بها .. فقد غلبت ألمانيا الدولة ، ولكن المانيا الشعب لم تقهر

خلاصة كل ذلك ان العنف لا يحقق اطلاقا ما يوهم الناس به ، لان الاصل فى قوة الانسان وضعفه كامن فى عقيدته ، وما يخالج قلبه وعواطفه ، وبالعنف قد ترهب الانسان ، ولكن لا يمكن أن تستأصل القوى الاساسية المحركة له . ولو أن أعصاب الانسان الغاضب قد ترتاح أكثر حينما يلجأ الى العنف ، ويخيل اليه أنه أصبح أقرب الى الهدف حين يطلق مسدسا أو يلقى قنبلة أو ينسف كوبرى أو مبنى . والطغاة أنفسهم يظنون أن حركات المقاومة السلمية فى مصلحتهم لانها تصرف أعداءهم عن المقاومة المادية ، والظاهر يوحى بذلك حقا، ولكن الحقيقة أنهم يفاضلون بين الموت بالخنجر أو المسدس وبين الموت بتجرع سم بطىء المفعول ، مع أن النتيجة فى الحالتين واحدة ، وان كانت في الحالة الاخيرة آكد لانها تقتلع النظام الرجعى من جذوره ..

ومع ذلك أؤكد لك شخصيا رغم ايمانى العميق بفكرة تولستوى فى مقاومة العنف ، فانى أشعر بالحرج من الدعوة اليها ، أو بتعبير أدق فى الاقتصار عليها وحدها ، لانى أحس انى اكلف الناس فوق طاقتهم ، فالايمان بدعوة المقاومة الروحية لابد أن تسبقه الدعوة اليه والتهيؤ له

ويبقى بعد ذلك ان الناقد المنصف لا يستطيع ان ينسى ان مواقف تولستوى ضد القيصر وكتاباته الصريحة ضد النظام القائم كانت من المعاول التى عملت على انهيار النظام القيصرى ، يكفى أن أذكرك بمقاله الهام « لا أستطيع أن أظل

صامتا » فهو لم يكن سلبيا ، بل ان مقالاته ورسائله ومواقفه جميعا كانت أوجع للنظام القيصرى ، وأشد ايلاما له ، وأكثر كشفا لعيوبه ، وأعظم اثارة لخصومه من رصاص الارهابيين وقنابلهم ، واجتماعاتهم السرية ؛ ومحاولاتهم السابقة لاوانها

## غربة الأدب العربى

**● وبمن تأثرت غير تولستوى ؟**

ـ كانت الخطوة الطبيعية بعد تولستوى أن أقع فى غرام غاندى ، والواقع أنى كنت فريسة سهلة له ، اذ أسلمنى تولستوى له مكتف اليدين والرجلين ، ولم أشعر بغربة وأنا أقرأ لغاندى أو عنه ، لان كل ماقيل عنه كان من قبيل رجع الصدى لاراء تولستوى بفارق واحد وهو أن غاندى طبق النظرية فى المجال السياسى والدنيوى ، فأثبت بذلك قدرتها على مواجهة تحديات الواقع ، وكانت كل المحاولات التى سبقت غاندى لجمع كلمة الهنود تتبع الخطوط التى اتبعتها الحركات السياسية والوطنية فى أوربا ، اما غاندى فقد أقامها على الاسس المأخوذة من البرهمية ومن موعظة الجبل للمسيح ، ومما ساعد على نجاحه تربية الهنود على مبادىء البرهمية والبوذية فهيأهم ذلك للاقتناع بالنظرية وتطبيقها

**● أظن أن أول كتبك كان عن « غاندى » ؟ ..**

ـ فعلا ، فقد صدر سنة ١٩٣٤ ، وكان خلاصة لقراءاتى عنه فى مدى سنتين أو ثلاث . قرأت حياته بقلمه ورسائله وبعضها كان مع تولستوى ، وخطبه ، ومعظم ما كتب عنه ، وبصفة خاصة كتاب « رومان رولان » ، الذى ترجمت بعض فصوله ونشرتها تباعا وكنت أثناء عرضى لخلاصة هذه

القراءات أتدخل بصفة مستمرة بهدف التعبير عن اقتناعى بالحياة نفسها ، وبالمثل التى تضربها كمنهج عمل للشباب الوطنى ، ولذلك فقد أهديت الكتاب الى الشباب المكافح فى مصر وفى البلاد العربية وفى الشرق كله ، وقلت فى هذا الاهداء :

« الى الشباب فى مصر ..

الى الشباب : الذى طهرته المحن وصقلته الآلام ، وهيأته نفسه لجهاد طويل لا يضعف فيه ولا يلين

الى الشباب : فى البلاد العربية ، الذى يحلم بالوحدة ، ويعمل للمجد

الى الشباب فى الشرق المترامى العظيم ..

أرفع كتابى هذا حديثا عن الوطن والوطنية ، ترتيلة للدين والعاطفة الدينية ، هدية للشرق والفكرة الشرقية ووقودا للنار المقدسة التى تحرقنا ، وتحلل أجسادنا وتنقينا وتصفى أرواحنا »

فكان الكتاب بمثابة محاولة للربط بين منهج غاندى فى الكفاح السياسى وبين الاوضاع فى مصر فى ذلك الحين ، واعتقدت أنه نوع من التحضير الروحى السابق لحركة الكفاح نفسها ، فبمقدار استعداد المناضلين لقبول التضحية والمثابرة على الدعوة يكون النجاح ، أما نوع السلاح الذى يستخدمونه فى نضالهم فثانوى جدا

**● كنا نتحدث عن قراءاتك وعمن تتلمذت عليهم من المفكرين والأدباء ..**

ــ الباقون كلهم أساتذة مساعدون ، أو مجرد روافد تؤكد الخطوط الاولى . فقد قرأت ، الى جوار تولستوى : دستويفسكى وبعض مؤلفات تورجنيف ، ومعظم مسرحيات أوسكار وايلد ، وكان من الادباء الذين استمتعت بتذوق أسلوبهم بما فيه من فكاهة ذكية يتوبل بها افكاره ،

ولكنى لا أستطيع أن أزعم انى خرجت منه بشيء أساسى ذى قيمة كبيرة . وقرأت بعض روايات جين أوستن ، ثم توقفت بعض الوقت عند برناردشو بدافع سياسى فى المقام الاول ، وأعجبت بصفة خاصة بمسرحيته « جزيرة جونبول الاخرى » ومقدمتها المليئة بطرائف أسلوبه الذكى ، وكذلك « القديسة جون » ، و « الانسان والانسان الارقى » . وقد قرأت أعماله على فترات متباعدة ولم يكن من الادباء الذين تأثرت بهم كثيرا

وقرأت عينات مختلفة من الادب الفرنسي ، مثل « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير ، و « الآلهة الظمأى » لاناتول فرانس ، وبعض المسرحيات لفيكتوريان ساردو، وهنرى باتاى ، وغيرهما ..

ووقفت طويلا مع « ستيفان زفايج » ، فقرأت معظم تراجمه وقصصه القصيرة والطويلة ، وأجمل ما أعجبنى فيه الاسلوب وطريقة العرض ، ولكنه لم يضف شيئا هاما الى أساسى الروحى ، ولا لنظرتى للحياة .. لم أخرج منه بشيء باق ولا عال ، وان كانت كتاباته ممتعة ومثيرة للخيال ومجددة لنشاط القارىء

● **وقراءاتك فى الادب العربى ؟**

ـ بالنسبة للادب العربى أنا محب قديم لابى العلاء المعرى ، ولا انقطع عن النظر فى أمهات الكتب العربية القديمة كالعقد الفريد ، والكامل ، ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب

وأعتقد أننا لابد أن نعيد الصلة بين المتأدبين فى بلادنا وبين هذه الكتب وأمثالها ، لانى لا أتصور أننا سنستطيع أن نقدم اسهاما أدبيا ذا قيمة عالمية ما لم نقرأ أدبنا القديم ونتأثر به ونهضمه ، بالاضافة الى صلتنا الحية بالادب العالمى

والذى لا شك فيه أن الادب العربى القديم قد أصبح غريبا بالنسبة لمعظم الأدباء والمتأدبين فى بلادنا ، واللغه العربية توشك مع تقدم الزمن أن تصبح لغة اجنبية . ان الاوربيين حين يقدمون شيئا من الادب الكلاسيكى لناشئتهم فانهم يذيلونه بهامش رأسى لبيان المعنى الاجمالى ، وآخر افقى لشرح معانى الكلمات ، وثالث لتوضيح معانى الجمل والعبارات ، وملحق لتوضيح الخلفية التاريخية للعمل ، وآخر لتقويمه فى راى النقاد المعاصرين لمؤلف الكتاب . واذا كان الكتاب شعرا ينشرونه .. وهكذا ..

وعشر هذا لا نقوم به نحن لدواوين المتنبى وأبى العلاء وبقية كبار شعراء العربية القدماء والمحدثين . والقدر الذى أصبحنا نقدمه اليوم لطلابنا ، حتى للمتخصصين منهم فى القسم الادبى ، ضئيل وغير مصحوب بالتقديم اللازم ، فلا غرو أن اتسعت الجفوة بيننا وبين أدبنا وعمقت ، وهى آخذة فى الازدياد

ولهذا السبب قل أن تقع على فكر ذى قيمة عند معظم من يكتبون اليوم ، لأن القراءات فى اللغة الاجنبية تتم جزافا واعتباطا ، والقراءة فى أدبنا لا تحدث الا من جانب القلة النادرة مع أنها ليست بالامر الثانوى . وفى رأيى أن هذا الوضع يشكل خطرا جسيما ان لم نتداركه من اليوم فسنعيى عن معالجة آثاره فى المستقبل

## أنا وتوفيق الحكيم

**● وبمن تأثرت من أدبائنا المحدثين ؟**

ــ بطبيعة الحال تتلمذت على كل الأدباء الذين كانوا يكتبون من سنة ١٩٢٠ الى اليوم ، وعرفتهم تباعا ، فبدأت بالدكتور هيكل ثم المازنى فطه حسين ، وعبد

الرحمن شكرى ، وأخيرا العقاد . ويبدو أن تأخر اتصالى بالعقاد يرجع الى سبب سياسى ، اذ لم أكن من قراء الصحف الوفدية التى كان يكتب بها

● **ألاحظ أنك لم تذكر توفيق الحكيم رغم أني أعتقد أن مسرحياتك تكاد تكون الامتداد الوحيد في أدبنا لمسرح القضايا الفكرية الذي برع فيه الحكيم ..**

ـ لم أذكر توفيق الحكيم لأن له دورا خاصا فى حياتى، فقد بدأت بمعرفته معرفة شخصية اذ كان صديقا حميما لاستاذى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى ، وكان واسطة التعارف بيننا ، وزرته فى بيته فى مطالع شهرته عقب صدور « أهل الكهف » ، وقد لا يذكر أنه أثناء هذه الزيارة وقف ونحن نتفرج على الشقة أمام احدى النوافذ وأشار بيده قائلا :

ـ « هنا القلعة وهنا الجامعة » ..

وهى نفس العبارة التى استخدمتها فيما بعد فى مسرحيتى « شقة للايجار »

واستمرت صلتى الشخصية بالاستاذ توفيق الحكيم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكر كيف هللنا لظهور « عودة الروح » ، واعتبرناها صفحة جديدة فى حياتنا الادبية .

ولما توالى ظهور مسرحياته كنا نقرؤها على أساس أنها مسرحيات للقراءة ، وهذا لا يعنى أنها لا تصلح للتمثيل على المسرح ، ولكن الواقع أننا اعتقدنا أنه انما كتبها لنقرأها ، ولم نفكر فيما اذا كانت ستمثل أو تبقى كتابا ، ولم نقرر هل تصلح للمسرح أو لا تصلح . ولعل هذا مرده الى الفجوة التى كانت موجودة وقتئذ بين المسرح وبين التأليف المسرحى الجاد ، فقد كانت كل المسرحيات التى تمثل أيامنا دون المستوى الادبى . كانت اما

مسرحيات ممصرة أو مؤلفة بقصد التسلية لا أكثر . وعلى ذلك لم نكن فى ذلك الحين نعتبر توفيق الحكيم من كتاب المسرح رغم ما أصدره من مسرحيات عديدة ، لاننا لو اعتبرناه كذلك لكنا نحط من قدره

أما ما تذهب اليه من أن مسرحياتى امتداد لمسرحه الفكرى ، فليس باستطاعتى أن أنفى تأثرى به فى هذه الناحية أو أؤيده ، فقد عاش يكتب أكثر من ثلاثين عاما، وقرأت أكثر ما كتب ، وبصفة خاصة أعماله الكبرى ، والكاتب لا يمكن ألا يتأثر بما يقرأ .. ولكن هناك أنواعامن التأثر ، تأثر الاعجاب وتأثر الاعتراض ، والتأثر الذى يدعو الانسان الى المحاكاة والتشبه ، وقد يكون الشبه الذى تشير اليه مرجعه الى أنى واياه أبناء حقبة زمنية متقاربة . لقد سبقنى ببضعة أعوام ، ولكنها فى عمر الفكر ليست بالشىء الكثير ، وحين كان يعمل وكيلا للنائب العام كنت أنا محاميا ، ودراسة كلينا واحدة وهى القانون . وقد عشنا فترة طويلة من حياتنا فى حى واحد ، بل فى شارع واحد هو شارع سلامة بحى السيدة زينب ، وأقام هو بالقاهرة وان كانت له صلات بالريف ، وأنا كذلك أهلى من الريف واقامتى بالعاصمة ، وأبوه وأبى كلاهما موظف حكومى ، كل الفارق أن أباه مستشار وأبى مهندس

ومن يدرى لعل بيننا بعض السمات العقلية والنفسية المشتركة مما يساعد على تفسير هذا التشابه الذى تقول به، على كل حال العهدة عليك أنت ، فأنا لم ادع ان بين اعمالى واعماله سمات شبه كبيرة او صغيرة

## فن التراجم

● **الاحظ أن لك كتابين عن الرسول ومع ذلك لم تذكره**

**فيمن ذكرت من أساتذتك الروحيين ..**

ـ لاشك أن الرسول هو الاساس الروحى الاول ، ولعلى لم أذكره لانه أساس لم أعان فى بنائه وانما المجتمع هو الذى تولانى فيه وأقام حياتى عليه ، ربما بطريقة لا شعورية ، فحياة محمد وما يتفرع عنها من حديث وسنة وسيرة ، والقرآن وتفاسيره وقصصه ، كل هذا يكون تيارا مستمرا تحت السطح منذ فقهت الحياة وتنبهت الى حقائقها حتى اليوم ، ولم أجد عناء فى الاقتراب من الرسول ومن حياته ، فقد كانت أحاديث والدتى وكل من حولى عنه تصوره لى انسانا صاحب فكرة ومرشدا يقوم نفوذه على خلقه وقوة عقله واتساع انسانيته

ولست أذكر أنه قيل لى فى الفترة الاولى من حياتى ، وهى الفترة التى يكون فيها العقل غضا ، شيئا عن معجزات الرسول ، أو شيئا يصعب فهمه على عقل الطفل . فكان محمد عليه السلام بالنسبة الى هو محمد الرسول الانسان

● **وما أهم ما أضفته الى كتب السيرة النبوية فى كتابيك عن الرسول ؟**

ـ لا أستطيع أن أزعم أنى أضفت شيئا هاما ، فكتاباى لم يزيدا عن أن يكونا صورا سريعة لحياته ، قصدت بهما لفت انظار الشباب الى الجوانب الانسانية فى شخصية الرسول ، وهى الجوانب التى قد تخفى على القارىء فى السير المطولة الحافلة بأخبار الغزوات وغيرها من أحداث السيرة النبوية .

● **كتبك الستة الأولى كلها تراجم لشخصيات ، ماتفسيرك لهذه الظاهرة ؟**

ـ فى الفترة التى ظهرت فيها هذه الكتب فى الثلاثينات من هذا القرن ، كان العالم مغرما بالتراجم ، يقبل عليها

كما نقبل نحن اليوم على المسرح مثلا . كانت فترة قلق بالنسبة للناس بسبب الازمة الاقتصادية ونذر الحرب العالمية الثانية ، فشغلوا بتأمل أنفسهم وتأمل شخصيات الناس من حولهم كنماذج تعينهم على تبين أنفسهم ،وكركائز تثبت ايمانهم ، وتخرجهم من القلق

وظهرت على مسرح الأحداث فى الشرق والغرب شخصيات أحيطت بضجيج كبير ، وكان مذهب معظم هذه الشخصيات هو الايمان بالفرد لا بالجماعة . غاندى كان شبه اله فى الهند ، ومثله ستالين فى روسيا ، ثم هتلر وموسولينى . فكان أن ازدهر فن التراجم على أيدى اميل لودفيج ، وموروا ، وزفايج ، ولامر ما كانوا جميعا من الكتاب اليهود ..

لذلك كله كانت التراجم بالنسبة الى بمثابة مقدمة طيبة وطبيعية للدراسة الادبية لانها دراسة تاريخية سياسية بالاضافة الى اهتمامها بالجوانب النفسية والشخصية

كتبت التراجم الستة الاولى ( وهى : غاندى ــ محمد ــ محمد الثائر الاعظم ــ موسولينى ــ ديفاليرا ــ مصطفى كامل ) فى فترات متقاربة ابتداء من عام ١٩٣٤ ، ثم استغرقنى العمل السياسى والمحاماة وكتابة المقالات السياسية ، فلم يصدر الكتاب السابع وهو ترجمة صغيرة لمصطفى كامل الا عام ١٩٤٥ ، ثم عدت الى مشاغلى السابقة حتى عام ١٩٥٥ حين بدأت فى كتابة مسرحية « دموع ابليس »

## « محام صغير »

**● هل لك مذهب خاص فى كتابة التراجم ؟**

ــ لا أستطيع أن أدعى أن لى مذهبا فى كتابة التراجم ،

وانما هناك معايير واحدة اعتمدت عليهـــــا فى تقويم الشخصيات ، اولها ان الانسان قد يكون بطلا ولا يكـــون عظيما ، كما أن العظيم قد لا يكون بطلا، والمقصود بالبطولة ضخامة الدور الذى يؤديه الشخص ومقدار الضجيج الذى يثيره حوله • أما العظمة فهى أمور قد تخفى على الناس ، وقد لا يظهر أثرها الا بعد حين ••

والمعيار الثانى ان الانسان كلما اشتدت صلته بالمجتمع الذى ينتمى اليه ونجاحه فى تمثيل حقائق وجوده الاصيلة وليس مجرد الطفح الذى على السطح ، ازداد نصيبه من العظمة واستحقاقه للخلود ••

والمعيار الثالث أن كل شخصية ذات رسالة فى داخلها صراع ، وان هذا الصراع قد يدنو بها احيانا من الطـرف المناقض تماما لما تدعو اليه ، وقد فصلت هذه الفكرة فى مقال بعنوان « صراع الدعاة » نشرته فى « مجلة الهلال » منذ سنوات بعيدة ، وكان عبارة عن مقارنة بين تولستوى وجان جاك روسو

**● باستثناء الرسول ، من من الشخصيات التى كتبت عنها أقرب لتحقيق هذه المعايير ؟**

ـ الواقع أنه لا يمكن المفاضلة بين العظمــــاء ، فمتى تحققت لهم العظمة فان المفـــاضلة بينهم تصبح فى أغلب الاحوال على أساس عامل خارج عن الشخصية كالظروف المحيطة بهم والبلد الذى عاشـــوا فيه • وفى رأيى أن مصطفى كامل كان يملك من الجهد والطاقة والقـــدرة على العمل ما كان جديرا بأن يرفعه الى مستوى أرفع مما وصل اليه لولا ظرفين : الاول ، قصر الفترة التى اتيح له أن يعمل فيها ، اذ داهمته الوفاة وهو فى مطلع شبابه ، والثانى أنه بدأ كفاحه فى الفترة التى بدأ فيها الاستعمار حياته ،فكان لايزال يافعا قويا

ولو تصورنا أن غاندى بدأ حركته فى نفس التاريخ الذى بدأ فيه مصطفى كامل كفاحه ، وهو أواخر القرن التاسع عشر وست سنوات من القرن العشرين لما قدر له النجاح بالقدر الذى حققه فى أعقاب الحربين العـــالميتين الاولى والثانية ..

**● ما دمنا بصدد الحديث عن التراجم ، الى أى حد يمكن أن نعتبر كتابك « محام صغير » ترجمة ذاتية ؟**

ـ هو بالفعل ترجمة ذاتية . وان اقتصر على تصوير جانب صغير من تجاربى فى المحاماة .. وفى اعتقادى أن المحاماة شقيقة للادب وللعمل الفكرى وبصفة خاصـــة فى بلد يقاوم الاستعمار والفساد ، فكل المشكلات الاجتماعية والسياسية تتفتح امام المحامى والصـــــور التى تعرضها المحاماة للمشتغلين بها تقدم مادة حية غنية للدراســــــة النفسية والاجتماعية . وتلهم خصوصا اذا كانت القضايا التى يباشرها المحامى متصلة اتصالا وثيقا بمشاعر الناس . ومما كان يزيد من استمتاعى بعملى فى المحاماة من الناحية الفنية انى فى بعض القضايا كنت ابـــــدأ متهما وانتهى محاميا ..

وقد اجتزأت فى كتاب « محام صغير » قضية واحدة هى أولى القضايا التى حضرت فيها ، وعلى بساطة هذه القضية كانت كالنافذة التى استطعت أن أطل من خلالها على جوانب مختلفة من حياتنا ، فى القسم والسجن ، والنيـــــابة ، والمحكمة . وهذا الكتاب يؤكد أن العبرة فى العمل الادبى ليست بضخامة التجربة من ناحية المظهر ، انما بما تحويه من مشاعر وأحاسيس ، وبالقدرة على تلقى ما فى هـــذه التجربة من مواطن السخرية والحزن والنقد

**● الا تفكر فى مواصلة الكتابة عن تجاربك الاخرى فى ميدان المحاماة ؟**

ـ ليس فى نيتى أن أكتب تسجيلا شاملا لذكرياتى فى المحاماة بحيث أتناولها حقبة بعد الاخرى ، أو قضية كبيرة بعد قضية ، اللهم الا اذا خطر لى فيما بعد أن أكتب ترجمة حياة ولكن هناك تجربة أو تجربتين تلحـــان على خاطرى ولعلى أسجل احداهما أو كليهما فى قصة أو قصتين

## « دموع ابليس »

**● كيف اتجهت فجأة الى الكتابة للمسرح ؟**

ـ افتتانى بالمسرح قديم يرجع الى طفولتى المبكرة ،وفى مدرسة بنى سويف الثانوية كنت رئيسا لفريق التمثيل ، وقد اشتركت فى تمثيـــل عدة مسرحيـــات ، من بينها « سيرانودى برجراك » ، و « يوليـــوس قيصر » ، وقد ألفت فى تلك الفترة مسرحية عن الشاعر الايرلنـــدى المناضل « يوسف بلانكيت » ومثلها فريق المدرسة رغم سذاجتها . وبعد تخرجي من الجامعة ألفت مسرحيتـــين قصيرتين نشرتهما فى مجلة « مصر الفتاة » بقصد السخرية السياسية ..

ولعلك لا تعلم أن مسرحيتى الاولى ( دموع ابليس ) كانت فى صورتها الاولى قصة قصيرة بنفس العنوان نشرتها فى ( السياسة الاسبوعية ) سنة ١٩٣٢

**● ما المصادر التى استلهمت منها فكرة هذه القصة ؟**

ـ كانت تصدر فى ذلك الوقت مجلة اسمها « المستقبل» تنشر نصوص مسرحيات فرقة رمسيس ، وفى احدى هذه المسرحيات ، ولا أذكر اسمها الان ، توقفت عنـــد عبارة تقول :

« حتى الشيطان كان خليقا أن ينصح لو كان أبا »

وأخذت أفكر فيما يمكن ان يحدث لو كان للشيطان ابن من البشر ، ثم بدأت أتأمل فى قصة الشيطان كما وردت فى القرآن ، وكلما تأملت فيهـا تأكدت فى ذهنى فكرة ان الشيطان قد تأصل الشر فيه لانه كان هدفا لتجمع ضده .. الملائكة جميعا فى صف ، وهو وحده فى صف محروم من الحب . فلو أمكن أن يتسرب الى حيـاة الشيطـان بصيص من الحب ، أى لو عثر على من ينحاز الى صفه ، ولو كان شخصا واحدا ، وكان من الممكن أن يحب هـذا الشخص لما ظل شيطانا .. وعلى هذا الاسـاس تفرعت فكرة القصة

**● ولماذا اخترت أن تعيد كتابتها فى شكل مسرحية ؟**

ـ الواقعة فى القصة محدودة والشخصيات قليلة ،فهى من هاتين الناحيتين أصلح للعلاج المسرحى . والحقيقة انى لا أكف عن التفكير فى اعادة كتابتها كمسرحية أخرى ، لانى أعتقد ان موضوعهـا قادر على تلقى المزيد من الافكـار والتفريعات فى الشخصيات ، انها تدور حول قضيةالانسان الاولى ومستقبل الانسانية

**● من الواضح أنك تأثرت فى « دموع ابليس » بالفكر المسيحى ..**

ـ كثيرون قالوا هذا ، ولعل المخرج ساعد على تأكيـد هذه الفكرة بابراز المهد والشجرة . والحقيقـة اننى لم أقصد الى شيء من هذا ، على الاقل من الناحية الشعورية ، أما من الناحية اللاشعورية فمن الممكن أن يكون هذا التأثر صحيحا ، فأنا كثير القراءة فى حياة المسيح ، شديد التأثر بأفكاره ..

ومن هذا القبيل أيضا ما قاله لى صديق مسـيحى عن مسرحية « اله رغم أنفه » ، اذ أكد أنى لا بد متأثر فيهـا بحياة المسيح ، لانه لم يكف عن نهى أنصاره وحوارييه

عن اعتباره الها ، ولكنهم أبوا مع ذلك الا أن يعتبروه الها ..
والحقيقة أن المسرحية مستوحاة من حادثة واقعية حدثت منذ خمس سنوات فى الهند ، ولنهرو بالذات ، وقد نشرتها الصحف فى حينها

## « عشر شخصيات تحاكم مؤلفا »

**● هناك رأى يزعم أنك قد تأثرت فى مسرحياتك بالكاتب الايطالى « لويجى بيراندللو » ، وبصفة خاصة فى مسرحيتك « عشر شخصيات تحاكم مؤلفا » ..**

— الواقع أننى قرأت مسرحية « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » لبيراندللو بعد أن كتبت مسرحيتى « عشر شخصيات تحاكم مؤلفا » بما لا يقل عن ثلاث سنوات . ولست أقول هذا لانفى عن نفسى تهمة محاكاة بيراندللو ، فأنا لا أجد غضاضة فى الاعتراف بأنى تأثرت به أوحاكيته، فالعمل الفنى ليس مجرد الوقائع ولا شيء أكثر ، بدليل ان الاساطير اليونانية القديمة التى تناولها أكثر من أديب وفى أكثر من عهد ، وكانت وحيا لاكثر من عمل أدبى .. وقد قرأت لبيراندللو أخيرا ، وهو أديب كبير ومن ذوى المقام الرفيع فى عالم المسرح ، ولكنى لست من هواته ..

أما مسرحيتى « عشر شخصيات تحاكم مؤلفا » فكانت محاولة تحضيرية لعمل أكبر ما زال فى حاجة الى دراسة.. وقد بدأت فكرتها عندى على أساس تتبع الشخصيات المسرحية الكبرى مثل « هاملت » و « فاوست » وكيف أنها تنقم على مؤلفيها بسبب القصور الذى ألصقوه بها .. وكان هذا يقتضينى دراسات كاملة لكل هذه المسرحيات ، وما كتب حولها من دراسات ، وصب ذلك كله فى قالب مسرحى متكامل ..

ولم تسمح لى ظروف العمل بالقيام بهذه الدراسات ، وتشعبت عن هذه الفكرة فكرة أخرى تدور حول موقف المؤلف من شخصياته التى خلقها وعدم رضاه عنها ، وعدم رضا هذه الشخصيات عن الصورة التى قدمها بها المؤلف والمصائر التى حددها لها .. فهى محاولة لدراسة علاقة العمل الفنى بخالقه ، والارتفاع بالعمل الفنى على واقع الحياة فيصبح أقوى منها ، وتصبح الشخصيات المتخيلة أقوى من الشخصيات الحية ..

**● فى مسرحيتك « أخلاق للبيع » تصور المجتمع كقوة معادية للفرد تصادر حريته وتعوق سعادته وتقدمه .. ما مصدر هذه الفكرة ؟**

– قوام هذه الفكرة أن العمل الادبى يجب أن يكون هدفه وخز المجتمع ، ذلك انى أعتقد أن المجتمع من أشد أعداء حرية الانسان ، وقد يكون أخطر عليها من القوانين الرجعية والحكومات المستبدة . فنحن نسلم أنفسنا عادة لما تواضع عليه المجتمع ولا نملك أن نثور عليه أو نتمرد لاننا لا نعرف للمجتمع كيانا يتجسد فيه لنوجه ثورتنا نحوه . فالمجتمع فى الواقع هو الخطر الذى يصدر عن أنفسنا ويقيد حريتنا ، ويجعل الكفاح فى بعض الاحيان طريقه مسدودا

لقد وجد الملحدون والذين يجدفون وأعداء الانظمة التى يعيشون فى ظلها ، ولكن يكفى أن يأتى واحد من هؤلاء عملا لا يرضاه المجتمع ، كأن يرتدى زيا غريبا ، أو يصنع لنفسه أسلوبا خاصا فى الحياة يخرج به على مواصفات المجتمع ، حتى يدمره المجتمع ويرميه بالجنون ، فينتهى تماما دون أن يجد من يعطف عليه أو يصفه بأنه مجاهد

**● يخيل الى أن هذه الفكرة نفسها تكررت ، بصورة أو بأخرى ، فى « دموع ابليس » و « اله رغم أنفه » و «المحلل» و ....**

ـ بل هى موجودة فى كل مسرحياتى وقصصى فكلها ليست أكثر من محاولة لتصوير الخطر الذى يهدد حريتنا كأفراد فضلا عن القيود الموضوعة على المفكرين ..

● **هل فى حياتك تجربة أو تجارب معينة تدعوك الى الالحاح فى عرض هذه الفكرة ؟**

ـ لقد عانيت كثيرا فى الفترة التى كنا نلبس فيهــا مناديل محلاوى بدلا من الكرافتات . فبينما كنت أجهــر بآراء سياسية يكاد الكل يجمع على ثوريتها وخروجها على مألوف الاراء السياسية السائدة فى ذلك الوقت، فلا أتعرض بسببها لأى سخرية أو استهجان حتى من معارضى أنفسهم ، اذا بالجميع ينفرون ويسخرون من تصرف خارج على عرفهم كاستبدال المنديل بالكرافتــة ، وحتى المتحررين كانوا يستهجنون تصرفنا

## « شقة للايجار »

● **فى مسرحيتك « شقة للايجار » محاولة للجمع بين اللغة العربية الفصحى واللهجة العامية فى الحــوار ، ما الدوافع التى أملت عليك اتباع هذا الاسلوب ؟**

ـ حينما كتبت « شقة للايجار » بالفصحى والعامية معا ، صدرتها بمقدمة أبرر فيها اتباعى لهذا الاسلوب ، وخيل الى وقتها أنى أقول رأيا لم يسبقنى اليه أحد ، ثم تبينت بعد ذلك أن فرح أنطون قد اصطنع نفس الاســلوب فى مسرحيته « مصر الجديدة » وكتب لها مقدمة يشرح فيهـا أسباب التجائه الى هذا الاسلوب ، وأذكر أيضا أنى شهدت مسرحية للمازنى ، لعلها « غريزة المرأة » وقد استخدم فيها لغة عربية غاية فى الرصانة على ألسنة المثقفين ، ولغــة عامية غاية فى السوقية على ألسنة العوام . ولا أنكر أن

هذا التباين الشديد فى لغة الحوار قد صدمنى وقتها ، لان الامور فى الواقع لا تجرى على هذا النحو ، اذ ليس من المألوف أن يكلم الانسان بائع الخبز مثلا بلغة القرآن

اما حوار « شقة للايجار » فقد قصدت به نقل الواقع نقلا أمينا .. والملاحظ أن المزاوجة بين الفصحي والعامية تجرى في مجالات مختلفة من حياتنا ، فأنا كمحام حين يدور الحديث بيني وبين القاضى قبل المرافعة يجرى بالعامية فاذا بدأت المرافعه لبستنا روح الفصحي .. كذلك الشأن مع المدرس وأستاذ الجامعة ، وقد يسأل التلميذ بالعامية ويجيب عليه المدرس بالفصحي ، وهكذا فى نفس الحديث الواحد حين نناقش أمورا عادية نتحدث بالعامية ، فاذا انتقل الحديث الى مسألة فلسفية أو قانونية تحدثنا بالفصحى ..

لذلك لم أحس أنى فى حوار هذه المسرحية قد جانبت الواقع ، وما زلت أدعو الى اتباع هذا الاسلوب لواقعيته ..

**● تعرضت هذه المسرحية لكثير من الهجوم من جانب النقاد ، ما تفسيرك لذلك وما ردك عليه ؟**

ـ التفسير الاول أنها ليست جيدة ، لانى يجب أن أفترض أن السادة النقاد مخلصون ، وأنهم لا يتأثرون بالنوازع الشخصية ولا بالاعتبارات التى لا تمت للعمل الفنى بصلة ..

وقد يكون سبب الهجوم عدم قيام تعاطف بين المسرحية وبين النقاد ، وهذا يحدث أحيانا فيكون العمل الفنى سيء الحظ حينا ، ثم يتحسن الرأى فيه تدريجيا ، وقد حدث هذا مع أعمال فنية مشهورة أكبر بكثير من « شقة للايجار » ..

وأذكر أن الهجوم اعتمد على أساسين ، أولهمـــا أن الشخصيات التى ظهرت فى الفصل الاول اختفت فى بقية الفصول ، وأن المسرحية افتقدت الوحدة الفنية لهـــذا السبب . وأنا أختلف مع النقاد فى هذه النقطه لا دفاعا عن « شقة للايجار » فحسب ، وانما ايمانا منى بأن العمـــل المسرحي وهو يصور الحياة ويحاول أن يقترب من الواقع يجب أن يفسح مجالاللشخصياتالطارئة التى تظهر وتختفى وفي اعتقادى أن الالتزام بالقاعدة التى تقضى بأن كل من يضع قدمه على خشبة المسرح يجب أن ينضج ويتطـــور ويشارك فى الصراع الرئيسى ، لا بد أن يحرم المسرحية من عناصر حيوية ، ويفرض قيدا على حرية الكاتب قد يضر بالعمل الفنى ..

ان مسرحية « شقة للايجار » تبدأ بشقة خالية تبحث عن مستأجر ، والمفروض أن المترددين على الشقق الخالية هم أشتات من الناس وقد أردت أن اجعـــل هؤلاء المترددين نماذج لما كان يحتشد فى المجتمع الذى تصوره المسرحية من شخصيات تمثل طوائف أو عناصر مفسدة ، ولم تكن هناك أى ضرورة ، لا من العمل الفنى نفسه ولا من طبيعة الأمور ، فى أن تستمر كل هذه الشخصيات لتسهم فى تطور أحداث المسرحية ، وخلق أزمتها ، ثم حلها

والامر الذى خفى على القارىء وعلى المتفرج أن الشخصية التى تلعب دور البطولة فى المسرحية هى الشقة نفسها . كل يحاول أن يملأ فراغها بطريقته ، وتظل هى المتحكمة فى مصائر من يحاولون التحكم فى مصيرها ، وهى التى تتطور وتنضج وتنتقل من شقة خالية الى « جارسونيرة » الى مقر جمعية خيرية ، ثم تصبح فى النهاية جريدة سياسية وطنية ، وجميع المترددين عليها يشغلون المكانة الثانية أو الثالثة بعدها هى ، كل حسب مقدار اتصاله بها

والنقد الآخر الذى أذكره كان موجها الى بطل المسرحية لانه يتطور فجأة من النقيض الى النقيض بلا تبرير ، فهذا « عزت » يتحول من رجل داعر الى مجاهد وطنى • والواقع أن أحدا لم يمر فى تطور وتدرج مثلما مر « عزت » ، فقد بدأ رجلا يبحث عن اللهو والمتعة الجسدية ، ثم حدثت له صدمة نتيجة الليلة التى قضاها مع فتاة فى سن ابنتـــه وتشبهها ، ثم عرضت عليه هذه الفتاة بطريق المصـــادفة مشكلة دامية هزته من أعماقه ، ولكنه لم يتحول فى الحال الى بطل ، بالعكس لقد دخل الســـجن وهو لا يتوقع أن يحدث فيه أى تحول ، وكان يعتقد أنه سيبقى فى السجن أياما قليلة ، ولكن ما شاهده فى السجن ، من آلام الناس وفقرهم وحبهم له واحترامهم لشخصه ، كان بمثابة تحضير وحين خرج لم يعمل بالسياسة ، بل اشتغل فى الجمعيات الخيرية ، فتوالت عليه مع مرور الايام والاسابيع صـــور أصبحت كجرعات متوالية من الاشمئزاز من الاوضـــاع الاجتماعية السائدة ، ثم ساعد بعد ذلك ارتباطه بالفتاة وخطيبها الكاتب الصحفى على أن ينتهى على مهل الى ما انتهى اليه

## مصر وعاء حضارى

**● ما العمل الأدبى الذى يشغلك هذه الأيام ؟**

ـ لدى أكثر من مشروع ، وهذه ظاهرة ليست طيبة ، لان الانسان عندما يتهيأ لعمل فنى ، يستبد به هذا العمل ويطرد كل المشروعات الاخرى ، وأرجو أن تتحقق هـــذه الحالة خلال الايام القليلة القادمة ، فقد فرغت من مراجعة وتصحيح كتابى الاخير « مع الانسان فى الحرب والسلام » وسوف يصدر قريبا • أما المشروعات التى تشغلنى ، فمن

بينها تصوير للحياة الادبية كما عاصرتها فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٥٠ مع صور قلميـــــة للادباء الذين عرفتهم واتصلت بهم كشوقى ، وحافظ ، ومطران ، والعقـاد ، ومى ، ومصطفى عبد الرازق ٠٠ وأحمد أمين ٠٠

وهناك مشروع آخر لكتابة تصوير فنى لفترة الطفولة من حياتى ، مع الاهتمام بابراز البذور الاولى لعلاقة الانسان بالله والدين وبالجنس الآخر قبل المراهقة ٠ أما المشروع الثالث فهو تحويل احدى قصصى القصيرة وهى قصـــــة « ناظر الوقف » الى مسرحية عنوانها « يا بدر » وقد أوشكت على الانتهاء منها

**● وما العمل الادبى الذى تتمنى أن تكتبه ؟**

ـ أتمنى أن أكتب تاريخا شاملا للمائة سنة الاخـيرة من تاريخ مصر ابتداء من مقدمات الثورة العرابية ، مع التركيز بصفة خاصة على الفترة الاخـــيرة التى عاصرتها ابتداء من ثورة ١٩١٩ وما تبعها ٠ ولن يكون هذا الكتاب بحثا فى التاريخ بقدر ما سيكون تصــــويرا للجوانب الانسانية والاجتماعية والادبية التى كونت مصر الحديثة ٠ وفى كتابى الصغير « أخى المواطن » فكرة أرجو أن أنميها وأطورها فى هذا الكتاب الجديد ٠ وخلاصة هذه الفـكرة أن مصر كوطن هى ذاتها رسالة فنحن نقول ان الاســـلام رســـالة ، والمسيحية رسالة ، كذلك أعتقـــد أن مصر بتاريخها وآثرها فى الامم والحضارات وبدورها الذىأدته على مر العصور ، مصر بهذا كله رسالة ٠ وأملى أن أوفق الى توضيح ذلك والتدليل عليه مستندا الى وقائع التاريخ وأحداثه ٠ ان مصر وعاء حضارى ، بمعنى أنها لا تنبت فى أرضها كل حضارة ، وكل حضارة تلقتها مصر لفظت منها جوانب واستبقت جوانب أخــرى ، وما تســـتبقيه من

الحضارات التى اتصلت بها أو ماتت فيها هو نفسه الذى استبقته دائما على مر العصور ، وذلك يدل على أنهـــا مهيأة للقيام بدور معين فى حياة الامم والشعوب كلهـــا ، لقد خلقت لاداء هذا الدور وهى تؤديه فعلا ، ولو حـدث وتوحدت شعوب العالم ذات يوم وأصبحت للعالم حكومة واحدة ، فأنى أتصور أن عاصمة هذه الحكومة لن تكـون سوى القاهرة

**( نوفمبر ١٩٦٤ )**

— ١٠ —

# نجيب محفوظ

* أنا رائد الشعر الجديد بلا منازع !

* بعد أزمة النشر .. جاءت أزمة الاهمال ..

* حين ذهب المجتمع القديم ذهبت من نفسي كل رغبة في نقده ..

حين قررت أن أجرى هذا الحديث مع نجيب محفوظ ، كان فى ذهنى الى جانب الاسهام فى تكريمه لبلوغه الخمسين من عمره ، المديد ان شاء الله ، هدف آخر أهم .. فالذى لا شك فيه أن نجيب محفوظ أصبح يمثل قمة سامقة فى أدبنا الحديث ، وهى قمة حية متطورة نستطيع أن نبارى بها قمم الأدب الغربى .. ومن تتبعى لأعماله ودراستى لبعضها ، ومن اتصالى الشخصى به أدركت أنه لم يصل الى هذه المكانة عن طريق الصدفة ، أو عن طريق الموهبة وحدها ، وانما بلغها بمجهود شاق مضن .. وقراءات عديدة منظمة ، وجهاد للنفس وحرمان لها من كثير من رغائبها ونزواتها ، ولولا ذلك ما استطاع أن يكون نجيب محفوظ الذى نعرفه اليوم والذى اشتركت فى تكريمه والاحتفاء به كل الهيئات الرسمية وغير الرسمية وكل الادباء والفنانين والنقاد من مختلف الاجيال والمدارس ، بعد أن أحسوا جميعا ان اشتراكهم فى تكريمه انما هو فى حقيقة الامر تكريم لانفسهم ، واعتراف بفضل أصبح ثابتا مقررا لا مجال الى الانتقاص منه أو التهوين من شأنه ..

لذلك كان هدفي من هذا الحديث أن أقدم للقــراء وللأدباء الشبان بصفة خاصة ، نموذجا للكفــاح الأدبي الجاد ، وقدوة يحتذي بها في مجال الكفاح الفني الشاق ، ليعلموا أن القمم لا تبلغ بالعلاقات الشخصية أو نفــاق النقاد ، وأن الدعاية وغزارة الانتاج الضحل قد تنجحـان في خـــداع السـذج من القراء والقارئات بعض الوقت ، ولكنهما أبدا لا تصلان بصاحبهما الى القمة الســـامقة الثابتة التي بلغها نجيب محفوظ عن طريق الجهاد الشاق في تثقيف نفسه ومقاومة رغائبها ، واعتبار الأدب حياته التي لا يستطيع الا أن يعيشـــــها دون أن يشغل نفسه بانتظار ثمار مادية أو أدبية لترهبه في محراب الفن ...

وكان من الطبيعي ـ مع هذا الهــدف في ذهني ـ أن يكون ســـؤالي الاول عن قراءاته .. كيف بدأت ، وكيف تطورت ، وطلبت منه أن يجيب بتفصيل واســـهاب .. وصمت نجيب محفوظ ، وبدا أن السؤال راقه ، ووضع يده على جبهته كمن يحاول أن يتذكر ، وقال :

ـ اني أحاول أن أركز ذهني لأعطيك الاجابة الدقيقة التي تريدها ..

وبعد قليل بدأ يتحدث :

ـ بدأت قراءاتي بالروايات البوليسية .. « سنكلير » و « جونسون » و « ميلتون توب » وغـيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف ، وكانت منتشرة هي وأمثالها في أيام طفولتنا ، ولم تكن هناك بالطبع كتب خاصة بالأطفال على أيامنا . لذلك كانت هـذه الروايات هي كل قراءاتي الاولى في أواخر المرحلة الابتدائية وأوائل الثانوي ..

**● هل تذكر كيف اهتديت الى هذه الروايات ؟**

ـ لا أذكر على وجه التحديد ، ربما استعرت أول رواية من زميل لى فى المدرسة الابتدائية ، فأعجبتنى وعرفت أماكن شرائها .. كنا نذهب كل يوم جمعـــه الى سينما « أوليمبيا » فنشهد أفلام المغـــامرات العنيفة ، ونخرج لنجد هذه الروايات معلقة تحت بواكى شارع محمـد على فنشتريها لنعيش مرة أخرى فى هذا الجو الصـــاخب العنيف الذى يصنعه فى أخيلتنا أبطال القصص والافلام

تأتى بعد ذلك مرحلة المنفلوطى ،وما أدراك ما المنفلوطى وأثره الخطير فى تهذيب النفوس ، ومع المنفلوطى ،وبعده، كنت أقرأ مترجمات « الاهرام » ، وهى روايات تاريخية فى الاغلب لبول كين ، وتشارلز جارفيس وغيرهما .. كانت تنشر مسلسلة فى جريدة « الأهرام » ، ثم تجمع فى كتب بعد ذلك ..

وبعد ذلك تأتى مرحـــلة اليقظة على أيدى طه حسين ، والعقاد ، وسلامة موسى ، والمازنى ، وهيكل ، وبعد فترة أسهم فيها تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ويحيى حقى ..وأنا أسمى هذه المرحلة مرحلة التحرر من طريقة التفـــكير السلفية ، وطريقة التذوق السلفية ، والتنبه الى الأدب العالمى ، والنظر الى الادب العربى الكلاسيكى نظرةجديدة، مع الاطلاع على نماذج أشبه ما تكون بالأمثـــلة للقصة والاقصوصة ، وتلخيصات لأشهر المسرحيـات العالمية ، ثم جاءت أمثلة المسرحية المؤلفة على يد توفيق الحكيم ..

وحين دخلت الجامعة مررت بفترة تعتبر فترة تشـبع بالقراءات الفلسفية على أســـاس أنى ســـأتخصص فى الفلسفة ، مع اطلاعات محدودة جدا فى الادب . وبعد أن تخرجت ظللت نحو سنتين مقبلا على القراءات الفلسفية مع وضوح ميلى بعض الشىء للقراءات الادبيـــة ، ويتضح

هذا الميل فى اختيارى لموضوع رسالة الماجستير وكانت عن ( فلسفة الجمال ) ، وهو كما ترى أقرب الدراسات الفلسفية لموضوع الادب والفن

## دراسة الأدب العالمى

**● دون أن أقطع تسلسل ذكرياتك ٠٠ ألاحظ أنك لم تذكر شيئا عن الادب العربى القديم ٠٠ ألم تقرأ فيه طوال هذه المرحلة ؟**

ـ بل قرأت كثيرا ، وفى مرحلة مبكرة من التعليم الثانوى ٠٠ قرأت ( البيان والتبيين ) للجاحظ ، و ( الأمالى ) لأبى على القالى ، و ( العقد الفريد ) لابن عبد ربه ، وأمثالها من المؤلفات الموسوعية ٠٠ وأذكر أنى كنت أستعير بعض عباراتها فى موضوعات الانشاء ،وكان ذلك يثير عجب أساتذة اللغة العربية ودهشتهم

وبعد فترة اليقظة التى حدثتك عنها استمرت القراءات فى الادب العربى القديم ولكن بعقلية جديدة ، واتجهت للشعر أكثره، وبخاصة أبى العلاء المعرى ، والمتنبى ، وابن الرومى ٠٠

أعود بعد ذلك الى النزاع بين الادب والفلسفة الذى سيطر على عقلى عقب التخرج فى الجامعة ، لقد انتصر الادب على الفلسفة كما تعلم ، وبدأت أدرس الادب بصورة منظمة ، ولما لم يكن لى مرشدمن قريب أو أستاذ يوجهني، فقد اعتمدت على كتب تاريخ الأدب العالمى ، مثل كتاب ( درينكووتر ) المشهور ، واعتمادى على هذه الكتبجعلنى أدرس الأدب قرنا قرنا دون أن أتخصص فى أدب أمة بالذات ، ووجدتنى أنظر الى الآداب العالمية وكأنها أدب

واحد لا آداب شعوب مختلفة . ولما كانت قراءاتي للادب العالمي قد بدأت متأخرة ، فقد اقتصرت على قراءة الروائع، ووجدت أن أسلم طريقة هي أن أبدأ بالعصر الحديث ما أمكن ، وكان من أثر ذلك أن ضاعت مني فرصة قراءة بعض القمم الادبية لأني بعد أن قرأت تلامذتهم ، لم يعد باستطاعتي أن أعود اليهم

وهكذا بدأت منذ سنة ١٩٣٦ بقراءة الادب الحديث الواقعي والطبيعي والقصة التحليليه ، وبعد ذلك المغامرات الأدبيه الحديثه كالتعبيرية عند ( كافكا ) والواقعية النفسية عند ( جويس ) ، والغاء الزمن في القصة عند « بروست » ..

و ( جويس ) و ( بروست ) هما عماد الأدب الحديث في القصة كلها

**• أريد أن أستوضح النقطة الخاصة بالقمم الادبية التي فاتتك قراءتها لانك كنت قرأت تلامذتهم ..**

— أعني بذلك أنني عرفت الواقعية عند أدباء معاصرين أتقنوا أسلوبها وطوروه مثل ( جولسورثي ) و ( ألدوس هاكسلي )و ( د . هـ . لورانس ) .. فلم يعد باستطاعتي بعد ذلك أن أقرأ ( ديكنز ) .. وكذلك لم أستطع قراءة ( بلزاك ) بعد أن قرأت ( فلوبير ) و ( ستندال ) مع أني أعلم أن بلزاك عبقري وهو خالق الواقعية كلها ، ولكن لم يكن باستطاعتي أن أحتمله وهو يصف مشهدا في ٨٠ صفحة مثلا .. لقد قرأت مذهبه واتجاهه بعد أن تهذب وتطور عند اناس غيره ..

**• وما هي أهم الاعمال الادبية الاخرى التي قرأتها ؟**

— من الادباء الروس قرأت لتولستوي ودستويفسكي وتورجنيف ، وتشيكوف ..

● **وجوركى ؟**

– قرأت جوركى بعد هؤلاء ، وأنا لا أضعه فى صفهم ، ففى كثير من رواياته يتضح الادب الهادف الذى لا تستطيع أن تتذوقه الا اذا انغمست فى الهدف ، أما بدون ذلك فيبدو لك محدود النظرة لا يتمـــــاس بأدب أولئك الادباء الانسانيين الكبار

ومن الفرنســــيين قرأت : أناتول فرانس ، فلوبير ، وبروست ، ومالرو ، وموریاك ، ثم سارتر وكامى وأضرابهم

ومن الانجليز : شكسبير ، وويلز ، وشو ، وجويس ، وألدوس هاكسلى ، ولورانس ..

وفى الأدب الالمانى : توماس مان ، وجوته ، وأديب ثالث ينتسب الى الأدب الالمانى وان لم يكن ألمانيا وهو كافكا ..

ومن الادب الامـــريكى ، قرأت هيمنجواى ، وفوكنر ، ودوس باسوس ، وأونيل ، وحـــديثا تنيسى ويليـــامز وارثر ميلر

ومن أمم الشمال ابسن ، وسترندبرج

ولا يعنى هذا أننى قرأت كل أعمال هؤلاء الادباء ، بل قرأت لكل منهم عملا أو عملين وربما ثلاثة هى التى اصطلح النقاد على أنها أروع أعمالهم

دراسة الفنون .. والعزف على القانون

---

● **هل أفهم من ذلك أن قراءتك منذ عام ١٩٣٦ أصبحت مقصورة على الأدب ؟**

– أبدا ، فقراءاتى الفلسفية لم تتوقف منذ ذلك الحين وإن كانت قد انكمشت نتيجة لطغيان الادب عليها ، وأعنى

بالقراءات الفلسفية ، الفلسفة بمعناها الضيق كالميتافيزيقا والابستومولوجي وغيرهما ، وكذلك العلوم المتصلة بالفلسفة كعلم النفس والاجتماع وفلسفة الجمال ، وهذه الفروع الاخيرة استأثرت بجانب كبير من اهتمامي في تلك المرحلة وقرأت فيها كثيرا .. ترى أين ذهبت كل هذه القراءات ؟ .. يخيل الى أن الثقافة الحقة كالغذاء يتمثله الجسم ويستفيد منه وان لم يبق له أثر واضح فيه ..

وبناء على نصائح بعض المفكرين ـ كالعقاد وتوفيق الحكيم ـ صممت على دراسة الفنون المتصلة بالادب ، فبدأت بالفنون التشكيلية ، التصوير والنحت والعمارة ، وقرأت كتب تاريخ الفن العالمي ، الفن الفرعوني والاغريقي وفن عصر النهضة ، ثم الفن الحديث حيث تتعدد المذاهب وتتنوع ، وتتعدد بالتالى الكتب والمؤلفات ..

أما الموسيقى فلها لغة خاصة لا تدرس في الكتب ، فاستعضت بالسماع

**● ولكنى أعلم أنك هويت العزف على القانون في مرحلة مبكرة من حياتك ..**

ـ هذا صحيح ، ولكنه فى فترة سابقة على هذه الفترة التى نتحدث عنها .. فأثناء دراستى فى كلية الآداب كنت مغرما بدراسة فلسفة الفنون أو علم الجمال ، وكنا لا نمتحن فى السنة الثالثة ، فقررت أن أنتهز فرصة فراغي بعض الوقت لأدرس الموسيقى عمليا على أمل أن أصل الى فلسفة الجمال فيها ، فالتحقت بمعهد الموسيقى العربية ، واخترت آلة ( القانون ) ، وانتظمت في حضور الدروس ، وتعلمت النوتة ، وحفظت عدة بشارف .. ما زلت أحفظ حتى اليوم واحدا منها بالنوتة هو (السماعى الدارج ) ..

وأذكر أن المرحوم محمد العقاد كان يثنى على استعدادى الموسيقى ، ويتنبأ لى بمستقبل كبير بين عازفى القانون..

ولكنى بعد حوالى عام من الدراسة اكتشفت أنى لن أصل الى أى شيء مما تصورته ، وأنه لا صلة مطلقا بين تعلم العزف على القانون وبين فلسفة الجمال

وفاتنى كذلك أن أحدثك عن ناحية هامة من قراءاتى وهي كتب خلاصات العلوم ، فى البيولوجي ، والطبيعة ؛ وأصل المادة ، فقد صدرت أيام الدراسة مكتبة شبه علمية من تأليف وترجمة الدكتور صروف واسماعيل مظهر وسلامة موسى وغيرهم ، وكنت أقرأ هذه الكتب باهتمام شديد ، وأعتقد أن لها أثرا كبيرا فى ثقافتى وتفكيرى ..

**● ماذا عن قراءاتك فى السنوات الأخيرة .. سنوات الانتاج ؟**

ـ الواقع أن السنوات الاخيرة هزت قراءاتى بشكل عنيف .. فقد ازدحم العمل فى الرقابة ثم فى مؤسسة السينما .. وضاق بالتالى وقت القراءة وربما كان للسن والصحة دخل فى ذلك أيضا .. على أننى أحمد الله أننى قرأت فى وقت الفتوة الروايات القمم مثل « الحرب والسلام » لتولستوى و « البحث عن الزمن الضائع » لبروست وتقع فى ثمانية أجزاء ضخمة و « يوليسيس » لجيمس جويس وتقع فى حوالى ثمانمائة صفحة ، وشرحها لستيوارت جيلبرت فى ثمانمائة صفحة أخرى ..

وكذلك معظم مؤلفات شكسبير وجوته ، قرأتها باستمتاع شديد .. أما الان فقد انكمشت القراءات فى كل مجال ما عدا الادب ، وأصبح من الصعب أن أقرأ كتابا فى علم النفس مثلا ، وأصبحت افضل قراءة كتاب

فى الفلسفة بمعناها الحق على كتاب فى علومها ، وأفضل المسرحية على الرواية ، والاقصوصة على القصة .. وهكذا ..

ولولا المترجمات لساءت الحالة اكثر .. فالفضل فى استمراري فى القراءة يرجع أساسا الى مترجمات لبنان ووزارة الثقافة ، فعن طريقها قرأت « بسترناك » والمؤلفات الاخيرة لسارتر ، وكامى ، وهيمنجواى واضرابهم . فالقراءة باللغة الاجنبية تحتاج الى وقت وتركيز ، والكتاب الذى تاتى عليه وهو مترجم فى اسبوع قد تحتاج قراءته بلغته الاصلية الى شهر مثلا ، وأنت تعلم أن وقت فراغى الاول أصبح مخصصا للكتابة وكل ذلك على حساب القراءة بطبيعة الحال

## درجة العشق

● **بأى لغة قرأت كل هذه الروائع التى ذكرتها ؟**

ــ قرأت معظمها بالانجليزية وبعضها بالفرنسية ، فاذكر مثلا أنى قرأت أناتول فرانس باللغة الفرنسية ، وأناتول فرانس بالذات يخدع لان لغته الفرنسية أسهل من العربية .. انه معجز حقا من ناحية سهولته ، وبدأت بعده أقرأ بنفس العضلات « فلوبير » فوجدت أنى لا بد أن أفتح القاموس على حوالى ٣٠ كلمة فى كل صفحة ، ففضلت أن أقرأ ترجماته اما الى الانجليزية أو العربية . ونفس الشىء ينطبق على أدباء فرنسا من « بروست » ومن تلاه ..

● **وماذا تقرأ الآن ؟**

ــ أقرأ مسرحيتين مترجمتين لسارتر هما « الاله الطيب والشيطان » و « سجناء التونا »

● **هل أفهم من هذا أنك تقرأ فى كتاب واحد حتى تنهيه**

**ثم تبدأ فى غيره أم أنك تقرأ فى عدة كتب فى وقت واحد كما يصنع بعض الأدباء والمفكرين ؟**

ـ انا أقرأ فى الكتاب ولا أتركه حتى أتمه ، ثم أبدأ فى غيره .. وهذه طريقتى فى القراءة منذ زمن بعيد ..

**● هل تأثرت فى أدبك تأثرا مباشرا ببعض من قرأت لهم من الأدباء العرب والأجانب ؟**

ـ التأثر يستطيع أن يراه شخص خارج الاديب ، وأرجو الا تسألنى فى أشياء تستطيع أنت أن تجيب عليها . لو انى درست أديبا بعينه فى كل مؤلفاته لاستطعت أن أجيبك بسهولة ، ولكنى كنت دائما أقرأ مختارات أو منتخبات من مؤلفات كل أديب .. على أنى أستطيع مع ذلك أن أقول بشكل عام أن من تأثرت بهم تأثرا مباشرا هم من أحببتهم الى درجة العشق ، وهم من القدماء شكسبير ، ومن أدباء القرن التاسع عشر تولستوى ، ودستويفسكى ، وتشيكوف . ومن الادب الحديث بروست ، وتوماس مان ، وكافكا ، وكذلك بعض الكتاب المسرحيين مثل : أونيل ، وشو ، وأبسن ، وسترندبرج

## سلامة موسى والعقاد

**● هل كان لسلامة موسى أثر قوى فى تكوينك الفكرى كما يذهب بعض الباحثين ؟**

ـ نعم ، كان لسلامة موسى أثر قوى فى تفكيرى ، فقد وجهنى الى شيئين مهمين هما العلم والاشتراكية ، ومنذ دخلا مخى لم يخرجا منه الى الآن .. وكان الاديب الوحيد الذى قبل أن يقرأ رواياتى الاولى وهى مخطوطة ، قرأ ثلاث روايات وقال لى أن عندى استعدادا ولكن الروايات غير صالحة للنشر ، ثم قرأ الرواية الرابعة

وكانت « عبث الاقـــدار » وأعجبته ونشرها كامـلة فى « المجلة الجديدة » ، كما قرأ أول اقاصيص كتبتها ونشر بعضها قبل « الرواية » و « مجلتى »

**● والعقاد .. ألاحظ أنك تذكره دائما مقرونا باعجاب خاص .. هل كان له أثر معين فى تفكيرك ؟**

ـ بالطبع ، لقـد خلق عندى قيما عزيزة أولهـا قيمة الادب كفن ســـام لا وسيلة تكسب ، وكان دائما يرتفع بالفن الى مستوى الرســـائل المقدســـة ، وثانيها اهمية الحرية فى الفكر وفى حياة الانســـان عموما ، ثم نظرياته النقدية فى الشـــعر التى جعلتنى أتذوق الشـــعر تذوقا جديدا ، وكذلك عرفت عنده أول قصة تحليلية نفســـية وهى « سارة »

## رائد الشعر الجديد !

**● ننتقل الآن الى قصتك مع الكتـــابة .. هل تذكر متى انبعثت فى نفسك الرغبة فى الامساك بالقلم وكتابة شيء خاص بك تعبر به عن مشاعرك أو عن أشياء رأيتهـا وتريد أن تحدث بها غيرك ؟**

ـ الواقع أن الرغبة فى الكتابة كانت موجودة من زمن قديم حتى قبل تبين دوافعها ، ففى أيام ادمان القصص البوليسية ، كنت أعيد كتابة بعضها فى كراسة خاصة وأكتب عليها اسمى

**● هل تعنى أنك تكتب مثلا قصة « سنكلير » بقـلم : نجيب محفوظ ؟**

ـ يا ريت « بقـلم » .. فمعنى هـذا توفر شيء من الامانة .. كنت أكتب عليها : «تأليف نجيب محفوظ» !..

ومع قــراءاتى للمنفلوطى كنت أؤلف « نظــرات » و « عبرات » .. وأذكر انى فى هذه الفترة كتبت الشعر .. كنت أكتبه فى بادىء الامر موزونا ، ولكن كانت بعض الابيات تنكسر منى .. وحينما وجدت الابيات المكسورة كثيرة أطلقت الشـــعر وحررته من الوزن ، فكنت رائد المدرسة الحديثة فى الشعر بلا منازع !.. لان هذا يرجع الى سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦

**● هل تذكر موضوعات قصائدك ؟**

ـ كانت كلها فى بادىء الامر تدور حول الحب ، وربما ذكرت فى بعض القصائد علاقات معينة وأسماء بطلاتها .. ثم بدأت أكتب الى جانب هذا اللون قصائد أخرى تتصل بمشاعرى الخاصـــة كفرحتى بالعيـــد ورمضـــان ونحو ذلك ..

**● ألم تقل شيئا من شعر الوطنية ؟**

ـ لا أذكر .. والواقع أن فترة الشعر لم تطل ، فقد عاودت التـأليف مع قــراءاتى للمجــددين ، فحين قرأت « الايام » لطه حسين ألفت كراسة ـ أو كتابا كما كنت أسميها وقتذاك ـ أسميتها « الاعوام » رويت فيها قصـــة حياتى على طريقة طه حسين ..

**● أما زلت محتفظا بهذه الكراسة الى اليوم ؟**

ـ نعم ، أعتقد أن الشـــعر والكراســـة موجودان وان احتاجا الى نبش كثير حتى أعثر عليهما ..

**● أرجو أن تحتفظ بهما وبغيرهما من كتـاباتك الاولى فسنحتاجها بلا ريب حينما ندرس أدبك الدراسة العلمية الواجبة ... هل نواصل رحلتنا مع المحـــاولات الاولى للتأليف ؟ ..**

ـ نعم ، بعد ذلك ومع تعرفى الى آراء المجددين فى أدبنا ،

والتفاتى الى شعر المتنبى وابى العلاء ألفت كراسة اخرى وضعت فيها فلسفتى فى الحياة والكون والخالق ، وحينما تقرأ ما كتبته فى تلك السن المبكرة تحس انك تقرأ لشخص قد احاط بكل شيء علما ، وأصبح له رأى حاسم فى كل المشكلات التى حيرت كبار الفلاسفة والمفكرين ! ..

وتأتى بعد ذلك مرحلة أخرى أكثر نضجا بدأت فى أواخر الثانوى وأوائل الجامعة واستمرت عدة سنوات كنت أكتب خلالها المقال ، والنقد الادبى ، وتلخيص المسرحيات ، والاقصوصة ، والرواية ، وكان يساعدنى على ذلك أن العطلة الصيفية كانت أربعة أشهر وكانت تمتد فى معظم الاحيان الى خمسة ..

## الرواية الأولى

**● وما أول عمل نشر لك ؟**

ــ كانت المقالة أسبق فى الظهور من الاقصوصة والرواية ، فما أكثر الاقاصيص التى رفض نشرها ، وكانت أيام عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقال يرد .. على أن المقال كان أسرع فى القبول من الاقصوصة، ولذلك فقد انصرفت بعض الوقت الى كتابة المقالات ..

وأذكر أن أول مقال نشر لى كان عن ( تطور الظاهرات الاجتماعية ) ... كما نشرت بحثا من عدة مقالات عن فكرة ( الله ) وتطورها ..

**● وماذا كان احساسك وأنت ترى اسمك مطبوعا لأول مرة ؟**

ــ الحقيقة أنى رأيت اسمى مطبوعا قبل نشر هذه المقالات الاولى فقد كنت فى صباى حريصا على الكتابة الى محررى الابواب الثابتة فى الصحف اما مؤيدا لآرائهم

لينشروا اسمى ، أو مخالفا لرأيهم لينشروا اسمى أيضا ولو مقرونا بالسباب !!..

● **وكيف تحولت من كتابة المقال الى الاقصوصة ؟**

ـ الواقع أنى لم أتحول ، فقد كنت أكتب المقال مع الاقصوصة والرواية ، وكان المقال يقبل والاقصوصه والرواية ترفضان ، وجاء وقت قبلت فيه الاقصوصة فانصرفت الى كتابتها ونشرها ، وان لم أمتنع فى الوقت نفسه عن كتابة الرواية ..

● **قرأت مرة أنك كتبت خمسمائة أقصوصة ..**

ـ غير صحيح ، لقد كتبت حوالى خمسين أقصوصة مزقتها ، ونشرت فى الصحف حوالى ثمانين ، اخترت منها ثلاثين فى كتاب ( همس الجنون )

● **وما قصتك مع الرواية ؟**

ـ لقد بدأت أؤلفها قبل أن أتخرج من الجامعة وبعد تخرجى حتى تجمع عندى ثلاث روايات لا أمل فى نشرها بعد أن طفت بها على جميع الناشرين ..

وفى سنة ١٩٣٩ نشر لى سلامة موسى أول رواية وهى ( عبث الاقدار ) وفى سنة ١٩٤٣ نشر عبد الحميد السحار الرواية الثانية ( رادوبيس ) ، وأثناء هذه السنوات كنت ألفت روايتين أخريين هما : (كفاح طيبة) و ( القاهرة الجديدة )

● **هل أفهم من ذلك أنك نشرت كل مؤلفاتك فى الرواية حتى التى كتبتها قبل التخرج فى الجامعة ؟**

ـ لا ، فقد كتبت روايات كثيرة لم تنشر ، منها ثلاث قرأها سلامة موسى كما أشرت من قبل ، وأذكر ان واحدة منها كان اسمها ( أحلام القرية ) .. وتستطيع أن تتصور موضوعها من عنوانها .. وبعد سنة ١٩٣٩ أغلقت مجلة « الرواية » وكنت أنشر فيها معظم أقاصيصى ، وحددت

أزمة الورق عدد صفحات الصحف والمجلات ، فلم تعد تهتم كثيرا بنشر الاقاصيص فانصرفت بكل جهودى الى الرواية حتى جاء عبد الحميد السحار وانشأ دار النشر للجامعيين فانفكت بها أزمة النشر بالنسبة الى والى عـــــدد كبير من أدباء جيلى ..

وبعد أزمة النشر جاءت أزمة الاهمال ، وبهذه المناسبة يهمنى أن أذكر اول ناقدين كتبا عن مؤلفاتى فى مجلة « الرسالة » وهما « سيد قطب » و « أنور المعداوى » فقد كان لهما الفضل فى انتزاعى من الظلام الى النور ..وأول رواية كان لها صدى فى العالم العربى هى « القـــاهرة الجديدة » ، وحققت « خان الخليلى » نجاحا أكبر ، ثم اذا « بزقاق المدق » تغير الموقف تماما وان ظلت الكتابات عن مؤلفاتى فى العالم العربى ــ فى سوريا والعراق ولبنان ــ اكثر منها فى مصر بنسبة خمسة الى واحد ..

أتعلم ما الذى جعلنى أستمر ولا أيأس .. لقد اعتبرت الفن حياة لا مهنة ، فحينما تعتبره مهنة لا تستطيع الا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة ، أما أنا فقـــد حصرت اهتمامى بالانتاج نفسه وليس بما وراء الانتاج .. كنت اكتب واكتب لا على أمل أن ألفت النظر الى كتاباتى ذات يوم ، بل كنت اكتب وانا معتقد انى سأظل على هذا الحال دائما .. اتعرف عناد الثيران ؟ .. انه خير وصف للحالة النفسية التى كنت أعمل بتأثيرها ..

## بين الفلسفة والأدب

● **لماذا اخترت قسم الفلسفة بالذات فى كلية الآداب ؟**

ــ كان الادباء الذين أثروا فى ، وأنا فى أواخر المرحلة الثانوية ، يمثلون ثورة فكرية أكثر منها أدبية ، فطه حسين

وسلامة موسى والعقاد قدموا لنا أفكارا ومناهج فكرية أكثر مما قدموا لنا نماذج أدبية

وحتى الادباء والشعراء الذين وجهونا الى الاهتمام بهم كأبى العلاء والمتنبى وابن الرومى يغلب عليهم الطـــابع الفكرى • وعلى ضوء تأثرى بهذه الافكار يتضح سبب اختيارى لدراسة الفلسفه • على أنى لم أهمل قراءةالادب اثناء دراستى للفلسفة ، وسارا فى توائم طوال فترة الدراسة ، وان كانت الغلبة للفلسفة بطبيعة الحال ،وبعد التخرج مررت بفترة تنازع بين الفلسفة والادب عذبتنى كثيرا ، وأحسست أن على آن اختار بينهما ، وبلغت هذه الازمة قمتها وانا اعد رسالتى للماجستير مع المرحـــوم الشيخ مصطفى عبد الرازق •• فقطعت العمل وأنا فى منتصف الرسالة ، اذ أحسست أن كل تقدم فيها يزيد من حدة التمزق المؤلم فى نفسى ••

● **هل كان هناك عامل حاسم فى هذا الاختيار ؟**

ــ ليس هناك عامل خارجى ، فلا شك أن الفلسفة كانت أفيد لى من الناحية المادية ، فقد كنت طالبا متفوقا ، والماجستير بعدها الدكتوراه ثم أصبح استاذا فى الجامعة لا أعانى شيئا مما يعانيه المشتغلون بالادب فى بلادنا • كان الاعقل والاحكم أن أختار الفلسفة ، ولكننى اخترت الادب ، لعله الاستعداد النفسى أو أى عامل داخلى آخر فليس لذلك تفسير واضح ••

● **هل كان لدراسة الفلسفة أثر فى رواياتك ؟**

ــ بالطبع ، فقد لاحظت ، أو لاحظ غيرى ، أن الفلسفة دخلت فى أكثر من عمل من أعمالى • والفلسفة تؤثر فى الاعمال الادبية بصور مختلفة •• فهناك شـــــخصيات متفلســـفة أو متأثرة فى ســـــلوكها وأحاديثها بالافكار

الفلسفية ، وهى كثيرة فى رواياتى • وأحيانا تكون الاعمال الادبية فلسفية كلها كبعض مؤلفات توفيق الحكيم وكامى ، وهذا النوع لا أعتقد أنى قدمت فيه شيئا اللهم الا اذا كانت « اللص والكلاب » ، وان كانت الناحية الاجتماعية تغلب عليها أكثر

وقد حدثنى بعض أساتذة الفلسفة أنهم لاحظوا أنى أنهج منهجا ديكارتيا فى بعض مؤلفاتى ، أى أنى اقيمها على اساس الشك فى كل شىء ثم اصل عن طريق الجدل الى الحقائق ، وأشاروا الى « القاهرة الجديدة » بوجه خاص • وكتب الدكتور نجيب بلدى مقالا عن الفلسفة فى الادب المعاصر ألقى فيه اضواء على الاتجاهات الفكرية فى أدب توفيق الحكيم وبعض رواياتى ، وان كنت لا أذكر المجلة التى نشرت هذا البحث الهام .

**● و « أولاد حارتنا » ؟**

ـ من الممكن اعتبارها رواية تقوم على اساس فكرة فلسفية ، والذين رأوا فيها هذا يقولون انها محاولة لاقامة الاشتراكية والعلم على أساس لا يخلو من صوفية • واعترف لك أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى بمثل هذا الوضوح اثناء كتابتى للرواية ••

## ثلاثة توقفات

**● وقراءاتك العلمية هل لها أثر فى مؤلفاتك ؟**

ـ العلم يؤثر فى منهج تفكير الاديب ونظرته للاشياء اكثر مما يؤثر فى مؤلفاته ، ويتضح هذا فى المدرسة الطبيعية بصورة خاصة • أما القصص العلمية فيكتبها فى الاغلب علماء مالوا للادب مثل « هـ•جـ•ولز » وبمناسبة

حديثنا عن النزاع بين الادب والفلسفة ، وتحـــولى من دراسة الفلسفة الى الاشتغال بالادب يهمنى أن أقول لك ان هذا النزاع يمثل التوقف الاول من ثلاثة توقفات هامة عرضت لى فى حياتى الادبية ..

أما ثانيها فكان حينما هيأت نفسى لكتابة تاريخ مصر القديم كله فى شكل روائى على نحو ما صنع « وولتر سكوت » فى تاريخ بلاده ، وأعددت بالفعـــــل أربعين موضوعا لروايات تاريخية رجوت أن يمتد بى العمر حتى اتمها ، وكتبت ثلاثة منها بالفعل هى « عبث الاقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة » ، وبقى ٣٧ موضوعا جاهزة للكتابة ..

وفجأة اذا بالرغبة فى الكتابة الرومانسية التاريخيـة تموت فى نفسى ، واجدنى اتحول الى الواقعية فى «القاهرة الجديدة » بلا مقدمات ، وظللت غارقا فيها حتى أنهيت الثلاثية فى ابريل عام ١٩٥٢ ، وكانت أمامى ســبعة موضوعات لروايات اخرى فى نفس الاتجاه الـــواقعى النقدى ، واذا بثورة ١٩٥٢ تقوم فتموت معها الموضوعات السبعة من حيث الدافع لكتابتها

واذكر انى عرضت هذه الموضوعات على عبد الرحمن الشرقاوى وبعض الزملاء الادباء ودهشوا لانى لم أكتبها ، فما اكثر الذين بدأوا بعد الثورة ينقدون فى اعمـــالهم الادبية مجتمع ما قبل الثورة ..

أما انا فقد حدث التوقف الثالث فى حياتى الادبية ، اذ حينما ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة فى نفسى لنقده .. وظننت اننى انتهيت ادبيا ، ولم يعد لدى ما أقوله او اكتبه ، واعلنت ذلك وكنت مخلصا فيه ، ولم يكن الامر دعاية كما ظن البعض .. وظللت على هـــذه

الحال من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ لم أكتب كلمة واحدة ، ولم تنبعث فى نفسى رغبة فى الكتابة وكنت أعتبر المسألة منتهية تماما حتى وجدتنى اكتب « اولاد حارتنا » وأنشرها سنة ١٩٥٩

## المؤرخ والفنان

**● بهذه المناسبة اذكر أنى سمعت ناقدا كبيرا يصفك فى ندوة بأنك مؤرخ أكثر منك فنانا ، لان أعمالك خالية من وجهة نظر معينة تعرض من خلالها الاحداث والشخصيات .. وكان يشير الى الثلاثية بالذات .. ما رأيك فى هذا الوصف ؟**

ـ وهل يعرض المؤرخ التاريخ بغير وجهة نظر ؟ .. أين هو هذا المؤرخ ؟ .. ليس هذا هو الفارق بين المؤرخ والفنان ، فالمؤرخ باعتباره عالما يدرس التاريخ كظواهر عامة ويورد من الحوادث والشخصيات ما يؤيد هذه الظواهر ويفسرها ، أما الفنان فيعبر عن الحياة عن طريق العلاقات الخاصة بين شخصيات عادية من أفراد الشعب، والاحداث التاريخية بالنسبة اليه ليست أكثر من عوامل ثانوية تؤثر فى الشخصيات ..

التاريخ أساسا علم من العلوم يعرض لمختلف الظاهرات باعتبارها ظاهرات اجتماعية ويحللها ويفسرها .. الى آخره بخلاف الفن الذى لا تظهر فيه هذه الظاهرات العامة الا من خلال مخلوقات خاصة . واستطيع ان أضيف انه لا يوجد مؤرخ بلا وجهة نظر ، فى حين انه قد يوجد فنان بلا وجهة نظر ، فيكتفى بالتعبير المباشر عن التجارب دون أن يكون وراء هذا التعبير فلسفة معينة

وبالنسبة للثلاثية اعتقد ان فيها وجهة نظر مؤكدة ،

تجدها فى خط سير معين للاحداث يمكن تلخيصه فى كلمتين بأنه الصراع بين تقاليد ضخمة ثقيلة وبين الحرية فى مختلف أشكالها السياسية والفكرية ، وتنتهى الثلاثية بعطف معين لا يصعب على أى قارىء ولم يصعب على أى ناقد تبينه

ووجهة النظر فى العمل الفنى تعرف بالاحساس ، اذ ما أسهل التعبير المباشر عنها ، ولا اعتقد ان احدا قـرأ الثلاثية دون أن تتركز عواطفه فى شىء معين واضح

**● من تتبعى لاعمالك أرى أن اهتماماتك الاجتماعية والسياسة تزداد قوة ووضوحا مع كل كتاب جديد ؟ •• هل أنا مصيب ؟ وما تفسيرك لذلك ان صح ؟**

ـ هذه الاهتمامات موجودة من زمن بعيد •• وهى واضحة حتى فى الروايات التاريخية ، ومع ذلك فأنا لا أستبعد صواب رأيك ومن الممكن تفسيره على ضوء أن هذه القيم أصبحت هى القيم السائدة فى هذا العصر سواء فى الداخل أو الخارج ، ولا استطيع أن أقطع بمدى تحولها فى المستقبل ••

**● كتبت مرة تقول :**

**« علمتنى تجربتى الخاصة أن الموضوع وهو مجرد أفكار وتخيلات يحظى بثقتى الكاملة ، لكن بعد مراجعته عند تنفيذه يفقد على الاقل خمسين فى المائة من روعته ، وعند مراجعته مطبوعا لا يكاد يبقى منه شىء » ••**

**أما زلت مصرا على هذا الرأى ؟ •• وعلى أى أعمالك ينطبق ؟**

ـ هذا احساس عام ما زال موجودا الى اليوم • فالكاتب وهو يكتب يعتقد أن ما يكتبه يعكس كل ما يحس به أى ذروة انفعاله بالتجربة ، وعند قراءته بعد ذلك يتضح له الفارق بين انفعاله فى ذاته وبين التعبير المكتوب عنه ،

فيظهر هذا الهبوط الذى تحدثت عنه . وربما كان هــذا الاحساس حافزا للكاتب كى يؤلف عملا آخر يحاول ان يحقق فيه التوافق بين التعبير وبين الانفصال .. وهكذا ..

**● هل تستطيع أن تضع رواياتك داخل اطار مـذهب أدبى معين ؟**

ــ لو أجبت على هذا السؤال فستكون اجابتى من خلال آراء النقاد . فالذى لا شك فيه أنى وأنا أكتب لم أقصد أن أحقق مثالا مدرسيا . وكتبت كثيرا قبــل أن أعرف المدارس الادبية ، كل ما أكنت أعرفه هو نماذج معينة من مختلف المدارس . واذا كنت آمنت فى وقت من الاوقات انى كاتب واقعى فقد أخذت ذلك عن النقاد

قد يسهل على الكاتب الاوربى أن يحدد مذهبه الادبى لانه فى الاغلب مطلع على آخر خطوة فى تطور المذاهب الادبية وقد يكون اشترك فى احدى المعارك لاقرار مذهب معين . أما نحن فقد عرفنا المذاهب بعد ان اســتقرت ولم تكن هناك دوافع تدعونا للتشيع لمذهب بعينه غير موقفنــا الحضارى فى الداخل ..

## العامية مرض

**● يقول الأديب الانجليزى « دزموند ستيوارت » فى مقال نشر له بعدد ديسمبر الماضى من مجلة ( المجلة ) :**

**« ان التزام نجيب محفوظ الفصحى فى كتابة الحوار مخل بمطلب الواقعية الذى يطمع فيــه القراء الأجانب » ويصفه بأنه ( عناد طارىء ) ، أى أنه لا يؤدى وظيفة فنية فى الرواية ..**

**وقرأت على لسانك مرة : « أن اللغة العامية من جملة الامراض التى يعانى منها الشعب والتى سيتخلص منهــا حتما حينما يرتقى ، وأنا أعتبر العامية من عيوب مجتمعنا**

**مثل الجهل والفقر والمرض تماما ..»**

**ألا ترى أن هذا الموقف المتزمت من العامية يدفعك الى رفض معظم كتابات أدبائنا الشبان الذين يصرون ـ مثل اصرارك ـ على استعمال العامية فى الحوار .. وبعضهم الآخر يحاول كتابة القصة كلها بالعامية ؟!**

ـ فيما يتعلق بديزموند ستيوارت أعترف أنى لم أفهم اعتراضه مع أنى قد أفهمه اذا جاء من أديب عربى ، فالمفروض أن النص يترجم بما فيه من سرد وحوار الى لغة انجليزية واحدة ، وحتى اذا تصورنا أن الحوار سيترجم الى لغة انجليزية دارجة ، فالفرق بين اللغتين ليس كبيرا الى هذا الحد ..

أما انى أعتبر العامية مرضا ، فهذا صحيح ، وهو مرض أساسه عدم الدراسة ، والذى وسع الهوة بين الفصحى والعامية عندنا هو عدم انتشار التعليم فى البلاد العربية .. ويوم ينتشر سيزول هذا الفارق أو سيقل كثيرا ..

ألم تر تأثير انتشار الراديو فى لغة الناس ، فبدأوا يتعلمون الفصحى ويفهمونها ويستسيغونها ، وأنا أحب أن ترتقى العامية وان تتطور الفصحى لتتقارب اللغتان ، وهذه هى مهمة الاديب فى رأيى ..

ولكنى مع ذلك لا أحب لهذا الموقف الذى التزمه فى أعمالى ، بناء على رأى أومن به ، لا احب له ان يتحول الى دعوة ، فلكل أديب الحرية الكاملة فى اللغة التى يكتب بها .. وليس معنى أنى أرى هذا الرأى الا اعترف بأعمال الاخرين .. فأنا أقرأ أعمال من يكتبون بالعامية وأستمتع بها بلا أى اعتراض

**● أنت متهم بالميل الى المجاملة بشكل عام ، ومن حقك أن تتخذ هذا الموقف فى حياتك الخاصة وعلاقاتك**

**الشخصية ، ولكن حينما يتعلق الامر بأعمالك الادبية يختلف الحال ، فالملاحظ أنك لا ترعاها الرعاية الكافية حينما تتحول الى مسرحيات أو أفلام سينمائية ، بل تتركها فريسة فى أيدى المعدين وكتاب السيناريو دون حماية أو توجيه ، وكثيرا ما صرحت بأنك راض عن هذه المسرحية أو ذاك الفيلم رغم اجماع النقاد والمثقفين على التشويه الذى أصاب روح عملك الاصلى ..**

ـ لو كنت أديبا متفرغا لتغير أساس علاقتى بكل الاشياء، ولو كان لدى وقت كاف لاشتركت فى مراجعة المسرحيات والافلام المأخوذة عن اعمالى ، ولا اتركها دون حماية كما تقول . أما الان فليس من المعقول أن أضيع بضعة أشهر فى مراجعة مسرحية او سيناريو فيلم فى الوقت الذى لا أجد فيه الفرصة الكافية للقراءة والكتابة

وما أذيعه او انشره من دفاع عن موقفى من هذه الاعمال انما هو فى حقيقة الامر حجة العاجز الذى لايجد وقتا كافيا لحماية أعماله . مع ذلك فما يعرضونه على أقرؤه وابدى رأيى فيه .. وعلى كل حال فانى اعتبر المعدين لهذه الاعمال هم المختصون وهم خبراء بمقتضيات عملهم أكثر منى ولم يكن فى دفاعى عن نتائج عملهم أية مجاملة

**● قرأت روايتك ( زقاق المدق ) فى نفس الفترة التى قرأت فيها ( مليم الاكبر ) لعادل كامل ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاعجاب بكما وأعتبركما أملين كبيرين للرواية المصرية ، وقد حققت أنت أملى ـ وأمل جيلنا كله ـ فيك وأكثر .. أما عادل كامل فقد كف عن الكتابة بعد مليمه الاكبر والوحيد .. وأنا أعلم أنكما كنتما وما زلتما صديقين متلازمين ، فهل تستطيع أن تلقى بعض الضوء على سر اعتكاف هذا الكاتب الموهوب ؟**

ـ حينما أنشأ عبد الحميد السحار لجنـــة النشر للجامعيين وفرج بها أزمة النشر لدى جيلنا ، كنا خمسة من جيل واحد بدأنا بنشر أعمالنا معا : السحار ، وعادل كامل ، وأحمد زكى مخلوف ، وباكثير ، وأنا .

وقد سارت الاغلبية وتوقف اثنان : عادل كامل ، واحمد زكى مخلوف ، الذى نشر رواية واحدة هى ( نفـــوس مضطربة ) ..

وحينما أعود بذاكرتى الى هذه السنوات أجد ان باكثير والسحار لم يداخلهما اى شك فى قيمة انتاجهما ووجوب استمرارهما فيه ، فقد كانا ممتلئين بالايمان والتفاؤل . أما الثلاثة الاخرون ـ عادل كامل ، وزكى مخلوف وأنا ـ فكنا نعانى من أزمة نفسية غريبة جـــدا طابعها التشاؤم الشديد والاحساس بعدم قيمة أى شىء فى الدنيا ، والعبث وبقية ما تقرأه فى الادب الاوربى الحديث .. كنا كأبطـال كامى قبل ان يكتبهم ، ولعل منشأ هذه الحالة راجع الى تبلور كل هذه الصفات فى حياتنا السياسية وقتـــذاك ، فكدنا ننتهى الى أن كل جهد يبذل فى الادب ضائع تماما ولا قيمة له ولن يفيدنا او يفيد أحدا من أبناء بلادنا ، وان كل جهد يجب ان يوجه الى العمل الايجابى المثمر بدلا من أن يضيع فى محاولة التعبيرعن عواطف وأفكار لافائدةمنها

وزاد من احساسنا بهذه الازمة اننا تقدمنا ـ أنا وعادل ـ بروايتين الى مسابقة المجمع اللغوى ، فرفضتا لاسباب أخلاقية ، واستدعانا أمين سر المجمع ليسدى الينـــا النصح وكأننا من الضالين وهو يهدينا سواء السبيل

كان السؤال الذى نسأله لانفسنا دائما هو لماذا نكتب؟. وكنا مجمعين على ان الكتابة عبث ، والنشر عبث ، والرغبة فى الكتابة يجب ان تعالج على انها مرض .. غاية ما فى

الامر أن صديقى اعتبرا نفسيهما شفيا من هذا المرض ، وما زالا الى اليوم يدعوان لى بالشفاء ..

وكانت مناقشاتنا متسمة بالتشاؤم واليأس من كل شيء وكنا نحب أن نجلس فى المساء عند قطعة معشبة مستديرة عند كوبرى الجلاء ، فأسميناها (الدائرة المشئومة) ، وما زلنا نطلق عليها فيما بيننا هذا الاسم الى اليوم ..

هذا هو تفسير الازمة التى دفعت عادل كامل واحمد زكى مخلوف الى الاقلاع عن الكتابة ، على ان عادل بدأ فى الفترة الاخيرة يدرس الدراما والسيناريو ، واتفق على كتابة بعض سيناريوهات الافلام ، لعل هذا ان يكون تمهيدا لعودته الى حظيرة الادب التى حاول الافلات منها . وكذلك كتب احمد زكى مخلوف فى العام الماضى رواية جديدة قراها عادل كامل ومحمد عفيفى ، واتفقا على أنها عمل ممتاز حقا ، وهى الان فى حكم المفقودة بدار روز اليوسف وليس لدى المؤلف أصل لها . فلعلهم يعثرون عليها وينشرونها ، فتكون هى الاخرى ايذانا بعودة مؤلفها الى الكتابة

**● سؤال أخير .. وأنت فى الخمسين من عمرك هل تعتقد أنك حققت كل ما تريده لنفسك فى حياتك الشخصية والادبية ؟ .. وهل تعتبر نفسك انسانا ناجحا والى أى حد ؟ .. ما الذى ينقصك ؟ وما خططك الادبية المقبلة ؟**

ـ نعم ، تحقق ما أريده لنفسى فى حياتى الادبية ، ولكن على طريقة ذلك الرجل الذى تزوج لينجب أولادا ، وكان يتصور أن هؤلاء الاولاد لن يكونوا أقل من زعماء كبار أو عباقرة أفذاذ . وحينما تزوج وأنجب أولادا سعد بهم وفرح رغم أن أحدهم أصبح كاتبا فى الدرجة الثامنة والثانى لم يتم تعليمه ، والثالث طبيبا فى الارياف وهكذا

.. ولكن هذه الحقيقة لا تقلل من حبه لهم واحساسه بالسعادة بهم . نفس الشيء ينطبق على مؤلفاتى دون أية محاولة للتواضع أو للتقليل من شأن رواياتى ، بل بمنتهى الصدق والاخلاص ..

ففى الشباب المبكر كنت اريد أن أصبح شيئا لا يقل عن شكسبير ، فاذا قلت لى « جوته » أقول لك « وليه مش شكسبير ؟ » .. وقد تزوجت وأنجبت رواياتى بنفس الطريقة التى حدثت مع صاحبنا وأولاده ..

ويوم أخرجت روايتى الاولى «عبث الاقدار» كنت أظن انى صنعت شيئا عظيما حقا ، ومرت بى الايام فاذا بى أراها « عبث أطفال » مش « عبث أقدار » !

لقد كتبت مرة اقصوصة تصور حياتى الادبية خير تصوير ، وهى قصة « حكمة الحموى » بطلها أديب لايريد ان ينشر قصصا كثيرة عادية او متوسطة ، بل يريد أن يترك عملا واحدا ممتازا يثق فى أنه سيخلد من بعده .. انه يكتب قصة عن مغامرات صباه ، ويتركها مدة ثم يعود ليقرأها فيجدها أصبحت سخيفة تافهة وان مغامرات شبابه أهم . ويكتب قصة عن مغامرات شبابه ، فاذا قرأها فى رجولته وجدها قد أصبحت سخيفة لا قيمة لها

وهكذا حتى مرض وأحس بقرب نهايته ، فأحضر آخر مؤلفاته ، وقرأها ، وقال : لو عشت فستبدو هذهالقصة كسابقاتها فمزقها هى الاخرى ومات دون أن يترك شيئا

أما الناحية الشخصية حاقولك ايه غير الحمد لله ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أخفى عنك ـ ونحن نتحدث هذا الحديث الاخوى الصادق ـ انى أعانى دائما قلقا من ناحيتين : ناحية المال وناحية الصحة

فمن ناحية الصحة أنت تعلم انى مصاب بمرض السكر ،

وهو يفرض على قيودا كثيرا تعوقني عن القراءة والكتابة كما أريد .. اما المال فأصارحك اني لم اصل حتى الان الى مرتب يكفل لى ضروريات الحياة . وكل شهر أسدد بقية التزاماتى من الخـــارج .. من أجر نشر الكتب والقصص ومكافآت الاذاعة ونحوها .. والحالة مستورة والحمد لله ، ولكنى لا أستطيع أن أتخـــلص من ذلك الاحساس بالقلق ، اذ ماذا يحدث لو لم تأت هذه التكملات غير المنظورة غير المضمونة ..

وبالنسبة لخططى الادبية لدى فكرة لعمل من النوع الذى أكتبه فى الفترة الاخيرة وهو الرواية القصيرة، وبضعة أفكار لقصص قصيرة .. أرجو أن أشرع فى كتابتهاقريبا

***

بهذه العبارات انهى نجيب محفوظ حديثـــــة الذى استغرق منا ثلاث جلسات طويلة ، وتطلب منه صـــبرا جميلا .. وأمانة تامة ودقة كاملة فى الاجابة .. وخرجت من عنده شاكرا مهنئا وقد ازددت ايمانا بأنى قد وفقت فى اختيار المثل الصحيح الذى يمكن ان أقدمه للقـــراء ، وللادباء الشبان بصفة خاصة ، فى ميدان الكفــاح الادبى الجاد ، والايمان الحق بدور الادب الخطير فى حيـــاة الشعوب .. والواجب الضخم الملقى على عاتق أصحـاب الاقلام .. كل ما ارجوه أن اكون قد وفقت الى نقـــل الخطوط الرئيسية فى حديث نجيب محفوظ .. امـــا الحديث نفسه فلا اطمع فى نقله كاملا لان لهجة الحديث وما يصحبه من تعبيرات بالوجه واليد والتماعات العين ونبضات الصوت التى تنم عن نبضات القلب .. كل هذه الاشـــياء يحسها المرء ويعيشها مع صدق صاحبها ، ولكنـــــه لا يستطيع ــ للاسف ــ ان ينقلها الى القارىء ..

# فهرس

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص·ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص·ب ٢١

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

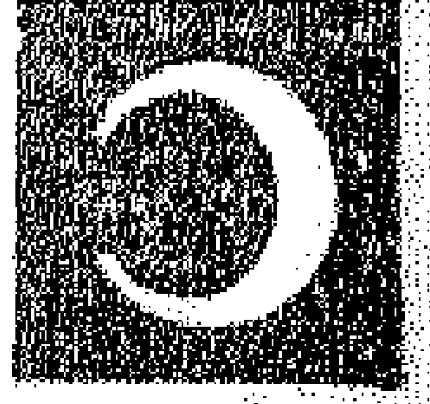
انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

# هذا الكتاب

حديث الاديب عن حياته ومؤلفاته من أمتع الاحاديث الى النفس ، فاذا كان هذا الاديب من أشهر أدبائنا المعاصرين وأحبهم الى القراء ازدادت متعة هذا الحديث ونفعه ، فلا شك أن حديث الاديب عن نفسه هو المرجع الاول والاهم فى التعرف على حقائق حياته ومختلف آرائه ونظراته

وقد لاحظ مؤلف هذا الكتاب ، وهو من المتفرغين للنقد الادبى — أن معظم أدبائنا المعاصرين لم يكتبوا تراجم ذاتية صريحة، فاتصل بعشرة منهم يستوضحهم بعض الحقائق المتصلة بحياتهم ومؤلفاتهم ، ويناقشهم فى آرائهم ومواقفهم من أهم المشكلات الادبيـــة والفنية المعاصرة ، فكان هذا الكتـاب الذى يضم مادة غنية وفيرة عن عشرة من أكبر أدبائنا المعاصرين ، من بينهم من لا تجد تعريفاً بحياته وآرائه فى غير هذا الكتاب ، كالدكتور حسـين فوزى ، ويحيى حقى ، ومحمـد فريد أبو حديد ، وعـزيز أباظة ، وفتحى رضوان ، وشيخ النقاد العرب المعاصرين المرحوم الدكتور محمد مندور ...

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

# مذكرات شارلي شابلن

صلاح حافظ

# كتاب الهلال

**KITAB AL-HILAL**

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٣ ربيع الثاني ١٣٨٥ ـ أغسطس ١٩٦٥

No. 173 — Août 1965

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

**قيمة الاشتراك السنوى :** ( ١٢ عددا ) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

**سعر البيع للجمهور :** قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا ( بنغازى وطرابلس ) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرانكا



# كتاب الهلال



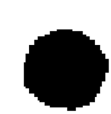
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف : بريشــة
الفنان بهجت عثمان

# مذكرات شارلي شابلن

نقلها إلى العربية

صلاح حافظ



الجزء الأول

## اهداء : الى أونا



**اونا .. بريشة شارلى**

# تقديم

قبل افتتاح كوبرى وستمنستر ، لم يكن شـــارع كننجتون أكثر من ممر ضيق ، لا يكاد يتسع لمرور حصان • ولكن طريقا جديدا لم يلبث أن أنشىء فى عام ١٧٥٠ ، ليصل مباشرة ما بين الكوبرى وبين « برايتون » • وكانت النتيجة أن شارع كننجتون ــ الذى قضيت فيه معظم أيام صباى ــ بدأ يزهو بعدد من البيوت الجميلة ذات القيمة المعمارية ، تتصدرها شرفات من الحديد المطروق ، كان السكان يستطيعون منها ــ في وقت من الاوقات ــ أن يشاهدوا جورج الرابع متجها بعربته الى برايتون

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان معظم هـــذه البيوت قد انحدر وتحول الى شقق وحجرات للايجار • ولكن بعضها ظل محتفظا بكيانه ، يسكنه الاطباء ، والتجار الناجحون ، ونجوم الفودفيل • فكان فى اســـتطاعة الانسان صباح أيام الاحاد أن يرى ــ أمام هذا البيت او ذاك من شارع كننجتون ــ مهرا وعربة جميلتين ، ينتظران أحد النجوم ليستقلهما مسافة عشرة أميال الى فوروود أو ميرتون •• متوقفا أثناء العودة أمام مختلف الحانات في

شارع كننجتون : حانة الفرس الابيض ، أو الهوزنر ، أو التانكارو ..

وكثيرا ما وقفت وأنا صبي في الثانية عشرة خارج حانة تانكارو ، أراقب هؤلاء السادة المشـــاهير يخلعون ملابس الركوب ليدخلوا البار ، حيث اعتادت نخبة نجوم الفودفيل أن تلتقي في أيام الاحاد لتشرب اخر كأس قبل العودة الى البيت للغداء . ويالها من جاذبية تلك التي كانوا يتمتعون بها وهم في ستراتهم ذات المربعات ، وسراويلهم الرمادية ، وخواتمهم الماسية تخطف البصر هي والدبابيس التي في ربطات أعناقهم ! كانت الحانة تغلق أبوابها في الثانية بعد ظهر الاحد ، ويخرج الزبائن متمهلين واحدا بعد الاخر ، يثرثرون قليلا قبل أن يحيي بعضهم بعضا تحية الوداع .. فكنت أحملق فيهم مبهورا ، ومستمتعا أيضا ، لان بعضهم كان يترنح في مشيته بطريقة تثير الضحك

وكان انصراف اخر فرد منهم بمثابة اختفاء الشمس وراء السحب . فعندئذ كنت أعود أدراجي الى صف من المنازل الوضيعة القابعة وراء ظهر شارع كننجتون ، حيث البيت رقم ٣ في بونوال تيراس ، وأصعد درجات الســـلم الكسيحة الى الكهف الذي نقيم فيه . وكان بيتا مقبضا ، تزكمه رائحة ماء الغسيل والملابس القديمة .

وكانت أمي ــ في هذا الاحد بالذات ــ تجلس الى جوار النافذة ، تحملق في الخارج . فالتفتت نحوي وابتســمت بضعف . وكانت الحجرة خانقة ، لا تزيد مساحتها الا قليلا عن المتر المربع (١) ولكنها تبدو أقل مســـاحة ، وسقفها يبدو أقل ارتفاعا . والمائدة المســتندة فيها الى

---

(١) في الاصل : ١٢ قدما مربعا

الجدار تزحمها الاطباق وفناجين الشاى المتسخة • وفى الركن سرير قديم من الحديد ، ملتصق بالجدار ، طالته أمي باللون الابيض • وبين السرير والنافذة مدفأة صغيرة• وعند قدمى السرير مقعد قديم ذو مسـسـندين ، يمكن أن ينبسط ليصبح فراشا ينام عليه أخي سيدنى • ولكن سيدنى الان كان غائبا فى رحلة بحرية

وكانت الحجرة فى هذا اليوم مقبضة لان أمى قـــد أهملت ـ بسبب ما ـ ترتيبها • وكانت أمى عادة تحافظ على نظافتها • لانها كانت سيدة ذكية ، مشرقة ، صغيرة السن ، لم تبلغ بعد السابعة والثلاثين • وكان فى استطاعتها أن تجعل ذلك الكهف التعس تشع منه رائحة ذهبية • خاصة فى صباح أيام الاحاد فى الشتاء، حين كانت تقدم لى افطارى فى السرير ، فأستيقظ على مرأى حجرة منسقة ، يتوهج فيها دفء نار صغيرة، وأرى براد الشاي ينفث بخاره فوق المدفأة ، وعليها سمكة طازجة أو مملحة وضعت هناك لتظل ساخنة ريثما تقوم أمى بتقمير الخبز • فوجود أمى واشراقها ، ونظافة الحجرة التى نقيم فيها ، والصـــوت الناعم المكتوم لبراد الشاى أثناء قراءتى لمجلتى الاسبوعية المصورة •• كانت مسرات أنعم بها فى الصباح الهــادىء كل أحد ••

ولكن أمى فى هذا الاحد كانت تجلس واجمة تطل من النافذة • ومنذ ثلاثة أيام وهى تجلس أمام هذه النافذة ، مهمومة يسيطر عليها هدوء غريب ، كنت أعلم أنها قلقة •• فسدنى كان غائبا فى البحر ، ولم يأتنا عنه نبأ منذ شهرين وماكينة الخياطة التى تستأجرها أمى ، وتكافح بهـــا لتعولنا ، كانت قد انتزعت منها بسبب العجز عن سداد الاقساط « وهو أمر لم يكن غير عادى فى حياتنا » • كما

أن الشلنات الخمسة التى كنت أساهم بها ، وأحصل عليها من اعطاء دروس فى الرقص ، قد توقفت فجأة

على أننى كنت لا أكاد أعى بوجود أزمة ، لاننا كنا نعيش فى أزمة متصلة .. ولاننى غلام ، فقد كنت أنفض عن نفسى الهموم بنسيانها عن طيب خاطر . وكنت كالعادة أركض بعد المدرسة عائدا الى أمى فى البيت ، فأقضى حاجياتها ، وأفرغ ماء الغسيل ، وأملأ جردلا من الماء النظيف .. ثم أسرع الى بيت آل ماكارثى لاقضى المساء هناك ــ حتى ابتعد عن جو كهفنا المقبض

وكان آل ماكارثى من الاصدقاء القدماء الذين عرفتهم أمى أيام عملها فى المسرح ، وكانوا يقيمون فى شقة مريحة فى المنطقة الارقى من شارع كننجتون ، ويعيشون حياة لا بأس بها اذا قورنت بحياتنا . وكان لهم ابن اسمه والى ، ألعب معه حتى غروب الشمس .. ثم أدعى فى غالب الاحيان الى البقاء لتناول الشاى . وبفضل هذا التسكع كثيرا ما تناولت وجبات هناك . فاذا ما سألت مسز ماكارثى عن أمى ، ولماذا لم تعد تراها فى الايام الاخيرة . مضيت انتحل لها اى عذر .. لان أمى منذ ساءت أحوالها لم تكن ترى ــ الا نادرا ــ أصدقاء أيام المسرح ..

وكانت هناك بالطبع ايام أبقى فيها فى البيت ، وتعد لى امى الشاى ، وتحمر لى خبزا فى دسم اللحم وهوطعام كنت أحبه . ثم تقضى ساعة تقرأ لى . فهى قد كانت قارئة ممتازة . وكنت عندئذ اكتشف جمال صحبة أمى وادرك اننى اقضى فى البيت وقتا افضل من ذلك الذى اقضيه حين اذهب الى آل ماكارثى

وما كدت ادخل الحجرة حتى التفتت نحوى ، ونظرت

لى مؤنبة • وصدمنى مظهرها • فقـــد كانت نحيلة ، مرهقة ، ومن عينيها تطل نظرة انسان معذب • وسيطر على حزن خانق ، واحسست انني اتمزق ما بين الرغبـة فى ان ابقى معها أؤانسها وبين الرغبة فى أن أفر من هذه التعاسة كلها

ونظرت لى أمى نظرة خاوية ثم قالت :

ـ لماذا لا تذهب الى آل ماكارثى ؟

قلت وانا اوشك على البكاء :

ـ لاننى أريد أن أبقى معك

فاستدارت وعادت تنظر من النافذة الى الفراغ :

ـ اذهب الى آل ماكارثي وتناول غداءك •• فليس هنا شيء تأكله !

واحسست برنة تأنيب في لهجتها • ولكنني أغلقت دونها ذهني • وقلت بضعف :

ـ سأذهب اذا كنت تريدين ذلك ••

فابتسمت بضعف وربتت على رأسي ••

ـ نعم • نعم • اذهب

ومع انني توسلت اليها أن تدعنى أبقى ، الا انها أصرت على ذهابي • فذهبت وبى احساس بالذنب ، تاركا اياها وحيدة في ذلك الكهف التعس • دون ان ادرك ان مصيرا رهيبا ينتظرها بعد ايام قلائل ••



والدة شارلى : الشخصية الاولى فى حياته

## الفصل الأول

# من المهد إلى الملجأ !

* أضحكت الجمهور وعمرى خمس سنوات
* كنا نذهب الى المدرسة بملابس أمى
* الضرب فى الملجأ باحتفال عسكرى !
* طردتنى زوجة أبى من البيت .. فأعادنى البوليس !

ولدت فى ١٦ ابريل عام ١٨٨٩ ، فى الســـاعة الثامنة مساء ، بشارع ايست لين بلندن . وسرعان ما انتقلنا الى ميدان وست سكوير ، بشــارع ســانت جورج ، لامبث . وكانت حياتى ـ بناء على ماتقول امى ـ سعيدة . فظروفنا كانت مريحة الى حد ما ، وكنا نعيش فى ثلاث حجــرات مفروشة بذوق جميل . ومن ذكرياتى المبكرة اننى ـ قبل ذهاب أمى الى المسرح كل ليلة ـ كنت اوضع برفق فى الفراش مع أخى ( سيدنى ) ، ونترك فى رعاية المربية

وكان كل شيىء يبدو لى ممكنا فى عالمى البالغ من العمر ثلاثة اعوام ونصف . فاذا كان سيدنى الذى يكبرنى بأربعة اعوام يستطيع أن يمارس ألعاب خفة اليد ، ويبتلع قطعة من النقود ثم يخرجها من ظاهر يده ، فأنا أيضا أستطيع ان افعل نفس الشىء . والنتيجة اننى ابتلعت نصــف قرش ، واضطرت أمى الى استدعاء الطبيب

وكان من عادة أمى بعد العودة من المسرح ان تترك لى ولأخى على المائدة بعض الحلوى ـ شريحة من الكعك او بعض الملبس ـ كى نجدها فى الصباح . ولــكن بشرط الا نحدث صوتا ، فقد كانت تنام عادة الى ساعة متأخرة من الصباح ..

كانت أمى ممثلة فى مسارح الفودفيل وكانت فى العقد الثالث من العمر ، ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ، ذات شعر بنى فاتح ، وعينين لونهما بنفسجى أزورال . وكنا

نعبدها أنا وأختى سيدنى ، ومع أن جمالها لم يكن خارقا، فاننا كنا نعتقد أنها تشبه الملائكة • وكان يسرها أن تلبسنا ثيابا كاملة ، فيرتدى سيدنى بدلة ذات بنطلون طويل من الطراز الذى يرتديه طلبة ايتون ( مدرسة أبناء الذوات )، وارتدى أنا بدلة من القطيفة الزرقاء ، وقفازا من نفس اللون يتمشى معها . وكانت هذه المناسبات أعيادا نزهو فيها بأنفسنا ونحن نتهادى على طول شارع كننجتون

وكانت لندن وقورا فى تلك الايام . كان ايقاع الحياة فيها وقورا . حتى عربات الترام التى تجرها الخيل فى شارع كوبرى وستمنستر كانت تمشى بوقار بطىء حتى تبلغ نهاية الخط ، ثم تستدير — بوقار كذلك — على طبلية تدور حول نفسها . وقد عشنا ايضا فى شارع كوبرى وستمنستر هذا وكان جوه بهيجا ، قريبا الى القلب، بما فيه من دكاكين جذابة ، ومطاعم ، ومسارح استعراضية . أما محل الفاكهة عند الناصية المواجهة للكوبرى فكان مهرجانا من الالوان الجميلة بما يحتوى عليه من أهرامات منسقة من البرتقال ، والتفاح ، والكمثرى .. على النقيض من مبنى البرلمان الرمادى الصارم الذى يقابله على الشاطىء الاخر من النهر



كانت هذه « لندن » صباى ، وسر حياتى ، ويقظاتى : ذكرى ( لامبث ) فى الربيع ، ذكرى الاشياء والاحداث الصغيرة ، ذكرى الركوب مع أمى فوق المركبة التى تجرها الخيل وانا أحاول أن ألمس أشجار السوسن التى تمر بنا ، وتذاكر الركوب التى تغطى الرصيف بألوانها المتعددة من برتقالية وزرقاء ، ووردية .. عندما يتوقف الترام والمركبات ، ذكرى بائعات الزهور ذوات الوجوه المتوردة

عند ناصية كوبرى وستمنستر ، وهن يصنعن باقات مبهجة ، وتضفر أصابعهن الماهرة فروع الشجر المفضض بالترتر ، ذكرى الرائحة الرطبة للورد المرتوى حديثا ، وما كانت تتركه فى نفسى من حزن غامض ، ذكرى أيام الاحاد المقبضة والآباء والأبناء شاحبى الوجوه بصحبة البالونات الملونة وطواحين الهواء الصغيرة فوق كوبرى وستمنستر . ذكرى بواخر النهر الوديعة التى يركبونها بقرش واحد وهى تخفض مداخنها عندما تمر تحت الكوبرى ..

ان روحى – فيما أعتقد – قد ولدت من خلال مثل هذه الاشياء الصغيرة



ثم أشياء اخرى فى حجرة الجلوس فى بيتنا ، كانت تتأثر بها حواسى : لوحة أمى الزيتية التى تصور ( نيل جوين ) بالحجم الطبيعى ، والتى لم أكن أحبها ، ودوارق النبيذ بأعناقها الطويلة على البوفيه ، وكانت تضايقنى ، وصندوق الموسيقى المستدير الذى ترتسم على غطائه صورة بالميناء ملائكة وسحب ، كان يسرنى ويحيرنى فى نفس الوقت ..

ثم ذكريات لحظات تاريخية : زيارة حديقة الاسماك ، ومشاهدة ما تحفل به من الوان الملاهى مع أمى ، و (غطسة الحظ ) فى مقابل ستة بنسات .. عندما ترفعنى أمى بيدها الى برميل ضخم ملىء بنشارة الخشب ، لاستخرج منه لفافة بخت تحتوى على صفارة من الحلوى لاصوت لها ودبوس للزينة مرصع بالياقوت الزائف . أو زيارة مسرح كانتربرى الاستعراضى ، والجلوس على مقعد مبطن بالقطيفة الحمراء ، لمشاهدة والدى وهو يمثل ..

ان الوقت الآن ليل . وأنا ملفوف فى بطانية للسفر

فوق عربة يجرها أربعة من الخيل ، أصحب أمي ورفاق مسرحها وهم يدللونني خلال مرحهم وضحكاتهم ، بينما المنادي — على طول شارع كننجتون — يعلن عنا بتقريظ مبالغ فليه على ايقاع ألجمة العربة وحوافر الخيل



ثم حدث شيء ! ولعل ذلك كان بعد شهر ، أو بعد أيام قليلة ، عندما ادركت فجأة أن الامور لم تكن على ما يرام بين أمي وبين العالم . كانت قد خرجت طيلة الصباح مع صديقة لها ، ثم عادت ثائرة . وبينما أنا العب على ارض الغرفة تنبهت الى ان هناك حالة من الهياج الشديد تعتمل فوقى ، كأنما انصت من قاع بئر . وكانت هناك تعبيرات منفعلة ، ودموع تذرفها أمى وهى لا تكف عن ترديد اسم آرمسترونج .. ارمسترونج قال كذا ، ارمسترونج كان نذلا، وقد فهمت دلالة ذلك المساء بعد مضي عدة أعوام: فأمى كانت عائدة من المحكمة حيث كانت تقاضى والدى بسبب عدم انفاقه على طفليها ، والقضية لم تسر على ما يرام . وارمسترونج هذا كان محامى والدى وكنت في ذلك الوقت لا اكاد اعى بوجود والد لى ، لست اذكر انه عاش معنا . وقد كان من ممثلى الفودفيل هو الاخر . كان رجلا هادئا ، مهموما ذا عينين سوداوين ، تقول أمى انه يشبه نابليون . وكان صوته من طبقة الباريتون ، وسمعته الفنية طيبة ، حتى انه فى تلك الايام كان يكسب مبلغا ضخما : اربعين جنيها كل اسبوع . ولكن المشكلة كانت اسرافه فى شرب الخمر ، ذلك الإسراف الذي قالت أمى انه كان السبب فى انفصالهما

وقد كان من الصعب فى تلك الايام الا يشرب الخمر ممثلو الفودفيل ، لان الكحول كان يباع فى كافة المسارح ،

وكان على الممثل ـ حين ينتهى من اداء دوره ـ ان يذهب الى البار ويشرب مع الزبائن . وبهذه الطريقة دمرت حياة أكثر من فنـان ، وكان والدى واحـدا منهم . وقد مات بالافراط فى الكحول فى سن السابعة والثلاثين ..

وكانت امى تروى عنه الحـكايات بروح من الفكاهة والاسى . ومن ذلك انه كان يفقد اعصابه بسهولة حـين يشرب ، وفى احدى نوبات هياجه تركت له البيت وهربت الى برايتون مع بعض الاصدقاء . فلما ارسل لها برقية غاضبة يقول فيها ( ماذا تنوين ان تفعلى . اجيبى حالا ) .. ردت تقول ببرقية مماثلة : ( سهرات راقصة وحفلات، ورحلات ، ياحبيبى ) . وكانت امى كبرى شـقيقتين .. وكان والدهما ( شالز هيل ) اسكافيا ايرلنديا .. جاء من ( كونتى كورك ) بأيرلندا . وكان له خدان تفاحيان متوردان ، ،ودغل من الشعر الاشيب ، وظهر مقوس من أثر الروماتزم الناشىء ـ كما يقول ـ عن النوم فى الحقـول الرطبة ، هربا من البوليس اثناء الهبات الوطنية . وقد انتهى به المطاف الى لندن ، حيث انشـأ لنفسه محـلا لاصلاح الاحذية فى ريست لين ، بلندن

أما جدتى فكانت نصف غجرية . وكانت هذه الحقيقة تعد سرا عائليا دفينا لا يجوز افشـاؤه ، بالرغم من ان جدتى كانت تؤكد ان عائلتها اعتادت دائما ان تدفع ايجار الارض التى تقيم عليها . وكان اسم عائلتها سميث ، وما اذكره عنها الان هو انها كانت عجوزا ضئيلة الجسم ، تتخاطب معى دائما بلغة الاطفال . ولكنها ماتت قبل ان ابلغ السادسة من العمر

وكانت قد انفصلت عن جدى لسبب لم يكن احدهما يبوح به ، ولكن اذا اخذنا بكلام خالتى كيت ، فقد كان

هناك موقف عائلى ، ثلاثى ، ضبط جدى أثناءه جدتى فى احضان عشيق ..

أما أخلاقيات أسرتنا ، فان محاولة تقييمها بالمقاييس شائعة لن تقل خطأ عن محاولة وضع الترمومتر فى الماء المغلى . فبنفس خصال جدتى ، سرعان ما هجرت البيت ابنتان جميلتان فى سن مبكر ، واتجهتا الى المسرح

فخالتى كيت — وهى الاخت الصغرى لامى — كانت ممثلة ايضا . ولكننا لم نكن نعرف عنها الا القليل ، اذ دنت تتسلل الى حياتنا وتنسحب منها بصفة دورية . وكانت جميلة ، عصبية ، لا وفاق ابدا بينها وبين أمى . فكانت زياراتها المتباعدة لنا تنتهى عادة بالشجار بسبب شىء قالته أمى ، او فعلته

كذلك فرت أمى فى الثامنة عشر من عمرها مع رجل فى منتصف العمر الى جنوب افريقيا . وكثيرا ما كانت تتحدث عن حياتها هناك ، وكيف انها عاشت فى ثراء بين الحدائق والخدم وخيل الركوب

وقد ولد اخى سيدنى فى عامها الثامن عشر هذا . وكان يقال لى ان والده لورد ، وانه عندما يبلغ الواحدةوالعشرين سوف يرث ثروة مقدارها الفان من الجنيهات .. الامر الذى كان يسرنى ويضايقنى معا .

على ان امى لم تبق طويلا فى افريقيا ، وانما عادت الى انجلترا وتزوجت والدى . ولم يكن لدى علمبالسبب الذى انهى المغامرة الافريقيـة ، ولكننى فى ايام فقرنا الشديد كنت الومها على التخلى عن مثل هـذه الحياة الرائعة . فتضحك وتقول انها كانت اصغر من ان تكون حذرة ، او عاقلة . أما مدى تعلقها بوالدى ، فذلك هو الشىء الذى لم أعرفه ابدا . على أن حديثها عنه كان دائما

بلا حرارة ، الامر الذى يجعلنى اعتقد انها كانت اكثر موضوعية من ان تحبه حبا عنيفا ..

كانت فى بعض الاحيان تتحدث عنه بعطف ، وفى أحيان اخرى تتحدث عن سكره وقسوته . واعتادت فيما بعد، كلما اصابها الغضب منى ، ان توبخنى قائلة :

ـ ستنتهى فى المزراب كما انتهى ابوك

وكانت قد عرفت والدى قبل ان تذهب الى افريقيا . فقد كانا عاشقين ، وكانا يمثلان معا فى الميلودراما الايرلندية المعروفة باسم « شاموس اوبريان » . وفى السادسة عشر من عمرها كانت تلعب الدور الرئيسى . ثم التقت ـ اثناء جولتها مع هذه الفرقة ـ باللورد الكهل ، وفرت معه الى افريقيا . فلما عادت الى انجلترا ، أعاد والدى وصل خيوط غرامهما المزقة ، وتزوجا . وولدت انا بعد ذلك بثلاثة اعوام ..

ثم انفصل والدى بعد ميلادى بعام واحد . ولست أعرف ان كانت هناك ثمة اسباب اخرى لذلك ، غير الخمر . ولم تطالب أمى بنفقة . فهى كنجمة تكسب خمسة وعشرين جنيها فى الاسبوع كانت قادرة على اعالة نفسها وطفليها . وهى لم تلجأ الى طلب مساعدته الا بعد ان ضاق بها الحظ ، ولولا ذلك لما اتخذت ابدا اية اجراءات قانونية ..

كان صوتها مصدر متاعب لها . فهو لم يكن قويا . واقل أصابة بالبرد كانت تسبب لها التهابا فى الحنجرة يدوم عدة اسابيع . ولكنها كانت مرغمة على أن تواصل العمل مما جعل صوتها يسوء باطراد ، ولم يعد فى استطاعتها ان تطمئن اليه : فهو يخذلها اثناء الغناء

ويتشرخ ، أو يختفي فجأة ويتحول الى همس ، فيضحك الجمهور ساخرا ويشرع فى الصفير

وقد اساء الهم الناجم عن ذلك الى صحتها ، واصابها بانهيار عصبى . ونتيجة لذلك ظل يتناقص عدد ارتباطاتها المسرحية الى أن صار لا شيء

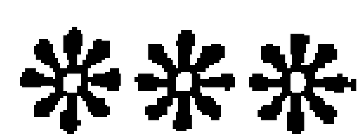
وقد كانت حالة صوتها هذه هي السبب فى اننى ظهرت على المسرح للمرة الاولى فى سن الخامسة . كانت عادة تصحبنى معها الى المسرح كل ليلة حتى لا تتركنى وحدى فى الغرفة المؤجرة . وكانت فى ذلك الوقت تمثل فى استعراض ( الكانتين ) بمسرح ( الدرشوت ) .. وهو مسرح وضيع شديد القذارة ، يروق غالبا للجنود . وكان جمهورا صاخبا ينتحل أقل المبررات ليسخر ويهزأ ، فكان أسبوع العمل فى ( الدرشوت ) .. يعد بالنسبة للممثلين اسبوعا من الرعب ..

واذكر اننى كنت واقفا فى الكواليس فى تلك الليلة عندما خان أمى صوتها وتحول الى همسة خافتة ، فبدأ الجمهور يضحك ، ويمأمىء كالمعيز ، ويموء كالقطط . وكان الامر يبدو غامضا بالنسبة لى ، وانا لا افهم بالضبط ما هذا الذى يحدث . ولكن الضجة ظلت تتزايد حتى ارغمت أمى على مغادرة المسرح . وعندما وصلت الى الكواليس كانت شديدة الاضطراب ، ونشب جدال بينها وبين مدير المسرح الذى قال شيئا عن ادخالى الى المسرح لاحل محلها وكان قد رآنى قبل ذلك أمثل امام أصدقائها ..

واذكر انه فى حالة الارتباك السائدة قادنى من يدى الى الداخل ، وبعد أن قدم تفسيرا موجزا فى كلمات قليلة الى الجمهور تركنى وحدى على المسرح . وأمام أضواء المنصة التى تخطف البصر والوجوه التى تسبح فى الدخان،

بدأت أغنى بمصاحبة الفرقة الموسيقية التى تعثرت بعض الوقت قبل ان تعثر على «المقام» الملائم لى . وكانت أغنية ذائعة الصيت اسمها « جاك جونس » وكانت كلماتها تقول :

الا ترى أن جاك جونس رجل طيب
وكل من فى السوق يعرفه
اننى لا أجد فى جاك عيبا على الاطلاق
طالما ظل كما اعتاد أن يكون
ولكنه منذ وجد سبيكة الذهب ساءت حاله
أنظر كيف يعامل أصدقاءه القدامى
فلذلك لا يملؤنى الا بالتقزز
وهو يقرأ كل أحد صحيفة « التلجراف »
وكان من قبل يقنع بقراءة « ستار »
فجاك جونس منذ جمع بعض النقود
لم يعد يدرى أين هو !



وبينما أنا فى منتصف الاغنية ، تدفق على المسرح سيل من قطع النقود . فتوقفت على الفور وأعلنت اننى سأجمع النقود أولا ثم أغنى بعد ذلك . فأثار هذا ضحكات صاخبة . وجاء مدير المسرح بمنديل فى يده يساعدنى فى جمعها . فخطر ببالى أنه سيحتفظ بها لنفسه . وانتقل هذا الخاطر الى الجمهور فزادت الضحكات ، خاصة عندما خرج الرجل من المسرح وأنا الاحقه . ولم أعد لاواصل الغناء الا بعد أن سلم النقود لأمى . كنت أتصرف تماما كأننى فى البيت . وتحدثت

الى الجمهور ، ورقصت ، وقلدت كثيرين بما فى ذلك أمى فى نشيدها الايرلندى الذى تقول فيه :

رايلى رايلى رايلى
هذا هو الفتى الذى يسلب العقل
رايلى رايلى رايلى
هذا هو الفتى الذى أريد
ففى الجيش كله ، صغيره وكبيره
ليس هناك من هو أنيق ووسيم
مثلى رايلى .. الجاويش النبيل
فى الفرقة المجيدة ، الثامنة والثمانين !

***

وفى براءة تامة ـ وأنا أردد الذهب ـ قلدت صوتها وهو يتشرخ ! وأذهلنى الاثر الذى احدثه ذلك فى الجمهور . كانت هناك ضحكات ، وهتافات ، ثم مزيد من القذف بالنقود . وعندما دخلت أمى الى المسرح لتأخذنى ، أثار ظهورها عاصفة هائلة من التصفيق

وكانت هذه الليلة أول مرة أظهر فيها على المسرح . وآخر مرة تظهر فيها أمى

* * *

عندما تعالج الاقدار مصائر البشر ، فانها لا تراعى العدل ، ولا الرحمة . فقد كان كذلك سلوكها مع أمى . فهى لم تسترد صوتها أبدا . وكما ينتهى الخريف الى الشتاء ، كذلك كانت ظروفنا تنتهى من سيىء الى أسوأ . ومع أن أمى كانت حريصة ، وادخرت قليلا من المال فانه سرعان ما تبخر مالها ، كما تبخرت مجوهراتها ومقتنياتها القليلة الاخرى التى رهنتها لتعيش .. مؤملة طول الوقت أن صوتها سوف يعود

وما زلت أذكر جيدا صلاتنا فى الكنيسة ذات يوم قائظ من أيام الصيف ، وبرودة الكأس الفضىء المليء بعصير العنب الشهى وهو يمر على المصلين . ويد أمى وهى تمنعنى برفق عندما شربت منه أكثر مما يجب . وكيف تنفست الصعداء عندما أغلق القس الانجيل ، لان معنى ذلك أن خطبة الوعظ على وشك أن تنتهى ، وبعدها ستبدأ الصلاة وتراتيل الختام

فى ذلك الوقت انتقلنا من ثلاث غرف كبيرة الى غرفتين صغيرتين ، ثم الى غرفة واحدة .. بينما حاجاتنا تتناقص ، والاحياء التى ننتقل اليها تزداد فقرا مرة بعد مرة ..

وتحولت أمى الى الدين ، آملة فيما أعتقد أن يعيد اليها صوتها . فكانت تذهب بانتظام الى كنيسة المسيح فى شارع كوبرى وستمنستر ، وكان على أن أظل جالسا طوال عزف الارغن لموسيقى باخ . وأن أنصت بنفاد صبر مؤلم الى صوت الاب « ف.ب. ماير » المسرحى المشحون بالانفعال ، وصداه يتردد فى القاعة كأنه وقع أقدام تخب على الارض ، ولابد أن مواعظه كانت مؤثرة ، لاننى من وقت الى آخر كنت ألحظ أمى وهى تمسح من عينيها بهدوء دمعة أشعر معها ببعض الحيرة

منذ ارتبطت أمى بالكنيسة لم تعد ترى أصدقاءالمسرح الا نادرا . لقد تبخر ذلك العالم وصار مجرد ذكرى . وبدا كأننا لم نعش طول حياتنا فى غير هذه الظروف التعسة . وكان العام الواحد يبدو عمرا بأكمله من العمل . فنحن نعيش فى عتمة غسق لا بهجة فيه ، والعثور على الوظائف أمر عسير ، يزيد من عسره بالنسبة لأمى أنها غير مدربة على أى عمل غير المسرح

كانت ضئيلة الجسم ، حساسة ، تناضل فى مواجهة

ظروف معاكسة رهيبة .. فى عصر فيكتورى بلغ فيه كل من الغنى والفقر حده الاقصى ، وليس لنساء الطبقة الفقيرة خيار غير العمل خادمات فى المنازل ، او (مرمطونات) فى محال الحلوى . وكانت أمى تحصل من وقت الى آخر على وظيفة ممرضة ، ولكن ذلك كان نادرا ، ولفترات قصيرة ..

غير أنها كانت واسعة الحيلة : فقيامها بحياكة ثيابها المسرحية بنفسها جعلها خبيرة بأشغال الابرة ، قادرة على أن تكسب بضعة شلنات من حياكة ثياب رجال الكنيسة . ولكنها كانت مبالغ لا تكاد تكفى ثلاثتنا . أما والدى ، فان ادمانه الخمر جعل ارتباطاته المسرحية — كالشلنات العشرة التى كان يدفعها كل أسبوع — غير منتظمة ..

وكانت أمى الآن قد باعت معظم حاجاتها . وأخرت حتى النهاية بيع صندوق ثيابها المسرحية . فقد تمسكت بهذه الثياب على أمل انها ذات يوم ستسترد صوتها وتعود الى المسرح . وبين وقت وآخر كانت تغوص بيدها فى الصندوق لتستخرج منه شيئا : فستان مطرز ، أو باروكة شعر . فنطلب منها أن ترتديها . وما زلت أذكرها وقد ارتدت ذات مرة روب القاضى وغطاء رأسه ، ومضت تغنى بصوتها الهزيل احدى أغنياتها الناجحة التى كتبتها بنفسها . وكانت أغنية ذات ايقاع راقص ( ٢ : ٤ ) ، وكلماتها تقول :

سيدة قاضية أنا
وقاضية ناجحة أيضا
أحكم بالعدل فى القضايا
ونادرا ما يفعل القضاة !
فى نيتى أن ألقن المحامين

درسا أو درسين
وأن اريهم ما الذى
يستطيع النساء أن يفعلن ..

ثم تقفز من الغناء الى الرقص برشاقة وسهولة مذهلة، وتدع جانبا عملها فى الحياكة وتمضى تتحفنا بأغانيها الناجحة الاخرى وبالرقصات التى كانت تصاحبها الى أن تلهث ويصيبها الارهاق . ثم تعود تتذكر شيئا وتطلعنا على بعض تذاكرها المسرحية القديمة التى كان مكتوبا على واحدة منها :

برنامج ممتاز ! ...
للموهبة الرائعة
ليلى هارلى
ممثلة الدراما والكوميديا
والمشخصة الراقصة ...

وكان من عادتها أن تلعب أمامنا ، لا أدوار الفودفيل الخاصة بها فقط ، وانما تقلد أيضا ممثلات أخريات من اللواتى شاهدتهن فيما يسمى بالمسرح الرسمى

فاذا ما روت احدى المسرحيات ، فانها كانت تؤدى مختلف شخصياتها : فى « علامة الصليب » مثلا تؤدى دور ميرشيا بالنور المقدس فى عينيها ، ذاهبة الى الساحة لتأكلها الاسود . ثم تقلد صوت « ويلسون باريت » الكهنوتى المرتفع ، وهو يعلن مرتديا حذاءه الذى يبلغ ارتفاع كعبه خمس بوصات « لأنه كان رجلا قصيرا » :

ــ اننى لا أعرف ما تكون هذه المسيحية . ولكن الذى أعرفه هو أنها اذا كانت تصنع نساء مثل ميرشيا ، فان روما ، بل العالم كله ، سيكون بها أكثر نقاء !

وكانت تؤدى ذلك بمسحة من السخرية ، ولكن دون

انكار ، أو عدم تقدير ، لمواهب باريت

وكانت غريزتها لا تخطىء أبدا فى التعرف على أولئك الذين يتمتعون بمواهب مسرحية أصيلة . وسواء كانت تتحدث عن الممثلة أيلين تيرى ، أو نجم الاستعراض « جو الفين » فإنها فى الحالين تقدم شرحا لفنهما .. وتتكلم عن المسرح كما لا يستطيع أن يفعل غير انسان يعشقه

وكانت تروى النوادر ، وتقوم بتمثيلها ، فتقلد نابليون مثلا فى حادثة مدونة عن حياته : حين شب على اطـراف أصابعه فى المكتبة ليصل الى كتاب فيها ، فلمحه المارشال ناسى ( وأمى كانت تقوم بتمثيل الشخصيات معا ، ولكن دائما بطريقة فكاهية ) فقال : فلتأذن لى يا سيدى بأن أحضر لك الكتاب ، فأنا أعلى منك ، فيرد نابليون مزمجرا فى كبرياء : أعلى ؟ قل أطول !

وكانت أحيانا تقلد نيل جوين وتصف بحيوية ركوعها على سـلالم القصر حاملة طفلهـا ، مهددة الملك شـارل الثانى : « أعط هذا الطفل اسما والا هشـمته عـلى الارض ! » .. فيرد الملك شارل على الفور : حسنا ليكن اسمه دوق سانت « البانز »

وأذكر أننى ذات مساء كنت أرقد فى فراشى مصـابا بالحمى فى حجرتنا الوحيدة فى البدروم فى شارع أوكلاى . وكنت أنا وأمى وحدنا ، وسيدنى قد ذهب الى المدرسة الليلية . فمضت أمى بطريقتهـا التى لا مثيل لهـا تقرأ وتمثل وتشرح لى صفحات الانجيل وحب المسيح للاطفال الصغار . ولعل مبعث انفعالها كان مرضى ، ولكنها رسمت لى صورة شديدة الاقناع للمسيح وتحدثت عن تسامحه وقدرته على التفهم ، وعن المرأة الخاطئة التى كان الغوغاء سيرجمونها ، وكلماته الموجهة اليهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر »

وظلت تقرأ حتى ساعة الغروب ، لم تتوقف الا لتضيء المصباح . ثم تحدثت عن الايمان الذى كان المسيح يبثه فى نفوس المرضى . فكان يكفيهم ان يلمسوا طرف ردائه ليتم لهم الشفاء

ثم تحدثت عن الحقد والغيرة من جانب كبار الكهنة والفريسيين و ..

وأخبرتنى عن المسيح والقبض عليه واحتفاظه بهدوئه وكرامته أمام بيلاطس البنطى الذى غسل يديه قائلا : « لست أجد فيه (أى فى المسيح) علة » .. وروت لى كيف جردوه من ثيابه وجلدوه ثم وضعوا على رأسه اكليلا من الشوك وراحوا يهزأون به ويبصقون عليه قائلين : « السلام يا ملك اليهود ! »

وطفرت الدموع من عينيها وهى مستمرة فى الحديث . وأخذت تحكى عن سيمون وهو يساعد فى حمل صليب المسيح ، ونظرة العرفان التى حباه المسيح بها

ثم حكت لى عن اللص الذى مات بجواره على الصليب وهو يطلب المغفرة وقول المسيح له : « الليلة تكون معى فى الفردوس » . وقوله لامه وهو يشرف عليها من فوق الصليب : « يا امرأة ، هو ذا ابنك » . ثم صياحه مع آلام النزع الاخير : « الهى لماذا تركتنى »

ـ وبكينا كلانا ..

وقالت أمى :

ـ الا ترى كم كان انسانا

وكان مثالنا جميعا يعذبه الشك

وفى تلك الليلة بلغ من سيطرة أمى على مشاعرى اننى تمنيت أن أموت على الفور لالتقى بالمسيح . ولكن أمى لم تبد حماسا للفكرة ، وقالت :

ـ ان المسيح يريدك أن تعيش أولا وتؤدى دورك هنا على الارض

لقد أضاءت لى أمى فى تلك الحجرة المظلمة من البدروم فى شارع أوكلي .. ذلك النور الذى لم يعرف عالمنا أبدا ما هو أرق منه .. والذى غذى الادب والمسرح بأعظم وأخصب مواضيعهما : الحب ، والعطف ، والانسانية

واذا كنا نعيش كما ترى فى الطبقة الدنيا ، فقد كان سهلا ان نعتاد عدم الاكتراث باللغة التى نستخدمها ولكن أمى كانت تقف دائما خارج بيتها وتراقب الطريقة التى تتكلم بها باذن واعية ، لتصحح أخطاءنا النحوية ، وتشعرنا بأننا مختلفون عن غيرنا

وكنت كلما زاد انحدارنا فى هاوية الفقر الوم أمى ـ بجهلى الصبيانى ـ على عدم عودتها الى المسرح . وعندئذ كانت تبتسم وتقول لى ان تلك الحياة كانت زائفة وصناعية، ، وانه فى مثلها يمكن للانسان بسهولة أن ينسى الله ، ولكنها مع ذلك ما كانت تتحدث عن المسرح أبدا الا وتنسى نفسها ، ويجرفها الحماس

وفى بعض الايام كانت ـ بعد أن تستعيد ذكرياتها ـ تلوذ فجأة بالصمت ، وتنحنى على ابرتها لتنجز عملها . وعندئذ كان يسيطر على الاسى لانها لم تعد الان جزءا من تلك الحياة التى تخطف البصر . وكانت هى ترفع راسها وتلاحظ حزنى ، فتواسينى ضاحكة

واقترب الشتاء وقد بليت ثياب سيدنى جميعا . فصنعت له أمى « جاكتة » من سترتها القطيفة القديمة .. وكانت اكمامها مطرزة بشرائط سوداء وحمراء ذات « كسر » عند الكتفين ، حاولت أمى جهد طاقتها أن تزيلها ، ولكنها لم تنجح الا قليلا فى ذلك . وبكى سيدنى عندما أرغم على ارتدائها قائلا :

ـ ماذا سيظن الاولاد فى المدرسة ؟

فأجابت أمى :

ـ ومن يكترث بما يظنه الناس ؟ أنها تبدو فذةللغاية !

وكانت لهجتها مقنعة الى حد ان سيدنى حتى هـذه اللحظة لا يدرى ما الذى جعله يسلم بارتدائها . غير أنه فعل . وكانت هذه الجاكتة ، وحذاء أمى الذى بترت جزءا من كعبيه ، سببا فى اشتباكه فى أكثر من خناقة فى المدرسة فقد كان الاطفال يسمونه « يوسف وسترته ذات الالوان » . أما أنا ، فبسروال الرقص الذى يلتصق بالجسم والذى قصت أمى ساقيه ليكونا جوربا لى « كان يبدو كأنه جورب ذو كسر » أطلق التلاميذ على اسم « سير فرانسيس دريك »

وعندما بلغنا قاع هذه المرحلة بدأت أمى تعانى من نوبات صداع نصفى فظيع . واضطرت ان تتخلى عن الحياكة ، وأن ترقد أياما فى حجرة مظلمة وعلى عينيها عصـابة من ورق الشاى . وأخذ أخى سـيدنى فيما بين ساعات الدراسة يبيع الصحف . ومع أن مساهمته هـذه كانت أقل من قطرة فى المحيط ، فانها بالفعل أعانتنا الى حد ما . .

على أن لكل أزمة دائما ذروتها ، وقد كانت الذروة فى حالتنا هذه ذروة سعيدة . .

فذات يوم ، بينما كانت امى فى دور النقاهة وعلى عينيها ماتزال العصابة ، دخل سيدنى مندفعا كالقذيفة الى الحجرة المظلمة ، ورمى بالصحف التى معه على السرير وهو يهتف :

ـ عثرت على كيس نقود !

وقدم سـيدنى الكيس الى امى . وعندما فتحته وقع بصرها على عمود من قطع النقود الفضية والبرونزية . . فأغفلته وانهارت على ظهرها فى الفراش من فرط الانفعال . .

كان سيدنى يصعد الى مركبات الخيل العامة ليبيع جرائده . وفى أحدى هذه المركبات رأى كيس نقود على مقعد خال .. فأسرع يلقى فوقه باحدى الجرائد كأنها سقطت منه بالصدفة ، ثم استرد الجريدة والكيس معها ، وغادر المركبة على الفور ، وهناك وراء لوحة اعلان فى مكان خال من الناس ، فتح الكيس ، ورأى عمود النقود الفضية والبرونزية وعندئذ ، كما قال لنا ، وثب قلبه . واغلق الكيس دون أن يحصى النقود ، ثم عاد راكضا الى البيت

وعندما استردت أمى روعها ، أفرغت محتويات الكيس على السرير . ولكن الكيس ظل ثقيلا فى يدها . فقد كان له جيب ثالث فى الوسط ، وفتحته أمى فاذا بها تجد سبعة جنيهات ذهبية

وفرحنا فرحا جنونيا . ولم يكن فى الكيس والحمد لله أى عنوان ، فلم تنشط وساوس أمى الدينية نشاطا يذكر . ومع أن فكرة باهتة عن الخسارة التى أصابت صاحب الكيس قد عبرت بأذهاننا، فان هذه الفكرة سرعان ماطردها ايمان أمى بأن الله أرسل الكيس الينا بركة من السماء

وما كادت أمى تسترد صحتها حتى ذهبنا نستجم فى جزيرة « ساوث اند » ، بعد أن كستنا أمى كسوة جديدة

وأصابنى منظر البحر ـ عندما رأيته أول مرة ـ بالذهول . فقد بدا لىَ معلقا فى الفضاء ، كأنه غول حى نابض ، يوشك ان ينقض على

وخلع ثلاثتنا الاحذية ، ورحنا نركض فى الماء ، فكانت حلما من المتعة دغدغة البحر الدافىء لباطن قدمى ، وحول كعبى ، وتداعى الرمل الناعم تحت خطواتى

وكان يوما .. ياله من يوم ! الشاطىء الزعفرانى بما ينتثر عليه من جرادل وردية وزرقاء ، ومجاديف خشبية،

وخيم وشمسيات ملونة .. والزوارق الشراعيـــة وهى تتمايل فى نشوة فوق موجات صغيرة ضـــاحكة .. وعلى الشط زوارق أخرى تستلقى بكسل على جنبها ، وتفوح منها رائحة الاعشاب البحرية والقطران .. ان ذكرى هذا كله ما تزال حتى الان تملؤنى بالنشوة ..

وقد عدت مرة اخرى الى ســاوثهند فى عام ١٩٥٧ ، وبحثت عبثا عن الطريق الضيق الصاعد الذى وقع منــه بصرى على البحر أول مرة . ولكن لم يكن هناك اثر له . ولم أجد ــ عند أطراف المدينة ــ الا أطلال مايشبه قرية للصيادين ، بها واجهات للمتاجر من الطراز القديم ، وقد بدت لى هذه القريةمألوفة ،تذكر فى غموض بالماضى ..ربما بسبب رائحة أعشاب البحر والقطران

ولكن .. كما ينفد الرمل من الساعة الرملية ، كذلك نفدت فى النهاية ثروتنا ، وعاد الفقر يلاحقنا من جديد

وبحثت أمى مرة أخرى عن وظيفة ، ولكن الوظائف كانت أندر من ان توجد . وبدأت المشاكل تتراكم .. وتأخرنا فى دفع الاقساط فانتزعت ماكينة الخياطة من أمى نتيجــة لذلك . أما الشلنات العشرة الاسبوعية التى كان يدفعهــا أبى ، فقد توقفت تماما ..

ولجأت أمى بدافع اليأس الى محام جـــديد . فاذا بالمحامى ــ وقد رأى أن القضية لن تدر عليه ربحا مجزيا ــ ينصحها بأن تضع نفسها وطفليها فى رعاية ســـلطات مقاطعة لامبث .. حتى يضطر والدى الى اعالتنا

ولم يكن أمام أمى حل اخر ، فهى مثقلة بعبء طفلين ، وصحتها سيئة . فقررت أن ندخل نحن الثلاثة ملجأ لامبث

## الفصل الثانى

# فى ملجأ لامبث

* حصلت على وظيفة راقص .. بسبعة عشر مليما !
* وعلى سبيل التجديد ، حاولت أن أكون مشعوذا !
* ثياب أخى ترهن مرة فى الأسبوع !
* فن الوصول الى مائدة آل ماكارثى
* هل كان ينقذ أمى فنجان من الشاى ؟

ومع اننا ــ أنا وأخي سيدني ــ كنا نفهم ما فى دخول الملجأ من عار ، فاننا فكرنا فى الامر ــ عندما اخبرتنا به أمي ــ كمغامرة مثيرة ، واجازة من الحياة فى حجرة واحدة مزدحمة .. وعندما جاء ذاك اليوم الحزين لم أدرك حقيقة ما كان يجرى الا عندما دخلنا من بوابة الملجأ . فعندئذ وضح لى ماينطوى عليه الامر من الم وتعاسة ، اذ انهم وراء البوابة فرقوا بيننا ، وذهبت أمي فى أتجاه عنبر النساء ، بينما ذهبنا نحن فى الاتجاه الاخر نحو عنبر الاطفال ..

وكم اذكر جيدا حتى الآن مرارة الحزن اللاذع يوم أول زيارة بيننا ، وصدمنا عندما رأينا أمي تدخل الحجرة للزيارة مرتدية ثياب الملجأ . كم كانت تبدو حزينة ومرتبكة! لقد هرمت ونحل عودها فى أسبوع واحد . ولكن وجهها أضاء عندما وقع بصرها علينا . وشرعنا نبكى أنا وسيدنى ، فجعلناها تبكى هى الاخرى ، وبدأت تجرى على خديها الدموع . الا أنها ما لبثت أن استعادت ثباتها ، وجلسنا معا على دكة رديئة الصنع ، وأيدينا فى حجرها تربت عليها برفق، وأخذت تبتسم لمرأى رؤوسنا الحليقة، وتتحسسها مواسية وهى تؤكد لنا أننا عن قريب سيلتئم شملنا من جديد . ثم أخرجت لنا من ثوبها كيسا من حلوى جوز الهند كانت قد ابتاعته من مخازن الملجأ بما حصلت عليه

من نقود من احدى الممرضات فى مقابل قيامها بنسيج أساور من الدانتيلا لها . وبعد افتراقنا ظل أخى سيدنى يردد فى أسى : كم تقدمت بها السن

وسرعان ما روضنا أنفسنا — أنا وسدنى — على حياة الملجأ ، ولكن فى اطار من الحزن . ولست اذكر الان الا قليلا مما كان يحدث . ولكن وجبة الفداء على المائدة المستطيلة مع غيرنا من الاطفال كانت من المناسبات المحببة التى نتطلع اليها .. وكان يترأس المائدة نزيل بلغ حوالى الخامسة والسبعين من العمر ، فى ملامحه كبرياء ، وله لحية خفيفة بيضاء ، وعينان حزينتان . وقد أختارنى كى أجلس بجواره لاننى كنت أصغر الاطفال سنا ، وكانت لى — الى أن حلقوا رأسى — اكثر الخصلات غزارة ، وقد سمانى هذا الرجل « نمره » الخاص . وكان يقول انه سيجعلنى عندما اكبر ارتدى قبعة ذات شارة وأجلس عند مؤخرة عربته واضعا يدى على صدرى . وقد جعلنى هذا التشريف أحبه حبا شديدا . ولكن ماكاد يمضي يوم أو يومان حتى ظهر على المسرح غلام آخر يتمتع بخصلات أغزر منى ، واحتل مكانى بجوار السيد العجوز الذى أوضح فى عبث أن صاحب الخصلات الاكثر والسن الصغير له دائما حق الاولوية !

وبعد ثلاثة أسابيع من وصولنا الى ملجأ لامبث ، نقلنا الى « معهد هانويل لليتامى والأحداث المشردين » .. على مسافة تبلغ حوالى ٢١ ميلا خارج لندن

وكانت رحلة مثيرة فى عربة خبز تجرها الخيل ، وتمت الرحلة فى ظروف طيبة ، فقد كانت المنطقة الريفية حول هانويل جميلة فى تلك الايام ، تزينها صفوف من شجر الكستناء ، وحقول من القمح الناضج ، وأشجار فاكهة مثقلة بالثمار . ومنذ ذلك الوقت ورائحة الريف العطرية

السخية بعد سقوط المطر تذكرنى دائما بهانويل

وما كدنا نصل الى هناك حتى سلمونا الى عنبر الاستقبال ، حيث وضعونا تحت الملاحظة الصحية والعقلية قبل أن ندخل المدرسة . لان وجود غلام واحد شاذ أو مريض ، بين ثلثمائة غلام او اربعمائة ، لن يكون فى صالح المدرسة ، فضلا عن أن الغلام نفسه سيكون فى حالة تعسة

وقد قضيت الايام الاولى فى المعهد ضائعا ، تعسا ، ففى الملجأ كنت دائما اشعر ان أمى على مقربة منى ، وكان هذا يطمئننى . أما فى هانويل فكان يبدو أن مسافات شاسعة تفصل بيننا . وعندما حولنا من عنبر الاستقبال الى عنابر المعهد ذاته ، فرقوا بينى وبين سيدنى ، فذهب هو مع الاولاد الكبار وذهبت انا مع الأطفال . وصرنا ننام فى قسمين منفصلين من العنابر . فكان نادرا ما يرى احدنا الاخر . وأصبحت وحيدا وانا لم اتجاوز السادسة من عمرى الا بقليل ، مما أشعرنى بالضآلة وحقارة الشأن .. خاصة فى أمسيات الصيف أثناء الصلوات التى تسبق النوم . عندما كنت « وانا راكع على ركبتى مع عشرين طفلا اخر بثياب النوم » انظر من خلال النوافذ المستطيلة الى عتمة الغروب وهى تتكاثف ، والى التلال المتعرجة فى الخارج ، واشعر انى غريب عن كل هذا ، بينما أصواتنا ترتفع بالغناء ، مبحوحة ، ناشزة :

أمكث معى ، فالمساء يهبط بسرعة . والظلام يتكاثف ، يارب ، فلا تدعنى .. فى هذه اللحظات كنت أشعر أننى منبوذ تماما ، ومع أننى لم أكن أفهم معنى الابيات ، فان اللحن ، وشفق الغروب ، كانا يضاعفان من حزنى

ولكن ، كم كانت مفاجأة سعيدة عندما دبرت أمى — بعد شهرين — أمر خروجنا ، ورحلنا الى لندن مرة أخرى ،

والى ملجأ لامبث . وهناك وجدنا أمى تنتظرنا أمام بوابة فى ثيابها العادية . كانت قد تقدمت بطلب الخروج لمجرد الرغبة فى أن تقضى يوما فى طفليها ، وفى نيتها ــ بعد أن نقضى عدة ساعات معا ــ أن نعود فى نفس اليوم ! فهى كواحدة من نزيلات الملجأ لم تكن تملك غير هـذه الحيلة لتجتمع بنا

وكانت ملابسنا الخاصة قد أخذت منـا قبل دخـول الملجأ ، وعقمت بالبخار فأعادوها الينا الان غير مـكوية . وصارت هيئتنا ونحن نجتاز بوابة الملجأ ــ أنا وسيدنى وامى ــ أشبه بالانقاض المهشمة

كانت ساعة مبكرة من الصـباح ، ولم يكن لنـا مكان نذهب اليه . فمشينا مسافة ميل الى حديقة كننجتون العامة . وكان مع سـيدنى تسـعة بنسـات مربوطة فى منـديل ، فاشـترينا نصف رطل من الكريز الاسـود ، وقضينا الصباح بأكمله فى الحديقة على احدى الدكك . ثم كور سيدنى فرخا من ورق الصحف . ولف حوله بعض الخيط ، وقضينا فترة من الوقت نلعب نحن الثلاثة لعبة « امسك الكرة » . وفى منتصف النهار ذهبنا الى «بوفيه» انفقنا فيه بقية نقودنا على كعكة ثمنها قرش . وسمكة من اسماك الرنجة المجففة ثمنها نصف قرش ، وكوبين من الشاى ثمن كل منهمـا مليمـان . وبعـد ذلك عدنا الى الحديقة ، ومضينا نلعب أنا وسيدنى مرة أخرى ، بينما جلست أمى تطرز بالابرة

وتوجهنا بعد الظهر عائدين أدراجنا الى الملجأ ، حتى تستطيع ــ كلما قالت أمى بمرح ــ أن « نلحق بموعـــد الشاى » . وكان المسئولون فى غاية السخط . لان عودتنا معناها تكرار نفس الاجراءات من تبخير لثيـــابنا ، الى ابقائنا انا وسيدنى فترة أخرى فى الملجأ قبل اعادتنا الى

هانويل .. الامر الذى كان يتيح لنا بالطبع فرصة لمقابلة أمى مرة أخرى

ولكن اقامتنا فى هانويل فى المرة الثانية دامت ما يقرب من عام كامل ، وكان عاما تثقيفيا ، دخلت فيه المدرسة ، وتعلمت كيف أكتب اسمى : شـــابلن . وكانت الكلمـــة تفتننى ، ويخيل الى أنها تشبهنى !

وكانت مدرسة هانويل مقسـمة الى قسـمين : أحدهما للبنين ، والاخر للبنات . وفى مساء السبت كان الحمام يحجز للاطفال ، وتشرف على استحمامهم البنات الأكبر سنا . وكنت بالطبع لم أبلغ السابعة ، ولكن شعـورا بالضعة كان يسودنى فى تلك المناســبات .. فكان ذلك الخضوع لفتاة فى الرابعة عشر من العمر ، تعالج بالفوطة كل جزء من شخصى ، أول مناسبة فى حياتى أدركت فيها معنى الحرج

وعندما أتممت السابعة نقلت من عنبر الاطفال الى عنبر الصبيان ، حيث تتراوح الاعمار مابين السابعة والرابعـة عشرة . واصبحت الان أملك المساهمة رسميا فى كل نشاط للكبار . فى تمارينهم وتدريباتهم الرياضية ، ورحـلاتهـم المنتظمة التى كانوا يقومون بها مرتين فى الاسبوع مشيا على الاقدام خارج المدرسة

ومع اننا فى هانويل كنا موضع رعاية طيبة : فان حياتنا كانت حزينة . فالحزن كان فى جو المكان ، وفى تلك الطرق الزراعية التى كنا نقطعها مشيا فى طوابير ثنـائية تتألف من مائة طفل ، وكم كنت أمقت هذه الطوابير ، والقرى التى نمر خلالها بينما الاهالى يحملقون فينا ! فقد كانوا يسموننا نزلاء « معمل التفريخ » .. وهو اصطلاح عامى للتعبير عن المعهد

وكان الملعب الخاص بالصبيان تبلغ مساحته فدانا ، وكان مرصوفا بالحجر ، تحيط به مبان من دور واحد من الطوب الاحمر ، تستخدم كمكاتب ومخازن ، وصيدلية ، وعيادة أسنان ، وحجرة الثياب . وفى اظلم ركن من الفناء توجد حجرة خالية ، كان محبوسا فيها فى ذلك الوقت غلام فى الرابعة عشرة من عمره ، يقول الأولاد عنه انه شخص ميئوس منه ، فقد حاول الفرار من المعهد متسلقا الى السطح من خلال نافذة فى الدور الثانى ، وتحدى المسئولين وهم يتسلقون وراءه بقذائف الطوب وثمار البلوط . حدث هذا بعد أن نمنا نحن الصغار ، ورواه لنا الاولاد الكبار فى الصباح التالى بصورة تبعث على الفزع

وكانت العقوبة على مثل هذا النوع من الجرائم الكبرى تجرى علنا فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، فى صالة الالعاب الرياضية . وهى قاعة كئيبة يبلغ طولها عشرين مترا وعرضها حوالى ١٣ مترا ، ولها سقف مرتفع ، وعلى أحد جوانبها تتدلى حبال مثبتة فى العوارض العليا . فاذا جاء صباح الجمعة سار طابور من مائتين أو ثلثمائة من الاطفال تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة ، واصطفوا فى القاعة بهيئة عسكرية ، راسمين ثلاثة أضلاع من مربع . أما الضلع الرابع فهو الطرف الاقصى من القاعة ، حيث يقف المذنبون وراء منصة مدرسية فى طول موائد طعام الجنود ، ينتظرون المحاكمة والعقاب ، وأمام المنصة من الناحية اليمنى ينهض حامل خشبى تتدلى منه السيور الجلدية التى تستخدم فى تقييد اليدين ، بينما تتدلى من اطاره عصا تنذر بالسوء

وكان جزاء المخالفات الصغيرة أن يوضع الغلام على المنصة الطويلة ، ووجهه الى أسفل ، ثم يوثق أحد الرقباء قدميه ويمسك بهما .. بينما يقوم رقيب آخر بسحب

قميصه من البنطلون الى أن يغطى رأسه ، ويحكم شد البنطلون حول جسمه

وعندئذ كان يتقدم الكابتن هيندروم ، وهو من رجال البحرية المتقاعدين ، يبلغ وزنه حوالى قنطارين .. ويقف واحدى يديه خلف ظهره . وفى الاخرى عصا طولها أكثر من متر ، وسمكها كابهام الرجل ، يقيسها على مؤخرة الصبى . ثم ببطء ، بحركة مسرحية ، يرفعها عاليا فى الهواء ، ويهوى بها — بحفيف مسموع — على مؤخرة الصبى . كان مشهدا رهيبا ، وكان الصبى فى كافة الاحوال ينهار مغمى عليه

وكان الحد الادنى للعقوبة ثلاث عصى ، والحد الاقصى ستا . وكانت صرخات الضحية — اذا تلقى أكثر من ثلاث عصى — تمزق القلب . وفى بعض الاحيان كان يصمت صمتا مريبا ، أو يفقد الوعى . وكانت الضربات تشل الذى يتلقاها ، فيحتاج الى من يحمله وينحيه جانبا ، حيث يوضع على مرتبة من مراتب الالعاب ، ويترك فوقها يتلوى ويختلج عشر دقائق على الاقل قبل أن يخف الالم ، تاركا على مؤخرته ثلاثة خطوط حمراء عريضة كاصابع امرأة تحترف غسل الثياب !

ويختلف الامر عند استخدام « الفرقلة » . فبعد ثلاث ضربات بها ، كان اثنان من المشرفين يحملان الغلام الى العيادة للعلاج

وكان الاولاد ينصحون بألا تنكر التهمة ، حتى اذا كنت بريئا .. اذ أن ثبوتها عليك عندئذ سيكون معناه أن تنال أقصى العقوبة . والعادة أن الاولاد لم يكونوا قادرين على النطق بحيث يتمكنون من اعلان براءتهم

كنت عندئذ فى السابعة من العمر ، وفى قسم الاولاد

الكبار . وما زلت أذكر كيف شاهدت أول مرة عملية الضرب هذه ، وأنا أقف صامتا وقلبي يدق بعنف منذ دخل المسئولون .. بينما يقف وراء المنصة ذلك الصبي الميئوس منه المغامر الذي حاول الفرار من المعهد . كنا لا نكاد نرى أكثر من رأسه وكتفيه فوق مستوى المنصة ، فقد كان بالغ الضآلة ، وكان له وجه نحيف مدبب ، وعينان واسعتان

وقرأ الناظر التهمة بوقار ، ثم سأل :

ـ مذنب أم غير مذنب ؟

فلم يجب متمردنا ، وانما نظر امامه متحديا . فاقتادوه عندئذ الى العروسة . ولما كان صغيرا ، فقد أوقفوه على أحد صناديق الصابون حتى يمكن ربط معصميه . وبعد ان تلقى ثلاث ضربات « بالفرقعة » أخذوه الى العيادة للعلاج

وكانت العادة أنه ـ في يوم الخميس من كل أسبوع ـ يرتفع في الملعب صوت نفير يجعلنا نتوقف عن اللعب ، ونتجمد في أماكننا كالتماثيل .. بينما يعلن الكابتن هيندروم في البوق أسماء أولئك الذين يتعين عليهم أن يقدموا أنفسهم يوم الجمعة للعقاب

وحدث ذات خميس ـ لدهشتي الشديدة ـ أنني سمعت اسمي ينادى عليه . ولم يكن في وسعي ان أتخيل ما الذي فعلت . ولكنني لسبب لا أعرفه أحسست بانفعال شديد . ربما لانني صرت محور حادث هام

وفي يوم المحاكمة تقدمت نحو الناظر الذي قال :

ـ أنت متهم باشعال النار في دورة المياه !

ولم يكن هذا صحيحا . اذ أنني عندما وصلت الى دورة المياه لادخل الحمام كان بعض الاولاد مشغولين

بحرق قطع من الورق على الارض الحجرية ، وكانت النار مشتعلة ، ولكن لم تكن لى يد فيها

وسأل الناظر :

ــ مذنب أم غير مذنب ؟

فوجدت نفسى مدفوعا بقوة فوق طاقتى ، وبعصبية شديدة ، الى أن أصيح :

ــ مذنب

ولم أشعر لا بالغيظ ولا بالظلم ، وانما باحساس المغامر الخائف ، عندما قادونى الى المنصة وأنالونى ثلاث عصى على مؤخرتى . وكان الالم مبرحا الى حد أن بهر أنفاسى ، ولكننى لم أصرخ . ومع انه شل أعضائى ذلك الالم ، وحملونى الى المرتبة كى أفيق ، فاننى أحسست كأنى بطل منتصر

ولما كان سيدنى يعمل فى المطبخ ، فانه لم يعرف بالامر الا فى يوم توقيع العقوبة .. عندما سار مع الاخرين فى الطابور الى قاعة الالعاب ، ورأى وجهى ــ لصدمته المذهلة ــ يطل من فوق المنصة . وقد قال لى فيما بعد أنه عندما رآنى أتلقى العصى الثلاث بكى فى غيظ شديد

وكانت عادة الاخ الاصغر ان يشير الى أخيه الاكبر بكلمة « صغيرى » . وهى كلمة توحى بالاعتزاز ، وتشعر بشىء من الامان . وكثيرا ما كنت أذهب لارى « صغيرى » سيدنى وأنا خارج من قاعة الطعام .. فقد اعتاد أن يأتينى خلسة بشريحة مطوية من الخبز ، فى داخلها كتلة غليظة من الزبد مضغوطة بين الطيات .. فأخفيها تحت قميصى ، ثم أقتسمها مع غلام آخر .. لا لاننا كنا نجوع ، ولكن لان كتلة الزبد السخية كانت ترفا غير عادى بالنسبة لنا

غير أنه ما كان لهذه الاطايب أن تستمر . فقد غادر سيدنى معهد هانويل كى يلتحق بسفينة التدريب « اكسماوث »

كان صبى الملجأ يخير ـ اذا ما بلغ العام الحادى عشر ـ بين أن يلتحق بالجيش أو بالاسطول . فاذا اختار الاسطول أرسلوه الى « اكسماوث » . ولم يكن هذا بالطبع إجباريا ، ولكن سيدنى كان يريد أن يبنى لنفسه مستقبلا فى البحار . وهكذا تركت وحدى ، منفردا ، فى هانويل

الشعر بالنسبة للاطفال جزء من كيانهم الشخصى . فهم يبكون بعنف عندما يحلق أول مرة . ومهما كان شكله ، كثيفا أو مجعدا أو ناعما .. فانهم يشعرون انهم بالحلاقة قد جردوا من جزء من شخصيتهم

وقد حدث مرة أن ظهر وباء القراع فى هانويل . ولما كان هذا المرض شديد العدوى ، فان المصابين كانوا ينقلون الى صالة العزل التى تطل نوافذها على الملعب من الدور الاول . وكثيرا ما كنا نرمى بأبصارنا الى أعالى فى اتجاه هذه النوافذ ، ونرى أولئك التعساء يرقبوننا بنظرات محرومة وقد حلقت رؤوسهم تماما واصطبغت باللون البنى من أثر صبغة اليود . كان منظرا بشعا ، وكنا لا ننظر اليهم الا باشمئزاز

ولهذا فاننى يوم وقفت خلفى احدى الممرضات فجأة فى قاعة الطعام ، وفرقت ما بين أطراف شعرى ثم صاحت « قراع ! » .. وجدت نفسى أنفجر فى نوبات عنيفة من البكاء

واستغرق العلاج عدة أسابيع بدت كأنها أبدية . وحلق رأسى وصبغ باليود ، وربطت حوله منديلا كأنفار جمع

القطن . ولكن الشيء الذى رفضت أن أفعله كان النظر من النافذة الى الاولاد فى الملعب ، فقد كنت أعلم مدى الازدراء الذى يحملونه لنا

وفى أثناء فترة العــزل هــذه ، زارتنى أمى ، فقــد استطاعت بطريقة ما أن تدبر أمر خروجهــا من الملجأ ، وشرعت تحاول من جديد أن تقيم بيتا لنا . وكان حضورها بمثابة باقة من الزهور ، فقد كانت مشرقة وعــذبة الى الحد الذى جعلنى أخجل من مظهرى غير المهندم ، ورأسى الحليق المصبوغ باليود

وقالت لها الممرضة :

ــ نرجو أن تغفرى له قذارة وجهه

فضحكت أمى .. وكم أذكر جيدا كلماتها الحبيبة وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى قائلة :

ــ بكل ما عليك من أقذار ، فاننى سأظل أحبك

وبعــد ذلك بفترة قصــيرة ، ترك ســيدنى الســفينة اكسماوث ، وتركت أنا هانويل ، وعدنا نعيش مع أمى . فقد استأجرت غرفة وراء حديقة كننجتون العــامة ، واستطاعت لفترة ما أن تعولنا . ولكننا سرعان ما عدنا الى الملجأ مرة أخــرى . وكانت الظروف التى أدت الى عودتنا تتعلق بعجز أمى عن العثور على عمل ، وكســاد سوق أبى فى الوسط المسرحى . وكنا أثناء تلك الفترة القصيرة قــد ظللنا طوال الوقت ننتقل من حجرة فقيرة الى حجرة فقيرة ، كأنما هى مباراة فى الشطرنج تنتهى النقلة الاخيرة فيها بالعودة الى الملجأ

ولما كنا نعيش الان فى أبرشية أخرى «شياخة أخرى»، فقد أرسلنا الى ملجأ غير الملجأ الاول ، ومنه الى معهــد « نور وود ».

وكان أكثر كآبة من هانويل ، اذ كانت أشجاره أطول ، وأوراقها أقتم . ولعل المنـاظر الريفية حوله كانت أكثر روعة ، ولكن الجو السائد كان مجردا من البهجة

وذات يوم ، بينما كان سـيدنى يلعب الكرة ، نادته اثنتان من الممرضات ، وأخرجتاه من اللعب لكى تقولا له أن أمى قد جنت وأرسلت الى مستشفى الامراض العقلية فى « كين هيل » ولم يظهر على سيدنى أى انفعال عندما سمع بالنبأ ، بل عاد أدراجه ليستأنف لعب الكرة ، ولكنه بعد المباراة اختلى بنفسه ، وانخرط فى البكاء

أما أنا ، فلم أصـدقه عنـدما أخبرنى ، ولم أبك .. ولكن يأسا قاتلا سيطر على نفسى ، لماذا فعلت أمى ذلك ؟ كيف يمـكن لأمى المشرقة ذات القلب الرقيق أن تجـن ؟ كنت أحس احساسا غامضا بأنها تعمدت الفرار من عقلها ونبذتنا . وفى غمار يأسى كنت أراها فى الاحلام تنظر الى بأسى وهى تبتعد شيئا فشيئا وتذوب فى الفراغ

وبعد أسبوع تم ابلاغ النبأ الينـا بصفة رسـمية . وأبلغنا أيضا أن المحكمـة قضت بالزام أبى بكفالتنـا أنا وسيدنى

وكانت فـكرة الاقامة مع أبى شيئا مثـيرا .. فأنا لم أره فى حياتى غير مرتين ، احداهما على المسرح ، والاخرى أثناء عبورى ذات مرة أمام بيت فى شارع كننجتون ، اذ رأيته قادما فى ممر الحـديقة الامامى نحو البـوابة ، وبصحبته سيدة . فتوقفت أراقبه وقد أدركت ادراكا غريزيا انه أبى . وأومأ هـو الى كى أقترب ، ثم سألنى عن اسـمى ، فشـعرت برهبة الموقف وتصنعت البراءة قائلا : « شارلى شابلن » . وعندئذ نظر الى السـيدة نظـرة ذات مغزى ، ووضع يده فى جيبه ومنحنى نصف جنيه . فانطلقت دون كلمة أخرى أجرى رأسـا الى

البيت ، واخبرت أمى أننى قد رأيت أبى

والان ها نحن سنعيش معه . ومهما كان الحال فان شارع كننجتون كان شيئا مألوفا لدينا ، ولم يكن غريبا ولا كئيبا كمعهد نورود

ونقلنا المختصون فى عربة خبز الى البيت رقم ٢٨٦ بشارع كننجتون ، نفس البيت الذى سبق أن رأيت والدى يمشى فى ممر حديقته . وفتحت الباب نفس السيدة التى سبق أن رأيتها معه . كان مظهرها يدل على التشتت وحدة الطبع ، ولكنها كانت جذابة ، رشيقة، طويلة القامة .. لها شفتان ممتلئتان ، وعينان حزينتان كعينى الظبى . وكان اسمها لويز ، وعمرها يكاد يبلغ الثلاثين ..

واتضح أن المستر شابلن ليس فى البيت .. فتركنا الموظف المختص ــ بعد الشكليات المعتادة والتوقيع على الاوراق ــ فى عهدة لويز .. التى صعدت بنا الى السلالم ، ثم الى حجرة الجلوس الخارجية . وكان هناك طفل صغير يلعب على أرض الغرفة عندما دخلنا . طفل باهر الجمال فى الرابعة من عمره ، له عينان واسعتان ، داكنتان ، وشعر بنى غزير الخصلات : كان ابن لويز .. أخى غير الشقيق

كانت الاسرة تعيش فى غرفتين . ومع ان الحجرة الخارجية كانت لها نوافذ رحبة ، فان الضوء كان يتسلل الى الداخل كما لو كان يأتى من تحت سطح الماء وكل شىء يبدو حزينا كلويز نفسها ، حتى ورق الجدران ، والاثاث المكسو بشعر الخيل . حتى السمكة الكبيرة الموضوعة فى حوض زجاجى ، والتى ابتلعت سمكة أخرى فى نفس حجمها ومازال رأسها يطل من فمها .. كانت هى الاخرى حزينة حزنا فظيعا

ووضعت لويز فى الغرفة الخلفية سريرا اضافيا لى ولسيدنى كى ننام عليه ، ولكنه كان سريرا صغيرا . فاقترح سيدنى أن ينام على الكنبة فى حجرة الجلوس . واذا بلويز ترد عليه :

ـ ستنام حيث تؤمر !

وساد بهذه الاجابة صمت محرج ونحن نعود ادراجنا الى غرفة الجلوس

لم يكن استقبالها لنا حارا ، ولا عجب . فأنا وسيدنى قد فرضنا عليها فرضا . ونحن فوق ذلك ابنا زوجة ابى المطلقة

والتفتت لويز الى سيدنى قائلة :

ـ خذ .. اجعل نفسك ذا فائدة واملأ اناء الفحم

ثم تحولت الى :

ـ وانت . اذهب الى مخزن الاطعمة المجاور « لهوايت هارت » ، واحضر لى لحما محفوظا بخمسة قروش

فما كنت الا سعيدا بالابتعاد عنها وعن الجو كله . ففي داخلي كان قد بدأ ينمو خوف غامض ، وبدأت أتمنى لو أننا عدنا الى معهد نوروود

ثم وصل أبى فيما بعد ، واستقبلنا برقة وحنان . وقد افتتنت تماما به . فكنت على المائدة أراقب كل حركة يقوم بها ، وطريقته فى الاكل ، وفى الامساك بالسكين بين أصابعه كالقلم أثناء تقطيع اللحم . وقد ظللت أقلده فى ذلك عدة سنوات

وعندما تكلمت لويز عن شكوى سيدنى من ضيق السرير ، اقترح أبى أن تدعه ينام على الكنبة التى فى حجرة الجلوس . فأثار انتصار سيدنى هذا حفيظتها ، ولم تغفر له ذلك ابدا . وصارت تشكوه الى أبى بشكل دائم

ومع أن لويز كانت امرأة مشاكسة ، مثيرة للخصام ، فانها لم تضربني مرة واحدة ، بل ولم تهددني بالضرب . ولكن بغضها لسيدني جعلني دائما في حالة خوف وحذر منها .. وكانت تشرب كميات كبيرة من الخمر ، مما ضاعف من هذا الخوف . فقد كانت تنتابها حين تسكر حالة مخيفة من الاستهتار وعدم السيطرة على النفس ، حتى أنها لتبتسم معجبة بطفلها ذى الوجه الملائكي وهو يسبها مستخدما أقذر الالفاظ . ولسبب ما لم تكن لي على الاطلاق صلة بالطفل . فمع أنه كان أخي الا انني لا أذكر يوما اني تبادلت معه كلمة واحدة .. وكنت أكبره بأربع سنوات . وكثيرا ما كانت تجلس وهي مخمورة فتسرح وتتأمل ، بينما أكون أنا في حالة من الذعر الشديد اما سيدني فلم يكن يعيرها التفاتا كبيرا ، اذ نادرا ما كان يعود الى البيت قبل ساعة متأخرة من الليل

اما أنا فكان على أن أعود بعد المدرسة الى البيت رأسا ، وأقضي المشاوير ، وأؤدي مختلف الاعمال

وأرسلتنا لويز الى مدرسة كننجتون . فكان في ذلك شيء من الترفيه والانطلاق ، اذ كان وجود أطفال آخرين معي يجعلني أشعر بأنني أقل عزلة . وكان يوم السبت نصف عطلة ، ولكنني لم أكن أتطلع اليه ، لان العطلة كانت تعني العودة الى البيت ، ومسح البلاط ، وغسل السكاكين . ولان لويز كانت دائما تسكر في ذلك اليوم . فبينما أكون أنا مشغولا بغسل السكاكين ، تكون هي جالسة مع صديقة لها ، تشرب الى ان يسيطر عليها نكد مرير فتشكو لصديقتها بصوت مسموع من الزامها برعايتنا أنا وسيدني . وتقول مشيرة الى :

ــ هذا لا بأس به . أما الاخر فانه حلوف . ويجب أن

يرسل الى اصلاحية .. فضـــــلا عن ذلك فانه ليس ابن شارلى .. !

وكان هذا التحقير اســـيدنى يخيفنى ويحطم روحى ، فأذهب الى فراشى مكتئبـا ، وأرقـــد مستسلما لأرق حزين . ولم أكن عندئذ قد بلغت الثامنة بعد ، ولكن تلك الأيام كانت أطول أيام حياتى ، وأكثرها تعاسة

وكان يحدث فى بعض ليالى السبت ــ وأنا فى قبضـة يأسى وجزعى ــ أن أسمع صوت الموسيقى الصاخبــة لاحدى الفرق المتجولة وهى تعبر خارج النـافذة الخلفية لغرفة النوم ، تعزف لحنا حزينا من الحـــان المـارش ، ويصحبها شبان معربدون وبائعات متجولات تتصـــاعد ضحكاتهن العابثة فى الفضاء . فكنت أشعر أن هذا الموكب ــ بصخبه وحيويته ــ انما يتجاهل فى قسوة شـــديدة تعاستى . ومع ذلك ، فما تكاد الموسيقى تخفت وهى تبعد حتى اشعر بالاسف لذهابها . وكان يمر احيـــانا بعض المنادين : وكان منهم واحد يخيل لى انه يصيح « احكمى يا بريطانيا ! » ، وينهيها بصوت كصياح الخنازير ، بينما هو الواقع يبيع المحار . ومن الحانة التى تفصل بيننا وبينها ثلاثة بيوت ، كنت أستطيع أن أسمع صوت الزبائن فى موعد الاغلاق ، وغناء السكارى وهم ينوحون بأغنية باكية مقبضة كانت شائعة فى ذلك الوقت :

بحق أيامنا الماضية ، لاتدع خصامنا يطول
بحق أيامنا الماضية ، قل انك ستنسى وتصفح
فالحياة أقصر من أن تضيع فى الخصام
والقلوب اثمن من أن نحطمها
ضع يدك فى يدى ، ولنكن أصدقاء بحق أيامنا الماضية !

ومع أننى لم أتفهم الاحساس الذى تنطوى عليه أبدا ، فانها كانت تبدو لى متمشية مع ظروفى التعسة ، وكانت تسلمنى برفق الى النوم

وكان سيدنى اذا عاد متأخرا ـ وهو ماكان يحدث دائما ـ يغزو دولاب الاطعمة !. فأثار هذا لويز . ودخلت عليه ذات ليلة ـ بعد أن ثملت بالخمر ـ فنزعت من فوقه الغطاء وأمرته بأن يخرج من البيت . ولكن سيدنى كان قد أعد نفسه لها ، فدس يده بسرعة تحت الوسادة واخرج منها سلاحا .. خطافا طويلا من النوع المستخدم فى تثبيت الزراير كان قد دبب نهايته

وقال سيدنى :

ـ اذا اقتربت منى سأدفن هذا فيك !

فتراجعت مأخوذة :

ـ يا للمضغة الصغيرة القذرة ! أنه يريد أن يقتلنى !

فقال سيدنى بلهجة مسرحية :

ـ نعم ، سأقتلك !

ـ انتظر حتى يعود المستر شابلن الى البيت !

ولكن المستر شابلن كان نادرا ما يعود للبيت .. علما اننى ما زلت أذكر مساء يوم من أيام السبت ، قضاه فى البيت يشرب مع لويز ، وكنا لسبب ما جالسين جميعا مع صاحبة البيت وزوجها فى حجرتهما الخارجية فى الدور الارضى ، وكان وجه والدى يبدو شاحبا فى ضوء المصابيح الكهربائية ، وهو يغمغم لنفسه متأففا ، ثم فجأة وضع يده فى جيبه ، وأخرج حفنة من النقود قذف بها فى عنف على الارض ، تاركا قطع الذهب والفضة تتناثر فى كل اتجاه . فأصابنا الذهول . ولم يتحرك أحد من مكانه . وظلت صاحبة البيت جالسة كما هى ، ولكننى ضبطت عينيها تتابعان أحد الجنيهات الذهبية وهو يتدحرج الى

ركن بعيد تحت أحد المقــاعد .. وكانت عيناى تتابعانه أيضا .. وعندما لم يتحرك أحد رأيت انه يحسن ان ابدأ انا والتقطه . فتبعتنى صاحبة البيت والاخرون ،وراحوا يلتقطون بقية النقود ، حريصين على ان تكون تحركاتهم مكشوفة امام عين والدى المنذرة

وذات يوم من أيام السبت ، عدت بعد المدرســـة الى البيت فلم أجد فيه أحدا . كان سيدنى خارج البيت طول النهار كعادته يلعب الكرة ، وقالت صاحبة البيت ان لويز وطفلها خرجا منذ الصباح . وقد شعرت بالارتياح لذلك فى البداية . اذ كان معناه اننى لن ألزم بمسح البــلاط وتنظيف السكاكين . وانتظرت الى ما بعــد موعد الغداء بوقت طويل ، ثم بدأت أقلق . أتراهم قد نبذونى وذهبوا؟ وعندما انقضى نصف النهار الثانى بدأت افتقدهم . ماالذى حدث ؟ كانت الحجرة تبدو شديدة الكآبة ، وخـلوها من الناس يرهبنى . ثم اننى أيضا بدأت أشعر بالجــوع ، فنظرت فى الخزانة ، ولكنى لم أجد طعاما . ولم يعد فى استطاعتى ان أتحمل البقاء وحيدا اكثر من ذلك ، فغادرت البيت وقد سيطرت على الكآبة ، وانفقت بقية النهـــار أتجول بين محال السوق القريبة من البيت . وتسكعت فى طريق لامبث ، وعند التقاطع ، وأنا أتطلع فى نهم خلال نافذات المطاعم الى فخاذ الخنازير والعجول المشوية التى يتصاعد منها البخار ، والبطاطس بلونها البنى المذهب وهى مغمورة فى الصلصة . وقضيت ساعات اتفرج على الدحالين يعرضون بضاعتهم . فشغلنى ذلك عن نفسى ، وهدأ من روعى ، ونسيت الجوع بعض الوقت ، والمأزق الذى أنا فيه ..

وعندما عدت الى البيت ، كان الليل قد حل . وطرقت الباب فلم يجب أحد . كان الجميع فى الخارج . وعدت

امشى مرهقا حتى بلغت ناصية الشارع ، ثم جلست فوق الرصيف على مقربة من البيت حتى أستطيع اذا ما جاء أحد ان اراه . كنت متعبا ، وشقيا . ورحت اتساءل اين يمكن ان يكون سيدنى . وكان الوقت يقترب الان من منتصف الليل ، والشارع قد خلا من متسكع او اثنين . وبدأت الدكاكين تطفىء أنوارها ، باستثناء الصيدلية والمحلات العامة ، فأحسست عندئذ بتعاسة لا حد لها

ثم فجأة ، سمعت صوت موسيقى . موسيقى مذهلة ! تأتى من داخل الحانة القائمة على ناصية « هوايت هارت » وتتردد اصداؤها البديعة فى الميدان الخالى . كان اللحن لحن « النحلة وزهر العسل » ، تعزفه الكلارنيت وموسيقى الفم بمهارة معجزة . ولم أكن قد وعيت قبل ذلك تذوق الالحان .. ولكن هذا اللحن كان جميلا ، شديد العذوبة مسرفا فى البشاشة والبهجة ، دافئا يبعث على الاطمئنان والثقة ، فنسيت تماما موقفى اليائس ، وعبرت الطريق الى حيث كان العازفان . كان عازف موسيقى الفم رجلا ضريرا ، فى موضع العينين منه جرابان خاليان ، عليهما اثار جراح . أما الكلارنيت ، فكان يعزف بها رجل مخمور ، ينضح وجهه بالمرارة ..

ولكن العزف سرعان ماانتهى . وعاد الليل بعد انصرافهما اكثر كآبة مما كان . وعدت انا أعبر الطريق مرهقا ، ضعيفا فى اتجاه البيت . ولم يكن يعنينى عندئذ أن أجد فيه أحدا . فقد كان كل ما أريد هو أن أنام

وهناك فى ممر الحديقة ، تبينت فى الظلام شخصا يتجه عبر الممر نحو باب البيت . كانت لويز ، يسبقها ابنها الصغير . وانتفضت عندما لاحظت أنها تعرج بشكل ظاهر ، وتميل على أحد جانبيها ميلا شديدا . وظننت فى البداية أن ساقها اصيبت فى حادث . ثم تبينت أنها مخمورة .

ولم أكن قد رأيت مخمورا يترنح من قبل . وفكرت انه من الافضل ـ فى مثل حالتها هذه ـ ان ابتعد عن طريقها . فانتظرت الى ان دخلت . ثم جاءت صاحبة البيت فدخلت معها ..

وبينما انا اصعد السلم المظلم متسللا على امل ان اصل الى فراشى دون ان يلحظنى احد ، برزت لى لويز على بسطة السلم صائحة :

ـ الى أين تظن أنك ذاهب بحق الجحيم ؟ .. ان هـذا ليس بيتك

وجمدت فى مكانى بلا حراك

واستطردت لويز :

ـ لن تنام هنا الليلة .. قرفت منكم جميعا . أخرج من هنا ! أخرج أنت وأخوك دع والدكما يتكفل بكما

فاستدرت عائدا دون تردد ، وهبطت السلم الى خارج البيت . لم أعد متعبا ، فقد انبثق فى نفسى عزم جديـد وكنت قد سمعت ان ابى من زبائن حانة « رأس الملكة » فى شارع الامير ، على مسافة نصف ميل تقريبا . فمشيت فى ذلك الاتجاه على امل ان اعثر عليه هناك . على أننى سرعان ما لمحت هيكل جسمه متجها نحوى ، وقد عكس ظله احد مصابيح الطريق

وبادرته قائلا :

ـ لقـد رفضت ان تدعنى ادخل . واظن انهـا كانت تسكر ..

فقال وهو يترنح فى اتجاه البيت :

ـ انا نفسى لست فى وعيى ..

فحاولت أن أؤكد له عكس ذلك . ولكنه غمـغم فى مرارة :

ـ كلا .. اننى مخمور ..

ثم فتح باب غرفة الجلوس ، ووقف هناك صامتا يحدج لويز بنظرة تنذر بالشر . وكانت تقف بجوار المدفأة ، تحاول ان تستند الى الرخامة وجسمها يتمايل

وقال ابى :

ـ لماذا لم تدعيه يدخل ؟

فنظرت اليه مرتبكة ، ثم غمغمت بلسان متثاقل :

ـ تستطيع ان تذهب الى الجحيم انت ايضا . وكلكم !

وفجأة التقط ابى فرشاة ملابس من على الرف ، ثقيلة الوزن ، وقذف بها بعنف ، وبحركة خاطفة .. فأصـاب ظهرها جانب وجه لويز ، واغمضت عينيها ، ثم تهاوت فاقدة الرشد على الارض كأنما ترحب بالغيـــاب عن العالم ..

وصدمنى تصرف ابى صدمة شديدة فهذا العنف كان يجعلنى افقد احترامى له . ولسـت اذكر الان بالضبط ماذا حدث بعد ذلك . واظن ان سيدنى جاء متأخرا ،وان والدى ذهب بنا الى فراشنا ، ثم غادر البيت

وعرفت فيما بعد ان شجارا كان قد نشب فى الصباح بين ابى وبين لويز بسبب انه تركها ليقضى اليوم عنـد اخيه ، سبنسر شابلن ، الذى كان يملك عددا من المحال العامة فى لامبث وما حولها . وكانت لـــويز ، بسبب حساسية وضعها ، تكره ان تزور عائلة سبنسر شابلن ، فذهب والدى بمفرده ، وقضت هى اليوم ـردا على ذلك ـ فى مكان آخر ..

كانت لويز تحب والدى . وقد استطعت ـ برغم صغر

سنى ـ ان اتبين ذلك فى نظرتها اليه ، فى تلك الليلة التى وقفت فيها امام المدفأة مضطربة ، جريحة القلب بسبب اهماله لها . كما رأيت ذلك أيضا فى مناسبات اخرى • فثمة أوقات كان والدى فيها رقيقا ، شديد العذوبة ، يحرص على أن يقبلها قبلة المساء قبل ان ينصرف الى المسرح • وكان فى صباح الاحد يفطر معنا ـ ما لم يكن مخمورا ـ ويحدثها عن التمثيليات الفودفيل التى يكون مشتغلا باعدادها ، فيستحوذ تماما علينا • وكنت عندئذ اراقبه بيقظة الصقر ، واستوعب كل حركة يقوم بها • وقد حدث ذات مرة انه ـ فى نوبة من نوبات العبث ـ ربط فوطة حول رأسه ، ومضى يطارد طفله الصغير حول المائدة وهو يردد :

ـ أنا الملك دندى راوند !

وتلقت لويز ذات يوم زيارة من « جمعية الرفق بالاطفال » اثارت غيظها الى حد كبير • فقد جاءوا بسبب تقرير تلقوه من البوليس عن العثور علينا ذات يوم ـ انا وسيدنى ـ نائمين فى الثالثة صباحا بجوار مدفأة رجل من خفراء الليل • وكان ذلك قد حدث فى ليلة رفضت فيها لويز ان تفتح لنا الباب ، وارغمها البوليس على فتحه وادخالنا ••

على انه بعد ايام قليلة ، وبينما كان ابى فى جولة فى الاقاليم ، تلقت لويز خطابا يعلن ان امى قد غادرت مستشفى الأمراض العقلية • وبعد يوم او يومين جاءت صاحبة البيت تعلن ان هناك سيدة تقف امام الباب الخارجى وتطلب مقابلة سيدنى وشارلى • فقالت لويز :

ـ هذه امكما ••

وساد الارتباك لحظة • ثم قفز سيدنى السلالم ليلقى

بنفسه بين احضانها ، وانا فى اثره • كانت هى نفسها ، أمنا الحلوة الباسمة .. التى بسطت يديها لتحضننا فى عطف حنون ••

وكانت لويز وامى فى حالة من الاضطراب لا تسمح لهما بان تلتقيا • ولهذا بقيت امى عند الباب الخارجى بينما مضينا انا وسيدنى نجمع حاجياتنا • ولم يكن ثمة حقد او حفيظة بين اى من الجانبين •• فالواقع ان شعور لويز كان طيبا جداً ــ حتى تجاه سيدنى ــ وهى تودعه

كانت أمى قد استأجرت حجرة فى أحد الشوارع الخلفية وراء تقاطع كننجتون ، بجوار مصنع « هايوارد » للطرشى • وكانت رائحة الخل تفوح فى المكان يوميا بعد الظهر • ولكن الحجرة كانت رخيصة ، والتأم فيها شملنا من جديد • وصحة أمى كانت ممتازة ، حتى ان اذهاننا لم تتقبل ابدا فكرة انها كانت مريضة

اما كيف عشنا خلال تلك الفترة ، فليست لدى عن ذلك أدنى فكرة • على اننى لا اذكر اننا تعرضنا لمتاعب غير عادية ، او مشاكل مستعصية الحل • وكانت شلنات ابى العشرة الاسبوعية قد اصبحت شبه منتظمة • اما أمى فقد استأنفت بالطبع اعمال الابرة • وجددت صلتها بالكنيسة

وكانت عادة والدى قبل أن يخرج للذهاب الى المسرح ـ حوالى الثامنة مساء ـ أن يشرب ستبيضاتنيئة ممزوجة بالنبيذ ، ولا يأكل معها ـ الا نادرا ـ أى طعام اخر . وكان هذا كل مايقيم أوده يوما بعد يوم . ونادرا ما كان يعودالى البيت . فاذا فعل فانما ليفيق من الخمر بالنوم

الفصل الثالث

# راقص الكلاكيت

* أول جمال هزني .. ماري دورو
* الفن .. كلمة لا أعرفها !
* تظاهرت بأني يهودي .. لأجد عملا في لندن !
* غار مني الممثل العظيم .. فضربني قلما

كان والدى يعرف رجلا اسمه المستر جاكسون ، يدير فرقه من راقصي الكلاكيت اسمها « اولاد لانكشـــــــاير الثمانية » . فأقنع والدتى بأنها ستكون بداية طيبة لى كى أكون لنفسى مستقبلا مسرحيا ، وكى أساعدها فى نفس الوقت ماديا : فاحصل انا على الطعام والمأوى ، وتحصل هى على ١٢ قرشا فى الاسبوع . كانت امى مترددة فى البداية ، الى ان تقابلت مع المستر جاكسون واسرته ، فوافقت ..

وكان المستر جاكسون فى منتصف العقد السادس من عمره ، سبق ان عمل مدرسا فى لانكشاير ، وانجب ثلاثة اولاد وفتاة .. كانوا جميعا اعضاء فى فرقة الثمانية . وكان الرجل كاثوليكيا شديد التدين . وبعد أن ماتت زوجته استشار اولاده فى امر الزواج مرة ثانيـــة وكان يروى لنا ـ بروح الابوة ـ حكاية اقترانه بزوجته الثانية التى كانت اكبر منه قليلا فى السن : فهو قد نشر اعلانا فى الصحف عن حاجته الى زوجة ، واذا به يتلقى أكثر من ثلثمائة خطاب . فدعا الله أن يلهمه الصواب ثم فتـــح خطابا واحدا منها فقط ـ خطاب المسز جاكسون . وكانت مدرسة هى الاخرى . وكاثوليكية ايضا .. كأنما السماء قد استجابت بها لدعائه

ولم تكن المسز جاكسون ممن حباهن الله بجمال وافر ولا كانت فياضة الانوثة بأية صورة من الصور ..فوجهها

الشاحب كما اذكره كان مقددا يشبه الجمجمة ، وكانت تتزاحم فيه غضون كثيفة ، لعل السبب فيها انها انجبت غلاما لمستر جاكسون فى سن متأخرة من حياتها . على انها كانت زوجة وفية ، قائمة بواجباتها . وبالرغم من انها كانت ماتزال ترضع طفلها ، فانها كانت تساهم بجهد كبير فى ادارة الفرقة

أما روايتها عن المستر جاكسون فكانت تختلف عن روايته . فهما قد تبادلا الرسائل ، ولكن أحدا منهما لم ير الاخر قبل يوم الزفاف . وفى أول مقابلة جمعتهما منفردين فى حجرة الجلوس ، بينما العائلة تنتظر فى حجرة اخرى ، قال المستر جاكسون : ان فيك كل ما اصبو اليه . وقالت هى نفس الشىء . ثم تختتم قصتها لنا نحن الصبية قائلة :

ـ ولكننى لم اتوقع أن أصبح أما لثمانية اطفال دفعة واحدة ..

وكانت اعمار الاولاد الثلاثة تتراوح ما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة . أما البنت فكانت فى السادسة ولها شعر محلوق كالاولاد حتى تصلح للعمل كواحد منهم فى الفرقة ..

وكان الجميع يذهبون الى الكنيسة الكاثوليكية فىأيام الاحاد ، الا انا . ولما كنت البروتستنتى الوحيد بينهم ، فقد كنت اشعر بالغربة ، واذهب معهم بين وقت واخر . ولولا الحذر من وساوس امى الدينية لكان سهلا اناتحول الى الكاثوليكية . فقد كنت احب صوفيتها الغامضة ،

وهياكل المذبح المصنوعة فى المنازل ، مزينة بصور من الجبس للعذراء تحيط بها الزهور .. تلك الهياكل التى

كان الاولاد يضعونها فى ركن غرفة النوم، ويحيونها كلما عبروا أمامها

بعد ستة اسابيع من التدريب اصبحت صالحا للرقص مع الفرقة . ولما كنت الان قد تجاوزت الثامنة من العمر وبارحتنى ثقتى بنفسى ، فقد اصابتنى بالرعب مواجهة الجمهور أول مرة . ولم اكد اقوى على تحريك ساقى . ومضيت عدة اسابيع قبل ان اتمكن من أداء رقصة فردية كما كانوا يفعلون

لم يكن مما يسرنى بوجه خاص ان اكون مجرد عضو فى فرقة من ثمانية اولاد . كنت مثلهم أطمع الى القيام بدور منفرد ، لا لان ذلك يعنى مزيدا من النقود فقط ، ولكن لاننى بغريزتى كنت اشعر انه سيكون اكثر أمنا من مجرد الرقص . وقد كنت احب لو صرت ممثلا ، لولا ان الوقوف على المسرح يقتضى أعصابا ثابتة . على أننى عندما فكرت فى ان افعل شيئا غير الرقص كان اول ما خطر ببالى هو ان اكون مضحكا . وكانت الصورة النموذجية لذلك عندى صورة فصل مزدوج يمثله غلامان فى ثياب الصعاليك . وقد قلت ذلك لاحد الصبية ، واتفقنا على أن نتزامل فى اداء هذا الفصل الذى اصبح حلمنا المقدس . نعم ، سنسمى انفسنا « بريستوى وشابلن الصعلوكان صاحبا الملايين » . ونضع على خدودنا سوالف الصعاليك ، وفى أصابعنا خواتم ذات فصوص كبيرة من الماس . وكان الفصل يحتوى على كافة ما نظن انه مضحك . ولكنه ويا للاسف ، لم يتحقق أبدا

كان الجمهور معجبا بالفرقة ، « أولاد لانكشاير الثمانية » لاننا كنا كما يقول المستر جاكسون ـ كنا

نختلف اختلافا كبيرا عن غيرنا من اطفال المسرح • وكان مما يفخر به المستر جاكسون اننا لا نستخدم الاصباغ ابدا، وإن حمرة خدودنا طبيعية . فاذا بدت وجوه بعضنا شاحبة قليلا قبل رفع الستار ، فانه كان يأمرنا بأن نقرص خدودنا • وكان يحدث احيانا ونحن فى لندن : وبعد ان نكون قد قدمنا عرضين او ثلاثة فى الليلة الواحدة ، أن ننسى نصيحته ونبدو على المسرح مرهقين ، مثقلين بالملل •• الى ان نلمحه فى الكواليس يبتسم لنا مشجعا ويشير الى وجهه ، فاذا بمس من الكهرباء يضيء وجوهنا على الفور بابتسامات مشعة

وكنا ــ عندما نتجول فى الاقاليم ــ نذهب فى كل مدينة الى مدرسة للضعفاء .. ولكن هذا لم يساعد الا قليلا فى تنمية ثقافتى ..

اما فى اعياد الميلاد : فانهم كانوا يؤجروننا فى مسرح « هيبودروم لندن » لنؤدى أدوار القطط والكلاب فى مسرحية سندريلا الصامتة « بانتوميم » • وكان هيبودروم لندن فى تلك الايام مسرحا جديدا مجهزا بحيث يجمع بين الفودفيل والسيرك • وكانت له ضجة كبرى • فأرض حلقته كانت تهبط الى اسفل ، وتغطى بالماء ، ثم تقدم فوقها عروض راقصة كبرى • صفوف بعد صفوف من الفتيات فى دروع لامعة يدخلن الحلقة ، ثم يختفين تماما تحت الماء • فاذا اختفى الصف الاخير جاء المهرج الفرنسى العظيم « مارسلين » فى ثوب سهرة زلق الملمس • وقبعة عارية ، ودخل بسنارة صيد فى يده : ثم جلس على مقعد من القماش • وفتح صندوق مجوهرات كبيرا ، ووضع عقدا من الماس فى مكان الطعم .. ثم القى به فى الماء . وبعد قليل يبدأ يستخدم مجوهرات اصغر : فيلقى

الى الماء ببعض الفوايش . وينتهى به الامر الى فـــراغ الصندوق كله . ثم فجأة تغمز السـنارة ، فينطلق فى نوبات هزلية من « الشقلبة » وهو يناضل مع عصـــا السنارة : الى ان يستخلص من الماء فى النهاية كلبـــا صغيرا مدربا من نوع « البورل » .. يقلد كل حركة يقوم بها مارسلين ، فاذا وقف على رأسه فعل الكلب مثله ..

كانت مسرحية مارسلين الهزلية هذه غريبة وساحرة، رحبت بها لندن وقد أسندوا الى ـ المنظر الذى يصور المطبخ ـ دورا فكاهيا صغيرا أقوم به امام مارسيلين . كنت أمثل دور قطة ، واقف وراء مارسيلين ، بينما هو يتراجع أمام كلب كبير الى أن يسقط فوق ظهرى وأنا مشغول بشرب اللبن . وكان مارسيلين يشكو دائما من أننى لم أقوس ظهرى بقدر كاف كى اخفف من سقطته

وكنت أضع لهذا الدور قناعا يمثل وجه قطة بدت عليها الدهشة . وفى حفل الماتينيه للاطفال ، زحفت على يدى وقدمى حتى بلغت مؤخرة الكلب وبدأت اتشممه كما يفعل الكلاب ، فلما ضج جمهور المتفرجين بالضحك اســتدرت ونظرت اليهم فى دهشة ، وانا اشد خيطا رفيعا يجعل عين القناع المفتوحة تغمز لهم ! وبعد عدة شمشمات وغمزات جاء مدير المسرح من وراء الستار يضرب الارض بحذائه ويلوح من الكواليس فى حالة غضب شديد . ولكننى لم اتوقف ، وبعد ان تشممت الكلب ، رحت اتشمم مقدمة المسرح ثم رفعت احدى ساقى كما يفعل الكلاب . وضج الجمهور بالضحك ، ربما لأن ما فعلته لم يكن من شم القطط فى شىء !

واخيرا التقت عينا مدير المسرح بعينى ، فقفزت امام

الجمهور وسط التصفيق الحاد ، واتجهت اليه ، وقال المدير : « اياك ان تفعل هذا مرة اخرى » قالها وهو يلهث من التعب ثم عاديقول : « هل تعلم ان هذا قد يؤدى الى سحب رخصة المسرح !! »

وقد نجحت « سندريلا » نجاحا ضخما . وبالرغم من أن مارسيلين لم يكن له دور كبير فى القصة او الحبكة . فانه كان نجم المسرحية

وفى عام ١٩١٨ ، أو حوالى هذا التاريخ ، جاء سيرك « الاخوة رنج لنج » وهو سيرك ذو ثلاث حلقـــات ، الى مدينة لوس انجلس ، وكان مارسيلين معهم وتوقعت أن يعلنوا عن قدومه ، ولكننى صدمت عندما اكتشفت انــه مجرد واحد من المهرجين الذين يجرون حول الحلقة . لقد ضاع الفنان العظيم وسط مظاهر الاسراف والبذخ التى تميز بهما سيرك الحلقات الثلاث !

وذهبت الى حجرة ملابسه بعد العرض ، وقدمت لــه نفسى ، ورحت اذكره بدور القط الذى قمت به أمامه فى مسرح الهيبودروم فى لندن . ولكنه استقبلنى ببــرود ، وبالرغم من ان وجهه كان مختفيا وراء الالوان والمساحيق فاننى استطعت ان ألمح الشعور بالضجر والكآبة والبلادة على وجهه . وبعد عام من لقائى به ، انتحر مارسيلين فى نيويورك . وقرأت النبأ فى احدى الصحف ، حيث كان الخبر الصغير يقول ان احد الجيران الذين يقيمون فى نفس البيت سمع طلقا ناريا ثم شاهده ملقى على الارض وفى يده مسدس ، واسطوانة تعزف أغنية « ضوء القمر والزهور » ..

ان الفنانين الذين أثروا فى حياتى من بين الكثـــيرين

الذين شاهدتهم وأنا طفل ، لم يكونوا دائما من المشهورين والناجحين • بل من اولئك الذين ينفردون بشخصية فريدة من نوعها فى سلوكهم خارج المسرح فمثلا كان الكوميدى الحاوى زارمو رجلا يحب النظام • فكان يمارس اعمال الحواة ساعات طويلة فى الصباح بمجرد أن يفتح المسرح أبوابه • وكنا نراه كل يوم وراء المسرح وهو يحاول ان يحفظ توازن عصا البلياردو فوق ذقنه •• او وهو يلقى بكرة البلياردو فى الهواء ثم يحاول ان يلتقطها بطرف العصا • ثم يلقى بكرة اخرى ويحاول ان يضعها فوق الكرة الاولى التى التقطها منذ دقائق ، والتى كانت كثيرا ما تسقط منه !

وقد أمضى زارمو اربع سنوات يقول لمستر جاكسون انه يمارس هذه الحركة • وفى نهاية الاسبوع حاول ان يجربها امام الجمهور ، ووقفنا جميعا على جانبى المسرح نراقبه •• واذا به يقوم بلعبته بمهارة ومن اول مرة ! اذ القى بالكرة الاولى والتقطها بعصا البلياردو ، ثم القى بالثانية والتقطها فوق الاولى وبالرغم من هذا لم يكن تصفيق الجمهور حماسيا ••

وكان مستر جاكسون يروى قصة تلك الليلة دائما • وكان يقول لزارمو : انك تجعل لعبتك تبدو سهلة للغاية ولكى تبيعها للجمهور ، يجب أن تخطىء الكرة عدة مرات ثم تنجح أخيرا ! وكان زارمو يقول : « اننى لست خبيرا الى الحد الذى أستطيع معه أن أخطىء الكرة ! »

وبعد زارمو ، كان هناك اخرون ايضا اثروا فى حياتى •• كان هناك برانسبى وليامز الذى يقلد شخصيات الكاتب تشارلزديكنز الروائية • وقد اثار اعجابى وهو يقلد شخصيات يوريا هيل وبيل سايكس وشخصية

الرجل العجوز فى رواية « دكان التحف القديم » • ان شعوذة هذا الرجل الشاب الوسيم الوقور ، وطريقة ادائه لادواره امام جمهور جلاسجو الصاخب ، حين يتقمص شخصية هؤلاء الناس • قد فتحت افاقا جديدة فى المسرح كما ان برانسبى هذا قد اشعل فى نفسى الشغف ايضا بالادب . اذ جعلنى أريد أن اكتشف هذا الغموض الحبيس فى الكتب ، ان اعرف شيئا عن شخصيات ديكنز التى تتحرك فى عالمها ذلك الغريب • وبالرغم من اننى كنت لا اكاد اجيد القراءة • فاننى قررت فى النهاية ان اشترى قصة « أوليفر تويست »

وبالرغم من أننا كنا نعيش عيشة التقتير ، فان هذه الحياة مع أولاد لانكشاير الثمانية لم تكن سيئة .. وان كانت لنا أحيانا خلافاتنا الصغيرة . وما زلت اذكر بهلوانين صغيرين فى مثل سنى ، كانا مشتركين فى نفس العرض ، وقد أسرا الى ان اميهما تأخذان سبعة وثلاثين قرشا . بينما لا يحصلان هما الا على خمسة قروش ـ كمصروف ـ تحت طبق اللحم والبيض صباح الاثنين من كل اسبوع . وقال احدهما شاكيا :

ـ اننا لا نحصل الا على بنسين وافطار من الخبز والمربى ..

فلما سمع جون ( ابن المستر جاكسون ) اننا نشكو انفجر باكيا وقال لنا ان آباه لا يحصل أحيانا فى أسابيع الكساد فى ضواحى لندن على أكثر من سبعة جنيهات للفريق كله ، وانهم يتعرضون لاوقات عصيبة ويحاولون التوفيق بين الدخل والنفقات

***

وكانت حياة اليسار التى يتمتع بها الغلامان هى التى

جعلتنا نطمع في ان نصبح بهلوانات . فاعتدنا بمجرد ان يفتح المسرح ابوابه ، ان يقوم احدنا بحركات بهلوانية والحبل مربوط في خصره ، وطرفه مثبت في بكرة ، بينما يمسك طفل آخر بالحبل . وقد أحسنت القيام بحركات البهلوانات بهذه الطريقة الى ان وقعت ورض ابهامي . وأنهى هذا الحادث حياتي كبهلوان

وكنا نحاول دائما الى جانب الرقص ان نضيف شيئا جديدا الى اعمالنا . فأردت ذات مرة أن أكون مشعوذا كوميديا . ولذلك اقتصدت من النقود ما يكفي لشراء أربع كرات من المطاط وأربعة اطباق معدنية . وكنت اقضي الساعات واقفا بجوار الفراش لأتدرب ..

وكان مستر جاكسون رجلا طيبا . وقبل ان اترك الفريق بثلاثة شهور قمنا بحفلة لصالح أبي الذي كان في شدة المرض وتبرع كثير من ممثلي الفودفيل بالتمثيل ومن بينهم أطفال لانكشاير الثمانية .. وظهر أبي في تلك الليلة على المسرح وهو يتنفس بصعوبة ، وألقى خطابا قصيرا في جهد شديد . وكنت أقف الى جانب المسرح اراقبه وأنا ادرك أنه رجل يحتضر

***

وكنت ، ونحن في لندن ، أقوم بزيارة أمي في نهاية كل اسبوع . فكان يخيل اليها اني شاحب ، نحيل ، وان الرقص يؤثر على رئتي . وقد أصابها هذا بقلق شديد لدرجة انها كتبت بشأنه الى المستر جاكسون الذي بلغ به السخط الى الحد انه طردني أخيرا وهو يقول انني لااستحق اهتمام مثل هذه الأم القلقة

على انني ، مع ذلك ، أصبت بالربو بعد بضعة اسابيع . وكانت النوبات شديدة حتى ان امي اقتنعت بأني مصاب

بالسل ، وحملتني فورا الى مستشفى برومبتون حيث فحصني الاطباء بعناية ، ووجدوا ان رئتى سليمتان ولكنى مصاب بالربو .. وشعرت بالالام والكرب شهورا عديدة وأنا لا استطيع التنفس .. وكانت تساورنى الرغبة فى بعض الاحيان أن أقفز من النافذة . ولكن استنشـــاق الاعشاب . وأنا اغطى رأسى ببطانية . قد اولانى بعض الراحة وجعلنى كما قال الطبيب اتغلب على المرض

ثم طرأ تغيير مفاجىء على حياتنا ، فقد قابلت أمى احدى صديقاتها القدامى اللواتى اصبن النجاح والتوفيق ... وكانت سيدة متوقدة ، جميلة الطلعة ، تركت المسرح لتصبح خليلة لكولونيل عجوز ثرى . وكانت تقيم فى حى ستوكويل الفخم . وفى حرارة لقائها بأمى ، دعتنا للاقامة معها فى فصل الصيف .. ولما كان أخى سيدنى فى الريف يجمع الاعشاب فقد استدعى الامر بعض الاغراء لاقنـــاع أمى واستمالتها . واستطاعت أمى ان تبدو وجيهة المظهر بفضل براعتها السحرية فى الحياكة ، بينما ارتديت انا بدلة يوم الاحد .. من مخلفات اولاد لانكشاير الثمانية . فظهرت وجيها بدورى ، كما يليق بالمناسبة

وهكذا وجدنا انفسنا بين عشية وضحاها ننتقل الى منزل فى ركن هادىء من ميدان لاند سداون . منزل غنى بمظاهر الترف ، والخدم وغرف النوم القرمزية الزرقاء ، والستائر الانيقة ، والسجاجيد ، وكم أتذكر الآن جيدا منظر تلك الحبات الزجاجية من العشب الازرق الكبير التى كانت تحلى مائدة غرفة الطعام ، وشعورى بالاثم كلمـــا لاحظت انها تنقص شيئا فشيئا على نحو غـامض ، وان العنقود يتعرى يوما بعد يوم ..

وكانت هيئة الخدم فى المنزل تتكون من اربع نســـاء ثلاث خادمات وطاهية بالاضافة الينا أنا ووالدتى ..

كان هناك ضيف اخر .. شاب فارع الطـــول حسن المظهر ، له شارب احمر مفتول الى أعلى . وكان شابا رقيقا ساحرا ، ونجده دائما فى المنزل ، كأنه بعض أثاثه ، الى ان يظهر الكولونيل ذو السوالف البيضاء ، فيختفى عـــلى الفور الشاب الانيق

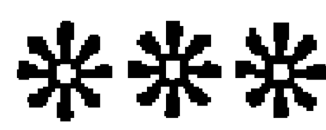
وكانت زيارات الكولونيل متقطعة ، لا تزيد على مرة او مرتين كل اسبوع فاذا كان فى المنزل ساد جو من الغموض والسرية .. وكانت امى تطلب منى عندئذ ان اختفى ولا ادع احدا يرانى .. وحدث ذات يوم اننى اندفعت الى الصالة بينما كان الكولونيل يهبط السلم فوجدته رجلا طويل القامة ، قوى البنيان .. يرتدى البدلة الفراك وقبعة عالية . وكان أحمر الوجه أصلع الرأس به أثار حروق طويلة قديمة ، وابتسم لى فى رقة ومضى فى طريقه

لم أكن افهم ما سر هذه الجلبة كلها ولماذا يحدث وصول الكولونيل كل هذا الاثر ، ولكنه لم يكن يمكث طـــويلا وسرعان ما يعود بعده الشاب ذو الشارب المهذب ، ويعود البيت الى حياته المعتادة مرة اخرى

وقد أحببت كثيرا هذا الشاب ذا الشارب المهـــذب ، فاعتدنا ان نخرج للسير طويلا .. مع كلبى السـيـــدة الجميلين فى كلافام كومون .. وكانت كلافام كومون ذات جو ساحر فى تلك الايام حتى محل الصيدلى الذى كنـــا نتوقف لديه احيانا لشراء بعض الحاجات كان يفيـــض بالسحر بما فيه من روائح العطور والصابون والمساحيق ، ومنذ ذلك الوقت ما أزال اشعر بارتياح خـــاص لروائح الصيدليات . وقد نصح هذا الشاب أمى أن تدعنى استحم بالماء البارد كل صباح حتى أشفى من الربو . ومن المحتمل ان يكون ذلك قد افادنى بالفعل فقد كان هذا الاستحمام يشعرنى بالقوة . ونشأت على حب الاستحمام

من الطريف ان يلاحظ الشخص مدى السـهولة التى يستطيع ان يكيف بها نفسه فى الوسط الاجتماعى المريح وان يعتاد هذه الراحة ، ففى أقل من اسبوع أخذت كل شىء على أنه أمر مفروغ منه ، وتعـــودت على كل تلك الواجبات الصباحية .. تدريب الكلاب وتغيير حراملها الجلدية البنية اللون ، ثم العودة الى المنزل الجميل مـع الخادمات لننتظر الطعام الذى يقدم بطريقة جميلة فـوق صحاف من الفضة

وكانت حديقتنا الخلفية متصلة بحديقة منزل آخر فيه أيضا عدد كبير من الخدم كمنزلنا . وكانت تسكن فيه أسرة من ثلاثة اشخاص : زوجين حديثى العهد بالزواج ، وابنهما الذى كان فى مثل سنى . وكانت له حجرة مليئة باللعب الجميلة .. وكثيرا ما كان يدعونى للعب معــه والانتظار حتى موعد الغداء . فأصبحنا صديقين حميمين وكان أبوه يشغل مركزا هاما فى بنك المدينة . أما والدته فكانت صغيرة وهادئة وجميلة



وذات يوم سمعت خادمتنا وهى تتحدث فى ود مـــع خادمة الطفل ، وكانت الخادمة الاخرى تقول ان طفلهم فى حاجة الى مربية أطفال خاصة ، فقالت خادمتنا عنى : وهذا نفس ما يحتاج اليه طفلنا ! فأدهشنى ان تتحدث الخادمة عنى كأننى طفل ثرى . ولكنى لم أفهم كيف ترفعنى الى هذا المستوى الا اذا كانت تريد ان ترفع نفسها ايضـــا باعتبار ان الناس الذين تعمل معهم أثرياء ومحتـــرمون كجيرانهم فى المنزل المجاور ، فصرت كلما تناولت غـــذائى مع الطفل بعد ذلك أشعر كما لو كنت محتالا !

ورغم انه كان يوما حزينا ذلك اليوم الذى غادرنا فيه المنزل الجميل كى نعود الى منزلنا فى كيننجتون ، فاننا شعرنا

بنوع من الارتياح لحصولنا مرة أخرى على حريتنا . فنحن مهما كان الآمر كنا نعيش ضيوفا فى قبضة شعور بالتوتر، وكانت امى تقول ان الضيوف مثل الكعك ، اذا بقى طويلا فسد وصار غير مستحب

وهكذا انقطع الخيط الحريرى لتلك الفترة القصيرة المترفة . وعدنا مرة اخرى الى حياتنا الفقيرة المعتـــادة

الفصل الرابع

# ماتَ الوالد وجنت الأم

* الطريق الشاق الى هوليوود
* حيتنى أمريكا .. بالصمت !
* يوم واحد فى الجنة .. ثم فررت منها
* وبدأت أفرض شروطى : ألف دولار فى الاسبوع !

كان عام ١٨٩٩ عصر السوالف : فالملوك لهم سوالف، ورجال الدولة ، والجنود ، والبحارة • وكان ايضا عصر الاسماء الشهيرة : كروج ، وساليسبورى ، وكتشنر • عصر القياصرة ولاعبى الـــــــكريكت • عصر الازدهار والمتناقضات • عصر الثراء الفاحش ، والفقر ،والتعصب السياسى فى الفن والصحافة • ولكن انجلترا كان عليها أن تتلقى صدمات واهانات كثيرة : فان حفنة من فلاحى البوير فى الترانسفال الافريقية كانوا يشنون حربا غــير متكافئة ، ويتصيدون من وراء الصخور والحجارة جنودنا الذين جعلتهم ملابسهم الحمراء أهدافا سهلة .. الى ان تنبهت وزارة الحرب وحولت الملابس الحمراء الى اللون الكاكى . فلما دام البوير يريدونها هــكذا ، فلتــــــكن هكذا ..

لم أع حرب البوير الا بصورة غامضة من خلال الاغانى الوطنية واستكشاف الفودفيل وصور القــادة على علب السجائر .. فكانت صورة الاعداء فى ذهنى بالطبع صورة أشرار لا يؤمن جانبهم . وكانت الانبـــاء التى تتردد عن حصار البوير « لليدى سميث » أنباء محزنة

وعندما تم تحرير « ميكفنج » فقدت انجلترا صوابهامن فرط الابتهاج . وأخيرا كسبنا الحرب واجتزنا الازمة . وكل هذا كنت أسمعه من كل انسان الا أمى ، التى لم تكن تشير اليه بحرف . فقد كانت لديها معركتها الخاصــة

التى ينبغى عليها ان تخوضها

كان سيدنى الان قد بلغ عامه الرابع عشر ، وترك المدرسة ليلتحق بوظيفة « ساعى تلغراف » فى مكتب بريد ستراند . وبالمرتب الذى يحصل عليه ، بالاضافة الى ما تكسبه أمى من ماكينة الخياطة ، كادت حالتنا المادية ان تصبح محتملة .. بالرغم من ان مساهمة أمى فى الدخل كانت متواضعة : اذ كانت تعمل بالقطعة لحساب مشغل استغلالى ، تحيك له كل دستة من البلوزات بسبعة قروش ونصف قرش . صحيح ان القماش كان يرد مقصوصا ولكن حياكة الدستة كانت تستغرق اثنتى عشرة ساعة وكان أقصى ما تصنعه أمى اربعة وخمسين قطعة فى الاسبوع اى ما يوازى اربعة وثلاثين قرشا ..

وكثيرا ما كنت أصحو أثناء الليل فى « صندرتنا » فأجدها منحنية على ماكينتها ، وقد عكس ضوء مصباح الزيت هالة حول رأسها ، وبدا وجهها فى الظل الهادىء منفرج الشفتين قليلا من اثر الاجهاد وهى توجه خطوط الغرز المتلاحقة خلال الماكينة .. الى ان يحملنى الطنين على النوم من جديد . وكانت عادة تعمل الى ساعة متأخرة حين يكون عليها ان تواجه مأزقا ماليا . كما انه كانت هناك دائما مشكلة الاقساط التى يجب ان تدفع ..

والان نشأت أزمة جديدة . فسيدنى يحتاج الى بدلة . وهو قد ظل يرتدى بدلة التلغراف الرسمية فى كافة ايام الاسبوع بما فى ذلك أيام الاحاد ، الى ان بدا أصحابه يتندرون بذلك . فما كان منه الا ان لزم البيت عطلتين متواليتين ، الى ان تمكنت أمى من شراء بدلة من الصوف الخشن له ..

واستطاعت بطريقة ما ان تدبر توفير تسعين قرشا لهذا

الفرض . وقد ادى ذلك الى خلق عقدة لا حل لهـــا فى ميزانيتنا ، حتى ان امى كانت تضطر الى رهن البدلة يوم الاثنين كل اسبوع . عندما يستأنف سيدنى العمل بثوبه الرسمى . وكانت تحصل فى مقابلها على ٣٥ قرشا تسددها يوم السبت وتسترد البدلة كى يرتديها سيدنى فى يــوم العطلة ..

وظلت هذه العادة اجراء روتينيا أكثر من عام كامل ،الى ان بليت البدلة . ثم جاءت الصدمة ! اذ ذهبت امى صباح الاثنين كالعادة الى محل الرهونات ، فقال الرجل بعـــد تردد :

ــ آسف يا مسز شابلن .. ولكننا لا نســـتطيع ان نقرضك ٣٥ قرشا بعد الان

فذهلت أمى ، وسألت :

ــ لمـــاذا ؟

قال الرجل وهو يبسط على يده مقعد البنطلون :

ــ انها مفامرة لا نستطيع ان نقدم عليها . فالبنطلون قد بلى تماما . أنظرى .. ان فى أستطاعتك ان تبصرى يدى من خلاله ..

قالت امى :

ــ ولكننى سأرد المبلغ يوم السبت ..

ولكن الرجل هز رأسه :

ــ خمسلة عشر قرشا هى اقصى ما استطيع ان ادفع فى مقابل السترة والصديرى

وكانت امى نادرا ما تبكى . ولكن الصدمة كانت هائلة الى حد انها عادت الى البيت دامعة العينين .. فقد كانت تعتمد على هذه الشلنات السبعة للسير بنا حتى نهـــاية الاسبوع ..

فى ذلك الوقت كان اقل مايمكن ان يقال عن ثيابى اناهو

انها مهلهلة . ما بقى من حلة « أولاد لانكشاير الثمانية » كان منظره يبعث على السخرية .. فهنـاك رقع فى كل مكان على الكوع ، وفى البنطلون ، وفى الحذاء والجورب . وبمنظرى هذا فوجئت بنفسي ذات يوم وجها لوجه امـام صديقى الصغير اللطيف الذى عرفته فى ستوكويل . فلم ادر ما الذى جاء به الى كننجتون ، ولم يتح لى الارتباك ان اسأل . وحيانى هو فى كثير من الود ، ولكننى شعرت بعينيه تفحصان مظهرى البائس . فحاولت ـ كى اتغـلب على ارتباكى ـ أن اتظاهر بالاستخفاف ، وقلت له بأرقى ما أستطيع من صوت اننى ارتدى ثيابى القديمة لانى عائد لتوى من درس لعبين فى النجارة

على ان هذا التفسير لم يثر لديه ادنى اهتمـــام . وبدا يظهر عليه الحرج ، ويحول عينيه بعيدا لاخفاءارتباكه وسألنى عن أمى فأسرعت اقول انها غائبـــة فى الريف ، وحولت موضوع الحديث اليه :

ـ هل انت مقيم هنا ؟

فأجاب وهو يحدجنى ببصره كأنما قد ارتكبت معصية كبرى :

ـ نعم

قلت بايجاز :

ـ حسنا . سأمضى فى طريقى

فابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

ـ الى اللقاء ..

ثم افترقنا . ومضى هو ببرود فى اتجاه ، بينما مضيت أنا مضطربا ، خانقا، مثقلا بالخزى ، فى الاتجاه الاخر

كان هناك مثل تقوله امى : قد يحنى الانسان رأســـه ثم لا يلتقط شيئا

ولكنها لم تكن هى نفسها تلتزم هذه الحكمة ، وكثيرا

ما كان احساسي بالفضيلة يستفز . وقد حدث ذات يوم ان توقفت فى الطريق لتنهر بعض الصبية وهم يطاردون حطام امرأة ، تعلوها الاقذار بصورة غير معقولة . كان رأسها حليقا على عكس العادة فى تلك الايام ، والاولاد يضحكون وهم يدفعون بعضهم بعضا فى اتجاهها ، كأنما ملمسها يعدى .. بينما هى تقف بينهم فى تعاسة كالظبى حين يحاصره الصيادون ، الى ان تدخلت امى .. وعندئذ بدا على وجه المرأة انها تعرفها ، ونادتها بصوت خافت باسمها المسرحى :

ــ ليل ! ألا تعرفينني ؟ انني ايفا لستوك . فعرفتها أمى على الفور . صديقة من ايام المسرح . اما انا . فقد بلغ بى الارتباك الى حد اننى ابتعدت ووقفت انتظر امى عند الناصية .. وعبر الصبية امامى يهزلون ويتضاحكون وتحولت فى غيظ لارى ماذا تفعل امى .. فاذا بالمرأة المحطمة تصحبها وهما قادمتان نحوى

وقالت امى :

ــ اتذكرين شارلى الصغير ؟

فغمغمت المرأة :

ــ اذكره : كم من مرة حملته بين ذراعى وهو طفل رضيع ..

فبدا لى ذلك أمرا منفرا . اذ كان منظر المرأة كريها، هيئتها بالغة القذارة . وعندما مضينا فى الطريق معا كان مما يبعث على الحرج ان أرى الناس يلتفتون الينا نحن الثلاثة ..

كانت أمى تعرفها أيام المسرح باسم « ايفا المتوهجة » .. فقد كانت عندئذ ــ كما اخبرتنى امى ــ جميلة . ومتألقة. وقالت المرأة انها كانت مريضة فى المستشفى ، وانها منذ غادرته تنام تحت البواكى وفى مأوى « جيش الخلاص »

وكان اول ما فعلته امى انها ارسلتها الى الحمـــامات العاملة . ثم عادت بها ــ لفزعى الشديد ــ الى غرفتنا

ولعل المرض وحده كان السبب فى حالتها الراهنة .. ذلك شيء لم استطع أن اعرفه . ولكن الذى كان يثـــير الغيظ حقا هو انها نامت فى اريكة سيدنى . وان كانت امى قد منحتها ما استطاعت ان تستغنى عنه من ثيـــاب ، واقرضتها عدة قروش . وبعد ثلاثة ايام رحـــلت عن البيت ، وكان هذا اخر ما رأينا او سمعنا عن « ايفـــا لستوك » المتوهجة

قبل وفاة والدى ، تركت امى شارع بونوال واستأجرت غرفة فى بيت مسز تيلور ، وهى صديقة لها ، وعضــو بالكنيسة ، ومسيحية مخلصة . وكانت امرأة قصيرة ربعة البنيان فى اواسط عقدها السادس ، ذات فك مربع ووجه متهدل مجعد . وقد اكتشفت وانا اراقبهـــا فى الكنيسة ان لها اسنانا صناعية تسقط من لثتها العليـــا عندما تغنى .. فكان لذلك اثر مذهل على نفسى

كانت سيدة حازمة الخلق ، ذات حيوية موفورة . وقد طوت أمى تحت جناحها المسيحى ، واجرت لها حجـرة الامامية بسعر معتدل جدا فى الدور الثانى من بيتها الكبير بجوار المقابر ..

أما زوجها الذى كان صورة من بطل ديكنز « مســـتر بكويك » ، فكان صانع مساطر دقيقة ، يقيم ورشته فى الطابق الاعلى . وكان للسطح منور من الزجاج ، والمكان كله يسوده السلام . وكثيرا ما كنت اراقب المستر تيلور اثناء العمل ، فيبهرنى وهو ينظر من خلال منظاره السميك مستعينا بعدسة مكبرة ضخمة ، ليصنع مســـطرة من الصلب تقيس جزءا على خمسين من البوصة . وكان يعمل

غير مستعين بأحد ، وكنت كثيرا ما أقضى لـــــه بعض المشاوير ..

وكان المطمع الوحيد لمسز تيلور هو ان تهدى زوجها الذى كان بمقاييسها المسيحية المتزمتة ــ رجلا خاطئا . أما ابنتها التى كانت ملامحها من نفس طراز أمها ، وان كانت بالطبع أقل تهدلا واصغر سنا ، فقد كان يمـــكن أن تكون جذابة .. لولا تعاليها وخلقها المنفر . وكانت كوالدها لا تذهب الى الكنيسة على الاطلاق . ولكن مسز تيلور لم تيأس ابدا من هداية كليهما

وكانت البنت حبة عين أمها ، ولكنها لم تكن حبة عين أمى . وذات مساء ، بينما انا فى الطابق الاعلى اراقب المستر تيلور اثناء العمل سمعت شجارا فى الــــدور الاسفل بين أمى وبين مس تيلور . وكانت مسز تيلور عندئذ خارج البيت . ولم ادر بالضبط كيف بـــدأ الشجار ، ولكن كلا منهما كانت تصرخ بصـــوت عال فى وجه الاخرى . وعندما هبطت اليهما كانت أمى تصيح من فوق درابزين السلم :

ــ من تظنين نفسك ؟ الليدى زفت ؟

فصاحت الفتاة :

ــ أوه ! يالها من لغة « مهذبة » تصـــدر عن سـيدة مسيحية !

فعاجلتها أمى :

ــ لا تحزنى يا عزيزتى ! انها لغة فى الانجيل . فى « ريوتيرونمى » ، الفقرة الثامنة والعشرين ، الســطر السابع والثلاثين . كل ما فى الامر أن الكلمة مختلفة . ولكن كلمة « زفت » تناسبك تماما !

وبعد هذه الحادثة عدنا مرة آخرى الى شارع بونوال

لم يكن محل « الغزلان الثلاثة » فى شارع كننجتون من الاماكن التى يرتادها أبى كثيرا . ولكن حافزا خفيا دفعنى وانا اعبر امامه ذات ليلة ان القى نظرة داخله ، لارى ما اذا كان أبى هناك

وما كدت افتح باب القاعة قليلا حتى وجدته امامى جالسا فى أحد الاركان ! وكنت على وشك أن انسحب عندما رأيت وجهه يضيء وأشار الى ان أقترب .. فأدهشنى هذا الترحيب من جانبه ، لانه لم يكن ممن يبالغون فى اظهار عواطفهم ، على انه كان يبدو مريضا ، غائر العينين ، متورم الجسم الى حد كبير . وكان يضع احدى يديه داخل الصديرى – على طريقة نابليون – كأنما يستعين بذلك على صعوبة التنفس .. وقد سألنى بالحاح فى ذلك المساء عن أمى ، وعن سيدنى ، وأخذنى قبل أن انصرف بين ذراعيه .. ثم قبلنى

وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها حيا ..

فبعد ثلاثة اسابيع نقلوه الى مستشفى سانت توماس ، واضطروا أن يسكروه كى يتمكنوا من اخذه الى هناك .. وعندما تنبه الى نفسه وعرف أين هو ، مضى يقاوم بوحشية .. ولكنه كان رجلا يحتضر . كان صغيرا ما يزال فى السابعة والثلاثين من العمر ، ومع ذلك فقد مات بتورم المفاصل . وفى اسبوع واحد سحبوا من ركبته ستة عشر لترا من الماء

وقد ذهبت امى لزيارته عدة مرات فكانت الزيارة دائما تحزنه ، وقالت لى امى انه حدثها عن رغبته فى ان يعود اليها ويبدأ حياة جديدة فى افريقيا

فلما تحمست للفكرة هزت رأسها ، اذ كانت تعرفه أكثر منى . وقالت :

– انه لم يقل ذلك الا ليجاملنى

وذات يوم عادت من المستشفى ثائرة بسبب ما قاله الاب جون ماكانيل ـ احد الانجيليين ـ لوالدى اثناءزيارته لـــه :

ـ عندما انظر اليك يا شارلى لا أملك الا أن افكر فى المثل القائل : ما يزرعه الانسان لابد أن يحصده

وقالت أمى :

ـ يالها من كلمات لطيفة فى مواساة رجل يموت .. !

وبعد ذلك بأيام ، مات أبى ..

واراد المستشفى ان يعرف من الذى سيدفنه . ولما كانت أمى لا تملك مليما ، فقد اقترحت ان يتــولى الامر الصندوق الخيرى لممثلى المنوعات . ولكن هذا الاقتـــــراح أثار ثائرة آل شابلن ـــ فدفن انسان عن طريق الصدقة كان بالنسبة اليهم أمرا مهينا ، ومنفرا ـ وكان فى لندن فى ذلك الوقت عم لى ، اسمه البرت ، وهو اصغر اخوة ابى .. أعلن انه سيدفع تكاليف الدفن ..

وكان المقرر يوم الجنازة انتلتقى عند مستشفى «سانت توماس»، لننضم الى سائر عائلة شابلن،ثم نمضى من هناك الى مقابر « توتنج » .. ولكن سيدنى لم يتمـــــكن من الحضور ، لانه كان مشغولا فى عمله . اما انا وامى فقـــد ذهبنا الى المستشفى قبل الموعد المحدد بساعتين ، لان امى كانت تود ان تلقى نظرة على أبى قبل ان يغلقوا عليـــــه الصندق ..

وكان الصندوق ملفوفا فى كفن من الساتان الابيض ، وعند طرف منه كان يوجد اطار من الزهور البيضاء يحيط بوجه أبى . فلما أعجبت امى بهذه الزهور التى بدت لها رقيقة تلمس القلب ، وسألت عمن وضعها ، قال الحارس انها سيدة جاءت فى الصباح المبكر ومعها غلام صغير

كانت لويز ..

وجلست امى فى العربة الأولى، ومعها عمى ألبرت وأنا، وكانت الرحلة الى « توتنج » مرهقة للاعصاب ، لان أمى لم تكن قد التقت قبل ذلك بالعم البرت . وكان هو رجلا مزهوا الى حد ما ، يتحدث بلهجة مثقفة . كما أن معاملاته كانت – على أدبها – متحفظة . وكان معروفا عنه انه ثرى ، يملك مزارع واسعة لتربية الخيل فى الترانسفال، وكان يورد الخيول للحكومة البريطانية اثناء حرب البوير ..

وعندما حل موعد الدفن كانت السماء تصب مطرا كثيفا وكان عمال المقبرة يهيلون على الصندوق كتلا من الطين ترتطم به فتحدث رجة مخيفة . وكان ذلك شيئا رهيبا ، مفزعا ، فشرعت ابكى

ثم بدأ الاقارب يلقون بالاكاليل والزهور . ولم تجد أمى ما تلقى به ، فأخذت منديلى الثمين المطرز بحافة سوداء وهمست قائلة :

– هيا يا ولدى .. انه يكفى لكلينا !

وذهب أعضاء العائلة فيما بعد الى واحد من محلاتهم لتناول الغداء . ثم سألونا بأدب قبل انصرافهم أين نريد ان نذهب .. وأوصلونا الى البيت

وعندما عدنا من الجنازة لم تكن فى الدولاب ذرة من الطعام ، باستثناء سلطانية تحتوى على قليل من دسم اللحم . ولم يكن مع امى درهم ، اذ كان اخر قرش معها قد أعطته لسيدنى ليتناول به غداءه . وكانت – منذ مرض والدى – لم تعمل كثيرا ، ونحن الان فى نهاية الاسبوع ، والشلنات السبعة التى يتقاضاها سيدنى من عمله كساع للتلغراف قد نفدت . لبثنا جائعين بعد الجنازة . الى أن عبر – لحسن الحظ – بائع الروبابيكيا فى الخارج . وكان

لدينا موقد بترول عتيق ، فباعته أمي ـ راضية ـ بمليمين . واشترت بهما خبزا نأكله مع الدسم

ولما كانت امي هي الارملة الشرعية لوالدي ، فقد طلب منها في اليوم التالي ان تذهب الى المستشفى لتتسلم ممتلكاته . وكانت هذه الممتلكات بدلة سوداء ملطخة بالدم، وغيارا داخليا، وقميصا ، وربطة عنق سوداء ، وروبا قديما، وخفا ملونا تتدلى منه كرتان . وعندما نزعت امي هاتين الكرتين سقط من الخف نصف جنيه على السرير

وكانت هبة من السماء !

***

قضيت اسابيع اضع شريطا اسود على ذراعي . وبدأت شارة الحداد هذه تدر على ربحا عندما قررت ـ في مساء يوم من ايام السبت ـ ان ادخل ميدان العمل الحر بائعا للزهور . فقد اقنعت أمي ان تقرضني خمسة قروش ، ثم ذهبت الى سوق الازهار وابتعت حزمتين من النرجس . وبعد المدرسة انهمكت في تقسيمهما الى حزم صغيرة تباع الواحدة منها بنصف قرش ، وتدر ـ اذا بيعت جميعها ـ ربحا مقداره مائة في المائة

ثم مضيت أدخل المحلات العامة ، واهمس متوسلا :

ـ نرجس يا آنسة ! نرجس يا مدام !

فكان النساء دائما يستجبن ، ثم يقلن :

ـ من هو يا بني ؟

فأخفض صوتي واهمس :

ـ والدي !

فيغدقن على البقشيش . وعندما عدت آخر النهار الى البيت ومعي أكثر من خمسة شلنات كسبتها بعملي نصف يوم ذهلت امي .. غير أنها ذات يوم ضبطتني خارجا

من باب أحدى الحانات فكان فى ذلك نهايتى كبائع للزهور ، ذلك ان تجوال ولدها بزهوره فى الحانات كان أمرا يستفز وساوسها الدينية

وقالت لى :

ــ لقد قتل الشراب والدك . وكل مال يأتينا عن هذا الطريق لن يجلب معه غير الخراب . غير انها احتفظت بالكسب رغم ذلك ! وان كانت لم تسمح لى أبدا ببيــع الزهور مرة أخرى

كانت فى داخلى نزعة قوية الى التجارة . فانا مشغول دائما بمشاريع للسوق . انظر الى الحوانيت الخاليةلافكر فى نوع التجارة المربحة التى يمكن ان استغلها فيها .. ابتداء من السمك والبطاطس المقلى وانتهى الىسلعالبقالة، تجارة مرتبطة كلها بالطعام . ولا احتاج من اجلهــــا الا رأس المال . ولكن من اين يجيىء الانسان برأس المال ؟

على اننى فى النهاية اقنعت امى بأن تدعنى اتــــرك المدرسة واحصل على عمل

وصرت من ذلك الوقت صاحب حرف متعددة . فكنت أول ما كنت صبيا فى محل بقالة . وفى فترات الاستراحة كنت أقضى الوقت باستمتاع شديد فى القبو ، غارقا بين أكوام الصابون والنشا والشموع والحلوى والبسكويت . أتذوق من كل ما يثير اللعاب حتى تؤلمنى بطنى

ثم عملت صبيا فى العيادة عند الدكتورين هو وكنس تيلور .. وكانا طبيبين لاحدى شركات التأمين فى شارع ترجمورتون . وهى وظيفة ورثتها من سيدنى الــذى رشحنى لها . وكنت اتقاضى ١٢ شلنا فى الاسبوع فى مقابل استقبال الزبائن ، وتنظيف الحجرات بعد انصراف الطبيبين . وكنت ناجحا جدا كموظف استقبال ، وقادرا

على ادخال السرور على نفوس المرضى فى حجرة الانتظار ٠ أما تنظيف الحجرات فلم اكن اقوم به بحماس ٠ وفى ذلك كان سيدنى افضل منى ٠ لم يكن الذى يضايقنى تنظيف كئوس البول ، وانما تلك النوافذ التى يبلـــغ ارتفاعها عشرة اقدام ٠٠ والتى كان تنظيفها فوق طاقتى وترتب على ذلك أن العيادة ظلت تزداد كآبة ، والتراب يتراكم فيها ، الى أن قيل لى بادب اننى اصغر من أنأصلح للوظيفة ٠٠

وما كدت اسمع ذلك حتى انفجرت باكيا ٠ فعطف على الدكتور كنس تيلور ، الذى كان زوجا لسيدة بالغـــة الثراء يقيم معها فى بيت كبير فى «لانكسترجيت» ، وقال انه سيأخذنى خادما فى بيته ٠ فابتهج فؤادى على الفور ٠ خادم فى بيت ! وخادم ذكى لبق !

وكانت حقا وظيفة سعيدة ٠ فقد صرت الحيوان المدلل لكافة الخادمات ، يعاملننى كطفل ، ويقبلننى قبلة المساء قبل ان اذهب الى الفراش ٠ ولولا القدر لكان محتملا ان اكون الان رئيس خدم ٠ فقد ارادت السيدة يوما ان انظف قبوا كانوا يختزنون فيه اكواما من الصناديق تحتاج الى من يعيد ترتيبها ٠ فصرفتنى عن هذه المهمة ماسورة يبلغ طولها ثمانية اقدام ، عثرت بها ورحت انفخ فيها كالنفير ٠ وبينما انا اسلى نفسى فاجأتنى السيدة ٠٠ فكانت النتيجة أن فصلتنى من الخدمة بعد مهلة ثلاثة أيام

واستمتعت أيضا بالعمل عند(و.هـ.سميث وولده) ٠٠ باعة الادوات المكتبية ٠ ولكننى فقدت وظيفتى بمجرد ان اكتشفوا اننى تحت السن القانونية ٠

ثم اشتغلت لمدة يوم واحد فى نفخ الزجاج ٠ وكنت قد قرأت عنه فى المدرسة ، وظننته عملا شاعريا ٠ ولكن

الحرارة صرعتنى ، وحملونى فاقد الوعى الى كومة من الرمل القوا بى فوقها . وكان فى هذا الكفاية ، فلم أعد حتى لاتسلم أجر اليوم الذى عملت فيه

ثم عملت بعد ذلك عند ( ستاركر ) .. للطباعة والادوات المكتبية

وحاولت أن أدخل فى روعهم اننى قادر على ادارة مطبعة من طراز « دارفدال » .. وهى ماكينة هائلة ، يزيد طولها على عشرين قدما . وكنت قد رأيت هذه المطبعة تدور فى البدروم وانا فى الشارع ، وبدت لى ادارتها مهمة سهلة . وعلى الباب كانت لافتة تقول : « مطلوب صبى للعمل فى وضع الافرخ على مطبعة دارفدال » ، فلما أخذنى رئيس العمال اليها ، وجدتها تزأر كالوحش . ووجدت اننى لكى اديرها يجب أن أقف على رصيف يبلغ ارتفاعه خمسة اقدام . فأحسست كأننى أقف فوق برج ايفل

وصاح رئيس العمال :

ـ الطمها !

ـ ألطمها ؟ ..

وعندما رآنى أقف مترددا ضحك وقال :

ـ انت لم تعمل ابدا على ماكينة دارفدال

قلت :

ـ اعطنى الفرصة فقط . وسألتقط الصنعة بسهولة

كانت كلمة « الطمها » تعنى ان أجذب ذراع الرافعة ليدور الوحش . وأرانى الرجل الذراع ، ثم ضبط الوحش على سرعة متوسطة . فبدأت الماكينة تدور ، وتمضغ، وتتجشأ. وظننت أنها على وشك أن تلتهمنى. وكانت الافرخ هائلة ، أستطيع أن انطوى داخل واحد منها . وكان على أن أفصل كل فرخ منها بسكين من

العاج ، ثم التقطه من الاركان ، وأضعه بعناية على حافة أسنان الوحش فى الوقت الملائم ، فتطبق عليه ، وتمضغه، ثم تفرزه من الناحية الاخرى . ولم ينته اليوم الاول الا وقد تحطمت اعصابى من ملاحقة الوحش الجائع الذى يريد أن يسبقنى . على اننى حصلت على الوظيفة بأجر قدره ١٢ شلنا فى الاسبوع

كان ثمة شىء من الشاعرية ، والمغامرة فى مغادرة البيت فى برد الصباح قبل شروق الشمس ، والذهاب الى العمل فى وقت تكون فيه الشوارع مهجورة الا من شبح شخص أو شخصين ، يشقان طريقهما نحو اللافتة المضاءة لمشرب الشاى ( لوكهارت ) من أجل تناول الافطار . كان يملأ الانسان شعور بالارتياح لوجود رفاقه الآدميين حوله وهو يشرب الشاى الساخن مستمتعا بالوهج والدفء أثناء تلك الاستراحة القصيرة قبل بدء يوم العمل كما أن عملى فى الطباعة لم يكن كريها . فباستثناء المجهود الشاق فى نهاية الاسبوع ، حين يتعين على أن أغسل الحبر عن اسطوانات الجيلاتين الطويلة الثقيلة التى تزن الواحدة منها أكثر من مائة رطل . . كان العمل فى مجموعه محتملا، غير أننى بعد ثلاثة أسابيع أصبت بالانفلونزا ، فصممت أمى على أن أن أعود الى المدرسة

كان سيدنى الان فى السادسة عشرة من عمره . وذات يوم عاد الى البيت منفعلا لانه حصل على وظيفة نافخ للنفير على سفينة ركاب مبحرة الى أفريقيا تابعة لشركة خطوط ( دونوفان آند كاسل ) البحرية . وستكون مهمته أن يعلن بالنفير موعد الطعام ، الخ . وكان سيدنى قد تعلم ذلك على ظهر سفينة التدريب ( اكسماوث ) ، وها هو ما تعلمه يثمر الآن . فهو سيحصل على جنيهين

ونصف جنيه فى الشهر ، بالاضافة الى بقاشيش الخدمة على ثلاث موائد فى الدرجة الثانية . كما أنه سيستلم مقدما مبلغ خمسة وثلاثين شلنا قبل الابحار ، وسيعطيها بالطبع لامى ..

وهكذا انتقلنا ـ على أساس توقعاتنا السعيدة ـ الى حجرتين فوقا صالون للحلاقة فى شارع تشستر

وكانت عودة سيدنى من أول رحلة قام بهـا مناسبة جديدة بالاحتفال .. اذ أنه عاد مزودا بثلاثة جنيهات من بقاشيش الخدمة ، كلها من القطع الفضية ، وما زلت أذكره وهو يصب النقود من جيبه على السرير . فقـد بدت لى ساعتها أكثر من كل ما رأيت فى حيـاتى من نقود ، ولم أستطع أن أكف يدى عنها . وظللت أحفن منها ، وأسكبها ، وأكومها ، والعب بها ، الى أن أعلن كل من أخى وامى انني من البخلاء

ثم .. يا للترف ! يا للفخفخة ! كان الوقت صيفا ، وكانت هـذه فى حياتنـا مرحـلة الـكعك والآيس كريم بالاضافة الى أسباب النعيم الاخرى . كما كانت أيضـا مرحلة الاسماك المقددة والمملحة ، وبسكويت الشـاي فى الافطار ، وفطائر الزبد والبتيفور صباح الاحد

وأقام سيدنى معنا الى أن نفدت نقوده . ولكنه على أية حال كان متعاقدا على رحلة ثانية ، وصرفوا له مقدما خمسة وثلاثين شلنا أخرى أعطاها لامى

الا أن المبلغ هذه المرة لم يدم طويلا . فبعد ثلاثة أسابيع كنا نلحس قعر الحلة ، وكان علينا أن نظل ثلاثة أسابيع أخرى قبل عودة سيدنى . ومع أن أمى كانت مستمرة فى عملها على ماكينة الخياطة ، فان ما تكسبه لم يكن يكفينا

وهكذا عدنا نواجه أزمة أخرى . غير اننى لم أكن معدوم الحيلة . فقد كانت لدى أمى كومة من الملابس القديمة ، ولما كنا فى صباح السبت فقد اقترحت عليها أن أحاول بيعها فى السوق . فبدت عليها الحيرة وقالت أنها لا تساوى شيئا على الاطلاق . ولكننى رغم ذلك طويتها فى ملاءة قديمة واتخذت طريقى الى ( نوينجتون بتس ) حيث ألقيت بكومتى الوضيعة على الرصيف — وكان منظرها كالحا مؤلما — ثم وقفت فى الممر أصيح وأنا ألتقط منها قميصا أعرضه ، ثم زوجا من المشدات « أى الكورسيهات » :

— هنا ! هنا ! كم تدفع لى ؟ خمسة قروش ؟ نصف شلن ؟ قرشا ونصف قرش ؟ قرش واحد ؟

ولكننى حتى بنصف قرش لم أجد من يشترى . فقد كان الناس يتوقفون وتبدو عليهم الدهشة ، ثم يضحكون ويمضون فى طريقهم

وبدأت أشعر بالاضطراب ، خاصة عندما شرع الموجودون فى محل مجوهرات مقابل لى ينظرون الى من خلال نافذة المحل . ولكننى لم أدع شيئا يصرفنى عن قصدى . وبعت فى النهاية زوجا من ( التزالك ) ، مقبول الشكل الى حد ما ، بقرشين ونصف قرش . غير أن احساسى بالضيق كان يزداد كلما طال بقائى فى المكان . فقلت هذا يكفى ! ورأيت انه قد آن لى أن أحزم بضاعتى وأعود الى البيت

وعندما قلت لامى اننى بعت زوجا من التزالك بقرشين ونصف ، غضبت وقالت :

— كان يجب أن يباع بأكثر من ذلك . فقد كان زوجا بديعا !

وكانت ستة أسابيع قد مضت حتى الآن ، وسيدنى لم يعد بعد

ولم يزعج هذا أمى فى البداية . ولكنها — عندما طالت غيبته اسبوعا آخر — كتبت الى ادارة خطوط ( دونوفان آند كاسل ) البحرية .. وتلقت اخطارا بأنه انزل الى البر فى ( كيب تاون ) ليعالج من الروماتيزم

فأزعجت هذه الانباء أمى ، واثرت على صحتها . غير انها استمرت فى عملها على مكنة الخياطة ، بينما حصلت أنا — لحسن الحظ — على عمل صغير باعطاء دروس فى الرقص لاحدى العائلات بعد انتهاء يوم المدرسة ، فى مقابل خمسة وعشرين قرشا كل أسبوع



حوالى هذه الفترة ، جاءت عائلة مكارثى تقيم فى شارع كننجتون . وكانت مسز مكارثى فيما مضى ممثلة كوميدية ايرلندية ، وصديقة لامى . ثم تزوجت المستر مكارثى الذى كان يعمل محاسبا قانونيا . فلما اضطرت أمى الى اعتزال المسرح فقدنا كل ما يربطنا بالمستر والمسز مكارثى ، ولم نلتق بهما مرة اخرى الا بعد سبع سنوات .. عندما جاءا يقيمان فى حى ( والكوت ) الفاخر ، فى الجزء الراقى من شارع كننجتون

وكان ابنهما « والى مكارثى » فى مثل سنى . وعندما كنا أطفالا كان من عادتنا أن نقلد الكبار ونحن نلعب فنتظاهر بأننا فنانى الكوميديا ، ويمضى كل منا يدخن سيجاره الوهمى، ويقود عربته الوهمية ذات الحصان . . مما كان يسر أهلنا الى حد كبير

وعندما جاءت أسرة مكارثى واقامت فى حى والكوت ، ظلت أمى لا تزورهم الا نادرا .. أما انا ووالى فقد عقدنا

فيما بيننا صداقة لا تنفصم . فكنت بمجرد انتهاء يوم الدراسة ارمح الى أمى فى البيت لأرى ان كانت فى حاجة الى اية مشاوير ، ثم ارمح الى بيت عائلة مكارثى . وهناك كنا نلعب لعبة المسرح وراء مساكن والكوت . ولما كنت أنا المخرج، فقد كنت دائما أعطى نفسى دور الشرير، مدركا بغريزتى انه ألمع من دور البطل . ونظل نلعب الى أن يحين موعد عشاء والى ، فأدعى ــ عادة ــ الى الطعام .. اذ كانت لى دائما فى أوقات الطعام طريقة لبقة فى فرض نفسى على المائدة ..

على أنه كان يحدث أحيانا ان تفشل مناوراتى، فأعود مستسلما الى البيت ... حيث يسر أمى دائما ان ترانى ، وتعد لى شيئا آكله : خبزا محمرا فى الدسم ، أو بيضة مقلية مع فنجان من الشاى ، ثم تمضى تقرأ لى ، أو تجلس معى فى النافذة وتسلينى بالتعليق على المارة العابرين من تحتنا ، ونخترع لكل منهم حكاية . فاذا كان شابا مرح الخطى ، مزهوا بنفسه ، قالت :

ــ ها هو السيد نطاط فى طريقه الى سباق الخيل !

ويمر شخص تبدو عليه الاهمية والترفع ، فتقول :

ــ ها هو رجل مهذب ، ولكنه فى هذه اللحظة قلق بسبب الثقب الذى فى مقعد بنطلونه ..

ثم يعبر شخص آخر ، سريع الخطى فتقول :

ــ هذا السيد قد شرب لتوه ملحا فوارا !

وهكذا تمضى دون توقف مطلقة اياى فى نوبات عاصفة من الضحك ..

***

مضى اسبوع اخر دون أن تصل كلمة من سدنى . ولو اننى كنت اقل طفولة واكثر احساسا بما تعانيه أمى

من قلق ، لكان ممكنا ان ادرك ما يوشك ان يحيق بها . ولاحظت أنها ظلت جالسة عدة أيام أمام النافذة فى ذهول ، واهملت ترانيب الحجرة ، ولاذت بصمت غير عادى . وكان يمكن ان اهتم بالامر عندما بدأ مصنع القمصان يكتشف اخطاء عملها وتوقف عن التعامل معها ، وعندما سحبت منها ماكينة الخياطة بسبب التأخر فى الدفع ، وعندما توقفت فجأة قروشى الخمسة والعشرون التى كنت اكسبها من دروس الرقص .. وخلال هذا كله كان يمكن ان الاحظ ان امى ظلت متبلدة ، غير مكترثة

ثم ماتت مسز مكارثى فجأة ، فبدأت الاحلام على الفور تغزو رأسى . كم يكون رائعا ان يتزوج المستر مكارثى من أمى .. خاصة ونحن اصدقاء الى هذا الحد ، أنا ووالى ! فضلا عن أن ذلك سيكون حلا مثاليا لكافة متاعب أمى

وما كادت تنتهى الجنازة حتى تحـــدثت الى امى فى المسألة ، وقلت لها :

ــ يجدر بك ان تهتمى بالاكثار من رؤية المســــتر ماكارثى . فأنا أراهن انه سيميل الى الزواج منك

فابتسمت امى ابتسامة خفيفة وقالت :

ــ دع الرجل المسكين فى حاله

ــ اؤكد لك انه سيفعل ، لو انك فقط عنيت بثيابك وحرصت على أن تكونى جذابة كعـــادتك فى الماضى . ولكنك لا تبذلين أى مجهود . وكل ما تفعـــلين هو ان تجلسى حيث انت فى هذه الحجرة القذرة ، ويبدو شكلك مزعجا ..

مسكينة امى ! كم اندم اليوم على هذه الكلمات . فاننى ما ادركت أبدا أنها كانت ضعيفة بسبب سوء التغذية . ومع

ذلك فانها فى اليوم التالى ، وبجهد فوق الطاقة البشرية ، قامت ونظفت الحجرة

وكنا فى أيام العطلة الصيفية ، فرأيت ان أبكر فى الذهاب الى بيت آل ماكارثى .. لمجرد الفرار من جو الفقر والاملاق فى حجرتنا .. وهناك دعيت الى البقاء لتناول الغداء ، ولكن شيئا ألهمنى أننى يجب أن أعود الى امى . وعندما وصلت الى « بونال تيراس » ـ حيث كنا نقيم حينذاك ـ استوقفنى بعض اطفال الجيران عند البوابة . وقالت بنت صغيرة منهم :

ـ لقد جنت امك !

فكانت كلماتها كالصفعة على وجهى ..

وغمغمت قائلا :

ـ ماذا تعنين ؟

فقالت صبية اخرى :

ـ انها الحقيقة .. فقد اخذت تقرع جميع الابواب وتوزع قطعا من الفحم على البيوت قائلة انها هدايا للاطفال بمناسبة عيد الميلاد . وفى استطاعتك أن تسأل امى ..

فانطلقت اجرى ـ دون ان اسمع المزيد ـ من باب البيت المفتوح الى الممر ، ثم قفزت السلالم وفتحت باب حجرتنا ، ووقفت التقط انفاسى وانا احدج امى بنظرات فاحصة . كنا بعد الظهر فى الصيف ، والجو خانق ثقيل وكانت امى عند النافذة كعادتها . فاستدارت ببطء ، ونظرت الى بوجه شاحب ، مضطرب . وكدت اصرخ وانا اناديها :

ـ امى !..

فقالت فى ذهول :

ـ ما الخبر ؟

فعدوت اليها وركعت على ركبتى ، ودفنت وجهى فى حجرها ، ثم انفجرت فى بكاء لا سلطان لى عليه ..

وقالت برفق وهى تربت على رأسي :

ـ كفى ، كفى . ما الذى يضايقك ؟

قلت وانا ابكى وانشج :

ـ انك لست على ما يرام

فقالت فى ثقة :

ـ بل على ما يرام بكل تأكيد

وكانت تبدو ذاهلة تماما ، ومشتتة الـــذهن ، وهى تقول ذلك . فصحت قائلا :

ـ ابدا ! ابدا ! انهم يقولون انك مررت على كل البيوت وانك ...

ولم استطع ان اكمل ، ومضيت اواصل البكاء

وقالت هى فى ضعف :

ـ لقد كنت ابحث عن سيدنى انهم يخفونه عنى ..

فعرفت عندئذ أن ما قاله الاطفال كان صحيحا

وارتفع نشيجى وانا اقول :

ـ ماما .. لا تتكلمى هكذا ! لا تفعلى ذلك ! لا تفعلي .. دعينى احضر لك طبيبا

فاستطردت وهى تربت على رأسى :

ـ ان آل ماكارثى يعرفون أين هو . ولكنهم يخفونه عنى ..

فصرخت :

ـ ماما ، ارجوك ، دعينى احضر طبيبا ..

ونهضت متجها الى الباب

فتابعتنى بنظرة فيها ألم وعتاب وهى تقول :

ـ الى اين انت ذاهب ؟

ـ الى الطبيب ‥ لن اغيب طويلا ‥

فلم تجب بحرف ، ولكنها تابعتنى بعينيها فى قلق . أما انا فاندفعت اهبط السلم على عجل الى صاحبة البيت

ـ يجب ان احضر طبيبا على الفور . ان امى ليست على ما يرام ‥

فقالت صاحبة البيت :

ـ لقد ارسلنا نطلبه بالفعل ‥

وكان طبيب الابرشية رجلا عجوزا ، ضيق الصدر . وبعد أن استمع الى رواية صاحبةالبيت التى كانت مشابهة لرواية الاطفال ، قام باجراء فحص شـــــكلى لامى ، ثم قال :

ـ مجنونة . أرسلوها الى المصحة

وكتب الطبيب ورقة أكد فيها ـ بالاضافة الى أشـياء أخرى ـ أن أمى تعانى من « سوء التغذية » ‥ وفسر لى هذه الكلمة بقوله انها لا تأكل ما يكفيها

وقالت صاحبة البيت تواسينى :

ـ ان حالها سيكون هناك أفضل ، وســـتحصل على الطعام المناسب

وساعدت المرأة فى جمع ثياب أمى والباسها . وأطاعتها أمى كالطفل فى ضعف شديد وقد بدا أن ارادتهـــا قد تخلت عنها . وعندما خرجنا من البيت كان الجيران محتشدين أمام البوابة الخارجية ، يراقبون ما يجـرى فى وجل ‥

وكانت المصحة على مسافة ميل تقريبـــا من البيت • فسرنا على مهل وأمى تترنح من فرط الضعف كأنها امرأة مخمورة ، وتتمايل من جانب الى جانب وأنا أسندها • وبدت لى شمس ما بعد الظهر المتوهجة كأنهـــا تفضح بقسوة تعاستنا • ولا شـــك أن الذين قابلونا كانوا يتصورون أن أمى مخمورة ، ولكنهم بالنسبة لى لم يكونوا أكثر من أشباح فى حلم • ولم تتكلم أمى أبدا ، ولكن كان يبدو عليها أنها تعرف الى أين نحن ذاهبون ، وأنها تتوق الى الوصول الى هناك • فى الطريق حاولت أن أطمئنها ، فابتسمت ولكنها كانت أضعف من أن تتكلم •

وعندما وصلنا الى المصحة أخيرا ، تســلم أمى طبيب شاب قرأ المذكرة ثم قال برفق :

ــ حسنا • من هذا الطريق يا مسز شابلن

فأطاعت مستسلمة • ولكنها عندما شرعت الممرضـــات يبتعدن بها ، استدارت فجأة وقد تنبهت فى ذعر أليم الى أنها قد خلفتنى وراءها • فتظاهرت بالبشـــاشة وقلت :

ــ سأراك غدا ••

وابتعدوا بها وهى تتلفت الى الوراء وتنظر لى فى قلق • فلما اختفت تحول الطبيب الى قائلا :

ــ والان •• ماذا سيكون مصيرك أنت أيهـــا الفتى الصغير ؟

ولما كان ما أصابنى من مدارس الملاجىء يكفينى ، فقد أجبت بأسلوب مهذب :

ــ أوه •• سأعيش مع خالتى ••

وفى طريق عودتى من المستشفى الى البيت ، لم أكن أشعر الا بحزن يبلد الحواس • ومع ذلك فقد كنت راضيا

لانني أعرف أن حالها في المستشفى سيكون أفضل من جلوسها في تلك الحجرة المظلمة وحدها بلا طعام • غير أنني لن أنسى أبدا نظرتها تلك التي تمزق القلب وهم يبتعدون بها وأخذت أتذكر كل ما كانت تفعل ، وسرح خيالي الى روحها المرحة ، وعذوبتها ، وحنانها • الى ذلك الهيكل الضئيل المرهق الذي اعتاد ان يقبل من اول الطريق مهموما ، بادي التعب الى أن يقع بصرها على مندفعـــا نحوها •• وكيف كانت عندئذ تتبدل على الفور ، ويملأ الابتسام وجهها كله وأنا أفتش بشغف في كيس الورق الذي تحمله ، أبحث عن تلك الهدايا الصغيرة التي كانت دائما تعود بها الينا أنا وسيدني • حتى في ذلك الصباح كانت تدخر لي بعض قطع الحلوى •• وقدمتها الى عندما كنت أبكي في حجرها

لم أذهب رأسا الى البيت • لم أستطع • وانما اتجهت الى سوق « نوينجتون بتس » ورحت أنظر في واجهـات المحال الى ساعة متأخرة من المساء • وعنـــدما عدت الى حجرتنا كانت تبدو مهجورة ، حزينة • وعلى المقعد كان طشت غسيل ممتلىء الى نصفه بالماء ، وقد نقع فيه قمصان لي، ولم يكن في الدولاب الا نصف باكو من الشاي ، ولا طعام • وعلى رف المدفأة كان كيس نقودها الذي وجدت فيه خمسة عشر مليما ، وبعض المفاتيح ، وايصالات رهن متعددة • وفي ركن من المائدة كانت ما تزال قطع الحلوى التي قدمتها الى في الصباح •• فانهرت مـرة اخـرى وبكيت ••

ونمت في تلك الليلة نوما عميقا وقد ارهقني الانفعال • ثم استيقظت في الصباح على فراغ محلق في الحجرة ، وضوء الشمس الذي ينساب على الارض يبدو كأنه يزيد

غياب أمى وضوحا . وجاءت صاحبة البيت فيما بعد تقول أن فى امكانى البقاء الى أن تؤجر الغرفة . وليس على اذا ما احتجت الى الطعام الا أن أطلبه . فشكرتها وقلت لها ان سيدنى سيدفع كل ما نحن مدينون به عند عودته . ولكننى خجلت أن أطلب الطعام

ولم أذهب لزيارة أمى فى اليوم التالى كما وعدتها . لم استطع أن أفعل ، ولو فعلت لسبب لى ذلك ألما كبيرا . ولكن صاحبة البيت قابلت الطبيب الذى قال لها انها قد نقلت الى مستشفى الامراض العقلية فى كين هيل . فأعفانى هذا النبأ الحزين من عبء ضميرى ، اذ كانت كين هيل تبعد عشرين ميلا ، ولا أملك وسيلة للوصول اليها . ثم أن سيدنى سيعود قريبا ، وسيكون فى استطاعتنا عندئذ أن نذهب معا لزيارتها

وقد ظللت طوال الايام القليلة الأولى بعد ذلك لا أرى أحدا ، ولا اتحدث الى أحد ، ممن أعرف . كنت اتسلل من البيت فى الصباح الباكر ، والبث طول النهار فى الخارج ..

وكان فى استطاعتى دائما أن أحصل على الطعام فى مكان ما — فضلا عن أن تفويت وجبة لم يكن بالنسبة لى أمرا شاقا — وقد ضبطتنى صاحبة البيت ذات صباح وأنا أهبط السلم متسللا فسألتنى ان كنت قد تناولت افطارى . فلما هززت رأسى قالت بلهجتها الخشنة : فلتأت اذن . اما آل مكارثى ، فقد انقطعت عنهما لاننى لم أكن اريد أن يعرفا بما حدث لأمى . كنت كاللاجىء الهارب ، حريصا على الا يرانى أى انسان ...

مضى أسبوع على ذهاب أمى ، وتعودت على طراز من الحياة لا متعة فيه ولا ألم ، وكان أكثر ما يهمنى هو صاحبة البيت ، لانها ما لم يعد سيدنى — ستضطر عاجلا

أو آجلا الى ابلاغ سلطات المقاطعة بأمرى ، فيبعثون بى مرة أخرى الى معهد هانويل لليتامى والاحداث المشردين. لهذا كنت أتجنبها ، بل وكنت فى بعض الاحيان أنام خارج البيت ..

ثم تعرفت الى رجلين من قاطعى الاخشاب كانا يعملان فى حظيرة وراء شارع كننجتون .. رجلين مهلهلين ، يقومان بعملهما الشاق فى « مغلق » مظلم ، ويتكلمان بصوت ناعم خفيض وهما ينشران الخشب ويقطعانه طول النهار ليصنعا منه حزما تباع الواحدة بمليمين . وكنت أتسكع أمام الباب المفتوح لاراقبهما . فتنتنى السرعة الخارقة التى يقطعان بها الخشب ، وأتصور أنه عمل جذاب ، وسرعان ما بدأت أساعدهما .. وكانا يشتريان كتل الخشب من مقاولى الانقاض ، ثم يحملانه بالعربة الى « المغلق » ويكومانه فوق بعضه البعض .. وهو عمل يستغرق يوما كاملا . وكانا بعد ذلك ينشران الخشب يوما ، ثم يقطعانه فى اليوم التالى ، وفى يومى الجمعة والسبت يبيعانه للوقود . ولكن عملية بيعه لم تكن تغرينى . فالعمل معا فى « المغلق » كان أكثر امتاعا ..

وكان الرجلان من الطراز الذى يعتاد الناس بسرعة ، وكانا فى أواخر العقد الرابع من العمر . ولكن هيئتهما وتصرفاتهما تجعلهما يبدوان أكبر سنا بكثير . وكان للرئيس ( كما كنا ندعوه ) أنف كبير أحمر ، ولا أسنان فى فكه الاعلى غير ناب واحد ، ولكن وجهه كان يوحى بالطيبة والعذوبة . وكانت له ابتسامة عجيبة تكشف عن سنته الواحدة بشكل يلفت اليها النظر . وكان اذا احتاج الى فنجان اضافى للشاى غسل علبة من علب اللبن الفارغة ، وابتسم قائلا :

— ما رأيك فى هذه بدلا منه ؟

اما الرجل الآخر فانه ، علـــى لطف معشره ، كان شاحب الوجه ، غليظ الشفتين ، بطيئاً فى نطق الكلمات

وكان الرئيس اذا ما بلغت الساعة الواحدة ينظر لى قائلا :

ـ هل ذقته فى حياتك طعم حساء ويلز المصنوع من قشور الجبن ؟

فأجيب :

ـ لقد أكلناه عشرات المرات ..

فيبتسم ضاحكا ويسلمنى قرشا أذهب به الى محل «آش» للبقالة والشاى عند الناصية ، اذ كانوا هناك يحبوننى ويعطوننى بسخاء فى مقابل نقودى . واشترى قشور جبن بنصف قرش ، وخبزا بنصف قرش . وبعد أن نغسل الجبن ونبشره . نضيف اليه الماء وقليلا من الملح والفلفل . وفى بعض الاحيان كان الرئيس يضيف أيضا قطعة من دهن الخنزير وبصلة مقطعة الى حلقات . وكان هذا ـ مع كوب من الشاى الساخن ـ يؤلف وجبة مثيرة للشهية ..

ومع أننى لم أطالب بنقود على الاطلاق . فان الرئيس فى نهاية الاسبوع أعطانى نصف شلن .. كان بمثـــابة مفاجأة سارة

وكان جو ـ أو الوجه الشاحب ـ يعـــانى من نوبات من الصرع يسعفه الرئيس بحرقا ورق بنى اللون تحت أنفه . وفى بعض الاحيان كان فمه يزبد . ويعض لسانه . فاذا افاق من النوبة بدا عليه الاسى والخجل

وكان الرجلان يعملان من السابعة صباحا الى السابعة مساء والى ما بعد ذلك فى بعض الاحيان . ولكننى كنت

دائما أشعر بالحزن حين يغلقان الحظيرة ويعودان الى البيت ..

وذات يوم قرر الرئيس ان يدعونا الى مقاعد من ذات القرش فى بلكون مسرح الميوزيكهول بجنوب لندن ، فاغتسلنا انا وجو ، وأصلحنا من هيئتنا فى انتظاره ، وكنت فى قمة الانفعال لان مسرحية « الطيور المبكرة » لفريدكانو — الفرقة التى انضممت اليها بعد ذلك بسنوات — كانت هى التى تعرض هناك . وبينما كان جو مستندا بظهره الى حائط الحظيرة ، وأنا أقف فى مواجهته مسرورا ، متحمسا .. فوجئت به يصدر صيحة عالية ، ثم يتهالك محتكا بالجدار فى احدى نوباته . كان تشوقه الى السهرة أقوى مما يحتمل . وأراد الرئيس أن يبقى الى جواره للعناية به . ولكن جو أصر على ان يذهب كلانا بدونه ، مؤكدا انه سيكون بخير فى الصباح

كان خطر المدرسة غولا يتهددنى ولا يبارح مخيلتى . فقد كان قاطعا الاخشاب يستجوبانى بين وقت وآخر عن هذه المسألة . وعندما انقضت أيام الاجازات،بدأ ينتابهما القلق . فكان على أن أغيب عنهما كل يوم حتى الرابعة والنصف مساء . وهو موعد انصراف المدرسة . وكان يوما طويلا من الوحدة ذلك الذى أقضيه فى عراء الشوارع أنتظر الساعة الرابعة كى أعود الى مأواى الظليل وقاطعى الاخشاب

***

وبينما أنا أتسلل صاعدا الى فراشى ذات ليلة . سمعت صاحبة البيت تنادينى ، وكانت مستيقظة فى انتظارى ثم سلمتنى بانفعال شديد برقية تقول :

« أصل العاشرة صباح غد الى محطة ووترلو — مع حبى — سيدنى »

ولم يكن مظهرى مما يسر الخاطر كمستقبل له فى المحطة . فثيابى كانت قذرة . ممزقة . وحذائى مفتوح الفم يتثاءب ، وبطانة قبعتى تطل كقميص امرأة تدلى ذيله . كما أننى كنت لا أغسل وجهى حين أغسله ـ الا من صنبور قاطعى الاخشاب ، حتى أوفر على نفسى عناء الصعود بجردل من الماء الى ثلاثة أدوار ، والمرور أمام مطبخ صاحبة البيت . فلما ذهبت للاقاة سيدنى كانت هناك ظلال سوداء حول عنقى وداخل أذنى

وقال سيدنى وهو يفحص شكلى :

ـ ماذا حدث ؟

فلم اترفق وأنا أدلى اليه بالنبأ :

ـ لقد جنت أمى واضطررنا الى ارسالها الى المصحة . فتجهم وجهه ، ولكنه سيطر على نفسه وقال :

ـ وأين تقيم أنت ؟

فى نفس المكان .. بونوال تيراس

فتحول عنى ليعنى بأمر حقائبه ، ولاحظت عندئذ أنه شاحب . متهالك . وبعد أن أمر باحضار عربة . جاء الحمالون وكوموا عليها منقولاته .. وكان من بينها سباطة موز !

وسألت بشغف :

ـ هل هذه ملكنا ؟

فأومأ برأسه :

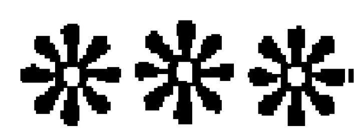
ـ انها ما تزال خضراء . ويجب أن ننتظر يوما أو يومين قبل أن نأكلها

وفى طريقنا الى البيت بدأ سيدنى يلقى الاسئلة عن أمى . ولكن انفعالى كان أقوى من أن يسمح لى بتقديم رواية مترابطة ، فلم يحصل منى الا على نتف من

القصة ، ثم أخبرنى بأنهم خلفوه وراءهم للعلاج فى أحد المستشفيات فى « كيب تاون » ، وأنه فى رحلة العودة كسب عشرين جنيها .. وكان ينوى أن يسلم أمى هذا المبلغ الذى جمعه من الجنود عن طريق تنظيم عمليات مراهنة ويانصيب ..

ثم أخبرنى عن خططه للمستقبل . فهو ينوى أن ينصرف عن العمل فى البحر ويصبح ممثلا .. وفى تقديره أن النقود ستكفى للانفاق علينا عشرين أسبوعا يبحث اثناءها عن عمل فى المسرح

وكان لوصولنا فى عربة ومعنا سباطة الموز أثر بالغ على كل من الجيران وصاحبة البيت .. التى أخبرت سيدنى بنبأ أمى . ولكن دون أن تدخل فى تفاصيل تجرح مشاعره



وذهب سيدنى فى نفس اليوم الى السوق ، وكسانى ثيابا جديدة .. وفى تلك الليلة جلسنا، وأنا بكامل ثيابى، فى مقاعد الصالة بمسرح « موزيكهول جنوب لندن » ، وكان سيدنى لا يفتأ يردد طوال العرض :

ـ تصور ماذا كان يمكن أن تعنى هذه الليلة بالنسبة لامى ..

فى ذلك الاسبوع ذهبنا نزورها فى كين هيل ، وعندما جلسنا فى حجرة الزيارة كدنا لا نحتمل فترة الانتظار، وما زلت أذكر حتى الآن صوت دوران المفتاح ، ثم دخول أمى .. كانت تبدو شاحبة ولون شفتيها أزرق .. ومع انها عرفتنا ، فانها لم تبد حماسا لذلك .. فحيويتها القديمة كانت قد ذهبت . وكانت تصحبها ممرضة طيبة

القلب ، ثرثارة ، وقفت معنا ترغب فى الكلام ، ومضت تقـــول :

ـ من المؤسف أن يكون حضوركم فى مثل هذا الوقت. اذ اننا لسنا فى خير حالاتنا اليوم

ـ أليس كذلك يا عزيزتى ؟

فنظرت أمى ـ فى أدب ـ اليهـــــا وابتسمت نصف ابتسامة ، كأنما تنتظر انصرافها

وأضافت الممرضة :

ـ يجب أن تحضرا مرة أخرى عندما يكون حالنـــا افضـــل ..

ثم انصرفت أخيرا ، فصرنا وحدنا



الشقيق سيدنى



الوالد : قتله المسرح والخمر !

ومع أن سيدنى حاول أن يدخل البهجة على أمى ، محدثا اياها عن التوفيق الذى أصابه ، والنقـود التى جمعها ، وأسباب غيابه كل هذه المدة .. فان أمى ظلت تنصت وتهز رأسها شاردة الذهن ، ذاهلة عن نفسها. وعندما قلت لها انها سرعان ما ستسترد صحتها قالت فى شرود :

ـ بالطبع . لو أنك فقط أعطيتنى فنجانا من الشاى ذلك المساء ، لما اصابنى شىء

وقال الطبيب لسيدنى فيما بعد ان عقلها قد تأثر دون شك بسبب سوء التغذية ، وانها تحتاج الى علاج طبى كامل ، وانها بالرغم من لحظات صفاء الذهن التى تمر بها فستحتاج الى عدة أشهر قبل أن يتم شفاؤها

اما أنا ، فقد قضيت عدة أيام تلاحقنى كلماتها :

ـ لو أنك فقط أعطيتنى فنجانا من الشاى ذلك المساء، لما أصابنى شىء !

الفصل الخامس

# الممثل المتجوّل

* المظاهرات تهتف : شابلن .. شابلن ..
* على بساط المليون دولار
* بافلونا .. سارة برنار .. سومرست موم ..
* النهاية الفاشلة لغرام جاء عنيفا

كتب جوزيف كونراد الى صديق له ما معناه : « ان الحياة تجعله يشعر كأنه جرزا أسير ، أعمى ، فى انتظار القتل » . ومع ان هذا التشبيه ينطبق علينا جميعا ، فان بعضنا أحيانا يصيبه حسن الحظ .. وهذا هو ما حدث لى ..

فقد عملت بائع صحف ، وعامل مطبعة ، وصانع لعب للاطفال ، ونافخ زجاج ، وصبى طبيب .. الخ . ولكننى طوال هذا كله لم أدع هدفى النهائى فى أن أعمل بالتمثيل يغيب عن عينى . مثلى فى ذلك مثل سيدنى . ولهذا فاننى ، فى فترات ما بين العمل ، كنت أصقل حذائى ، وانظف ملابسى بالفرشاة ، واضع ياقة نظيفة ، ثم أقوم بجولات منتظمة على متعهدى « بلاكمور » المسرحيين فى شارع بدفور ، على مسافة من « ستراند » وقد ظللت أفعل هذا الى أن حالت هيئة ثيابى دون مزيد من هذه الزيارات

وعندما ذهبت أول مرة ، كان المكان مزدانا بوجهاء من الجنسين ، ملابسهم بالغة النظافة ، يتبادلون الحديث بعظمة . فوقفت مرتبكا فى ركن بجوار الباب ، احاول فى خجل شديد أن أخفى ثيابى الممزقة وحذائى الذى تنبعج منه أصابع قدمى . ومن المكتب الداخلى كان يخرج بين لحظة وأخرى موظف يشق طريقه كرجل الحصاد فى زحام الواقفين المتعالين ، قائلا : « لا شىء لك ــ ولا لك

ـ ولا لك » .. الى أن يخلو المكتب كله كالكنيسة وقت انصراف المصلين

وفى احدى هذه المرات وجدت نفسى وحدى . فلما رآنى الموظف سألنى بلهجة قاطعة :

ـ ماذا تريد ؟

فأحسست كأننى « أوليفر تويست » يطلب المزيد . وقلت مضطربا :

ـ ألديكم أدوار للاولاد ؟

ـ هل اسمك مسجل ؟

فهززت رأسى نافيا

واذا به ، لدهشتى الشديدة ، يدفعنى الى مكتب مجاور ، ويأخذ اسمى وعنوانى وبقية التفاصيل ، قائلا انه سيخبرنى اذا ظهر شىء

وغادرت المكان وفى نفسى ارتياح ممن قام بواجبه ، ومسرور فى نفس الوقت لأن الامور لم تتطور الى شىء

وبعد شهر من عودة سيدنى اذا بى أتلقى بطاقة بريد تقول :

« يمكنكم المرور على مكتب وكالة بلاكمور ، شارع بدفورد ، ستراند ! » ..

وفى ثيابى الجديدة ذهبت ، فأدخلنى لمقابلة المستر بدفورد نفسه . وكان كله رقة وابتسامات . وبكل ود زودنى هذا الرجل « الذى كنت أتصوره رهيبا جبارا » بمذكرة اذهب بها الى المستر « س . أ هاملتون » فى مكتب شارل فورهمان

وقرأ المستر هاملتون المذكرة . فأدهشه وسره أن اكون صغير السن الى هذا الحد . واضطررت بالطبع أن

أكذب عليه ، وأدعى أننى فى الرابعة عشرة لا فى الثانية عشرة كما كانت الحقيقة

وأوضح لى الرجل أننى سأمثل دور الغلام « بيلى » .. فى مسرحية شيرلوك هولمز .. طوال مدة تستغرق أربعين أسبوعا ، وتبدأ فى الخريف

ثم قال :

ــ أما فى الوقت الحاضر فهناك دور ممتاز لغلام فى مسرحية جديدة كتبها هـ . أ . سينتسبرى .. الممثل الذى سيقوم بالدور الرئيسى فى مسرحية شيرلوك هولمز فى الجولة المقبلة

كانت هذه المسرحية « جيم » سوف تعرض فى كينجستون كتجربة قبل القيام بجولة هولمز . وكان المرتب جنيهين ونصف جنيه فى الاسبوع . نفس المرتب الذى سأحصل عليه من مسرحية شيرلوك هولمز

ومع أن المبلغ كان كنزا مذهلا ، فان جفنى لم يختلج وقلت بوقار :

ــ سأتشاور مع أخى حول الشروط

فانفجر المستر هاملتون ضاحكا ، وبدا شديد الاستمتاع . ثم دعا كل هيئة المكتب ليلقوا نظرة على قائلا :

ــ هذا هو بيللى الذى سنقدمه . ما رأيكم فيه ؟

فإذا بالجميع سعداء جدا بى ، يبتسمون فى وجهى . ما الذى حدث ؟ بدا كأن العالم كله تغير .. كأنه هو ضمنى بين أحضانه وتبنانى

وسلمنى المستر هاميلتون بعد ذلك مذكرة الى مستر سينتسبرى ، الذى قال اننى سأجده فى نادى « جرين

روم » بميـــدان لانكستر . فغادرت المكان وأنا امشى فوق السحاب

وتكرر نفس الشىء فى نادى « جرين روم » . اذ دعا المستر سيننسبرى أعضاء النادى الاخرين لالقاء نظـرة على . وسلمنى فى التو واللحظة دور « سامى » .. قائلا انه من أهم شخصيات المسرحيـــة . فخشيت أن يطلب منى قراءته فى الحال ، الامر الذى كان يمكن أن يحرجنى لاننى كنت شبه عاجز عندئذ عن القراءة

علما أنه لحسن الحظ طلب منى أن آخـذ الدور معى الى البيت ، وأقرأه على مهل .. لان البروفات لن تبدأ قبل أسبوع

وعدت الى البيت وقد أسكرتنى السعادة . ثم بدأت أدرك بالضبط كل ما حدث لى . لقد تركت فجأة حياة الفقر والحرمان وبدأت أدخل حلما طالما راودنى .. حلما كانت أمى تحدثنى عنه وتسعد له . فقـد قـدر لى أن أصبح ممثـلا ! وجاء كل شىء فجأة ودون أن أتوقعه . ورحت أقلب على دورى فى المسرحيـــة ، وكانت داخـل غلاف من الورق البنى الجميـــل . كانت أهم مســـتند أحمله بين يدى فى حياتى

وفى خـــلال رحلتى بالاوتوبيس أحسست أننى قـــد اجتزت عقبة هامة فى حياتى . لم أعد انسانا شاذا يعيش فى الأحياء الفقيرة . اننى الأن شـخصية يشـار اليهـا بالبنان فى المسرح . وأردت أن أبكى !

كانت عينا سيدنى شقيقى تلاحقان كلمـاتى وكأنهمـا شريط سينمائى . وأنا أروى له ما حدث لى . كان يجلس رابضا فوق فراشه ويتطلع فى امعان الى ما وراء النافذة ويهز رأسه بين الحين والحين . وأخيرا قال لى فى صوت جاد وقور : « هذه هى نقطة التحول فى حياتنا . كم كنت

اتمنى لو أن أمنا كانت هنا لتسعد بها معنا »

قلت لسيدنى فى حماس : « أن مجرد التفكير فيما حدث .. تصور أربعين اسبوعا بمرتب جنيهين وعشرة شلنات عن كل أسبوع . لقد قلت لمستر هاملتون أنك ستعفنى بكل المسائل المالية . وربما نحصل على أكثر من ذلك . على أية حال اننا نستطيع أن نوفر ستين جنيها هذا العام !! »

ولكن ما كاد حماسنا يهدأ ، حتى كنا ندرك أن جنيهين وعشرة شلنات فى الاسبوع لا تتناسب مع هذا الدور الكبير . وذهب سيدنى فى محاولة لرفع هذا الاجر الذى اتفقنا عليه مبدئيا . وقالت لاخى : « لا بأس من المحاولة على أية حال » . ولكن مستر هاملتون كان صلب الرأى عنيدا ، وقال ان جنيهين وعشرة شلنات هى أقصى ما يمكن دفعه ، ويجب أن نكون سعداء لاننا حصلنا على هذا الأجر ..

وقرأ سيدنى دورى وساعدنى على حفظ سطوره عن ظهر قلب . وكان دورا كبيرا يقع فى ٣٥ صفحة ، لكننى استطعت أن أحفظه فى ثلاثة أيام

وبدأت بروفات « جيم » فى الدور العلوى لمسرح « درورى لين » لقد كان سيدنى يلقننى دورى بحماس شديد حتى أننى أتقنته تماما . ولكن كانت هناك كلمة واحدة تثير غيظى . كان هناك سطر يجب أن أقول فيه : « من تكون أنت يا مستر بيربونت مورجان ؟ » ولكننى كنت أنطق اسمه باتربينت بدلا من بيربونت ! ولكن مستر سينتسبرى استطاع أن يساعدنى على ان أحفظ اسمه ! وكانت هذه « البروفات » الاولى كافية لان تكشف لى عن اشياء كثيرة . لقد فتحت لى عالما جديدا من « التكنيك » أو الفن المسرحى . فلم أكن أعلم أن

هناك شيئا اسمه فن المسرح ولا التوقيت ولا الاداء ، لم أكن أعلم شيئا عن فن التمهل فى الدوران والجلوس . ولكن كل هذا جاء طبيعيا وبلا تكلف

وبعد أن قمت ببروفات لبعض المناظر ، ذهل مستر سينتسبرى وسألنى عما اذا كنت قد قمت بالتمثيل من قبل !؟ وشعرت بارتياح شديد وأنا ألمس السرور فى عينى الرجل وفى عيون كل الممثلين على المسرح . وتقبلت حماسهم كما لو كان حقا طبيعيا فى يوم مولدى

وكان من المقرر عرض مسرحية « جيم » لمدة أسبوع فى مسرح كنجيستون ثم عرضها لمدة أسبوع آخر فى مسرح « فولهام »

لقد كان كل سطر قرأته يثير الضحك . الا ان العمل اليدوى كان يشغل بالى اذ كان على أن أعد الشاى على المسرح وربما ارتبك فيما اذا كنت سأضع الشاى فى الوعاء قبل الماء الساخن اولا . والغريب انه كان من السهل على ان اصيح بالقراءة من ان اقوم بعمل يدوى على المسرح . ولكن مسرحية « جيم » لم تكن ناجحة وقد اسقطها المراجعون . ومع ذلك تلقيت ملاحظات طيبة وخاصة ملاحظة أبداها لى تشارلس ، وهو احد أعضاء شركتنا ، فبعد ان القى على محاضرة فى التواضع وكرم الاخلاق قرأ لى تعقيبا من صحيفة « لندن تايمز » مازلت اذكره بالكلمة وكانت الصحيفة قد استطردت بعد حملة عنيفة على المسرحية قائلة « ولكن هناك ما يشفع للمسرحية وهو دور سامى ذلك الصبى العربى الذكى المتسكع بشوارع لندن الذى كان له الفضل الاول فى الفن الهزلى .. فمع انه شخصية مبتذلة متأخرة فانه كان مسليا للغاية بفضل تمثيل شارلى شابلن الذكى النشط الذى لم أسمع عنه

من قبـل ولـكننى أود ان اسـمع عنـه أشياء عظيمة فى المستقبل القريب » وقد اشترى سيدنى ١٢ نسـخة من الصحيفة

وبعد انتهائنا من العمل فى مسرحيـة ( جيم ) الذى استغرق أسبوعين بدأنا الاستعداد لمسرحيـة ( شرلوك هولمز ) . وكنت وسيدنى خلال هذا الوقت ما زلنـا نقيم فى ( باونول تيراس ) لاننا لم نكن واثقين من موقفنـا الاقتصادى . وكنت أذهب وسـيدنى الى كين هيـل « مستشفى مجاذيب » لزيارة أمى . وقالت لنا الممرضات أول مرة أنه لا يمكن زيارتها لأنها لم تكن فى حالة طيبـة فى ذلك اليوم . وانتحت الممرضات جانبا بسيدنى بعيدا عن سمعى ولكننى سـمعته يقول ( كلا .. لا اعتقد انه سيفعل ) ثم التفت الى وسألنى فى حزن ( هل ترغب فى رؤية أمك فى غرفة عزل المجاذيب ؟ ) فتراجعت قائلا كلا .. كلا فلن أستطيع الاحتمال ! )

ولكن سيدنى زارها واستطاعت ان تعرفه حينما عادت لرشدها وبعد بضع دقائق أخبرتنى الممرضة أن أمى فى حالة طيبة واستطيع أن أراها اذا شئت . وجلست معها فى غرفة العزل وقبل خروجى انتحت بى جانبا وهمست فى أذنى قائلة « لا تضل طريقك حتى لا يحضروك الى هذا المكان » وقد بقيت ١٨ شهرا فى كين هيل قبل أن تستعيد صحتها ، ولكن سيدنى كان يتردد عليها أثنـاء غيابى فى جولاتى ..

وقد حتمت على جولتى الاولى الاقامة مع مستر جرين وزوجتة وهو نجار الشركة وكانت زوجتة المسـئولة عن خزانة الملابس . ولم تكن اقامتى معهما طيبة . فقـد كان الزوجان يشربان الخمر كثيرا ولم أكن دائمـا أريد

الاكل معهما او اكل ما يأكلونه . وكنت متأكدا ان اقامتى معهما كانت متعبة لهما أكثر مما هى متعبـــة لى . ولذا اتفقنا بعد ثلاثة اسابيع على الانفصال . ولما كنت أصغر من ان أعيش مع أعضاء الفرقة الاخرين فاننى قررت أن أعيش وحدى . وهكذا اصبحت وحيدا فى مدن غريبـــة وغرف منعزلة لاأكاد اقابل احـــدا الا فى المساء وقـــت التمثيل . ولم اكن اسمع ســـوى صوتى حينما كنت احدث نفسى . وكنت احيانا أذهب الى الصـــالون حيث يجتمع اعضاء الشركة واراقبهم وهم يلعبون البليـــاردو ولكننى كنت أحس دائما أن وجودى يقيد حديثهم وكانوا يتعمدون اشعارى بذلك . وما كنت أستطيع ان ابتسم لدعاباتهم دون أن ينظروا الى شذرا ..

ومكثت فى الاقاليم ستة أشهر ، وفى تلك الاثناء كان سيدنى قد عجز عن الحصول على عمل فى احد المسارح واضطر الى النزول عن طموحه الاسطورى وتقـديم طلب للحصول على وظيفة ســـــاقى ( بارمان ) فى قاعة كول بستراند ، وحصـــــل فعلا على الوظيفة من بين ١٥٠ تقدموا لها . ولكنه كان قد سقط بذلك سقوطا مخزيا من قمة سحره وطموحه

وكان يكتب لى بانتظام ويجعلنى اتتبع اخبار امنـــا ولكننى كنت نادرا ما ارد على خطاباته وكان السبب فى ذلك اننى لم اكن استطيع ان اتهجى الكلمات جيـدا ، ولكن احد خطاباته مس شغاف قلبى وجعلنى اكثر اقترابا منه ، كتب لى فى هذا الخطاب يؤنبنى على عدم الرد على خطاباته ويذكر الشقاء الذى ذقناه معا والذى يجب ان يوحد بيننا اكثر من اى شىء ، ومضى قائلا : « منذ ان مرضت أمنا ليس لكل منا فى الدنيا سوى الاخر ، ولذلك

ينبغى عليك أن تكتب لى بانتظام وتجعلنى اشعر ان لى أخا .. »

وكان خطابه مؤثرا للغاية الى درجة اننى شرعت فورا فى الرد عليه ، لقد اصبحت ارى الان سيدنى فى ضوء آخر ، لقد ثبت خطابه حبه الاخوى فى قلبى ودام هذا الحب طوال الحياة

تعودت ان اعيش وحيدا وكدت انسى عادة الكلام الى درجة أننى اذا التقيت فجأة بأحد معارفى كنت اشعر بالخجل الشديد ، فلم أكن أستطيع أن أجمع شتات فكرى بسرعة حتى أستطيع أن اجيب أسئلته بذكاء وكان مثل هذا الشخص يتركنى وهو يشعر بالاسف نحوى

مكثت فى ايبوفال ثلاث ليال وأحمد الله اننى لم أمكث أكثر من ذلك ، فقد كانت ايبوفال مدينة رطبة قبيحة بها صفوف متراصة من المنازل الكئيبة الشوهاء ، كل منزل يتكون من أربع حجرات صغيرة تضاء بمصابيح الغاز ، ونزل معظم أعضاء الفرقة فى فندق صغير ، ولحسن حظى عثرت على حجرة أمامية فى منزل أحد عمال المناجم . ورغم انها كانت حجرة ضيقة فانها كانت مريحة ونظيفة ، وعندما أعود فى الليل بعد انتهاء العرض كنت أجد عشائى موضوعا امام النار ليحتفظ بسخونته وكانت صاحبة المنزل امرأة طويلة القامة انيقة فى منتصف العمر يفوح منها عبير مأساة. دخلت حجرتى فى الصباح حاملة أفطارى دون أن تنبس ببنت شفه . ولاحظت ان باب المطبخ كان مغلقا دائما وكنت عندما أريد شيئا أطرق الباب وعندئذ يفتح بمقدار بوصات قليلة

وفى الليلة الثانية بينما كنت أتناول عشائى دخل زوجها . وكان فى نفس سنها تقريبا . وكان قد عاد لتوه

من المسرح فى تلك الليلة حيث استمتع بالمسرحية

ووقف برهة يتحدث وهو ممسك بشمعة مضاءة وعلى استعداد للنوم . ثم بدا فجأة وكأنه يفكر فيمـــا يريد أن يقول .. وقال : اصـــغ الى . لدى ما قد يلائم نوع عملك .. هل رأيت ضفدعة بشرية ؟ هيا . امسك هذه الشمعة وسأحمل المصباح

وتقدمنى الرجل الى المطبخ ، حيث وضع المصباح على الدولاب الذى كانت تغطى أسفله ستارة بدلا من البابين، وقال وهو يفتح هذة الستارة :

ـ هيا يا جلبرت .. اخرج من عندك .. !

فاذا بنصف رجل بلا قدمين يزحف من أســـــفل الدولاب ، برأس ضخم أشقر مبطط ، ووجه شـــاحب البياض ، وأنف مفلطح ، وفم هائل ، وكتفين وذراعين عضلاتهما مفتولة . وكان يرتدى سروالا داخليـــا طويلا من نسيج الفانلات ، قصت ساقاه من أسفل الفخذين ، حيث تنبعج الى الخارج عشرة من أصابع الاقدام ! ونظر الينا هذا المخلوق الذى كان عمره يتراوح بين العشرين والاربعين وابتسم كاشفا عن صفين من أســـنان صفراء غير متلاصقة

وصاح الاب :

ـ هيا يا جلبرت .. اقفز !

فهبط الرجل التعس بنفسه ببطء، ثم قذف بساعديه الى أعلى فجأة حتى كاد يبلغ مستوى رأسى !

ـ ما رأيك فيه مع احدى فرق السيرك ؟ الضفدعـــة البشرية !

فبلغ بى الذعر حدا جعلنى أعجز عن الجواب .. غير

اننى اقترحت على اية حال أسماء عدد من فرق سيرك ليكتب اليها ..

واذا بالرجل يصمم على أن ينوم ذلك المخلوق التعس بأداء مزيد من النمر ، زحفا ، وتسلقا ، ووقوفا على يديه فوق ذراعى كرسى هزاز . فلما فرغ من ذلك تظاهرت بأننى فى غاية الحماس ، وهنأته على ألعابه .. ثم قلت وأنا انصرف :

ــ مساء الخير ياجلبرت ..

فأجاب المسكين فى صوت أجوف ، وبلسان مقيد :

ــ مساء الخير ..

وفى تلك الليلة نهضت عدة مرات أثناء الليل وتأكدت من أحكام قفل الباب

وفى الصباح التالى بدت صاحبة البيت لطيفة ، ومتفاهمة ، وهى تقول :

ــ يقال انك رأيت جلبرت أمس. انه بالطبع لا ينام تحت الدولاب الا عندما يسكن معنا احد من المسرح

وعندئذ طرقت ذهنى الفكرة البغيضة : اننى كنت أنام فى سرير جلبرت .. وقلت للمرأة :

ــ أجل ..

ثم تكلمت بحماس مفتعل عن فرص التحاقه بالسيرك . فأومأت برأسها قائلة :

ــ لقد فكرنا فى هذا كثيرا ..

وبدا أن هذا الحماس ــ أو سمه ما شئت ــ قد سر صاحبة البيت . وذهبت بعد ذلك الى المطبخ لاودع جلبرت . وصافحت يده المشوهة وانا أحاول أن أبدو طبيعيا • وصافحنى هو فى رفق

وبعد أربعين أسبوعا فى الاقاليم عدنا لنمثل ثمانية أسابيع فى ضواحى لندن . ولما كانت مسرحية ( شرلوك هولمز ) قد حققت نجاحا ساحقا . فقد كان مقررا ان نقوم بجولة أخرى بها بعد ثلاثة أسابيع من انتهاء الجولة السابقة ..

وكنا أنا وسيدنى قد قررنا الآن ان نترك مسكننا فى بوندال تيراس ونستأجر مسكنا أكثر مدعاة للاحترام فى شارع كننجتون . فقد كنا كالثعابين نريد أن نغير جلدنا ، ونتخلص من كل اثر من آثار الماضى

وتحدثت مع الادارة بشأن اعطاء دور صغير لسيدنى فى الجولة التالية لشرلوك هولمز . فحصل على الدور ب ٣٥ شلنا فى الاسبوع ! وصرنا الآن نعمل معا ..

كان سيدنى يكتب لامى كل أسبوع وقبل انتهاء جولتنا الثانية تلقينا خطابا من مصحة « كين هيل » للامراض العقلية ، يعلن انها استردت صحتها تماما . فكانت تلك أنباء طيبة حقا ، واتخذنا الاجراءات على عجل لاخلاء سبيلها . واعددنا ما يلزمها للحاق بنا فى ( ريدنج ) . ولكى نحتفل بالمناسبة أستأجرنا شقة فاخرة تتألف من غرفتين للنوم ، وغرفة المجلوس مزودة ببيانو ، وزينا غرفة نومها بالازهار ، واعددنا وليمة غذاء سخية

ثم انتظرناها أنا وسيدنى فى محطة السكة الحديد ، ومع اننا كنا سعيدين ، ومتلهفين ، فأننى لم استطع ان أغالب أحساسا بالقلق وانا اتساءل كيف ستسترد مكانها فى حياتنا من جديد . فقد كنت أعلم أن تلك الروابط الوثيقة التى كانت بيننا فى الماضى لا يمكن أن تستعاد

وأخيرا وصل القطار ، ومضينا نتصفح وجوه المسافرين فى انفعال ، وتساؤل ، وهم يغادرون العربات .. الى أن

وقع بصرنا أخيرا عليها ، وهى تتجه نحونا باسمة ، هادئة ، فلما ذهبنا لملاقاتها لم تبد انفعالا كبيرا .. وانما حيتنا فى حنان تقليدى . وكان واضحا انها هى الاخرى تحاول ان تلائم نفسها مع الظروف الجديدة

وأثناء المسافة القصيرة التى قطعناها بالعربة الى مسكننا ، تكلمنا فى مئات من الاشياء التى تعنينا والتى لا تعنينا . ولكننا ، بعد أن فرجناها على الشقة والزهور فى غرفة نومها ، وبعد أن خبت جذوة الحماس الاولى ، وجدنا أنفسنا نجلس صامتين فى حجرة الجلوس ، وكل منا ينظر الى الآخر ! كان يوما مشمسا ، وشقتنا تقع فى شارع هادىء ولكن هذا الصمت الآن لم يعد مريحا . وبالرغم من رغبتى فى أن أكون سعيدا ، وجدت نفسى أقاوم حالة من الوجوم . فأمى المسكينة ، التى كان أقل ما تجود به الحياة يجعلها سعيدة مستبشرة ، كانت تذكرنى بماضى التعس .. وهى آخر انسان فى العالم يصح أن يكون له مثل هذا الاثر على نفسى .. على أننى بذلت أقصى ما فى وسعى لاخفاء هذه الحقيقة . وكانت السن قد تقدمت بها ، وزاد وزنها . ولاننى كنت دائما أعتز بهيئتها ، وأناقتها ، فقد كنت أريد أن أقدمها للفرقة فى أحسن حالاتها . اما الآن ، فقد بدت لى أقرب الى « البهدلة » .. ولا شك أنها شعرت بما أفكر فيه ، لانها استدارت تنظر الى متسائلة .. فأمسكت بخصلة من شعرها ، وسويتها فى تدليل وانا اقول :

ـ قبل أن تراك الفرقة اريد ان تكونى فى احسن حالاتك ..

فنظرت الى لحظة ثم أخرجت بدارتها وربتت بها على وجهها وهى تقول بمرح :

ـ كفانى سعادة أننى حية ..

لم يمض وقت طويل حتى تلاءم كل منا تمساما مع الاخر ، وانقضت فترة القلق وعدم الارتياح . وفهمت أمى ـ أكثر مما فهمنا ـ أن سننا تجاوزت مرحلة الالتصاق الوثيق بها كما كان الحال ونحن أطفال . فجعلنا هذا نزداد حبا لها .. وكانت أثناء جولاتنا تتولى الذهاب للسوق وشراء ما يلزمنا . وتعود حاملة معها الحلوى والفاكهة وبعض الزهور فى كل مرة . وفى الماضى كانت أمى قادرة ـ مهما بلغ بنا الفقر ـ على أن تبقى نصف قرش للزهور كلما ذهبت ليلة السبت الى السوق

وكانت تمر بها فترات تلوذ فيها بالصمت والتحفظ . فكان هذا الانعزال عنا يحزننى . اذ كانت تتصرف كضيف علينا أكثر مما تتصرف كأم لنا

وبعد شهر أرادت أن تعود الى لندن . لانها تتلهف الى الاستقرار حتى يكون لنا بيت نعود اليه بعد جولتنا . بالاضافة الى أن ذلك فى رأيها سيكون أكثر اقتصادا فى النفقات من التجول فى الاقاليم ودفع مزيد من أجور الاقامة

وهكذا استأجرت أمى شقة فوق دكان الحلاق فى شارع شستر ، حيث سبق أن أقمنا ذات يوم ، ثم اشترت بالتقسيط أثاثا بعشرة جنيهات ، ولم تكن الحجرات فى اتساع قصر فرساى أو فى فخامته ، ولكن أمى صنعت المعجزات فى غرف النوم بصناديق البرتقال التى كستها بالكريتون وجعلتها تبدو كالمقاعد

كان مجموع دخلنا عندئذ ـ انا وسيدنى ـ أربعة جنيهات وخمسة شلنات فى الاسبوع ، نرسل منها جنيها وخمسة شلنات الى أمى .. وبعد انتهاء جولتنا الثانية عدنا الى البيت وقضينا عدة أسابيع معها

ومع أننا كنا سعداء بوجودنا معا ، فاننا شعرنا بسرور

خفي عندما غادرنا المكان الى جولة أخرى . فشارع شستر لم يكن فيه ما في مساكن الاقاليم من وسائل الراحة التى صرت أنا وسيدني معتادين عليها . وكانت أمي ولا شك تدرك ذلك . وعندما جاءت تودعنا في المحطة كانت تبدو مشرقة الى حد كبير ولكننا والقطار يغادر المحطة ، وهي تلوح لنا باسمة بمنديلها ، بدت لنا كأنها محرومة تتمنى أن نظل معها . .

وفي خلال جولتنا الثانية كتبت لنا امي ان لويز التى كنا نعيش معها في شارع كننجتون قد ماتت - وياللسخرية - في ملجأ لامبث . . نفس المكان الذى اودعنا فيه . . فهي لم تعش بعد أبي الا أربعة أعوام ، تاركة طفلها اليتيم الذى أرسل أيضا الى معهد هانويل . . حيث سبق أن أرسلنا نحن . . .

وقالت أمي في خطابها أنها زارت الغلام ، وأفهمته من هي ، وكيف أننا - أنا وسيدني - كنا نعيش معه ، ومع أمه وأبيه ، في شارع كننجتون . ولكنه لم يستطع أن يتذكر الا قليلا ، اذ لم يكن قد تجاوز الرابعة في ذلك الوقت . كما أنه لم يتذكر أيضا والده . وهو الان في العاشرة من عمره . وقد سجل باسم عائلة والدته ، وليس له - في حدود ما علمت أمي - أى أقارب . ووصفته أمي بأنه غلام وسيم ، هادىء جدا ، وبأنه خجول ومهموم . وقد حملت له معها كيسا من الحلوى ، وبعض البرتقال والتفاح ، ووعدته بأن تزوره بانتظام . وهو وعد أعتقد أنها وفت به الى أن مرضت هي نفسها مرة أخرى ، وأعيدت من جديد الى مصحة « كين هيل »

كانت أنباء نكسة أمي كالطعنة في القلب . وما عرفنا على الاطلاق أية تفاصيل . فكل ماتلقيناه كان اخطارا

رسميا موجزا بأنهم قد عثروا عليها تتجول ذاهلة فى الطرقات

ولم يكن هناك ما نفعله سوى أن نتقبل باستسلام مصير أمى المسكينة ، التى لم تسترد عقلها أبدا بعد ذلك بصورة كاملة . وبقيت عدة سنوات سجينة المصحة فى كين هيل ، الى أن صار فى مقدورنا أن ننقلها الى مصحة خاصة ..

على أن آلهة الايذاء تمل احيانا لعبتها ، وتبدى شيئا من الرحمة . وهذا هو ما فعلته مع أمى . فطول السنوات السبع الاخيرة من حياتها عاشت فى جو من الراحة ، محاطة بالزهور وضوء الشمس ، لترى ولديها البالغين يتمتعان بشهرة وثروة تفوق كل ما خطر بخيالها

لم نستطع أن نرى أمى مرة أخرى قبل مضى عدة أسابيع ، بسبب جولتنا مع مسرحية « شرلوك هولمز »

وكان وليم جيليت مؤلف المسرحية قد جاء الى لندن مع « مارى دورو » ليقدم مسرحية كتبها بعنوان « كلاريسا » .. ولكن النقاد هاجموا المسرحية ، وطريقة القاء جيليت .. مما دفعه الى أن يضيف مسرحية من فصل واحد فى أول العرض اسمها « المأزق المؤلم لشرلوك هولمز » لا يقول هو فيها جملة واحدة .. ولم يكن فى المسرحية الا ثلاث شخصيات : امرأة مجنونة ، وشرلوك هولمز ، وغلام خادم ، واذا ببرقية كأنها نبأ من السماء تصل الى من المستر بوستانت ، مدير فرقة جيليت ، يسألنى فيها عما اذا كان يمكننى الحضور الى لندن لامثل دور بيلى مع وليم جيليت فى مسرحيته هذه ذات الفصل الواحد

وتبددت نفسى من فرط اللهفة ، والقلق . فقد كنت اشك فى أن تتمكن فرقتنا من العثور على بديل لدور

بيلى فى الاقاليم خلال مهلة قصيرة كهذه . وظللت عدة أيام يعذبنى القلق ، الى أن عثروا بالفعل على « بيلى » آخر ..

وبينما أنا انتظر فى المسرح بدء البروفات ، وقع بصرى للمرة الاولى على مارى دورو .. فى أروع ثياب الصيف البيضاء . يا للهزة المفاجئة لوقوع العين على كل هـذا الجمال فى تلك الساعة ! كانت قد وصلت فى عربة أنيقة ، واكتشفت بقعة حبر فى ثوبها ، فأرادت أن تعرف هل يوجد لدى صاحب المسرح شيء يمكن ان يمحـــوها .. فلما أجاب انه يشك فى ذلك ردت بأجمل تعبير عصبى سمعته :

ــ أوه ! أليست هذه وحشية !

***

كان جمالها مدمرا الى حد أننى ضقت بها ! ضقت بشفتيها الرقيقتين المضمومتين ، وأسنانهـا البيضـاء المتسقة ، وذقنها الحلو المعبود ، وشعرها الفــاحم ، وعينيها البنيتين الداكنتين .. ضقت بتظاهرها بالعصبية ، وبالسحر الذى تنفثه وهى تفعل ذلك ! وكانت طوال الوقت الذى قضته تستــــجوب المشرف على الملابس لا تشعر على الاطلاق بوجودى ، بالرغـم من أننى أقف بقربها أحملق فيها ، مذهولا بجمالها . كنت قـد بلغت السادسة عشرة من عمرى . وأثار اقتراب هذا التألق المفاجىء عزمى على الا ادعه يسيطر على . ولكن ، ياالهى . لقد كان ذلك هو الحب من أول نظرة !

ومع أن النقاد فتنوا بجمال مارى ، الا أنهم قالوا أنه لايكفى لاعادة تماسك مسرحية مفككة . فأكمل جيليت بقية موسمه باعادة عرض « شرلوك هولمز » التى احتفظت فيها بدور بيلى ..

وقبل أن ينتهى عرض المسرحية بأسبوعين ، سلمنى المستر ديون بوشيكولت خطابا يقدمنى فيه الى « مستر ومسز كندال » الذائعى الصيت ، بأمل الحصول على دور لى فى مسرحيتهمـــا الجديدة .. وكانا فى مسرح « سانت جيمس » .. وتحدد لى موعد فى العـــاشرة صباحا لمقابلة السيدة فى مدخل المسرح .. ولكنها تأخرت عشرين دقيقة ، وأخيرا برز أمامى ظل أسود على صفحة ضوء الشارع ! وكان ظل المسز كندال وهى امرأة قوية الشكيمة ، متسلطة ، حيتنى بقولها :

ــ أوه .. أنت الفلاح اذن ! ستقوم عن قريب بجولة فى الاقاليم بمسرحية جديدة .. وكنت أحب أن اسمعك تقرأ الدور أمامى .. ولكننا الآن مشغولون جدا .. فهل يمكنك أن تكون هنا غدا فى نفس هذا الموعد ؟

فأجبته فى جفاء :

ــ آسف يا مدام .. ولكننى لا أستطيع أن اقبل اى عمل خارج المدينة !

ثم رفعت قبعتى . وغادرت المدخل ، واستوقفت عربة مارة فى الطريق .. وعشت بلا عمل عشرة أشهر

وفى الليلة التى أختتم فيهـــا عرض شرلوك هولمز فى مسرح « دوق يورك » وكان على مارى دورو أن تعــود بعدها الى امريكا ، أنفردت بنفسى وسكرت حتى فقدت الوعى ..

وبانتهاء عرض « هولمز » .. أصبح كل من سيدنى وأنا عاطلا . ولكن سيدنى لم يضيع وقتا طويلا فى الحصول على عمل . فبعد أطلاعه على اعلان فى صحيفة « ايرا » المسرحية ، التحق بفرقة شارلى مانون الهزلية المتجولة . وبينما هو يعمل مع فرقة مانون قابله فريد كارنو ووقع

معه عقدا بمرتب قدره أربعة جنيهات فى الاسبوع • ولما كنت انا أصغر منه بأربع سنوات ، فلقد كنت بالنسبة للعمل المسرحى لا فى العير ولا فى النفير .. ولكننى كنت قد أدخرت بعض النقود من عملى فى لندن . وبقيت فيها أثناء عمل سيدنى فى الاقاليم



ماري بيكفورد : قصة الغرام مع دوجلاس فيربانكس

الفصل السادس

# الحب والمراهقة

❋ لبست سوالف مستعارة كى أبدو يهوديا

❋ المتفرجون يقذفوننى بقشر البرتقال

❋ بينما أنا أمشى منفوخا متعجرفا .. سقط بنطلونى

كنت الآن فى سن المراهقة الشاقة التى لا جاذبية فيها ، وسلوكى متفق مع الطابع النفسى للمراهقين . فأنا ميال الى الطيش والمبالغة ، حالم شارد الذهن ساخط على الحياة . محب لها . وعقلى ما زال يتشكك ، ولكنه يتفجر بانبثاقات مفاجئة من النضج . وفى ممر المرايا السحرية هذه كنت أتسكع تائها . وطموحى يضرب فى السماء بقفزات عالية .. ولم تكن كلمة « الفن » تخطر ببالى على الاطلاق ، أو ترد فى حديثى .. فالمسرح كان بالنسبة لى رزقا ولا شيء ابعد من ذلك

وحصلت فى النهاية على عمل فى اسكتش هزلى « فودفيل » فى سيرك كيزى . وكان العرض فى رأيى تافها . ولكنه كان يتيح لى فرصة التحول الى ممثل هزلى

كان ستة منا ـ أثناء وجود سيرك كيزى فى لندن يقيمون بشارع كننجتون مع المسز فيلدز .. وهى أرملة فى الخامسة والستين . لها ثلاث بنات : فردريكا ، وثيلما ، وفويب .. وكنا جميعا نأكل فى المطبخ . ونمت بيننا وبين العائلة صلة وثيقة . وكانت المرأة العجوز طيبة القلب ، واسعة الصدر ، لا تكف عن العمل ، وليس لها دخل الا من تأجير الغرف . أما الابنة المتزوجة ـ فردريكا ـ فكان ينفق عليها زوجها .. وأما ثيلما وفويب فكانتا تساعدان فى أعمال المنزل

وكانت فويب جميلة فى الخامسة عشرة ، ذات ملامح

نحيلة مدببة ، ولها جاذبية شديدة بالنسبة لى ، جثمانيا وعاطفيا .. وان كنت قد قاومت الجانب العاطفى لاننى لم أكن قد بلغت السابعة عشرة بعد ، ولم تكن لى غير أسوأ النوايا نحو الفتيات .. على انها كانت فتاة طاهرة ، فلم أفز منها بشيء .. وان كنت قد تعلقت به وصرنا صديقين حميمين

كنت قد بقيت حوالى ثلاثة أشهر بلا عمل ، وسيدنى هو الذى ينفق على ويسدد للمسز فيلدز تكاليف اقامتى وطعامى أربعة عشر شلنا فى الاسبوع . وكان قد أصبح ممثلا هزليا رئيسيا فى فرقة فريد كارنو ، وكثيرا ما حدثه عن أخيه الصغير الموهوب . ولكن كارنو أصم أذنيه ، لانه كان يعتقد اننى أصغر مما ينبغى

وفى ذلك الوقت كان الهزليون اليهود هم الموضة فى لندن . ففكرت فى أن أخفى شبابى وراء سوالف ضخمة .. واعطانى سيدنى جنيهين انفقتهما فى اعداد اغنيات وحوار هزلى مأخوذ من أحد الكتب الفكاهية الامريكية « ميزانية شارع ماريسون » . وقضيت أسابيع اتدرب ، وامثل أمام عائلة فيلدز .. فكانوا يتابعوننى بانتباه وتشجيع ، ولكن لا شيء أكثر من ذلك

وحصلت على فرصة للعمل أسبوعا دون أجر — على سبيل التجربة — فى موزيكهول فورستر .. وهو مسرح صغير فى شارع « مايل اند » ، فى قلب الحى اليهودى ، وكنت قد لعبت فيه قبل ذلك مع سيرك كيزى ، فرأت الادارة اننى استحق أن أمنح فرصة . وصار مستقبلى الآن ، وأحلامى كلها ، تتوقف على أسبوع التجربة هذا . فبعد فورستر أستطيع أن ألعب كافة الاسكتشات الذائعة فى لندن . ومن يدرى ؟ قد يصعد نجمى خلال عام واحد فأصبح من أكبر الاسماء فى عالم الفودفيل . ووعدت

عائلة فيلدز جميعا بتذاكر قرب نهاية الأسبوع ، عندما أكون قد أتقنت تماما دورى

وقالت فويب :

ــ أظن أنك لن تريد البقاء معنا بعد نجاحك

فأجبت فى لهجة السخى الكريم :

ــ بالطبع سأبقى ..

وفى الثانية عشرة من ظهر الاثنين كانت تجرى بروفات الفرقة الموسيقية والاغنيات .. الخ . فقمت بدورى بحذق المحترف . ولكننى لم افكر بما فيه الكفاية فى أمر الماكياج . اذ لم يكن رأيى قد استقر بعد على الصورة التى ينبغى أن أظهر بها

وفى ليلة العرض ظللت ساعات فى حجرة الملابس أجرب أشكالا مختلفة .. ولكننى لم أستطع ــ على قدر ما استخدمت من الشعر المستعار ــ أن أخفى صغر سنى ..

وبرغم اننى كنت حسن النية ، فان نمرتى كانت مسرفة فى معاداة اليهود . ولم تكن فكاهاتى قديمة فقط ، وانما مفتعلة أيضا كلهجتى اليهودية .. وبالاضافة الى ذلك فاننى لم أكن أبعث على الضحك ..

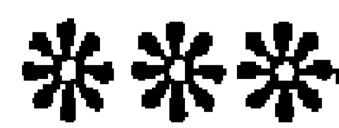
وما كدت أفرغ من القاء أول نكتتين حتى بدأ المتفرجون يقذفوننى بقشر البرتقال والعملات ، ويدقون بأرجلهم على الارض ، ويطلقون صيحات التسخيف . ولم أتنبه فى البداية الى ما يجرى . ولكن حقيقة الموقف الرهيب تسربت الى وعيى تدريجا . وبدأت أتعجل ، وأتكلم أسرع فأسرع كلما تزايد الهرج والقذف بقشر البرتقال والعملات . وعندما غادرت خشبة المسرح لم أنتظر لاسمع حكم المدير . وانما مضيت رأسا الى غرفة الملابس ، وتخلصت من

الماكياج ، ثم غادرت المسرح ولم أعد اليه أبدا ٠٠ ولا حتى لكى أسترد كراساتى الموسيقية

وكانت ساعة متأخرة من الليل عندما عدت الى البيت فى شارع كننجتون ٠ وكانت عائلة فيلدز كلها نائمـة ، فحمدت الله على ذلك ٠ وفى الصباح كانت مسز فيلدز ــ على مائدة الافطار ــ متلهفة لسماع أنباء الحفلة ٠ فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت :

ــ لا بأس ! ولكن النمرة تحتاج الى بعض التعديلات :

وقالت مسز فيلدز أن فويب قد ذهبت ورأتنى ،ولكنها لم تقل لهم شيئا لانها كانت متعبة جدا ، وتريد أن تنام ٠ وعندما قابلت فويب فيما بعد لم تشر الى الموضوع ،لاهى ولا أنا ٠ كذلك لم تشر اليه المسز فيلدز ولا أى فرد آخر من العائلة ، ولم يبد أحد منهم أية دهشة لعدم اتمام بقية الاسبوع



وكان سيدنى فى الاقاليم ولله الحمد : فلم يكن على أن أتجرع مرارة اخباره بما حدث ٠ ولكنه لا شك قد استنتج الحقيقة ، أو أخبرته بها عائلة فليدز ، لانه لم يسألنى أبدا عنه. وقد بذلت أقصى مافى وسعى لكى أزيح عن ذهنى رعب تلك الليلة ، ولكنها خلفت أثرا لا يمحى على ثقتى بنفسى ٠ فقد علمتنى تلك التجربة الرهيبة أن أرى نفسى فى ضوء أصدق ٠ وتحققت من اننى لست ممثلا فودفيليا ، ولا أملك قدرة هذا الممثل على أزالة الكلفة ، ومصادقة الجمهور ٠ وعزيت نفسى باننى من ممثـــلى النماذج « الكاراكتر »

وبعد شهر من فشلى فى مسرح فورستر ، اخبـــرنى سيدنى ان مستر كارنو يريد ان يرانى ٠ ويبدو انه كان

غير راض عن أحد الممثلين فى دور يقوم به أمام مستر هارى ويلدون فى « مباراة الكرة » .. وهو من انجح اسكتشات كارنو . وكان ويلدون من اشهر الممثلين الذين احتفظوا بشعبيتهم حتى اخر ايام حياتهم فى الثلاثينيات

كان مستر كارنو رجلا برونزيا صغير الحجم ، ممتلىء الجسم ، له عينان لامعتان ، فاحصتان دائما . وكان قد بدأ حياته بهلوانا على المتوازيين ، ثم ضم اليه ثلاثة من المهرجين . وصار هذا الرباعى نواة اسكتشاته الهزلية الصامتة . وكان هو نفسه ممثلا رائعا ، وابتدع كثيرا من الادوار الهزلية . وظل يمثل حتى بعد ان صار يملك خمس فرق اخرى

وكان بيت المستر كارنو فى طريق « كولدهاربر » بحى كامبرويل ، وقد الحق به مخزنا لايداع المناظر الخاصة ببرامجه العشرين . كما ان مكتبه ايضا كان هنـــــاك . وعندما وصلت استقبلنى بروح ودية ، وقال لى :

ـ لقد حدثنى سيدنى طويلا عن مقدرتك . فهل تظن انك تستطيع أن تمثل أمام هارى ويلدون فى «مباراة الكرة» ؟

وكان هارى ويلدون يتعاقد على مرتب غير عادى ٣٤ جنيها فى الاسبوع .

قلت فى ثقة :

ـ كل ما احتاج اليه هو الحصول على الفرصة

فابتسم :

ـ ان السابعة عشرة سن صغيرة . بل انك لتبـــدو أصغر ..

فهززت كتفى باستخفاف وقلت :

ـ هذه مسألة ماكياج !

فضحك كارنو . وكانت هزة كتفى هذه ـ كما صارح

سيدني فيما بعد ـ هي التي جعلتني احصل على الوظيفة ثم قال لي :

ـ جميل .. جميل .. سنرى ماذا تستطيع أن تفعل ..

وتقرر أن يكون تعاقدنا لمدة اسبوعين على سبيل التجربة ، في مقابل ثلاثة جنيهات ونصف جنيه في الاسبوع . فاذا كان ادائي مرضيا حصلت على عقد لمدة سنة ..

كان امامي اسبوع لدراسة دوري قبل الافتتاح في « لندن كوليزيوم » . وطلب مني كارنو ان اذهب الى مسرح « شبرد بوش امباير » حيث كانت تعرض « مباراة الكرة » لاراقب الرجل الذي سألعب دوره .. والحق انه كان سمجا ، غير مندمج في دوره ، وانني ـ دون تواضع كاذب ـ عرفت اني سأقهره

كان الدور يحتاج الى تهريج اكثر ، فقررت ان اؤديه بهذه الطريقة . ولكنهم لم يتيحوا لي أن أقدمه بغير بروفتين لان مستر ويلدون لم يكن لديه وقت لغيرهما . بل الحقيقة انه ضاق بمجرد الحضور ، لانه كان يتعارض مع الموعد الذى اعتاد ان يلعب فيه مباراة الجولف

ولم اكن في البروفات ملفتا للنظر . ولما كنت بطيئا في القراءة فقد احسست ان لدى ويلدون بعض التحفظات على صلاحيتى . ولو كان سيدنى موجودا فى لندن لكان محتملا ان يساعدنى ، لانه سبق ان ادى نفس الدور . ولكنه كان يمثل فى الاقاليم فى اسكتش اخر

وبالرغم من أن « مباراة الكرة » كانت مسرحية تهريجية صارخة ، فانها لم تكن تستثير ضحكة واحدة الا بعد ظهور ويلدون . فكل شيء كان يمهد لدخوله . ولما

كان ممثلا رائعا . فقد كان بالطبع يبقى على الجمهور في حالة ضحك مستمر منذ اللحظة التي يدخل فيها

وفي ليلة الافتتاح في الكوليزيوم كانت اعصابي مشدودة كزمبلك الساعة . فتلك الليلة كانت تعني استعادة ثقتي بنفسي ، ومحو عار تلك المحنة التي تعرضت أليها في مسرح « فورستر » . ولذا ظللت امشي جيئة وذهابا وراء المسرح الضخم ، أدعو الله فيما بيني وبين نفسي ، والقلق في صدري يركب الخوف

ثم عزفت الموسيقى ! ثم ارتفع الستار ! وعلى المسرح كانت فرقة من عشرة منشدين يتدربون ، لم يلبثوا ان غادروا المسرح وتركوه خاليا . وكانت هذه هي اللحظة التي أدخل فيها ، فدخلت وانا في حالة من الفوضى النفسية ، والانسان في مثل هذه الاحوال أما أن يرتفع الى مستوى الموقف او يستسلم له . ففي اللحظة التي دخلت فيها المسرح انزاح عني العبء . وبدا كل شيء واضحا أمامي . دخلت بظهري الى المتفرجين ـ وكان هذا ارتجالا من جانبي .. ومن الظهر كنت ابدو على ما يرام ، مرتديا بدلة الفراك ، والقبعة العالية ، والعصا ، وغطاء الحذاء ـ نموذجا للشرير في عهد الملك ادوارد ، ثم درت حول نفسي كاشفا عن انفي الاحمر . فضحك الناس . وضيقت هذه الضحكة المسافة بيني وبينهم . ثم هززت كتفي ، ثم طرقعت اصابعي ، قبل ان امشي عبر المسرح متعثرا في احد الاثقال الحديدية « الدامبلز » . ثم اصطدمت عصاي بكيس يتدلى فوقي من الطراز الذي يتدرب عليه الملاكمون ، فأجابني بصفعة في الوجه . فترنحت وملت بجسمي ضاربا جانب رأسي بالعصا .. وماج الجمهور بالضحكات وبعد قليل هدأت أعصابي، وتدفقت قدرتي على الابداع ...

وكان في امكاني أن أبقيهم خمس دقائق في ضحك متواصل دون أن أنطق بكلمة • وبينما أنا أمشي منفوخا متعجرفا ، بدأ بنطلوني ينسدل • أو انقطع أحد ازراره • فبدأت أبحث عن هذا الزرار • والتقطت من الارض شيئا وهميا، ثم قذفت به بعيدا في تقزز وأنا أقول :

ــ تلك الارانب القذرة !

فكانت ضحكة أخرى

وبدأ في الكواليس وجه هاري ويلدون وهو يدور حول المسرح كما يدور القمر • فالعادة أنه لم تكن ترتفع على اطلاق ضحكة واحدة قبل دخوله ••

وعندما أسدل الستار كنت أعرف أنني أجدت • وصافحني عدد من أعضاء الفرقة وهنأوني • وفي طريقي الى غرفة الملابس نظر لى ويلدون من فوق كتفه وقال في برود :

ــ أحسنت • شيء جميل !

وفي تلك الليلة عدت الى البيت مشيا على الاقدام لارخي أعصابي المشدودة • وفي الطريق وقفت مستندا بذراعي الى حاجز كوبرى وستمنستر ، أراقب المياه الحريرية الداكنة وهي تمر من تحته • كنت أريد أن أبكي من الفرح ، ولكنني لم أستطع • وظللت « أحزق » وأعتصر عيني ، فلم تنسكب منهما دمعة واحدة • كنت أجوف من الداخل • ومن كوبرى وستمنستر مشيت الى « الفيل والقلعة »حيث عرجت على مقهى هناك لاتناول فنجانا من الشاي • وأحسست بالحاجة الى أن أخاطب أى انسان •• ولكن سيدني كان في الاقاليم • ليته كان هنا لاحدثه عن الليلة ، وماذا تعني بالنسبة لى ، خاصة بعد مسرح فورستر !

ووجدت نفسي لا أرغب في النوم • فمشيت من «الفيل والقلعة » الى بوابة كننجتون ، وتناولت فنجانا آخر من الشاي • وظللت طوال الطريق أضـــحك وأكلم نفسي • وبلغت الساعة الخامسة صباحا قبل أن يصيبني الارهاق وأذهب الى فراشي

ولم يكن مستر كارنو حاضرا في الليلة الاولى • ولكنه جاء في الليلة الثالثة ، وفيها استقبل الجمهور دخـــولي الى المسرح بالتصفيق •• فجاء بعـــد العـــرض تسبقه ابتساماته ، وطلب مني أن أحضر الى مكتبه في الصبـــاح وأوقع العقد

وكنت لم أكتب لسيدني عن الليـــلة الاولى • ولكنني أرسلت له الآن برقية موجزة : « وقعت عقدا لمدة عام بأربعة جنيهات أسبوعيا ، مع حبي • شارلي »

كانت الشخصية الهزلية التي يؤديها ويلـــدون من طراز صفيق : شخصية رجل أحمق ثقيل اللســـان • وكانت هذه الشخصية ناجحة تماما في شمال انجلترا • ولكنها في الجنوب لم تستقبل كما ينبغي • وكانت مدن برستول، وكارديف، وبليموث ، وساوثهامبتون ، مواقع فشل بالنسبة له :

فظل طول تلك الاسابيع ضيق الصدر يقـــوم بدوره كأداء واجب ويصب جام غضبه على رأسي

وكان الدور يتضمن أن يصفعني ويطرحني أرضـــا أكثر من مرة ، بطريقة نسميها « ســـحب الكارت » •• ومعناها ان يتظاهر بأنه يصفعني ، بينما يصفق أحدهـم في الكواليس للايهام بأنها صفعة حقيقية • لكن ويلدون كان في بعض الاحيان يصفعني بالفعل ، وبعنف لا ضرورة له ، مدفوعا فيما أعتقد بدافع الغيرة

ثم تطور الامر فى « بلفاست » الى خصومة صريحة .
اذ رسم النقاد صورة مريعة لاداء ويلدون ، بينما أثنوا على ادائى . فكان هذا فوق ما يحتمل ويلدون . وفزت منه فى تلك الليلة على المسرح بقلم موزون أيقظنى من أندماجى فى التمثيل ، وجعل الدم ينزف من أنفى .. وقلت له ـ فيما بعد ـ انه اذا فعل ذلك مرة أخرى فسوف أهشم رأسه بأحد الاثقال الحديدية الموجودة على المسرح . ثم اضفت انه اذا كان يشعر بالغيرة فيجب الا ينفث عنها على حسابى ..

فصاح بازدراء ونحن فى طريقنا الى غرفة الملابس :

ـ الغيرة منك أنت ! ماذا .. ! ان فى « ... » من المواهب أكثر مما فى جسمك كله !

فرددت عليه :

ـ حقا .. انها المكان الذى تكمن فيه كل مواهبك !

ثم أغلقت على الفور باب حجرة الملابس !



الحب عند الشباب يجرى غالبا على نسق واحد : نظرة عابرة ، ثم كلمات قليلة « غبية فى العادة » يتغير بسببها وجه الحياة كله ، وتحنو الطبيعة علينا فتكشف لنا فجأة عن متعها الخفية وهذا هو ما حدث لى .

كنت على أبواب التاسعة عشرة ، وممثلا ناجحا فى فرقة كارنو . ولكن شيئا ما كان ينقصنى . لقد جاء ربيع وذهب ، ثم أقبل الصيف على ومعه الفراغ ، وبرنامجى اليومى يتكرر كما هو وكل ما يحيط بى كئيب . أما المستقبل فلا أرى فيه غير حياة عادية بين اناس عاديين يعلوهم الصدأ . وليس مما يسر الانسان أن يكون شغله الشاغل انتزاع اللقمة يوما بيوم . فالحياة مهمة شاقة ،

ولا سحر فيها • وبدأ يسيطر على الاسى والسخط ، وأتجول منفردا بنفسى فى أيام الاحاد ، أنصت الى فرق الموسيقى فى الحدائق وأخيرا حدث بالطبع الشىء المتوقع: أصابنى سهم الغرام !

كنا فى ذلك الوقت نمثل فى « سترتهام امباير » ، وذهبنا مبكرين حتى نتمكن من الذهاب بعد ذلك الى مسرح « موزيكهول كانتربرى » ، ثم الى « التريفولى » • وعندما بدأنا العمل كان ضوء النهار ، مازال قائما ، والحر يكتم الانفاس ، ومسرح « سترتهام امباير » نصف خال من المتفرجين •• الامر الذى لم يكن من شأنه ـ بالمناسبة ـ أن يخفف عنى الاسى الذى أشعر به

وكانت تظهر قبلنا على المسرح فرقة غنائية راقصة اسمها « فرقة برت كادنس لفتيات اليانكي وورل »وكنت لا أكاد أتنبه الى وجودها • ولكن حدث فى الليلة الثانية للعرض ـ وأنا واقف فى الكواليس شارد الذهن غير مكترث ـ أن انزلقت احدى الفتيات أثناء الرقص وسقطت على الارض ، فبدأت الاخريات يضحكن ، والتفتت احداهن تنظر لى لترى ما اذا كنت أنا أيضا استمتع بالنكتة •• فوجدت نفسى فجأة أسير عينين واسعتين ، بنيتى اللون ، تلمعان بخبث •• يصوبهما نحوى ظبى رشيق الجسم ، بيضاوى الوجه ، وسيم الملامح ، شفتاه ساحرتان ممتلئتان وأسنانه رائعة

وأصابنى مس من الكهرباء !

وعندما غادرت الفتاة المسرح سألتنى أن أمسك لها بالمرآة ريثما تسوى شعرها • فمنحتنى بذلك فرصة أتأملها فيها • وكانت هذه هى البداية ، فما حل يوم

الاربعاء الا وسألتها ان كان ممكنا أن نتقابل يوم الاحد . فوعدتنى بأن تلقانى عند بوابة كننجتون فى الساعة الرابعة مساء

كان يوما رائعا من أيام الصيف ، والشمس متألقة طوال الوقت . ارتديت حلة سوداء محبوكة باتقان عند الخصر ، وربطة عنق سوداء أيضا ، وحملت عصا من الابنوس الاسود كذلك . وقبل الرابعة بعشر دقائق كنت أقف — وكل أعصابى مشدودة — أراقب الركاب وهم يهبطون من عربات الترام . وتذكرت وأنا أنتظر أننى لم أرها بغير ماكياج ، وغامت فى ذهنى ملامحها ، فلم أستطع على قدر ما حاولت أن أتذكرها . وبدأ شيء من الخوف يستحوذ على . لعل جمالها لم يكن الا خدعة ! لعله مجرد وهم ! وأصبحت كل فتاة عادية تهبط من الترام تسببلى احساسا مريرا باليأس . ترى هل سيخيب أملى ؟ هل غرر بى خيالى ، أو أصباغ المسرح الصناعية ؟

وقبل الرابعة بثلاث دقائق هبطت واحدة من الترام واتجهت نحوى . فغاص قلبى . كانت ملامحها تخيب الامل . وكان يبعث على الندم مجرد التفكير فى قضاء الامسية كلها معها .. متظاهرا بالسرور والحماسة . على اننى ما كدت ارفع قبعتى وأبتسم لها حتى حدجتنى بنظرة استنكار ومضت فى طريقها . حمدا لله ! انها لم تكن هى

ثم هبطت من الترام — بعد الرابعة بدقيقة واحدة بالضبط — فتاة شابة أقبلت نحوى مباشرة ثم وقفت أمامى . كان وجهها خاليا من الاصباغ ، وأجمل من أى وقت آخر . وكانت ترتدى قبعة بسيطة كقبعات البحارة ، وجاكتة قصيرة زرقاء ذات أزرار نحاسية ، وتضع يديها داخل جيوب المعطف . وقالت ببساطة :

ـ ها أنذا ..

فبلغ من ارتباكي أنني كدت لا أقوى على الكلام . واستبد بي الانفعال . ولم أستطع أن أفكر في شيء أقوله أو أفعله .. وغمغمت في صوت متحشرج وأنا أبحث بعيني في طول الشارع وعرضه :

ثم التفت اليها قائلا :

ـ أين تحبين ان تذهب ؟

فهزت كتفيها قائلة :

ـ اى مكان

ـ فلنذهب اذن الى «فوست اند»، نتناول الطعام..

قالت بهدوء :

ـ لقد تناولت طعامي

فقلت :

ـ سنبحث هذا الامر في التاكسي !

وكانت حدة انفعالي ولا شك تذهلها فقد ظللت اكرر طول الوقت ونحن في التاكسي :

ـ أعلم انني سأندم على ذلك .. فأنت أجمل ممايجب!

وعبثا حاولت أن أكون ظريفا ، حتى أؤثر في نفسها . وكنت قد سحبت من البنك ثلاثة جنيهات ، وانتويت أن أذهب بها الى « التروكاديرو » .. حيث يمكن في جو الموسيقى والشياكة الناعمة ان تراني وهي واقعة تحت أبلغ مؤثرات رومانتيكية ممكنة . كنت أريد أن أدير رأسها وأفقدها التوازن . ولكنها ظلت باردة النظرات ، مندهشة بعض الشيء ، في مواجهة كل ما ألفظ به . وخاصة قولي انها تمثل بالنسبة لي « نميسيس » .. وهي كلمة كنت قد تعلمتها أخيرا

ولكن ما كان أقل ادراكها لما يعنيه الامر بالنسبة لى ! لم يكن الجنس هو المسألة ، وانما كان الاهم صحبتها . فالجمال والذوق الرفيع كان العثور عليهما فى مثل مركزى أمرا نادرا

وكان تناول الطعام محنة حقيقية ، اذ لم أكن واثقا بأية أداة من أدوات المائدة أتناوله . ولكننى تحايلت على الوجبة بروح المرح والاستخفاف ، حتى أثناء استخدامى عرضا لاناء غسل الاصابع . وان كنت أظن أننا ـ كلانا ـ كنا سعيدين بمغادرة المطعم

فى تلك الليلة سرنا على شاطىء التيمز ، ومضت « هيتى كيلى » تتحدث فى أشياء طريفة ، ومسائل لا أهمية لها .. وأنا لا أكاد أعى ما تقول . كان كل ما أعلمه أنها ليلة تفيض بالنشوة ، وأننى أسير فى الفردوس ..

وبعد أن تركتنى عدت مرة أخرى الى الشاطىء ـ مسحورا ! وفى داخلى كان يشع ضوء رقيق ، ورغبة حارة فى فعل الخير . ووزعت على المتشردين النائمين على شاطىء التيمز ما بقى من جنيهاتى الثلاثة ..

وكنا قد تواعدنا على اللقاء فى السابعة من صباح اليوم التالى ، لانها كانت مرتبطة ببروفات فى الثامنة فى مكان ما فى شارع شانتسبرى . وكانت المسافة حوالى ميل ونصف ميل من بيتها الى محطة المترو فى شارع كوبرى وستمنستر . وبالرغم من أننى كنت أعمل الى ساعة متأخرة ، ولا أنام على الاطلاق قبل الثانية صباحا .. فاننى صحوت عند الفجر من أجل أن ألقاها ..

***

أصبح لشارع « كامبرويل » الآن سحر خاص ، لان هيتى كيلى تقيم فيه .. وكانت المسافة التى نقطعها كل

صباح الى محطة المترو وأيدينا متشابكة ، جنة من السعادة الممتزجة بأحلام غامضة • والشارع الذى كان كالحـــا يبعث على الضيق ، والذى كانت عادتى أن أتجنب السير فيه ، صارت له الان فتنة خاصة وأنا أمشى فيه فى ضباب الصباح المبكر ، وأنبض بالانفعال حين يبدو من بعيد قوام كيلى مقبلة نحوى

وما كنت أتذكر على الاطلاق شيئا مما تقـــول أثناء سيرنا معا • فقد كان يستحوذ على تفكيرى الاحساس بأن هناك قوة غامضة هى التى جمعتنا معا

ودام الحال كذلك ثلاث فترات صباحية ! ثلاث فترات قصيرة ، كل منها تمحو بقية اليوم من الوجود ، الى أن يحين الصباح التالى

ولكن سلوكها ـ فى اليوم الرابع ـ بدأ يتغـــير • اذ استقبلتنى ببرود ، وبلا حماس ، وأبت أن أمسك بيدها • فلمتها على ذلك ، واتهمتها مازحا بأنها لا تحبنى

واذا بها تقول :

ـ أنت تطلب أكثر مما ينبغى • ثم اننى لم أتجـــاوز الخامسة عشرة ، وأنت تكبرنى بأربع سنوات

فلم أفهم بالضـــبط مغزى هذه الملاحظة ولكننى لم أستطع أن أتجاهل المسافة التى وضعتها فجأة بيننا وهى تمشى ناظرة أمامها باعتداد ، وبخطى كفتيات المدارس ، ويداها فى جيب معطفها ••

وقلت لها :

ـ معنى هذا أنك حقا لا تحبيننى

فأجابت :

ـ لست أدرى

فذهلت وقلت لها :
ـ اذا كنت لا تعلمين ، فأنت لا تحبيننى ..
ولكنها لم تجب بغير الصمت
ومضيت مستطردا فى لهجة مازحة :
ـ أرأيت كما آنا ملهم ؟ لقد قلت لك أننى سآسف على انى عرفتك
وحاولت بجد أن أنقب فى تفكيرها لافهم مدى شعورها نحوى . ولكنها ظلت تجيب على كل أسئلتى :
ـ لست أدرى !
وعندئذ داهمتها :
ـ هل تقبلين الزواج منى ؟
ـ اننى مازلت صغيرة
ـ حسبنا . افترضى أنك أرغمت على الزواج ، فهـل تختارينني أم تختارين غيرى ؟
فلم تحسم بشيء . وظلت تكرر :
ـ لا أعلم .. انني أميل اليك .. ولكن ..
ثم سكتت
وكان الصباح مثقلا بالضباب . والشوارع تبدو كئيبة تخنق الانفاس
وكنا قد وصلنا الى مدخل محطة المترو ، فقلت بلهجة خشنة :
ـ يبدو اننى سمحت لعلاقتنا بأن تتمادى الى أكثر مما يجب . وأظن أن الافضل هو أن نفترق الان ، ولا يعـود أحدنا يرى الآخر بعد ذلك
قلت هذا وأنا أتساءل كيف سـيكون رد الفعل من جانبها ، واذا بشيء من الحزن يبدو عليها

فأمسكت بيدها ورحت أربت عليها برفق وحنـــان وقلت :

ـ الوداع . من الافضل أن نفترق هكذا . لقـد كان لك أثر كبير على

قالت :

ـ الوداع . انى آسفة !

وصدمتنى كلمة الاعتذار الاخيرة صـــدمة قاتلة . وشعرت بفراغ لم أستطع أن أحتمله وهى تتركنى لتختفى فى ممر المترو

ماذا أفعل الان ؟ لو اننى استطعت أن أغرق هذا الالم الذهنى فى النوم حتى أراها ثانية لهان الامـــر ! لابد أن أبتعد عنها مهما كان الثمن الى أن تطلب هى مقـابلتى . لعلنى كنت خشنا أكثر من اللازم . لعلنى كنت متوترا أكثر مما يجب . لابد أن أكون أكثر مرحا وتقربا اليهـــا عندما نلتقى فى المرة القادمة . ولكن هل ســتحاول أن ترانى مرة ثانية ؟ بكل تأكيد ! انها لن تســتطيع أن تفصلنى من حياتها بهذه السهولة !

وفى صباح اليوم التالى لم أستطع أن أقاوم قدمى وهما تقودانني الى شارع كامبرويل .. ولكننى لم أعثر عليها وانما عثرت على والدتها !

الفصل السابع

# باريس ..! باريس..!

* لا أريد أن أتزوج أية فتاة
* شبح الفشل يطاردني ..
* شابلن ؟.. انه يثير الاشمئزاز ..

كانت والدة الفتاة ، ولكن معرفتى ازدادت بها فيما بعد ، فقد كانت تقيم فى نفس الفندق الذى اقيم فيه مع اختيها الراقصتين فى باليه ( الفولى بريجير ) . وكانت الصغرى فى الثالثة عشرة من عمرها ، ( وراقصة أولى ) غاية فى الجمال والموهبة ، أما الكبرى ففى الخامسة عشرة ولا تمتاز بموهبة أو جمال . وكانت الام فرنسية سمينة فى حوالى الاربعين ،متزوجة من اسكتلندى يعيش فى انجلترا ، وبعد ان بدأنا العمل فى الفولى بريجير جاءت واعتذرت عن فظاظتها ، فكانت هذه المناسبة بداية لعلاقة صداقة قوية ، وكنت كثيرا ما أدعى لتناول الشاى فى حجرة نومهن

وعندما استعيد هذه الذكرى أشعر اننى كنت فى غاية البراءة . ففى احدى الامسيات بعد أن نامت الفتاتان وأصبحت أنا والام وحيدين ، لاحظت أن سلوكها أصبح غريبا للغاية . وان يدها ترتجف وهى تصب الشاى بينما أنا أتحدث عن آمالى وأحلامى وما شعرت به من حب وما منيت به من اخفاق

وأثارها حديثى .. فلما نهضت لاضع قدح الشاى على المائدة اقبلت نحوى ، وقالت وهى تمسك وجهى بين راحتيها وتنظر فى عينى بعمق :

ــ كم أنت عذب ! ان صبيا مليحا مثلك لا ينبغى أن يصاب بأى أذى

وأصبحت نظراتها حادة غريبة ، وارتعش صوتها وهى تقول :

ـ هل تعرف أنى أحبك كابن ..؟

وكانت ما تزال قابضة على وجهى براحتيها ثم بدأ وجهها يقترب فى بطء نحوى وقبلتنى

فشكرتها باخلاص ، وقبلتها ببراءة ولكنها استمرت تحدق فى عينى بنظراتها وشفتاها ترتعشان وعيناها تلمعان ، ثم استرجعت نفسها فجأة وذهبت تصب لنفسها قدحا من الشاى ، وتغير حالها وبدأ صوتها يحمل رنة جديدة من المرح وقالت :

ـ يا لعذوبتك !!.. اننى أحبك كثيرا

وبدأت تسر لى بأخبار ابنتيها ..

ـ أن الصغيرة فتاة طيبة جدا ، أما الكبرى فتجب مراقبتها جيدا . انها بدأت تصبح مشكلة

واعتادت السيدة أن تدعونى بعد انتهاء العرض لتناول العشاء فى حجرة نومها الواسعة التى تنام فيها مع ابنتها الصغرى . وقبل عودتى الى حجرتى كنت أقبل الام والابنة الصغرى قبلة المساء . وكنت أعبر أثناء عودتى الى الحجرة الصغيرة التى تنام فيها الابنة الكبرى ...

وذات ليلة ـ أثناء مرورى بتلك الحجرة ـ أشارت الابنة الكبرى وهمست فى اذنى قائلة :

ـ اترك بابك مفتوحا فساحضر اليك بعد ان تنام الاسرة

وسواء صدقتم أو لم تصدقوا ، فقد القيت بها فوق فراشها فى اشمئزاز وغادرت الحجرة متثاقل الخطى . وسمعت ، بعد انتهاء عقدهم مع الفولى برجير ان الابنة الكبرى لا تزال فى الخامسة عشرة من عمرها وانها هربت

مع مدرب للكلاب ، المانى بدين فى الستين من العمر
وجاءنى المترجم ذات ليلة .وقال لى ان موسيقيا مشهورا يريد مقابلتى فهل اذهب اليه فى مقصورته ؟ وكانت الدعوة لطيفة سارة ، اذ كانت معه فى المقصورة سيدة أجنبية من أجمل النساء ، وعضو فى الباليه الروسى .. وقدمنى اليها المترجم .. وقال السيد انه استمتع بتمثيلى ودهش لصغر سنى . وانحنيت فى ادب أمام هذه المجاملات وأنا استرق النظرات الخاطفة الى صديقته
وقال الرجل :
ــ أنك موسيقى وراقص بالفطرة . فشعرت بأنه ليس ثمة رد على هذه التحية افضل من ابتسامة لطيفة حلوة. ونظرت الى المترجم وانحنيت فى أدب . ثم وقف الموسيقى ومد يده ، فوقفت وقلت له :
ــ أنا ايضا
وقال وهو يصافحنى :
ــ نعم انت فنان !
وبعد أن غادرنا المقصورة التفت للمترجم وقلت له :
ــ من هذه السيدة التى معه ؟
فأجاب :
ــ انها راقصة باليه اسمها ( ... )
عندئذ شعرت بأن نجمى فى صعود .خاصة اننا كنا ــ فوق ذلك ــ سنبدأ موسمنا فى مسرح أوكسفورد ، اهم قاعة للموسيقى فى لندن وسألعب الدور الرئيسى ، وسينشر اسمى لاول مرة فى رأس القائمة . وهذا ولا شك خطوة كبيرة
غير اننى أصبت فى ( البروفة ) الاولى بالتهاب فى

الحنجرة . وبذلت كل ما فى استطاعتى لانقاذ صوتى ، فكنت أتحدث فى همس،واستنشق الابخرة المطهرة وأرش حلقى بالمطهرات حتى سلبنى القلق كل شعور بما فى دورى من خصوبة ، وكوميدية

وفى ليلة الافتتاح كان كل شريان وكل حبل فى حنجرتى متوترا بسبب الرغبة فى الثأر . ولكن صوتى لم يكن مسموعا . وجاء الى كارنو بعد ذلك وعلى وجهه تعبير يجمع بين خيبة الامل والاحتقار . وقال لى فى لهجة تأنيب :

ـ ان أحدا لم يسمعك

فأكدت له ان صوتى سيكون فى حالة افضل فى الليلة التالية ، ولكنه لم يكن كذلك . بل الحقيقة أنه كان أسوأ، وبلغ درجة كنت فيها مهددا بأن افقده تماما . ونتيجة لهذا ألغى العقد بعد الاسبوع الاول ، وانهارت كل آمالى واحلامى التى وضعتها فى هذا العقد فى أوكسفورد ، وأدت خيبة الامل فى اصابتى بالانفلونزا

لم أكن قد رأيت هيتى منذ أكثر من عام . وفى حالة الضعف والكآبة التى اصبحت فيها بعد الانفلونزا بدأت أفكر فيها مرة أخرى ، ورحت اتجول ذات ليلة فى فى اتجاه منزلها فى كامبرويل .ولكن المنزل كان خاليا وعليه لافتة كتب عليها ( للايجار )

وظللت أتجول فى الشوارع بلا هدف محدد . وفجأة برز من وسط الظلام شبح عبر الطريق واقبل نحوى :

ـ شارلى ، ماذا تصنع هنا ؟

كانت هى ..

وكانت ترتدى معطفا أسود وقبعة

وقلت مازحا : جئت لمقابلتك

فابتسمت قائلة : انك نحيف جدا
فقلت لها :
ـ اننى شفيت لتوى من الانفلونزا ..
كانت الان فى السابعة عشرة من عمرها ، جميلة وأنيقة .
وقلت لها :
ـ السؤال هو ماذا تفعلين انت هنا ؟
فأجابت :
ـ كنت أزور احدى صديقاتى . وأنا الآن ذاهبة الى منزل شقيقى . أتريد أن تأتى معى ؟

وفى الطريق روت لى ان شقيقتها تزوجت مليونيرا امريكيا يدعى فرانك جولد ، وتعيش فى نيس ، وانهما ستغادر لندن فى الصباح لتلحق بشقيقتها وزوجها

وفى تلك الليلة وقفت أرقبها وهى ترقص فى دلال مع شقيقها . كانت تتصرف فى خماقة ، وتتصنع الاغراء مع شقيقها .. وعلى الرغم منى لم أستطع أن أتجنب شعورا بأن ولعى بها قد تضاءل قليلا . هل أصبحت فتاة عادية كأية فتاة أخرى ؟ وأصابنى هذا التفكير بشعور من الحزن

كان جسمها قد نما ، ولكنى لاحظت ان بروز صدرها صغير وليس فيه اغراء . هل اتزوجها حتى لو كنت استطيع ذلك ؟ كلا ، لا أريد أن أتزوج أية فتاة

ولا بد اننى وانا اسير معها فى الطريق الى المنزل فى تلك الليلة الباردة الصافية ، كنت اتكلم بطريقة موضوعية تبعث على الاسى حينما حدثتها عن احتمالات تمتعها بحياة سعيدة رائعة . فلقد قالت لى :
ـ انك تبدو مليئا بالامانى ، اننى أكاد أبكى
وفى تلك الليلة عدت الى منزلى وأنا أشعر بالانتصار ،

ذلك اننى أستطعت أن أحركها بحزنى وان أجعلها تشعر بشخصيتى

***

أعادنى كارنو الى التمثيل الصامت « تحنيط الطيور » والعجيب اننى لم استغرق أكثر من شهر واحد كي استعيد صوتى تماما وبرغم أن خيبة أملى بسبب « مباراة الكرة » كانت بالغة ، فاننى لم ألق بالا الى المسألة . وان كنت قد وقعت تحت تأثير فكرة مسيطرة باننى قد لا اكون كفؤا لاحتلال مكان « ويلدون » ووراء هذه الفكرة كان هنـاك أيضا شبح فشلى فى مسرح فورستر . ولما كنت لم أسترد تماما ثقتى بنفسى منذ ذلك الوقت ، فقد كان كل اسكتش جديد العب فيه دور البطولة امتحانا مخيفا . ثم ان مدة عقدى مع كارنو كانت قد انتهت ، وجاءت اللحظـــــة المزعجة التى لابد أن أخطر فيها كارنو بذلك ، واطلب منه علاوة

وهكذا .. وقفت أمامه نتفاوض حول العقد الجديد فقال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ــ حســـــنا أنت تطلب علاوة ودوائر المسرح تطلب تخفيضا !

ثم هز كتفيه وقال :

ــ منذ فضيحة « موزيكهولى أوكســـــفورد » ونحن لا نتلقى منهم غير الشــــكاوى ، فهم يقولون ان الفرقة ليست فى المستوى اللائق .. مجرد « زحمة من الناس »

قلت :

ــ ليكن ، ولكنهم لا يستطيعون آن يلوموني على ذلك

فأجاب وهو يحدجنى بنظرة ثبتتنى فى مكانى :

ــ ولكنهم يفعلون !

فسألته : « ما الذى يشكون منه ؟ »
فتنحنح ونظر الى الارض قائلا :
ـ يقولون انك غير كفء
ومع أن هذه الملاحظة أصابتنى كلكمة فى المعدة ، الا انها فى نفس الوقت أثارت كبريائى . ولكننى أجبت فى هدوء :
ـ حسنا . آخرون لا يرون ذلك وهم على استعداد لاعطائى أكثر مما آخذ هنا ..
ولم يكن هذا صحيحا . فالواقع انه لم يكن هنـاك اى عرض اخر
ورفع كارنو سماعة التليفون وهو يقول :
ـ انهم يقولون ان العرض فظيع ، والممثل لا جـدوى منه وسأطلب الان مكتب « ستار » برموندس ، لتسمع بنفسك
وبدأ يتكلم فى التليفون :
ـ سمعت أن الحالة لم تكن طيبة لديكم فى الاسـبوع الماضى ..
فاذا بصوت يجيب : « كانت نيلة ! »
وابتسم كارنو : « بأى شىء تفسر ذلك ؟ »
ـ العرض ميت ..
ـ وماذا عن شابلن .. الممثل الرئيسى . ألم يفـد بشىء ؟
قال الصوت : « انه يثير الاشمئزاز »
وقدم لى كارنو سماعة التليفون وهو يبتسم . فقلت ارد على المتكلم :
ـ ربما كان يثير الاشمئزاز . ولكن ليس بنصف القدر الذى يثيره مسرحك الحقير

ولم ينجح كارنو في محاولة تخفيض مرتبي . فقد قلت له انه اذا كان هذا رايه هو الاخر ، فلا حاجة به الى تجديد عقدي . وكان كارنو رجلا خبيثا في كثير من تصرفاته ، ولكنه لم يكن خبيرا بالنفوس . فما كان من حسن الادارة ــ حتى لو كنت حقا اثير الاشمئزاز ان يجعل رجلا على الطرف الآخر من الخط يقول لي ذلك . وكان مرتبي في ذلك الوقت خمسة جنيهات ، وانا اطالب بستة . فاذا بكارنو ــ لدهشتي الشديدة ــ يعطيني ما طلبت ، وعدت مرة اخرى الى رعايته الطيبة

عاد « آلف ريفز » مدير فرقة كارنو الامريكية الى انجلترا . وتناثرت الشائعات عن انه جاء يبحث عن ممثل رئيسي يعود به الى الولايات المتحدة . .

وكنت منذ فشلي الاعظم في موزيكهولي أوكسفورد أحلم بفكرة الذهاب الى أمريكا .. لا لما فيها من اثارة ومغامرات فقط ، ولكن لان ذلك كان يعني املا جديدا، وبداية جديدة في عالم جديد

ومن حسن الحظ ان اسكتش «الانزلاق على الجليد» وهو اسكتش جديد كنت ألعب بطولته ، كان يجري عرضه في ذلك الوقت بنجاح كبير في برمنجهام . فلما لحق مستر ريفز بالفرقة هناك اديت الدور كأجمل ما استطيع .. فكانت النتيجة ان ارسل الى كارنو برقية يقول فيها انه قد وجد الممثل الذي يريده للولايات المتحدة

ولكن كارنو كانت لديه خطط أخرى لي . فترتب على ذلك انني قضيت عدة أسابيع نهبا للقلق والشك .. الى ان اعجب كارنو باسكتش عنوانه « الوو ــ دو » وكان من طراز البرسك ، يدور حول أدخال عضو جديد في جمعية سرية . وكان رايي انا وريفز ان هذا الاسكتش سخيف،

وغير مضمون ، ولا خير فيه . ولكن كارنو كان واقعا تماما تحت تأثير فكرته واصر على انه ــ مادامت امريكا تزخر بالجمعيات السرية ــ فان أى اسكتش يتناولها سيحقق نجاحا كبيرا هناك

وهكذا ــ لفرط سروري وانفعالى اختارني كارنو لالعب الدور الرئيسي فى « الوو ــ دو » .. فى امريكا

وكانت هذه الفرصة للسفر الى امريكا هى كل ما احتاج اليه ففى انجلترا كنت اشعر انني بلغت ما يمكنني الوصول اليه . بالاضافة الى ان فرصى فيها كانت محدودة : اذ لو فشلت كممثل فى الموزيكهول ، لما عاد لى ــ بثقافتي الضئيلة ــ امل الا فى الاعمال اليدوية . اما فى الولايات الامريكية ، فقد كان يبدو لى أن الافاق أكثر اشراقا ..

وفى الليلة التى تسبق موعد رحلتي مضيت اتجول فى حى « الرسنت اند » بلندن . وأتوقف عند ميدان لانكستر ، وشارع كوفنتري ، ومالى ، وبيكاديلى .. وفى داخلى احساس حزين بأنها ستكون اخر مرة ارى فيها لندن . اذ كنت قد عزمت على الاقامة الدائمة فى الولايات المتحدة . وظللت امشى حتى الثانية صباحا، هائما فى الجو الشاعرى للطرقات الخالية ، والاحساس بالاشفاق على نفسى

وكان أكثر ما أخشاه هو مظاهر التوديع . فكيفما كان احساس الانسان نحو فراق اقاربه واصدقائه فان مظاهر التوديع لا تؤدى الا الى تعميق هذا الاحساس . ولهذا فانني حين استيقظت فى السادسة صباحا لم اقدم على ايقاظ سيدنى، وانما تركت له ورقة على المائدة اقول فيها:

« سافرت الى أمريكا ، سأراسلك بالبريد مع حبى »

الفصل الثامن

# إلى أمريكا..

* خيبة أمل فى نيويورك
* ناطحات السحاب تدفعنى الى المغامرة
* عندما يضحك الفقر ويبكى فى الشوارع

أخيرا وصلنا .. فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاحد الى نيويورك !

وعندما هبطنا من عربة الاجرة فى ميدان « التايمز »، أحسسنا — الى حد ما — بخيبة امل .. فالصحف تغطى الشوارع والارصفة ، وبرودواى تبدو مريضة كأنها امرأة منكوشة الشعر والثياب خارجة لتوها من الفراش

وكان كثير من الناس يبدون كالغرباء ، واقفين بغير هدف على الارصفة كانما هبطوا لتوهم من قطار ووقفوا يقتلون الوقت فى انتظار قطار آخر

ولكنها كانت نيويورك على أى حال ! نيويورك المحيرة ، والمخيفة ايضا الى حد ما . لقد كانت باريس — على العكس من ذلك — اكثر ودا ، وبرغم جهلى بلغتها كانت ترحب بى فى كل شارع بمحلاتها ومقاهيها المنبسطة على الارصفة ، أما نيويورك فهى فى جوهرها مدينة أعمال تجارية .. حيث تبدو ناطحات السحاب المغرورة غير مكترثة بحال الناس العاديين ، وحيث لا تجد حتى فى البارات مكانا لجلوس الزبائن ، بل مجرد قضيب نحاس يسند عليه الزبون قدمه ، وحيث تبدو المطاعم — برغم نظافتها وكسوتها بالرخام — باردة يسودها جو المستشفيات

واستأجرت غرفة خلفية فى أحد المنازل المبنية بالطوب الاحمر قرب الشارع الثالث والاربعين .. حيث يوجد

الآن مبنى جريدة التايمز . وكانت غرفة كالحة قذرة ، تجعلنى أحن الى لنـــدن والى شـــقتنا الصـــغيرة فيها . وفى البدروم كان يوجد محل للتنظيف والـــكى ، فكانت الرائحة الخبيثة للثيـــاب حين تكوى أو تبخر تتصاعد طول الاسبوع وتزيد من عدم ارتياحى

ولكم احسست فى هذا اليوم الاول باننى خائب ! فقد كان مجرد ذهابى الى المطعم وطلب شيء أكله امتحـــانا عسيرا بسبب لهجتى الانجليزية .. وسرعتى البطيئة فى الكلام .. اذ ما كان أكثر الذين يتكلمون خطفـــا ، وباصطلاحات موجزة ، الى الحد الذى اشعرنى بالخوف من أن أتهته واضيع وقتهم ..

كنت غريبا تمام الغربة عن هذا الايقاع السريع .. أفقر دكان فى نيويورك يتصرف بعجلة . وماسح الاحذية يدعك القماشة التى يصقل بها الحذاء بعجلة ، والساقى فى البار يقدم كوب البيرة بعجلة ، والواقف أمام الخلاط يبدو — حين يجهز كـــوبا من اللبن بالبيض المضروب — كالحاوى الحاذق : اذ يندفع بسرعة خاطفة يلتقط الكوب، ويختطف بيده كل ما يريد أن يضعه فيه .. الفانيليا ، وكرة الايس كريم ، وملعقتى المولت ، والبيضة النيئـــة التى يكسرها بضربة واحدة ، ثم اللبن الذى يضعه مـــع كل هذا فى اناء واحد ، ويرجه ، ويقدمه فى اقل من دقيقة ...

وفى ذلك اليوم الاول كان يبدو على كثير من الناس ما اشعر انا به : الوحدة ، والعزلة . بينما كان يمشى آخرون فى خيلاء كأنهم يملكون المكان كله . وكان سلوك الكثيرين يتصف بالتعالى والجفاء ، كما لو كانت الدماثة والادب علامة على الضعف

على اننى فى المساء ، وانا امشى على طول شارع برودواى بين زحام الناس فى ملابسهم الصيفية ، بدأت أشــــعر باطمئنان • كنا قد غادرنا انجلترا فى صقيع سبتمبر القارس ، ووصلنا الى نيويورك فى جو صيف هندى تبلغ حرارته ثمانين درجة فهرنهيت « ٣٢ درجة مئوية » • وما كدت ابدأ جولتى فى برودواى حتى بدأ يغرقه طوفان من الاضواء الملونة التى تخطف البصر كالجواهر اللامعة• وفى دفء هذا الليل بدأ شعورى يتغير ويتضح فى ذهنى معنى امريكا •، وحركت فى نفسى ناطحات الســـحاب ، والاضواء الخاطفة المرحة والاعلانات المثيرة احساسا بالمغامرة والجرأة • وقلت لنفسى :

ـ هذا بالضبط ما اريد ! هذا هو المكان الذى انتمى اليه !

كان كارنو يتمتع بشهرة عريضة فى أمريكا • فكنا لهذا أبطال البرنامج الذى يضم عددا من ألمع الفنانين .



ومع اننى لم أكن أحب الاسكتش الذى نقدمه ، فاننى بالطبع حاولت أن أستغل أفضل ما فيـــه • وكنت آمل ان يكون كما وصفه كارنو « الشىء الملائم تماما لامريكا »

وكانت أول نكتة لى تعتبر فى انجلترا مضحكة جدا ، وتتخذ مقياسا لما ستكون عليه باقى المسرحية ، وكان المنظر منظر معسكر ، ادخله من باب احدى الخيم وفى يدى فنجان من الشاى :

ـ آركى « أنا » : صباح الخير يا هدسون • أتســـمح باعطائى قليلا من الماء ؟

هدسون : بكل تأكيد • ماذا ستفعل به ؟

آركى : اريد أن آخذ حماما

« ضحكة خافتة ، ثم صمت قاتل من جانب الجمهور »

هدسون : كيف نمت ليلة أمس يا اركى ؟

آركى : نوما فظيعاً ! فقـــــد كنت أحلم بأن دودة تطاردنى !

صمت قاتل أيضا

كان الاسكتش سخيفا ، سمجا ، وقد نصحت كارنو بألا يقدمه فى الافتتاح • وكانت لدينا اسكتشات اخرى أكثر طرافة الى حد كبير ، مثل اسكتش « الانزلاق على الجليد » و « اللصوص المغروورون » و « مكتب البريد » و « مستر بركنز عضو البرلمان » •• وكلها جـديرة بأن تعجب الجمهور • ولكن كارنو كان عنيدا

***

وأخف ما يمكن أن يوصف به الفشل فى بلد أجنبى هو انه مؤلم ! وفى اليوم التالى تجولت طول النهار على غير هدى فى الشوارع التى بدت لى بلا نهاية ، وزرت حدائق الحيوان ، والاسماك ، والمتنزهات ، والمتاحف ••

وأحسست الآن ـ بعـد فشلنا ـ بأن نيويورك مدينة مخيفة •• وبأن مبانيها الشاهقة ومتاجرها الفاخرة انما هى « كابوس » مستمر ، قاس ، يذكرنى بخيبتى ••

وقطعت مسافات طويلة عبر المدينة حتى بلغت أفقر احيائها •• مارا بالحديقة العامة فى ميدان ماديسون ، حيث يجلس المشردون بلا حراك على مقاعد الحـــديقة ، يتأملون اقدامهم فى ذهول يائس • ثم واصلت طريقى الى شـــارعى ٢ و ٣ •• حيث الفقر لا قلب له : مرير ، ساخر ، يستغيث ويصرخ ، ويضحك ويبكى ، ويتكدس أمام الابواب وعلى سلالم الحريق ، ويتقيأ فى الطرقات •

شيء خـــانق ! شيء دفعني الى أن أهـــرول عائدا الى برودواي ..



ان الامريكي رجل متفائل ، مشغول الخاطر باحـلام صارخة متدافعة . رجل لا يمل المحاولة . كن ساحقا ! اضرب والحديد ساخن ! ارتفع من الحضيض ! حاول لعبة اخرى ! وقد جعلتني هذه النظرة المتطرفة الى الحياة اشعر بالانتعاش . والعجيب انني – نتيجة للفشل الذي منينا به – احسست بنفسي طليقا غير مقيد . ان امريكا تزخر بالفرص ، فلماذا اقيد نفسي بمهنة المسرح ؟ انني لم أخلق للفن . فلأحاول اذن لعبة أخرى

وبدأت استرد الثقة والاطمئنان . وعزمت – مهمـا حدث – على البقاء في أمريكا ..

في الاسبوع الثالث لعبنا في مسرح « الشـــارع الخامس » أمام جمهور يتألف معظمه من الوضعاء ورؤساء الخدم الانجليز ، ولدهشتي الشديدة حققنا نجاحا هائلا في حفلة الافتتاح يوم الاثنين . اذ ضحك الجمهور لكل نكتة ، واثار ذلك دهشة كل عضو في الفرقة ، بما في ذلك أنا ..



وخلال هذا الاسبوع شاهدنا احد المتعهدين ، وتعاقد معنا على جولة في الغرب تستغرق ٢٤ اسبوعـا ، نمثـل اثناءها على مجموعة مسارح « سوليفان وكونسيدين » . وكان البرنامج من طراز الفودفيل الرخيص ، وعلينا أن نمثل ثلاث حفلات في اليوم . وعندما فرغنا من جـولة « سوليفان وكونسيدين » عدنا الى نيويورك ، حيث منحنا المستر وليام موريس ستة اسابيع نقدم فيها برنامجنا



فى الطريق الى أمريكا ، مع فرقة كارنو

كله على مسرحه القائم فى الشارع الثانى والاربعين بمدينة نيويورك . فتقدمنا فى الافتتاح « ليلـــة فى الموزيكهول الانجليزى » .. التى حققت نجاحا ساحقا

وحدث أثناء هذا الاسبوع أن كان رجل وصديقه على موعد مع فتاتين فى ساعة متأخرة من الليل ، فقادتهمـــا أقدامهما ـ لمجرد قتــل الوقت ـ الى موزيكهول وليـم موريس ، حيث تصادف ان شـــاهدا عرضنا . وعلق احدهما قائلا :

ـ لو صرت ذات يوم من كبار رجال الاعمال ، لكان هذا الفتى ممن أحب أن أتعاقد معهم

وكان يشير بذلك الى ادائى لدور المخمور فى « ليلة فى الموزيكهول الانجليزى » . وكان هو فى ذلك الوقت يعمل كومبارس عند د . و . جريفيث « المخرج الكبير » فى

شركة بيوجراف ، ويتقاضى خمسة دولارات فى اليوم
كان هذا الرجل هو « ماك سينيت » •• الذى انشأ فيما بعد شركة أفلام « كيستون »

## الفصل التاسع

# من المسرح إلى السينما

* أول عقد مع السينما ..
* شعرت بالملل من الفن ..
* مطلوب منى الظهور فى ثلاثة أفلام أسبوعيا

غادرت الولايات المتحدة دون أن أحمل هما ، فقد كنت عازما على ان اعود ، وان كنت لا اعرف متى ولا كيف

على انني كنت مشوقا الى العـــودة الى لندن ، والى شقتنا الصغيرة المريحة . فمنذ جولتي في الولايات المتحدة وهذه الشقة تبدو لي كأنها معبد مقدس

ولم يكن قد بلغني نبـــأ من سيدني منذ وقت طويل وكان اخر خطاب منه يقول ان جدي يقيم في الشقة . ولكنه عند وصولي الى لندن قابلني في المحطة ليقــول لي أنه أخلاها ، وانه قد تزوج واقام في شقة مفروشة في شارع بركستون . فكانت هذه صدمة شديدة لي ـ صدمة الاحساس بأن ذلك العش المشرق ، الذي كان يجسد لي الحياة في صورة مادية يمكن أن أتذوقها وأعتز بها ، لم يعد له وجود . لقد أصبحت بلا مأوى ! واضطررت ان أستأجر غرفة خلفية في شـــارع بركستون وبلغ . مـــن احساسي بالاسى انني قررت العودة الى الولايات المتحدة في أسرع وقت ممكن . وبدت لي لندن في تلك الليلة الاولى غير مكترثة بوجودي ، كحصالة الحظ . الخاوية (١) حين يضع فيها الانسان قطعة من النقود

ولما كان سيدني متزوجا ، ويعمل في المساء ، فانني قليلا

---

(١) آلة منتشرة في الولايات المتحدة، يضع فيها اللاعب قطعة نقود ثم يدير ذراعها .. فاما أن تضيع عليه.. واما ان تكسب له الحصـــالة مئات من القطع المختزنة فيها

ما كنت أراه ، ولكننا ذهبنا معا يوم الاحد لنرى أمى . فكان يوما كئيبا لان حالتها لم تكن طيبة . كانت قد مرت لتوها بمرحلة عصبية عنيفة ، ونقلت الى غرفة مبطنة . ونبهتنا الممرضة الى ذلك مقدما . . فذهب سيدنى ليراها، اما أنا فلم تطاوعني شجاعتى ، وجلست أنتظره . وعندما عاد كان مضطربا ، وقال لى أنهم يعالجونها بالصدمات عن طريق الدش « المثلج » وان وجهها شديد الزرقة . فجعلنا ذلك نقرر نقلها الى مصحة خاصة ، اذ كنا عندئذ قادرين على ذلك . وهكذا نقلناها الى نفس المصحة التى نقل اليها الممثل الانجليزى العظيم دان لينو

كان احساسى يتزايد يوما بعد يوم بأننى شريد ،لاجذور له . وأعتقد ان هذا الاحساس كان يمكن أن يختلف لو اننى عدت فوجدت شقتنا الصغيرة . على أن الكآبة لم تكن بالطبع مسيطرة تماما على نفسى . فاحساسى بالالفة والانتماء الى انجلترا كان يتحرك فى اعماقى شيئا فشيئا منذ عودتى من الولايات المتحدة . والصيف كان صيفا انجليزيا نموذجيا ، لم أر فى أى مكان اخر مايشبه سحره وعذوبته . .

ودعانى كارنو ، الرئيس ، الى جزيرة « تاج » لقضاء عطلة الاسبوع فى بيته العائم . وكان بناء ضخما معقدا من خشب الماهوجنى ، يحتوى على غرف وأسعة للضيوف . فاذا أقبل الليل أضاءت من حوله مصابيح ملونة يسحرنى جمالها واشراقها ، وكانت الامسية دافئة ، وبعد العشاء جلسنا نشرب القهوة وندخن على ظهر اليخت تحت الاضواء الملونة . وأحسست عندئذ بأن انجلترا هذه تستطيع ان تفطمنى عن حب أى بلد اخر

وفجأة . . تصاعد صوت حاد خشن يصرخ بطريقة هستيرية :

ـ انظروا الى زورقى الرائع ! انظروا جميعاً ! ..
انظروا الى زورقى ! والاضواء ايضا ! هاهاها

ومضى الصوت يتفجر فى نوبات هستيرية من الضحك . فنظرنا لنرى من أين يتصاعد . واذا به رجل جالس بثيابه الداخلية فى زورق ذى مجدافين ، ومعه سيدة مسترخية فى المقعد الخلفى .. وقد بدا منظرها كاحدى الصور الهزلية فى مجلة « بانش » . ومال كارنو على سور اليخت ينهر الرجل بصوت عال ، ولكن ضحكاته استمرت لا يوقفها شىء . فقلت لكارنو :

ـ ليس هناك غير شىء واحد نفعله . ان نكون على قدر ما يتصورنا من السوقية

واطلقت على الرجل سيلا عنيفا من الالفاظ الفاضحة التى أحرجت السيدة الى حد جعله يهرب على الفور مبتعدا عنا

كان هذا الانفجار العاصف من جانب ذلك الرجل الاحمق ، لا مجرد انتقاد لذوق البيت العائم وطرازه ، وانما سخرية متعصبة موجهة الى مايعتبره محاولة من الطبقات الدنيا للارتفاع الى مستوى لا تقدر عليه . فهو ما كان يفكر أبدا فى أن يهزأ بقصرباكنجهام ويهتف: انظروا الى البيت الكبير الذى أقيم فيه ! او أن يسخر من عربة الفتيونج . وقد كانت هذه المراتب الطبقية الماثلة دائما فى الاذهان شيئا أحسسته بعمق اثناء وجودى فى انجلترا . وكان يبدو لى ان هذا الطراز من الانجليز لا يسارع الى شىء قدر مايسارع الى ملاحظة مستوى انخفاض الاخرين على السلم الاجتماعى !

بدأت فرقتنا الامريكية نشاطها ، وظللنا نقدم عروضنا أربعة عشر اسبوعا فى مسارح لندن . واستقبلت هذه

العروض استقبالا طيبا ، وكان الجمهور رائعـا ، ولكننى كنت طول الوقت أتساءل عما اذا كنا سنعود يوما الى الولايات المتحدة . كنت أحب انجلترا . ولكن الحيـاة فيها كانت مستحيلة بالنسبة لى . فبسبب تاريخى الماضى فيها ، كان يستبد بى شعور مزعج بأننى سـأنحدر مرة اخرى الى حياة سوقية يائسة . فلما جاءت الانباء بأنه قد تم التعاقد على جولة أخرى فى الولايات المتحدة ، احسست بالانتعاش

وذهبت مع سيدنى يوم الاحد لنرى أمى . فبدت لنا أحسن حالا . وفى المساء تناولت عشائى معه قبل رحيله الى الاقاليم . وعندما حانت ليلتى الاخيرة فى لنـدن ، تجولت فى حى « الوست اند » وقد اضطربت مشاعرى، وسيطر على الحزن والمرارة وانا أقول لنفسى : أنها آخر مرة أرى فيها هذه الشوارع ..

***

سافرنا هذه المرة فى الدرجة الثانية على ظهر الباخرة « أوليمبك » .. ووصلنا عن طريق نيويورك . وعندما تباطأ صوت الالات معلنا اننا اقتربنا من هدفنا لم يراودنى هذه المرة الاحساس بالغربة ـ فقد كنت غريبا بين غـرباء ، وواحدا من الاخرين

وبقدر ما أحببت نيويورك فاننى كنت مشـوقا الى الغرب الى أن أصافح من جديد معارفى الذين أتطلع الان اليهم كأصدقاء : خادم البار فى « بوت » بمونتانا ، والمليونير السخى ذى القلب الكبير فى مينيا بوليس ، والفتاة الجميلة التى قضيت معها أسبوعا من الحب فى سـانت بول ، و « ماك بى » .. صاحب المنجم الاسكتلندى فى مدينة سولت ليك ، وطبيب الاسنان الصديق فى تاكوما ، وعائلة جرومان فى سان فرانسسكو

ولكننا قبل أن نصل الى شاطىء المحيط الهادى ، قدمنا عددا من العروض فى مختلف المسارح الصغيرة حول ضواحى شيكاغو وفيلادلفيا والمدن الصناعية الاخرى مثل فول ريفر ودولوث .. الخ

كنت ـ كالعادة ـ اقيم وحدى . ولكن هذه الوحدة كانت لها مزاياها ، اذ كانت تتيح لى الفرصة كى أثقف عقلى .. وهو قرار تمسكت به شهورا كثيرة ، ولكننى لم أنجزه أبدا ..

ان فى العالم رابطة من عشاق المعرفة . وقد كنت انا واحدا من اعضائها . ولكن دوافعى لم تكن نقية تماما : فأنا أريد ان اعرف ، لا حبا فى المعرفة ، ولكن دفاعا عن نفسى ضد احتقار العالم للجاهلين . وهكذا اعتدت كلما وجدت وقتا أن أتسكع ما بين متاجر الكتب القديمة .. وعثرت بالصدفة ـ فى فيلادلفيا ـ على نسخة من كتاب روبرت انجرسول « مقالات ومحاضرات » . فكان ذلك اكتشافا مثيرا . اذ كان الحاده يؤكد عقيدتى بأن ما فى « العهد القديم » من قسوة مفزعة انما يذل روح الانسان ويهبط بها . ثم اكتشفت امرسون . وشعرت بعد قراءة بحثه عن « الاعتماد على النفس » بأننى منحت حقا ذهبيا من حقوق الميلاد . ثم جاء بعد ذلك شوبنهاور ، الذى اشتريت له ثلاثة اجزاء من « العالم ارادة وفكر » ، وظللت أقرأ فيها من حين الى آخر ـ دون أن أقرأها أبدا قراءة شاملة ـ طوال أربعين عاما . أما « أوراق العشب » لوالت ويتمان ، فاننى ضقت بها ، وما ازال حتى يومنا هذا . فهو قلب عاشق متفجر اكثر مما يجب ، ومتصوف وطنى اكثر مما ينبغى . كذلك تمتعت ـ فى فترات الراحة فى غرفة الملابس ـ بمعرفة مارك توين ، وبو ، وهاوثورن ، وايرفنج ، وهازليت

ولعلنى – طوال تلك الجولة الثانية – لم أتشرب القدر الذى كنت اريد من الثقافة الكلاسيكية ، ولكننى تشربت بالفعل اكبر قـــــدر من الملل والضيق بمهنة الفن فى مستوياتها الدنيا .. فمسارح الفودفيل الرخيص تلك كانت كئيبة ثقيلة انظل ، واحلام مســــتقبلى فى امريكا كانت تتبدد فى طاحونة العمل سبعة ايام فى الاسبوع . وثلاث حفلات فى اليوم . لقد كان الفودفيل فى انجلترا جنة اذا ما قورن حالله بهذه الحال.. على الاقل لاننا هناك نعمل ستة ايام فى الاسبوع ، ونقدم كل يوم عرضين فقط . ولكن عزاءنا كان اننا فى أمريكا سنتمكن من ادخار مبلغ أكبر قليلا من النقود

كنا قد قدمنا « العصى » بصفة مستمرة لمدة خمســـة أشهر ، وأصابنى الملل منها بانهيار معنوى . فلما منحنا اجازة اسبوع فى فيلادلفيا ، رحبت بذلك ، كنت فى حاجة الى تغيير ، الى جو مختلف ، الى التجرد من شـــخصيتى والتحول الى انسان اخر . فقـــد ضقت ذرعا بالروتين المذرى لحياة فنانى الدرجة العاشرة . واستقر عزمى على أن أنخرط لمدة أسبوع فى سحر الحياة الراقية . وكنت قد ادخرت مبلغا ضخما من المال ، فقررت بدافع اليـأس المجرد أن استسلم لنوبة من التبذير . ولم لا ؟ لقد قترت على نفسى لكى أدخر هذا المبـــلغ ، وسأقتر على نفسى اذا تعطلت عن العمل لكى اعيش به ، فلماذا لا انفق الان قليلا منه ؟ ..

وهكذا انفقت خمسة وسبعين دولارا على شراء حلـــة فاخرة وحقيبة ثياب انيقة . وكان صاحب المتجر فى غاية الادب وهو يسألنى :

– هل تسمح لنا بارسالها الى عنوانك يا سيدى ؟

كلمات قليلة رفعت من قدرى ، وميزتنى على غيرى .

وما بقى الان الا ان اذهب الى نيويورك ، واغير جلدى ، طارحا عن نفسى فن الدرجة العاشرة وحياته الكئيبة

وقررت أن آخذ غرفة فى فندق استور ، الذى كان فندقا فخما فى ذلك الوقت . وكنت ارتدى حلتى الانيقة، وقبعة من طراز الدربى ، وفى يدى العصا ، ومعى بالطبع حقيبة الملابس . وجعلتنى فخامة ردهة الفندق وكبرياء الناس المتناثرين فى انحائها ارتجف قليلا وانا اسجل اسمى فى مكتب الاستقبال

وكان ايجار الغرفة اربعة دولارات ونصف دولار . وسألت بارتباك اذا كان يجب أن أدفع مقدما . ولكن الموظف كان مهذبا ومجاملا الى اقصى حد :

ــ لا لا يا سيدى .. لا ضرورة لذلك

وكان لمرورى بالدهليز ، بكل ما يزينه من القطيفة والاشياء المذهبة ، أثر بالغ على مشاعرى .. الى حد اننى عندما بلغت غرفتى احسست بالرغبة فى البكاء !

ولبثت فى الغرفة اكثر من ساعة افحص الحمام بمنافعه المعقدة ، واختبر ثروته السخية من الماء الساخن والبارد . ما أكثر ما تشعر الفخامة الانسان بالحيوية والكرامة ! لقد اخذت حماما ، وسرحت شعرى ، ولبست برنسى الجديد عازما على ان انتزع بدولاراتى الاربعة والنصف كل ذرة ممكنة من الفخفخة .. ولكن ، لو كان عندى فقط شىء اقرؤه ! صحيفة مثلا . على اننى لم اجد فى نفسى الجرأة على طلبها بالتليفون . فسحبت مقعدا وجلست فى وسط الحجرة افحص كل ما حولى تائها فى الفخامة ..

وبعد قليل لبست ثيابى وهبطت الى الدور الاسفل وسألت عن قاعة الطعام الرئيسية . كان الوقت مبكرا الى

حـ ما ، والقاعة شبه خالية الا من واحد او اثنين يتناولان الطعام. قادنى المتردوتيل الى مائدة بجوار النافذة سائلا:
ــ أتحب ان اجلس هنا ياسيدى ؟
فقلت بأرقى لهجة انجليزية اعرفها :
ــ لا بأس بأى مكان ..

واذا بفرقة كاملة من الخدم يداهموننى فجأة ويدورون حولى ، يقدمون الماء المثلج ، وقائمة الطعام ، والزبـــد والخبز فبلغ انفعالى حدا لا يسمح لى بأن أشعر بالجوع . غير اننى على أية حال خلصت من هذه المجاملات الى طلب الطعام : حساء ، وفرخة محمرة ، وايس كريم بالفانيليا. وقدم لى الجرسون قائمة خمور ، فاخترت ــ بعد عناية وتدقيق ــ نصف زجاجة من الشمبانيا ..

ولكن انفعالى بأن أعيش دورى حرمنى من الاستمتاع بالشراب أو الطعام . وبعد انتهاء الوجبة نفحت الجرسون دولارا كاملا ، وهو مبلغ كان فى تلك الايام سخيا الى درجة شاذة . ولكنه لم يكن كثـــيرا على ما تلقيت من احترامات وانحناءات أثناء خروجى

ولسبب غير واضح عدت الى غرفتى ، وبقيت فيها عشر دقائق . ثم غسلت يدى وغادرت الفندق ..

كانت أمسية صيف دافئة ، تلائم حالتى النفسية وانا أمشى متراخيا فى اتجاه دار اوبرا متروبوليتـــــان .. حيث كانت تعرض اوبرا « تانهاوزر » ولم أكن فى حياتى قد شاهدت الاوبرات الكبرى . اما الان فقد كنت مهيأ لها . وكانت باللغة الالمانية فلم أفهم منها حرفا . ولكنهم عندما حملوا الملكة الميتة على ايقاع نشيد الحجاج بكيت بمرارة . وعندما غادرت المسرح كنت ممزق القـــلب ، وأعصابى محطمة ..

وفى الصباح التالى قررت ان اعود الى فيلادلفيا .

صحيح ان هذا اليوم الواحد كان « التغيير » الذى أصبو اليه ، ولكنه كان تغييرا يشد الاعصاب ويشعر بالغربة. والان صار مطلبى ان اجد الصحبة . ووجـــدت نفسى اتطلع بشغف الى يوم الاثنين حيث نبدأ عرضنا ، والتقى بأعضـــاء الفرقة . فقد أحسست انه يكفينى تماما ذلك اليوم الواحد من حياة الترف !

وما كدت أدخل الفندق حتى وجدت نفسى وجها لوجه أمام آرثر كيلى ، شقيق هيتى ، ومدير الفرقة التى تعمل بها . وكنت أتخذ منه صديقا لانه شقيقها ، ولكنى لم أكن قد رأيته منذ سنوات

وصاح آرثر : « شارلى ! الى أين أنت ذاهب ؟ »

فأومأت برأسى فى اتجاه الداخل وقلت فى غير حماس :

ـــ كنت على وشك أن أنام

فلم يغب عن آرثر ما أنا فيه . وكان معه صـــديقان ، فاقترح بعد أن قدم كلا منا الى الاخر ان نذهب الى مسكنه فى شارع ماريسون ، لنشرب القهوة ونثرثر قليلا

وكانت شقة مريحة ، جلسنا فيها نتناول الحـــديث بخفة . دون أن يشير آرثر اية اشارة الى ماضينا .ولكنه كان مشوقا الى استطلاع معـــلومات تفسر له اقامتى فى فندق استور . فلم اذكر له اكثر من اننى جئت الى نيويورك فى اجازة لمدة يومين او ثلاثة

وكانت أحوال آرثر قد تغيرت كثيرا منذ أيام كالبرويل . وأصبح الان رجل أعمال يعمل فى خدمة زوج اخته « فرانك ج. جولد » . واحسست وانا انصت الى حديثـــه انه يضاعف شجونى . وكان مما قاله لى عن أحد صديقيه :

ـــ انه شاب لطيف . منحدر من أسرة طيبة فيما أعلم

فابتسمت بينى وبين نفسى لهذا الاهتمام بالانساب . وأدركت انه لم يعد يجمع بيننا الا القليل

لم ابق فى نيويورك الا يوما واحدا . ففى الصباح التالى قررت أن أعود الى فيلادلفيا . ومع ان هذا اليوم الواحد كان فيه كل ما احتاج اليه من تغيير ، الا انه كان يوما موحشا .. أحسست بعده بالحاجة الى الصحبة . وبدأت أتطلع بشغف الى صباح الاثنين : الى البروفة ، واللقاء بأعضاء الفرقة .. فمهما كان عبء العودة الى الطاحونة المعتادة ، فان ذلك اليوم الواحد من الحياةاللينة كان يكفينى

مررت بالمسرح عندما عدت الى فيلادلفيا ، فوجدت برقية موجهة الى مستر ريفز . وتصادف وجودى عندما قرأها فقال لى : « اتراهم يقصدونك أنت ؟ »

كانت البرقية تقول :

« هل فى فرقتكم رجل يدعى شافن أو شيئا كهذا ؟ اذا كان ذلك فهل يتفضل بالاتصال بـ «كيسيل وباومان» رقم ٢٤ ، مبنى « لونج اكر » ، برودواى ؟ »

كان مبنى لونج اكر فى قلب برودواى ، وكان مليئا بمكاتب المحامين . وتذكرت ان لى عمة ثرية فى مكان ما من الولايات المتحدة ، فبدأ خيالى يحلق فى السماء : الا يجوز انها ماتت وتركت لى ثروتها ؟

على ان املى خاب الى حد ما عندما وصلت الى هناك فان « كيسيل وبارمان » لم يكونا من المحامين ، وانما من منتجى الافلام ..

وقال لى مستر شارلز كيسيل ـ احد مالكى شركة افلام كيستون الكوميدية ـ ان مستر ماك سينيت قد سبق ان رآنى العب دور المخمور فى مسرح الموزيكهول الامريكى . فاذا كنت أنا ذلك الرجل فانه يجب أن يتعاقد معى على الحلول محل « فورد سترلنج »

وكانت فكرة العمل فى السينما كثيرا ما تراودنى ، حتى

لقد عرضت على مديرنا « ريفز » ان نشترك معا فى شراء حقوق اسكتشات كارنو جميعا وتحويلها الى أفلام . ولكن ريفز لم يرحب بالفكرة ، وكان فى ذلك على حق ..

وسألنى مستر كيسيل : هل سبق أن شاهدت احدى كوميديات كيستون ؟ فقلت : طبعا ، شاهدت منها الكثير . ولكننى لم أقل له انها فى رأيى خليط من الحركات التهريجية

ومع اننى لم أكن شديد الحماس لاسلوب كوميديات كيستون .. الا اننى كنت افهم قيمتها الدعائية . فعام واحد مع هذه العصبة كفيل بأن يجعلنى اعـــود الى الفودفيل نجما عالميا

وقال كيسيل ان العقد سيتطلب منى الظهور فى ثلاثة افلام اسبوعيا بمرتب قدره ١٥٠ دولارا . وكان هـذا ضعف ما اتقاضاه من فرقة كارنو . ومـع ذلك فاننى تمتمت وغمغمت وقلت اننى لا استطيع ان أقبل اقل من ٢٠٠ دولار فى الاسبوع . فقال مستر كيسيل ان ذلك أمر يقرره المستر سينيت ، وانه سيبلغه فى كاليفورنيا

وفى انتظار الرد من مستر كيسيل ، عشت لا اكاد أعى بوجودى . لعلنى طلبت اكثر ممـــا يجب ؟ على ان الخطاب وصل اخيرا ، وفيه أنهم على استعداد للتعاقد معى لمدة عام فى مقابل ١٥٠ دولارا فى الاشهر الثـــلاثة الاولى و ١٧٥ فى الاشهر التسعة الباقية .. مبالغ اكبر من كل ما قدم لى فى حياتى

وكان المفروض اننى سأبدأ بمجرد انتهاء جولتنا على مســـارح سوليفان وكونسيدين .. فتعود فرقتنا الى انجلترا ، بينما اتجه أنا الى « لوس انجلس » ، وأقيم فيها

وفى آخر عرض لنا طلبت للجميع شرابا على حسابى وكانت فكرة الفراق تملؤنى باحساس حزين

الفصل العاشر

# ميلاد شخصية الصعلوك

* مشاجرة مع أجمل مخرجة
* علمت السينما كما علمتنى ..!
* أردت أن أضحكهم فأبكيتهم

وصلت الى ارندال — وهى احدى ضـــواحى لوس انجلس — فى الصباح .

وكانت ضاحية غير متناسقة ، كأنما لم تقرر بعد هل تريد ان تكون منطقة سكنية ، أم منطقة شبه صناعية . ففيها « مغلق » خشب ، وأحواش للروبابيكيا ، ومزارع صغيرة شبه مهجورة بنيت فيها — فى مواجهة الطريق — مخازن خشبية آيلة للسقوط .

وبعد عدة استفهامات وجــدت نفسى امام استديو كيستون . وكان مكانا خربا يحيط به سور مربع اخضر ، طول ضلعه خمسون مترا . أما المدخل فيقود اليــه ممر الحديقة من خلال كشك خشبى قديم .

كان الوقت وقت الغذاء ، ورأيت رجالا ونســـــاء يتدفقون بأصباغهم من باب الكشك الخشبى ، ومعهــم حراس الاستديو .. ثم يعبرون الطريق الى محل صغير وينادون على بعضهم البعض بأصوات عالية فظة « هيه .. هانك .. تعال ! » .. قل لسليم ان يتعجل ! » ..

واذا بالخجل يسيطر على فجأة ، فانزوى بسرعة فى أحد اركان مقهى بعيد على مسافة كافيـــة . ومضيت أتطلع علنى أرى مستر سينيت خارجا من الكشـــــك الخشبى . ولكنه لم يظهر . فبقيت نصف ســاعة ، ثم قررت العودة الى الفندق

وظللت يومين أذهب الى الاستديو ثم لا أجد فى نفسى الشجاعة للدخول

***

وفى اليوم الثالث اتصل بى مستر سينيت تليفونيا ، يسألنى لماذا لم احضر . فادعيت له عذرا ما . فقال :

ــ تعال حالا . سنكون فى انتظارك

فذهبت واقتحمت الكشك الخشبى بجرأة طالبامقابلة المستر سينيت

***

ابدى « سينيت » سروره لمقابلتى ، واخذنى معه على الفور الى داخل الاستديو . فذهلت ! كان ثمة ضوء ناعم بلا ظلال يسود المسرح ، متدفقا من خلال خيوط عريضة من القماش الابيض الذى يرشح ضوء الشمس .. فيصبغه طابعا أثيريا حالما على كافة الأشياء . وكان هذا الترشيح الضوئى يستخدم للتصوير أثناء النهار

وبعد ان قدمنى « سينيت » الى بعض الممثلين ، بدأت انتبه الى ما يجرى حولى . كانت هناك ثلاثة مناظرمقامة جنبا الى جنب ، تعمل فيها ثلاث شركات مختلفة . فكانت مشاهدتها اقرب الى مشاهدة معرض دولى . وفى أحد هذه المناظر كانت « سابل نورماند » تقرع بابا وهى تصرخ « دعنى أدخل ! » . ثم توقفت الكاميرا وانتهت المسألة ! وما كانت لدى قبل ذلك أدنى فكرة من أن الافلام تصنع هكذا جزءا فجزءا

وفى منظر آخر كان فورد سترلنج العظيم الذى جئت كى أحل محله ، فقدمنى اليه مستر سينيت . وكان فورد سينفصل عن شركة كيستون لكى يؤسس شركته الخاصة مع يونيفرسال . وكان محبوبا الى حد كبير جدا من جانب الجماهير ، ومن جانب كل من فى

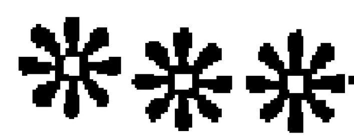
الاستديو . فكانوا يحيطون بالمنظر الذى يمثل فيـــه ، ويضحكون بشغف

وانتحى بى المستر سينيت جانبا ، وراح يشرح لى أسلوبهم فى العمل :

ـ اننا لا نكتب أى سيناريو . وانما نبدأ بفكرة . ثم نتبع التطور الطبيعى للاحداث الى أن تقـودنا الى مطاردة .. وهى جوهر كل كوميدياتنا

كانت هذه الطريقة تنمى الخيال ، ولكننى كنت شخصيا اكره المطاردة ، لان فيها تضيع ملامح الشخصية . وانا ـ على قلة معرفتى عنـــدئذ بالافلام ـ كنت اومن بأنه لاشىء يفوق الشخصية

ومضيت فى ذلك اليوم انتقل من منظر الى آخـــر ، اراقب الفرق اثناء عملها . فبدا لى انهم جميعا يقلدون فورد سترلنج . واقلقنى ذلك لان اســــــلوبه لم يكن يلائمنى ..



ومضت الايام بعد ذلك وانا لا افعل غير التجول فى الاستديو ، وأتساءل فى قلق متى سأبدأ العمـــل . وكان يتصادف احيانا ان التقى بسينيت فى البلاتو ، ولكنـــــه كان يتخطانى بنظراته ، مشغول البال . وبدأ يداخلنى الاحساس بأنه ربما يرى أنه أخطأ بالتعاقد معى .. وهو احساس لم يكن من شأنه ان يخفف من توتر اعصابى

وصارت راحة بالى تتوقف على سينيت : فاذا رآنى بالصدفة وابتسم تصاعدت امالى . اما بقية الفـــرقة فكان موقفها منى « فلننتظر لنرى » . وان كنت قـــد أحسست من البعض انهم يشكون فى قدرتى على الحلول محل فورد سترلنج

واخيرا جاءت اللحظة المرتقبة

كان سينيت غائبا فى تصوير خارجى مع مابل فورماند وكذلك كانت مجموعة فورد سترلنج . فلم يكن فى الاستديو احد تقريبا . وكان هنرى ليرمان ـ المخرج الاول فى شركة كيستون بعد سينيت ـ سيبدأ تصوير فيلم جديد ، ويريدنى ان امثل دور مخبر صحفى . وكان ليرمان رجلا مغرورا ، معتزا بأنه أخرج عدة أفلام ناجحة ذات طبيعة آلية . فكان من عادته ان يقول انه ليس فى حاجة الى « شخصيات » .. وانه ينتزع كل ضحكاته بالمؤثرات الحركية وتقطيع الفيلم

ولم تكن لدينا قصة . فالفيلم كان مفروضا ان يكون فيلما تسجيليا عن مطابع الصحف، محلى ببعض اللمسات الكوميدية . وارتديت بدلة غالية وشاربا رفيعا متدليا . وعندما بدأنا العمل لاحظت ان ليرمان يتلمس الافكار . ولما كنت جديدا فى كيستون ، فقد كنت بالطبع متلهفا الى تقديم الاقتراحات ، ومن هنا نشأ التصادم بينى وبين ليرمان . ففى منظر اقوم فيه باجراء حديث مع محرر احدى الصحف اضفت من عندى كافة «التصرفات» التى خطرت على بالى ، وتماديت الى حد اقتراح تصرفات لباقى المثلين . ومع اننا فرغنا من الفيلم فى ثلاثة ايام ، فاننا ـ فى اعتقادى ـ نجحنا فى تزويده بعدد من التصرفات المضحكة جدا . ولكننى عندما رأيت الفيلم فى صورته النهائية أحسست بقلبى يتمزق .. اذ وجدت ان « المونتير » قد ذبحه وغير معالمه ، منتزعا منه كافة تصرفاتى المضحكة . وتملكتنى الحيرة واننا أتساءل لماذا فعلوا ذلك . وبعد سنوات من هذه الحادثة اعترف ليرمان بأنه فعل ذلك عمدا ، لانه على حد تعبيره ـ رأى اننى اعرف اكثر مما يجب

وعاد سينيت من التصوير الخارجى بعد ان انتهى عملى مع ليرمان بيوم واحد . وكان فورد سترلنج يعمل فى أحد المناظر ، وآربو كل فى منظر آخر ، والمكان مزدحم بثلاث فرق مشغولة : وكنت فى تلك اللحظة بثيابى العادية ، وليس لدى ما افعله ، فوقفت حيث يستطيع سينيت ان يرانى . وكان عندئذ واقفا مع مابل ، يتأمل منظرا يمثل ردهة فندق ، ويعض طرف السيجار الذى فى فمه وهو يقول :

ــ اننا نحتاج الى بعض التصرفات هنا

ثم تحول الى قائلا :

ــ ضع أى ماكياج مضحك .. أى شىء يخطر ببالك ..

ولم تكن لدى عندئذ أدنى فكرة عن صورة الماكياج الذى يحسن ان اضعه . ولم اكن مرتاحا الى الصورة التى ظهرت بها كمخبر صحفى . على اننى فى طريقى الى غرفة الملابس خطر ببالى ان ارتدى بنطلونا منتفخا ، وحذاء ضخما ، وعصا ، وقبعة « دربى » . وفكرت ان يكون كل من هذه الاشياء مناقضا للاخر : فالبنطلون منتفخ والجاكتة ضيقة ، والقبعة صغيرة والحذاء ضخم . وترددت فى البداية هل ابدو صغيرا ام كبيرا فى السن . ولكنى عندما تذكرت ان سينيت كان يتوقع ان أكون أكبر مما أنا ، أضفت الى وجهى شاربا صغيرا راعيت أن يزيد من سنى دون أن يخفى تعبيرات ملامحى

ولم تكن لدى أيضا أدنى فكرة عن الشخصية التى سأظهر بها . ولكننى فى اللحظة التى فرغت فيها من اعداد نفسى ، أوحت الى الثياب والمكياج بطبيعة هذا الشخص الذى سأمثله . وبدأت أعرفه . وما كدت أصل الى البلاتوه حتى كان قد ولد . فلما واجهت سينيت تقمصت

الشخصية ، ومضيت أمشي متخايلا ، وعصاى تتأرجح فى يدى ، عارضا نفسى امامه .. بينما رأسى تتزاحم وتتدفق التصرفات والافكار المضحكة ..

وكان سر نجاح ماك سينيت هو حماسه . فقد كان هو نفسه متفرجا ممتازا ، يضحك من أعماقه لكل ما يراه طريفا . وهكذا وقف ــ وهو يتفرج على ــ حتى اهتز بدنه كله . وشجعنى ذلك فبدأت أشرح له الشخصية :

ــ انه كما تعلم رجل ذو جوانب متعددة . فهو افاق ، ومهذب ، وشاعر ، وحالم ، وهو وحيد فى الحياة ، ولكنه يأمل فى ان يحب ، ويغامر . وهو يستطيع ان يوهمك بأنه عالم ، او موسيقى ، أو دوق ، او لاعب بولو . ومع ذلك فهو لا يتعفف عن التقاط اعقاب السجائر ، او خطف الحلوى من الاطفال . ومن الممكن بالطبع ــ اذا اقتضت الظروف ــ ان يضرب امرأة بالشلوت .. ولكنه لا يفعل ذلك الا فى أقصى حالات غضبه !

***

عشر دقائق وانا مسترسل فى الوصف بهذه الطريقة وسينيت لا يكف عن الضحك . واخيرا قال :

ــ عظيم .. ادخل المنظر ولنر ماذا يمكنك ان تفعل

وكما كان الحال فى فيلم ليرمان ، لم أكن اعرف عن القصة الا انها حول مشكلة تجمع ما بين مابل نورمان ، وزوجها ، وعشيق

وفى كافة الاعمال الكوميدية لا يوجد ما هو أهم من اختيار « السلوك » . ولكن ليس من السهل دائما انتقاد هذا السلوك . على انني وانا اجتاز ردهة الفندق شعرت بأنى رجل مدع يتظاهر بأنه واحد من الضيوف ، ولكنه فى حقيقته أفاق يبحث عن مأوى . فلما دخلت تعثرت

فى ساق احدى السيدات ، وتحولت اليها معتذرا برفع قبعتى • ثم تحولت وتعثرت مرة أخرى فى احدى قطع الاثاث ، فنظرت الى قطعة الاثاث ورفعت لها أيضا قبعتى

وبدأ الواقفون وراء الكاميرا يضحكون

وتجمع زحام كبير هناك ، لا من ممثلى الفرق الاخرى ـ الذين تركوا عملهم للفرجة علينا ـ وحدهم ، وانما ايضا من مساعدى البلاتوه ، والنجارين ، وقسم الملابس فكان هذا اطراء لاشك فيه

وعندما انتهت البروفة كان قد تجمع جمهور كبير يضحك . وسرعان ما لمحت فورد سترلنج يسترق النظر من فوق اكتاف الاخرين •• وعرفت عندئذ أنى أجدت ••

وعندما ذهبت الى غرفة الملابس فى نهاية ذلك اليوم وجدت هناك فورد سترلنج وروسكو ارباكل يزيلون الماكياج . ولم نتبادل الا حديثا عاديا ، ولكن الجو كان مشحونا بتيارات تحتية . ومع ان كلاهما ابدى الاعجاب بى ، الا اننى أحسست بوضوح انهما يعانيان صراعا داخليا ••

كان المنظر الذى صورناه طويلا ، يبلغ خمسا وسبعين قدما •• فنشب الجدل فيما بعد بين سينيت وليرمان حول امكان عرضه كاملا ، اذ كان المعتاد ألا يزيد طول المشهد الكوميدى فى المتوسط على عشر أقدام

وقلت لهما :

ـ اذا كان طريفا ومضحكا •• فما اهمية الطول ؟

فقررا عرضه كاملا

ولما كانت ثيابى قد شحنتنى تماما بروح الشخصية التى مثلتها ، فقد قررت عندئذ ، وفى نفس اللحظة والمكان ، أن ألتزمها من الآن فصاعدا •• ومهما حدث



شخصية الصعلوك .. ولدت فى لحظة

وفى ذلك المساء عدت الى البيت فى عربة الترام بصحبة أحد ممثلى الادوار الصغيرة •• فقال لى :

ـ اسمع •• لقد بدأت شيئا جديدا ! فما من احد قبل ذلك انتزع مثل هذه الضحكات أثناء التصوير . ولا حتى فورد سترلنج • وآه لو رأيت وجهه وهو يتفرج عليك . كان شيئا يستحق التأمل !

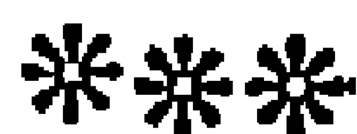
فقلت محاولا ان اكبت غبطتى الشديدة :

ـ فلنأمل ان يضحك الجمهور بنفس الطريقة فى السينما ••



كانت الشخصية التى ابتدعتها مختلفة تماما ، وغير مألوفة ، عند المتفرج الامريكى ـ بل وعندى انا شخصيا . ولكننى فى ملابس التمثيل كنت أشعر انها حقيقة ، وانها شخص حى موجود . والواقع ان هذا الشخص كان يستثير عندى كافة الوان الافكار الخرقاء التى ما كانت تخطر على بالى الا بعد ان ارتدى ملابس وماكياج « الافاق » ••

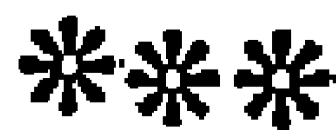
وانعقدت صداقة قوية بينى وبين احد ممثلى الادوار الصغيرة . فكان يزورنى كل ليلة ـ ونحن عائدان فى عربة الركاب ـ بنشرة اخبارية عن رد فعل الاستديو أثناء النهار ، وما دار من احاديث حول افكارى الكوميدية : « كان تصرفا رائعا غمس اصابعك فى اناء غسل الايدى ثم تنشيفهما فى لحية الرجل العجوز ، انهم هنا لم يروا مثل هذه الاشياء قبل ذلك أبدا •• » وهكذا يظل يستطرد الى أن يجعلنى أمشى على السحاب ••



وكنت ارتاح كثيرا الى العمل تحت اشراف سينيت ،

لانه كان يدع كل شيء يولد تلقائيا فى البلاتوه . ولما لم يكن أحد يبدو واثقا من نفسه ـ ولا حتى المخرج ـ فقد كنت استخلص من ذلك اننى اعرف بقدر ما يعــــرف الاخرون وكان هذا يزودني بالثقة فى نفسي ، ويدفعنى الى تقديم الاقتراحات التى كان سينيت يقبلها بارتيـــاح . وهكذا نما فى نفسى الاعتقاد باننى املك موهبة الخلق ، واستطيع ان اكتب قصصى بنفسى ، ولا شك ان سينيت هو الذى اوحى الى بهذا الاعتقاد . ولكننى ـ برغم ارضاء سينيت ـ كان ما يزال باقيا على ارضاء الجمهور

ففى هذا الوقت ، كان يعرض فى المدينة الفيلم الذى أخرجه لى سينيت « نبوءة مابل العجيبة » . فذهبت خائفا مضطربا لأشهده مع الجمهور . وكانت العادة ان يستقبل ظهور فورد سترلنج بموجة من الحمـــــاس والضحك ، اما انا فاستقبلت بصمت قاتل ، ومرت كافة الضحكات التى نفذتها فى منظر ردهة الفنــدق دون ان تنتزع ابتسامة من احد . على انه مع استمرار العرض بدأ الجمهور يتضاحك ، ثم يضحك ، وقرب نهاية العرض رنت الصالة بضحكة او ضحكتين عاليتين . ومن هــذه التجربة عرفت ان الجمهور بطبيعته لا يعطف على قــادم جديد ..



أصبح عدد الافلام التى مثلتها خمســة ، وتمكنت فى بعضها أن أحشو من عندى لمحة أو لمحتــين من التصرفات الكوميدية .. بالرغم من الجزارين المتربصين فى معمـــل التقطيع « المونتاج » . ولما كنت قد الفت اســلوبهم فى القطع ، فقد اعتدت ان ابتكر تصرفات وحيلا كوميديــة تصاحب دخولى الى المنظر وخروجى منه . عالما من أنهم

لن يتمكنوا من بترها ، كما انني انتهزت كل فرصة ممكنة لاتعلم أسرار المهنة ، وصرت دائم التردد على المعامل وغرف المونتاج ، لاراقب المونتير وهو يلصق الاجزاءبعضها ببعض ..

ثم بدأت اتلهف على كتابة واخراج افلامى بنفسى . وخاطبت فى هذا الشأن ماك سينيت . ولكنه أبى ان ينصت الى .. وعهد بى بدلا من ذلك الى مابل فورماند التى كانت قد بدأت تخرج افلامها لاول مرة . واحرجنى ذلك لانني ـ برغم فتنة مابل ـ كنت أشك فى كفاءتها كمخرجة ، وكانت النتيجة انه منذ اليوم الاول ، وقع الانفجار الفنى الذى كان لا مفر منه ..

كنا نقوم بتصوير خارجى فى ضواحى لوس أنجلس ، وفى احد المناظر طلبت مابل ان امسك خرطوما أرش به الطريق بقصد ان تتعثر فى هذا الخرطوم سيارة الشرير . فاقترحت عليها أن اقف بقدمي على الخرطوم بحيث ينقطع تدفق الماء منه ثم اطل بعينى فى بوز الخرطوم واخطو دون وعى مبعدا قدمى عنه . فينبثق الماء فى وجهى . غير انها اسكتتنى على الفور قائلة :

ـ لا وقت لدينا ! لا وقت لدينا ! افعل ما يطلب منك ..

فكان هذا كافيا ، اذ لم استطع ان اتحمل ذلك ، ومن مثل هذه الفتاة الجميلة .. وقلت :

ـ آسف يا مس نورمان .. اننى لن افعل ما يطلب منى .. ولست أظن انك من الكفاءة بحيث تقولين لى ماذا يجب ان أفعل ..

وكان المنظر فى عرض الطريق فتركته وجلست على الرصيف ، مسكينة « مابل» الحلوة ! كانت فى ذلك الوقت لم تتجاوز العشرين ، جميلة ، ساحرة ، معبودة الجميع ،

والجميع يحبونها ، وها هى الان تجلس بجوار الكاميرا مذهولة .. اذ لم يسبق على الاطلاق ان خاطبها احد بمثل هذه الطريقة المباشرة ، وقد كنت انا ايضا متأثرا بجمالها وفتنتها ، وفى قلبى ضعف خفى تجاهها .. ولكن هـذا كان عملى . والتف العاملون والممثلون على الفور حـول مابل ، وراحوا يتبادلون الرأى . واراد اثنـان من الكومبارس ــ كما اخبرتنى مابل فيما بعد ــ ان يضربونى علقة ، ولكنها منعتهم . ثم ارسلت الى مساعد المخرج يسألنى ان كنت على استعداد لاستئناف العمل . فعبرت الطريق الى حيث تجلس . وقلت لها معتذرا :

ــ اننى آسف . كل ما فى الامر اننى لا ارى المنظـر مضحكا او مسليا ، ولكن اذا سمحت لى بأن اقدم بعض الاقتراحات الكوميدية ..

فلم تجادل .. وقالت :

ــ حسن . ما دمت لا تريد ان تفعل ما يطلب منك ، فلنعد الى الاستديو

ومع ان الموقف كان بالغ الحرج . فاننى كنت مصمما على موقفى ، فهززت كتفى بغير اكتراث

وفى الاستديو ، دخل على سينيت مندفعا الى غـرفة الملابس وانا ازيل الماكياج عن وجهى ، وصاح :

ــ ما معنى ذلك بحق الجحيم ؟

فحاولت ان اشرح له الامر :

ــ ان القصة فى حاجة الى تصرفات .. ولـكن مس نورماند ترفض الاستماع الى أى اقتراح ..

قال سينيت :

ــ اما ان تفعل ما يطلب منك واما ان تخرج من هـذا المكان .. عقد أو لا عقد

فأجبت بهدوء شديد :
ـ مستر سينيت .. لقد كنت اكسب خبزى وملحى قبل أن أجىء الى هنا .. فاذا تقرر فصلى ، فليكن . ولكن لى ضميرا ، وعندى لهفة لا تقل عن لهفتك الى عمل فيلم جيد ..
فصفق الباب وراءه دون كلمة اخرى ..

***

فى ذلك المساء ، وأنا فى طريقى الى البيت فى عربة الركاب ، رويت لصديقى ما حدث . قال لى :
ـ خسارة . لقد كنت تتقدم تقدما عظيما لديهم فى الفترة الماضية
قلت بلهجة متعالية ، لكى اخفى عنه قلقى :
ـ اتظن انهم سيفصلوننى ؟
ـ لن يدهشنى ذلك على الاطلاق ، فقد كان يبدو مجنونا بالغيظ عندما رأيته خارجا من غرفة ملابسك
ـ حسن ، لا بأس عندى . ان تحت حزامى الفا وخمسمائة دولار ، وهى اكثر مما احتاج اليه لدفع تذكرة عودتى الى انجلترا ، ولكنى على اية حال سأذهب غدا ، فاذا لم يكونوا فى حاجة الى ف .. هه .. تلك هى الحياة !
وكان هناك تكليف بالعمل فى الثامنة من صباح اليوم التالى ، فلم ادر ماذا يجب أن افعل ، ولبثت فى غرفتى دون مكياج ، واذا بوجه سينيت يطل على من الباب قبل الثامنة بعشر دقائق :
ـ شارلى ، اريد ان اتكلم معك تعال الى غرفة مابل .
وكانت لهجة ودودا الى حد يثير الدهشة ، فقلت :
ـ حاضر يا مستر سينيت

وتبعته .. ولكن مابل لم تكن هناك وانما كانت في صالة العرض تشاهد بعض اللقطات ..

وقال ماك :

ـ اسمع . ان مابل معجبة كثيرا بك .. وكلنا ايضا معجبون بك . ونؤمن بأنك فنان ممتاز

وأدهشني هذا التحول المفاجيء منه . وبدأت الين على الفور .. وقلت :

ـ انني بالطبع أحمل تجاه مابل نورماند أكبر قدر من الاحترام والاعجاب ولكنني لا أظن انها كفء للاخراج .. ثم انها صغيرة السن جدا

فقال سينيت وهو يربت على كتفي :

ـ مهما كان رأيك .. فحاول أن تبتلع كبرياءك وتتعاون معها ..

ـ ولكن هذا بالضبط هو ماكنت احاول

ـ حسن ، سايرها بقدر ما تستطيع

قلت له :

ـ اسمع . لو تركتني أخرج أفلامي لما عادت لديك مشكلة

فصمت لحظة . ثم قال :

ـ ومن الذي يدفع تكاليف الفيلم اذا لم نتمكن من توزيعه ؟

فأجبته :

ـ سأدفع انا . سأودع ألفا وخمسمائة دولار في أي بنك . فاذا لم تستطع توزيع الفيلم تسترد نقودك

ولبث ماك لحظة يفكر . ثم قال :

ـ ألديك قصة ؟

ـ بالطبع . قصص بأي عدد تشاء ..

ـ حسن ، اكمل هذا الفيلم مع مابل . وسنرى بعد ذلك ..

وتصافحنا بروح بالغة الود

وذهبت فيما بعد الى مابل ، واعتذرت لها ، ودعانا سينيت فى تلك الليلة للعشاء ، وفى الصباح التالى ما كان يمكن أن تكون مابل اعذب من ذاك . حتى انها جاءت تطلب منى أفكارا واقتراحات . وهكذا ـ لدهشة المصورين وباقى الممثلين ـ أكملنا الفيلم بروح طيبة

على أن تحول سينيت المفاجىء كان يحيرنى . ولم أعرف السبب الا بعد شهور ، فقد كان سينيت فيما يبدوعازما على فصلى فى نهاية الاسبوع ، ولكنه فى الصباح التالى ليوم مشاجرتى مع مابل تلقى برقية من مكتبه فى نيويورك ، تطلب منه على وجه الاستعجال مزيدا من افلام شابلن بسبب زيادة الطلب المذهل عليها فى السوق

وكان متوسط النسخ التى يوزعها أى فيلم من أفلام كيستون فى ذلك الوقت عشرين نسخة . وكان توزيع ثلاثين نسخة يعد نجاحا كبيرا . ولكن الفيلم الاخير ، وهو رابع فيلم لى ، بلغ عدد نسخه الموزعة خمسا وأربعين نسخة .. وكان الطلب على نسخ أخرى مازال يتزايد . وكان هذا سر تودد ماك بعد تلقى البرقية

كانت قواعد الاخراج بسيطة فى تلك الايام . فما على الا أن أعرف يمينى من يسارى من أجل الدخول والخروج . فاذا خرج الانسان من اليمين فى أحد المناظر ، دخل من اليسار فى المنظر التالى . واذا خرج بوجهه الى الكاميرا دخل فى المنظر التالى بظهره اليها . وهى قواعد كانت ـ بالطبع ـ أولية جدا ..

ولكني عندما شرعت اخرج اول افلامى .. لم اكن واثقا

من نفسى بالقدر الذى كنت أظن ، بل لقـــد داهمتنى فى الحقيقة نوبة من الذعر . ثم شعرت ببعض الاطمئنان بعد أن اطلع سينيت على عمل اليوم الاول . وكان اسم الفيلم ( سجين المطر ) . ولم يكن تحفة عالمية ، ولكنه كان مضحكا وناجحا الى حد كبير . وعندما فرغت منه كنت متلهفا الى معرفة رأى سينيت . وانتظرته وهـــو خارج من غرفة العرض فاذا به يقول لى :

ــ حسنا . هل أنت مستعد لبدء فيلم آخر ؟

ومنذ ذلك اليوم كتبت وأخرجت جميع أفلامى . وكان سينيت يمنحنى علاوة ــ من باب التشجيع ــ مقدارها خمسة وعشرون دولارا عن كل فيلم . والواقع انه تبنانى من الناحية العملية . فكان يصحبنى كل مساء الى العشاء ويناقش معى قصص افلام الفرق الاخـــرى فاقترح لها أفكارا مجنونة يخيل الى انها أكثر ( خصوصية ) من أن يفهمها الجمهور . ولكن سينيت كان يضحك لها ، ويوافق عليها ..

وأصبحت الان ــ حين أشـــهد أفلامى مع الجمهور ــ الاحظ رد فعل مختلفا وما كان اجملها من مكافأة تلك الموجة من السرور التى تشمل القاعة بمجرد ظهور عنوان ( افلام كيستون ) .. وتلك الصيحات المبتهجـــة التى تستقبل ظهورى حتى قبل أن أفعل أى شىء . فلقد صرت اثيرا لدى الجمهور . ولم اكن لاطمع فى شىء اكثر من ان أواصل حياتى هكذا .. اذ كنت بالعلاوة التى أقبضهـــا احصل على مائتى دولار فى الاسبوع

تعلمت الكثير من ( كيستون ) . وعلمتها انا الكثير . ففى تلك الايام لم يكونوا يعرفون الا قليلا عن ( التكنيك ) او الحرفية ، او الحركة .. او غير ذلك مما نقلته اليهم من

المسرح . كذلك لم يكونوا يعرفون الا قليلا عن التمثيل الطبيعى الصامت . فعند تكوين اى منظر كان المخرج يضع ممثليه سواء كانوا ثلاثة او اربعة فى خط واحد ، ويوقفهم بصفاقة فى مواجهة الكاميرا . ثم يبدأ أحدهم يمثل ( اريد ان اتزوج ابنتك ) بأن يشير الى نفسه ، ثم الى اصبع يده اليسرى ( حيث توضع الدبلة ) ، ثم الى الفتاة ! كل ذلك بأكثر الحركات فظاظة ومبالغة

ولم يكن مثل هذا التمثيل ينطوى على أى ذكاء ، او فعالية ، فبرزت انا كشىء مختلف ــ ايام تلك الافلام الاولى ــ اننى أملك ميزات كثيرة ، واننى ارتاد كعالم الجيولوجيا منطقة غنية لم تستكشف بعد . اعتقد ان تلك كانت اكثر فترات حياتى اثارة ، لاننى فيها كنت على عتبة شىء جديد رائع ..

ولما كان النجاح يجعل الانسان محبوبا ، فقد أصبحت الصديق القريب الى كل من فى الاستديو . فالجميع ينادوننى باسم ( شارلى ) ، من الكومبارس ، الى مساعدى البلاتوه ، الى قسم الثياب ، الى رجال التصوير

والان صارت عندى ثقة بالغة فى أفكارى . واعتقد اننى مدين بذلك الى سينيت . فمع انه كان مثلى غير مثقف ، فانه كان يؤمن بذوقه الخاص . وزرع فى نفسى أنا أيضا مثل هذا الايمان . كما ان طريقته فى العمل زادتنى ثقة ؛ وبدت لى طريقة صائبة . وكان مما حرك خيالى ملاحظته التى أبداها لى فى أول يوم ذهبت فيه الى الاستديو : اننا لا نضع سيناريو . وانما نبدأ بفكرة ، ثم نتبع التطور الطبيعى للاحداث

خذ مثلا فيلم ( ماقبل التاريخ ) اذ لم يكن فى ذهنى عندما بدأت العمل فيه غير تصرف واحد . هو ان اظهر فى صورة

الانسان الاول مرتديا فرو الدب ، ثم أستعرض بعيني المكان وانا انتزع الشعر من الفرو وأحشد به غليونى . كانت مثل هذه الفكرة تكفي وحدها لالهامنا قصة عما قبل التاريخ ، يدخل فيها بعد ذلك الحب ، والمنافسة ، والصراع ، ثم المطاردة . وكانت هذه هى الطريقة التى نعمل بها جميعا فى كيستون

مازلت أذكر أول مرة رغبت فيها أن أضيف مبدأ آخر الى افلامى بالاضافة الى الكوميديا ، كنت أمثل فيلما اسمه ( البواب الصغير ) . وكان المدير فى هذا المنظر يطردنى من العمل،وأثناء مناشدتي إياه أن يشفق علي ويدعنى محتفظا بوظيفتى ، شرعت أمثل فى رجاء ان لى اسرة كبيرة من الاطفال الصغار . ومع اننى كنت أصور هذا الرجاء تصويرا كاريكاتيريا ، فاننى التفت أثناء البروفة فاذا بالممثلة العجوز دوروثى رافنبورت ــ وكانت تتفرج على من جانب البلاتوه ــ تنفجر باكية بالدموع ، وتقول لدهشتى الشديدة :

ــ اعرف ان المفروض ان يكون هذا مضحكا .. ولكنك تجعلنى أبكي

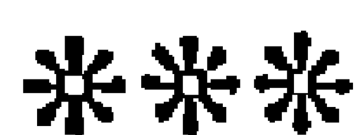
فأكدت لى بهذا شيئا كنت أشعر به بالفعل : وهو ان عندى القدرة على انتزاع الدموع والضحكات سواء بسواء

كانت علاقتى بماك سينيت سببا فى أن أرى مابل كثيرا . فقد كانت عادتنا نحن الثلاثة ان نتناول عشاءنا معا ، ثم يغط ماك فى النوم وهو جالس فى ردهة الفندق ، فنخرج نحن الاثنان معا لمشاهدة الافلام او الجلوس فى المقهى ، ثم نعود ونوقظه . وقد يبدو أن مثل هذا التقارب المستمر لابد ان ينتهى الى غرام ، ولكن ذلك لم يحدث . وظللنا ــ للاسف ــ مجرد أصدقاء

مرة واحدة حدث اننا كدنا نستسلم لنوبة عاطفيه ..
وكان ذلك يوم ذهبت انا ومابل وروسكو ارباكل لحضور مناسبة خيرية فى أحد مسارح سان فرانسسكو . كانت سهرتها فاتنة ، كان ظهورنا فى المسرح نجاحا كبيرا لنا .
ونسيت مابل معطفها فى غرفة الثياب فطلبت منى ان احضره لها ، بينما كان ارباكل والاخرون ينتظروننا فى العربة خارج المسرح . وهكذا وجدنا انفسنا وحدنا للحظة قصيرة . وكانت مابل تشع بالجمال فى تلك الليلة ، فلما وضعت المعطف حول كتفيها قبلتها .. واستجابت لقبلتى .
وكان من الممكن أن نتمادى ، لولا انهم كانوا ينتظروننا فى الخارج

وحاولت فيما بعد أن أتابع ما بدأنا . ولكن ذلك لم يؤد الى شىء . فقد قالت لى بروح ودية :

ـ لا ياشارلى . اننى لست من طـــرازك ، ولا انت من طرازى ..

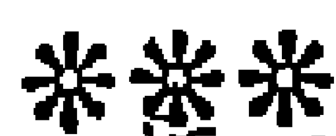


كنا فى عام ١٩١٤ .. وانا فى الخامسة والعشرين من عمرى ، متفجرا بالشباب والحيوية ، مفرما بعملى الى حد العشق : لا لمجرد النجاح ، ولكن لما فيه من سحر ، وبما يتيحه لى من معرفة جميع نجوم السينما الذين كنت من أشد المعجبين بهم . مارى بيكفورد ، بلانش سويت ، ميريام كوبر ، كلارا كمبال يونج ، اخوات جيسن .. وكن جميعــا جميلات ، ومقابلتهن وجها لوجه يشعر الانسان بأنه فى الجنة ..

على أن خفقة قلبى الاولى كانت من أجل ( بيجى بيرس ) .. وهى فتاة غير عادية الجمال ، لها ملامح نحتت بكل دقة ، وعنق جميل ابيض ، وقوام منـــير . ولم تكن قد

ظهرت فى كيستون الا بعد ثلاثة اسابيع من وجودى هناك ، اذ كانت مصابة بنوبة برد . ولكن الشرارة اشتعلت بمجرد ان تلاقينا . وغر قلبى عندما وجدتها تبـــادلنى نفس الاحساس . وما كان أجمل كل صباح ونحن نتجـه الى الاستديو وكل منا يتوقع أن يرى الآخر

وفى ايام الاحاد كنت أزورها فى بيت والديها . وفى كل ليلة كان قسم جديد بالحفاظ على عهد الحب ، وفى كل ليلة كان صراع عنيف . نعم كانت بيجى تحبنى ، ولكن لم يكن لهذا الحب مستقبـل . فأنا لا اريد ان أتزوج . والتحرر من القيود مغامرة . وما كانت هناك امرأة تستطيع أن تماشى الصورة الغامضة التى فى ذهنى عن الحب



كان كل استديو فى تلك الايام يعمل كأنه أسرة . والافلام يتم اعدادها فى نفس الوقت واعرف انها ستكون قصيرة العمر .. وكنت أعتقد أننى ــ بكثرة الانتاج هذه ــ سرعان ما أجف خلال اسبوع . وأطول الافلام الروائية لا يستغرق اكثر من اسبوعين او ثلاثة . وكنا نعمل فى ضوء النهار ، وهذا هو السبب فى اختيار كاليفورنيا : اذ كان معروفا أنهـا تتمتع بتسعة أشهر مشمسة فى العام

وظهرت مصابيح كليج فى عام ١٩١٥ ولكن كيستون لم تستخدمها ابدا ، لان ضوءها كان يختلج ، ولم يكن ساطعا كضوء الشمس .. فضلا عن أن ترتيب المصابيـــح كان يستغرق وقتا طويلا . وافلام كيستـــون كان نادرا أن تستغرق اكثر من اسبوع . بل لقد أخرجت فيلما كاملا ذات مرة فى نصف يوم .. اسمه ( عشرون دقيقة من الحب ) .. وكان يثير ضحكا متواصلا طول الوقت . اما فيـــلم ( الديناميت ) فقد استغرق تسعة ايام ، وتكلف ألفـــا

وثمانمائة دولار . ولما كنت قد تجاوزت بذلك حدود الميزانية المقررة ( وهى الف دولار ) فقد خصمت منى علاوة الخمسة والعشرين دولارا . وقال سينيت ان الطريقة الوحيدة لموازنة العجز هى توزيعه ( كفيلم ذى لفتين ) فلما فعلوا ذلك حققوا به ايرادا يزيد على مائة وثلاثين ألف دولار فى العام الواحد !

وكنت قد أصبحت الان أملك عددا كبيرا من الافلام الناجحة ، من بينها ( عشرون دقيقة من الحب، والديناميت، و « فصولات مضحكة » و « مساعد المسرح »

وحوالى هذا الوقت بدأ سينيت يتحدث فى مسألة تجديد عقدى ، ويطلب ان يعرف شروطى . وكنت اعرف الى حد ما مدى شهرتى، ولكنى أعرف انها لن تدوم طويلا . فكان على اذن أن أحصد الثمار قبل ان تغيب الشمس . وقلت وانا اعنى ما أقول :

ــ أريد الفى دولار فى الاسبوع !

وذهل سينيت . وقال لى :

ــ ولكننى لا احصل انا نفسى على الف دولار !

ــ اعلم ذلك . ولكن طوابير الناس لا تقف امام شباك التذاكر عندما يظهر اسمك ، كما تقف عندما يظهر اسمى

ــ ربما . ولكنك بغير المساندة من جهازنا يمكن أن تنتهى . انظر ماذا حدث لفورد سترلنج

وكان هذا صحيحا ، لان فورد لم يحقق نجاحا كبيرا منذ انفصاله عن كيستون . ولكننى قلت لسينيت :

ــ اننى لا أحتاج لكى أصنع فيلما الى اكثر من حديقة عامة ، وعسكرى بوليس ، وفتاة جميلة

والواقع اننى كنت قد صنعت بالفعل واحدا من انجح أفلامى بمجموعة كهذه

وابرق سينيت الى شريكيه فى ذلك الوقت ــ كيسيل

وبادمان — طالبا رأيهما بشأن العقـــد والشروط التى أطلبها . ثم جاء بعد ذلك باقتراح :

— اسمع . مازال باقيا على عقدك الخاص اربعة أشهر . فلنمزقه ، ونعطيك من الان خمسمائة دولار فى الاسبوع، ثم سبعمائة فى العام التالى ، ثم الفا وخمسمائة فى العام الذى يليه وبهذه الطريقة تكون قد حصلت على الالف دولار اسبوعيا . . كما تطلب ، فأجبته :

— ماك . اذا عكست الامر وأعطيتنى ألفا وخمسمائة فى العام الاول ، ثم سبعمائة فى العام الثانى ، ثم خمسمائة فى العام الثالث . . فاننى سأقبل

قال ماك : « ولكن هذا جنون »

وهكذا لم نعد نفتح الحديث فى امر العقد الجديد

بقى شهر واحد على انتهاء عقدى مع كيستون ، دون ان تتقدم شركة اخرى بأى عرض لى ، فبدأت أقلق . وفى اعتقادى انسينيت كان ينتظرلاستغلال الفرصة المناسبة. فقـد كانت عادته كلمـــا انتهيت من فيلم أن يأتى الى ويستحثنى مازحا ان أبدأ غيره . اما الان ، فانه برغـــم بقائى أسبوعين بغير عمل ، ظل يتجنبنى ، وكان سـلوكه نحوى مهذبا ، ولكن مترفعا فى نفس الوقت

على اننى بالرغم من ذلك لم أفقـد ثقتى بنفسى . فأنا أستطيع — اذا لم يتقدم أحد بعرض مناسب — ان ادخـل ميدان العمل بنفسى ، ولحسابى . لم لا ؟ اننى واثق من نفسى ، ومعتمد عليها . ومازلت أذكر اللحظة التى انبثق فيها هذا الخاطر فى ذهنى : فقد كنت عندما فكرت فيـه مستندا الى حائط الاستديو ، اكتب استمارة لطلب بعض المشتريات

وكان سيدنى قد التحق — عن طريقى — بشركة كيستون،

وأخرج عدة افلام ناجحة . منها فيلم اسمه « قرصان الفواصات » ضرب الرقم القياسي ، واستخدم فيه سيدني كافة خدع الكاميرا . وبناء على هذا النجاح خاطبته في شأن الاشتراك معي وتأسيس شركتنا الخاصة . وقلت له : « لسنا في حاجة الى أكثر من كاميرا ، وفناء خلفي »

ولكنه رأى في الامر مغامرة أكبر مما يجب . وأضاف قائلا: «فضلا عن ذلك فانني لا ارتاح الى التخلي عن مرتب ثابت اكبر من كل ماكسبته في حياتي ..

وهكذا استمر سيدني عاما اخر مع شركة كيستون

ثم تلقيت ذات يوم مكالمة تليفونية من «كارل لايمل» من شركة يونيفرسال ، يعرض فيها التعاقد معي على ستة قروش لكل ٣٠ سنتيمترا من افلامي ، على أن تمولها الشركة . ولكنه لم يقبل التعاقد على الف دولار في الاسبوع، فلم تثمر المباحثات شيئا

ثم جاء شاب يدعى جيس روبنز ـ وكان يمثل شركة ايساي ـ وقال انه سمع بأنني أطلب عشرة آلاف دولار عربونا قبل توقيع أي عقد ، وألفا ومائتي دولار في الاسبوع . فكان هذا بالنسبة لي نبأ لا اعرفه . ولم أكن قد فكرت قبل ذلك في مسألة العربون هذه الى أن ذكرها هو .. فصارت منذ هذه اللحظة السعيدة فكرة ثابتة في رأسي

ولكن ، يا للخسارة ! ففي اليوم التالي جاء روبنز يسلمني شيكا بستمائة دولار فقط ..

وبالرغم من ان هذا اثار شكوكي ، الا انني فضلت ان اغرقها في التفاؤل . وكان قد بقي على عقدي مع كيستون أسبوعان . فكان اتمام فيلمي الاخير «ماضيه قبل التاريخ» عبئا على أعصابي .. لانه كان من الصعب أن أركز تفكيري في العمل وكل هذه العروض والمسائل التجارية تحيط بي . على ان الفيلم انتهى اخيرا على اية حال ..

الفصل الحادى عشر

# وتدفق الذهب

❋ فى الطريق الى المشنقة

❋ تعاقدت مع فتاة لمجرد الزينة

❋ مفاجأة فى قطار نيويورك

❋ فى كل محطة مظاهرة

كان صعبا على نفسى أن اترك كيستون ، اذ كنت أحب كثيرا سينيت ، وكل من يعمل هناك

لهذا لم أستطع ان اودع اى انسان . بل حدث كل شىء بطريقة قاسية فى بساطتها : اذ اتممت مونتاج الفيلم مساء السبت ، وسافرت يوم الاثنين مع المستر اندرسون الى سان فرانسسكو .. حيث كانت فى انتظارنا عربته المرسيدس الفخمة الخضراء . ولم نتوقف الا لتناول الغداء فى فندق « سان فرانسيس » ، ثم ذهبنا الى « النايلز » .. حيث يملك اندرسون الاستديو الصغير الخاص الذى كان يخرج فيه لحساب شركة ايسو افلام رعاة البقر المعروفة بأفلام « برونكو بيلى » . ومن هناك استأنفنا السفر معا الى سان فرانسسكو مرة اخرى ، ثم ركبنا الى شيكاغو

ووجدت نفسى اميل الى اندرسون ، فقد كانت له جاذبية من نوع خاص . وفى القطار كان يرعانى كأنه اخى ، وفى كل محطة يشترى الصحف والحلوى . ولكنه كان خجولا ، بالرغم من انه بلغ الاربعين . فاذا تطرق الحديث الى مسائل العمل قال بثقة :

ــ لا تقلق بالا الى ذلك . سيكون كل شىء على مايرام

وكان قليل الكلام . يبدو دائما مشغول البال . وان كنت قد أحسست ان وراء ذلك خجلا طبيعيا فيه

كانت الرحلة ممتعة . وكان فى القطار ثلاثة رجال لفتوا نظرنا اول مرة فى عربة الطعام : اذ كان اثنان منهم يبدوان على قدر كبير من الثراء ، بينما يبدو الثالث فى غيرموضعه .. رجلا من العامة ، خشن المظهر . فكان يبدو غريبا أن يتناولوا الطعام معا . وفسرنا نحن الامر بأن الرجلين من المهندسين ،والثالث عامل يقوملهما بالمهام الشاقة . فلما غادرنا عربة الطعام جاء أحدهم الى ديواننا وقدم نفسه الينا ، قائلا انه محافظ سانت لويس ، وانه تعرف على برونكو بيلى ( اندرسون ) . وقال انه يقوم مع زميله بترحيل أحد المجرمين من سجن سان كوينتين واعادتهالى سان لويس لكى يشنق . ولما لم يكن ممكنا أن يتركا السجين وحده ، فهل نسمح بالانتقال الى ديوانهما لمقابلة النائب العام للمنطقة ؟

وقال المحافظ :

ــ قد يروق لكما أن تعرفا ظروف هذا الرجل . ان له سجلا اجراميا حافلا . فعندما قبض عليه الضابط فى سان لويس طلب ان يسمح له بدخول حجرته لاحضار بعض الملابس ، وبينما هو ينقب فى حقيبته اذا به يستدير فجأة بمسدس فى يده ، ويطلق النار على الضابط فيقتله، ثم يهرب الى كاليفورنيا .. حيث قبض عليه يسرق احد المحلات وحكم عليه بثلاثة اعوام . وعندما قضى مدة العقوبة وجدنى انا والنائب العام فى انتظارهعلىباب السجن انها حالة مفروغ منها ، وسنشنقه

وانتقلنا انا وأندرسون الى ديوانهم

وكان المحافظ رجلا بدينا، مرحا، على شفتيه ابتسامة ثابتة ، وعيناه لامعتان . أما نائب المنطقة العام فكان أكثر وقارا ..

وقال المحافظ بعد أن قدمنا الى زميله :
ـ تفضلا بالجلوس
ثم استدار نحو السجين قائلا :
ـ وهذا هو هانك . اننا عائدان به الى سان لويس ، حيث تنتظره بعض المتاعب
وضحك هانك ضحكة مريرة ، ولكنه لم يعلق بشيء ، كان طوله اكثر من مترين ، وعمره فى أواخر العقد الخامس وصافح اندرسون قائلا :
ـ لقد شاهدتك كثيرا يابرونكو بيلى .و.. سبحان الله! ما رأيت فى حياتى مثل طريقتك فى تنـــاول « أولئك » المسدسات و « أولئك » المدافع !
اما انا ، فقد قال هانك انه لا يعرف عنى الكثير . فقد كان فى سجن سان كوينتين طوال ثلاثة أعوام وما أكثر ما يجرى فى الخارج من أشياء لا يدرى بها الانسان ..
ومع اننا كنا جميعا نتحدث بلا تكليف ، الا انه كان فى الجو شيء من التوتر تصعب معالجته . اما انا فقد حرت ماذا أقول ، ولم أستطع الا أن افتعل الابتسام لتعليقــات المحافظ ..
وقال برونكو بيلى :
ـ انها حياة شاقة
فقال المحافظ :
ـ حسنا . اننا نريد أن نجعلها أقل مشقة . وهانك يعلم ذلك ..
فقال هانك بلهجة قاطعة :
ـ بكل تأكيد ..
وشرع المحافظ يتحدث من الناحية الاخلاقية :
ـ هذا هو ما قلته لهانك عندما تخطى عتبة سجن سان

كوينتين . قلت له اذا عاملتنـــا بشرف عاملناك بشرف . فنحن لانريد أن نقيد يديك بالحديد ، ولاان نثير اية ضجة . وهكذا لم يضع الا « حديدة القدم »

فسألته :

ـ حديدة القدم ! ماذا تقصد ؟

قال المحافظ :

ـ ألم تر واحدة منها أبدا ؟ ارفع ساق البنطلون ياهانك

فرفع هانك ساق البنطلون . واذا بها هناك : خلخال من الصلب المطلى بالنيكل طوله خمس بوصات ، وسمكه ثلاثة بوصات ، يحيط بأسفل ساقه ، ويزن أربعين رطلا!

وقادنا ذلك الى الحديث عن أحدث أنواع حديد القدم . واهتم المحافظ بأن يبين لنا ان هذه الحـــديدة بالذات مكسوة من الداخل بالمطاط حتى لا تؤلم السجين !

وسألته :

ـ هل ينام بهذا الشيء ؟

فأجاب وهو ينظر الى هانك نظرة ذات معنى :

ـ حسبنا . حسب الاحوال !

وابتسم هانك .. ولكن ابتسامته كانت صارمة ، ومريرة . ولبثنا معهم الى انحان وقت العشاء . وعندما اقترب اليوم من نهايته تطرق الحديث الى الطريقة التى أعيد بها القبض على هانك . فمن خـــلال تبـــادل المعلومات بين السجون ، حصل المحافظ على صور وبصمات عرف منها ان هانك هو الرجل الذى يبحثون عنه . وبناء على ذلك وقفوا خارج بوابة سجن سان كوينتين فى اليوم الذى كان مقررا للافراج عنه

وقال المحافظ وهو ينظر الى هانك ، وعيناه تلمعان :

ـ نعم . انتظرناه على الجانب الاخـــر من الطريق .

وسرعان ما خرج من الباب الجانبى للسجن ..

ومر المحافظ بسبابته على جانب أنفه مشيرا فى اتجاه هانك ، ثم قال ببطء ، وبابتسامة عريضة :

ــ أعتقد . ان .. هذا .. هو . رجلنا !

واستطرد المحافظ بينما نحن نتـــابعه مذهولين ، انا وأندرسون :

ــ وهكذا عقدنا معه اتفاقا على انه اذا عاملنـــا بشرف عاملناه برفق . وصحبناه معنا لتناول الافطار ، حيث قدمنا له فطائر ساخنة ، ولحما ، وبيضا . وهاهو الان يسافر فى الدرجة الاولى ! ان هذا افضل كثيرا من اللجوء للطرق العنيفة ، والقيود الحديدية والسلاسل

وابتسم هانك وغمغم :

ــ كان فى استطاعتى لو أردت ان أقاتلكم حتى الموت

فحدجه المحافظ بنظرة ثابتة ، وقال :

ــ ما كنت لتكسب من ذلك شيئا كثيرا ياهانك

ثم أضاف ببطء :

ــ لم تكن لتكسب الا بعض التأجيل .. اليس الافضل ان تسافر سفرا مريحا فى الدرجة الاولى ؟

فقال هانك بعصبية :

ــ أظن ذلك !

وعندما بدأنا نقترب من المكان الذى يتجه اليه هانك ، بدأ يتحدث عن سجن سان لويس حديثا أقـــــرب الى الحنين . بل لقد بدا مستمتعا بما يتوقع من محاكمـــة المسجونين الآخرين له منذ وصوله :

ــ اننى أفكر فيما سيفعل بى أولئك الملاعين عنــــدما اقف أمام محكمة الكانجارو ( محكمة من المســــجونين

انفسهم ) . انهم فى الغـــالب سينتزعون منى كل دخانى وسجائرى !!

كانت علاقة المحافظ والنائب العام بهانك أقـرب الى اعتزاز مصارع الثيران بالثور الذى يتهيأ لقتله . وعندما غادروا القطار ، تمنى لنا المحافظ وزميله عاما سعيدا .. اذ كنا فى آخر ديسمبر . وصافحنا هانك أيضـــــا وهو يقول بلهجة جادة : ان كل ما هو جميل لا بد له من نهاية ..

وكان من الصعب على أن اعرف كيف أودعه . فجريمته كانت وحشية ، وتدل على الجبن ، ومع ذلك وجـــدت نفسى اتمنى له ــ بصدق ــ حظا سعيدا وهو يحجل من القطار بالحديدة الثقيلة فى قدمه

وسمعنا فيما بعد أنه شنق

***

عندما وصلنا الى شيكاغو استقبلنا مدير الاســتديو بالتحيات ، ولكن لم يكن هناك وجود لمستر سوب

وبدأت على الفور استشعر ان فى الامــــر سرا ، وان ادارة الاستديو تعرف اشياء لا تريد أن تقولها . ولكن ذلك لم يزعجنى ، اذ كنت واثقا من ان فيلما جيدا سوف يحل جميع الاشكالات

ولهذا سألت المدير عما اذا كان يعلم ان لى ان استعين بهيئة الاستديو جميعا ، واننى أملك مطلق الحـــرية فى استخدام امكانياته . فقال :

ــ طبعا اعلم . فالمستر اندرسون قد ترك لنا تعليمات بهذا الصدد

قلت :

ــ فى هذه الحالة أحب ان أبدأ العمل على الفــــور

فأجاب :

ـ حسنا . ستجد فى الطابق الاول مس لويلا بارسونز، رئيسة قسم السيناريو . وتستطيع ان تحصل منها على سيناريو ..

فرددت عليه بلهجة لاذعة :

انني لا استخدم سيناريوهات الاخرين . انني اكتب لنفسي ..

وفى الصباح التالى ذهبت الى مكتب توزيع الادوار ، وقلت لهم بجفاء :

ـ أريد عددا من الممثلين . فهل تتكرمون بأن ترسلوا لى اعضاء فرقتكم غير المشغولين ؟

فقدموا الى الاشخاص الذين كانوا يرون انهم ملائمون. وكان منهم شاب احول العينين اسمه « بن تربين » ، بدا لى انه يفهم المهنة ، وانه ليس ناجحا بعـــد مع شركة « ايسانى » . فملت اليه واخترته على الفور .. ولكننى كنت فى حاجة ايضا الى بطلة . وبعد ان قابلت عددا من الفتيات ، لفتت نظرى فتاة بدا انها قد تنجـح . وكانت فتاة جميلة تعاقدت معها الشركة حديثا . ولكن ، يا الهى! لم استطع ان انتزع منها اية استجابة . وكانت غيرمرضية الى حد اننى يئست وصرفتها . وبعد ذلك بأعوام قالتلى جلوريا سوانسون انها كانت هذه الفتاة ! وانها تعمـدت عدم التجاوب معى لانها كانت مشحونة بآمال التمثيـل الدرامى ، وتكره الكوميديات الهزلية

ثم تطورت الامور من سيء الى أسوأ . فعندما أردت أن أشاهد اللقطات التى صورتها ، وجدتهم يعرضـــون لى « النيجاتيف » بهـــدف اقتصاد تكاليف طبع النسخ الايجابية ! . واصابنى ذلك بالذعر ، وعندما طالبتهم بأن

يطبعوا نسخا ايجابيةهلعوا كأنما يتصورونأننى سأقودهم الى الافلاس . كانوا أغبياء وراضين عنأنفسهم . ذلكأنهم كانوا من أوائل من دخلوا صناعةالسينما ، وتحميهم حقوق مسجلة تتيح لهم الاحتكار،فكان آخر مايكترثون به جودة أفلامهم . ومع أن شركات اخرى كانت تتحدى حقوقهم المسجلة ، وتنتج أفلاما أفضل ، فان « ايسانى » ظلت تمارس عملها بنفس الغباء ، وتوزع السيناريوهات على مخرجيها صباح كل اثنين بنفس الطريقة التى يوزع بها ورق اللعب !

ومضى أسبوعان أشرفت خلالهما على الانتهاء من فيلمى الاول « وظيفته الجديدة » - دون أن يظهر أثر للمستر سوبر . ولما كنت لم أتقاض شيئا ، لا علاوتى ولا مرتبى ، فقد استثارنى الغضب . وذهبت الى مكتب الاستعلامات أسأل :

- أين ذلك المدعى مستر سوبر ؟

فذهلوا ، وارتبكوا ، ولم يحيروا جوابا شافيا . ولم أكترث أنا باظهار ازدرائى وأنا أسأل عما اذا كان هذا الرجل يدير أعماله دائما بهذه الطريقة

ولم أعرف الا بعد ذلك بسنوات ، ومن سوبر نفسه ، حقيقة ماكان قد حدث .. فسوبر فيما يبدو لم يكن قد سمع بى على الاطلاق فى ذلك الوقت . وعندما علم أن اندرسون قد تعاقد معى لمدة عام على ١٢٠٠ دولار فى الاسبوع ، وعشرة آلاف دولار علاوة ، أرسل برقية عصبية اليه يسأله فيها ما اذا كان قد أصابه الجنون . فلما سمع أيضا أن اندرسون قد وقع هذا العقد من قبيل المغامرة ، بناء على توصية من جيس روبنز، تضاعف انزعاجه . ذلك أن أفضل أفلامه كان لا يدر أكثر

من ٧٥ دولارا فى الاسبوع ، ولا يغطى مصـــاريفه الا بصعوبة . وكان هذا هو سر اختفائه من شيكاغو

ولكن حدث بعد ذلك ـ عند عودته ـ أنه تناول غداءه فى أحد الفنادق الكبرى فى شيكاغو ، وكان معه عدد كبير من أصدقائه الذين أطروا ـ لدهشته الشديدة ـ اقدامه على ضمى الى شركته . وبالاضافة الى ذلك كانت كميات غير عادية من البريد بدأت ترد الى الاســـتديو بشــأن شارلى شابلن . ففكر الرجل فى ان يقوم بتجـربة . فأعطى احد الخدم ربع دولار وجعله يعلن عن وجودى فى الفندق . وما كاد الخادم يجتاز الردهة صائحا « تليفون للمستر شارلى شابلن » .. حتى بدأ النــاس يتجمعون الى ان ضاقت الردهة بتزاحمهم وضجتهم . فكان هــذا اول مظهر رآه لمدى شهرتى . اما الثانى ، فكان ما جرى بشأن توزيع الفيلم اثناء غيابه عن شيكاغو : اذ اكتشف انه حتى قبل أن ابدأ العمل فيه حجزت منه مقـدما خمس وستون نسخة ، وهو رقم لم يسبق له مثيل . وعندما فرغت من اعداده كان عدد النسخ المبيعة مقـــدما مائة وثلاثين ، بالاضافة الى طلبات اخرى كانت ماتزال تتدفق الامر الذى جعلهم يرفعون السعر على الفور من ١٣ الى ٢٥ سنتا للقدم الواحد

***

وعندئذ فقط ، ظهر سوبر ، وواجهته بشـــأن مرتبى وعلاوتى . فغمرنى بالاعتذارات ، مؤكدا انه كان قد كلف مكتبه بتولى كافة المسائل الخاصة بعملى ، وانه لم يكن قد اطلع على العقد ، ولكنه أعتقد أن المكتب بالطبع يعرف عنه كل شيء . فضقت كثيرا بطريقة « التعلب فات » هذه . وقلت بلهجة صارمة :

ـ ماالذى كان يزعجك ؟ انه لايزال فى أستطـاعتك أن تفسخ العقد اذا اردت . بل الحقيقة انك فى رأيى قـد فسخته بالفعل

وكان سوبر رجلا طويلا عريضا ، ناعم الصوت ، يكاد أن يكون وسيما لولا شحوب وجهه ، وتهدل شفته العليا التى تتدلى على شفته السفلى كأنها نائمة فوقها . وقال لى :

ـ يؤسفنى ان يكون هذا شعورك تجاهنا . ولكننا ، كما لعلك تعرف ياشارلى ، شركة ذات سمعة محترمة ، ونلتزم الوفاء دائما بعقودنا

فقاطعته :

ـ ولكن هذا العقد لم تلتزموا به

قال :

ـ سنتولى امره فى التو

فأجبت ساخرا :

ـ لست فى عجلة من امرى ؟

***

وفعل سوبر كل ما يستطيع أثناء اقامتى فى شيكاغو لكى يرضينى . ولكننى فى الحقيقة لم أستطع ابدا أن اميـل اليه . وقلت له أننى لست مرتاحا الى العمل فى شيكاغو ، وان عليه اذا كان يريد عملا مثمرا أن يتخذ الترتيبات لى كى أعمل فى كاليفورنيا . فقال :

ـ سنفعل اى شىء يجعلك راضيا . ما رأيك أن تعمل فى ستديو « نايلز » ؟

فلم أتحمس كثيرا . ولكننى كنت أحب أندرسون اكثر مما احب سوبر . وهكذا ما كدت انتهى من فيلم «وظيفته الجديدة » حتى ذهبت الى « نايلز »

وفى نايلز كان برونكو بيلى يصنع جميع أفلامه الخاصة برعاة البقر . وكانت كلها من لفة واحدة ، ولا يستغرق منه اعدادها أكثر من يوم واحد

***

ولم تكن لديه غير سبع قصص بذاتها ، يكررها ويعيد تكرارها . ومنها جمع عدة ملايين من الدولارات . وكان يعمل على فترات بلا نظام . فيخرج فى بعض الاحيان سبعة افلام فى اسبوع واحد ، ثم يتغيب فى اجازة لمدة ستة اسابيع !

وبينما الاستديو يجهز المنظر الذى سأبدا فيه التصوير ، سافرت مع اندرسون الى سان فرانسسكو للبحث بين فتيات الكورس عن بطلة لاحدى كوميدياته الموسيقية . ومع أن هذا كان عملا شائقا فاننا لم نجد بينهن واحدة تصلح للتصوير ( فوتوجنيك ) . فقال لنا كارل ستراوس - وهو امريكى ألمانى من رعاة البقر العاملين مع اندرسون - انه يعرف فتاة تذهب بين وقت وآخر الى مقهى تاتى فى شارع هيل . وقال انه لا يعرفها شخصيا ، ولكنها جميلة جدا ، وقد يعرف صاحب المقهى عنوانها

وظهر بالفعل ان المستر تاتى يعرفها ، وانها تعيش مع شقيقتها المتزوجة ، وانها من « لافلوك » بمنطقة نيفادا ، وان اسمها « ادنا بورفيانس » . فاتصلنا بها على الفور ، وضربنا موعداً لملاقاتها فى فندق سان فرانسيس . واذا بها أكثر من جميلة . ولكنها بدت أثناء المقابلة جادة ، وحزينة . وعلمت فيما بعد انها كانت فى تلك الايام خارجة لتوها من محنة عاطفية

على اننا بالرغم من ذلك تعاقدنا معها . فهى على الاقل تصلح زينة لافلامى

أخرجت اربعة افلام فى استديو نايلز . ولكن المعدات لم تكن مرضية . ولم أشعر هناك بالاستقرار ولا بالرضى فاقترحت على اندرسون أن أذهب الى لوس انجلس .. حيث يمتلكون معدات أفضل . ونجح اندرسون فى أن يستأجر لى استديو صغيرا فى « بويل هايتس » فى قـلب لوس انجلس ..

وحدث ذات مساء - عند عودتى الى فندق « ستول » الذى أقيم فيه - اننى تلقيت مكالمة تليفونية عاجلة من لوس انجلس . وفى هذه المكالمة قرأوا لى برقية تلقوها من نيويورك :

« نعرض على شابلن ٢٥ ألف دولار للظهور ١٥ دقيقة كل ليلة لمدة أسبوعين فى مسرح نيويورك .. دون أى تعارض مع اعماله الاخرى »

فاتصلت على الفور - تليفونيا - بمستر اندرسون فى سان فرانسسكو . كانت ساعة متأخرة من الليل ولم استطع أن أعثر عليه قبل الثالثة صباحا . وأخبرته فى التليفون بأمر البرقية ، وسألته أن يسمح لى بأسبوعين كى أحصل على هذه الالاف المعروضة من الدولارات . واقترحت عليه أن أبدأ العمل فى فيلم جديد فى القطار ، ثم اتمه عندما أصل الى نيويورك . ولكن أندرســـون لم يرض بأن أفعل ذلك ..

وكانت نافذة حجرة نومى تطل على منور الفندق ، فكان الذى يتحدث فيها تتردد أصداء صـــوته فى الحجرات الاخرى . ولما كان الخط التليفونى غير سليم ، فقد كان على أن أصيح بأعلى صـــوتى عـــدة مرات وأنا أخاطب أندرسون :

ـ لست أنوى أن أرفض ٢٥ ألف دولار من أجل عمل أسبوعين ..

واذا بنافذة تفتح فوقى ، وصوت يجيب على :

ـ اصرف ذلك الثور وعد الى فراشك يا لوح !

وقال أندرسون عبر الاسلاك ان « ايسانى » ستعطينى هذه الـ ٢٥ ألف دولار اذا أخرجت لهم فيلما جديدا من لفتين . ووافق على أن يأتى الى لوس انجلس فى اليوم التالى ويسلمنى الشيك ويوقع الاتفاق

وانتهت بذلك المكالمة ، فأطفأت الانوار وأوشكت على النوم . ولكننى تذكرت عندئذ ذلك الصوت ، فغادرت فراشى وفتحت النافذة ، ورفعت رأسى صائحا :

ـ روح فى ستين داهية !

وجاء أندرسون فى اليوم التالى ومعه شيك بخمسة وعشرين ألفا . أما شركة نيويورك صاحبة العرض الاصلى فأفلست بعد ذلك بأسبوعين . وهكذا كان حظى كبيرا ..

الان صرت أكثر ابتهاجا وارتياحا الى العمل فى لوس انجلس . ومع أن الاستديو فى « بويل هايتس » كان فى منطقة خربة ، فان وجودى هناك كان يتيح لى ان ارى اخى كان عندئذ ما يزال يعمل مع « كيستون » ، وعقده ينتهى قبل انتهاء عقدى مع ايسانى بشهر واحد . وكانت شهرتى قد تضخمت الى حد أن سيدنى انتوى أن يخصص كل وقته لادارة أعمالى . والواقع أن شهرتى كانت ـ كما تقول انتشارا ـ تتزايد مع كل فيلم جديد . ومع اننى كنت أعرف مدى هذه الشهرة فى لوس انجلس عن طريق طول الطوابير الواقفة أمام شباك التذاكر ، فاننى لم أكن أعرف مداها فى الجهات الاخرى . ففى نيويورك كانت تباع فى كافة الدكاكين والمحلات لعب وتماثيل تصور شخصية شارلى .

وكانت فتيات مسارح زيجفلد الاستعراضية يقمن بتقديم نمر مأخوذة عن شارلى ، يخفين فيها جمالهن وراء الشوارب وقبعات الدربى والاحذية الضخمة والسراويل المنتفخة ، وهن يغنين أغنية اسمها « أقدام شارلى هذه » !

وتحدث سيدنى مع اندرسون بشأن بيع أفلامى منفصلة عن باقى الانتاج العادى • اذ لم يكن من العدل أن يحصل اصحاب دور العرض على كل المكسب . وكانت «ايسانى» — برغم ما تبيع من مئات النسخ من أفلامى — تبيعها على نفس الاساليب القديمة التى اعتادت أن تتبعها فى التوزيع • فاقترح سيدنى رفع السعر فى كل دار للعرض بنسبة عدد مقاعدها .. رافعا بذلك دخل كل فيلم من أفلامى الى مائة ألف دولار أو أكثر

حوالى هذا الوقت أخرج د . و . جريفث فيلمه التاريخى « ميلاد أمة » • ذلك الفيلم الذى جعله أبرز مخرجى السينما • وقد كان جريفث بلا شك عبقرى السينما الصامتة • وبالرغم من أن فنه كان ميلودراميا ، وشاذا فى بعض الاحيان ، فان أفلامه كانت فيها لمسة الاصالة التى جعلت كلا منها جديرا بالمشاهدة

وبدأ « دى ميل » بداية مبشرة بفيلم « الكورس الهامس » وبفيلمه عن « كارمن » •• ولكن عمله بعد « الذكر والانثى » لم يتخط أبدا حدود التزويق ؛ ومع ذلك فاننى تأثرت بكارمن الى حد اننى أخرجت منها فيلما من طراز البرسك .. وكان آخر فيلم لى مع شركة ايسانى • وقد تناولوا هذا الفيلم بعد انفصالى عنهم ، وحشروا فيه كل المناظر التى قطعتها فى المونتاج ، ليطول الى أربع لفات •• الامر الذى أثارنى وألزمنى الفراش يومين • فقد كان عملا يخلو من الامانة ، وان كان قد أدى

فى الواقع خدمة : اذ جعلنى من ذلك الوقت أنص فى كل عقد أوقعه على أنه لن يكون هناك أى تشويه ، أو مط ، او تدخل فى الصورة النهائية للفيلم

وجاء سوبر ـ عندما اقترب موعد نهاية عقدى ـ ومعه عرض قال انه لا يمكن أن ينافسه فيه أحد .. وهو أن يعطينى ٣٥٠ ألف دولار فى مقابل ١٢ فيلما من لفتين ، على أن يتعهد هو بمصاريف الانتاج . فقلت له اننى أشترط قبل التوقيع على أى عقد أن أحصل على مبلغ خارج العقد مقداره ١٥٠ الف دولار . فكان هـــذا نهاية المبـاحثات مع سوبر ..

يا للمستقبل . يا للمستقبل .. ياللمستقبل الرائع ! الى أين كان يقودنى ؟ كانت الافاق التى أمامى تدير الرأس والمال والنجاح يتدفقان باندفاع هائل متزايد . وكان هذا كله مذهلا ، ومخيفا ..

ولكنه .. كان رائعا !

بينما كان سيدنى فى نيويورك يدرس العروض المختلفة المقدمة لى ، كنت انا إستكمل تصوير « كارمن » واقيم فى بيت يواجه البحر فى سانت مونيكا . وكنت اتنـــاول عشائى فى بعض الامسيات فى مقهى « نات جوروين » عند طرف لسان مونيكا الممتد فى البحر . ونات جوروين كان يعتبر فى وقت ما اعظم ممثل واعظم كوميدى على المسرح الامريكى ..

ونشأت بينى وبين « نات » صداقة وثيقة . فكنا فى ليالى الخريف الباردة نتمشى معا على شـــاطىء المحيط المهجور . وعندما علم اننى سأسافر الى نيويورك بعـــد الانتهاء من فيلمى ، قدم لى بعض النصائح الطيبة :

ـ لقد حققت نجاحا كبيرا . وهنالك حياة رائعة تنتظرك

اذا عرفت كيف تباشر أمورك .. عنـــدما تذهب الى نيويورك عليك أن تتجنب برودواى ، وان تتجنب عيـون الجماهير . ان غلطة كثير من الممثلين الناجحين هى رغبتهم فى أن يراهم الناس ويعجبوا بهم . الامر الذى لا يؤدى الا الى تحطيم صورتهم الخرافية فى الاذهان

ثم استطرد بصوت عميق ، رنان :

ـ انك ستدعى الى كل مكان ، فلا تقبل . اختر لنفسك صديقا أو صديقين ، ثم اقنع بأن تتصور الباقى . فما اكثر الممثلين الكبار الذين ارتكبوا غلطة قبول كل دعـوة اجتماعية . وهذا هو « جون درو » مثلا : كان محبوبا فى المجتمعات ، يذهب الى كل بيت ، فلم يعد أحد يذهب الى مسرحه . ولماذا يذهبون ما داموا يجدونه فى حجرات استقبـــالهم ؟ انك رجل قد سيطـــر على العالم ، وفى استطاعتك ان تظل تسيطر عليه اذا ظللت تقف خارجه !

وكانت لهجته نادمة وهو يقول ذلك

وعندما أتممت مونتاج كارمن ، سارعت على الفـــور باعداد حقيبة صغيرة ثم اتجهت رأسا من غرفة ثيابى الى قطار الساعة السادسة الذاهب الى نيويورك . وأرسلت برقية الى سيدنى أخبره فيها متى ســـأقوم ومتى سأصل ..

وكان القطار بطيئا ، يستغرق خمسة ايام كى يصـــل الى هناك . وكنت اجلس وحدى فى ديوان مفتوح .. اذ لم يكن احد فى تلك الايام يعرفنى بغير الماكياج الكوميدى الذى استخدمه . وبينما نحن نخترق الطريق الجنـوبى متجهين الى اماريللو « بولاية تكساس » ، لنصــلها فى السابعة مساء .. قررت أن احلق ذقنى . ولكن غيرى من المسافرين كانوا قد سبقونى الى الحمام ، فكان على

لهذا ان انتظر . ونتيجة لذلك وصل القطار الى اماريللو وانا ما ازال فى ثيابى الداخلية

وبينما القطار يدخل المحطة ، أحاطت بنا فجأة هالة من شباك الحمام فرأيت زحاما هائلا يتماوج فيها ، واعلاما ورايات مطوية ومفرودة ، تصل ما بين الاعمدة والابراج .. بينما على الرصيف عدد من الموائد الطويلة المثقلة بالمرطبات .. فقلت لنفسى لابد انه احتفال بتوديع او استقبال شخصية محلية ذات نفوذ ، ومضيت اصبن ذقنى . ولكن الهرج ازداد ، ثم بدأت اسمع بوضوح اصواتا تقول :

ــ اين هو ؟

ثم داهم القطار فيضان من الناس يركض ذاهبا عائدا فى الممرات وهو يصيح :

ــ أين هو ؟ اين شارلى شابلن ؟

فأجبت :

ــ نعم

ــ بالنيابة عن عمدة اماريللو وتكساس ، وكافة المعجبين بك ، ندعوك الى تناول الشراب والمرطبات معنا

فأصابنى الذعر . وصحت من وراء رغوة الصابون :

ــ بحالتى هذه ؟ لا استطيع !

ــ أوه .. لا تلق بالا الى شىء يا شارلى . ما عليك الا أن ترتدى الروب وتقابل الجماعة

فأسرعت اغسل وجهى على استعجال . ولبست قميصا وربطة عنق ، ثم خرجت وانا أزرر جاكتتى ، وذقنى نصف محلوق

واذا بالهتافات تستقبلنى . وحاول العمدة ان يتكلم :

ـ مستر شابلن ! بالنيابة عن معجبيك فى اماريللو ...
ولكن صوته تبدد فى الهتافات المتواصلة . فعاد يبدأ من جديد :
ـ مستر شابلن ! بالنيابة عن معجبيك فى اماريللو ...
وهجم الزحام عندئذ فدفع بالعمدة نحوى ، والتصقنا معاً بالقطار ، وعصرنا حتى لم يعد بد من التخلى عن خطاب الترحيب فى سبيل السلامة الشخصية
وصرخ البوليس :
ـ ابتعدوا !
وراح يشق لنا طريقا بين الزحام
وفقد العمدة حماسه للمسألة كلها ، وقال لى وللبوليس بشىء من الضيق :
ـ حسنا . دعنا نفرغ من هذا الامر يا شارلى حتى تستطيع ان تعود الى القطار
وبعد معركة شاملة حول الموائد ، بدأت الامور تهدأ ، وصار فى أستطاعة العمدة اخيراً ان يلقى خطابه . فقرع المائدة بملعقته وقال :
ـ مستر شابلن . ان اصدقاءك فى اماريللو ، تكساس ، يريدون ان يعبروا عن تقديرهم لكل ما منحتهم من سعادة، بدعوتك الى تناول ساندوتش وزجاجة كوكاكولا معهم
وبعد ان فرغ من تقريظه لى ، سألنى ان القى كلمة قصيرة . والح على ان اقف فوق احدى الموائد ، حيث تعثر لسانى بكلمات معناها اننى سعيد بوجودى فى اماريللو ، واننى دهشت لهذا الترحيب الرائع المثير الى حد اننى سأذكره الى آخر ايام حياتى .. الخ
ثم جلست وحاولت ان اتحدث الى العمدة . وسألته كيف علم بقدومى .. فقال :

ـ عن طريق موظف التلغراف

واوضح لى كيف ان البرقية التى ارسلتها الى سيدنى قد حولت الى اماريللو ، ثم الى مدينة كانساس ، وشيكاغو ، ونيويورك . وكيف ان موظفى التلغراف أبلغوا النبأ الى الصحافة

وعندما عدت الى القطار جلست متواضعا فى مقعدى ، ولبثت لحظات وفى ذهنى فراغ مطلق . واذا بالعربة كلها تتحول الى مرجل من البشر يعبرون الممر ذاهبين عائدين ، يحملقون ويضحكون . ولكن ذهنى لم يستطع أن يهضم هذا الذى حدث فى أماريللو ، أو أن يستمتع به . فأعصابى كانت أكثر توترا من أن تسمح لى بذلك . ولبثت فى مكانى مشدودا ، وسعيدا ، ومكتئبا ، فى وقت واحد .. !

وقبل أن يغادر القطار المحطة تلقيت عديدا من البرقيات تقول احداها : مرحبا يا شارلى ، نحن فى انتظارك فى مدينة كانساس . وتقول أخرى : فى انتظارك عندما تصل الى شيكاغو عربة ليموزين لتحملك ما بين المحطتين . وتقول ثالثة : أتسمح بقضاء ليلة فى ضيافة فندق بلاكستون ؟

وعندما اقتربنا من مدينة كانساس ، كان الناس محتشدين على جانبى الخط الحديدى . يهتفون ويلوحون بقبعاتهم ..

أما محطة كانساس نفسها ، فكانت قد خنقتها كتلة صلبة من البشر ، والبوليس يحاول بصعوبة أن يسيطر على جماعات أخرى تتوافد فى الخارج . ووضع لى سلم خشبى كى أصعد عليه وأظهر للناس على سطح العربة

ووجدت نفسى مرة أخرى أكرر نفس الكلمات التقليدية

التى ألقيتها فى أماريللو • كما وجدت مزيدا من البرقيات فى انتظارى : هل سأتفضل بزيارة المدارس والمؤسسات؟ فحشرت هذه البرقيات جميعا فى حقيبتى كى أجيب عليها من نيويورك

ومن مدينة كانساس الى شيكاغو ، ظهر الناس مرة أخرى محتشدين عند المزلقانات ، وفى الحقول ،يلوحون للقطار وهو يمر بهم • وأردت أن أستمتع بهذا كله على سجيتى ، ولكننى شغلت طول الوقت بفكرة أن العالم لابد قد أصابه الجنون ! فاذا كان عدد من الكوميديات الهزلية يمكن أن يثير كل هذه الضجة ، أليس معنى ذلك أن هناك شيئا من الزيف فى كل ما هو شهرة ؟ لقد كنت دائما أتصور اننى سأستمتع بانتباه الجماهير ، ولكن ها هو ذلك الانتباه – على العكس – يعزلنى عنها ، ويفرض على احساسا بالاكتئاب والوحدة ••

وفى شيكاغو ، حيث كان يجب أن أغير القطار والمحطة، وقفت الجموع متراصة على جانبى باب الخروج ، وحملتنى حملا الى عربة الليموزين التى نقلتنى الى فندق بلاكستون حيث خصصوا لى جناحا كاملا أستريح فيه قبل مواصلة السفر الى نيويورك

وفى هذا الفندق تلقيت برقية من قائد بوليس نيويورك يرجونى ان أنزل من القطار مشكورا عند الشارع رقم ١٢٥ بدلا من النزول فى المحطة الرئيسية كما كان مقررا •• لان جموع الناس كانت محتشدة فى انتظارى

وفى الشارع رقم ١٢٥ وجدت سيدنى ينتظرنى فى عربة ليموزين • وكان مضطربا ، مشدود الاعصاب ، وهو يتحدث الى همسا :

– ما رأيك ؟ لقد كانت الجموع منذ الصباح الباكر

تتوافد على المحطة . وكانت الصحافة تصدرنشرة يومية منذ غادرت لوس انجلس !

واطلعني على نسخة من احدى الصحف تعلن بالبنط العريض الاسود : « انه هنا ! » . كما اطلعني على عنوان آخر « شـــــارلي يتخفى ! » . وفي الطريق الى الفندق أخبرني انه وصــل الى اتفاق مع « اتحـــــاد الافــلام المشتركة » على ٦٧٠ الف دولار تدفع بواقع عشرة الاف دولار اسبوعيا . و١٥٠ الف دولار اضافية تدفع عنــد توقيع العقد بعد أن اجتاز الكشف الطبي لشركة التأمين. وقال لي سيدني ان لديه موعدا للغداء مع المحامي سيشغله بقية النهار ، وانه لهذا سيتركني في فندق بلازا ـ حيث حجز لي غرفة ـ ثم يعود ليراني في الصباح

ووجدت أنني « الآن صرت وحدي » كما قال هاملت، فمضيت ذلك المساء اتجول في الشوارع واتفرج عــلى واجهات المحال التجارية ، واقف عند النواصي بلا هدف. ما هذا الذي يحــدث لي الان ؟ ها انا في قمة نجاحي ، مرتديا ثيابي كاملة ، ولا أجد مكانا أذهب اليه ! كيف يتأتى للانسان ان يعرف الناس ؟ ان يعرف اشخاصا يستمتع بمعرفتهم ، كان يبدو كأنما كافة البشر يعرفونني ، بينما لا أعرف انا أحدا . وانطويت على نفسي ، أرثي لحالي ، وقد سيطرت على نوبة من الاسى . وتذكرت ممثلا ناجحا في شركة كيستون قال لي ذات مرة :

ــ والان قد وصلنا يا شارلي .. ما قيمة كل هذا ؟

فأجبته :

ــ وصلنا الى اين ؟

ثم تذكرت نصيحة نات جوردين :



**منظر : (( من فيلم .. الطفل ))**

ـ تجنب برودواى ..

وبرودواى كانت ـ فيما يتعلق بى ـ صحراء . ووجدت نفسى افكر فى الاصدقاء القدامى الذين اتمنى لو القاهم وانا متوج بهذا النجاح العظيم . ترى هل عاد لى أصدقاء قدامى فى نيويورك ، او فى لندن ، او فى اى مكان آخر ؟ كنت فى حاجة الى جمهور من نوع خاص .. هيتى كيلى مثلا . فانا لم اسمع شيئا من انبائها منذ دخلت حقل السينما . وكان يسرنى كثيرا ان ارى كيف يكون رد الفعل عليها

وكانت هيتى فى ذلك الوقت تقيم فى نيويورك مع شقيقتها مسز فرانك جولد . فقطعت الطريق على قدمى الى رقم ٨٣٤ بالشارع الخامس ، وكان هذا عنوان

اختها . ووقفت أمام البيت اتساءل عمـــا اذا كانت بالداخل ، ولكنني لم اجرؤ على طرق الباب . وقلت لنفسي انها على اية حال قد تخرج فالتقى بها «مصادفة». وانتظرت نصف ساعة في الشارع وانا اتمشى ذاهبا عائدا، ولكن البيت لم يخرج منه ولم يدخله أحد ..

الفصل الثانى عشر

# صاحب الملايين

* المغامرة .. التى لم تتم
* عندما يهرب منى الوحى
* وصرت من أصحاب الملايين

اكتفيت من نيويورك بالقدر الذى سمح به حظى ، ورأيت ان الوقت قد حان لعودتى قبل أن يفقد المهرجان طعمه فضلا عن اننى كنت فى لهفة الى بدء العمل بمقتضى عقدى الجديد ..

فلما عدت الى لوس انجلس اقمت فى « فندق الاسكندرية » ، عند تقاطع شارع مين والشارع الخامس. وكان افخر فندق فى المدينة ، يرزح بناؤه تحت اثقال من الزخارف وتزين أعمدة الرخام ونجفات الكريستال ردهته التى يتوسطها « بساط المليون دولار » ذو الشهرة الخرافية .. كعبة الصفقات السينمائية الكبرى . وكان يطلق عليه هذا الاسم من باب المزاح أيضا بسبب الذين اعتادوا أن يقفوا عليه من اشباه السماسرة وماضغى التبغ وهم يتباحثون حول أرقام خرافية ..

على هذا البساط جمع « ابراهاسون » ثروته الكبرى من بيع الافلام الرخيصة التى كان ينتجها بأقل التكاليف ، عن طريق استئجار أى استديو واستخدام العاطلين من الممثلين . وكان هذا الطراز من الافلام يدعى انتاج « طابور الفقر » . وقد بدأ المرحوم هارى كوهن — مدير شركة كولومبيا — حياته العملية من هذا الطابور أيضا ..

وكان ابراهاسون رجلا واقعيا : يعترف بأن ما يعنيه ليس الفن ، وانما النقود وحدها . وكان يتكلم بلكنة

روسية ثقيلة . ويصيح أثناء الاخراج موجها خطابه الى البطلة :

ـ حسنا ادخلى من الجانب الورائى ( أى من الخلف ) اتجهى الآن الى المرآة وانظرى الى نفسك فيها .. أوه كم أنت جميلة ! تحركى الان هنا وهنـاك لمدة عشرين قدما ( يقصد المدة التى توازى دوران عشرين قدما من الفيلم)

وتكون البطلة عادة من النوع الناهد الصدر ، يكشف « الديكولتيه » الواسع الذى ترتديه عن قدر كبير ممـا بين النهدين . فيأمرها بأن تواجه الـكاميرا ثم تنحنى وتربط حذاءها ، أو تهز سرير طفل ، أو تربت على ظهر كلب . وبهذه الطريقة جمع « ابراهاسون » مليونين من الدولارات ، ثم اعتزل بكل حكمة !

وكان « بساط المليون دولار » هو الذى جاء ب « سيد جراومان » من سان فرانسسكو ليتباحث بشأن بنـاء مجموعته من دور العرض التى تكلفت مليون دولار .. ومع ازدهار المدينة ازدهر « سيد » أيضا . وكان مولعا بالدعايات الصارخة حتى أنه ذات مرة أثار الذعر فى انحاء لوس انجلس بعربتى تاكسى تطارد احـداهما الاخرى ، ويتبادل ركابهما اطلاق الرصاص ، وفى مؤخرة كل منهما لوحة كتب عليها « دنيا الجريمة .. بسينما جراومان .. سينما المليون دولار » !

كما كان مولعا أيضا بالتقـاليع . وكان من ابتكاراته المذهلة أن يدعو نجوم هوليوود لطبع أيديهم وأرجلهم على الاسمنت الطرى خارج دار العرض الصينية التى أقامها . والعجيب أنهم ـ لسبب ما ـ وافقوه . وصار ذلك شرفا للنجمة لا يقل أهمية عن شرف الحصول على الاوسكار !

في أول يوم وصلت فيه الى فندق الاسكندرية سلمني موظف الاستقبال خطابا من الممثلة الشهيرة مس « مودفيلي » التي كانت بطلة السير هنري ايرفنج ووليم جيلت . وفي هذا الخطاب كانت تدعوني الى حفلة عشاء ستقيمها لبافلوفا يوم الاربعاء في فندق هوليوود . افسررت كثيرا بالطبع . اذ بالرغم من أنني لم التق بالمس فيلي قبل ذلك ، فانني كنت قد رأيت صورها ملصقة على الجدران في كافة أنحاء لندن ، وكنت من المعجبين بجمالها ..

وفي اليوم السابق لموعد الحفلة طلبت من سكرتيري ان يستعلم تليفونيا عما اذا كان العشاء غير رسمي ، أم انني يجب ان ارتدي ربطة العنق السوداء ..

وسألت مس فيلي :

ــ من الذي يتكلم ؟

ــ سكرتير المستر شابلن . فيما يتعلق بعشائه معك مساء الاربعاء ..

فبدأ كأنها اصيبت بالذعر .. وقالت :

ــ أوه ! على الرحب والسعة .. عشاء غير رسمي

وعلى عتبة فندق هوليوود وجدتها تنتظر لترحب بي . فاتنة كما كانت دائما . وجلسنا نصف ساعة على الاقل نتحدث حديثا سطحيا ، حتى بدات اتساءل متى سيصل باقي الضيوف ..

واخيرا قالت :

ــ الا نتناول عشاءنا الان ؟

ولدهشتي الشديدة ، وجدت اننا نتناوله وحدنا !

وكانت مس فيلي ، فضلا عن فتنتها ، سيدة محافظة ،

فمضيت انظر اليها عبر المائدة وانا اتساءل ماذا يمكن ان يكون الدافع الى هذه السهرة المنفردة ، وتجاذبت رأسى مختلف الخواطر الخبيثـــة ومع أن مس فيلى بدت لى أرهف احساسا من أن تنطبق عليها تخميناتى غير المهذبة فأننى رغم ذلك اطلقت قرون اســـتشعارى محاولا ان استكشف ما الذى تتوقعه منى .. وقلت بحرارة شديدة:

ــ انها متعة ولاشك .. ان نتناول الطعام هكذا .. وحدنا ..

فابتسمت ببساطة ..

قلت :

ــ ما رأيك فى ان نسلى انفسنا بعد العشاء .. فنذهب الى ناد ليلى أو شىء من هذا القبيل ..

فعبرت سحابة من القلق على وجهها .. وقالت بعد تـــردد :

ــ اخشى أن يكون على ان أنام الليلة فى موعد مبكر . إذ اننى سأبدأ صباح غد بروفات ماكبث

فتخبطت قرون استشعارى . ووجدت نفسى عاجزا عن الفهم تماما . ولحسن الحظ وصل الطبق الاول عندئذ، فلبثنا لحظة نأكل فى صمت . كان كلانا يشعر أن هنـاك شيئا ما على غير مايرام .. وقالت مس فيلى فى تردد :

ــ اخشى ان تكون السهرة أقرب الى الكآبة بالنسبة اليك ..

فأجبت :

ــ أنها ممتعة الى أقصى حد

ــ من المؤسف انك لم تكن هنا منذ ثلاثة أشهر، فى حفلة العشاء التى أقمتها لبافلوفا ، وهى فيما أعلم صــــديقة لك . ولكنك عندئذ كنت فى نيويورك كما بلغنى

قلت وأنا انتزع بسرعة خطاب مس فيلى من جيبى :
ــ معذرة . .

ولاول مرة نظرت الى تاريخ الخطاب . . ثم قدمته اليها وأنا أضحك قائلا :

ــ لقد وصلت كما ترين متأخرا ثلاثة أشهر !

كان نادى لوس انجلس الرياضى ملتقى الصفوة من شخصيات المجتمع المحلى ورجال الاعمال . يجتمعون فيه فى ساعات الكوكتيل . وكان أشبه بأرض اجنبية

وفى هذا النادى كان شاب من ممثلى الادوار الثانوية يظهر عادة فى الصالون . . شاب منعزل . . جاء يجرب حظه فى هوليوود ، ولكنه لم يوفق . كان اسمه فالنتينو . وقد قدمه الى ممثل ثانوى آخر ، هو جاك جلبرت ثم لم أره بعد ذلك لمدة عام تقريبا ، قفز خلاله الى مستوى النجوم ، فلما قابلته بعد ذلك بدا متحرجا الى أن قلت له :

ــ ها أنت قد انضممت منذ اخر مرة الى جماعة الخالدين . .

فضحك وتخلى عن تحفظه ، وفتح قلبه تماما

وقد كان فالنتينو رجلا يغلب عليه طابع حزين . فهو يدخل فى نجاحه برفق ويبدو كأنه مثقل به . وكان ذكيا هادئا ، مجردا عن الغرور ، وله سلطان هائل على النساء ، ولكن ليس له حظ معهن ، حتى اللواتى تزوجهن كانت معاملتهن له أقرب الى ان تكون مهينة

فعلى اثر احدى زيجاته سرعان ما انشأت زوجته علاقة مع احد موظفى معمل التحميض ، حيث كانت تختبىء معه فى الحجرة المظلمة . والواقع انه لم يكن هناك من هو أكثر اغراء للنساء من فالنتينو ، ولم يكن هناك من خدعته النساء أكثر منه

شرعت الآن أتخذ العدة لتنفيذ عقدى ذى الستمائة والسبعين ألف دولار ، وقام مستر كولفين ـ الذى كان يمثل «الافلام المشتركة» ويتولى ادارة كافة الاعمال ـ باستئجار استديو فى قلب هوليوود . وبعد أن شكلت فرقة ملائمة تضم اونا بورفيانس ، واريك كامبل ، وهنري برجمان ، واليوت اوستن ، ولويد باكون وجون راند ، وفرانك جوكولمان ، وليو هوايت .. شعرت بالاطمئنان الى بدء العمل ..

وحقق فيلمى الاول « ماسح الارض » نجاحا عظيما لحسن الحظ . وكانت أحداثه تدور فى متجر أخرجت فيه مطاردة تجرى بواسطة سلم متحرك ، وقد علق سينيت عندما رأى الفيلم قائلا :

ـ لماذا بحق الجحيم لم نفكر أبدا فى سلم متحرك ؟

وسرعان ما بلغ نشاطى مداه ، فصرت أخرج فيلما من لفتين كل شهر

واتبعت « ماسح الارض » ب « رجل المطافىء » و « الشريد » و « الواحدة صباحا » و « الكونت » و « حانوت الرهونات » و « وراء الستار » و « الانزلاق على الجليد » و « الشارع السهل » و « الدواء » و « المهاجر » و « المغامر » واستغرقت هذه الافلام الاثنا عشر فى مجموعها ١٦ شهرا بما فى ذلك فترات التعطل بسبب الاصابة بالبرد وغيرها من المعوقات اليسيرة

وكان يحدث احيانا ان تتعثر القصة عند عقدة معينة اجد صعوبة فى حلها .. فأضطر عندئذ الى ارجاء العمل واحاول ان افكر وانا اتمشى ذاهبا عائدا فى حجرتى يخنقنى الغيظ ، او اجلس بالساعات وراء احد المناظر محاولا ان اقهر المشكلة ، ولكن منظر الممثلين او رجال الادارة وهم

يحملقون فى كان كفيلا وحده بارباكى خاصة وان الشركة هى التى تدفع تكاليف الانتاج ، والمستر كولفيد كان على الدوام حاضرا ليراقب سير العمل . فاذا ما مضى اليوم دون ثمرة ، تعمد أن «يصادفنى» أثنـــاء الخروج من الاستديو ، وحيانى بمرح مصطنع وهو يسأل :

ـ هل وجدتها ؟

ـ عليها اللعنة ! يبدو اننى انتهيت .. لم يعـــد فى استطاعتى ان افكر على الاطلاق

فيصدر صوتا اجوف ، يقصد به ان يكون ضـحكة ، ويقول :

ـ لاتقلق ، ستجدها

وكثيرا ما كان الحل يجىء فى نهاية اليوم بعد أن يستبد بى اليأس ، وأكون قد فكرت فى كل شىء وعدلت عنه . عندئذ يكشف الحل فجأة عن نفسه ، كما تزال طبقة من التراب عن ارض مكسوة بالرخام .. فأراها امامى ، تلك القطعة من الصوف التى كنت ابحث عنها .. ويزول كل توتر ، وتدب الحياة فى الاسـتديو . وآه لو ترى كيف يضحك عندئذ مستر كولفيد !

ولم يحدث فى اى فيلم اخرجته ان اصيب اى ممثـل اثناء العمل . فمشاهد العنف كان يسبقها دائما تدريب دقيق ، وترسم بدقة كخطوات الرقص . وكل صـــفعة على الوجه يستخدم فيها الخداع السينمائى ، ومهمـــا كان مدى الفوضى المطلوبة فى المنظر ، فكل فرد يعرف جيدا ماعليه أن يفعل ، وكل حركة لهـــا توقيت . ذلك أنه لا عذر يبرر أن يصـــاب احـــد ، لان العنف والـــزلازل والسفن الفــــارقة والكوارث وكافة انواع المؤاثرت فى السينما يمكن ان تحقق عن طريق خداع الكاميرا

وفى اعتقادى أن تنفيذ عقد «الافلام المشتركة» كان أسعد فترة فى حياتى العملية . فقد كنت خفيفا لا يثقلنى شيء ، فى السابعة والعشرين من عمرى ، وأمامى تنبسط آفاق خرافية ، وعالم فسيح ودور باهر، ولن يمضي وقت طويل حتى أصبح مليونيرا .. شيء يبدو أقرب الى الجنون . فالمال يتدفق فى خزائنى بلا توقف . والدولارات التى اقبضها عشرة الاف كل أسبوع تتراكم وتتحول الى مئات من الالاف . فأنا الان اساوى اربعمائة الف . والان اساوى خمسمائة الف ! وما كان فى استطاعتى ابدا أن اقتنع بأن هذا كله حقيقة

ومما لاشك فيه ان الناجحين من الناس يعيشون فى عالم مختلف . فالوجوه تضيء عندما اظهر . وبالرغم من حداثتى كانت ارائى تحمل على محمل الجد وكان معارفى على استعداد لعقد أحر الصداقات معى ، ومشاركتى الاعباء والمشاكل كأنما هم اقربائى . وكان هذا كله يرضى غرورى ، ولكن طبيعتى لاتستجيب الى مثل هذا التلاحم بالاخرين . فأنا أحب الاصدقاء كما أحب الموسيقى .. فى حين أن أكون مهيأ من الناحية النفسية ومثل هذا التخفف كان يؤدى بى طبعا الى فترات أجد نفسى وحيدا فيها ..

وذات يوم ــ بعد أن اشرف عقدى على نهايته ــ جاء اخى الى غرفة نومى بالنادى الرياضى ، ليعلن لى فى ابتهاج شديد :

ــ مبروك يا شارلى . لقد دخلت الان طبقة اصحاب الملايين . فقد عقدت لتوى صفقة بثمانية أفلام لحساب « فرست ناشنال » فى مقابل مليون ومائتى الف دولار .

كنت عندئذ خارجا لتوي من الحمام ، وواقفا بالفوطة حول خصري اعزف « حكايات هوفمان » على الكمان وغمغمت قائلا :

ـ هيه .. شيء جميل

فانفجر سيدني ضاحكا فجأة :

ـ سيصبح هذا جزءا من ذكرياتي : انت بهذه الفوطة حول ردفيك والكمان الذي تعزف عليه ، وتعليقك على نبأ تعاقدي على مليون دولار وربع !

على أن كل هذا الثراء الموعود لم يغير شيئا من أسلوب حياتي . صحيح انني الفت الثروة ، ولكنني لم اكن قد ألفت الانفاق . فالمال الذي أكسبه كان اسطورة.. كان رمزا مجسدا في أرقامه ، ولم يحدث أبدا أن رأيته بعيني . فكان لابد لهذا من أن افعل شيئا يثبت لي انني املكه ، وهكذا عينت لنفسي سكرتيرا ، ووصيفا ، وسيارة ، وسائقا . وذات يوم مررت امام نافذة محل لبيع السيارات ، فوقع بصري على سيارة لوكو موبيل ، وكانت تعد عندئذ أفضل سيارة في أمريكا .. وبدت لي اعظم وارفع من ان تكون معروضة للبيع . ومع ذلك دخلت الى المحل سائلا :

ـ كم ثمنها ؟

ـ اربعة الاف وتسعمائة دولار

قلت :

« لفها » لي ! ..

فذهل الرجل . وحاول ان يقاوم ولو قليلا مثل هذه الصفقة الفورية . وقال :

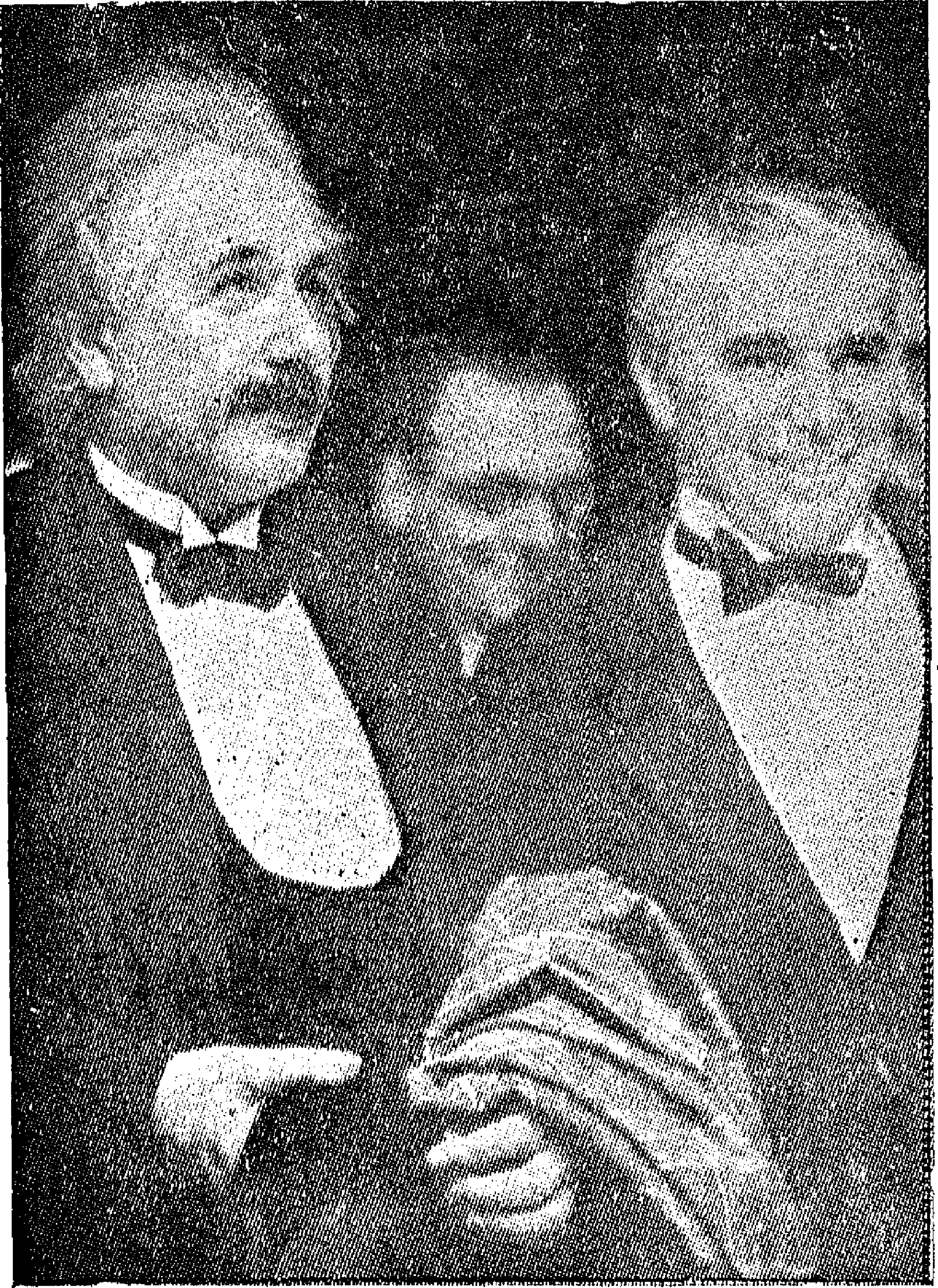
ـ الا تحب أن ترى الموتور ؟

فأجبت :

ــ يستوى عندى أى موتور .. فأنا لا أفهم فيها جميعا على أنني ضغطت بأبهامى على اطار العجلة لابدى شيئا من الخبرة

وكان دفع الثمن شيئا بالغ البساطة ، لم يكلفنى غير كتابة اسمى على قطعة من الورق . صارت العربة بعدها ملكى !

اما استثمار المال فكان معضلة لا أفهم عنها شيئا . ولكن سيدنى كان خبيرا بجميع اصطلاحاتها : فهو يعرف ما هى القيمة ، وأرباح رأس المال ، والسندات العادية والممتازة ، وجداول « أ » و « ب » ، والارصدة المحولة والكوبونات ، والضمانات المصرفية لبنوك الادخار . وكانت فرص الاستثمار مزدهرة فى تلك الايام . وقد ألح علي أحد مضاربى لوس انجلس ذات يوم ان ادخل معه شريكا فى عملية شراء مساحة ضخمة من الارض فى وادى لوس انجلس على ان يدفع كل منا مائتين وخمسين ألف دولار . ولو كنت قد قبلت وساهمت فى مشروعه لقفز نصيبى الى خمسين مليون دولار . اذ سرعان ما اكتشف البترول فى المنطقة ، وصارت من اغنى مناطق كاليفورنيا ..



مع اينشتاين : نظرية النسبية ولدت على أصابع البيانو !

الفصل الثالث عشر

# مع المشاهير

* أردت أن يضحكوا فازدادوا حزنا
* خطاب بالصينية .. وأنا لا أعرف الصينية !
* قبلات لبافلوفا

فى تلك الايام كان يجىء الى الاستديو كثير من المشاهير ..

كان يجىء « نيجنسكى » مع اعضاء فرقة الباليه الروسى .. وكان رجلا جادا ، جميل الطلعة ، له خدان بارزان ، وعينان حزينتان توحيان بأنه قسيس فى ثياب مدنية ..

وكنا عندئذ نصور فيلم « الدواء » . فجلس وراء الكاميرا يراقبنى وانا أخرج منظرا كنت اعتقد انه مضحك، ولكنه لم يبتسم أبدا . وكان المتفرجون الاخرون يتفرجون وهويزداد حزنا . وقبل انصرافه جاء يصافحنى ويقول لى فى صوته الاجش كم تمتع بعملى ، ويسألنى ان كان ممكنا ان ياتى مرة أخرى . فقلت له :

ـ بالطبع ..

وطوال يومين بعد ذلك ، ظل نيجنسكى ياتى ويجلس حزينا كما هو . وفى اليوم الاخير طلبت من المصور الا يضع فيلما فى الكاميرا ، لان وجود نيجنسكى الحزين سيدمر كل محاولاتى لكى اكون مضحكا . ومع ذلك فانه فى نهاية اليوم جاء يطرينى :

ـ ان فيلمك هذا اقرب الى الباليه .. وانك لراقص .. ولم أكن قد شاهدت بعد الباليه الروسى ، أو أى باليه

آخر لكي أفهم ما يقول .. غير أنني في نهاية الاسبوع دعيت الى حضور الماتينيه ..

وكانت الرقصة الاولى هي « شهر زاد » .. فكانت استجابتي معها سلبية الى حد ما .. اذ كان فيها من التمثيل اكثر مما يجب . كما ان موسيقى « رمسكي ـ كورساكوف » كانت ـ في رأيي ـ مسرفة في التكرار . اما الرقصة الثانية فكانت « خطوة الاثنين » بمصاحبة نيجنسكي . واذا بمس من الكهرباء يصيبني منذ اللحظة التي ظهر فيها ، ذلك انني رأيت في حياتي قليلامن العباقرة ونيجنسكي كان واحدا منهم . كان رجلا مغناطيسيا ، يشبه الآلهة ، ويوحي أسـاه بأحاسيس من عالم آخر فكل حركة منه شعر ، وكل قفزة تحلق في آفاق خيـال غريب ..

فلما طلب اثناء الاستراحة ان اجيء الى غرفته ، وجدت نفسي عاجزا عن الكلام . فما يستطيع الانسان ان يعصر يديه ويعبر بالكلمات عن تقديره لفن عظيـم . ولبثت في غرفته صامتا ، أراقب وجهه الغريب في المرآة وهو يضع ماكياج « أمسيةالحيوان » ، راسما دوائر خضراء حول خديه . اما هو فكان فظا في محاولته ادارة الحديث معي ، يسأل اسئلة لا قيمة لها عن افـلامي ، وأجيب أنا عن كل سؤال بنصف كلمة

ودق جرس المسرح في نهاية الاستراحة ، فاستأذنت أن أعود الى مقعدي . ولكنه قال :

ـ انتظر ريثما ترى : « بافلوفا » ..

وكانت بافلوفا تؤثر في دائما تأثيرا عميقا . وكان فنها ، رغم التماعه ، ذا طبيعة شاحبة ، وضاءة .. في رقة أوراق الوردة البيضاء . فاذا رقصت كانت كل حركة تقوم بها

مركز المسرح . وسواء كانت مبتهجة او حزينة ، فانها منذ اللحظة التي تدخل فيها كانت تجعلني اشعر بالرغبة في البكاء . فقد كانت تمثل لي مأساة الكمال !

وكنت قد عرفت « بافي » ـ كما يدعوها الاصدقاء ـ أثناء وجودها في هوليوود لانتاج فيلم في ستوديوهات يونيفرسال ، وانعقدت بيننا صداقة قوية . وانها لمأساة ان سرعة الافلام القديمة لم تسمح باظهار شاعرية رقصها . فبسبب هذه السرعة حرم العالم من تسجيل فنها العظيم ..



وقد حدث ذات مرة أن أقامت لها القنصلية الروسية عشاء رسميا كنت أحد المدعوين اليه . وكانت المناسبة «دولية» ووقورة جدا . وعلى مائدة الطعام شربت أنخاب والقيت خطب بعضها بالفرنسية وبعضها بالروسية . واعتقد انني كنت الانجليزي الوحيد الذي وجهت اليه الدعوة . على أنه قبل أن يجيء دوري في الكلام ألقى أحد الاساتذة الجامعيين خطابا رائعا باللغة الروسية . وبينما هو يلقيه انفجر فجأة يبكي ، وانسابت دموعه ، واتجه الى بافلوفا وقبلها بحرارة شديدة ، وأدركت عندئذ أن أية محاولة للكلام من جانبي ستبدو بعد ذلك هزيلة . فنهضت وقلت أنه لما كانت لغتي الانجليزية قاصرة تماما عن التعبير عن عظمة فن بافلوفا ، فانني سأتكلم بالصينية ! ومضيت اقلد الرطانة الصينية بانفعال متزايد كما فعل الاستاذ ، مختتما حديثي بتقبيل بافلوفا بحرارة اشد مما فعل هو ، ومستعينا بفوطة اخفيت بها رأسينا وانا مستمر في تقبيلها . فضج المدعوون بضحكات صارخة ، وذاب جليد الوقار في الحفلة ..

اما سارة برنار ، فكانت تمثل في مسرح « اورفيم » .

وكانت بالطبع قد شاخت كثيرا ، وفى نهاية مجدها . ولهذا فليس فى استطاعتى ان اقدم تقييما صادقا لتمثيلها . على أنه عندماجاءت «ديوز» الى لوس انجلس ، التى لم يستطع حتى سنها المتقدمة ولا اقتراب نهايتها ان يخفيا عبقريتها المتوهجة . كان يشترك معها عدد من الممثلين الايطاليين الممتازين . وقبل ظهورها كان احدهم ـ وهو ممثل وسيم شاب ـ قد سيطر على المسرح بأدائه الممتاز . فوجدت نفسى اتساءل : كيف ستتمكن « ديوز » يا ترى من التفوق عليه ؟ وبعد قليل ظهرت « ديوز » من بوابة فى اقصى اليسار دون ادنى جلبة . وتوقفت عند سلة من زهور الكريزانتيم كانت موضوعة فوق بيانو كبير ، وبدأت بهدوء تعيد تنسيقها . وسرت همهمات فى القاعة ، وتحول انتباهى على الفور عن الممثل الشاب وتركز على « ديوز» ، ولم تنظر هى لا الى الممثل الشاب ، ولا الى أية شخصية أخرى على المسرح ، بل واصلت بهدوء تنسيق الزهور ، واضافة زهور اخرى حملتها معها . فلما فرغت من ذلك مشت ببطء عبر المسرح حتى بلغت المقدمة ، وجلست فى مقعد ذى مسندين بجوار المدفأة ، ومضت تتأمل اللهب . ولم تنظر الى الرجل الشاب الا مرة واحدة . ولكن كل حكمة الانسانية وآلامها كانت فى هذه النظرة . ثم عادت تنصت صامتة ، وتدفىء يديها الجميلتين الحساستين ..

وبعد ان فرغ هو من القاء خطابه الحماسي ، بدأت تتكلم بهدوء وهى تنظر الى النار . فلم تكن فى القائها تلك النبرة التمثيلية المشرقة ، وانما كان صوتها ينساب من وراء جمر من الاسى العنيف . ولم افهم مما تقول كلمة واحدة ، ولكننى تحققت من انى فى حضرة أعظم ممثلة شهدتها فى حياتى ..

لم يكن عبثا ان دوجلاس فيربانكس قد تمتع دائما بحب

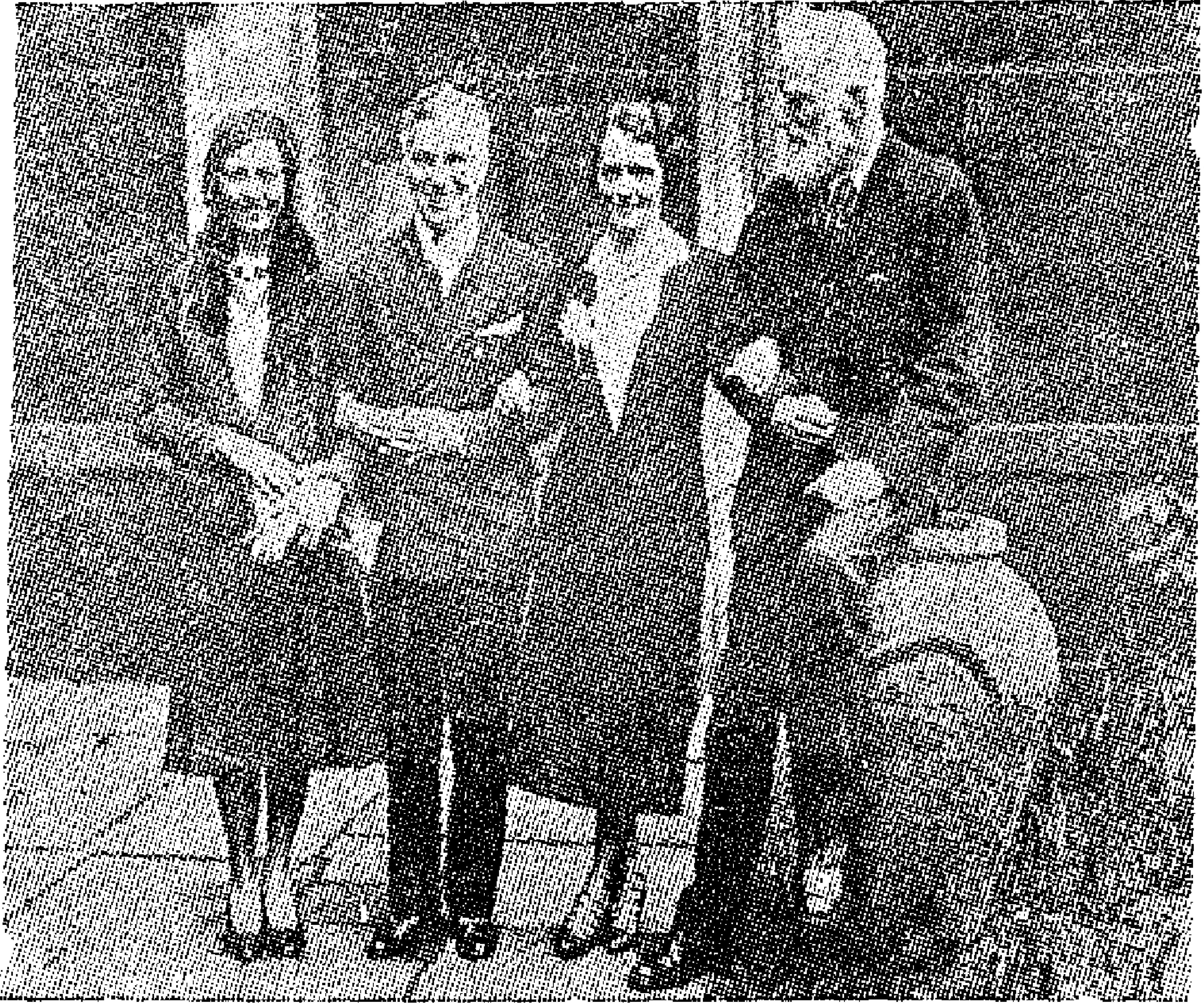
الجمهور ، واستثار خيـــاله .. فروح أفلامه ، وتفاؤلها، وتفاؤها ، كانت تتفق كثيرا مع الذوق الامريكى .. أو فى الحقيقة مع ذوق العالم كله . وكان هو يتمتـــع بجاذبية مغناطيسية ، وسحر خاص ، وحيوية أصيلة كالاطفـــال يعدى بها الجمهور

ومع أن «روج» كان محبوبا الى حد فائق ، فانه كان يطرى بكرم مواهب غيره من الناس ، ويتواضع فيما يتعلق بمواهبه هو . وكثيرا ما كان يقول ان مارى بيكفورد وانا نتمتع بالعبقرية ، اما هو فلا يتمتع الا بموهبة محدودة . ولكن الامر لم يكن بالطبع كذلك . فدوجلاس كان رجـــلا خلاقا ، وكانت أعماله دائما على مستوى عظيم

وقد بنى مناظره من اجل فيلم « روبن هود » على عشرة أفدنة . وكانت تشمل قلعة ضخمة ذات ابراج ، وكوبرى متحركا ، اكبر من اية قلعة اخرى فى العالم . وعندما دعانى باعتزاز كبير الى مشاهدة الكوبرى المتحرك الضخم قلت :

ــ عظيم . انه يصلح افتتاحا رائعا لاحدى كوميدياتى : يهبط الكوبرى الضـــخم حتى يلامس الارض ، ثم اعبره لأسرح القطة وآخذ اللبن واعود الى الداخل !

وكان دوجلاس أول نجم أقام فى «بيفرلى هيلز» ، مسكن معظم النجوم الان ، وكثيرا ماكنا ننخرط ــ فى تلك الأيام ــ فى المناقشات الفلسفية . اذ كان هو يعتقد أن حياتنا مقدسة وأن مصيرنا هام . وما زلت أذكر أمسية صيف حارة صعدنا فيها فوق خزان مياه ضخم وجلسنا هناك نتحدث وامامنا خلاء بيفرلى الشاسع . وكانت النجوم تتـــألق بأضواء غامضة ، والقمر مشرقا ، وانا اقول ان الحيـــاة لا معنى لها . فأجابنى بحرارة وهو يشير بيده اشـــارة تشمل السماء كلها :



مع برنارد شو وليدى استور ، وآمى جونسون ... فى انجلترا

ـ انظر ! انظر الى القمر ! أنظر الى هذه الاسراب من النجوم ! لابد أن هناك مبررا ومعنى لكل هذا الجمال . لابد أنه يحقق هدفا ما ! لابد انه يرمى الى الخير ، واننى أنا وأنت جزء من هذا الخير !

ثم التفت نحوى بالهام مفاجىء :

ـ لماذا تظن انك منحت هذه الموهبة ، ووسيلة التعبير الرائعة ـ السينما ـ التى تصل الى ملايين الناس فى كافة انحاء العالم

قلت :

ـ لماذا منحت أيضا لاخوان وارنر ولويس ب . ماير ؟

فضحك دوجلاس

والحق ان رومانتيكيته كانت مرضا عنده لا شفاء منه. وكان أحيانا ـ عندما أقضى معه عطلة نهاية الاسبوع ـ يوقظنى فى الثالثة صباحا من نوم عميق ، لكى اشاهد من خلال الضباب فرقة من هاواى تعزف فى الوادى «سيرنارا مارى » ! . .

وكان دوجلاس ايضا من الطراز الرياضى من الناس ، يقود سيارته الكاديلاك المفتوحة وفى مقعدها الخلفى كلاب من طراز الوولف وكلاب بوليسية . وكان يحب أمثال هذه الاشياء حبا أصيلا . .

كانت هوليوود تتحول بسرعة الى كعبة للكتاب والممثلين والمفكرين . وكان المؤلفون المشهورون يتوافدون عليها من كافة أنحاء العالم : سير جلبرت باركر ، وليم لوك ، ركس بيتش ، جوزيف هرجسهيمر ، سومرست موم ، جوفرينر موريس ، ايبانيز ، اريث وارتون ، كاتلين فوريس ، وكثيرون غيرهم

على ان سومرست موم لم يعمل مطلقا فى هوليوود ، بالرغم من ان الطلب على قصصه كان شديدا . . الا انه ذات مرة اقام فيها عدة أسابيع قبل رحلة الى الجزر الجنوبية . . حيث اعتاد ان يكتب روائع قصصه القصيرة . وقد روى لى ولدوجلاس على مائدة الطعام احدى هذه القصص ـ سارى تومسون ـ التى كان يقول انها مبنيةعلى أحداث واقعية ، والتى حولها فيما بعد الى مسرحية بعنوان «الامطار» . وقد كنت دائما اعتبر «الامطار» مسرحية نموذجية . .

قابلت الينور جلين اثناء عشاء اقامته لعشرة اشخاص فى فندق هوليوود . وكان مقررا ان نلتقى فى جناحهـا الخاص لتناول الكوكتيل قبل ان نقصد الى صعة الطعام . ووصلت انا قبل الاخرين ، فمدت يديها تحتوى بينهمـا وجهى ، ونظرت بعمق فى عينى وهى تقول :

ـ آه ! دعنى اتأملك جيدا . يا للغرابة كنت أظـن ان عينيك بنيتان . ولكن لونهما بالغ الزرقة !

ومع ان تصرفها كان مربكا لى فى البداية ، فاننى اعجبت بها كثيرا بعد ذلك

وكان مشهورا عن الينور انها عاطفية ، ولكن الحقيقـة انه لم يكن هناك من هو أكثر اتزانا منها . وكانت مفهوماتها الغرامية فى الافلام ساذجة كمفهومات البنات الصـغيرات نساء يتحسسن بأهدابهن وجوه عشاقهن ، ويتهالكن على أبسطة من جلد النمر

وكانت الثلاثية التى كتبتها لهوليوود ثلاثية متناقضـة الزمن : فالجزء الاول اسمه « ثلاثة أسابيع » ، والثـانى « ساعته » ، والثالث «لحظتها» . اما عقدة القصة فتـدور حول سيدة مشهورة ـ تؤديها جلوريا سوانسون ـ مضطرة الى الزواج من رجل لا تحبه . وبينما هى فى الغـابات الاستوائية تخرج ذات يوم وحدها على ظهر جوادها للبحث عن زهرة نادرة . وفى اللحظة التى تميل فيها على الزهرة يلدغها ثعبان قاتل فى نهدها مباشرة . وتطبق جلوريا بيديها على صدرها وتصرخ ، فيسمعها الرجل الذى تحبه اثناء مروره ـ مصادفة ـ على مقربة من المكان . وكان يؤدى هذا الدور تومى ميجان . فيظهر من خلال احدى الاشجار سائلا :

ـ ماذا حدث ؟



مع غاندى فى لندن

فتشير الى الثعبان السام قائلة :

ــ لقد لدغت !

ــ اين ؟

فتشير الى صدرها

عندئذ يقول تومى :

ــ تلك هى أخطر الحيات جميعا ــ يقصد بذلك الثعبان لا المرأة ــ هيا أسرعى .. يجب أن نفعل شيئا لا يجوز أن تضيع لحظة واحدة

ولكنها على مسافة اميال من اقرب طبيب ، والعلاج المعتاد عن طريق ربط الذراع لوقف الدورة الدموية لايخطر

ببال أحد .. واذا به فجأة يرفعها بين ذراعيه ، ويمزق قميصها عند الخصر ، ويقرب اليه كتفيها العاجيتين ، ثم يستدير مخفيا اياها عن الكاميرا المفتوحة الوقحة ، ويميل عليها ليمتص السم بفمه ، ويبصقه بين لحظة وأخرى والنتيجة لهذه العملية الجراحية تتزوجه !

## الفصل الرابع عشر

# المتاعب على القمة

* ثم جاءت المفاجأة ..
* الطريقة اليائسة فى اخراج الأفلام
* كيف تكون الجنازة مضحكة ؟

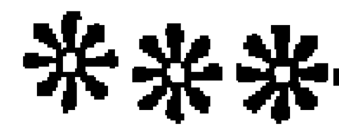
كنت فى لهفة بعد انتهاء عقدى مع شركة ليوتوالى الى بدء العمل مع شركة فرست ناشونال . ولكن لم يكن لدينا استديو . فقررت أن اشترى أرضا فى هوليوود وابنى لنفسى واحدا وكان موقعه عند تقاطع « صن ست » و « لابريا » .. وكان مزودا ببيت جميل من عشر غرف، وخمسة افدنة من اشجار الليمون والبرتقال والخوخ . وبنينا فيه وحدة نموذجية كاملة ، بما يتبعها من معامل للتحميض والانتاج ، ومكاتب للادارة ..

وبينما العمل يجرى فى بناء الاستديو ، قمت برحلة الى هونولولو مع « أونا بورفيانس » بهدف الاستجمام لمدة شهر . وكانت هاواى بلادا جميلة فى ذلك الوقت . ولكن احساسى بأننى على مسافة آلاف الاميال من وطنى كان يثير فى نفسى الكآبة . وبالرغم من جمال المكان كنت سعيدا بالعودة منه ، اذ كنت اشعر كأننى سجين داخل زنبقة !

ولم يكن هناك مفر بالطبع ـ فى وجود فتاة جميلة كأونا بورفيانس ـ من نشوء علاقة تشغل قلبى . وكنا نحمل هذه العلاقة على محمل الجد ، وفى ثنايا ذهنى فكرة باننا ـ ذات يوم ـ قد نتزوج . على انه كانت لى تحفظات بشأن أونا ، اذ لم اكن واثقا من شعورها الحقيقى ، ولم أكن ـ نتيجة لذلك ـ واثقا من شعورى انا

وفى عام ١٩١٦ كنا لانكاد نفترق . وصرنا نظهر معا فى

كافة السهرات وحفلات الصليب الاحمر .. حيث كانت اونا عادة تصاب بالغيرة ، وتعبر عنها بطريقة ذكيـــــة غير مباشرة . فما تكاد احداهن تبدى اهتماما زائدا بى حتى تختفى اونا ، ويأتى من يخبرنى بأنها اصيبت باغماءة ، وانها تطلبنى ، فأذهب على الفور ، وأظل معها بالطبع بقيـــــة السهرة



ثم جاءت المفاجأة ذات ليلة أثناء سهرة «فانى وارد» .. حيث كان المكان محتشدا بأسراب من الحســـناوات والشباب . اذ اغمى كالعادة على اونا ولكنها عندما افاقت سألت عن «توماس ميجان» نجم بارامونت الوسيم ! ولم اعرف ذلك الا فى اليوم التالى من فانى وارد . اذ انهـــا كانت تعلم بمشاعرى تجاه أونا . ولم يرضها ان تدعهـــا تعبث بى ..

ولم استطع ان اصدق . واصيبت كرامتى بجرح عميق وثرت ثورة عنيفة . وقلت لنفسى لو صح هذا فستكون النهاية لعلاقتها . مع ذلك احسست اننى لن اســـتطيع الاستغناء عنها هكذا فجأة . اذ سيكون الفراغ الذى تخلفه كبيرا . وبدأت استعيد فى ذهنى ماذا كان يعنى كل منـــا بالنسبة للآخر ..

وفى اليوم التالى وجدت نفسى عاجزا عن العمـــــل . واتصلت بأونا بعد الظهر لاطلب تفسيرا منها وفى نيتى ان أشخط وأنطر .. فاذا بكبريائى يجعلنى بدلا من ذلك أتخذ موقفا ساخرا ، واجعل من المسألة نكتة :

ـ سمعت انك سألت عن الاسم الخطأ فى حفلة فانى وارد . لابد ان ذاكرتك اصابها الضعف !

فضحكت فى شىء من الارتباك :

ـ ما هذا الذى تتحدث عنه ؟

كنت أطمع أن تنكر بحرارة . ولكنهـــا بدلا من ذلك تصرفت بذكاء . وسألت من الذى قال هذا الكـــــــلام الفـــارغ ..

فأجبتها :

ــ لا أهمية لذلك . ولكننى أظن انى اهم لديك من ان تجعلى منى اضحوكة أمام الناس

فظلت هادئة جدا . وأصرت على ان ما ســـــــمعته كاذيب ..

وأردت ان أحرجهـــــا بالتظاهر بعدم الاكتراث فقلت :

ــ لست فى حاجة الى ان تخفى عنى شيئا . فأنت حرة تفعلين ما تشائين . اننا لسنا زوجين . وما دمت تقومين بعملك على ما يرام فهذا كل ما يهمنى

فوافقت تماما ، وبارتياح ، على كل ماقلت . فهى لاتريد أن نقحم أى شىء على علاقتنا فى العمل . وقالت اننا سنظل دائما صديقين .. الامر الذى جعلنى ازداد شـــــــعورا بالتعاسة ..

وظللت أتحدث أكثر من ساعة بطريقة عصبية ، مرتبكة، على أمل ان أجد عذرا للصلح . وكما هى العادة فى مثـــل هذه الاحوال أحسست باهتمامى بها يتجـــدد ، وانتهت المحــــــادثة الى دعوتى اياها للعشـــــــاء بحجة مناقشـــــة الموضوع ..

وترددت هى . فألححت عليها . بل فى الواقع رجوتها وناشدتها ، وقد سقطت كافة حصون كبريائى . الى ان وافقت اخيرا ، وتناولنا فى تلك الليلة عشـــــــاء من البيض واللحم أعدته فى شقتها

***

وتم نوع من الصلح جعلنى أهدأ حالا . ومكننى على الاقل من استئناف العمل فى اليوم التالى . على انه ظـــل

يراودنى احساس بالاسى والندم . وبدأت الوم نفسى على أننى كثيرا ما اهملتها . ومزقتنى الحيرة وانا افكر : هل اقطع معها علاقتى نهائيا ؟ اليس محتملا ان تكون حكاية ميجان هذه غير صحيحة ؟

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع جاءت أونا الى الاستديو لتتسلم مرتبها ، فالتقيت بها مصادفة أثناء خروجها . وكان معها صديق قدمته الى ببساطة :

ــ هل تعرف تومى ميجان ؟

فصدمت . اذ بدت اونا فى تلك اللحظة القصيرة غريبة تماما عنى ، كما لو كانت ترانى لاول مرة ! وقلت :

ــ بالطبع . كيف حالك يا تومى . فارتبك قليلا . ولكننا تصافحنا وتبادلنا كلمات المجاملة المعتادة ، وانصرفا معا بعد ذلك



ولكن الحياة على أية حال مليئة بألوان الصراع التى لا ترحم الانسان . فاذا لم تكن مشكلة الحب فهى مشكلة أخرى .. النجاح برغم روعته يقتل أعصاب الانسان بما يتطلبه من جهد للاحتفاظ بتلك العذراء المتقلبة التى يدعونها « الشهرة » . ومع ذلك فقد كان العمل عندئذ عزائى الوحيد ..

الا ان التأليف والتمثيل والاخراج لمدة اثنين وخمسين اسبوعا فى العام كان شيئا مجهدا ، يحتاج الى انفاق طاقة عصبية هائلة . حتى لقد كنت بعد الانتهاء من أى فيلم اشعر بالارهاق والانهيار ، واضطر الى التزام فراشى يوما كاملا ..

على اننى كنت سريعا ما استعيد نشاطى . ففى الصباح التالى وأنا أقود سيارتى فى اتجاه الاستوديو أفاجأ بذهنى

يتحفز من جديد ، وبفكرة غامضة فى راسي اصدر الامر باقامة مناظر معينة . وبينما العمل يجرى فيها يجيء المدير الفنى يستعلم عن بعض التفاصيل ، فأكذب عليه وأدعى أننى اريد بابا هنا وبابا هناك . وما كان اكثر الافلام التى بدأتها بهذه الطريقة اليائسة

وكان ذهنى احيانا يلتوى كالحبل المعقود ، واصبح فى حاجة الى شيء من الاسترخاء . وعندئذ كانت تكفينى فى العادة سهرة خارج البيت . اما الخمر فلم أكن الجأ اليها لكسب النشاط . بل الحقيقة اننى أثناء العمل كنت أومن بأن اى تنشيط صناعى من اى نوع سيؤثر على صفاء ذهنى . وليس هناك ما يحتاج الى يقظة عقلية تامة كما تحتاج صياغة واخراج الكوميديا

اما طاقتى الجنسية ، فقد كان معظمها ينفق فى عملى . ذلك اننى كنت رجلا منظما ، واحمل عملى على محمل الجد وكنت كبلزاك ، الذى كان يؤمن بأن ليلة من الاستمتاع الجنسي معناها ضياع صفحة من روايته . كذلك كنت أعتقد أنا أنها ستعنى ضياع يوم من العمل الجيد

***

انتهت قصة غرامى نهاية فاشلة .. اذ انصرفت أونا بورفيانس عنى ، وتعلقت بغيرى ووجدت ان عزائي الوحيد لن يكون الا فى العمل . فانصرفت اليه . افرغ فيه كل طاقتى ..

كان اول افلامى فى الاستديو الجديد « حياة كلب » . وكان فى القصة عنصر من السخرية ، يتماثل فى المقابلة مابين حياة الكلب وحياة الصعلوك الآدمى . اذ كنت قد بدأت أفكر فى الكوميديا بمنطق تركيبى ، وأعى بنيانها «المعمارى» فكل حدث يقود الى الحدث التالى ، وجميعها ترتبط بخط عام واحد ..

كان المنظر الاول منظر انقاذ كلب من احدى صالات الرقص . وبعد ذلك تتوالى الاحداث ، وكلها فى تتابع وترابط منطقى . فالكوميديات الهزلية على بساطتها ووضوحها تستنفذ الكثير من التفكير والابتكار . وكل فكرة مهما كانت طريفة لابد أن يضحى بها اذا تعارضت مع منطق الحوادث

وفى أيام « كيستون » كان الصعلوك أكثر من هذا تحررا ، واقل التزاما بحدود القصة . كان عقله عندئذ لا ينشط الا قليلا . وانما تنشط غرائزه فقط ، تلك الغرائز المرتبطة بحاجات الانسان الاساسية : الطعام والدفء والمأوى .. ولكن هذه الشخصية كانت تزداد تعقيدا مع كل فيلم جديد . اذ بدات العواطف تتسلل اليها . وصارت هذه مشكلة ، مادام يجب عليه ان يلتزم حدود الكوميديا الهزلية . وقد يبدو هذا الكلام مبالغة ، ولكن الحقيقة ان الهزل يحتاج الى ادق تحديد نفسى للشخصيات ..

وهكذا ، مع نمو مهارتى فى بناء القصة ، كانت تتقيد حريتى فى الاضحاك . او كما كتب لى احد المعجبين مفضلا افلامى الاولى ايام كيستون على افلامى الحديثة : لقد كان الجمهور عندئذ اسيرك . واليوم صرت انت أسير الجمهور

وقد كانت عندى منذ عام ١٩١٦ أفكار كثيرة لافلام طويلة . ومن هذه الافكار مثلا : رحلة الى القمر ، تتضمن عرضا لالعاب اوليمبية هناك ، وتستغل الامكانيات المضحكة للعبث بقوانين الجاذبية .. على ان يكون طابع الفيلم السخرية من التقدم . كما فكرت ايضا فى « ماكينة الاطعام » ، وفى قبعة كهربائية تسجل أفكار الذى يرتديها ، وما يمكن ان يحدث لى من متاعب اذا ما ارتديتها وبدأت

اتعرف على الحياة الغرامية والجنسية لانسان القمر . وقد استخدمت فى النهاية « ماكينة الطعام » بالفعل فى فيلم العصر الحديث

وقد سألنى عدد كبير من الذين قابلونى كيف احصل على أفكار أفلامى ولكننى حتى هذه اللحظة لم استطع ان اجد جوابا شافيا . فعلى مدى الاعوام لم اكتشف الا ان الافكار تأتى من خلال الرغبة الشديدة فى ايجـــادها . فبالرغبة المتصلة يتحول العقل الى « برج مراقبة » يفتش عن الحوادث والملابسات التى تستثير الخيال ـ وقـــد تكون الموسيقى احيانا ، او مشهد غروب الشـــمس ، مصدر الهام بفكرة جديدة

وكل ما استطيع ان اقوله هو : التقط اى موضوع يثير انتباهك ، ثم طوره وعالج تفاصيله .. فاذا وصلت به الى مرحلة تعجز عن التقدم بعدها ، اطرحه جانبا والتقط موضوعا آخر . فغربلة الاشياء المتراكمة ، والتخلص من بعضها ، هو العملية التى تقودك الى العثور على ماتريد

ولكن كيف يحصل الانسان على الافكار اصلا ؟ بمجرد الاصرار الى حد الجنون ! اذ لابد ان يكون الانسان قادرا على احتمال الالم والجهد والاحتفاظ بحماسه وقتا طويلا . ولعل بعض الناس يجدون المهمة اسهل مما يجدهاالبعض الآخر ، وان كنت أنا أشك فى ذلك

وطبيعى أن كل كوميدى ناشىء ينحـــرف عادة فى تصميمات فلسفية عن الكوميديا .. ففى أيام كيستون مثلا لم يكن يمضى يوم دون ان تتردد عبارة « عنصر المفاجأة والتشويق » أما أنا فلن احاول الغـــوص الى اعماق التحليل النفسى من اجل ان أفسر السلوك الانسانى الذى هو فى رأيى ـ كالحياة نفسها ـ لغز لا تفسير له . اننى لم أكن فى حاجة الى قراءة الكتب كى أعرف ان قانون

الحياة هو الصداع والالم . وكل حركاتى البهلوانية كانت - بالاحساس الغريزى - مبنية على هذا الأســــــاس . ووسائلى فى نسج العقد المضحكة كانت بســـيطة جدا : ايقاع الناس فى المآزق ثم اخراجهم منها

أما الكوميديا الفكاهية فامرها بالطبع مختلف ، ومستواها أعمق . فنحن من خلالها نرى ماهو غير معقول فى الاشياء التى تبدو معتدلة ، ونرى ماهو تافه فى الاشياء التى تبدو هامة . وهى بهذا ترهف احساسنا ، وتحمى عقولنا . اذ بفضلها تخنقنا تناقضات الحياة وسخافاتها . وبفضلهـــا نتعلم الاتزان فى تقييم الاشياء ، ونفهم أنه فى المبـــالغة فى الجد يكمن السخف

خذ مثلا : جنازة يجتمع فيها الأصدقاء والاقارب فى صمت ووقار ، ثم يصل احدهم متأخرا فى اللحظة التى توشك فيها الصلاة ان تبدأ ، فيمشى على اطراف اصابعه حتى يبلغ مقعده .. حيث كان احد المعزين قد وضع قبعته ثم بنظرة اعتذار صامتـــة . . يردها مهشمة تماما الى صاحبها الذى يتناولها بنظرة غيظ صامتة أيضا، ويواصل الاستماع الى الصلوات . ان شيئا كهذا يكفى لكى يجعل وقار المناسبة يبدو بالغ السخف !

# فهرس

صفحة

## فى الجزء الثانى من هذه المذكرات

* أول صدام مع تجار السينما
* تزوجت .. بسبب ملاحظة قالها خادمى !
* غزو انجلترا ...
* صديقى ، مندوب الحكومة البلشفية !
* بداية المتاعب فى أمريكا
* هتلر ، وهيرست ، ونابليون
* محاكمتى ..
* لماذا تركت أمريكا ؟
* وأخيرا .. هل أنا شيوعى ؟

**يصـــدر فى ٥ سبتمبر القادم**

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس — ص٠ب ٤٩٣

البحــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد — ص٠ب ٢١

البــرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

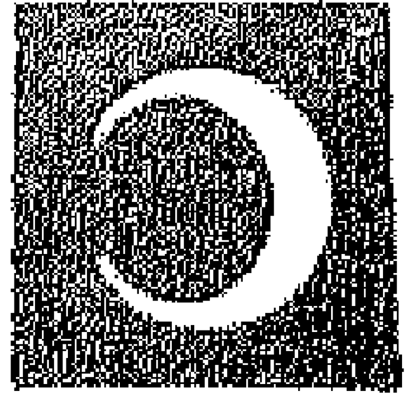
انجلتـــــرا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

لم يسبق أن دار اسم حول العالم كما دار اسم شارلى شابلن .. ولم يسبق أن اقتحم فنان قلوب عدد من البشر كما فعل هو : دون أن تقف فى سبيله حواجز اللغة ، أو السن ، أو الثقافة . فهو قد خاطب الناس طوال نصف قرن بالصورة وحدها ، والصورة لاتحتاج الى مترجم . وهو قد اختار الضحك وسيلة الى نقل أفكاره . والضحك أسرع طريق الى الاقناع .. لأنه ينفذ مباشرة الى القلب ..

من أجل هذا لم يكن غريبا ، حين أصدر شارلى شابلن هذه المذكرات ، أن تترجم على الفور الى عدة لغات . بل لقد نشرت منها قبل صدور الكتاب فصول فى احدى الصحف ، فنقلت بالتلغراف ، وترجمت أولا بأول فى صحف أخرى !

وهى الآن تنشر على قراء العربية فى ترجمة كاملة ، وفى أسلوب يحتفظ لها بروح الأصل .. روح العمل الفنى الذى يعكس قبل كل شيء شخصية صاحبه ..

كتاب الهلال ١٠ قروش



سلسلة
ثقافية
شهرية

# مذكرات شارلي شابلن

صلاح حافظ

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٤ جمادى الأولى ١٣٨٥ - سبتمبر ١٩٦٥

No. 174 - Septembre 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : ( ١٢ عددا ) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا ( بنغازى وطرابلس ) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف : بريشـــة
الفنان بهجت عثمـان

# مذكرات شارلي شابلن

نقلها إلى العربية

صلاح حافظ

•

الجزء الثاني

# ملخص الجزء الأول

تناول شارلى شابلن فى الجزء الاول من هـذه المذكرات رحلته الشاقة من أزقة الأحياء الشعبية فى لندن ، الى قمة المجد الفنى والثراء فى هوليوود ..

ان شارلى لم يبدأ فنانا ..

بل ولم يكن يخطر بباله الفن الا « كوسيلة للخبز » على حد تعبيره ..

وعندما ولد فى عام ١٨٨٩ ، كانت صلته الوحيدة بالفن أن والدته ممثلة متقاعدة .. اعتادت ان تروى له حكايات ممتعة عن أيام مجدها الذاهب ..

أما والده ، فكان منفصلا عن أمه .. وكان هو الآخر ممثلا ذهبت الخمر بصحته ، ومستقبله .

وكان الفقر هو المدرس الاول لشارلى . وقد عاش طفولته كلها بلا متعة غير التأمل . وعانى الجوع . وكانت ثياب أخيه الاكبر سيدنى ترهن مرة كل أسبوع ، ثم تسترد فى الاسبوع التالى ..

وجاء وقت عجزت فيه الأسرة عن الحياة . فاضطر شارلى وأمه وأخوه أن يدخلوا ملجأ لامبث ..

ثم غادرت الام الملجأ الى مستشفى الامراض العقلية . وخرج هو وشقيقه الى بيت والدهما ، حيث أقاما فيه فترة

قصيرة .. كانت هي كل الفترة التى عاشها مع والده .اذ أنه مات بعد ذلك بقليل ..

ولم تسترد الام عقلها أبدا بعد ذلك . صحيح انها كانت تغادر مصحة الامراض العقلية بين وقت وآخر عندما تتحسن حالتها .. ولكنها دائما كانت تعود فتنتكس ..

وهكذا .. كان على شارلى وسيدنى أن يعتمدا على نفسيهما فى سن مبكر . ولجأ سيدنى الى البحر ، يبحث فيه عن الرزق . بينما اتجه شارلى الى فرق الاطفال الهزلية ، حيث تفتحت بسرعة خارقة حاسته الفكاهية ، ولفت الانظار بقدرته المذهلة على ارتجال الضحكات على المسرح ..

ومع احدى هذه الفرق التى كان يملكها «كارفو» سافر شارلى الى أمريكا فى جولة طويلة . وكانت أمريكا وقتها ماتزال مهرب كل أوربى يضيق به رزق بلاده . فأحس شارلى هناك أنه « غريب بين غرباء » . وزايله الاحساس الذى كان يخنقه فى انجلترا بأنه منبوذ بين السادة .وادرك انه هنا ـ فى هذه البلاد الجديدة ـ سيجد فرصته ..

وعندما انتهت الجولة وغادر أمريكا ، كان يعلم أنه سيعود اليها .. وعاد بالفعل ، ليجعل منها وطنه الثانى ..

وبعد ان سجل لنفسه نجاحا لا بأس به على المسرح ، بدأت تراوده فكرة العمل فى الافلام . فكانت هذه الفكرة نقطة التحول فى حياته ..

كان لكل ممثل كوميدى شخصية معينة يؤديها ، ويعرفه بها جمهوره . وعندما جاء دور شارلى فى أول فيلم له ، لم تكن لديه فكرة واضحة عن الشخصية التى سيختارها . ولم تتشكل هذه الفكرة وتنضج الا فى غرفة الملابس قبل التصوير بلحظات .. استوحاها من الملابس التى

وجدها : البنطلون المنفوخ ، والقبعة العالية ، والسترة القصيرة ، والعصا ، والحذاء الضخم

وهكذا ولدت شخصية « الصعلوك » ، التي التزمها في كافة أفلامه الصامتة ، والتى اشتهرت فى العالم كله ، وأضحكت الصغار ، وأبكت الكبار ، وحفرت نفسها فى تاريخ السينما بأضخم الحروف ..

وكان شارلى فى البداية يصور ثلاثة افلام فى الاسبوع ولم يكن يضايقه الا ضيق أفق المخرجين . فبدأ يشترط اخراج أفلامه بنفسه . فكان هو المؤلف ، والمخرج ، والممثل، وساعده نجاحه الجماهيرى الساحق على أن يخطو خطوة أخرى ، فينتج لحسابه

وبعد أن كان أصحاب الشركات يستكثرون عليه ألف دولار فى الاسبوع ، وجد نفسه يصعد بسرعة خارقة الى مستوى أصحاب الملايين . وبدأت حياته تتغير . واستدعى أمه الى أمريكا ليضعها فى مصحة خاصة الى آخر أيام حياتها . كما ألحق شقيقه بالعمل معه . وانتهت مشاكل أيام الفقر ، لتبدأ مشاكل أيام المجد والنجاح : تلك المشاكل التى يرويها شارلى فى هذا الجزء الثانى من المذكرات

وقد كان من رأي بعض النقاد عند ظهور هذه المذكرات أن الجزء الاول منها أبلغ تأثيرا فى النفس من الجزء الثانى

وقد يكون السبب فى وجهة نظرهم ذلك الثراء العاطفي الذى يمتاز به الجزء الاول فى تناوله لايام الطفولة ، وشخصية والدة شارلى التى أجاد تصويرها .. ولكن ذلك لا ينفى قيمة الجزء الثانى ، كتصوير بليغ لنشأة السينما ، وصراع الفن والتجارة فى صناعتها ، ثم دور الصراع السياسى وأثره عليها

فهذا الجزء فى الواقع لا يتناول تاريخ شارلى بقدر ما يتناول تاريخ السينما ..

وليس فى العالم من هو أقدر من شارلى على رواية هذا التاريخ • فقد عاصره منذ بدايته • وكان واحدا من أهم اقطابه . أو على حد قوله :

« لا يستطيع احد ان يتحدث مثلى عن هوليوود • فقد كنت انا هوليوود » !



جاكى كوجان فى « فيلم الطفل »

الفصل الأول

# تجارة السينما

* ليلة .. مع حلمى القديم
* أردت أن ألقى بالفيلم فى صفيحة القمامة !
* استأجرنا جاسوسة حسناء ..
* أول اصطدام مع تجار السينما ..

كان الرأى العام فى بداية الحرب العالمية الثانية يؤمن بأنها لن تدوم أكثر من اربعة اشهر . ولكن هذا كان خطأ وفى عام ١٩١٨ ، كانت امريكا قد قامت بحملتين لبيع سندات الحرب ، وكان الاستعداد يجرى لبدء حملة ثالثة دعيت الى افتتاحها أنا ومارى بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس فى واشنطون ..

وكنت قد فرغت لتوى من فيلمى الاول .. « حياة كلب » لحساب فرست ناشونال . وكنت مرتبطا بتقديمه للعرض فى نفس الموعد الذى ستبدأ فيه الحملة ، فلبثت ثلاثة ايام وثلاث ليال متواصلة أعمل فى تقطيعه .. وعندما فرغت منه ركبت قطار الرحلة وأنا فى حالة شديدة من الاعياء ونمت يومين متتاليين

وبعد أن أفقت شرعنا نحن الثلاثة نعد الخطب التى سنلقيها . ولما لم اكن فى حياتى قد ألقيت خطابا جادا ، فقد اقترح دوجلاس ان أجرب أثر خطابى اولا على جماهير الناس التى تنتظرنا فى المحطات . فلما توقفنا فى اول محطة تجمع جمهور غير قليل عند السبنسة • ومن هناك قام دوجلاس بتقديم مارى التى ألقت خطابا قصيرا . ثم قدمني انا .. ولكنني ماكدت ابدأ حتي بدأ القطار يسير !

واذا بى أزداد طلاقة وشجاعة مع انسحاب القطار ، وتضاؤل الجمهور بعيدا عنى . أما في واشنطون ، فما كدت أسمع اسمى على منصة الخطابة ، حتى صعدت بطريقة دوجلاس فيربانكس وانطلقت كالمدفع الرشاش دون أن امنح نفسى فرصة لالتقاط أنفاسى :

ـ ان الالمان يطرقون على بابكم ، اننا يجب أن نوقفهم وسنوقفهم اذا اشتريتم سندات الحرب ! تذكروا ان كل سند تشترونه سينقذ حياة جندى ـ حياة ابن له ام ـ ويصل بهذه الحرب الى انتصار مبكر !

وقد بلغ من سرعتى وانفعالى وانا أتكلم اننى انزلقت من على حافة المنصة وتشبثت بمارى ورسلر ، فسقطت معى فوق صديق وسيم كان بالصدفة نائب وزير البحرية فى ذلك الوقت .. فرانكلين د . روزفلت ..

وبعد انتهاء الاحتفال الرسمى ، كان برنامجنا يقضى بمقابلة الرئيس ويلسون فى البيت الابيض. وهناك أدخلونا ـ ونحن فى حالة اضطراب شديد ـ الى الحجرة الخضراء حيث فتح الباب فجأة .. ودخل سكرتير يقول بلهجة حازمة :

ـ قفوا طابورا من فضلكم ، وتقدموا الى الامام خطوة واحدة .. :

ثم دخل الرئيس . فبادرته مارى بيكفورد :

ـ ان اهتمام الجمهور يدعو الى أعظم التفاؤل ياسيدى الرئيس . وانا واثقة من ان الحملة ستؤدى فوق ماهو مطلوب .. :

وتدخلت أنا فى ارتباك تام :

ـ لقد كانت ناجحة بالتأكيد .. وستنجح ..

فنظر الرئيس الى بدهشة . ثم روى نكتة برلمانية عن وزير مغرم بالويسكي وضحكنا جميعا .. ثم انصرفنا !

***

قبل مفادرتى لوس انجلس من أجل حملة سنـــدات الحرب الثالثة ، حدث اننى قابلت مارى دورو . وكانت قد جاءت الى هوليوود لتلعب ادوار البطولة فى أفـــلام باراموتت . وكانت عندئذ من معجبات شابلن ، حتى انها قالت لكونستانس كولير ان الشخص الوحيد الذى تريد أن تراه فى هوليوود هو شارلى شابلن .. دون أن يخطر ببالها اننى سبق ان مثلت معها فى لندن ، فى مسرح روق يورك

وهكذا التقيت مرة اخرى بمارى دورو فكان ذلك أشبه بالفصل الثانى فى مسرحية غرامية . وبعد أن قدمتنى اليها كونستانس قلت لها :

ـ ولكننا التقينا من قبل ، وحطمت قلبى .. فقد كنت عاشقا لك خفية !

فقالت مارى ، جميلة كما هى كانت دائما :

ـ انه لشىء مثير !

فأوضحت لها اننى كنت « بيللى » فى مسرحية شرلوك هولمز . وتناولنا العشاء بعد ذلك فى الحديقة .. وكانت أمسية صيف دافئة . وعلى ضوء الشموع حدثتها كيف كانت آلام الشاب الذى أحبها فى صمت ، وكيف اننى فى مسرح روق يورك كنت أدبر امرى بحيث التقى بهـــا على السلم بعد خروجها من حجرة الملابس ، لمجرد أن أقـــول لها : مساء الخير . وتحدثنا بعد ذلك عن لندن وباريس . وكانت مارى مولعة بباريس ، فتكلمنا عن ملاهيها ومقاهيها ومطعم ماكسيم فى الشانزلزيه .. آلخ

والآن هاهى مارى فى نيويورك ! ولما عرفت اننى أقيم فى ريتز ، ارسلت الى خطابا تدعونى لتناول العشاء فى شقتها . وكان الخطاب يقول :

« عزيزى شارلى ..

« ان لى شقة فى الشانزلزيه ( أعنى شارع ماريسون ) نستطيع ان نتناول فيها العشاء ، او ان نخرج لنتناوله فى مطعم ماكسيم ( أعنى مطعم كولونى ) .. وبعد ذلك نستطيع اذا رغبت أن نتنزه فى غابة بولونيا ( أى سنترال بارك ) .. »

ولكننا لم نفعل أى شىء من ذلك كله وانما ظللنا فى شقتها فى هدوء .. ووحدنا ..

***

عندما عدت الى لوس انجلس . أقمت مرة أخرى فى جناحى بالنادى الرياضى وشرعت أفكر فى العمل

كان فيلم ( حياة كلب ) قد استغرق وقتا أطول ، ونفقات اكبر ، مما قدرت . ولكن هذا لم يقلقنى ، ففى نهاية العقد سيتساوى مع متوسط نفقات الافلام جميعا . انما كان الذى يقلقنى هو الحصول على فكرة للفيلم التالى . ثم جاءتنى الفكرة : لماذا لا أجعله كوميديا عن الحرب ؟

واخبرت عددا من الاصدقاء بنيتى ولكنهم هزوا رؤوسهم . وقال دى ميل :

ـ من الخطر فى مثل هذا الوقت ان تجعل من الحرب أضحوكة ..

ولكن الفكرة كانت قد ألهبتنى : خطر او لا خطر ..

ووضعت خطة ( كتفا سلاح ) فى البداية على اساس أن يكون فيلما من خمس لفات : بدايته ( الحياة فى الوطن)

ووسطه ( الحرب ) ونهايته ( احتفالات النصر ) .. حيث يظهر جميع أصحاب التيجان الاوربية يحتفلون ببطولتى بعد أن صرت القيصر وبعد ذلك طبعا استيقظ من النوم !

اما المناظر التى تسبق الحرب والتى تتلوها فقد ألغيت. وأما احتفالات النصر فلم نصورها أصلا . وكانت مشاهد الفيلم الاولى من طراز الكوميديا الايحائية .. اذ يظهر شارلى عائدا الى البيت بصحبة اولاده الاربعة ، ويتركهم فى الطريق لحظة ثم يعود اليهم وهو يمسح فمه وقد أصابته الزغطة ، وما يكاد يدخل البيت حتى تظهر طاسة ضخمة فى الصورة وتضربه على أم رأسه . ولا تظهر لنا زوجته ، ولكن قميص نوم هائل المقاييس معلقا على حبل المطبخ يوحى لنا بحجمها

وفى المشهد التالى يظهر شارلى أثناء الكشف الطبى فى القرعة العسكرية ، ويجعلونه يخلع ثيابه تماما . ثم ينظر فاذا بباب الطبيب المصنوع من الزجاج المصنفر يحمل اسم ( فرانسيس ) . ثم يظهر ظل وراء الباب يهم بفتحه فيتصور شارلى ان الطبيب امرأة ، ويهرب عاريا من باب آخر ، ليجد نفسه فى متاهة من المكاتب تفصلها حواجز زجاجية ، وتحتلها فتيات مشغولات بالعمل . وترفع احداهن رأسها ، فيختبىء هو وراء احد المكاتب ، كاشفا نفسه بذلك لعين فتاة أخرى وراءه . ثم يهرب اخيرا من احد الابواب ليجد نفسه وسط مزيد من المكاتب والحواجز الزجاجية مستبعدا اكثر فأكثر عن قاعدته .. الى أن يصل اخيرا الى عراء شرفة مكشوفة ، مجردا كما ولدته أمه ، مطلا على ممر تجارى صاخب تحته .

وبالرغم من اننا صورنا هذا المنظر كله ، فاننا لم نستخدمه مطلقا . فقد رأيت من الافضل أن أجعل شارلى

نكرة لا تاريخ وراءه ، وان نراه لاول مرة وهو مجند بالفعل ..

واستغرق اعداد الفيلم وقتا طويلا ولم أكن راضيا عنه . ونقلت هذا الاحساس الى كل من فى الاستوديو . ثم طلب دوجلاس فربانكس أن يشاهده . وجاء ومعه صديق له ، فحذرتهما قائلا اننى من فرط يأسى من الفيلم أفكر فى أن ألقى به كله فى صفيحة القمامة . وجلس ثلاثتنا فى قاعة العرض وحدنا . واذا بدوجلاس منذ البداية ينفجر فى نوبات من الضحك المتواصل ، ولا يتوقف الا من أجل نوبات من السعال . يا لجمالك يادوجلاس ! كان دائما أعظم جمهور لى . وعندما انتهى العرض وخرجنا الى ضوء النهار كانت عيناه دامعتين من فرط الضحك . فقلت غير مصدق نفسى :

ـ أتظن انه حقا مضحك الى هذا الحد ؟

فالتفت الى صديقه ، وكان تعليقه الوحيد ان قال له :

ـ ما رأيك فى هذا الرجل ؟ كان يريد أن يلقى به فى صفيحة القمامة

وحقق فيلم ( كتفا سلاح ) نجاحا ساحقا . واستحوذ على ( هروب الجنود ) أثناء الحرب . ولكنه هو الاخر كان قد استغرق منى وقتا اطول مما قدرت ، وتكلف نفقات أكبر مما تكلف ( حياة كلب )

وبدأت تتملكنى الان الرهبة فى ان أتفوق على نفسى . وظننت ان الشركة ــ فرست ناشونال ــ قد تمد لى يد العون . فمنذ عملت معهم وهم يتضخمون ، ويتعاقدون مع غيرى من المنتجين والنجوم على ربع مليون دولار للفيلم الواحد ، وخمسين فى المائة من الارباح . وكانت هذه الافلام

أقل فى النفقات من أفلامى ، وأسهل فى الانتــاج ، وان كانت بكل تأكيد تدر ايرادا اقل فى شباك التذاكر

فلما تحدثت فى الامر مع مستر ج.ر. ويليامز ،رئيس مجلس ادارة فرست ناشونال ، قال انه سيعرض المسألة على المديرين . ولم أكن فى الواقع أطلب كثيرا وانما مجرد القدر الكافى لتغطية النفقات الاضافية ، التى لم تكن لتزيد عن المتفق عليه بأكثر من عشرة الاف او خمسة عشر ألفا من الدولارات فى كل فيلم ، وقال لى ان هناك اجتمــاعا سيعقد فى لوس انجلس فى خلال أسبوع ، واننى أستطيع عندئذ أن اتحدث اليهم بنفسى

كان الموزعون فى تلك الايام جماعة من التجار بليــدة الحس .. والافلام بالنسبة اليهم مجرد بضاعة يساوى المتر منها كذا قرشا . وخيــل لى اننى أجـدت عرض قضيتى عليهم ، وتكلمت باخـلاص . وقلت لهم اننى فى حاجة الى زيادة قليلة لاننى أنفقت اكثر مما كنت أتوقع. ولكنى كنت أشبه بعامل مصنع يطلب علاوة من جنــرال موتورز ! فما كدت أفرغ من كلامى حتى ساد الصمت . ثم بدأ الناطق بلسانهم يقول :

ــ اسمع ياشارلى . نحن رجال أعمــال . وانت قد وقعت عقدا ننتظر منك أن تفى به ..

قلت بايجاز :

ــ فى استطاعتى أن أسلمكم ستة افلام فى شهرين ، اذا كان ذلك الطراز من الافلام هو ماتريدون

فأجابنى الصوت الهادىء :

ــ هذه مسألة تخصك انت !

فاستطردت اقول :

ــ اننى أطلب الزيادة حتى أحتفظ بمستوى عملى .

وعدم أكتراثكم هذا يكشف عن أفتقاركم ألى الفهم وبعد النظر . انكم لا تتاجرون فى السجق كما تعلمون ، وانما تتعاملون مع الحماس الفردى ..

ولكن لم يكن هناك مايمكن أن يؤثر فيهم . ولم أستطع ان افهم سر هذا الموقف من جانبهم ، خاصة اننى كنت الورقة الرابحة الكبرى فى البلاد

ولكن أخى سيدنى قال لى :

ـ اعتقد ان لموقفهم علاقة بهذا الاجتماع المنعقد لرجال السينما . فهناك شائعات تقول ان جميع شركات الانتاج قد شرعت تندمج

وبعد ذلك بيوم تقابل سيدنى مع دوجلاس ومارى . فاذا بهما أيضا يشكان فى الامر ، لان عقودهما اوشكت انتنتهى دون أن تحرك شركة بارامونت ساكنا . وكان دوجلاس يرى ـ كسيدنى ـ ان لهذا ايضا علاقة باندماج الشركات. وقال :

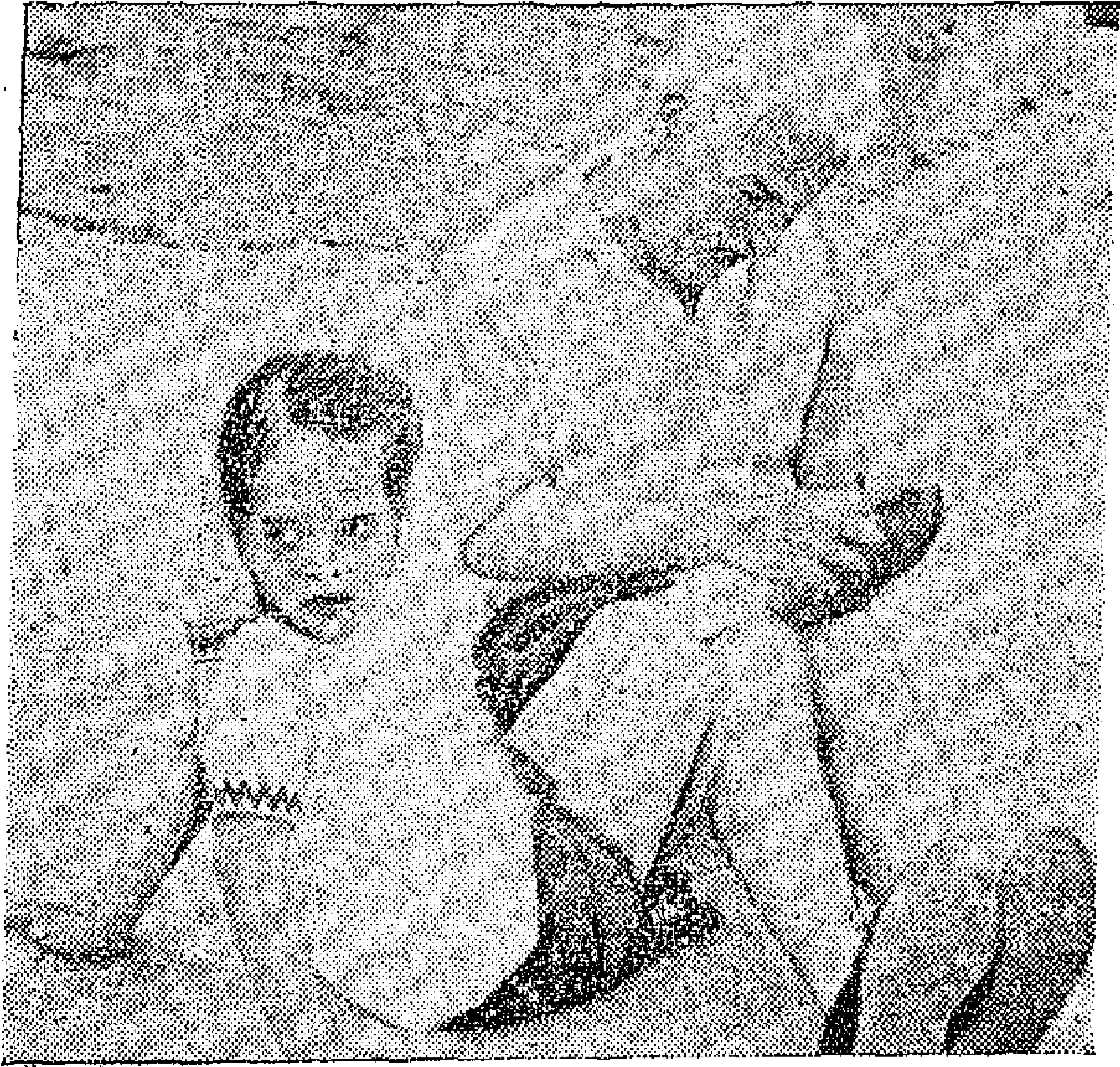
ـ ستكون فكرة طيبة لو اننا أطلقنا فى أعقابهم مخبـرا سريا لنعلم ما الذى يجرى !

فوافقنا جميعا على استئجار مخبر واتفقنا مع فتاة بالغة الذكاء والرشاقة والجاذبية . وسرعان ما حصلت على موعد مع ادارى كبير فى احدى شركات الانتاج الهامة ، وجاء فى تقريرها انها مرت به فى ردهة فندق الاسكندرية، وابتسمت له ، ثم اعتذرت بأنها ظنته صديقا قديما لها . وفى نفس الليلة دعاها الى العشاء معه . وكان ـ كمـا استخلصنا من التقرير ـ رجلا مغرورا ومدعيا وعبـدا لشهواته . وطوال ثلاث ليال ظلت تخرج معه ، وتروغ منه بالوعود والاعذار . وحصلت خلال ذلك على تفاصيل القصة الكاملة لما يجرى فى محيط صناعة السينما .. فقد كان هو وزملاؤه يؤسسون احتكارا يضم جميع الشركات

برأس مال قدره ٤٠ مليـــون دولار ، ويرتبطون مع كل موزع فى الولايات المتحدة بعقود لمدة خمس سنـــوات .
وقال لها الرجل انهم ينوون تعديل الاوضاع فى صنـــاعة السينما على أسس تجارية خالصة ، بدلا من ان تظل تقودها حفنة من الممثلين الحمقى يتقاضون مبالغ خيالية
كان هذا جوهر قصتها . وكان يفى تمـــاما بغرضنا .
وذهبنا نحن الاربعة نعرض التقرير على جريفيث وبيل هارت .. فكان له عليهم نفس الاثر

***

وقال لنا سيدنى اننا نستطيع أن نهزم احتكارهم هذا اذا أعلنا للموزعين والعارضين اننا بسبيل تأسيس شركتنا الخاصة للانتاج ، واننا ننوى ان نبيع انتاجنا فى السوق الحر ، ونحتفظ باستقلالنا
ففى ذلك الوقت كنا نمثل اكبر مصدر للربح فى صناعة السينما كلها
علما انه لم يكن فى نيتنا فى البداية ان نسير فى الشوط الى نهايته . وانما كان هدفنا الوحيد ان نمنع العارضين من توقيع العقود بخمس سنوات مع الاحتـــكار المزمـــع انشاؤه ، على أساس انه بغير النجوم لن تكون له قيمة .
وقررنا أن نظهر معا فى تلك الليلة فى صالة الطعـــام بفندق الاسكندرية ـ قبل أن يعقدوا اجتماعهم ـ ونعلن تصريحا للصحف
وجلسنا فى تلك الليلة انا ومارى بيكفورد ، وجريفيث، وهارت ، ودوجلاس فيربانكس ، حول مائدة واحدة فى قاعة الطعام الرئيسية
فكان الاثر أقرب الى مس الكهـــرباء . وكان ( ج.ر. ويليامز ) اول من دخل الى القاعة خالى الذهن ، فما كاد يرانا حتى عاد أدراجه على الفور . وتوافد المنتجون واحدا



**شارلى شابلن يصلح حذاء ابنته فيكتوريا**

بعد الاخر ، يطل كل منهم خلال الباب ، ويلقى نظرة ، ثم يعود أدراجه على استعجال .. بينما نحن جالسون نتحدث حديث كبار الاعمال ، ونكتب على مفرش المائدة أرقاما خيالية . وكلما دخل أحد المنتجين أسرع دوجلاس يتحدث الينا بأى كلام فارغ :

ـ ان الكرنب على الفول السودانى والبقالة فوق لحم الخنزير لها ذوق كبير فى هذه الايام !

حتى خيل الى جريفيث وبيل هارت أنه قد جن !

وسرعان ما توافدت نصف دستة من رجال الصحافة حول مائدتنا ، وراحوا يكتبون ما نصرح به حول مشروعنا فى تأسيس شركة من ( الفنانين المتحدين ) لحماية استقلالنا ، ومقاومة الاحتكار المقبل

وظهرت القصة فى الصفحات الاولى

وفى اليوم التالى عرض علينا أكثر من رئيس لشركات الانتاج ان يستقيل من وظيفته ويرأس شركتنا فى مقابل مرتب صغير ونسبة من الارباح . فكان رد الفعل هذا سببا في إننا قررنا السير فى مشروعنا

وهكذا تأسست ( شركة الفنانين المتحدين ) ..

الفصل الثانى

# متاعب عائلية

* زواجى ..
* لم أستطع أن أنفذ الى عقل زوجتى !
* كيف اكتشفت جاكى كوجان ؟
* عشرون رجلا يهزمهم طفل

لو لم يدق جرس التليفون فى تلك اللحظة ، وانا على وشك مغادرة النادى ، لكان محتملا أن يتغير مجــرى حياتى . كان المتحدث هو سام جولدوين ، يسألنى هل أحب أن أزوره فى بيته المطل على الشاطىء لآخذ حماما فى البحر ؟ ..

كنا عندئذ فى النصف الثانى من عام ١٩١٧ . وكانت الأمسية صافية ، بهيجة . وأذكر ان « أوليف توماس » الجميلة كانت هناك هى وسرب كبير من الحسنــاوات . وعندما أوشك اليــوم ان ينقضى وصلت فتـــاة تدعى ميلوريد هاريس ، يرافقها رجل اسمه مستر هــام . وبدت الفتاة فى عينى جميلة . ولكن أحد الحاضرين أشار الى انها شديدة الشغف « باليوت ركستــر » الذى كان موجودا هو الاخر . ولاحظت انها بالفعل تلاحقــه طول الوقت . وان كان هو لا يلقى بالا اليها

ولم أفكر بعد ذلك فيها الا حين جاءت ــ وانا أستعد للانصراف ــ تسألنى اذا كان ممكنا أن آخذها معى الى المدينة . فهى قد تخاصمت مع صديقها ، وتركها بالفعل وانصرف

وبينما نحن فى السيارة مضيت ألمح تلميحا خفيفا الى انه ربما كان صديقها قد غار من اليوت ركستر . فاعترفت بأنها بالفعل ترى اليوت رجلا رائعا

وشعرت بأن عبثها الصبيانى هذا ليس الا حيلة اغراء

أنثوية الاهتمام حول نفسها .. فقلت لها :
ـ لاشك انه رجل محظوظ

وقضيت بقية الوقت فى ثرثرة تافهة معها ، أخبرتنى أثناءها انها كانت تعمل لحساب لويس ويبر ، ولكنها ستبدأ من الآن تؤدى أدوار البطولة فى افلام باراموتت . وعندما تركتها عند بيتها كان الاثر الذى خلفته فى نفسى هو انها فتاة صغيرة نزقة . وعدت الى النادى مرتاحا الى التخلص منها والانفراد بنفسى . ولكننى ما كدت أقضى فى غرفتى خمس دقائق حتى دق جرس التليفون : واذا بها مس هاريس ، تقول بسذاجة :
ـ فقط أردت أن أعرف ماذا تفعل !

فأدهشنى ان تتصرف معى هكذا كما لو كنا عاشقين متيمين منذ زمن بعيد . وقلت لها ان كل ما افعله هو اننى أستعد لتناول العشاء فى غرفتى ، ثم الذهاب راسا الى فراشى وقراءة كتاب

فقالت بأسف : « أوه ! »

ولكنها أرادت ان تعرف ما نوع الكتاب ، وما شكل الحجرة . وقالت انها وهى تكلمنى تتصورنى وأنا وحيد منطو فى فراشى

واذا بهذا الحديث العابث يثير شغفى واستعذب مافيه من زقزقة ودلع . فلما سألتنى :
ـ متى سأراك مرة أخرى ؟

وجدت نفسى أعرض ـ مازحا ـ بأنها بذلك تخون اليوت . وانصت باهتمام اليها وهى تؤكد ان اليوت فى الحقيقة لا يعنيها فى شىء .. فكان هذا كافيا للاحاطة بالبرنامج الذى وضعته لليلتى . ودعوتها الى الخروج لتناول العشاء ..

ولم أفكر فيها مرة اخرى الا فى منتصف الاسبوع ،

عندما أخبرني هارنجتون ( سكرتيري ووصيفي ) انهـــا طلبتني في التليفون . ولولا انه عندئذ أدلى لي بملاحظــة معينة لكان ممكنا ألا أكترث برؤيتها مرة اخرى . ولكن الذى حدث هو انه ذكر لى ان سائق سيارتى أخبره بأننى عندما غادرت بيت سام جولدوين كانت معى أجمل فتـــاة شاهدها فى حياته . فاستثارت هـــذه الملاحظة التافهة غروري . وكانت البداية ..

فمنذ ذلك الوقت كان هناك أكثر من عشاء ، وأكثـــر من سهرة راقصة ، وليلة قمرية ، ونزهة بالسيـــارة على شاطىء المحيط . وحدث مالم يكن منـــه بد ــ اذ بدأت ميلوريد تشعر بالقلق

واحتفظ توم هارنجتون بوجهة نظره لنفسه . فلمـــا أعلنت له ذات صباح بطريقة عابرة ــ بعد أن أحضر لى طعام الافطار ــ انني أريد أن أتزوج ، لم يختلج له جفن . وسأل بهدوء تام :

ــ فى أى يوم ؟

ــ ما اليوم الذى نحن فيه ؟

ــ نحن فى يوم الثلاثاء

فقلت دون أن ارفع رأسي عن صحيفتى :

ــ فليكن اذن يوم الجمعة

ــ انها بالطبع مس هاريس

ــ نعم ..

فهز رأسه مؤمنا :

ــ هل لديك الدبلة ؟

ــ كلا . يحسن أن تحصل لى على واحدة . وان تتخذ كل الترتيبات اللازمة .. ولكن بهدوء

فهز رأسه مرة أخرى .. ولم نعد الى الموضوع بعد ذلك الا يوم الزفاف . وكان قد اعد الترتيبات بحيث نتزوج فى

الثامنة من مساء يوم الجمعة

وكنت فى ذلك اليوم قد لبثت أعمل فى الاستديو حتى ساعة متأخرة . فجاءتوم فى السابعة والنصف الى البلاتوه ، وهمس فى اذنى :

ـ لا تنس أن لديك الليلة موعدا فى الثامنة

فانقبض قلبى ، واسرعت ازيل الماكياج وارتدى ثيابى بمساعدته . ولم نتبادل كلمة واحدة الا بعد ان جلسنا فى السيارة . فعندئذ أوضح لى اننى سأقابل مس هاريس فى بيت مستر سباركز ، موثق المنطقة

وعندما وصلنا الى هنـــاك كانت ميلوريد جالسة فى الصالة . وابتسمت لنا عند دخولنـــا ابتسامة ذليلة ، فشعرت بالاسف من أجلها . وكانت ترتدى ثوبا بسيطا رمادى اللون ، وتبدو بارعة الجمال . وأسرع هارنجتون يدس خاتم الزواج فى يدى بينما كان يقودنا رجل طـويل نحيل ، عطوف ، الى حجرة أخرى

وكان هذا هو المستر سباركز الذى قال :

ـ فى الحقيقة ياشارلى .. لم أكن أعلم ان لديك مثـل هذا السكرتير الممتاز . تصور اننى لم أعرف ان العريس هو أنت الا منذ نصف ساعة !

وكانت الاجراءات بسيطة وجادة الى حد مزعج : وضعت الخاتم الذى أعطانى اياه هارنجتون فى اصبعها ، فصرنا زوجين ! وانتهت الاجراءات ! وبينما نحن نتأهب لمغـادرة المكان ، ارتفع صوت مستر سباركز :

ـ لا تنس أن تقبل عروسك ياشارلى !

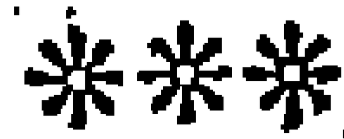
فابتسمت : « أوه . نعم . بالطبع ! »

كانت أحاسيس مختلطة . وكنت أشعر اننى سقطت فى شباك نسجتها ظروف هوجاء لا مبرر لها . رباط ليس

له أساس من الضرورة . غير انني كنت قبل ذلك أحن دائما الى أن تكون لى زوجة . وميلوريد كانت شابة ، وجميلة ، لم تكد تبلغ التاسعة عشرة . وبالرغم من ان عشرة أعوام كانت تفصل بين سنى وسنها فمن يدرى ، لعل كل شيء ينتهي الي مايرام

وفى الصباح التالى ذهبت الى الاستديو بقلب مثقل . وكانت أونا بورفيانس هناك وقد قرأت صحف الصباح ، فلما مررت أمام حجرة ملابسها ظهرت أمام الباب وقالت برقة : « مبروك » فأجبت : « شكرا »

ثم واصلت طريقي الي غرفة ملابسى ، وقد اثارت أونا الارتباك فى نفسي



صارحت دوج بأن ميلوزيد ليست من ذوات العقل الراجح . واننى لا أريد على أية حال أن اتزوج دائرة معارف ، فغذائى العقلى استطيع أن أحصل عليه من اية مكتبة . ولكن هذه النظرية المتفائلة كانت تستتر وراءها قلقا خفيا : هل سيؤثر الزواج على عملى ؟ أن ميلوريد شابة ، وجميلة ، ولكن هل معنى ذلك اننى يجب أن أكون دائما علي مقربة منها ؟ وهل هذا هو ما أريد ؟ كنت فى دوامة . وبالرغم من اننى لم أكن عاشقا ، الا اننى كنت أريد ـ ما دمت قد تزوجت ـ ان يكون النجاح حليفى وحليف هذا الزواج

ولكن الزواج لم يكن بالنسبة الى ميلوريد غير مغامرة مثيرة كالفوز فى مسابقة للجمال . كان شيئا قرأت عنه فى الروايات . ولم يكن لديها أى فهم للواقع . وكلما

حاولت أن أحدثها بجد عن مشاريعنا لا ينفذ شيء ممـا اقول الى نفسها . فهى دائما ابدا زائفة العقل !

بعد زواجنا بيوم واحد عرض عليها لويس ماير ( من شركة متروجولدوين ) أن تتعاقد معهم على ستة أفلام فى السنة فى مقابل خمسين ألف دولار . فحاولت اقناعها بألا توقع :

ـ اذا كنت ترغبين في مواصلة العمل في السينما ففى استطاعتي أن أحصل على خمسين ألف دولار للفيـــــلم الواحد ! !

فهزت رأسها مؤمنة على كل ما أقـــول بابتســـامة كابتسامة « الجيوكندة » . ولكنها بعد ذلك وقعت العقد !

وكان الذي يغيظ فى الامر هو هذه المسايرة وهزات الرأس من جانبها ، ثم الاقدام على فعل العكس تماما . قضقت بها ، وبماير الذي جاء يقيدها بعقد من جانبه قبل أن يجف مداد عقد زواجنا

وبعد ذلك بشهر بدأت تواجه بعض المتاعب مع الشركة وطلبت منى أن أقابل ماير لاسوى معه الامور . فقلت لها اننى لن اقابله بأى حال . ولكنها كانت قد دعته بالفعل الى العشاء فى بيتنا ولم تخبرنى بالامر الا قبل وصوله بلحظات . فاستبدت بى الثورة والحنق :

ـ اذا جئت به الى هنا فانني سأهينه !

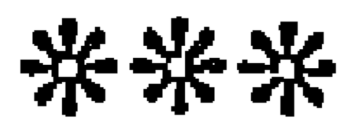
واذا بجرس الباب يدق وأنا لم أكد افرغ من نطـق هذه الكلمات . فقفزت كالارنب الى حجرة زجاجية لتربية الزهور مجاورة لغرفة الجلوس . وكانت حجرة لا منفذ منها الى الخارج

وظللت مختبئا هناك فترة بدت لى بلا نهاية ، بينمـا جلس ماير ومياوريد فى حجرة الجلوس على قيد خطوات

منى يناقشان شئونهما • وراودنى الاحساس بأن ماير يعلم باختبائى ، اذ بدا لى حديثه منمقا وأبويا • وبعـــد لحظات ورد ذكرى ، فقالت ميلوريد اننى قد لا أجىء • وعلى أثر ذلك سمعت حركة فى الغرفة ، فذعرت خوفا من أن يكونا قادمين الى حجـــــرة الزهور حيث اختبىء • وأسرعت أتظاهر بأننى نائم

على أن الذى حدث هو أن ماير اصطنع عذرا للانصراف وخرج دون أن ينتظر العشاء

وبعد زواجنا بعدة اشهر وجدت اننى لم انتج غير فيلم واحد من ثلاث لغات « الخلاء المشمس » • ولم انتجه الا بخلع الضرس • فأدركت أن الزواج قد أثر فى قدرتى على الخلق تأثيرا لا جدال فيه ••



بعد فيلم « الخلاء المشمس » كنت فى حاجة ماسة الى العثور على فكرة فيلم جديد • فكان مما يروح عن نفسى ــ وأنا فى هذه الحالة اليائسة ــ أن أذهب الى المسرح لاشغل ذهنى بشىء آخر ••

وهناك رأيته ــ وانا فى هذه الحالة ــ راقصا لافتـــا للنظر •• لا لانه كان مختلفا عن غيره ، ولكن لانه فى نهاية رقصته استدعى الى المسرح ابنه الصغير ، وكان طفلا فى الرابعة من العمر ، لكى يحيى الجمهور معه

وبعد أن انحنى الطفل مع والده للمتفرجـين ، انطلق فجأة يؤدى عدة خطوات راقصة طريفة ، ثم نظـــر الى المتفرجين نظرة ذكية ، ولوح لهم بيده وخرج

وانفجر المتفرجون فى ضحكات عالية الى حد ان الطفـل استدعى من جديد ، ليؤدى هذه المرة رقصة مختلفة تماما ،

رقصة كان يمكن أن تكون سخيفة لو أداها طفل آخر .
ولكن « جاكى نوجان » كان ساحرا ، واستمتع الجمهور تماما برقصته . فقد كان فى كل ما يفعله يتمتع بشخصية آسرة ..

ولم أفكر فى جاكى مرة اخرى الا بعد اسبوع ، وأنا جالس على حافة انبلاتوه مع هيئة الاستديو ، أعصر ذهنى بحثا عن فكرة للفيلم الجديد . ففى تلك الايام كنت كثيرا ما أجلس أمامهم ، لان وجودهم وتجاوبهم معى كان يساعدنى على تنشيط ذهنى . والحقيقة اننى كنت فى ذلك اليوم يائسا ، مشتت الذهن ، واثقا ــ برغم ابتساماتهم المهذبة ــ انه لا جدوى من محاولاتى . ومضت افكارى تتخبط تائهة . وأخذت أحدثهم عن النمر التى شهدتها فى المسرح ، وعن الطفل الصغير جاكى كوجان الذى جاء وانحنى يحيى الجمهور مع والده

وقال احدنا عندئذ أنه قرأ فى الجريدة الصباحية أن جاكى كوجان قد تعاقد على فيلم مع روسكو أرباكل . فدهمنى النبأ كالصاعقة . سبحان الله ! لماذا لم تخطر ببالى هذه الفكرة ؟ انه ولا شك يستطيع ان يكون رائعا فى الافلام ! ومضيت أعدد امكانياته ، والحكايات والفصولات التى كان يمكن أن أمثلها معه ..

وتزاحمت الافكار فى خيالى :

ــ ما رأيكم فى الصعلوك يحترف اصلاح النوافذ ، والطفل يسرح فى الطرقات يحطم هذه النوافذ ، حتى يستدعى الصعلوك لاصلاحها ؟ كم تكون رائعة حياة الطفل والصعلوك معا ، وقيامهما بمختلف ألوان المغامرات ! ..

وهكذا قضيت يوما كاملا وأنا جالس فى مكانى أطور القصة ، وأصفها مشهدا مشهدا ، والممثلون من حولى ينظرون الى فى حرج وهم يتساءلون فيما بينهم لماذا أتحمس الى

هذا الحد لقضية خاسرة . ومضت الساعات وانا أبتكر المواقف والمواضيع • ثم تذكرت فجأة :

ــ ولكن ما الفائدة ؟ لقد تعاقد معه آرباكل ، ولعل لديه الآن نفس أفكارى هذه . كم كنت غبيا عندما لم أفكر فى ذلك قبله !

ولم أستطع طوال تلك الأمسية ، وطوال الليل أيضا ، أن أفكر فى شيء آخر غير الامكانيات التى تتيحها قصة امثلها مع هذا الطفل

وفى الصباح التالى دعوت الفرقة ــ وأنا فى حالة معنوية سيئة ــ الى اجراء بروفة • ويعلم الله وحده ما الذى جعلنى أفعل ذلك ، اذ لم يكن لدى شيء اجرى عليه بروفات . ولهذا جلست معهم فى البلاتوه وانا فى حالة من التعاسة الشديدة . واقترح احدهم أن احاول البحث عن طفل آخر . طفل زنجى مثلا . ولكننى هززت رأسى فى غير حماس . فقد كان من الصعب أن اعثر على طفل يتمتع بمثل الجاذبية الشخصية التى يتمتع بها جاكى

ثم فجأة ، حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف ، وصل كارليسل روبنسون ــ مدير دعايتنا ــ لاهثا ، منفعلا :

ــ أن الذى تعاقد معه آرباكل ليس جاكى كوجان ؛ وانما والده جاك كوجان !

فوثبت من مقعدى وصرخت :

ــ أسرع ! أطلب الوالد تليفونيا ، وأخبره ان يحضر هنا فى الحال • لأمر هام جدا !

وأصابتنا الانباء جميعا بمس من الكهرباء . وأقبل بعض الممثلين نحوى يضربوننى على ظهرى من فرط السرور والحماس . وعندما سمع موظفو الادارة بالامر جاءوا أيضا

الى البلاتوه لكى يهنشوننى . ولكننى لم أكن قد تعاقدت بعد مع جاكى . وما زال محتملا ان تطرأ نفس الفكرة فجأة على ذهن آرباكل . ولهذا طلبت من روبنسون ان يكـــون حذرا فى حديثه التليفونى ، ولا يشير الى الطفل بأية كلمة:

ـ ولا تقل للوالد نفسه أى شىء قبل ان يصل الى هنا . لاتقل له اكثر من ان المسألة عاجلة جدا ، واننا يجب أن نراه على الفور ، خلال نصف ســـــاعة . فاذا كان لا يستطيع المجىء فاذهب اليه فى الاستديو . ولكن لا تقل له أى شىء قبل أن تجىء به الى هنا

ولم يكن العثور على الوالد سهلا ، اذ أنه لم يكن فى الاستديو . فقضيتها ساعتين فى حالة من التوتر العصبى الفظيع ..

وأخيرا وصل الوالد مضطربا ، مندهشا ، فأطبقت بكلتا يدى على ذراعيه وأنا أهتف :

ـ سيكون قنبلة مثيرة ! سيكون أعظم حادث عــلى الاطلاق ! ولن يكون عليه ان يمثل الا هذا الفيلم الواحد !

واستطردت بهذا الاسلوب المضطرب حتى لقد ظننى فقدت عقلى :

ـ ان هذا الفيلم سيمنح ابنك فرصة العمر !

ـ ابنى ..

ـ نعم ، ابنك ، اذا سمحت لى به من أجل هذا الفيلم فقط ..

ـ وماذا فى ذلك ؟ فى استطاعتك طبعا ان تأخذه !

يقولون ان الاطفال والكلاب هم أحسن من يمثل فى الافلام .. ضع طفلا فى شهره الثانى عشر فى البانيوومعه قطعة من الصابون ، فانه ما يكاد يبدأ محاولاته للامساك

بها حتى يثير عواصف من الضحك • ففي الاطفال جميعا صورة او أخرى من العبقرية ، وسر اللعبة هو أن تعرف كيف تستخلصها منهم • وقد كان ذلك سهلا مع جاكى • فسرعان ما أتقن القواعد الاساسيه القليلة التى كان عليه أن يتعلمها فى فن التمثيل الصامت • وكان فى استطاعته ان يضيف الانفعال الى الحركة ، والحركة الى الانفعال ، وأن يكرر ذلك مرة بعد أخرى دون أن يفقد الايحاء بالتلقائية ••

كان فى فيلم « الطفل » منظر يهم فيه الطفل بأن يقذف احدى النوافذ بحجر بينما يتسلل أحد عساكر البوليس ويقف وراء ظهره • فاذا ما تراجعت يد الطفل الى الوراء ليقذف بالحجر لمست بدلة العسكرى • ويرفع الطفل عندئذ رأسه ، ويراه ، فيتظاهر بأنه يلعب بالحجر ، ويمضى يطوحه فى الهواء ويلتقطه عدة مرات ، ثم يلقى به بعيدا فى براءة •• ويمضى فى طريقه متمهلا أول الامر ، ثم طائرا كالسهم فجأة

وأجرى جاكى بروفة هذا المنظر ثلاث مرات او اربعا فصار متمكنا من الحركة الى حد أن الانفعال أصبح يصحبها بشكل طبيعى • أى أن الحركة - بعبارة اخرى - كانت تستثير فيه الانفعال • وكان هذا المشهد من افضل مشاهده ، ومن ابرز القمم العالية فى الفيلم كله

على أنه لم تكن كل المشاهد بالطبع تنفذ بهذه السهولة فغالبا ما كانت تتعبه المشاهد الابسط كما هو الحال دائما . وقد أردت منه ذات مرة أن يتأرجح بشكل طبيعى على حافة باب ، فاذا به - لافتقاره الى أية فكرة تشغل ذهنه - يعجز عن الاندماج . واضطررنا الى الاستغناء عن المنظر ••

وسرعان ما انتهى عقد والد جاكى مع آرباكل ، فصار فى استطاعته أن يلازم ابنه فى الاستديو . وقام فيما بعد بتمثيل دور النشال ، وكانت له مساعدات قيمة فى بعض الاحيان . ففى أحد المناظر أردت أن أجعل جاكى يبكى بكاء حقيقيا اثناء قيام اثنين من موظفى الملجأ بانتزاعه منى . ومضيت لهذا الغرض أروى له كافة ألوان الحكايات المفزعة ، ولكنه ظل فى حالة من الابتهاج والخبث لا حدود لها

واذا بالوالد — بعد انتظار ساعة كاملة — يقول لى :

— سأجعله يبكى

قلت وفى نفسى احساس بالذنب :

— حذار أن تفزعه أو تؤذيه

فأجاب : « لا .. لا .. لا .. »

وكان جاكى فى حالة من الابتهاج الشديد الى حد أن قلبى لم يطاوعنى أن أبقى وأرى ما سيفعل به والده ، فذهبت الى حجرة الملابس . وما كادت تمضى لحظات حتى بلغنى صوت بكائه وصراخه !

ثم جاء الوالد يقول : « انه مستعد تماما »

وكنت فى هذا المشهد أستنقذ الطفل من براثن موظفى الملجأ ، وبينما هو يبكى أربت أنا عليه وأقبله . وبعد أن فرغنا من المنظر سألت الوالد :

— كيف جعلته يبكى ؟

— لا شىء أكثر من أننى أنذرته اذا لم يبك بأن ننتزعه من الاستديو ونرسله بالفعل الى ملجأ

فتحولت الى جاكى وضممته بين ذراعى لاهدىء من روعه . كان خداه ما زالا مبتلين من أثر الدموع . وقلت له:

— لن يأخذك احد من هنا

فاذا به يهمس لى :
ـ أعلم ذلك ، لقد كان بابا يهوشنى فقط !

***

أثناء القيام بمونتاج «الطفل» زار الاستديو صاموبل رشفسكى ، بطل الشطرنج العالمى الذى كان طفلا هو الآخر .. فى السابعة من عمره !

كان مقررا أن يقدم عرضا فى النادى الرياضى ، يلعب فيه ضد عشرين رجلا فى وقت واحد ، من بينهم بطل كاليفورنيا « دكتور جريفث » . وكان طفلا ذا وجه شاحب، مدبب الملامح ، وعينين واسعتين تنظران فى تحدالى الغرباء. وكان البعض قد حذرونى مقدما ، وقالوا لى انه غلام عصبى، ونادرا ما يصافح أى انسان

وبعد أن قام مدير اعماله بتقديم كل منا الى الآخر ، وقف الغلام يحملق فى وجهى دون ان يتكلم . فاستأنفت عملى فى المونتاج ، صارفا نظرى الى لقطات الفيلم

وبعد لحظات تحولت اسأله :

ـ هل تحب الخوخ ؟

فأجاب :

ـ نعم

ـ حسن . لدينا شجرة مليئة به فى الحديقة . تستطيع ان تتسلقها وتقطف بعضا منه . وأن تحضر واحدة لى فى نفس الوقت ..

فأضاء وجهه :

ـ أوه .. عظيم ! أين الشجرة ؟

قلت مشيرا الى مدير دعايتنا :

ـ سيريك اياها كارل

وبعد ذلك بربع ساعة ، عاد مبتهجا ومعه كثير من الخوخ • وكانت هذه بداية صداقتنا

وسألني : « هل تلعب الشطرنج ؟ »

فاعترفت بأنني لا أستطيع

فقال متفاخرا :

ـ سأعلمك . تعال الليلة لتراني ألعب . سألاعب عشرين رجلا في وقت واحد

فوعدته بالحضور ، وقلت له انني سأدعوه الى العشاء بعد ذلك • فقال : « حسن • سأفرغ منهم بسرعة ! »

ولم يكن ضروريا أن يفهم الانسان في الشطرنج لكي يدرك غرابة ما جرى في تلك الليلة : عشرون رجلا في منتصف العمر مكبون على رقعات الشطرنج ، وقد بلبلهم طفل في السابعة يبدو أصغر حتى من سنه • فمجرد مراقبته وهو يتنقل بينهم الى المائدة نصف المستديرة كان في حد ذاته مسرحية مثيرة

كان الغلام مذهلا . ولكنه أثار في نفسي القلق .. فقد أحسست وأنا أراقب وجهه الصغير يحتقن ثم يشحب من كثرة الجهد والتركيز •• انه يدفع الثمن من صحته ••

ويصيح أحد اللاعبين :

ـ هنا ••

فيتجه الغلام اليه ، ويفحص الرقعة ثواني معدودة ، ثم بحسم شديد يقوم بنقله ، أو يقول :

ـ كش مات !

فتسري همهمات ضاحكة بين صفوف المتفرجين

وقد شهدته بنفسي يقتل ثمانية ملوك متوالية في سرعة خارقة ، الامر الذي أثار قهقهة عالية ، وعاصفة من التصفيق ثم اتجه بعد ذلك الى رقعة الدكتور جريفث . وصمت

المتفرجون ، وبعد ان قام بنقلة مفاجأة ، تحول براسهورآنى فأضاء وجهه ، ولوح لى بما معناه أنه لن يتأخر كثيرا

وبعد أن قتل ملوك عدد آخر من اللاعبين ، تحول الى الدكتور جريفث الذى كان يفحص الرقعة بتركيز شديد

وقال الطفل فى ضيق شديد :

ـ ألم تنقل بعد ؟ ..

فهز الدكتور رأسه :

ـ أوه . هيا أسرع !

فابتسم جريفث

فنظر الغلام اليه نظرة حادة ، وقال :

ـ لن تستطيع أن تهزمنى ! اذا نقلت هنا نقلته اناهناك! واذا حركت هذه القطعة حركت أنا تلك !

ومضى يعدد ـ فى تتابع سريع ـ سبع نقلات أو ثمانى مقدما .. ثم قال :

ـ بهذه الطريقة سنظل هنا طول الليل . فلنتفق اذن على أن تكون النتيجة التعادل ..

ووافق الطبيب !

الفصل الثالث

# صراع على المـــال

* طلاقى .. !
* حملت الفيلم وهربت به من المحضرين !
* كيف عشت فى بيت سائق تاكسى ؟
* لم أعد أحترم التجار

بالرغم من حبى لزوجتى ، فان كلا منا لم يكن يصلح على الاطلاق للآخر . لم يكن خلقها سيئا ، ولكن كانت لهـــا طبيعة القطة . ولم أستطع أبدا أن أنفذ الى عقلها الموشى بشرائط ملونة من الحمق !

كانت دائما متقلبة ، ودائما تتطلع الى آفاق جديدة . وبعد زواجنا بعام ولد لنا طفل ، ولكنه لم يعش غير ثلاثة أيام . فكان هذا بداية أفول نجم زواجنا . وبالرغم من وجودنا تحت سقف واحد فاننا لم نعد نلتقى الا نادرا . فهى مشغولة بعملها بقدر ما أنا مشغول بعملى . وصـــار بيتنا بيتا حزينا ، كلما عدت اليه وجدت المائدة معـــدة لشخص واحد ، وتناولت طعامى وحيدا . وكانت فى بعض الاحيان تغيب أسبوعا دون ان تترك وراءها كلمة ، فلاأعرف أنها غائبة الا من الباب المفتوح لغرفة نومها الخالية

وأخيرا وقعت الفرقة . وكان ذلك أثناء الاعداد لمونتاج فيلم الطفل . كنت أقضى عطلة آخر الاسبوع عنـــد آل فى بانكس ( اذ كان دوجلاس ومارى قـــد تزوجا الآن ) . ونقل الى دوجلاس ما يتردد من شائعات حول ميلوريد قائلا : « أعتقد أنك يجب أن تعرف »

ولكن ما مدى صحة هذه الاشاعات ؟ ذلك هـــو ما لم ارغب أصلا فى التحقق منه . وعندما واجهت بها ميلوريد أنكرتها فى برود . فقلت لها :

ــ على أية حال نحن لا نستطيع أن نواصل حياتنا هكذا

فساد صمت قصير • ثم نظرت ميلوريد الى نظرة باردة وسألت : « ماذا تريد أن تفعل ؟ »

وكانت تتكلم بغير ادنى انفعال ، حتى لقد صدمت قليلا . وشرعت أقول بلهجة هادئة :

ـ أعتقد اننا .. اننا .. يجب أن ننفصل

وتساءلت ماذا سيكون يا ترى رد الفعل عليها • ولكنها لم تقل شيئا ، فاستطردت بعد صمت قصير :

ـ اعتقد أن كلا منا سيكون أسعد حالا . فأنت شابة، وما تزال الحياة منبسطة أمامك . وكل شيء يمكن بالطبع أن يتم بروح ودية • ففي استطاعتك أن ترسلى محاميك لمقابلة محامى •• وكل ما ترغبين فيه يسوى بينهما

فقـــالت :

ـ كل ما أرغب فيه قدر من المال يكفى لرعاية أمى

فتطوعت قائلا :

ـ لعلك تفضلين أن نناقش الامر فيما بيننا ؟

ولكنها بعد أن فكرت لحظة ، قالت :

ـ اعتقد أننى افضل مقابلة المحامى

فأجبت :

ـ لا بأس . اما فى الوقت الحاضر فستبقين انت فى البيت وانتقل انا الى النادى الرياضى

وافترقنا بروح ودية ، بعد ان اتفقنا على انها ستطلب الطلاق على اساس « القسوة العقلية » ، واننا لن نصرح للصحافة بأى شيء

وفى الصباح التالى قام وصيفى توم هارنجتون بنقل أمتعتى الى النادى الرياضى • فكانت هذه غلطة من جانبى اذ انتشر نبأ انفصالنا بسرعة ، وشرع الصـــحفيون يتصلون تليفونيا بميلوريد • وجاءوا أيضا الى النادى ، ولكننى رفضت أن أراهم أو أصرح لهم بشيء • أما هى ،

فقد بادرت بقنبلة في الصفحة الاولى ، معلنة أنني هجرتها، وأنها ستطلب الطلاق بسبب القسوة العقليـــة • وكان الهجوم خفيفا بالطبع اذا ما قورن بمقاييس أيامناالحاضرة على أنني اتصلت بها لاعرف ما الذى جعلها تقـــابل الصحفيين • ففسرت ذلك بأنها فى البـــداية رفضت ، ولكنهم قالوا لها انني أدليت بتصريح خطير جدا وكان ذلك بالطبع كذبا يحاولون به تضخيم الخلاف بيننا • فقلت لهم ذلك •• ووعدتني هي بألا تدلى بأية تصريحات أخرى •• ولكنها فعلت !

وكان القانون فى كاليفورنيا يعطيها الحق فى الحصول منى على ٢٥ ألف دولار• فعرضتعليها مائة ألف ،فوافقت على قبولها كتسوية نهائية • ولكنها فى اليوم المحـــدد لتوقيع الاوراق النهائية عدلت فجأة ، ودون أن تصرح بأى سبب ••

ودهش المحامى وقال لى :

ـ فى الجو رائحة شيء ••

وقد كان •• !

ففى تلك الايام كانت بينى وبين « فرست ناشونال » خلافات حول فيلم الطفل • اذ كان الفيلم طويلا من أربع بكرات ، وكانوا يريدون أن يوزعوه على أساس أنه ثلاثة أفلام من بكرتين • وكان معنى هذا ألا يدفعوا لى عن فيلم الطفل الا ٤٠٥ ألف دولار • ولما كنت قد انفقت عليه حوالى نصف مليون ، بالاضافة الى ١٨ شهرا من العمل ، فقلت لهم انني لن أسمح بذلك ولو شـــاب الغراب • وتبادلنا التهديدات باللجوء الى القضاء • ولما كانوايعرفون أن فرصهم ضئيلة من الناحية القانونيـــة ، فقد قرروا العمل من خلال ميلوريد للوصول الى الفيلم والحجز عليه باسمها !

ولما كنت لم أفرغ بعد من مونتاج الفيلم ، فقد ألهمتنى غريزتى أن أستكمله فى ولاية أخرى • وهكذا سافرت الى مدينة « سولت ليك » مع اثنين من المساعدين وحوالى ٤٠٠ ألف قدم من الشرائط موزعة على خمسمائة بكرة

وأقمنا فى فندق « سولت ليك » ، حيث فتحنا علب الشرائط فى احدى غرف النوم ، واستخدمنا كل قطعة من الاثاث ـ سواء كانت شماعة أو درجا أو دولابا ـ لكى تعلق عليها البكرات • ولما كان القانون يمنع الاحتفاظ بكل ما هو سريع الاشتعال فى الفندق ، فقد كان علينا أن نعمل سرا • وفى هذه الظروف الصعبة استأنفنا مونتاج الفيلم • وكانت لدينا أكثر من ألفى لقطة علينا أن نفرزها جميعا • ومع أنها كانت تحمل أرقاما ، فاننا فى بعض الاحيان كنا نفقد الاثر ، ونقضى الساعات نبحث عن احداها فوق السرير وتحت السرير وفى الحمام الى أن نجدها • وبرغم هذه العقبات التى تدفع الى اليأس ، وبرغم الافتقار الى الادوات اللازمة ، فاننا استطعنا ـ بمعجزة ما ـ أن نفرغ من العملية

ولم يكن أحد قد شاهد الفيلم غير هيئة الاستديو • وعندما عرضناه كاملا على جهاز المونتاج لم يبد لنا أن ما فيه يضحك أو يسلى • ولم نستطع أن نطمئن انفسنا الا بالاعتقاد باننا فقدنا الحماس تجاهه

وقررنا عندئذ أن نجتاز به الامتحان القاسى ، ونعرضه فى دار السينما المحلية دون اعلان سابق • وكانت الدار واسعة ، وممتلئة حتى ثلاثة أرباعها بالمتفرجين • وجلست يائسا فى انتظار ظهور الفيلم وقد بدا لى أن هذا الجمهور بالذات ليس مستعدا للعطف على أى شيء اقدمه له • •

وبدأت أشك في سلامة تقديري بشـــــأن ما يحبه الجمهور وما يستجيب له في الكوميديا • فقد أكون وقعت في خطأ ما • وقد يطيش سهم العمل كله ، ولا يفهمه جمهور المشاهدين • وراودني الخاطر المزعج بأن الفنان الكوميدي يمكن في بعض الاحيان أن تكون أفكاره عن الكوميديا مسرفة في الخطأ

وفجأة وثب قلبي الى حلقي وقد ظهر على الستار عنوان: «شارلى شابلن في أحدث أفلامه •• الطفل» واذا بصيحات ابتهاج تتعالى من صفوف المتفرجين ، وتصفيق موزع هنا وهنـــاك • ولكن ذلك ـ على العكس ـ أزعجني : فمن المحتمل أنهم يتوقعون أكثر مما سيجدونه، وأنهم سيصابون بخيبة أمل

كانت المشاهد الاولى تمهيدية ، بطيئة ، جادة ، سببت لي مزيدا من التوتر والقلق المرير • أم تهجر طفلها وتتركه في سيارة ، فيأتي اللصوص ويسرقون السيارة بعد أن يضعوه بجوار صندوق قمامة • ثم ظهرت أنا •• الصعلوك فاذا بالضحك يتعالى ، ويتزايد • لقد ظهـــــرت النكتة أمامهم ! ومنذ تلك اللحظة لم يعد ممكنـــا أن أخطىء • عثرت على الطفل • وتبنيته • وضحكوا وأنا أصنع له سريرا معلقا من شوال قديم • وهتفوا وأنا أرضعه من براد شاي يحمل بوزه حلمة من الجلد • وصرخوا وأنا أثقب دائرة في الكرسي الخيزران وأضعه فوق القصرية •• والحقيقة أنهم لم يكفوا عن الضحك بطريقة هســـتيرية طوال الفيلم

والان وقد تم العرض التجريبي للفيلم ، شــعرنا أن مهمة المونتـــاج قد انتهت • فحزمنا أمتعتنـــا وغادرنـــا « سولت ليك » متجهين شرقا

وفى فندق « ريتز » بنيويورك ، وجدت نفسى مضطرا الى التزام غرفتى بسبب المحضرين الذين أوفدتهم شركة « فرست ناشونال » لاعلانى بالحجز على الفيلم باسم قضية طلاق ميلوريد • وظل هؤلاء المحضرون ثلاثة أيام يفرضون رقابة يقظة حول ردهة الفندق ، حتى ضقت ذرعا • فلما دعانى فرانك هاريس الى العشاء فى بيته لم أستطع أن أقاوم الاغراء

وفى تلك الليلة اخترقت ردهة الفندق امرأة محجبة ، واستقلت سيارة تاكسى من أمام الباب • وكانت هذه المرأة أنا ! اذ اقترضت ثياب شقيقة زوجتى والبستها فوق البدلة ، ثم خلعتها داخل التاكسى قبل أن أصل الى بيت فرانك

فى ذلك المساء عزمت على أن أقضى ليلتى فى فندق آخر ، لاحتمال أن يكون المحضرون ما زالوا يحاصرون المكان الى هذه الساعة

ولكن جميع الفنادق فى نيويورك كانت مشغولة • وبعد بحث دام أكثر من ساعة التفت لى سائق التاكسى ، وكان رجلا خشن المظهر فى الاربعين من عمره ، وقال :

ــ اسمع •• انك لن تجد لنفسك مكانا فى أى فندق فى هذه الساعة •• وخير لك أن تأتى معى الى بيتى ،وتنام حتى الصباح

فتوجست شرا فى البداية • ولكن عندما جاء ذكر زوجته وأولاده أحسست أن كل شىء سيكون على مايرام• فضلا عن أننى سأكون فى مأمن من المحضرين

فقلت :

ــ هذا كرم كبير منك

ثم عرفته بنفسى

فدهش الرجل • وضحك قائلا :

ـ سيطير صواب زوجتى !

ووصـــلنا الى منطقة مزدحمـة فى برونكس ، حيث البيوت فى صفوف متـــوازية مبنية بالطوب الاحمر • ودخلنا واحدا من هذه البيوت ، أثاثه قليل ، ولكنه نظيف نظافة مطلقة • وقادنى الرجل الى غرفة خلفية بها سرير كبير • وفى السرير كان ابنه البالغ من العمر اثنى عشر عامـا يستلقى غارقا الى أذنيه فى النوم • واذا بالرجل يقول :

ـ انتظر !

ثم يرفع الغـــلام ويقذف به من أعلى حافة السرير ، والغلام نائم كما هو لا يتململ • ثم التفت الى قائلا :

ـ أدخل أنت ! ••

وأوشكت أن أعيد النظر فى الامر • ولكن كرم الرجل كان يلمس القلب الى حد لا يسمح للانسان بأن يرفضه وبعد أن أعطانى قميصا نظيفا ، تسللت الى السرير فى حذر خشية أن أوقظ الغلام ••

ولم تغفل عيناى لحظة واحدة • وعندما اســـتيقظ الغلام أخيرا ، وارتدى ثيابه ، رأيته من خلال جفـــونى نصف المغلقة يلقى على نظرة عابرة ثم يغادر الحجرة دون أن يبدى أى اهتمام

ولكنه عاد بعد دقائق ومعه فتاة فى الثامنة ، يبـدو بوضوح أنها أخته ، وتسـللا الى الحجرة • ورأيتهما ـ وأنا ما زلت متظاهرا بالنوم ـ يحملقان فى وجهى بدهشة وعيون مفتوحة • ثم وضعت الفتاة يدها على فمها لتحبس ضحكة مفاجئة ، وغادر كلاهما الحجرة

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى بدأت همهمات تتصاعد فى الممر • ثم سمعت صوت السائق يفتح الباب

بحذر ، ويهمس ليرى ما اذا كنت قد استيقظت فأكدت له ذلك ...

فقال :

ـ الحمام جاهز من أجلك . انه فى اخر الحوش

وقدم لى روبا ، وشبشبا ، وفوطه ، وقال :

ـ ماذا تحب فى الافطار ؟

قلت كمن يعتذر :

ـ أى شىء

ـ أطلب ما تشاء . ما رايك فى لحم وبيض ، وخبز وقهوة ؟

ـ رائع !

وكان توقيتهم مضبوطا تماما . فبمجرد أن فرغت من ارتداء ثيابى دخلت زوجة الرجل الى الغرفة الامامية بافطار ساخن

ولم يكن فى الحجرة من الاثاث غير مائدة فى الوسط، ومقعد ذى مسندين ، وكنبة . وعلى الحائط وراء الكنبة، وفوق رف المدفأة ، كان يتناثر عدد من الصور العائلية فى براويز

وبينما أنا أتناول افطارى كان فى استطاعتى أنأسمع صوت زحام طاحن من الاطفال والكبار يتجمع خارج البيت ..

وابتسمت زوجة الرجل قائلة وهى تدخل القهوة :

ـ لقد بدأوا يعرفون أنك هنا

ثم دخل سائق التاكسى وقال وهو فى حالة شديدة من الانفعال :

ـ اسمع . فى الخارج الان زحام ضخم ، ويزداد تضخما . فاذا سمحت لهؤلاء الاولاد بالقاء نظرة عليك

فانهم سينصرفون . والا فالصحافة قد تعلم بالأمر ، وتقع أنت فى المصيدة

فأجبت :

ـ دعهم يدخلون بكل سرور

وهكذا دخل الاطفال تتصاعد ضحكاتهم ، وداروا فى طابور حول المائدة وانا اشرب قهوتى .. بينما السائق فى الخارج يقول :

ـ بهدوء .. بهدوء .. قفوا صفا .. وادخلوا اثنين اثنين

ودخلت امرأة شابة ، يرتسم على وجهها القلق والجد، ونظرت الى وجهى كأنها تبحث عن شيء ، ثم انفجـــرت باكية :

ـ لا .. انه ليس هو .. كنت اظنه هو ..

ومضت تنشج ..

وكان احدهم فيما يبدو قد قال لها : « من تظنين فى الداخل ؟ انك لن تصدقى نفســـــك » .. ثم قادوها الى مكانى وهى تتوقع أن ترى شقيقها الذى كان قد فقـــد فى الحرب ..

وأخيرا عزمت على العودة الى فنـدق « ريتز » بصرف النظر عما ينتظرنى من اعلانات قانونية .. ولكننىعندما ذهبت لم اجد احدا من المحضرين . بل وجدت فىانتظارى برقية من كاليفورنيا ، يخبرنى فيها المحامى بأن كل شيء قد تمت تسويته ، وأن ميلوريد قد قدمت طلب الطلاق

وفى الصباح التالى جاء لزيارتى سائق التاكسىوزوجته فى كامل ثيابهما . وقال السائق ان رجال الصـــحافة يضغطون عليه لكى يكتب لصحف الاحد قصة اقامتى فى منزله . ثم قال بحزم :

ـ ولكننى لن ادلى لهم بحـــرف الا اذا حصلت على موافقتك ..

فقلت له :

ـ لا تتردد

***

والآن جاء السادة فى شركة فيرست ناشونال يحملون بالتواء قبعاتهم فى ايديهم . وقال مستر جوردون ، أحد نواب المدير ، وصاحب عدد كبير من دور العرض فى الولايات الشرقية :

ـ انك تطلب مليونا ونصف مليون من الدولارات بينما نحن لم نر الفيلم بعد

فاعترفت بأن لهم فى ذلك بعض الحق . واعددنا عرضا خاصا للفيلم

كانت ليلة كئيبة ، توافد فيها على القاعة خمســـة وعشرون من عارضى فيرست ناشونال كأنهم ذاهبون الى تحقيق يجريه البوليس . وكانوا يؤلفون جماعة فظة ، متشككة ، غير عاطفة

وبدأ عرض الفيلم بعنوان افتتاحى يقول : « فيلم يحمل بسمة ، وربما أيضا دمعة » . فقال مستر جوردون من باب التفضل واظهار سعة الافق :

ـ لا بأس !

وكنت منذ العرض الذى جرى فى مـــدينة « سولت ليك » قد كسبت شيئا من الثقة بالنفس ، ولكن هذه الثقة كلها تبددت قبل أن يصل العرض الى منتصف الفيلم فالمشاهد التى انتزعت الصرخات العالية في العرض السابق لم تكن لتنتزع الان أكثر من ضحكة باهتة أو ضحكتين . وعندما انتهى العرض واضيئت الانوار ســـاد الصمت

فترة • ثم بدأوا يتمطون ويدعكون عيونهم ويتكلمون فى مسائل اخرى :

ـ أين تتناول عشاءك الليلة يا هارى ؟

ـ سآخذ زوجتى الى « بلازا » وبعـد ذلك نذهب الى استعراض زيمفيلد

ـ انه استعراض طيب كما سمعت

ـ أتحب ان تأتى معنا ؟

ـ كلا • اننى سأغادر نيويورك الليلة • كى احضر حفل تخرج ابنى

وظلت اعصابى طوال هذه الثرثرة على حافة السكين ، الى ان بادرتهم أخيرا :

ـ حسنا • ما حكمكم يا سادة ؟

فتململ البعض فى حرج ، ونظر البعض الاخــر الى الارض • أما المستر جوردون ، الذى كان واضحا انــه الناطق بلسانهم ، فراح يتمشى ذاهبا عائدا • كان رجلا بدينا ، ثقيل الوزن ، له وجه مستدير يشبه وجه البومة ونظارة سميكة • وقال :

ـ شارلى • ان على أولا أن أجتمع بشركائى ••

فقاطعته بسرعة :

ـ نعم اعلم ذلك ، ولكن ما رأيك فى الفيلم ؟

فتردد •• ثم ابتسم قائلا :

ـ شارلى • نحن هنا لنشتريه ، لا لنقول رأينا فيه !

وأثار هذا التعليق ضحكة أو ضحكتين ساخرتين •• فقلت :

ـ اننى لن اطالبكم بثمن اضافى للاعجاب به

فتردد مرة اخرى وهو يقول :

ـ بصراحة • كنت أتوقع شيئا آخر

ـ ماذا كنت تتوقع ؟

فمضى يقول ببطء :

ـ فى الواقع يا شارلى انه فى مقابل مليون ونصف ..

حسنا ، ليس فى الفيلم ما يساوى ذلك

ـ ماذا تريد ؟ ان ينهار كوبرى لندن مثلا ؟

ـ لا لا .. ولكن فى مقابل مليون ونصف ..

وتسلخ صوته ، حتى صار حادا كأصوات النساء

فنفد صبرى ، وقلت :

ـ حسنا ايها السـادة . هـذا هو الثمن . وفى استطاعتكم ان تقبلوا او ترفضوا

واقبل نحوى عندئذ « ج . د . وليامز » رئيس مجلس الادارة ، وشرع يتلطف معى :

ـ شارلى . انه فى رأيى فيلم رائع . فيلم انسانى . مختلف .. « لم تعجبنى كلمة مختلف هذه » كل ما عليك هو أن تصبر قليلا ، وسنسوى الامر

قلت بلهجة قاطعة :

ـ ليس هناك ما يحتاج الى تسوية . سأمهلكم أسبوعا واحدا تحزمون فيه أمركم

ذلك انني ـ بعد الطريقة التى عاملونى بها ـ لم أعد أشعر نحوهم بأى احترام

على أنهم فى النهاية حزموا أمرهم بسرعة

وعقد المحامى اتفاقا معهم يقضى بحصولى على خمسين فى المائة من الارباح بعد أن يستردوا المليون والنصف الذى دفعوه . وأن يكون ذلك على أساس أنهم استأجروا الفيلم لمدة خمس سنوات .. وبعدها يعود الى حيـازتى كما هو الحال بالنسبة لبقية أفلامى

وهكذا تحررت من عبء مشاكلى العائلية والمالية معا ، وبدأت أشعر اننى أطير فى الهواء فلقد عشت حيـــــاة المعتزل طوال اسابيع قضيتها مختبئا ، لا يقع بصرى الا على الجدران الاربعة لحجرة نومى فى الفندق .. والان بدأ الاصدقاء ــ بعد أن قراوا فى الصحف عن مغامرتى مع سائق التاكسى ــ يتصلون بى ، وبدأت تنبسط امامى من جديد حياة بلا عوائق . حياة حرة ، رائعة ..

## الفصل الرابع

# لعنة الملك

* أمى .. والسيد المسيح !
* البحث عن أفكار فى المخزن ..
* السباكون بعد الطبقة العاطلة
* الى انجلترا مرة أخرى

كنت احب ان ابقى فترة اطول فى نيويورك • ولكن كان هناك عمل ينتظرنى فى كاليفورنيا • اذ كنت أنوى أن أفرغ بسرعة من عقدى مع فيرست ناشونال حتى أبدأ العمـــل مع « الفنانين المتحدين »

وكانت العودة الى كاليفورنيا شيئا يثبط الهمة بعد حياة التحرر والخفة والوقت الممتع الذى قضيـــيته فى نيويورك • كما ان مشكلة اتمام اربعة افلام ذات لغتين من أجل فيرست ناشونال كانت تحلق فوق رأسى كمهمة لا خلاص منها

وقضيت عدة أيام اتجول فى الاستديو امارس عـادة التفكير • فالتفكير كعزف الكمان أو البيانو • وأنا كنت قد نسيت هذه العادة • واوغلت فى حياة نيويورك المتجددة ، ولم أعد أستطيع ان احلل نفسى من تأثيرها • ولهذا قررت — مع صديقى الانجليزى دكتور سيسيل رينولدز — أن نذهب الى كاتالينا فى رحلة لصيد السمك

وكان الدكتور رينولدز عبقريا فى جراحة المخ ، حقق فيها نتائج معجزة • وقد عرفت الكثير من تواريخ الحالات التى عالجها • ومنها حالة طفلة مصابة بورم فى المـخ كانت تصاب كل يوم بعشرين نوبة ، وتنحدر نحو البلاهة • ولكنها بعد الجراحة التى أجراها سيسيل شفيت تماما ، وكبرت لتصبح فتاة جامعية لامعة

ولكن سيسيل كانت به « لحسة » .. فقد كان مجنونا بالتمثيل . وهذا الولع هو الذى اجتذبه نحوى كصديق .
وكان يقول لى : « أن المسرح يغذى الروح .. »
وكثيرا ما كنت أجادله قائلا : ان عمله فى الطب جدير بأن يكون غذاء روحيا كافيا ، فأى شيء اكثر اثارة من تحويل شخص ابله إلى جامعى لامع ؟ ولكنه كان يقول :
ــ ليس فى ذلك الا مجرد العلم بأماكن الألياف العصبية . اما التمثيل فتجربة نفسية توسع آفاق الروح ..
وسألته ذات مرة لماذا احترف جراحة المخ .. فأجاب :
ــ لما فيها من اثارة مسرحية !
وكثيرا ما كان يقوم بأدوار ثانوية فى مسرح الهواة فى باسادينا . كما انه قام ايضا بدور القس الذى يزور السجن فى فيلمى « العصر الحديث »
وبعد عودتى من رحلة الصيد جاءت الانباء بأن صحة أمى تحسنت ، وأننا نستطيع الآن وقد انتهت الحرب أن نحضرها فى سلام الى كاليفورنيا .. فارسلت توم الى انجلترا ليرافقها اثناء الرحلة فى الباخرة . وتضمنتها قائمة المسافرين تحت اسم مستعار
وكانت تصرفات امى طبيعية تماما طوال الرحلة . فهى تتناول عشاءها كل مساء فى قاعة الطعام الرئيسية ، وتشارك اثناء النهار فى الالعاب الرياضية التى تجرى على ظهر الباخرة
وعندما وصلت الى نيويورك كانت لطيفة جدا ، ومتزنة ، الى ان حياها رئيس ادارة الهجرة قائلا :
ــ اهلا اهلا مسز شابلن ! هذه حقا فرصة سعيدة ! اذن فأنت والدة « شابلننا » الشهير
فاذا بها تقول فى لهجة بالغة العذوبة :

ـ نعم . وانت السيد المسيح
فتحول وجه الرجل الى شيء يستحق الدراسة ..وبدا عليه التردد ، ونظر لحظة الى توم ، ثم قال بأدب :
ـ اتسمحين بالمجيء معي لحظة يا مسز شابلن ؟
وادرك توم انه ستكون هناك بعض المتاعب . على ان ادارة الهجرة ـ بعد الكثير من البرقيـــات ـ سمحت بدخولها على اساس اقامة تتجدد كل سنة وبشرط الاتكون عالة على الدولة
ولم أكن قد رايت امى منذ آخر مرة زرت فيها انجلترا . اى منذ عشرة اعوام .. ولهذا فانني صدمت قليلا عندما فوجئت بسيدة نحيلة عجوز تهبط من القطار فى باسادينا . اما هي فعرفت سيدنى وعرفتنى على الفـــور ، وكانت طبيعية تماما
ورتبنا امر اقامتها بجوارنا فى بيت صيفى على ساحل البحر ، ومعها زوجان يديران أمور البيت ، وممرضـــة مدربة لرعايتها . واعتدنا أنا وسيدنى أن نزورهابين وقت وآخر ، ونقضى الامسيات معها فى العاب التسلية . امـــا اثناء النهار فكانت تحب ان تقـــــوم برحلات خلوية فى سيارتها . وكانت تجيء الى الاستديو أحيانا ، فأعـرض لها أفلامى
وأخيرا تم افتتاح فيلم الطفل فى نيويورك . فكان نجاحا هائلا . واثار جاكي كوجان ـ كما تنبأت عندما قابلت والده أول مرة ـ ضجة مثيرة . وكان من نتائج نجـــــاحه فى « الطفل » انه جمع فى حياته العملية اكثر من اربعة ملايين دولار . ولم يكن يمضى يوم دون أن تتلقى قصاصات مـن التعليقات النقدية الرائعة . لقد اعتبر فيلم «الطفل» من الكلاسيكيات .. ولكننى لم أجد مطلقا الشجاعة للذهاب الى نيويورك ومشاهدته ..وفضلت أن أبقى فى كاليفورنيا

واسمع عنه ..

على أن النجاح الكبير لفيلم الطفل لم يكن نهاية متاعبى: فمازال على ان اقدم أربعة افلام الى فيرست ناشونال . وهكذا مضيت فى يأس صامت اتجول فى مخزن المهمات علنى اعثر على شىء يلهمنى فكرة : بقايا مناظر قديمة ، باب سجن ، بيانو ، جذر شجرة . واذا بعينى تقع فجأة على مجموعة من عصى الجولف القديمة .. عــز الطلب ! الصعلوك يلعب الجولف ـ « الطبقة العاطلة »

وكانت القصة بسيطة : الصعلوك يقحم نفسه فى كل متع الاثرياء .. يسافر الى الجنوب من أجل الدفء، ولكن يسافر تحت عربات القطار لا فى داخلها ، ويلعب الجولف بكرات يعثر عليها فى الملعب ، وفى احدى الحفلات التنكرية يختلط بالاثرياء « متنكرا » فى ثياب صعلوك ويقع فى حب فتاة جميلة . وبعد مغامرة غرامية فاشلة يهــــرب من الضيوف الغاضبين ، ويمضى مرة اخرى فى طريقه

ووقع لى اثناء تصوير احد المناظر حادث طفيف بسبب وابور اللحام ، اذ اخترقت حرارته بنطـــلونى المغطى بالاسبستوس العازل . واضطررنا أن نضيف طبقة أخرى من الاسبستوس . ولكن كارل روبنســـون رأى فى ذلك فرصة للدعاية . وأبلغ الصـــحافة بالقصة . واذا بى افاجأ فى ذلك المساء بعناوين ضخمة تعلن اننى أصـــيبت بحروق بالغة فى الوجه واليدين والجسم . وانهالت على الاستديو مئات من الرســـائل والبرقيـــات والمكالمات التليفونية . ونتيجة لذلك وجدت فى بريدى القادم مــن انجلترا رسالة من هـ . ج . ويلز ، يقول فيها ان اطلاعه على ما حدث لى اصابه بصدمة بالغة . ثم استطرد يقول الى أى حد هو معجب بعملى ، والى أى حد سيكون أمـــرا مؤسفا أن أعجز عن الاستمرار . فأبرقت اليه على الفـــور

اخبره بحقيقة ما حدث

وبعد الانتهاء من فيلم « الطبقة العاطلة »كانت نيتيأن أبدأ فيلما اخر من بكرتين • ومضيت أدير فى ذهنى فكرة فيلم من طراز البرلسك عن مهنة السباكة المريحة • يبدأ المنظر الاول منه بوصول السباكين فى سيارة ليمـــوزين يقودها سائق خاص ، واهبط منها أنا وماك ســـوين . فتستقبلنا بالترحيب الحار سيدة البيت الجميلة – اونا بورفيانس – وتقدم لنا الطعام والشراب • وبعـــد ذلك تقودنا الى الحمام حيث أبدأ العمل على الفور مســتخدما سماعة الاطباء : واضعا اياها على الارض كي أنصت الى المواسير : ثم أدق عليها بأصابعى كما يفعل الطبيببالمريض

ولكننى لم أستطع ان أذهب الى ابعد من ذلك . اذ لم يعد فى استطاعتى ان اركز ذهنى !

ووجدت اننى مرهق الى حد لم أكن اتوقعه . فضلا عن اننى طوال الشهرين السابقين كنت أعانى من رغبة ملحة فى زيارة لندن . وهى زيارة طالما حلمت بها ، وجاء خطاب هـ • ج • ويلز كدافع جديد اليها . ثم اننى – بعد عشر سنوات – تلقيت رسالة من هيتى كيلى • وكانت تقــول فيها : « هل تذكر فتاة صغيرة حمقاء . . . الخ »

كانت الآن متزوجة، وتقيم فى ميدان بورتمان •وكانت تسأل هل يمكننى اذا ذهبت الى لندن ذات يوم أن أزورها

وما كان الخطاب يمتاز بحرارة معينة ،أويثيرفىالنفس كثيرا أو قليلا من الذكريات العاطفية •• فضلا عن أننى خلال عشرة أعوام كنت قد دخلت وخرجت من تجارب غرامية متعددة • ومع ذلك ، فسأزورها

وهكذا طلبت من توم ان يحزم امتعتى ، ومن ريفز ان يغلق الاستديو ويمنح الفرقة أجازة •• فقد انتويت أن اذهب الى انجلترا

الفصل الخامس

# غزو إنجلترا

* دخلت انجلترا كأنى قيصر
* ماذا كتب عنى سومرست موم .. ؟
* الفقر ليس جذابا وليس بانيا للشخصية
* طرقت باب برنارد شو ، ثم وليت هاربا

استيقظت متعبا فى يوم الرحيل فى الثامنة والنصف صباحا . ولكننى اخذت حماما ازال عنى كل التعب ، وعادت تنبض فى نفسى اللهفة الى الرحيل ..الى انجلترا.. وكان صديقى ادوارد فوجوك ـ مؤلف « قسمتى » ومسرحيات اخرى ـ سيسافر معى على ظهر نفس الباخرة : أوليمبيك

وصعد الى الباخرة زحام من رجال الصحافة ، فخشيت أن يكون فى نيتهم مصاحبتنا طوال الرحلة .وقد صاحبنا بالفعل اثنان منهم .. اما الاخرون فغادروا الباخرة فى زورق الكشاف

وانفردت بنفسى اخيرا فى حجرتى المزدحمة بالزهور وسلال الفاكهة المهداة من اصدقائى . لقد مضت عشر سنوات منذ تركت انجلترا ، على ظهر نفس الباخرة ، مع فرقة كارنو . ويومها سافرنا فى الدرجة الثانية . واذكر ان مضيف الباخرة اخذنا معه فى جولة سريعة فى انحاء الدرجة الاولى ، لنرى كيف يعيش النصف الاخر من الركاب . وانه حدثنا طويلا عن ترف المقصورات الخاصة واسعارها التى تدفع الى اليأس ، والآن ها انذا عائد الى انجلترا ! لقد عرفت لندن وانا شاب نكرة من لامبث ، والآن أعود اليها رجلا شهيرا ، ثريا ، كأنما لأراها للمرة الأولى ..

وكنت اتصور انى سأتمكن من الاسترخاء . ولكن لوحة الاستعلامات على ظهر الباخرة بدأت تزخر بنشرات عن وصولى المتوقع الى لنـــدن . وبينما نحن فى منتصف المحيط الاطلنطى داهمتنا عاصفة من البرقيات تحمـــل آلافا من الدعـــوات .. لقد بدأت الهســـتيريا ! .. وعلى لوحة السفينة بدأت تظهر مقتطفات من مقـــالات ( المورننج تلجراف ) و ( اليونايتد نيوز ) .. تقول واحدة منها :

( شابلن يعود عودة الغزاة ! الموكب من ساوثهامبتون الى لندن سيكون كمواكب النصر الرومانية )

وتقول اخرى :

النشرات اليومية عن خط سير السفينة ، وأخبـــار شارلى اثناء الرحلة ، قد فاقتها فى الاهمية البرقيات التى ترد كل ساعة من على ظهر السفينة . والطبعات الخاصة التى تصدرها الصحف بهذه البرقيات تملأ الشـــوارع : تنبىء الناس بأخبار هـــذا الرجل الضئيل العظيم ذى القدمين المتورمتين ) ..

وتقول ثالثة :

( حجز الضباب الباخرة اولمبيك هـذه الليلة خارج ساوثهامبتون . وفى المدينة ينتظر جيش هائل من المفتونين المعجبين لتحية الممثل القادم . والبوليس مشغول باتخاذ الترتيبات اللازمة للتحكم فى الزحام على أرصفة الميناء ، وأثناء الاحتفال الرسمى الذى سيقوم فيه العمدة باستقبال شارلى .. أما الصحف ، فأنها تكتب عن افضل المواقـــع التى يمكن فيها للناس ان يروا شارلى ، تماما كما فعلت فى الايام التى سبقت موكب النصر )

لم اكن فى الواقع مهيأ لمثل هذا النوع من الاستقبال .

صحيح انه رائع وعجيب ، ولكنني كنت افضل لو اخرت زيارتي الى أن أشعر بأنني كفء له . فقد كان ما أحن اليه هو رؤية الاماكن القديمة المألوفة وأن اتجول بهدوء حول لندن ، وان ارى كننجتون وبركستون ، واتطلع الى نافذة ( ٣ شارع برندالي تراس ) واطل في مغلق الخشب الذى عملت فيه مساعدا لقاطعي الاخشاب . وأن أرفع رأسي الى نافذة الدور الثاني عند ( ٢٨٧ شارع كننجتون ) حيث كنت اعيش مع لويز ووالدي . فهذا الحنين كان قد تحول عندي الى شيء كالمرض

واخيرا وصلنا الى شربورج !

وهبط كثيرون من السفينة ، وصعد اليها كثيرون — مصورون وصحفيون — ما هي رسالتي الى انجلترا ؟ ماهي رسالتي الى فرنسا ؟ وهل سأزور ايرلندا ؟ ما هو رأيي في المسألة الايرلندية ؟

ثم غادرنا شربورج واتخذنا طريقنا الى انجلترا .. ولكن ببطء متزايد . وصار التفكير في النوم امرا مستحيلا . وبلغت الساعة الواحدة صباحا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، وأنا ما أزال مفتوح العينين . وأخيرا توقفت محركات السفينة ، ثم دارت في اتجاه عكسي ، ثم توقفت تماما . وبدأت اسمع وقع اقدام تجرى ذاهبة عائدة في الممر خارج مقصورتي . فنظرت من ثقب الباب وكلي أعصاب مشدودة ، يقظى . ولكن الظلام كان دامسا ، فلم أستطع ان ارى شيئا . ولكنني على اية حال سمعت اصواتا تتحدث باللغة الانجليزية

ثم ظهر ضوء الفجر ، فغبت في نوم عميق من اثر الاجهاد ، ولكنني لم أنم أكثر من ساعتين . وما كاد مضيف السفينة يجيئني بالقهوة وصحف الصباح حتى

استيقظت متحفزا كالصقر

كان احد العناوين يقول :

( عودة الممثل تفوق يوم الهدنة )

ويقول آخر :

( زيارة شابلن حديث لندن )

ويقول ثالث :

( ذهاب شابلن الى لندن سيلقى ترحيبا هائلا مؤكدا )

ويقول الرابع ، بحروف ضخمة :

( هذا هو ابننا .. )

وطبيعى انه كانت هناك بعض التعليقات الانتقادية ، منها :

نداء من اجل سلامة العقل !

( بحق السماء ، دعونا نستعيد صوابنا . اننى لا انازع فى ان المستر شابلن رجل رفيع القدر ، وليس يعنينى كثيرا أن أبحث لماذا يشعر بالحنين الجارف الى وطنه الا فى هذه الايام ، ولا لماذا لم يكن لهذا أثر فى السنوات السوداء التى كان فيها الوطن الانجليزى مهددا بالخطر من جانب الالمان . فقد يكون صحيحا ما قيل من أن قيام شـــارلى شابلن بأداء عدد من الحركات الهزلية أمام الكاميرات كان أنفع من أى نشاط يقوم به وراء المدفع .. ) الخ ..



وعلى رصيف ميناء ساوثهامبتون ، حيانى أولا عمـدة المدينة . ثم زجوا بى فى القطار على عجل . وصرنا أخيرا فى الطريق الى لندن

وكان آرثر كيلى ـ شقيق هيتى ـ يجلس معى فى نفس المقصورة . وما زلت اذكر حتى الان منظر الخلاء الاخضر وهو يعبر امامنا فى النافذة ونحن نحاول ان نتبـــادل

الحديث . وما زلت اذكر عنـــدما قلت له انبى تلقيت خطاباً من اخته تدعونى الى العشاء فى بيتها فى ميـــدان بورتمان ، فاذا به ينظر الى نظرة غريبة ، ويبدو عليه الارتباك . ثم يقول :

ــ ان هيتى ماتت كما تعلم !

فصدمت ! وان كنت فى تلك اللحظة لم اســـتطع ان استوعب المعنى الكامل لما ينطوى عليه هذا النبأ . فقد كانت الاحـــداث المتزاحمة كثـيرة . ولكننى برغم ذلك احسست كأنما سرقت منى تجربة رائعة . فهيتى كانت الوحيـــدة ــ من كل اشخاص الماضى ــ التى تمنيت ان أراها مرة أخرى فى هذه الظروف المذهلة

وبدأنا نقترب من ضواحى لندن ..

فنظرت من النافذة فى لهفة وانا احاول عبثا ان اتعرف على اى شارع ، ووراء لهفتى يكمن الخوف من ان تكون لندن قد تغيرت بعد الحرب

والان وقد بدأ انفعالى يحتدم . وخيل الى اننى لن آفوز بشيء غير اللهفة . اللهفة الى ماذا ؟ لا ادرى . فعقلى قد اختلط تماما . ولم أعد قادرا على التفـكير فى أى شيء . كل ما كنت قادرا عليه هو ان انظر الى سطوح المنازل . وأراها كأشياء جديدة ، ولكن حقيقتها غير موجودة . ولا شيء هنالك غير اللهفة . مجرد اللهفة !

وأخيرا بدأ يغلفنا ذلك الرنين الذى تمتاز به محطات السكك الحديدية . لقد دخلنا « ووترلو » وما كدت أخطو خارج القطـــار حتى رايت على نهاية الرصيف الجموع المتزاحمة وقد حجزت بعيدا ، وامامها صفوف من رجال البوليس . وكل شيء متـــوتر ، نابض . ومع اننى كنت عاجزا عن استيعاب أى شيء غير انفعالاتى ، فاننى شعرت

بهم وهم يجروننى عبر الرصيف كما لو كنت مقبوضا على . وعندما اقتربت من الجموع المحجوزة وراء الحبال، بدا التوتر يتحول الى انفجار :

ــ هذا هو ! هذا هو !

ــ شارلى العزيز القديم !

وتطايرت الهتافات ، فى الوقت الذى شحنونى فيه داخل سيارة مغلقة مع ابن عمى أوبرى والذى لم أره منذ خمسة عشر عاما . ولم يكن لدى من حضور الذهن ما يجعلنى أعترض على اخفائى هكذا عن الجموع التى انتظرتنى كل هذا الوقت الطويل

وطلبت من اوبرى ان يتأكد من اننا سنمر فوق كوبرى وستمنستر . فلما تجاوزنا ووترلو ، ومضينا فى طريق يورك ، لاحظت أن المنازل القديمة قد ذهبت وحل محلها بناء ضخم جديد : عمارة ل. سى. سى. ولكننا ما كدنا ننعطف بعد ناصية طريق يورك حتى أشرق علينا منظر كوبرى وستمنستر ! نفس المنظر القديم ، ومبانى البرلمان رافعة رأسها كما كانت دائما .. وقورا ، أزلية . كان المنظر كما تركته بالضبط .. وجعلنى على حافة البكاء ..

واخترت لاقامتى فندق ريتز لانه كان فى ايام طفولتى قد بنى حديثا . وكنت قد مررت يوما أمام مدخله ، والتقطت عينى بعض ما فى داخله من فخامة .. فظللت منذ ذلك الوقت اشعر برغبة شديدة فى أن أرى كيف تبدو بقية أجزائه

وعلى باب الفندق كان ينتظر حشد هائل من الناس ، فالقيت فيهم كلمة قصيرة . ثم صعدت الى غرفتى وفى صدرى رغبة ملحة فى الانفراد بنفسى . ولكن الزحام الطاحن كان فى الخارج ما يزال ، والهتافات لا تكف ،

فاضطررت أن أخرج الى الشرفة عدة مرات لأتقبل تحيات الناس كما يفعل الملوك . والواقع انه من الصعب أن يصف الانسان أحاسيسه في مثل هذه الظروف

وكان جناحي مزدحما بالاصدقاء ، ولكن رغبتي الوحيدة كانت الهرب منهم . وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر ، فقلت لهم انني سأنام قليلا ثم اراهم على العشاء

وما كادوا ينصرفون حتى غيرت ثيابي ، ونزلت في مصعد الاثاث ، وتسللت الى الخارج من باب الخدم دون ان يلحظني أحد . ثم اتخذت طريقي على الفور الى شارع جيرين ، حيث استأجرت سيارة تاكسي ، واخترقت طريقي عبر ( هاي ماركيت ) وميدان ( الطرف الاغر ) وشارع البرلمان وكوبري وستمنستر .. ثم أخيرا ! شارع كننجتون ! ..

وهذا هو الشارع أمامي ! شيء لا يصدق ! نفس الشارع لم يتغير . وكنيسة المسيح في نهاية شارع كوبري وستمنستر ! ومحل « التانكارد » على ناصية شارع بروك

وأوقفت التاكسي على مسافة قريبة من « ٣ شارع بوفوال تيراس » . وسيطر علي هدوء غريب وأنا أمشي في اتجاه البيت . ثم توقفت لحظة أتمعن في المنظر ـ ٣ شارع بوفوال تيراس ! ها هو أمامي ، كأنه جمجمة عتيقة . ورفعت رأسي الى النافذتين العلويتين . حيث كانت أمي تجلس ، مكدودة ، جائعة ، وعقلها يفلت منها . كانتا مغلقتين الآن ، لا تبوحان بشيء ، ولا يبدو أنهما تكترثان بالرجل الواقف طول هذه المدة يحملق فيهما ولكن صمتهما كان في الواقع يعبر عما هو

أكثر من الكلمات

وجاء بعض الصبية أخيرا ، وأحاطوا بى ، فاضطررت أن أواصل السير . وسرت فى اتجـــاه العنبر الواقع خلف شارع كننجتون ، حيث عملت مساعدا لقاطعى الاخشاب. ولكن العنبر الآن كان قد بنى بالطوب الاحمر .. وقاطعو الاخشاب لم يعد لهم وجود

ثم واصلت طريقى الى ٢٨٧ شارع كننجتــون ، حيث أقمت أنا وسيدنى مع أبى ولويز وطفلها الصغير . ورفعت رأسى الى الدور الثانى أحــدق فى نوافذ الغــرفة التى ارتبطت فى ذهنى بتعاسة طفولتى . كم تبدو هذه النوافذ الآن بريئة ، هادئة ، خالية من المعنى

ثم عدت أسير نحو حديقة كننجتون العامة ، مارا فى طريقى بمكتب البريد الذى كان لى فيه دفتر توفير بمبلغ ســـتين جنيها : وهو كل ما تمكنت من ادخاره حتى عام ١٩٠٨ .. وما يزال باقيا حتى هذه اللحظة

وأخيرا هاهى الحديقة ! برغم السنين ما تزال تشيع فيهـــا الخضرة والاسى . ثم بوابة كننجتون ، اول مكان تواعدت مع هيتى على اللقاء عنده . وتمهلت لحظة أتأمل احدى عربات الترام وهى تقف . وصعد شخص الى العربة ولكن لم يهبط منها أحد

ثم واصلت الطريق الى شارع بركستون ، الى المبنى رقم ١٥ فى عمارات جلنشو .. حيث الشقة التى اثتناهـــا أنا وسيدنى . ولكن انفعالاتى كانت قد استنفذت تماما ، ولم يتبق فى نفسى غير حب الاستطلاع

وفى طريق عودتى عرجت على نادى « هورنز » لاتنـــاول بعض الشراب . وكان فى أيامه يعتبر من النوادى الراقية، بمراياه المتقنة ، وقاعته المخصصة للبلياردو ، والبـــار

المصنوع من خشب الماهوجني . وكانت قاعته الرئيسية هي المكان الذى أقيمت فيه آخر حفلة لصـــالح والدى . اما الان فقد صار النادي متواضعا ، وان كان قد بقى على حاله ..

وعلى مقربة من النادي كان المكان الذى تلقيت فيــــه دراستى لمدة عامين : مدرسة المجلس البلدى بشــــارع كننجتون ..

وعندما ألقيت نظرة على فنائها وجدت المساحةالمرصوفة بالاسفلت فيها قد انكمشت نتيجة اقامة مبان جديدة

وطوال هذه الجولة فى انحاء كننجتون ، كان كل ماحدث لى فى الماضى يبدو كأنهحلم ، وكل ماحـــدث آى فى امريكا يبدو كأنه وحده الحقيقة . ومع ذلك كان ينتابنى طوال الوقت احساس غير مريح بأن هذه الشوارع الفقـــيرة الرقيقة قد تـــكون لديها القدرة حتى الان على ان تطبق على ببأسها كما تطبق الرمال الناعمة ..



كتب الكثير من الكلام الذى لا معنى له عن ميلى الى الوحدة ، والحزن

ولعلنى لم أشعر أبدا بالحاجة الى أصدقاء كثيرين .. فالشهرة تجذبهم دونتمييز . ولكننى رجل أحبالاصدقاء كما أحب الموسيقى ، أىعندما يكون مزاجى مهيأ . فمد يد المساعدة الى صديق محتاج اليها مســــألة سهلة ، ولكن منحه وقتـــك ليس ممكنا فى بعض الظروف . وقد كان الاصدقاء والمعارف ــ وانا فى قمة شهرتى ــ يتزاحمون على بطريقة مبالغ فيها . ولما كنت رجـــلا انطوائيـــا وانبساطيا فى وقت واحد ، فقد كنت حين تغلبنى الصفة الاولى اهرب منهم جميعا . ولعل هذا هو مصـــــدر تلك

المقالات التى كتبت عن اننى رجل مترفع ، ميال للعزلة ، وغير صالح للصداقة الحقيقية • وهو كلام فارغ • فان لى صديقا او صديقين حميمين يضيئان افق حياتى، وعندما أكون معهما فاننى أقضى فى العادة وقتا ممتعا

على ان شخصيتى كثيرا ما صورت مضيئة أو كئيبة حسب وجهة نظر الكاتب . وها هو سومرست موم مثلا .. كتب يقول :

« شارلى شابلن .. فكاهته بسيطة ، حلوة ، غير مفتعلة . ومع ذلك يراودك الاحساس طول الوقت بأن وراءها حزنا عميقا . انه رجل صاحب حالات ، وليس ضروريا ان تسمعه يقول : « يا سارتر ، لقد داهمتنى نوبة من التشاؤم ليلة امس حتى كدت لا ادرى ماذا افعل بنفسى » .. لكى تعرف ان فكاهته مغلفة بالحزن . فهو لا يعطيك الانطباع بأنه رجل سعيد . واعتقد انه يعانى حنينا الى العشش . فالثروة والشهرة اللتان يتمتع بهما تحبسانه فى اطار حياة لا يجد فيها غير القيود .. وفى ظنى أنه يحن الى الحرية التى كان يتمتع بها أيام الشباب والكفاح ، بكل ما كان فى تلك الايام من فقر وحرمان ، وهو حنين يعلم ان اشباعه لن يتحقق أبدا • فمناظر الحى الجنوبى فى لندن تمثل عنده البهجة ، والمرح ، والانطلاق فى المغامرة . وفى استطاعتى ان اتصوره يدخل بيته الحالى فيتساءل فى دهشة ماذا جاء يفعل فى بيت رجل غريب • اذ يخيل الى ان البيت الوحيد الذى يمكن ان يعتبره بيته هو غرفة خلفية فى شارع كننجتون . وقد حدث ذات ليلة ان خرجنا نتمشى فى لوس انجلس ، فقادتنا خطواتنا الى افقر حى فى المدينة . حيث المساكن وضيعة كالحة ، والدكاكين الخربة لاتبيع الا تلك البضائع التى يشتريها

الفقراء يوما بيوم .. فاذا بوجهه يضيء ، وصـوته ينبض بحرارة وهو يهتف : اسمع ! هذه هي الحياة حقا ، وكل ما عداها زائف .. أليس كذلك ؟ »

( ملاحظة - هـذه الحكاية ليست صحيحة . فالذى حدث هو اننا كنا بالصـدفة فى الحى المكسيكى ، وكان تمليقى : ان فى هذا المكان من الحيوية اكثر مما فى تلال بيفرلى - حى نجوم السينما )

ان هذا الاتجاه نحو تصوير الفقر فى صـورة جذابة للآخرين أمر يبعث على الضيق .. فلا أنا عرفت حتى الآن رجلا فقيرا يحن الى الفقر ، أو يجد فيه حريته .. ولا المستر موم يستطيع أن يقنع اى فقير بأن الشهرة والثراء الفاحش يعنيان القيود . اننى لا أجد قيدا على الاطـلاق فى الثروة - بالعكس أجد فيها كثيرا من الحرية . ولست أظن أن موم يرضى بأن ينسب مثل هذه الافكار الزائفـة الى أية شخصية فى رواياته .. ولو فى اقلها شـأنا . فالقول بأن « مناظر شوارع الحى الجنوبى فى لندن تمثل البهجة والمرح والانطلاق فى المغـامرة » قول يحمل فى الواقع طابعا من الميوعة والخفة يليق بمارى انطوانيت .

اننى لا ارى الفقر جذابا ، ولا بانيا للشخصية . فالفقر لم يعلمنى شيئا غير تشويه القيم والمقاييس ، والتقـدير المبالغ فيه لفضائل ومحاسن الاغنياء والذين يطلق عليهم صف الطبقات الارقى

أما الثروة والشهرة فانهما على العكس قد علمـانى أن أرى العالم رؤية صحيحة ، وأن أكتشف .. حين أقترب من البارزين من الرجال .. أن لهم نقائصهم الخاصـة مثلنا جميعا . كما علمتنى الثروة والشهرة أيضـا أن أنظر الى شارات العائلات العريقة المرسـومة على السيوف والعصى وسياط الركوب باعتبـارها نوعا من

الادعاء ، وأن أدرك زيف اللهجة الجامعية كمقياس لذكاء الانسان وجدارته ، ومدى الاثر المدمر لهذه الخرافة المحفورة على عقول الطبقة الوسطى الانجليزية . وان أعرف أن الثقافة ليست بالضرورة نتيجة للتعليم أو معرفة الكلاسيكيات

وبالرغم من افتراضات موم ، فأنا ـ ككل انسان آخر ـ لست الا أنا : فرد قائم بذاته ، مختلف عن غيره ، له حوافز ونوازع ممتدة اليه عبر خيط وراثي قديم ، وتاريخ شخصي من الاحلام والرغبات والتجارب الخاصة .. أمثل أنا حصيلتها الكلية

وجدت أنني ـ منذ وصولي الى لندن ـ اعيش بصفة مستمرة في صحبة أصدقاء هوليوود وأحسست بالرغبة في التغيير في تجارب جديدة ، ووجوه جديدة

ولم أكن مرتبطا الا بموعد واحد ، مع هـ . ج . ويلز . وبعده أصبح حرا .. وقال لي أرى نوبلوك :

ـ لقد رتبت لك سهرة عشاء في نادي جاريك ..

وفي هذه السهرة التي انفضت سريعا همس نوبلوك في أذني بأن السير جيمس باري الكاتب المسرحي الشهير) يحب أن نزوره في شقته لتناول الشاي

كانت شقة باري أشبه بالاتلييه ، فهي حجرة واسعة تطل على منظر جميل لنهرالتيمس . وفي وسطها كان موقد مستدير له مدخنة تخترق السقف . واتجه بنا باري الى نافذة تطل على شارع جانبي ضيق ، وتواجه نافذة اخرى امامها مباشرة . وقال في خبث بلهجته الاسكتلندية :

ـ هذه غرفة نوم برنارد شو . وقد اعتدت كلما رأيت النور مضاء ان اقذفها ببذور الكريز او نوى

المشمش . فاذا كانت به رغبة فى الثرثرة فتح النـافذة ، وتبادلنا قليلا من مسك السير . والا فانه لايكترث او يطفىء النور • فأكف عن المحاولة بعد التدفية الثالثة

وكانت شركة بارامونت فى ذلك الوقت تزمع اخـراج « بيتر بان » فيلما فى هوليوود . وقلت لبارى :

ـ ان فى بيتر بان امكانيات سينمائية أكثر مما فيهـا كمسرحية ••

فوافقنى •• وأظهر رغبة شديدة فى أن يكون فى الفيلم منظر يبدو فيه « وندى » وهو يدفع العفـاريت الى الدخول فى جذع شجرة ••

وفى اليوم التالى ذهبنا انا وأيدى نبتاع بعض الحاجات فاقترح ايدى أن نمر على برنارد شو • ولم يكن ثمـة موعد محدد بيننا . ولكن ايدى قال :

ـ ليس علينا الا أن نهبط عليه

وفى الساعة الرابعة مساء ضغط ايدى بأصـبعه على زر الجرس الخارجى لباب مسكن شـو فى اولف تيراس . وبينما هو ينتظر اذا بخجل مفاجىء يداهمنى . فقلت : « فى وقت آخر ! » •• ومضيت أركض هاربا فى الطريق • وهكذا ، لم يقدر لى ان أفوز بمتعة لقاء شو الا بعد ذلك ، فى عام ١٩٣١

ومضت فترة من الوقت بدأ نشاطى الاجتماعى بعدها يتقلص . كنت قد رأيت المشـاهير والمفكرين ، وزرت مواطن طفولتى وصباى ، ولم يعد هناك ما أفعله فى لندن غير القفز الى سيارات التاكسى ، او القفز منها ، هـربا من الجماهير • ولما كان ارى نوبلوك قد رحـل الى برايتون ، فقد قررت فجأة ان أحزم أمتعتى ، وانطلق الى باريس ، هاربا من كل شىء ••

## الفصل السادس

# غزو فرنسا

* ❋ دخلت فرنسا كأنى نابليون !
* ❋ فى برلين لم يعرفنى أحد !
* ❋ أول وسام حصلت عليه
* ❋ صديقى هـ . ج . ويلز

سافرت بغير اعلان : او هكذا ظننت . ولكن جمعـــا كبيرا كان ينتظرنى فى « كاليه » • وتصاعدت هتـــافات « يحيا شارلى ! » أثناء هبوطى على السلم

وكنا قد عبرنا بحرا هائجا ،وتركت نصف قواى ورائى فى القنال . ومع ذلك لوحت لهم وابتسمت فى ضعف . ثم جرونى ، ودفعونى وزنقونى فى القطار . وعند وصولنا الى باريس حيانى جمع كبير ، وكردون من رجال البوليس . ثم دفعونى مرة اخرى ، قبل ان يحملونى ــ بمســـاعدة البوليس ــ ويشحنونى فى سيارة تاكسى ..

وقد كان كل ذلك بصراحة •• أمرا مســـليا تمتعت به ، ولكنه كان اكثر مما كنت أود ، ومع انه كان استقبالا مثيرا ، فان انفعالى به تركنى مرهقا

وفى فندق كلاريدج ، بدأ جرس التليفون يدق باصرار مرة كل عشر دقائق ، معلنا أن سكرتيرة المس آن مورجان تطلبنا ، فأدركت ان الامر لابد متعلق بطلب ما ، اذ أنها كانت بنت « ج . ب . مورجان » . ولهـــذا تهربنا من السكرتيرة . ولكن السكرتيرة أبت ان نتهـرب منها : ألا أسمح بمقابلة المس مورجان ، انها لن تأخذ الكثير من وقتى .. فأذعنت ووعدت بأن أقابلها فى فندقى فى الســـاعة الرابعة الا الربع ولكن مس مورجان تأخرت . فشرعت أغادر الفندق بعد عشر دقائق . وبينما أنا اجتـــاز

الردهة اذا بالمدير يعدو ليلحق بى ، ويقول باهتمام شديد :

ـ مس آن مورجان جاءت لمقابلتك يا سيدى

ففاظنى الالحاح والاصرار من جانبها ، ثم مجيئها بعد ذلك متأخرة ! وقلت وأنا أحييها مبتسما :

ـ اننى آسف • لان عندى موعدا فى الرابعة

فقالت :

ـ أوه ، حقا ؟ على أية حال لن أعطلك أكثر من خمس دقائق ••

فنظرت الى ساعة الحائط • كان قد بقى على الرابعة خمس دقائق • وبدأت تتكلم ونحن ما نزال نبحث عن مكان نجلس فيه فى الردهة :

ـ يحسن أن تجلس لحظة •• اننى أشارك فى جمع التبرعات لاعادة بناء فرنسا المخربة ، فاذا استطعنا أن نحصل على فيلمك « الطفل » لعرضه فى حفلة كبرى ، وظهرت انت فى الحفلة ، أمكننا أن نجمع الوفا من الدولارات ••

فأخبرتها ان فى استطاعتها أخذ الفيلم من أجل هذه المناسبة ، ولكننى لن أظهر معه

فقالت بالحاح :

ـ ولكن حضورك سيضيف عدة آلاف من الدولارات . وأنا واثقة من أنك ستحصل على وسام

فاستحوزت على روح شريرة ، ونظرت اليها نظرة ثابتة :

ـ هل انت واثقة ؟

فضحكت مس مورجان وقالت :

ـ لا يملك أحد أكثر من تقديم التوصية الى الحكومة ، وسأبذل بالطبع غاية جهدى

فنظرت الى ساعة الحائط وبسطت لها يدى :

ـ أننى آسف جدا ، ولكنى مضطر للانصراف الآن . وعلى أية حال فسأكون فى برلين خلال الايام الثلاثة القادمة ، ويمكن أن تخبرينى هناك

وبهذه الاشارة الخفيفة ودعتها . وانى لاعلم انه كان عملا سيئا من جانبى .. وفى اللحظة التى غادرت فيها الفندق ندمت على هذه الصفاقة

وفى اليوم التالى ، وصلت الى برلين

وكان سلوك الجماهير هناك عجيبا . فقد جردت من كل شيء الا شخصيتى . وهذه لم تستطع أن تحصل لى ولا حتى على مائدة لائقة فى أحد النوادى الليلية فأفلامى لم تكن بعد قد عرضت هناك

ولم أستطع أن أحصل على مكان بعيد عن تيار الهواء الا أخيرا ، عندما تعرف على ضابط أمريكى ، وأخبر صاحب المحل فى غضب من أنا . وكان مما يستحق المشاهدة رد الفعل عند الادارة عندما بدأ يتجمع حول مائدتى أولئك الذين عرفونى . وكان منهم رجل ألمانى سبق أن أسر فى انجلترا وشاهد فيلمين أو ثلاثة من أفلامى ، فصرخ فجأة :

ـ شـ .. أ .. أ .. ر .. لى !

ثم التفت الى الزبائن المذهولين :

ـ أتعرفون من هذا ؟ انه شـ .. ا .. ا .. ر لى !

ثم احتضننى بطريقة هستيرية وقبلنى .. ولكن هذا الانفعال كله لم يثر غير انتباه محدود . ولم أفز ببعض الاهتمام الا عندما طلبت « بولا نجرى » الممثلة الالمانية . و « حبة عين » الجميع ، أن أنضم الى مائدتها ..

وبعد وصولى بيوم تلقيت رسالة غامضة تقول :

« صديقى العزيز شارلى ..
« أشياء كثيرة وقعت لى منذ التقينا فى نيويورك فى سهرة « دورلى فيلد مالون » • وأنا الان مريض جـــدا فى المستشفى • فأرجـوك أن تحضر لزيارتى •• ان ذلك سيبهجنى كثيرا » ..
ثم أضاف الكاتب عنوان المستشفى ، ووقع باســم جورج ••
ولم أستطع فى البداية أن أتحقق من يكون هذاالرجل• ولكننى فجأة تذكرت : انه بالطبع جورج البلغــارى الذى كان مقـــــدرا له أن يعود الى السجن لقضاء ١٨ عاما • وبدا لى واضحا من لهجة خطابه •• أن المسألة كلهــــا ستنتهى الى طلب معونة • فرأيت أن آخذ معى خمسمائة دولار
واذ بهم فى المستشفى يدخلوننى ــ لدهشتى الشديدة ــ الى قاعة واسعة بها مكتب ، وجهازان للتليفون .. حيث حيانى رجلان فى ثياب مدنية انيقة . عرفت فيما بعـــد انهما سكرتيران خاصان لجورج ! وقادنى احدهما الى الغرفة المجاورة ، كان جورج راقدا فى فراشه .. وهب يصافحنى بحرارة :
ــ صديقى : كم أنا سعيد بحضورك .. اننى لم أنس أبدا عطفك ورقتك أثناء سهرة دورلى مالون !
ثم أصدر أمرا حازما الى سكرتيره ، فتركنا وحدنا
ولما كان هو لم يقدم أى تفسير حول مغادرته الولايات المتحدة ، فقد أحسست انه ليس من اللائق أن أســـأله فضلا عن أنه كان منصرفا الى السؤال عن أصـــدقائه فى نيويورك • وتملكتنى الحيرة ، ولم استطع ان افهم شيئا عن الموقف : فقد كان الامر اشبه باسقاط عدة فصول من كتاب • ثم جاءت المفاجأة عندما شرح لى أنه الآن يعمــل

ممثلا تجاريا للحكومة البلشفية . وانه جاء الى برلين لشراء قاطرات سكة حديد ، وكبارى من الصلب

وهكذا عدت بدولاراتى الخمسمائة كما هى لم تمس !

***

كانت برلين شيئا يثير الاكتئاب .. اذ كان ـمايزالـ يحلق عليها جو الهزيمة ، بما خلفته من البقايا المبكية من الجنود مبتورى الأذرع والسيقان وهم يستجدون فى كل زاوية من كل شارع

وفى ذلك الوقت بدأت أتلقى برقيات مشحونة بالقلق من سكرتيرة مس آن مورجان ، اذ كانت الصحافة قد أعلنت بالفعل عن ظهورى فى التروكاديرو . فأبرقت من جانبى أجيب بأننى لم أعد بالحضور ، وبأننى لكى أكون أمينا مع الجمهور الفرنسي سوف أعلن له الحقيقة

واخيرا وصلت برقية تقول :

« عندى تأكيد مطلق بأنك ستنال وساما اذا حضرت . وكان ذلك بعد سلسلة من المناورات والازمات الحقيقية .. آن مورجا .. »

وهكذا عدت الى باريس بعد ثلاثة أيام فى برلين ..

وفى ليلة الافتتاح فى التروكاديرو جلست فى لوج واحد مع سيسيل سوريل ، وآن مورجان ، وكثيرين آخرين . ومال سيسيل على أذنى هامسا بالسر الخطير :

ـ ستنال الليلة وساما

فقلت بتواضع : « شىء رائع ! »

وبدأ يعرض فيلم تسجيلى لا نهاية له ، دام حتى الاستراحة . واضيئت الانوار بعد أن بلغ الضيق بى غايته . ثم جاء موظفان رسميان وصحبانى الى لوج الوزير . وتبعنا حشد من الصحفيين ظل أحدهم ـ وهو

امريكي ــ يهمس في قفاي :

ــ سيمنحوك الليجيون دونير يا جدع !..

وبينما الوزير يقدم لي الوسام ، ظل هذا الصديق يواليني بسيل همساته :

ــ ضحكوا عليك يا جدع ! ايس هذا هو اللون المطلوب . انه الوسام الذي يعطونه للمدرسين . أنك لاتعرض خديك للقبلات من أجل هذا . ان ما تريد هو الشريط الاحمر

غير انني في الواقع كنت سعيدا جدا بأن يكرموني هكذا في مستوى واحد مع المدرسين . وكانت براءة الوسام تقول : « شارلي شابلن ، الممثل ، الفنان ، من رجال التعليم العام .. الخ »

وتلقيت بعد ذلك رسالة شكر بديعة من آن مورجان . ودعوة الى الغداء في اليوم التالي في فيلا تريانون ، بفرساي قائلة انها ستراني هناك . وهو غداء ضم الامير جورج اليوناني ، وليدي سارة ويلسون ، والمركيز تايران بريجون ، والقائد بول لويس ويلر ، والزا ماكسويل ، وكثيرين آخرين . ولست اذكر الان شيئا مما قيل او حدث اثناء تلك المناسبة الكبرى ، فقد كنت منصرفا الى التأثير بجاذبيتي على الحاضرين !

وفي اليوم التالي كان مقررا أن أعود الى لندن لتناول الغداء مع سير فيليب ساسون ، ولورد وليدي روكسافاج ، حيث اقابل لويد جورج . ولكن الطائرة ارغمت بسبب الضباب على الهبوط على الساحل الفرنسي ، فوصلنا متأخرين ثلاث ساعات

وكانت هناك زيارة اخرى لـ «هـ . ج . ويلز» في منزله الريفي بمزرعة الكونتس وادريك .. حيث كان يقيم مع زوجته وولديه العائدين لتوهما من كامبردج ..

وكنت قد دعيت لقضاء ليلتى هناك .. وجاء بعد الظهر اكثر من ثلاثين من اعضاء جامعة كامبردج ، وجلسوا معا فى الحديقة كما تجلس جماعة مدرسية امام الكاميرا ، وراحوا يتأملوننى فى صمت كما يتأملون مخلوقا من كوكب آخر ..

وفى المساء مضت عائلة ويلز تلعب لعبة اسمها «حيوان أم نبات أم جماد» .. جعلتنى اشعر كما لو كنت اجتاز اختبارا لقياس الذكاء

ومما لا يزال عالقا بذهنى حتى الآن من تلك الزيارة مفارش السرير الباردة كالثلج ، وذهابى الى غرفة النوم على ضوء الشموع . فقد كانت تلك ابرد ليلة قضيتها فى انجلترا . وبعد ان نفضت الثلوج عن نفسى فى الصباح التالى سألنى ويلز كيف قضيت ليلتى ، فقلت بأدب :

ـ كانت ليلة طيبة ..

قال ببراءة :

ـ كثير من ضيوفنا يشكون من أن الغرفة باردة

ـ انا شخصيا لا أقول انها باردة . وان كل مافى الامر أنها مثلجة !

فانفجر ضاحكا ..

وثمة ذكريات أخرى عندى عن هذه الزيارة لويلز : حجرة مكتبه الصغيرة البسيطة التى تحبس عنها الضوء ظلال الاشجار فى الخارج . والمائدة المائلة ذات الطراز العتيق التى يكتب عليها بجوار النافذة. وزوجته الوسيمة الملائكية وهى تتجول بى فى كنيسة تعود للقرن الحادى عشر . والقصة التى رواها ويلز عن فرانك هاريس . اذ قال ويلز انه حين كان كاتبا ناشئا مكافحا .. كتب مقالا من أوائل مقالاته العلمية يتناول فيه البعد الرابع ، وارسله الى عديد من المجلات دون فائدة ، واخيرا تلقى

مذكرة من فرانك هاريس يدعوه فيها الى مقـــابلته فى مكتبه ..

قال ويلز : « وبالرغم من أننى كنت مفلســـا فاننى اشتريت للمناسبة قبعة عالية مستعملة . وحيانى هاريس بقوله :

ـ بحق الجحيم من أين جئت بهذه القبعة ؟ وبحـــق الجحيم ما الذى يجعلك تظن ان فى استطاعتك بيع مقالات من هذا النوع للمجلات ؟

ثم قذف بالاصول على المكتب قائلا : « أنه مقال بالغ الفطنة . وليس للفطنة سوق فى هذه المهنة ! .. »

وكنت وضعت قبعتى بعناية على ركن المكتب . وظل فرانك هاريس طوال المقابلة يدق بيده على المكتب مؤكدا ما يقول ، مما جعل القبعة ترقص وتتجول فيما حولها . ولبثت خائفا طول الوقت من أن تهبط قبضته عليهامباشرة فى أية لحظة . على انه اشترى المقال ، واتفق معى عـــلى مقالات أخرى ..

واخيرا بلغت المرحلة التى تحققت فيها من اننى سأشعر بالبطالة اذا بقيت أكثر من ذلك فى لندن

كان يؤسفنى ان اغادر انجلترا ولكن لم يكن هناك مزيد تستطيع الشهرة ان تمنحنى اياه . فأنا سأعود راضيا تمام الرضى . وان كنت سأعود اسفا الى حد ما .. لاننى سأترك ورائى ، لا ضجة التقدير من جانب الاغنيـــاء والمشاهير الذين استقبلونى فى حفلاتهم ، وانما ايضـــا حرارة الحب المخلص من جانب جموع الانجليز والفرنسيين الذين وقفوا ينتظروننى للترحيب بى فى واترلوو . و«جار دى نور » ، ومحنة الدفع بى وشحنى فى التاكسى أمامهم دون أن اتمكن من التجاوب معهم .. مما كان يجعـــلنى اشعر كأننى ادوس على بساط من الازهار



**شارلي شابلن عند كتابة مذكراته**

كذلك فانني كنت سأترك ماضي ورائي . فتلك الزيارة التي قمت بها الى كننجتون ــ ٣ شارع بوندال تيراس ــ كانت قد أتمت شيئا في داخلي . وصرت الان راضـيا بالعودة الى كاليفورنيا واستئناف العمل

الفصل السابع

# وداعاً يا أمى

* نصيحة أمى : أن أشتغل بالدين

* آخر كلماتها : ربما !

ما كدت أعود الى هوليـــــــود حتى عرجت على أمي فوجدتها مبتهجة ، سعيدة ، وقد سمعت كل شيء عــــن زيارتي الظافرة للندن . وقلت لها مداعبا : ما رأيك الان في ابنك وفي كل هذا الهجص ؟

قالت :

ـ شيء رائع . ولكن ألا تفضل أن تعيش حقيقة نفسك، بدلا من هذا العالم المسرحي الموهوم ؟

فضحكت وقلت :

ـ أجيبي أنت . فأنت المسئولة عن عالم الوهم هذا

فصمتت لحظة ، ثم قالت :

ـ لو انك وضعت مواهبك هذه في خدمة الرب ، ففكر كم من آلاف الارواح كان يمكن أن تكسبها ..

فابتسمت قائلا :

ـ لعلني كنت أكسب الكثير من الارواح، ولكن لا أكسب اي نقود !

وفي طريق عودتي حدثتني مسز ريفز ، زوجـــــة مدير اعمالي التي كانت شديدة الولع بأمي فقالت انني منـــذ سافرت كانت أمي في صحة طيبة ، ولم تحـــــدث لها أية نوبات عقلية ، وكانت دائما مبتهجة ، سعيدة ، ولا تشعر بأية مسئولية

وكانت مسز ريفز تحب ان تزور أمي ، لانهـــــا كانت تسليها وتضحكها برواية نوادر مختلفة من الماضي

على انه كانت هناك بالطبع لحظات يسيطر فيها العناد عليها . وقد روت لى مسز ريفز حكاية اليوم الذى صحبتها فيه هى والمرضة الى المدينة لشراء بعض الثياب . فقد استحوذت عليها نزوة مفاجئة جعلتها ترفض النزول من السيارة قائلة :

— دعيهم يجيئون الى ! أنهم فى انجلترا يجيئون الى سيارتى !

فلما هبطت اخيرا ، قامت على خدمتهن فتاة شابة لطيفة ، وعرضت عليهن عديدا من أثواب القماش . وكان منها ثوب بنى اللون رأت المرضة ومسز ريفز انه ملائم ، ولكن أمى غضبت عليه . وقالت فى اكثر لهجاتها الانجليزية تحضرا وارستقراطية :

— انه لون « السبانخ » ! أريد شيئا أكثر اشراقا !

فأطاعت الفتاة وهى مذهولة لا تكاد تصدق اذنيها

وروت لى مسز ريفز ايضا عن ذهابها مع امى الى مزرعة للنعام ، حيث صحبهما حارس المزرعة — كان رجلا مجاملا وصديقا — الى اقسام التفريخ . وامسك باحدى بيضات النعام قائلا :

— ستفقس هذه حوالى الاسبوع القادم تقريبا

واذا بالرجل يستدعى لمكالمة تليفونية ، فترك البيضة فى يد المرضة مستأذنا . وما كاد ينصرف حتى اختطفت أمى البيضة من يد المرضة قائلة :

— أعيديها للنعامة المسكينة اللعينة !

ثم قذفت بها الى القفص ، حيث انفجرت بصوت عال . فأسرعت المرضة ومسز ريفز تجران أمى خارج مزرعة النعام قبل أن يعود الحارس

وكثيرا ما كانت امي تجيء الى بيتي فى تلال بيفرلى ، لترى طفلى الصغيرين : شارلى وسيدنى . وما زلت اذكر زيارتها الاولى ، وقد فرغت لتوى من بناء البيت الذى كان مؤثثا باسلوب جميل ، ومزودا بهيئة كاملة من الخدم والوصيفات .. الخ . فراحت تتأمل الحجرة ، ثم نظرت من النافذة الى منظر المحيط الهاذى الذى يبعد عنا أربعة أميال .. بينما نحن ننتظر تعليقها

واذا بها تقول :

ـ حرام ان يقلق الانسان هذا الصمت !

وكان يبدو على امي دائما انها تنظر الى نجاحي وثرائي كأمر طبيعي فلم يحدث ان علقت عليهما الا ذات يوم ونحن وحدنا فى ممشى الحديقة .. عندما ابدت اعجابها بالحديقة والعناية بها ، فقلت لها :

ـ أمي . ها أنذا ... شارلي

فصمتت لحظة ثم نظرت الى قائلة :

ـ لا بد انك بالغ الثراء !

ـ اسمعى يا أمي . انني فى هذه اللحظة اساوى خمسة ملايين دولار

فهزت راسها فى تفكير ، وقالت :

ـ المهم ان تحافظ على صحتك . حتى تستمتع بهذه الثروة ..

وكان هذا تعليقها الوحيد

***

وقد ظلت أمي مستمتعة بصحتها لمدة عامين بعد ذلك . ولكنني وأنا مشغول باخراج فيلم « السيرك » تلقيت رسالة تنبئني بمرضها . وكانت قد أصيبت قبل ذلك بأزمة التهاب فى المرارة وشفيت منها . فاذا بالاطباء هذه المرة

ينذروننى بأن نكستها قد تكون خطيرة . ونقلناها الى مستشفي جلندال ، ولكن الاطباء رأوا عدم اجراء العملية الجراحية بسبب مرض قلبها .

وعندما وصلت الى المستشفى كانت فى شبه غيبوبة بسبب دواء أعطوه لها بقصد تخفيف الالم

وهمست لها برفق :

— أمى هأنذا .. شارلى ..

ثم تناولت يدها بين يدي . فاستجابت فى ضعف ضاغطة عليهما . ثم فتحت عينيها وأرادت أن تجلس ، ولكنها كانت أضعف من أن تفعل وكانت تتململ فى فراشها وتشكو من الالم .. فلما حاولت أن أؤكد لها انها ستشفى قالت فى ارهاق :

— ربما ..

ثم ضغطت على يدى مرة أخرى ، وراحت فى غيبوبة

وفى اليوم التالى أبلغت أثناء العمل أنها ماتت . وكنت قد تهيأت لهذا النبأ ، لان الطبيب كان قد أنذرنى

وعلى الفور توقفت عن العمل . وازلت اثار الماكياج ، ثم ذهبت الى المستشفى بصحبة هارى كروكر ، مساعد المخرج الذى يعمل معى

وانتظر هارى فى الخارج ، بينما دخلت انا الغرفة وجلست فى مقعد بين النافذة والسرير . كانت الستائر نصف مسدلة . وضوء الشمس فى الخارج غامر كالصمت فى الحجرة . وجلست اتأمل ذلك الجسم المستلقى على الفراش بوجه مائل الى اعلى ، وعينين مغلقتين . حتى بعد الموت كان تعبير وجهها يبدو مهموما ، كما لو كانت تتوقع مزيدا من الالام . وكم كان غريبا ان تنتهى حياتها هنا ،

على مقربة من هوليوود بكل قيمها الخرقاء ، وعلى مسافة سبعة الاف ميل من « لامبث » .. موطن تعاستها . وبدأ يدهمني فيض من الذكريات من كفاحها طول الحيـــاة ، ومعاناتها ، وشجاعتها ، ومحنة عمرها الضائع .. فبكيت . ومضت ساعة قبل ان افيق الى نفسي واغادر الحجرة . كان هارى كروكر مازال ينتظر ، فاعتذرت عن ابقائه طول هذا الوقت . ولكنه بالطبع كان يقدر ويفهم . وركبنـــا السيارة فى صمت الى البيت

وسئلت هل أريد تحنيط جثتها ، فأفزعتنى هـــــذه الفكرة ! كلا . بل فضلت ان تدفن فى الارض الخضراء ، حيث ما تزال ترقد حتى الان فى مقابر هوليوود

***

لست ادرى هل رسمت لامى الصورة التى هى جـديرة بها ام لا . ولكن الذى اعرفه عن يقين هو انها دائما حملت عبئها راضية . ان الطيبة والحنان كانا ابر فضائلهـــــا . وبالرغم من تدينها ، فانها كانت تحب الخـــاطئين وترى نفسها فيهم . ولم يكن فى طبيعتها ذرة من الفظاظة . ومـــا من تعبير لاذع جرى على لسانها الا وكان بليغا فى ملائمته لمقتضى الحال . وبالرغم من حياة الفقر والانحطـــاط التى أرغمتنى على أن نحياها ، الا أنها حمتنا — أنا وسيدنى — من الشارع ، وجعلتنا نشعر بأننا لسنا نتاجا عاديا للفقر ، بل أشخاصا منفردين وممتازين

# الفصل الثامن

# فتاة فى فراشى

* اقتراح بالزواج .. لمصلحة استثمارات باراموانت !
* صورت الفيلم قبل أن أضع القصة !
* عندما كتبت وصيتى ..

وصلت الآن الى المرحلة الختامية من عقدى مع فرست ناشونال • وبدأت أتطلع الى اليوم الذى ينتهى فيه • فقد كان رجال هذه الشركة لا ذوق لهم . وكانت روحهم معادية ، ونظرهم قصيرا • وكنت أتوق الى الخلاص منهم

وكان انتاج الافلام الثلاثة الاخيرة الباقية مهمة ثقيلة على نفسى ، بدأت فأخرجت « يوم القبض » من بكرتين ، فبقى فيلمان آخران . ثم أخرجت « الحاج » فيلما طويلا ، فكان معنى ذلك العودة الى مفاوضات أخرى مزعجة مع فرست ناشونال . ولكن الموقف كان كما وصفه سام جولدوين بقوله :

ــ ان شارلى ليس رجل اعمال . كل ما يعرفه هو الا يأخذ أقل مما يطلب

وانتهت المفاوضات بنتيجة مرضية . فبعد النجاح الساحق الذى حققه « الطفل » لم ألق مقاومة كبيرة من جانبهم لشروطى الخاصة بفيلم « الحاج » : وهى ان يعتبر الفيلم مساويا لفيلمين ، وان احصل منه على ٤٠٠ الف دولار ونسبة من الارباح ..

هكذا تحررت وصار فى استطاعتى ان انضم الى زملائى فى « الفنانين المتحدين »

حوالى هذا الوقت ظهرت فى مجتمع هوليوود الفاتنة « بيجى هوبكنز جويس » .. المشهورة بزيجاتها المتعددة

ومجوهراتها ، والثلاثة ملايين دولار التى جمعتهـــا من أزواجها الخمسة كما قالت لى

وكانت بيجى من أصل متواضع . اذ كان أبوها حلاقا ، وانضمت هى الى فرقة ريجفيلد الراقصة ، ثم تزوجت بعد ذلك من خمسة من اصحاب الملايين واحدا بعد الاخر .. ومع انها كانت ما تزال جميلة ، فانها كانت تبدو متعبـــة قليلا . وكانت قادمة من باريس فى ثياب سوداء انيقة ، لان شابا فرنسيا كان قد انتحر من أجلها !

وقد أسرت لى ذات مرة ـ ونحن وحدنا ـ انهـا تكره الشهرة . وقالت وهى تعدل من وضع اساورها الماسية حول ذراعها :

ـ كل ما أريده هو ان اتزوج وأنجب اطفالا . فـــأنا فى أعماقى امرأة بسيطة

وكانت تسمى الاساور الملتفة حول ذراعها من أعلى : شرائط خدمتى !

وكان مما روته لى انها فى ليلة زفافها الى أحد أزواجها اغلقت على نفسها باب المخدع ، ورفضت أن تسمح لـــه بالدخول الا اذا دس لها من تحت الباب شيكا بنصف مليون دولار :

ـ وهل فعل ؟

ـ نعم .. وصرفت الشيك فى الصباح المبكر قبـــل ان يستيقظ من النوم . ولكنه كان رجلا سكيرا . وذات مرة ضربته على رأسه بزجاجة شامبانيا ، ونقلتـــــه الى المستشفى ..

ـ وكان هذا سبب الفراق بينكما ؟

ـ كلا .. لقد سره ذلك فيما يبدو ، وازداد ولعه بى .. وقد كانت النوادر الكثيرة التى روتهــــا لى بيجى عن

علاقتنا بأحد الناشرين الفرنسيين هى المصـــــدر الذى استقيت منه قصة فيلم « امرأة من باريس » .. ولعبت بطولته « أونا بورفيانس »



قبل ان انتهى من فيلم امرأة من باريس ، بدأت « بولا نجرى » غزوتها لهوليوود . واحاطت بها دعايات مبـــالغ فيها ، تعتمد على افتعال الخلافات بينها وبين جـلوريا سوانسون . فكانت عناوين الصحف تعلن : نجرى تطالب « بحجرة سوانسون فى الاستديو » ، « جلوريا ترفض مقابلة بولا نجرى » ، « نجرى ترفض دعوة جلوريا » .. وهكذا دون أن يكون لجلوريا او بولا أى ذنب . فقد كانتـــا فى الحقيقة صديقتين منذ تعارفتا

والتقيت ببولا فى حفلة سيمفونية تصادف ان كان بنوارى فيها مجاورا لبنوارها . واذا بها تهتف :

ـ شارلى ! لماذا لم تتصل بى ؟ ألا تعرف اننى قطعت كل هذه المسافة من ألمانيا لـكى أراك ..

فأخذنى الزهو ، وان كنت لم أستطع أن أصدق . فأنا لم أرها قبل ذلك غير مرة واحدة فى برلين .. لمدة عشرين دقيقة . اما هى فاستطردت :

ـ أنت قاسى جدا يا شارلى . لقد انتظرت طـويلا أن تتصل بى . اين تعمل الان ؟ اعطنى رقم تليفونك وأنا اتصل بك ..

فلم أسترح كثيرا الى كل هذا الود . ولكن اهتمام بولا الجميلة كان له بالطبع اثر على . وبعـــد ايام دعتنى الى سهرة فى البيت الذى استأجرته فى تلال بيفرلى . وتعدد بعد ذلك ظهورنا معا فى الاماكن العامة . وسرعان ما بدأت عناوين الصحف تعلن : شارلى وبولا مخطوبان . وانزعجت

بولا كثيرا ، وقالت اننى يجب ان اصدر تصريحا . فأجبتها :

ـ المفروض أن يجيء التصريح من السيدة

ـ ماذا تقترح ان اقول لهم ؟

فهززت كتفى بغير اكتراث ..

وفى اليوم التالى تلقيت رسالة تقول ان المس نجرى لن تستطيع مقابلتى . ولكن خادمتها اتصلت بى فى تلك الليلة لتقول فى ذعر ان سيدتها مريضة جدا ، وتطلب ان أحضر فى الحال . فلما ذهبت وجدتها مستلقية على كنبة طويلة ، وعيناها مغلقتان . وكان أول ما قالته عندما فتحت عينيها :

ـ انت رجل قاس !

ووجدت نفسى ـ برغم أنفى ـ فى دور كازانوفا ! ..

ثم جاء مدير اعمالها ـ شارلى هيتون ـ بعد ذلك بيوم او يومين ، يقول لى :

ـ لقد سببت لنا كثيرا من المتاعب يا شارلى . فكل هذه الاشاعات التى تنشرها الصحف قد أثرت على صحة بولا . فلماذا لا تعلن تصريحا يوقفها ؟

ـ ماذا تريد منى ان اقول ؟

فأجاب بخبث :

ـ انت مولع بها ، أليس كذلك ؟

ـ ليس هذا شأن أحد غيرى

ـ ولكن لدينا ملايين من الدولارات مستثمرة فى هذه المرأة ! وهذه الدعاية تسيء اليها . اسمع يا شارلى ، ما دمت معجبا بها فلماذا لا تتزوجها ؟

فاغتظت . وقلت له :

ـ اذا كنت تتصور اننى سأتزوج شخصا معينا لمجرد

حماية استثمارات بارامونت ، فأنت مخطىء جدا

قال :

ــ اذن فلا تقابلها مرة أخرى ..

ــ هذا شأن بولا

وانتهت المقابلة بتعليق جارح من جانبى ، ملخصه: اننى لا ارى مبررا للزواج من بولا وأنا لا أملك أى سهم فى بارامونت ..

وهكذا انتهت علاقتى ببولا فجأة كما بدأت فجأة . ولم تتصل بى أبدا بعد ذلك

***

اثناء هذه العلاقة المجنونة مع بولا ، وصلت الى الاستديو فتاة مكسيكية جاءت من بلادها سيرا على الاقدام من أجل أن ترى شارلى شابلن . ولما كانت لى خبرات سابقة بالملاحيس والشواذ فقد طلبت من مدير أعمالى أن «يتخلص منها بطريقة لطيفة »

وفى تلك الليلة كانت بولا ودكتور رينولدز وزوجته يتناولون العشاء عندى ، فرويت لهم الحكاية . واذا برئيس الخدم يدخل كالقذيفة الى حجرة الطعام وقد اصفر وجهه ذعرا ، وهو يقول :

ــ هناك فتاة فى فراشك !

ثم اضاف انه ذهب يرتب سريرى ، ففوجىء بها فى السرير ، مرتدية احدى بيجاماتى !

فقال رينولدز :

ــ سأذهب لاراها

ثم نهض وتركنا . بينما بقينا نحن ننتظر التطورات . وبعد قليل عاد الينا يروى ما حدث :

« لقد تكلمت معها . انها شابة صغيرة وجميلة ، وحديثها

يدل على الذكاء . وقد سألتها ماذا تفعل فى فراشـــــك فقـــالت :

ـ أريد أن أقابل المستر شابلن

ـ الا تعلمين ان تصرفك هذا قد يعتبر دليلا على الجنون، وقد يؤدى الى ادخالك مستشفى الامراض العقلية ؟

فلم يبد عليها أى اضطراب . وأجابت :

ـ لست مجنونة . وانما انا مجرد معجبة بفن المســـتر شابلن ، وقد جئت من أقصى الدنيا لأراه ..

فنصحتها بأن الافضل لها أن تخلع بيجامتـــك فورا ، وتغادر المكان والا استدعينا لها البوليس ..

واذا ببولا تقول فجأة :

ـ اريد ان ارى هذه الفتاة . دعنا نستدعيها الى غرفة الجلوس !

فحاولت أن أتهرب خشية الحرج الذى قد يؤدى اليــــه الموقف ..

على أن الفتاة جاءت على اية حال ودخلت الغرفة بثبات تام . وظهر ان رينولدز كان على حق : فقد كانت الفتاة حقا صغيرة وجذابة . وقالت لنا انها ظلت طول النهار تتسكع حول الاستديو ، فدعوناها الى العشاء ، ولكنها رفضت أن تتناول الا كوبا من اللبن

وبينما هى تحتسى الكوب ، راحت بولا تمطرها بالاسئلة:

ـ هل أنت واقعة فى غرام المستر شابلن

فضحكت الفتاة :

ـ فى غرامه ! اوه ، كلا ، انما أنا معجبة به فقط ، لانه فنان عظيــــم

قالت بولا :

ـ وهل رأيت شيئا من افلامى ؟

فأجابت بلهجة عابرة :

ــ أوه ، طبعا

ــ مارأيك فيها ؟

ــ جيدة جدا . ولكنك لست فى عظمة المستر شابلن الفنية ..

فأصبح وجه بولا منظرا يستحق التأمل

أما انا فحذرت الفتاة من ان تصرفاتها قد يساء فهمها. ثم سألتها ما اذا كانت تملك اية وسيلة للعودة الى المكسيك فأجابت نعم . وبعد مزيد من النصائح التى وجهها اليهـا وينولدز غادرت البيت ..

ولكن .. فى اليوم التالى جاء رئيس الخدم مرة اخرى مندفعا ، يقول ان الفتاة راقدة فى عرض الطريق وقـــد سممت نفسها . فأسرعنا بغـــير تردد نطلب البوليس تليفونيا ، وحملوها فى سيارة اسعاف

وكانت ضجة صحفية فى اليوم التالى ، ونشرت صور الفتاة جالسة فى سريرها فى المستشفى . لقد عولجت بأنبوبة غسيل المعدة ، وبدأت الآن تستقبل رجال الصـــحافة ، وأعلنت انها لم تأخذ سما ، وانما كانت تريد فقط ان تستثير الانتباه . وانها ليست واقعة فى غرام شارلى شابلن، وانما هى جاءت الى هوليوود لتحاول الظهور فى الافــلام

وبعد خروجها من المستشفى وضعت فى رعاية « عصبة الخير » ، التى كتبت لى رسالة رقيقة تسألنى عما اذا كنت اتفضل بمساعدتها فى العودة الى المكسيك . وتؤكد لى انها « فتاة لا ضرر منها » وليست سيئة

وهكذا دفعت أنا أجر عودتها

***

الآن صار فى استطاعتي أن انتج أول فيـلم لى مع « الفنانين المتحدين »

كنت أتلهف الى تحقيق نجاح أكبر من نجاح « الطفل » وقضيت اسابيع في المعاناة والتفكير محاولا ان اعثر على موضوع . وظللت أقول لنفسي : « يجب أن يكون الفيلم القادم حدثا تاريخيا ! ان يكون الفيلم الاعظم » ولكن بلا فائدة ..

الى ان كان صباح يوم من ايام الاحد ، وانا اقضي اجازة الاسبوع عند آل فيربانكس ، عندما جلست مع دوجلاس بعد الافطار نتفرج على عدد من الصور المجسمة . وكان بعضها مناظر طبيعية من الاسكا وكلونديك . وفي احداها كان يبدو ممر شيلكوت ، وطابور من المستكشفين يتسلقون الجبل المغطى بالثلج ، مع تعليق مطبوع على ظهر الصورة يصف المتاعب والصعاب التي عانوها في تسلقه . فقلت لنفسي انه موضوع رائع يمكنه ان يستثير مخيلتي . وبدأت الافكار والتصرفات الكوميدية على الفور تنمو وتتشكل في راسي . وبالرغم من انني لم اكن قد عثرت بعد علي قصة ، فان هيكل القصة كان قد بدأ يوجد

ومن الحقائق العجيبة في عالم الخلق الكوميدى أن المآسي عادة توحي بالسخرية : لان السخرية في اعتقادى موقف من مواقف التحدى . فنحن نسخر في مواجهة القوى التي نقف امامها عاجزين والا أصابنا الجنون

كنت قد قرأت كتابا عن بعثة « دونر » التي ضلت الطريق الى كاليفورنيا ، وحاصرها الثلج في صحراء نيفادا . فلم ينج من مائة وستين مستكشفا الا ثمانية عشر ، بينما مات الباقون بسبب الجوع والبرد . وارتد بعضهم الى التوحش فأكلوا جثث موتاهم ، بينما شوى آخرون احذيتهم ليسكتوا بها الجوع . فاذا بي استلهم من هذه المأساة الرهيبة واحدا من أكثر المناظر هزلا . وهو منظر أقوم فيه تحت وطأة الجوع بسلق حذائي ، وآكله ،

والتقط منه المسامير وامصها كما لو كانت قطعا شـــهية من العظم . ثم آكل أربطة الحذاء كما تؤكل المكرونة . بينما يتوهم زميلى ـ فى هذيان الجوع ـ اننى دجاجة ويريد ان يأكلنى ..

***

وقضيت ستة اشهر استولد واطور سلسلة من المشاهد الكوميدية ، ثم بدأت التصوير بغير سيناريو .. مؤمنا بأن قصة ما سوف تتولد من خلال العمــــل . وطبيعى اننى قطعت اشواطا فى أكثر من طريق مغلق ، وان مشاهد كثيرة ممتعة الغيت بعد تصويرها وكان منها مشهد غرامى مع فتاة من الاسكيمو ، تعلم الصعلوك التقبيل ـ على طريقتهم ـ بحك الانوف . فاذا ما هم الصعلوك بالرحيل بحثا عن الذهب ، دعك أنفه بأنفها فى انفعال شديد وهو يودعها . وبعد أن يبتعد قليلا يستدير نحوها ، ويلمس أنفه بأصبعه ، ثم ينفخ أصبعه باعثا اليها بقبلة اخيرة فى الهواء ! واخـــيرا يمسح اصبعه فى بنطلونه لانه تذكر انه مصاب بالزكام ! ولكن مشهد فتاة الاسكيمو كله الغى بعد ذلك لتعارضه مع قصة أكثر أهمية تجرى مع فتاة تعمل فى صالة رقص

وقد تزوجت للمرة الثانية أثناء قيامى بتصوير هذا الفيلم « البحث عن الذهب » ولكن .. لان لنا من هذا الزواج ولدين اعتز بهما كثيرا ، فأنا لن ادخل فى أية تفاصيل . يكفى ان اقول اننا بقينا عامين نحاول ان نسير بسفينته ، ثم فقدنا الامل ، وانتهت قصته نهاية خلقت وراءها كثيرا من المرارة

***

وافتتح فيلم البحث عن الذهب فى سينما ســـــتراند بنيويورك ، وشهدت حفلته الاولى

وما كدت أظهر فى بداية الفيلم وانا ادور حول احـــد

التلال غافلا عن الدب الذى يقتفى اثرى حتى قهقه المتفرجون وصفقوا ، وظل الضحك متواصلا طوال الفيلم ، تتخلله موجات من التصفيق . وجاء يعانقنى فيما بعد مدير توزيع الفنانين المتحدين « هيرام ابرافر » ويقول :

ـ شارلى . اضمن لك ان يبلغ ايراده على الاقل ستة ملايين دولار

وقد حدث !

ولكننى بعد حفلة العرض الاولى أصبت بانهيار مفاجىء ، اذ كنت ساعتها فى فندق ريتز ، ووجدت نفسى عاجزا عن التنفس . فأسرعت مذعورا اتصل بأحد اصدقائى بالتليفون ، وأقول لاهثا :

ـ اننى اموت . استدع المحامى فورا !

فأجاب بانزعاج :

ـ المحامى ! انك تحتاج الى طبيب

ـ لا لا . اريد المحامى . اريد ان اكتب وصيتى !

فما كان من صديقى المذعور الا أن استدعى الاثنين . ولكن لما كان المحامى بالصدفة غائبا فى اوربا ، فقد جاء الطبيب وحده

وبعد الفحص المعتاد وجد اننى لا أشكو الا من أزمة عصبية . وقال :

ـ انه الطقس الحار .. ارحل عن نيويورك الى شاطىء المحيط حيث يمكنك أن تهدأ وتشم هواء البحر

ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى كنت قد شحنت الى شاطىء برايتون . وفى الطريق وجدت نفسى ابكى بلاسبب واخيرا حصلت على حجرة تواجه المحيط فى أحد الفنادق وجلست فى النافذة أملأ صدرى بهواء البحر . ولكن الجموع سرعان ما بدأت تتزاحم خارج الفندق :

ـ هيه .. شارلى ! .. شارلى يا جدع !

فاضطررت الى التراجع عن النافذة حتى ابتعـــد عن الأنظـــــار .

ثم فجأة ، تصاعدت صرخة كنباح الكلب ! كان هناك رجل يغرق ، واسرع اليه عمال الانقاذ وحملوه الى تحت نافذتى مباشرة ، ولكن بعد فوات الاوان . فانه كان قد مات . ثم لم تكد تحمله عربة الإسعاف حتى نبح آخر . وبلغ مجموع الذين حملوهم فى ذلك اليوم ثلاثة اشخاص : نجا اثنان منهم . وأصبحت حالتى اكثر سوءا ، فقررت أن أعود الى نيويورك

وبعد يومين كانت حالتى قد تحسنت بما يكفى للعودة الى كاليفورنيا

## الفصل التاسع

# الإمبراطورهيرست

* اسطورة ماريون وملك الصحافة

* قالت الممثلة : يا أخينا ! فقال الامبراطور : حاضر!

* التعايش السلمى بين الزوجة والعشيقة

أثناء عملي في اخراج « البحث عن الذهب » تلقيت مكالمة تليفونية من النيور جلين :

ـ عزيزي شارلي .. يجب ان تتعـــرف الى ماريون ديفيز . انها حقا محبوبة . وتتمنى ان تراك . فما رأيك في تناول العشاء معنا في فندق امباسادور ، على أن تذهب بعد ذلك الى « باسارنيا » لتشاهد فيلمك « الطبقـــــة العاطلة » ؟

ولم اكن قد قابلت ماريون قبل ذلك ، ولكن الدعـاية الصارخة المحيطة بها كانت تحاصرني . فقد كانت هـذه الدعايات تحتل كل صحيفة ومجلة يملكها هيرســـت ، وتصفع القارىء في وجهه بطريقة مزعجة ، حتى ان بياتريس ليلى علقت على الانوار المتلألئة في لوس انجلس عندما أخذها أحدهم للفرجة عليها :

ـ يا للروعة ! مفروض بالطبع ان هذه الانوار سـوف تلتحم فيما بعد وتكتب « ماريون ديفيز » .. أليس كذلك

والواقع انه ما كان الانسان يفتح آية صحيفة من صحف هيرست دون ان تطالعه صورة ضخمة لماريون . وان كان هذا لم يؤد الا الى ابعاد الجمهور عن شباك التذاكر

ولكن حدث ذات ليلة أن شاهدت في بيت آل فيربانكس فيلم ماريون ديفيز « عندما كانت الفروسية مزدهرة » . فاذا بي لدهشتي الشديدة اجدها ممثلة بالفعل ، ذات سحر وجاذبية ، وكفاءة تؤهلها لان تكون نجمة بغير دعاية

هيرست المزعجة • فلما رأيتها بعد ذلك فى عشاء النيورجلين وجدتها بسيطة ، عذبة • ونشأت بيننا منذ تلك اللحظة صداقة وثيقة ••

وقد كانت العلاقة بين هيرست وماريون اسطورة فى الولايات المتحدة ، بل وفى العالم كله . وهى علاقة ربطت اسميهما أكثر من ثلاثين عاما ، ودامت الى يوم وفاته .. وليس معنى هذا ان الاثر كان طيبا على الدوام ، بالرغم مما كان له من صفات يمكن ان تمتدح • وانما كان لغز شخصيته هو الذى يذهلنى : صبيانيته ، وذكاؤه وطيبته ، وقسوته ، وضخامة ثروته ونفوذه •• وفوق هذا كله طبيعته الاصيلة • فقد كان – بمقاييسنا الارضية – اكثر الناس الذين عرفتهم فى حياتى تحررا وانطلاقا • وكانت امبراطوريته المالية شيئا خرافيا بلا حدود ، تتألف من عدة مئات من الصحف ، وأملاك واسعة بعضها عقارات فى نيويورك وبعضها مناجم ، ومساحات شاسعة من الاراضى فى المكسيك • وقد ذكر لى سكرتيره الخاص أن استثماراته بلغت ما يساوى ٤٠٠ مليون دولار ، وهو رقم هائل فى ذلك الوقت .

والآراء حول هيرست متناقضة • فهو فى رأى البعض وطنى مخالص لامريكا ، وفى رأى البعض الاخر انتهازى لا يكترث الا بترويج صحفه وتنمية ثروته • على انه فى شبابه كان جريئا ومتحررا • وكان متمتعا دائما بمساندة والديه • ومما يروى ان رجل المال الامريكى « راسل سدج » تقابل ذات مرة مع « فويب هيرست » – والدة راندولف – فى الشارع الخامس ، فقال لها :

– اذا استمر ابنك يهاجم وول ستريت « حى رجال الاعمال » فان صحيفته ستخسر مليون دولار فى العام •

فكان جواب الوالدة :

ـ بهذا المعدل يا مستر سيدج يستطيع ابنى ان يظل فى المهنة لمدة ٨٠ عاما !

وقد حدث فى أول لقاء مع هيرست أننى ارتكبت هفوة غير مقصودة • كان « سايم سلفرمان » محرر مجلـــــة « فاريتى » وناشرها قد أخذنى الى شقة هيرســـت فى « ريفرسايد درايفى » لتناول الغداء • وكانت الشقة تمثل مساكن الاغنياء التقليدية •• مؤلفة من دورين ، ومزينة بالصور النادرة ، والسقوف العالية ، والجدران المكسوة بخشب الموجنه ، والتحف الخزفية فى دواليب محفورة الى الداخل • وبعد ان قدمت الى عائلة هيرست ، جلسنا جميعا نتناول الطعام

وبدت مسز هيرست سيدة جذابة ، يتسم خلقهـــا بالبساطة والطيبة ، على عكس مستر هيرست الذى جلس يرمقنى بعينين جريئتين ، وتركنى أتولى الكلام

وقلت له :

ـ كانت أول مرة رأيتك فيها يا مستر هيرست فى مطعم الفنون الجميلة ، وكنت جالسا بين ســـيدتين • وأشار أحد أصدقائى اليك ••

واذا بأحد الجالسين يضغط على قدمى من تحت المائدة •• فأدركت أنه سايم سلفرمان ••

أما هيرست فقال بلهجة فكهة :

ـ اوه !

فبدأت أتلعثم :

ـ حسنا •• اذا لم يكن هذا الشخص انت •• فلا شك انه كان يشبهك كثيرا • ان صديقى بالطبع لم يكن واثقا ••

فقال هيرست وهو يغمز بعينه :
– على أية حال ، ان المفيد للانســــان ان يكون له شبيه ..
فضحكت ضحكة لعلها كانت اعلى مما يجب ، وقلت :
– نعم ..
وخفت مسز هيرست الى نجدتى مؤكدة فى مرح :
– نعم .. من المفيد جدا !
على أن المسألة مرت فى النهاية بسلام . وسار العشاء بعدها فيما أعتقد سيرا طبيعيا
وكانت ماريون ديفيز قد جــــاءت الى هوليوود لتلعب ادوار البطولة فى أفلام هيرست العالمية ، فاستأجرت بيتا فى تلال بيفرلى ، بينما جاء هيرست بيخته الذى يبلـــغ طوله ٨٤ مترا الى ساحل كاليفورنيا مخترقا قناة بناما . ومنذ ذلك الوقت بدأت مستعمرة السينما تعيش عصرا من عصور الف ليلة وليلة . ففى كل اسبوع تقيم ماريون حفلتين او ثلاث حفلات من حفلات العشاء البازخة لضيوف يبلغ عددهم احيانا مائة شخص .. ويؤلفون خليطا من الممثلين والممثلات وأعضاء مجلس الشيوخ ولاعبى البولو وفتيان الكورس والشخصيات الاجنبية ذات النفـــــوذ وموظفى هيرست وهيئات تحرير صحفه . وكان يسود هذا السهرات جو من العبث والتوتر فى وقت واحد ، اذ لم يكن احد يستطيع ان يتنبأ بما سيكون عليه مزاج هيرست الزئبقى المتلون . وهو مزاج كان بمثابة البارومتر الذى يقرر ما اذا كانت الليلة سوف تستمر أم لا
وما زلت اذكر حادثة وقعت اثناء سهرة عشاء اقامتها ماريون فى بيتها المستأجر ، حيث وقف خمســــون من الموزعين هنا وهناك بينما هيرست جالس على مقعد عــالى

الظهر ، يحيط به اعضاء اسرة التحرير ، وقد انصرف اليهم تماما . وكانت ماريون متكئة على كنبة طويلة .. وقد بدت متوهجة الجمال ولكن التأفف كان يزداد وضوحا على ملامحها كلما طال انشغال هيرست . واذا بها فجـــأة تهتف بغيظ :

ـ انت يا اخينا !

فرفع هيرست رأسه :

ـ من تقصدين ؟ انا ؟

ـ نعم انت ! تعال هنا !

وتراجع موظفو هيرست مبتعدين . وتجمدت الحجرة في صمت مطبق

وضاقت عينا هيرست وهو جالس كتمثال ابى الهول ، والاكياس التى تحت عينيه تسود شيئا فشيئا ، وشفتاه تتحولان الى خط رفيع ، بينما اصابعه تنقر بانفعال على مسند مقعده الذى يشبه العرش ، وقد بدا أنه لم يقرر بعد ايدع غيظه ينفجر ام لا . وبدأت يدى تبحث عن قبعتى ولكنه فجأة وقف قائلا :

ـ حسنا . أعتقد اننى يجب أن آجىء

ثم اتجه اليها بخطوات لا رشاقة فيها وقال :

ـ ما الذى تريده سيدتى ؟

فقالت ماريون بلهجة متعالية :

ـ قم بعملك فى المدينة ، لا فى بيتى .. ان ضيوفى فى انتظار الشراب ، فأسرع اذن وقدم لهم شيئا ..

فقال هيرست :

ـ حاضر .. حاضر ..

ثم اسرع بهيئة مضحكة الى المطبخ . وابتسم الجميع وهم يتنفسون الصعداء

لم اعرف فى حياتى رجلا يبعثر الثروة دون اكتراث كما كان يفعل هيرست • فروكفلر كان يشـعر بالعبء الادبى للمال ، وبيربونت مورجان كان واعيا بقوته ، أما هيرست فكان ينفق الملايين دون تفكير كأنها مصروف جيبه الاسبوعى ••

وكان البيت الساحلى الذى اهداه الى ماريون فى سانت مونيكا قصراً فاخرا على الشاطىء ، استدعى له بنائين من ايطاليا ، ويحتوى على سبعين حجرة تؤلف فى مجموعها بنيانا من الطراز « الجيورجى » •• يبلغ عرضه ثلاثين مترا ، وارتفاعه ثلاثة ادوار • وفيه قاعة للرقص جدرانها مكسوة برقائق الذهب ، وقاعة اخرى للطعام ، ولوحات بريشة رينولدز ولورنس « بعضها مقـلد » • وكان فى صالة المكتبة المكسوة بخشب البلوط زرار اذا ضغط عليه ارتفع جزء من الارضية ، وتحول الى شـاشة لعرض الافلام !

أما مزرعة هيرست فى سان سيمون ،فكانت مساحتها ٤٠٠ ألف فدان ، وتمتد مسافة ٣٠ ميلا على شـاطىء المحيط الهادى • وكانت المنطقة السكنية فيها مقامة فوق هضبة كالقلعة ، ترتفع مائة وخمسين مترا عن سـطح البحر ، وتبعد اربعة اميال عن الشاطىء • وقد بنى القصر الصيفى الرئيسى فيها من احجار قلاع قديمة شحنت من اوربا • وكان يحيط بها ـ كالطلائع الحارسة ـ خمس فيلات ايطالية مقامة على حافة الهضبة ، يتسع كل منهـا لاقامة ستة ضيوف • وفى القصر الرئيسى حجرات تتسع لثلاثين ضيفا آخرين ، وحجرة استقبال مساحتها ٩٠×٥٠ قدما ، تكسو جدرانها سجاجيد « جوبيلين » ، بعضها

اصيل ، وبعضها مقلد • وكان عدد موظفى القصر ستين موظفا ••

وعلى مسافة من القصر تسمح ببلوغ الصوت كانت توجد حديقة للحيوان تحتوى على اسود ونمـــور ودببة ونسانيس وقرود من عائلة « الاورانجو تانج » ، وطيور وزواحف • ومن الابواب الخارجية الى القصر يوجد طريق للسيارات يبلغ طوله خمسة اميال ، وعلى جانبيه لافتات تقول :

« الاولوية فى الطريق للحيوانات » ، فكان على الانسان ان ينتظر بسيارته الى ان يستقر رأى قطيع من النعام على الجلاء عن الطريق ، بينما قطعان الجاموس والغزلان •• الخ • تتجول فى كافة أنحاء المكان وتعرقل السير فيـــه

وكانت هناك سيارات مخصصة لاستقبال الزائرين فى محطة السكة الحديد ، ومطار خاص للهبوط اذا قدموا بالطائرة ••

اما وسائل الترفيه ، فكان منها السباحة ، وركوب الخيل ، والتنس ، والعاب من كافة الانواع ، او زيارة لحديقة الحيوان • وقد وضع هيرست قاعدة لا استغناء عنها ، وهى ألا تقدم الخمر قبل السادسة مساء • ولكن ماريون كانت تجمع اصدقاءها فى جناحها الخاص ، حيث تقدم لهم الشراب سرا

وكانت مسز هيرست تزور « سان سيمون » كل سنة ، دون ان يثير ذلك اى تصادم • فالتعايش بين ماريون ومسز هيرست كان امرا متفاهما عليه من الجانبين : فاذا اقترب موعد وصول مسز هيرست رحلت ماريون ونحن معها ، أو عادت الى بيتها الساحلى فى سانتا مونيكا

وقد عرفت ميليسنت هيرست منذ عام ١٩١٦ ، وكانت

تربطنا صداقة قوية • وبذلك صار عندى جواز مرور الى كل من البيتين • فاذا كانت مسز هيرست هى المقيمة فى المزرعة مع اصدقائها من مجتمع سان فرانسيسكو ، ودعتنى الى قضاء العطلة الاسبوعية ، ذهبت متظاهرا بأنها أول زيارة لى للمزرعة فى هذا الموسم • ولكن ميليسنت لم تكن تخدع نفسها • فالبرغم من تظاهرها بأنها تجهل أمر الجلاء الذى تم قبل وصولها ، فانها كانت تنظر الى المسألة بروح الفكاهة ، وتقول : لو لم تكن ماريون لكانت واحدة اخرى • وكثيرا ما حدثتنى فيما بيننا عن علاقة ماريون بهيرست ، ولكن دون مرارة على الاطلاق ••

وقالت لى ذات مرة :

ـ انه ما زال يتصرف كأنما لم يحدث بيننا شىء ، وكأن ماريون لا وجود لها • فعندما اجىء يعاملنى بكل عذوبة وعطف • ولكنه لا يمكث معى اكثر من عدة ساعات ودائما يكرر نفس الروتين : اذ يجىء رئيس الخدم ونحن على مائدة الغداء ويسلمه ورقة ، فيستأذن وينسحب من المائدة • ثم يعود ليقول فى تخاذل ان هناك عملا هاما يقتضى منه الذهاب فورا الى لوس انجلس • فنتظاهر كلنا بتصديقه وان كنا نعرف جميعاً انه عائد بالطبع الى ماريون ••

كان هيرست على سجيته دائما بشكل يلفت النظر • فهو يرقص ـ اذا كان معتدل المزاج ـ رقصة الشارلستون المفضلة لديه بفظاظة ساحرة ، دون اكتراث برأى الناس فيه • ولم يكن لديه ادنى ميل الى التظاهر ، فهو لا يقدم الا على ما يتحمس له . وكان يشيع فى نفسى الاحساس

بأنه رجل غبى ـ ولعله كان حقا ، ولكنه لم يكن يبذل أى جهد ليكون غير ذلك ! ..

وكان كثير من الناس يظنون أن المقالات الافتتاحيـــة اليومية الموقعة باسم هيرست يكتبها ارثر بريســـبين . ولكن بريسبين نفسه قال لى ان هيرست كان أقدر كاتب للمقالات الافتتاحية فى البلاد

***

فى تلك الايام كنت أرى هيرسنت وماريون كثـــيرا ، لاعجابى بالحياة المجنونة التى يعيشانها . ولما كنت أملك دعوة مفتوحة لقضاء عطلة أى أسبوع فى بيت ماريـــون الساحلى ، فاننى كثيرا ما افدت منها .. خاصة عندمايكون دوجلاس ومارى فى أوربا

وحدث ذات صباح ، ونحن على مائدة الافطار مع كثيرين آخرين ، ان استشارنى ماريون بشأن السيناريو الـــذى سنمثله . ولكن ما قلته لم يكن على هوى هيرست . كان موضوع القصة يدور حول الانوثة . وقلت ان المرأة دائما تختار رجلها ، وان الرجال لا يملكون من الامر شيئا . ولكن هيرسنت كان يرى رأيا آخر :

ـ أوه . كلا . ان الرجل دائما هو الذى يختار

قلت :

ـ هذا هو ما نتصور . ولكن الذى يحدث ان فتاة ما تشير باصبعها اليك قائلة : « سآخذ هذا الرجل » .. فاذا بك قد اخذت !

قال هيرسنت فى ثقة :

ـ انك مخطىء تماما ..

فاستطردت أقول :

كل ما فى الأمر أن أسلوبهن يبلغ من الخفاء حد ايهامنا

بأننا نحن الذين نختار

واذا بهيرست يدق المائدة فجأة بقبضة يده ، فيقفز طقم الافطار من مكانه . ثم يصيح :

ـ كلما قلت عن شيء انه ابيض قلت انت انه اسود !

واعتقد ان وجهي عندئذ شحب قليلا . وكان رئيس الخدم بالصدفة يقدم لي القهوة في ذلك الوقت ، فرفعت اليه رأسي وقلت :

ـ ارجو ان تكلف احدا بحزم امتعتي واستدعاء سيارة تاكسي ..

ثم نهضت دون كلمة أخرى وذهبت الى صالة الرقص وبدأت أتمشى ذاهبا عائدا وقد عقد الغضب لساني

وجاءت ماريون بعد لحظة :

ـ ما الخبر يا شارلي ؟

فاختلج صوتي وأنا أقول :

ـ لا يستطيع احد ان يصيح في وجهي بهذه الطريقة ماذا يظن نفسه ؟ نيرون ؟ نابليون ؟

فاستدارت عائدة على عجل دون ان تجيب ، وغادرت الحجرة ، وبعد لحظة دخل هيرست متظاهرا بأنه لم يحدث شيء . وقال :

ـ ماذا هناك يا شارلي ؟

ـ ليس من عادتي ان ينهرني احد ، وخاصة حين أكون ضيفا عنده . ولهذا فانني راحل . وأنا ..

واحتبس صوتي في حلقي فلم أستطع ان أكمل جملتي ..

ففكر هيرست لحظة ، ثم بدأ هو الاخر يذرع ارض الغرفة . وأخيرا قال وصوته أيضا يرتعش :

ـ دعنا نصفي هذا الامر

وتبعته فى الصالة الى ركن فيه مقعد أثرى مزدوج من طراز « تشيبنديل » .. وجلس هيرست ـ وكان ضخما ، يبلغ طوله ١٩٠ سنتيمترا ـ ثم اشار الى المســـاحة الباقية من المقعد قائلا :

ـ اجلس يا شارلى .. ولنتحدث لانهاء هذا الامر .. فجلست بجواره . ولكنها كانت « زنقة » شديدة

وفجأة ، دون ان يقول كلمة واحدة ، بسط لى يده التى تمكنت ـ برغم عجزى عن الحركة فى المقعد ـ ان اصافحها . ثم شرع يفسر ما حدث بصـــوت ما يزال يرتعش :

ـ أتعرف يا شارلى ؟ الحقيقة اننى لا أريد أن تمثـل ماريون هذا السيناريو . وهى تحترم رايك . فلمـــاذا وافقت أنت عليه ؟. حسنا ، ربما كان هذا هو ما جعلنى أضيق بك بعض الشيء

فذابت مقاومتى على الفور ، واسرعت اتلطف مصـمما على ان الخطأ كله كان خطئى . وكمجاملة أخيرة تصافحنا مرة ثانية ، ثم شرعنا ننهض فاذا بنا محشوران فى المقعد العتيق الذى بدأ يئن منذرا بالانهيار . ولم نستطع الا بعد محاولات متعددة أن نحرر أنفسنا أخيرا ، دون أن يصيب المقعد سوء ..

ويبدو أن ماريون بعد أن تركتنى ذهبت رأســـا الى هيرست وعنفته على جلافته وطلبت منه أن يجيء ويعتذر لى . وكانت ماريون تعرف كيف تختار لنفسها اللحظـــة المناسبة ، ومتى يجب عليها أن تسكت . وكانت تقول :

ـ اذا جاءته احدى نوباته الشريرة هبت العاصفة كأنهـا الرعد !

كانت ماريون سيدة مرحة ، جذابة . وكانت ـ حين

تقتضى اعمال هيرست ان يذهب الى نيويورك ــ تجمع اصدقاءها فى بيتها فى تلال بيفرلى « قبل اقامة البيت الساحلى» فنسهر معها جميعا الى ساعة متأخرة. ثم يرد رودلف فالنتينو بسهرة مماثلة فى بيته . ثم أفعل أنا نفس الشىء فى بيتى . وفى بعض الاحيان كنا نستأجر سيارة أوتوبيس ونشحنها بالزاد ، ونستأجر عازفا على « الكونسرتينا » ، ونذهب باعداد تبلغ العشرين الى شاطىء ماليبو ، حيث نشعل نارا ونسهر حولها فى منتصف الليل ..

وفى معظم الاحيان كانت « لويلا بارسونز » ــ المحررة فى صحف هيرست ــ تأتى معنا ، يصحبها هارى كروكر الذى أصبح فيما بعد مساعدى فى الاخراج . ولم نكن نعود الى بيوتنا من أمثال هذه الرحلات قبل الرابعة اوالخامسة صباحاً . وعندئذ تقول ماريون موجهة حديثها الى لويلا :

ــ اذا سمع هيرست بهذا ، فان واحدة منا ستفقد وظيفتها .. ولن تكون هذه الواحدة أنا

وبينما نحن ذات مساء فى سهرة عشاء فى بيت ماريون اذ بهيرست يتصل من نيويورك تليفونيا . وعادت ماريون بعد المكالمة ثائرة تقول بانفعال :

ــ تصوروا ! ان وليم هيرست يضعنى تحت المراقبة !

ذلك ان هيرست قرأ عليها فى التليفون تقريرا من مخبر سرى عما فعلته منذ سفره ، وكيف أنها غادرت بيت « ا » فى الرابعة صباحا ، وبيت « ب » فى الخامسة وهكذا .. وقالت لى ماريون فيما بعد ان هيرست قادم فورا الى لوس انجلس لتصفية كافة أعماله معها ، وانهما سيفترقان. وكانت بالطبع ثائرة لانها لم تفعل شيئا أكثر من تسلية نفسها بين اصدقاء . ومع أن التقرير كان صحيحا فى

وقائعه ، فانه كان مشوها بحيث يعطى ايحاء خاطئا

وابرق هيرست من كانساس سيتى يقول :

« غيرت رأيى ولن أعود الى كاليفورنيا لاننى لا أحتمل العودة الى الاماكن التى عرفت فيها الكثير من السعادة فى الماضى . ولهذا فأنا عائد الى نيويورك » ..

ولكنه سرعان ما أرسل برقية أخرى بعد ذلك يقول فيها انه عالى وشك الوصول الى لوس انجلس

وعندما عاد هيرست ، كانت لحظة حرجة بالنسبة الى كل من لهم صلة بالموضوع . ولكن المقابلة بينهما كان لها أثر طيب ، انتهى الى احتفال ضخم للترحيب بعودة هيرست الى تلال بيفرلى

وأقامت ماريون قاعة مؤقتة للطعام فى بيتها المستأجر ، تتسع لمائة وستين ضيفا .. مؤثثة ، ومضاءة بالكهرباء ومزودة بحلبة للرقص . وما كان على ماريون الا ان تدعك المصباح السحرى ليتم كل شيء

وفى ذلك المساء ظهرت ماريون بخاتم جديد من الزمرد ثمنه ٧٥ الف دولار ، هدية من هيرست . ولم يفقد احد ـ بالمناسبة ـ وظيفته !

كثيرا ما كنا ـ من باب التغيير ـ نقضى عطلة الاسبوع فى يخت هيرست وبيت ماريون الساحلى . فنبحر باليخت الى كاتالينا أو نتجه جنوبا الى سان دييجو

وكانت رحلة من هذه الرحلات هى التى اضطررنا اثناءها الى أن نترك على الشاطىء « توماس اينس » الذى تولى شئون افلام هيرست العالمية . ومع اننى لم أكن حاضرا بنفسى فى هذه الرحلة ، فان الينور جلين ـ التى كانت حاضرة ـ أخبرتنى بما حدث . وقالت لى ان اينس كان فى ذلك اليوم مبتهجا ، مرحا . ثم فجأة اصابه أثناء

الغداء ألم قاصم ، واضطر أن يترك المائدة • واعتقد الجميع أنها نوبة من سوء الهضم . ولكن حالته زادت سوءا ، وبدا أن الاصوب هو انزاله الى الشاطىء ليدخل احد المستشفيات . وهناك اتضح انه مصاب بنوبة قلبية وأعادوه الى بيته فى تلال بيفرلى •• حيث أصابته نوبة أخرى بعد ثلاثة أسابيع ومات

وبدأت شائعات السوء تنتشر مرددة أن اينس ضرب بالرصاص ، وان هيرست له علاقة بالموضوع . وقد كانت هذه الشائعات غير صحيحة على الاطلاق . وأنا أعرف ذلك لانني ذهبت مع هيرست وماريون لزيارة اينس قبل أن يموت بأسبوعين ، وكان مسرورا جدا بلقائنا ، ومؤمنا بأنه سيشفى بسرعة

على أن وفاة اينس احدثت ارتباكا فى خطط افلام هيرست العالمية ، الى حد أن « اخوان وارنر » استولوا عليها • ثم انتقلت بعد ذلك بعامين الى « مترو جولدوين ماير » حيث أقيمت لماريون حجرة ملابس فاخرة ، كنت أسميها التريانون

من هذه الحجرة كان هيرست يدير معظم اعماله الصحفية • وكثيرا ما رأيته جالسا فى منتصفها وقد بسط على الارض حوله عشرين صحيفة أو أكثر ، وراح يمر بعينيه على عناوينها الكبيرة ، ويقول مشيرا الى احداها :

ـ ذلك عرض ضعيف

ثم يشير الى غيرها :

ـ ما الذى جعل فلان يختار هذه القصة ؟

ثم يلتقط احدى المجلات ، ويفر صفحاتها بين أصابعه ، ويزن ثقلها بيده قائلا :

ـ ماذا جرى لاعلانات « رابوك » ؟ انها قليلة جدا هذا



**شارلي شابلن يمارس هوايته المفضلة : صيد السمك**

الشهر . أبرق الى « راس لونج » أن يحضر هنـــا على الفور ..

ثم تدخل ماريون فى وسط هذا المشهد ، وهى فى اتم زينتها ، عائدة من البلاتوه .. فتمشى عامدة بطريقتهـــا المختالة فوق الصحف وهى تقول :

ــ تخلص من كل هذه الزبالة . انهـــا تزحم غرفة ملابسى !

## الفصل العاشر

# إينيشتاين

* نظرية النسبية ولدت أمام أصابع البيانو !

* قالت ماريون للعالم العبقرى :

لماذا لاتحلق شعر رأسك ؟..

لم أستطع أن أفسر أبدا عواطف هيرست المعـــــادية للانجليز . فقد كانت له املاك ضخمة فى انجلترا ، وكان يحصل منها على أرباح كبيرة

والواقع ان ميول هيرست الالمانية يعود تاريخهـا الى الحرب العالمية الاولى ، حين كادت صـــداقته وعلاقاته بالسفير الالمانى الكونت برنستروف تؤدى فى ذلك الوقت الحرج الى فضيحة . ولم يستطع حتى نفوذ هيرست الهائل أن يسكت هذه الفضيحة الا بصعوبة

كذلك كان المحرر الامريكى للشئون الخارجية فى صحف هيرست ـ كارل فون ديماند ـ يكتب دائما فى اتجـــاه المانيا • وظل يفعل ذلك الى ما قبل الحرب العالميـــــة الثانية مباشرة

وزار هيرست ألمانيا أثناء جولته فى أوربا ، وتقـــابل مع هتلر . ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعرف الكثير عن معسكرات الاعتقال الهتلرية •• التى ظهرت أول معلومات عنها فى مقالات كتبها صديقى كورنيلياس فاندربلت ـ اذ تمكن من الدخول فى أحد هذه المعســكرات بحجة ما ، ثم كتب عن اساليب التعذيب النازية . ولكن قليلا من الناس هم الذين صدقوا ما كتبه ، بسبب ما انطوت عليه قصصه من صور الوحشية المنحطة المذهلة

وقد أرســـل لى فاندربلت سلسلة من صور الكارت بوستال ، يظهر فيها هتلر أثناء القاء خطبه . وكان وجهه

مضحكا بلا جدال .. أقرب الى أن يكون تقليدا رديئا لى بشاربه الغريب ، وشعره الليفى ، وفمه الضئيل الذى يثير الاشمئزاز . والواقع أننى لم استطع ان احمل هتلر على محمل الجد ، كانت كل صورة له تظهره فى وضع مختلف : فيداه فى احداها تبدو ذات مخالب تنهش الجماهير وفى الاخرى تبدو احدى يديه مرتفعة الى أعلى والاخرى منخفضة الى أسفل كأنه أحد لاعبى الكريكت على وشك ضرب الكرة ، وفى الثالثة تبدو يداه مطبقتين كأنما يرفع بهما ثقلا حديديا وهميا . أما التحية التى يؤديها بيده مقلوبة الى الوراء فوق كتفه ، فكانت تثير فى نفسى الرغبة فى ان أضع له فى هذه اليد صينية مليئة بالاطباق المتسخة !

وكنت أقول لنفسى :

ـ هذا رجل أحمق

ولكن .. عندما أرغم اينشتين وتوماس على مغادرة المانيا ، لم يعد وجه هتلر طريفا عندى ، انما كالحا وكئيبا ..

قابلت اينشتين أول مرة فى عام ١٩٢٦ ، عندما جاء يحاضر فى كاليفورنيا ..

وقد كانت نظريتى دائما أن العلماء والفلاسفة قوم خياليون حالمون ، ولكن يوجهون عواطفهم فى اتجاه آخر . واذا بهذه النظرية تنطبق تماما على شخصية اينشتين . فقد كان يبدو نموذجا لسكان جبال الالب الالمانية فى اعذب حالاتهم ، وكان رجلا ودودا باشا . ومع أن سلوكه كان هادئا وديعا ، فاننى كنت أشعر انه يخفى مزاجا عاطفيا عنيفا .. وان هذا المزاج هو المصدر الذى يستمد منه طاقته العقلية غير العادية

وكان « كارل لايمل » - من استديوهات يونيفرسال - قد اتصل بى تليفونيا ليقول ان البروفسور اينشستين يحب ان يرانى . فهزنى السرور لذلك . والتقينا فى أستديوهات يونيفرسال لتناول الغداء ..

كان هناك البروفسور ، وزوجته ، وسكرتيرته هيلين دوكاس ، والاستاذ المساعد له والتر ماير . وكانت مسز اينشتين تتقن الحديث باللغة الانجليزية ، أفضل من البروفسور فى الواقع . وكانت سيدة بدينة ، ذات حيوية فائقة .. تعبر بصراحة عن سرورها بأن تكون زوجة الرجل العظيم ، ولا تبذل أدنى جهد لاخفاء ذلك . فكان حماسها يجعلها قريبة من القلب ..

وعندما بدأ المستر لايمل - بعد الغداء - يقودهما فى جولة حول الاستديو ، انتحت بى مسز انيشتين جانبا وهمست :

- لماذا لا تدعو الاستاذ الى بيتك ؟ اننى واثقة من انه سيسر كثيرا بتبادل حديث هادىء فيما بيننا نحن ..

وهكذا كان يجب - كما طلبت مسز اينشتين - أن تكون الدعوة محدودة . فلم أدع غير صديقين اخرين ..

وعلى مائدة العشاء روت لى قصة الصباح الذى الهم فيه أينشتين نظرية النسبية

« نزل الدكتور فى ثياب النوم كعادته ليتناول الافطار . ولكنه لم يلمس شيئا من الطعام . فخيل لى انه يشكو من شىء ما ، وسألته ماذا به ، فقال :

- عزيزتى .. ان عندى فكرة رائعة !

وبعد ان شرب قهوته جلس أمام البيانو وشرع يعزف ومن لحظة الى اخرى كان يتوقف عن العزف ويسجل عدة ملاحظات ثم يكرر :

ـ لدى فكرة رائعة ! فكرة بديعة !
قلت :
ـ اذن فبحق السماء قلها لى ، ولا تدعنى نهب هذا القلق ..
فقال :
ـ انها صعبة . وما زال على ان اعمل لاستخلاصها ..
وقالت لى مسز اينشتين انه ظل يعزف على البيانو ويسجل الملاحظات لمدة نصف ساعة تقريبا ، ثم صعد الى مكتبه فى الدور الاعلى قائلا انه لا يريد ان يقاطعه احد . وبقى هناك اسبوعين !
وقالت مسز أينشتين :
ـ كنت أرسل اليه طعامه كل يوم . وكان يهبط كل مساء ليتمشى وحده فى الخارج ، ثم يعود مرة اخرى الى عمله .. وأخيرا نزل من مكتبه الى ، وقد بدأ شاحبا جدا . ووضع على المائدة فرخين من الورق وهو يقول مرهقا : « هذه هى » ! وهكذا ولدت نظرية النسبية !
وكنت قد دعوت فى ذلك المساء الدكتوررينولدز،لشغفه الشديد بعلم الطبيعة . فوجه سؤالا الى أينشتين أثناء العشاء عما اذا كان قد قرأ كتاب « تجارب على الزمن » الذى كتبه دان
وهز أينشتين رأسه نفيا ، فقال رينولدز مداعبا :
ـ ان لديه نظرية طريفة عن الابعاد .. نوع من البعد ( وتردد هنا قليلا ) .. نوع من البعد المطوط ..
فالتفت لى أينشتين وهمس بخبث :
ـ البعد المطوط ؟ فاز أيست داس ( وهى تعنى بالالمانية : ما هذا ) ؟
فلم يسع رينولدز الا أن يكف عن حديث الابعاد ،ومضى يسأل أينشتين عما اذا كان يؤمن بالاشباح . فاعترف

اينشتين بأنه لم ير فى حياته واحدا منها ، ثم أضاف وهو يبتسم :

ـ عندما يرى اثنا عشر شخصا نفس الظاهرة فى وقت واحد .. فعندئذ فقط يحتمل ان أومن بها

وكانت الظواهر العصبية فى تلك الايام شديدة الانتشار، وتحضير الارواح يسيطر على هوليوود .. خاصة فى بيوت نجوم السينما ، حيث اعتاد محضرو الارواح أن يعقدوا الجلسات والتجارب . ولم أكن أشهد بنفسى هذه المناسبات، ولكن الممثلة المشهورة فافى برأيس أقسمت لى أنها رأت فى احدى جلسات التحضير مائدة ترتفع عن الارض وتسبح فى فضاء الحجرة . فلما سألت البروفسور عما اذا كان قد شهد أمثال هذه الظواهر ابتسم ابتسامة عريضة وهز رأسه ..

وسألته أيضا عما اذا كانت نظريته النسبية تتعارض مع افتراضات نيوتن ، فقال :

ـ على العكس . انها امتداد لها

وقلت لمسز اينشتين أثناء العشاء اننى أنوى أن أسافر الى أوربا بعد افتتاح فيلمى التالى ، فقالت :

ـ يجب اذن أن تأتى الى برلين وتزورنا . اننا لا نملك مسكنا كبيرا . فالبروفسور ليس غنيا . ومع أنه يملك رصيدا مفتوحا بما يزيد عن مليون دولار من مؤسسة روكفلر من أجل أبحاثه العلمية .. فانه لم يستخدمه على الاطلاق ..

وقد زرتهما فيما بعد فى برلين ، فى شقتهما الصغيرة المتواضعة . وكانت تشبه المساكن التى يمكن أن تجدها فى برونكس : حجرة جلوس ومائدة فى نفس الوقت ، مفروشة بأبسطة عتيقة مستهلكة . وأفخر ما فيها من

الاثاث البيانو الاسود الذى كتب عليه تلك الملاحظات التمهيدية التاريخية عن البعد الرابع . وكثيرا ما أتساءل اليوم عما حدث لهذا البيانو . ولعله الان فى المعهد السيمفونى ، أو فى متحف متروبوليتان • أو لعل النازى قد استخدموه كخشب للحريق

وقد لجأ آل اينشتين الى الولايات المتحدة عندما بدأ الارهاب النازى يزحف على المانيا . وتروى مسز اينشتين قصة طريفة عن سذاجة الاستاذ فى المسائل المالية . فقد كتبت اليه جامعة برنستون تدعوه ان ينضم اليها ، وتسأل عن شروطه . واذا به يحدد رقما بلغ من ضآلته أن الجامعة ردت تقول انه مبلغ غير كاف للحياة فى الولايات المتحدة وأن عليه أن يطلب على اقل تقدير ثلاثة أضعافه !

ثم زارنى آل اينشتين عندما جاءوا الى كاليفورنيا فى عام ١٩٤٧ . وعانقنى الاستاذ فى حرارة وهو يحذرنى من أنه قد اصطحب معه ثلاثة عازفين موسيقيين :

ــ وسنعزف لك بعد العشاء

وفى ذلك المساء كان اينشتين واحدا من فرقة رباعية تعزف لنا موزار • ومع أن قوسه لم يكن ثابتا ، وأسلوبه كان جافا الى حد ما .. فانه كان يعزف بحرارة وحيوية، مغمضا عينيه طول الوقت ، متمايلا مع الانغام • ثم اقترح الموسيقيون الثلاثة ــ الذين لم يكونوا متحمسين كثيرا لاشتراكه معهم ــ ان يستريح قليلا ريثما يعزفون وحدهم شيئا . فتنحى اينشتين وجلس معنا ينصت . ولكنه بعد أن عزفوا عدة مقطوعات تحول نحوى وهمس :

ــ متى أعزف مرة اخرى ؟

أما مسز اينشتين ، فانها بعد انصراف الموسيقيين تحولت تؤكد لزوجها وهى متحمسة :

ــ لقد عرفت أفضل منهم جميعا ! ..

وبعد ذلك بعدة أيام دعوت آل اينشتين الى العشاءمرة اخرى مع مارى بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس ، وماريون ديفيز ، ووليم هيرست . وجلست مسز اينشتين بجوار هيرست . وكان يبدو أن كل شيء يسير سيرا حسنا قبل الطعام : فهيرست كان ودودا واينشتين كانمهذبا . ولكننى مع مضى الوقت بدأت ألاحظ جوا من الجمود البارد يزحف بينهما حتى لم يعودا يتبادلان كلمة واحدة . وبذلت كل ما فى وسعى لاحياء الحديث ، فلم تجد أية وسيلة . وساد الصمت حجرة الطعام ، وراح هيرست يحملق فى تعاسة فى طبق الحلوى أمامه ، والبروفسور يبتسم فى هدوء وهو غارق فى أفكاره ..

وكانت ماريون ـ بطريقتها العابثة ـ توزع التعليقات والمداعبات على الجميع ما عدا اينشتين .. ولكنها فجأة تحولت اليه وصاحت :

ـ هالو ! ..

ثم دقت بأصبعها على رأسه قائلة :

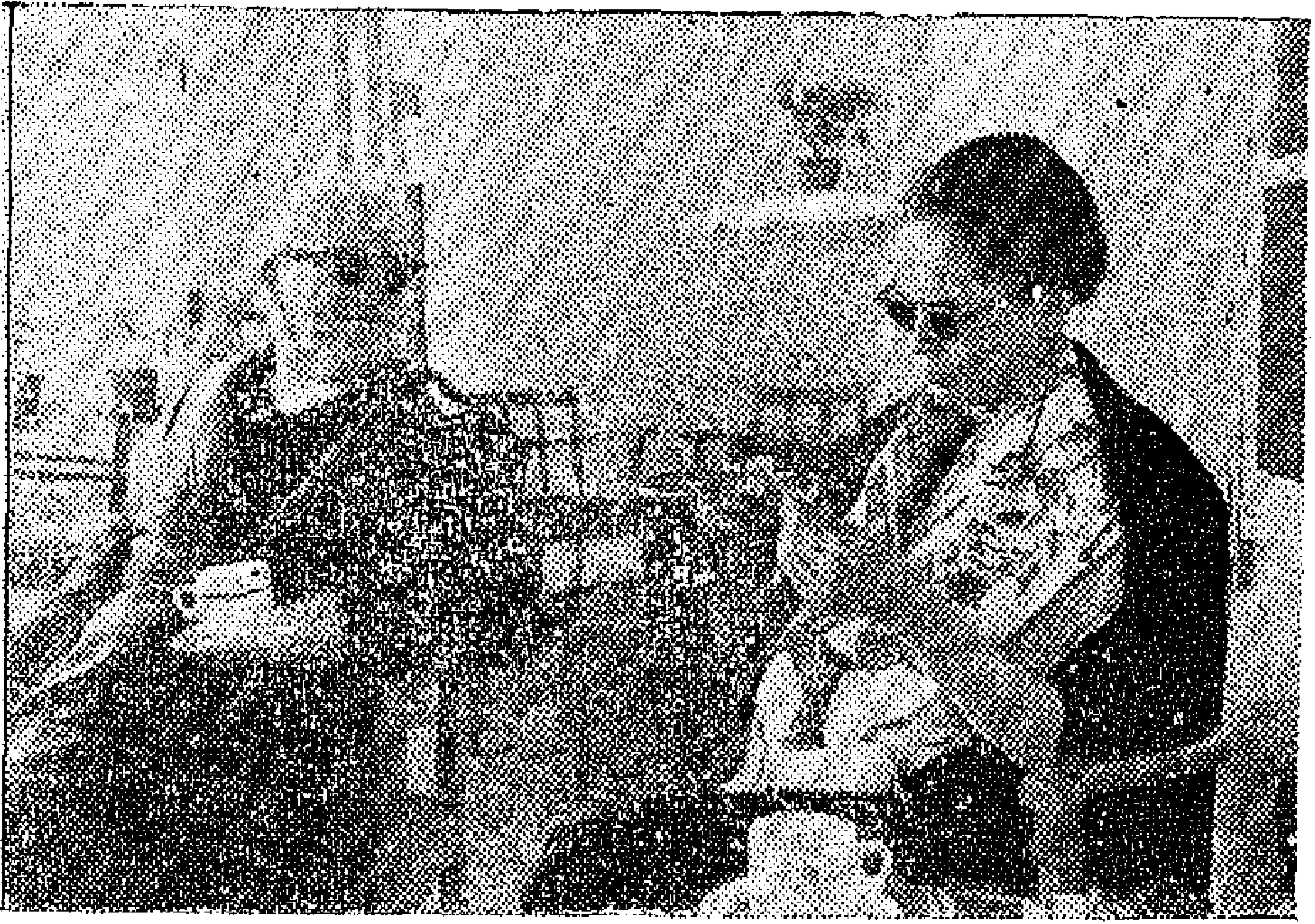
ـ لماذا لا تحلق شعرك ؟

فابتسم اينشتين . ورأيت انا أن الوقت قدحان لمغادرة المائدة ، والانفضاض الى حجرة الجلوس لتناول القهوة

***

جاء المخرج الروسى ايزنشتاين الى هوليوود مع مساعديه ، ومنهم جريجور الكسندروف ، وشاب انجليزى صديق لايزنشتاين .. اسمه ايفور مونتاجو . وكنت أراهم كثيرا ، وكانت عادتهم أن يلعبوا التنس عندى لعبا بالغ الرداءة .. أو على الاقل هكذا كان يلعب الكسندروف

وكان ايزنشتاين قد جاء لاخراج فيلم لحساب شركة بارامونت ، وقد سبقته السمعة الطيبة لفيلم « بوتمكين »،



شارلى شابلن وزوجته أونا

« وعشرة أيام هزت العالم » .. فرأت بارامونت أنه سيكون عملا مربحا أن نتعاقد معه على أن يكتب بنفسه السيناريو ويخرجه . فكتب سيناريو بعنوان « ساترز جولد » ، وكان عملا مأخوذا عن وثيقة هامة عن الايام الاولى لولاية كاليفورنيا .. ولم تكن فيه أية دعاية ، ولكن لما كان ايزنشتاين من روسيا فقد تخوفت منه بارامونت ، ولم يتم اخراجه

وقد سألت ايزنشتاين يوما ـ ونحن نتناقش حول الشيوعية ـ عما اذا كان يؤمن بأن العامل المثقف يتساوى عقليا مع الارستقراطى المستند الى تراث أجيال من الثقافة . ويخيل لى انه دهش لجهلى . وقال لى ، هو الذى جاء من الطبقة الوسطى الروسية ، من عائلة من المهندسين :

ـ عندما تتثقف الجماهير فان طاقتها العقلية تشبه في خصوبتها الارض البكر الغنية

وقد كان فيلم ايزنشتاين « ايفان الرهيب » ـ الذي رأيته بعد الحرب العالمية الثانية ـ قمة الافلام التاريخيـة جميعا . فهو قد عالج التاريخ بروح شاعرية .. وهي طريقة ممتازة لمعالجته . فالتاريخ كما هو لا يثير في نفسي غير السخرية ، خاصة كلما تذكرت الى أي حـد شوهت حتى الأحداث القريبة . أما المعالجة الشاعرية فانها ترسم صورة عامة لروح العصر . وفوق ذلك فانك لتجـد في الاعمال الفنية من الحقائق والتفاصيل الصادقة أكثر مما تجد في كتب التاريخ !

الفصل الحادى عشر

# ميلاد السينما الناطقة

* تحديث الأفلام الناطقة بفيلم صامت
* وكسب الفيلم نصف مليون دولار فى عرضه الأول!

بينما أنا فى نيويورك .. اذا بصديق يخبرنى بأنه قد شهد عملية لتوفيق الصوت مع الافلام ، ويتنبأ بأن ذلك سوف يحدث ثورة فى صناعة السينما كلها عن قريب ..

ولم أعد الى التفكير فى المسألة مرة أخرى الا بعد شهور عندما انتج أخوان وارنر أول مشهد ناطق لهم . وكان جزءا من فيلم زاخر بالازياء ، تظهر فيه ممثلة جميلة جدا . لا داعى لذكر اسمها . وهى تعالج فى صمت اشجان حزن عظيم ، وتنطق عيناها الواسعتان بألم يتجاوز فصاحة شيكسبير . ثم فجأة ، اقتحم الفيلم عنصر جديد . صوت كالذى كان يسمعه الانسان حين يضع على أذنه محارة . ثم تكلمت الاميرة الفاتنة كما لو كان صوتها ينساب من خلال الرمال :

ـ سأتزوج من جورج ، ولو كان ثمن ذلك التنازل عن العرش ..

وكانت صدمة رهيبة ، لان الاميرة الى ما قبل هذه اللحظة كانت تهز عواطفنا . ومع استمرار عرض الفيلم كان الحوار يزداد اثارة للضحك ، ولكن ليس كالمؤثرات الصوتية . فقد كان يخيل لى حين تدور أكرة باب الخدم أن أحدا قد علق تروس محراث ميكانيكى ، واذا أغلق الباب فان صوته كان يبدو كصوت اصطدام عربتين محملتين بالخشب . ذلك أنهم فى البداية لم يكونوا يعرفون شيئا عن التحكم فى الصوت : فالفارس المدرع الموفد فى مهمة يضج

كمصنع صلب ، وصوت أسرة تتناول غـذاءها البسـيط يبدو كفترات الزحام فى مطعم شعبى وانسكاب الماء فى الكوب تصدر عنه نغمة مميزة ترتقى السلم الموسيقى الى (فا) العاليـــة!

وخرجت من السينما فى ذلك اليوم مؤمنـــا بأن أيام الصوت معدودة .

ولكن ما كاد يمضى شــــهر بعد ذلك حتى انتجت مترو جولدوين ماير ( لحن برودواى ) وكان فيلما موسـيقيا ناطقا ـ وسخيفا فى الوقت نفسه ـ ولكن نجاحه فى شباك التذاكر كان مذهلا • فكانت هذه شرارة البدء • وبين يوم وليلة راحت كل دار للسينما تبرق طالبة أجهزة الصـــوت

وبدأ يأفل نجم الافلام الصامتة وهو أمر مؤسف حقا لانها كانت قد بدأت تتحسن . فالمخرج الالمانى (مورفـو) كان قد استخدمها بطريقة معبرة فعالة ، كما بدأ بعض مخرجينا الامريكيين يفعلون مثله . والفيلم الصامت الجيد يستطيع أن يخاطب المثقفين والعامة جميعا فى كافة انحاء العالم . والآن كان علينا أن نفقد كل ذلك

على اننى كنت مصمما على الاستمرار فى انتاج الافلام الصامتة ، لايمانى بأن المجال يتسع لمختلف الوان التسلية . وبالاضافة الى ذلك فقـــد كان فنى هو التقليد الحركى وكنت فيه متفردا .. بل كنت ـ ولا داعى للتواضـــع الزائف ـ استاذا . وهكذا مضيت قدما فى انتاج فيـــلم صامت جديد •• أضواء المدينة ••

ومع ان كل عمل جديد أقوم به كان فيما مضى يثـــير اهتمام المنتجين فانهم هذه المرة كانوا مشغولين جدا بنجاح الافلام الناطقة وبدات بمضى الزمن أشـــعر أنني خارج الاحداث . واعتقد أننى قد انتهيت

حتى ( جوتشنيك ) الذى سبق ان صرح علنابكراهيته للافلام الناطقة لم يلبث أن انحاز الى صفها . واصبح يقول لى :

ــ اخشى ان تكون الافلام الناطقة قد ولدت لتعيش يا شارلى :

ثم يؤيد كلامه بدعوى أن شابلن وحده هو الذى يستطيع أن يقدم فيلما صامتا ناجحا . وهى دعوى تنطوى على تقريظ لى ، ولكنها لم تكن تريحنى .. فما كنت أرغب أن أكون النصير الوحيد للسينما الصامتة . كما لم يكن مما يطمئننى أن اقرأ مقالات الصحف التى تعبر عن الشكوك والتخوفات حول مستقبل شارلى شابلن فى صناعة السينما

على أن ( أضواء المدينة ) كان فيلما صامتا نموذجيا ، فلم يكن هناك ما يمكن أن يصرفنى عن اتمامه . غير اننى كنت بذلك أواجه أكثر من عقبة . فمنذ ظهور السينما الناطقة ــ التى كان عمرها قد بلغ الآن ثلاث سنوات ــ نسى المثلون الاداء الصامت . وانصب كل اهتمامهم على الكلام بدلا من الحركة . وكانت صعوبة اخرى أن أعثر على فتاة يمكن أن تبدو عمياء دون أن ينقص ذلك من جمالها . فمعظم المتقدمات للدور كن ينظرن الى أعلى ، كاشفات عن بياض عيونهن ، بطريقة تثير الالم . على أن الحظ فى النهاية خدمنى . اذ ذهبت يوما أتفرج على جماعة من الممثلين يعملون على شاطىء سانتا مونيكا ، وكان بينهم عدد كبير من الحسناوات فى ثياب البحر ، ولوحت لى واحدة منهن سبق أن التقيت بها ، وهى فيرجينيا شيريل وقالت :

ــ متى سأعمل معك ؟

ولم يكن قوامها الرشيق فى ثوب الاستحمام يوحى

بامكان قيامها بدور ذى شفافية روحية كدوز الفتاة العمياء. ولكنني بعد تجربة او تجربتين مع ممثلات اخريات ، دعوتها بدافع اليأس وحده الى الحضور . ولدهشتى وجدت انها تملك القدرة على الظهور بمظهر العمياء . وطلبت منها ان تنظر نحوى بحيث تخترقنى نظرتها ،دون أن ترانى ، فاذا بها تستطيع

وكانت مس شيريل جميلة ، وصالحة للتصوير ، ولكن خبرتها بالتمثيل كانت محدودة . وهذه فى بعض الاحيان ميزة ، وخاصة فى الافلام الصامتة حيث ( التكنيك ) له الاهمية الكبرى . فالممثلات ذوات الخبرة يجمدن أحيانا على طابعهن الخاص . والحركة فى التمثيل الصامت حركة آلية الى حد يسبب لهن الارتباك . اما ذوات الخبرة القليلة ، فانهن اكثر استعدادا للتدرب على هذه الحركة الآلية

واستغرق اعداد أضواء المدينة عاما كاملا ، اذ كنت قد وصلت الى حالة عصبية من الاصرار على الكمال . على أننى أتممته أخيرا ولم يبق الا تسجيل الموسيقى ، وكان من حسن الحظ – فيما يتعلق بالصوت – ان الموسيقى يمكن التحكم فيها

وكتبت موسيقى الفيلم بنفسى . وبعد أن تم ضبطها على الفيلم أصبحت متلهفا الى أن أعرف مصيره . فذهبنا نعرضه عرضا تجريبيا – دون اعلان سابق – فى احدى دور السينما فى المدينة

ذهبت الى نيويورك فى اليوم التالى دون ان انتظر تعليقات الصحف ، اذ لم يكن باقيا على موعد الافتتاح ، غير أربعة ايام ..

وما كدت اصل حتى اكتشفت – لفرط الذعر – أن

الفيلم لم يعلن عنه تقريبا ، الا فى حدود سطور تقليدية تقول : « صديقنا القديم يعود الينا مرة اخرى » •• وغير ذلك من الجمل التافهة • فأسرعت أعلن التعبئة العامة بين موظفينا فى « الفنانين المتحدين » قائلا لهم :

ــ دعوا العواطف جانبا • اعطوهم معلومات وحقائق • اننا سنفتتح الفيلم فى دار غير مطروقة

وحجزت اعلانات بحجم نصف الصفحة بعشرتها يوميا فى اكبر صحف نيويورك ، تقول بحروف بنفس هـذا الحجم :

« شارلى شابلن •• بسينما كوهان فى •• أضـواء المدينة عرض مستمر طول اليوم •• الاسعار نصف دولار، ودولار •• »

وأنفقت على اعلانات الصحف ثلاثين ألف دولار ، ثم استأجرت لافتة نيون على واجهة السينما تكلفت ثلاثين الفا اخرى • ولما كان الوقت ضيقا ، وعلينا ان نتعجل فقد بقيت مستيقظا طول الليل أجرب آلات العـرض ، واقرر حجم الصورة ، واصحح التشويه • وفى اليـوم التالى استقبلت رجال الصحافة ، وشرحت لهم الاسـباب والاهداف التى دعتنى الى اخراج فيلم صامت ••

وكان موظفو « الفنانين المتحدين » متخوفين من الاسعار التى حددتها للدخول • فقد جعلتها ما بين دولار ونصف دولار ، بينما كافة دور السينما التى تقدم عروضا اولى تحدد اسعارها ما بين ٣٥ و ٨٥ سنتا •• وتعرض افلاما ناطقة يسبقها استعراض صاخب • ولـكن موقفى كان مختلفا ان فيلمى صامت ، مما يستدعى رفع أسعاره • واذا كان الجمهـور يرغب فى مشاهدته فان الفرق بين الخمسة والثمانين سنتا وبين الدولار لن يمنعهم ••

وعلى هذا فقد رفضت المساومة ..

وحقق الفيلم فى ليلة الافتتاح نجاحا طيبا جدا . ولكن حفلات الافتتاح لا دلالة لها . وانما الجمهور العادى هو الذى يهم . فهل ياترى سيثير اهتمامه فيلم صامت ؟

أبقتنى هذه الافكار مؤرقا نصف الليل . ولكننى فى الصباح فوجئت بمدير دعايتى يوقظنى وقد اقتحم الحجرة فى الحادية عشرة صباحا وهو يصرخ فى قمة الانفعال :

ـ فعلتها يا جدع ! يا لها من قنبـــلة ! ان طابورا من الناس يقف ملتفا حول القطاع كله منذ العاشرة صباحا ، والمرور معطل . وهناك حوالى عشرة من العساكر يحاولون حفظ النظام . وقتال من أجل التذاكر . وآه لو سمعتهم وهم يتصايحون !

فتسلل الى نفسى احساس من السعادة والاسترخاء وأمرت بافطارى ، ثم لبست ثيابى ، وقلت :

ـ قل لى أين كانت أعلى الضحكات

فقدم وصفا تفصيليا للمواقف التى ضحكوا فيها، والتى قهقهوا ، أو صرخوا ، عندها . ثم قال :

ـ تعال وانظر بنفسك ..

سينزل بردا على قلبك ..

وعلى اننى لم أر الا نصف ساعة من الفيلم . واقفا مع الزحام عند مؤخرة الصالة ، فى جو من السرور الحماسى الذى يقاطعه بين وقت وآخر انفجـــــارات من الضحك الصاخب .. وكان هذا كافيا . فخرجت راضـــــيا عن نفسى ، ونفست عن مشاعرى بالمشى فى طول نيويورك وعرضها لمدة اربع ساعات . وبين فترة واخرى كنت امر أمام دار السينما وأرى الطابور المتصل الدائر حـــــول المبنى ..

وثالَ الفيلم ايضا تعليقات اجماعية حماسـيـة من النقاد ..

وظللنا ثلاثة اسابيع ـ فى هذه الدار المزودة بألف ومائة وخمسين مقعدا ـ نحصل على ٨٠ الف دولار كل اسبوع بينما لم تحصل سينما بارامونت المواجهة لنا ، والتى تتسع لثلاثة الاف متفرج ، وتعرض فيلما ناطقا ، ويظهر فيها موريس شيفالييه بشخصه ، الا على ٣٨ الف دولار فى نفس الاسبوع

واستمر عرض اضواء المدينة اثنى عشر اسـبوعا ، فحقق بذلك ـ بعد خصم كافة التكاليف ـ ربحا صافيا يزيد على ٤٠٠ ألف دولار . ولم نتوقف عن عرضـه الا استجابة لطلب احدى شركات دورالعرض، التى استأجرت الفيلم بسعر طيب جدا

وعزمت عندئذ على الذهاب الى لندن وافتتاح أضواء المدينة هناك . وكنت وأنا فى نيويورك أقابل كثيرا صديقى رالف بارتون ، وهو أحد رؤساء تحرير « النيويوركر » . وكان رجلا فى السابعة والثلاثين من عمره ، مرهف الذوق، متطرفا ، تزوج خمس مرات . وقد أصابته مؤخرا حالة من الانهيار النفسى ، وحاول الانتحار بأخذ جرعة كبـيرة من دواء ما . فاقترحت عليه أن يأتى معى ، ضيفا على ، حتى يفيده تغيير الجو ..

وهكذا سافرنا معا على ظهر الباخرة « أوليمبيك » نفس الباخرة التى سافرت عليهـا الى انجلترا فى الرحلة الاولى ..

كانت هذه الزيارة الثانية مثيرة ، ومنشطة للنفس . كالزيارة الاولى . ولكنها كانت بلا شك أكثر أهمية : اذ كان

من حظي فيها أن التقى بعدد أكبر من الشخصيات الهامة ..

اتصل بنا السير فيليب ساسون ، ودعاني أنا وراتف الى عدد من ولائم العشاء في بيته في بارك لين ، وفي مقره الريفي في ليمبن . كما تناولنا الغداء معه أيضا في مجلس العموم ، حيث التقينا في الممر بالليدى آستور

وبعد ذلك بيوم أو يومين دعتنا الليدى الى الغداء معها في مسكنها بميدان سانت جيمس ، رقم ١ . وما كدنا ندخل قاعة الاستقبال حتى أحسست بأننا قد دخلنا صالون المشاهير عند مدام توسو — فقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام برنارد شو ، وجون ماريان كينيس ، ولويد جورج ، وكثيرين آخرين .. بلحمهم ودمهم . وحافظت ليدى آستور على حيوية الحديث ببديهتها الخصبة التى لا تتخلى عنها ، الى أن استدعيت الى خارج القاعة ، فساد على أثر خروجها صمت محير . ولكن برنارد شو أسرع يحل محلها ، وروى نادرة طريفة عن «دين انج» الذى قال تعبيرا عن استيائه من تعاليم القديس بولس :

— لقد شوه تعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوبا، برأسه الى أسفله !

وقد كانت هذه العذوبة من جانب شو ، وعبقريته فى الابقاء على السهرة حية ، من أكبر أسباب جاذبيـة وحب الآخرين له

وبعد ذلك بيوم أو بيومين تناولنا الغداء عند برنارد شو نفسه . وصحبنى شو بعد الغداء الى حجرة مكتبه ، تاركين ليدى آستور والآخرين فى قاعة الجلوس

وكانت الحجرة مضيئة مشرقة ،تطل على نهر التيمس. وما كدت أدخل حتى وجدت أمامى رفا فوق المدفئة يحمل

مؤلفاته • ولما كنت قد قرأت القليل من أعمال شو ، فقد صحت متعجبا كأى أبله وأنا اتجه الى الرف :

ـ أوه ! كل أعمالك !

وعندئذ خطر ببـــالى انه قد يكون دبر هذه الفرصة لاستكشاف عقلى عن طريق مناقشة مؤلفاته • وتصـورت نفسى وقد اشتبكت معه الى حد يجعل الضيوف يتـدخلون لوقف المناقشة • ولكم كنت أحب أن يحدث شيء كهذا ! ولكن الذى حدث بدلا من ذلك هو أن الصمت ساد لحظة، بينما استدرت أنا أفحص الحجرة ، وعلقت تعليقا ساذجا على اشراقها •• ثم عدنا ننضم الى باقي الضيوف .

وقد التقيت بمسز شو عدة مرات بعد ذلك • وما زلت أذكر مناقشة بينى وبينها حول مسرحية شو « عـربة التفاح » •• التي لم تحظ باكتراث كبير من جانب النقاد • فقد كانت مسز شو ثائرة جـدا لهذا السبب ، وقالت لى:

ـ لقد طلبت من شو ألا يكتب أية مسرحيات أخرى • فالجمهور والنقاد لا يستحقون مسرحياته !

الفصل الثانى عشر

# فى إنجلترا

* برنارد شو فى بيته
* أيام مع تشرشل
* ومقابلة مع غاندى

ظللنا ثلاثة أسابيع مشغولين بدعوات مستمرة ، احداها من رئيس الوزراء ، رامزى ماكدونالد ، وأخرى من ونستون تشرشل ، وأخريات من لارى ستور ، وسـير فليب ساسون .. الى آخر سلك العائلة المالكة ..

وقد كانت أول مرة قابلت فيها ونستون تشرشل فى بيت ماريون ديفيز الساحلى . وكان نحو خمسين ضيفا يذهبون ويجيئون بين قاعة الرقص وقاعة الاستقبال عندما ظهر هو على عتبة الباب مع هيرست ، ووقف على طريقة نابليون واضعا يده فى الصديرى يتأمل الراقصين . وكان يبدو عليه أنه تائه فى غير مكانه . ورآنى هيرست فأومأ لى أن أقترب ، ثم قدمنى اليه

كان خلقه ودودا وحاسما . وتركنا هيرست فظللنا بعض الوقت نتبادل الجمل التقليدية والناس يموجون من حولنا . ولم يتألق تشرشل الا عندما تطرقت بالحديث الى وزارة العمال البريطانية وقلت :

ـ الذى لا أفهمه فى انجلترا هو ان انتخاب حكومـة اشتراكية فيها لا يغير شيئا من وضع الملك أو الملكة

فعندئذ رمانى بنظرة سريعة ، متحديه ، يشوبها ظل من الدعابة .. وقال :

ـ بالطبـع لا

ـ كنت أظن أن الاشتراكيين معارضون للملكية ..

فضحك قائلا :

ـ لو كنت فى انجلترا لقطعنا راسك جزاء على هـــذه الملاحظة !

والآن وقد صرنا فى انجلترا فقد دعانى المسترتشرشل ـ انا ورالف ـ الى « تشارتويل » لقضاء عطلة الاسبوع. ووصلنا الى هناك بعد رحلة مريرة فى طقس بارد

وتشارتويل بيت قديم ، آثاثه متواضع ، ولكن ذوقه سليم .. ويسوده جو عائلى . والحق اننى لم أعرف تشرشل على حقيقته الا فى هذه الرحلة الثانية الى لندن . وكان فى هذه الفترة عضوا فى مجلس العموم

ويخيل لى أن السير ونستون رجل تمتع بحيـــاته اكثر مما أتيح لمعظمنا . فهو قد لعب على مسرح الحياة كثيرا من الادوار فى شجاعة وتوهج وحرارة فائقة . ولم يفته الا قليل جدا من المتع فى هذا العالم . فهو رجـــل جاملته الحياة . عاشها على خير ما تكون ، وقامر فيها أخطر المقامرات ، وكسب . واستمتع بالسلطة ، ولكن لم يدعهــا أبدا تستحوذ عليه . واستطاع فى حياته المزدحمة ان يجد وقتا للهوايات : بناء الجدران ، وسباق الخيل ، والرسم بالزيت . وقد لاحظت فى غرفة المـائدة عنده لوحة من لوحات « الطبيعة الصامتة » على رف المدفأة . فلما رآنى انظر اليها باهتمام شديد قال :

ـ انا الذى رسمتها

قلت بحماس :

ـ ولكن كم هى رائعة !

ـ ليس فى الامر صعوبة . كل ماحدث هو اننى رأيت رجلا يرسم منظرا طبيعيا فى جنوب فرنسا فقلت : فى استطاعتى أن أفعل مثله ..

وفى الصباح التالى اخذنى لارى الجدران التى تحيـط

بشارتويل ، والتي بناها بنفسه . فدهشت وقلت مامعناه أن بناء الحوائط ليس سهلا كما يبدو فأجاب :

ــ سأريك الطريقة . وستفعلها في خمس دقائق

وعند العشاء في الليلة الاولى كان هناك عدد كبير من أعضاء البرلمان يجلسون معه ــ وكأنما هم تحت قدميه ــ وكان منهم مستر بوثباى الذى هو اليوم « لورد بوثباى » والمرحوم برندان براكن الذى صار فيما بعد «لوردبراكن» .. وكلاهما كان متحدثا ممتعا وجذابا . وقلت لهما انني سوف أقابل غاندى الذى كان في لندن في ذلك الوقت . فقال براكن :

ــ لقد سكتنا طويلا على هذا الرجل . والواجب أن يوضع في السجن وان يبقى فيه .. سواء أضرب عن الطعام أم لم يضرب . فاننا سنفقد الهند مالم نكن حازمين

فقاطعتــــه :

ــ ان وضعه في السجن أمر بسيط جدا لو انه يجدى ، ولكنكم اذا سجنتم غاندى فسيظهر غيره . انه رمز لمــا يريده الشعب الهندى . والى أن يحصل الهنود على ما يريدون فانهم سيواصلون تقديم غاندى بعد آخر

فالتفت تشرشل نحوى وقال وهو يبتسم :

ــ انت تصلح عضوا طيبا في حزب العمال !

والحق أن جاذبية تشرشل تكمن في تقبله واحترامــــه لآراء الآخرين . فهو يبدو غير حاقد على أولئــــك الذين يختلفون معه

وبعد أن انصرف براكن وبوثباى في تلك الليلة الاولى ، أتيح لي في الصباح التالى أن أرى تشرشل عن كثب بين عائلته . وكان يوما من أيام الازمات السياسية ، ظل فيه لورد بيفربروك يتصل بتشارتويل تليفونيا طول النهار ،

وقوطع فيه وكان ذلك اثناء الانتخابات ، وفى قمة الازمة الاقتصادية

وكانت اوقات الطعام متعة بالنسبة لى ، اذ كان تشرشل لا يكف عن الكلام فى السياسة على المائدة ، بينما تنصت العائلة مستسلمة دون أن تبدى حراكا . وكنت اشعر أنها عادة تتكرر كثيرا ، وانهم عودوا أنفسهم عليها

وقد سحرتنى البساطة ، والذوق الاسبرطى ، فى تشارتويل . وكانت حجرة نوم تشرشل مكتبة فى نفس الوقت ، تفيض بالكتب المصطفة على الجدران الاربعة . وكان جدار منها مخصصا بأكمله لتقارير هانسارد البرلمانية . كما كانت هناك أيضا مجلدات كثيرة من نابليون . قال عنها تشرشل معترفا :

ـ نعم .. اننى من أشد المعجبين به

ثم قال :

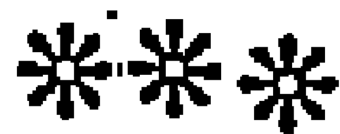
ـ سمعت أنك مهتم باخراج فيلم عنه ، يجب أن تفعل ، فهناك امكانيات كوميدية عظيمة : نابليون فى الحمام وشقيقه جيروم يدخل عليه فى ثيابه الموشاة بالذهب ، محاولا أن يستغل فرصة ارتباكه ويجعله يذعن لمطالبه . ولكن نابليون يتعمد الانزلاق والسقوط فى البانيو ، فيتطاير الماء ويغمر حلة شقيقه ، بينما هو يأمره بالخروج . فيخرج كسير الفؤاد .. مشهد كوميدى رائع !

واذكر ذات يوم أننى رأيت مستر ومسز تشرشل يتناولان الغداء فى مطعم « كواجلينو » . وكان تشرشل يبدو فى جلسته كالغلام الغاضب . فاتجهت الى مائدتهما لاحييهما ، وقلت وانا ابتسم :

ـ مالك تبدو كما لو كنت تحمل ثقل العالم على كتفيك ؟

فقال انه عائد لتوه من مناقشة فى مجلس العموم ، وانه ليس راضيا عما جاء فى المناقشة بشأن المانيا . فلما علقت على الامر تعليقا فيه دعابة ، هز رأسه وقال :

ـ أوه . كلا . ان الامر خطير . خطير جدا في الواقع



قابلت غاندى بعد فترة قصيرة من اقامتى عند تشرشل وقد كنت دائما أحترم غاندى وأشعر نحوه بالاعجاب .. لذكائه السياسى وارادته الحديدية

غير اننى كنت أرى أنه اخطأ بزيارته للندن . فعلى مسرحها تبخرت هالته الاسطورية ، وفى طقس انجلترا البارد المعتم ، كان يبدوا نشازا بقطعة القماش التقليدية الملتفة حول خصره . وجعله ذلك مادة للسخرية التافهة والكاريكاتير . والواقع أن تأثير الانسان فى نفوس الناس يكون أعمق اذا احتفظ بمسافة بينه وبينهم

وكنت قد سئلت عما اذا كنت أحب ان التقى به . فأثار ذلك شغفى الشديد . والتقيت به فى بيت صغير متواضع فى المنطقة الفقيرة المجاورة لشارع ( ايست انديا دوك ) . وكانت الجموع تزحم الشوارع ، ورجال الصحافة والمصورون يحتلون دورى البيت

وجرت المقابلة فى غرفة امامية من دار متواضعة ، تبلغ مساحتها حوالى ١٢ قدما مربعا ـ (أى حوالى متر ونصف متر ) . ولم يكن المهاتما قد وصل بعد . فبدأت ـ وانا فى انتظاره ـ افكر فيما يمكن ان أقول له . وكنت قد سمعت عن سجنه ، واضراباته عن الطعام ، وكفاحه من أجل تحرير الهند . كما كنت أعرف بصورة غامضة معارضته لاستخدام الالات

وعندما وصل أخيرا تصاعد التهليل ، والهتافات وهو

يهبط خارجا من التاكسى ، ويضم حول خصره ثوب القماش الذى يرتديه ..فكان غريبا فى ذلك الشارع المزدحم الفقير منظر جسمه النحيل وهو يدخل مثل هذا البيت المتواضع تزفه الهتافات المدوية

وصعد غاندى الى الدور العلوى وظهر فى النافذة أمام الجماهير ، ثم أذن لى أن أقترب ، ووقفنا معا نلوح للزحام تحتنا ..

وما كدنا نجلس معا على الكنبة حتى داهمنا وهج آلات التصوير . كنت أجلس على يمين المهاتما . وجاءت اللحظة المحرجة المخيفة التى يجب ان اقول فيها شيئا بالغ الذكاء فى موضوع لا أعرف عنه الا القليل . والى يمينى كانت تجلس فتاة شابة مصممة على أن تروى لى قصة طويلة لم أكن اسمع منها حرفا . ولكننى ظللت اهز لها راسى مؤمنا على كلامها وأنا أفكر طول الوقت فيما سـوف اقول لغاندى . كنت أعلم ان على ان ابدأ الحديث ، وانه ليس متوقعا من المهاتما ان يبدأ هو ويقول لى كم استمتع بفيلمى الاخير .. الخ ـ بل لقد كنت أشك فى أنه قد رأى أصلا أى فيلم فى حياته . على آن صوت سيدة هندية لم يلبث ان ارتفع بلهجة آمرة يقاطع الفتاة الثرثارة :

ـ يا آنسة .. هل تسمحين بانهاء حديثك وترك المستر شابلن يتحدث الى غاندى ؟

فسـاد الصمت فجأة فى الحجرة المكتظة . ولما كان التعبير المرتسم على ملامح غاندى يدل على الانتظار ، فقد جلوت حنجرتى ، وبدات أقول :

ـ اننى بالطبع أقف بعواطفى مع امال الهند ونضالهـا من آجل الحرية . ولكنى برغم ذلك اشعر بشىء من الحيرة بسبب نفوركم من الآلات . وأومأ المهاتما برأسه مبتسما وانا استطرد :

ـ فالآلات فى نهاية الامر يمكن اذا استخدمت للصالح العام ان تساعد على تحرير الانسان من قيد العبودية ، وتمنحه ساعات عمل أقل ، ووقتا لانماء عقله والاستمتاع بالحياة

فقال بهدوء :

ـ أفهم ذلك . ولكن على الهند قبل أن تحقق هذه الاهداف ان تخلص نفسها اولا من الحكم البريطانى . لقد جعلتنا الآلة فى الماضى تابعين لانجلترا . والطريق الوحيد لتحرير أنفسنا من هذه التبعية هو ان نقاطع كافة السلع المصنوعة آليا . وهذا هو السبب فى اننا جعلنا الواجب الوطنى على كل هندى ان يغزل قطنه ، وينسج ثوبه ، بنفسه . هذه هى طريقتنا فى الهجوم على امة بالغة القوة كانجلترا . ثم أن هناك بالطبع أسبابا أخرى . فالهند لها طقس يختلف عن انجلترا ، كما تختلف أيضا عاداتها واحتياجاتها . فالطقس البارد فى انجلترا يحتم وجود صناعة نشطة واقتصاد معقد . وبينما تحتاجون أنتم الى صناعة أدوات المائدة ، نستخدم نحن أصابعنا فى الطعام وهكذا يتجسد الامر فى عديد من الفروق

وهكذا تلقيت درسا بارعا فى المناورات التكتيكية للكفاح الهندى من أجل الحرية ، مصدره ـ لفرط العجب ـ رجل واقعى ، حالم ، حاد الذهن ، يملك ارادة حديدية لتنفيذ ما يقول . وكان مما قاله لى أيضا أن أعلى مراتب الاستقلال هى التخفف من الاشياء التى لا ضرورة لها . وان العنف لا يلبث فى النهاية أن يدمر نفسه

***

وعندما خلت الحجرة من الناس سألنى غاندى عما اذا كنت أحب ان ابقى واشاهد صلاتهم . وجلس المهاتما



مشهد لشارلى شابلن فى فيلم (( العصر الحديث ))

على الارض وقد تعانقت ساقاه ، بينما جلس معه خمسة آخرون فى دائرة . فكان منظرا عجيبا : ستة أشخاص قابعين على الارض فى تلك الحجرة الضيقة ، ذى قلب افقر احياء لندن ، بينما تغيب الشمس الصفراء بسرعة وراء اسطح المنازل .. وانا جالس على الكنبة أطل عليهم وهم يترنمون بصلواتهم فى خشوع . وكم بدا لى الامر متناقضا وأنا أرى ذلك الرجل الواقعى الى أبعد مدى ، بذهنه القانونى اللماح ، وفهمه العميق للحقائق السياسية .. يغيب ويتبدد فى ترتيلة غنائية !

الفصل الثالث عشر

# هـذا الكون الغامض

* مغامرات مع العفاريت !
* الرجل الذى رفع عنه الحجاب ..
* اظهرى أيتها الأرواح !
* أزمتى الكبرى : هل ينطق الصعلوك ؟

كان هـ . ج . ويلز ينكر على اعتقادى اننى أملك الهاما غير حسى . فذكرت له حادثة يمكن أن تكون مجرد مصادفة: فقد ذهبت مرة مع لاعب التنس هنرى كوشت ، ومعنا صديق آخر ، الى أحد البارات فى بيارتيز . وكان على جدران البار ثلاث عجلات للقمار ، تحمل كل منها أرقاما من واحد الى عشرة . فأعلنت بطريقة مسرحية ، نصف مازحة ، اننى أشعر بقوة روحية تتملكنى ، وأننى سأدير العجلات الثلاث فتقف الاولى على رقم ٩ ، والثانية على رقم ٤ ، والثانية على رقم ٧ . وماذا ؟ لقد وقفت الاولى بالفعل عند رقم ٩ ، والثانية عند رقم ٤ ، والثالثة عند رقم ٧ — فرصة واحد فى المليون !

وقال ويلز انها مجرد مصادفة . فقلت :

— ولكن تكرار المصادفة يجعل الامر جديرا بالدراسة

ورويت له قصة حدثت لى وأنا غلام . اذ كنت مارا أمام دكان بقال فى شارع كامبرويل ، ولاحظت أن أبوابه مرفوعة — وهو أمر غير عادى — فأحسست بدافع ما نحو تسلق حافة النافذة والنظر من ثقب الشيش . كان كل مافى الداخل ظلام مهجور ، ولكن البضائع جميعها كانت سليمة ، وعلى الارض بالة شحن فى وسط المحل . واذا بى أقفز عائدا وقد تملكنى احساس بالنفور ومضيت أواصل طريقى . ولم يكد يمضى وقت طويل بعد ذلك حتى

ظهرت جريمة قتل . واتضح ان رجلا عجوزا فى الخامسة والستين - اسمه ادجار أدواردز - قد نهب خمسة محال للبقالة ببساطة تامة عن طريق قتل اصحابها بثقل حديدى ثم سرقة الخزانة . وكان الذى فى بالة الشحن فى ذلك المحل بشارع كامبرويل هو آخر ثلاثة من ضحاياه: مستر ومسز داربى ، وطفلهما

ولكن ويلز أبى ان يقبل شيئا من ذلك ، وقال أنه من الامور المعتادة فى حياة أى انسان أن تحدث له مصادفات كثيرة ، وان ذلك لا يثبت شيئا

وانتهت مناقشاتنا عند هذا الحد

علما انه كان يمكننى ان أروى له تجربة أخرى ، وقعت لى عندما توقفت ذات يوم - وأنا غلام - أمام مقهى فى شارع كوبرى لندن وطلبت كوبا من الماء . فقدم لى الكوب رجل مجامل ، جذاب ، ذو شارب كثيف . ولكنى لسبب مالم استطع أن أقرب الماء . وتظاهرت بأننى أشربه الى أن تحول الرجل يتحدث الى احد الزبائن ، فتركت الكوب ومضيت . وبعد ذلك بأسبوعين اتهم جورج شايمان، صاحب محل كراون بشارع كوبرى لندن ، بقتل خمس زوجات بسم الاستركنين . وكانت ضحيته الاخيرة تلفظ أنفاسها فى حجرة فوق المحل فى نفس اليوم الذى قدم لى فيه كوب الماء

وقد شنق بعد ذلك كل من تشابمان وادواردز

***

فيما يتعلق بحديث الغوامض والاسرار ، حدث قبل أن أبنى بيتى فى تلال بيفرلى بعام واحد أننى تلقيت رسالة يقول كاتبها أنه رجل رفع عنه الحجاب ، وانه رأى فى أحد أحلامه بيتا مقاما على قمة تل ، وأمامه سهل منبسط ينتهى

الى ساحة تشبه مجداف القارب . وأن لهذا البيت أربعين نافذة ، وفيه قاعة موسيقى ذات سقف مرتفع

وقال صاحب الرسالة ان موقع البيت كان أرضا مقدسة لدى قبائل الهنود الحمر ، وكانوا منذ ألفي سنة يذبحون عليها ضحاياهم الادمية ، وان البيت مسكون ، ولا يجوز أن يترك بلا اضاءة . ثم قال انه ما دام هناك ضوء ، وما دمت لا أنفرد بنفسي ، فانه لن تكون هناك أشباح

وصرفت النظر فى ذلك الوقت عن الرسالة باعتبار كاتبها شخصا أحمق . ولكنني احتفظت بها كشيء طريف شاذ

ولكنني وأنا أفتش فى مكتبي بعد ذلك بعامين عثرت على الخطاب ، واعدت قراءته . فاذا بالوصف الذى جاء فيه للبيت والسهل دقيق جدا . ولم أكن قد أحصيت النوافذ ، فلما قمت احصيها وجدت لدهشتى الشديدة أنها أربعون بالضبط !

ومع أنني لست من المؤمنين بالاشباح الا أنني قررت أن أقوم بتجربة . وكان يوم الاربعاء هو يوم اجازة الخدم حيث يبقى البيت خاليا . فتناولت عشائى فى الخارج ، ثم عدت على الفور وذهبت الى حجرة البيانو التى كانت طويلة وضيقة كممر الكنيسة ولها سقف من الطراز القوطى . وبعد أن أسدلت الستائر اطفأت جميع الاضواء . ثم تحسست طريقى الى مقعد ذى مسندين وجلست فى صمت عشر دقائق . وارهف الظلام حواسى فبدأت أتصور أشكالا تسبح أمام عينى . ولكننى فسرتها بأن ضوء القمر يتسلل من فرجة ضئيلة بين الستائر وينعكس على مطفأة للسجائر مصنوعة من الكريستال

ونهضت فأقفلت الستائر بطريقة أكثر احكاما ، فاختفت الاشكال العائمة . ثم عدت انتظر فى الظلام ..

وبقيت مايقرب من خمس دقائق . فلما لم يحدث شيء شرعت أتكلم بصوت مسموع :

ـ اذا كانت هنـــا أرواح ، فأرجـــوكم أن تظهروا لى دليلا ! .

وانتظرت بعض الوقت ، ولكن لم يحدث شيء ثم عدت استطرد :

ـ الا توجد وسيلة للاتصال .. ؟ فلتكن أية علامة .. مجرد نقرة . اوفليكن الاتصال من خلال عقلى اذا لم يكن عن هذا الطريق . فليدفعنى عقلى مثلا الى كتابة شيء . أو قد يكفى تيار هواء بارد للدلالة على وجودكم

ثم انتظرت خمس دقائق اخرى . ولكن لم يكن هناك ثمة تيار هواء ، أو أية ظاهرة من أى نوع . ظل الصمت يطبق على أذنى ، وعقلى خال تماما

واخيرا نفضت يدى من الامر كقضية خاسرة ، وأضأت أحد الانوار . ثم ذهبت الى غرفة الجـــلوس . وكانت ستائرها غير مسدلة ، وضوء القمر فيها يرسم امامعينى هيكل البيانو . فجلست وشرعت أجرى بأصـــابعى على المفاتيح . وأخيرا وصلت الى نغمة سحرتنى ، فمضيت اكررها حتى رنت بهاالحجرة كلها . ما الذى يجعلنىأفعل ذلك ؟ لعل هذه هى العلامة ! وظللت أكرر تلك النغمـــة الواحدة . واذا بحبل من الضوء يلتف فجأة حولخصرى . فقفزت من أمام البيانو كالطلقة النارية ، ووقفت وقلبىيدق كما تدق الطبول

وعندما استعدت رباطة جأشى حاولت أن أفكر فى الامر بعقلى . كان البيانو موضوعا فى نتوء من الحجرة بجـــوار النافذة . وأدركت أن ما تصورته شريطا من الاكتوبلازم ( مادة جسم الانسان التى يقـــال ان الارواح تكتسى بها

للعيان ) لم يكن الا ضوء مصباح سيارة قادمة على سفح الجبل

ولكى أقنع نفسى بذلك جلست أمام البيانو وعدت أدق نفس النغمة عدة مرات

وكان هناك ممر مظلم عند الطرف البعيد لحجرة الجلوس ، ينتهى الى باب غرفة المائدة فى الجانب المقابل . واذا بى ألمح الباب بطرف عينى ينفتح ويخرج من غرفة المائدة شىء يعبر الممر المظلم .. مسخ كبير الحجم ، شكله يشبه الاقزام ، وله عينان كعينى مهرجى السيرك تحيط بها دوائر بيضاء . ورأيته يقترب نحو غرفة البيانو . ولكننى قبل أن أستدير برأسى نحوه كان قد اختفى !

وعلى الفور نهضت محاولا ان أتعقبه وقد استبد بى الذعر . ولكنى لم اجد له أثرا

وعدت أعزف على البيانو وقد رسخ فى اعتقـادى أن رمشا من رموش عينى قد يكون هو المسـئول عن خلق هذا الوهم ، خاصة وأنا فى مثل هذه الحالة العصـبية العنيفة

ولم يحـدث شىء بعـد ذلك ، فقررت أن أذهب الى فراشى ..

ولبست بيجامتى ، ودخلت الحمام ، وما كدت أضىء النور حتى وجدت أمامى الشبح ، جالسـا فى البـانيو ، ينظر الى !

ووثبت هاربا من الحمام .. وثبة أفقية ..

كان ظربانا ! « حيوان أمريكى له فـرو ثمين ، يدافع عن نفسه باطلاق رائحة كريهة تطرد عنه أعداءه »

وكان هو نفس المخلوق الذى رأيته بطرف عينى قبل ذلك . كل مافى الأمر أنه بدا لى أكبر حجما فى المرة الاولى

وفى الصباح التالى وضع رئيس الخدم الحيوان المذهول فى قفص ، واستأنسناه • ولكنه اختفى ذات يوم ولم نره بعد ذلك ••

***

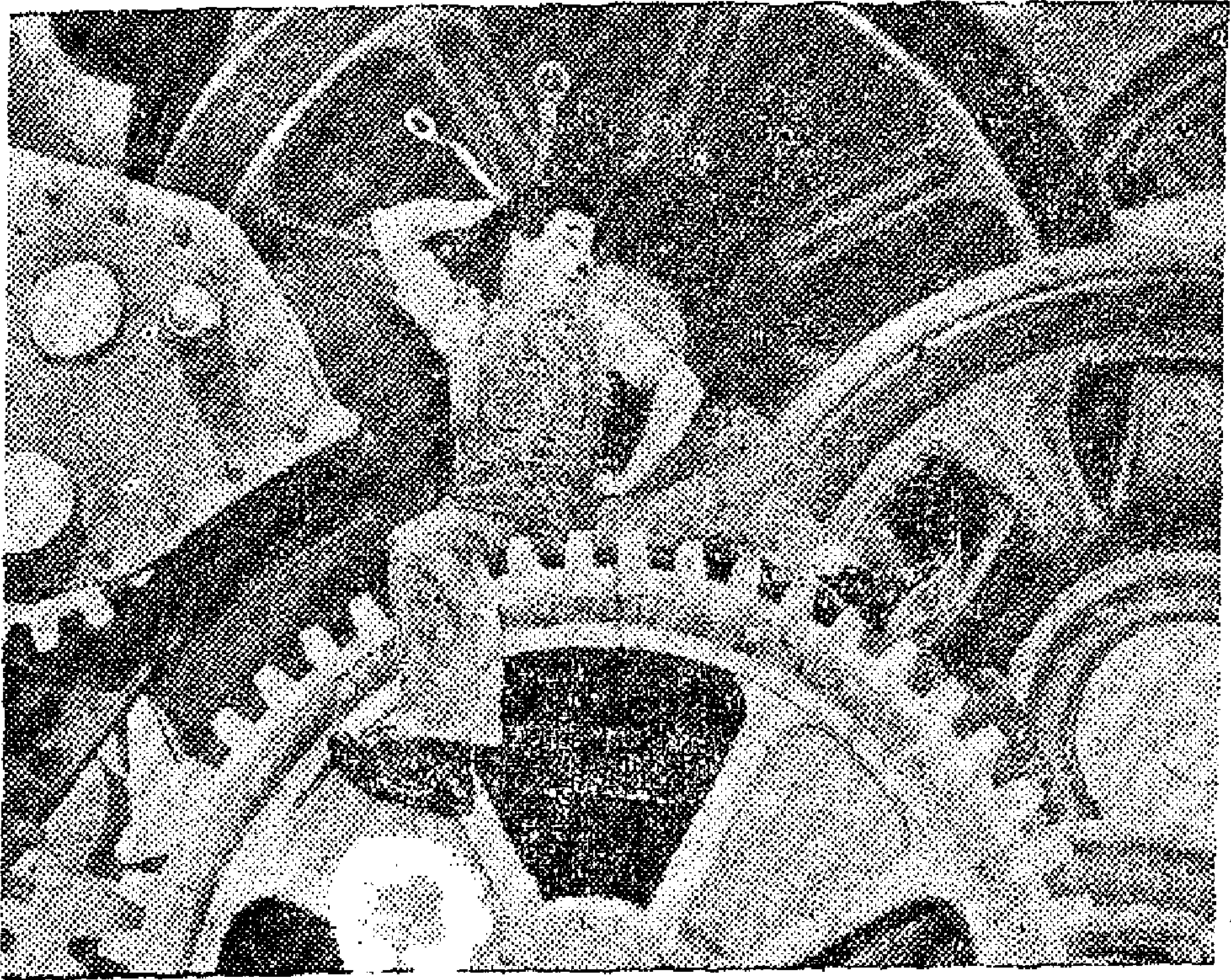
ليست العطلات ـ فى أحسن الاحوال ـ الا وقتا ضائعا . وكنت قد تسكعت طويلا فى مناطق أوروبا السياحية .. لسبب أعرفه جيدا . وهو أننى كنت حائرا وبلا هدف . فمنذ ابتكار السينما الناطقة وأنا عاجز عن أن أقرر مستقبلى . ومع أن « أضواء المدينة » كان نصرا عظيما ، وحقق ربحا أضخم من أى فيلم ناطق ، الا اننى أحسست بأن اقدامى على اخراج فيلم صامت آخر سيكون بمثابة اقامة عقبات أمام نفسى . كما أنه كان يتملكنى الخوف من أن أصبح موضة قديمة . وبالرغم من أن الفيلم الصامت الجيد أفضل من الناحية الفنية ، الا أنه كان يجب أن أعترف بأن الصوت يجعل الشخصيات أكثر وجودا وتجسدا

وكنت أقلب فى ذهنى بين وقت وآخر فكرة اخراج فيلم ناطق •• ولكن الفكرة كانت تزعجنى ، اذكنت أدرك أننى لن أبلغ أبدا مستوى جودة أفلامى الصامتة .. وأن ذلك سيعنى التخلص كلية من شخصية الصعلوك . وكان البعض يقترحون أن أجعل الصعلوك يتكلم . ولكن التفكير فى هذا كان مستحيلا ، اذ أن أول كلمة ينطقها كانت كفيلة بأن تحوله على الفور الى شخص آخر . فالمادة الخام التى ولد منها مادة خرساء كثيابه

كانت هذه الافكار المؤلمة هى التى جعلتنى أطيل اجازتى ، ولكن ضميرى ظل طوال الوقت يغمز فى :

ـ عد الى هوليوود واستأنف العمل

وعدت الى كارلتون بلندن بعد رحلتى فى الشمال ، وفى



شارلى شابلن فى فيلم « العصر الحديث »

نيتى أن أحجز مكانا للعودة الى كاليفورنيا عن طريق نيويورك . واذا ببرقية تصل من دوجلاس فيربانكس فى سان مورتيز ، فتتغير خططى

كانت البرقية تقول :

« تعال الى سان موريتز .. سنأمر بفرش جليد جديد لاستقبالك . أنا فى الانتظار . مع حبى . دوجلاس »

وفى سان موريتز أرسلت الى أخى سيدنى ليلحق بى . ولما لم يكن هناك ما يحتم العودة عاجلا الى تلال بيفرلى فقد قررت أن أعود الى كاليفورنيا عن طريق الشرق . ووافق سيدنى على أن يصحبنى الى اليابان ..

الفصل الرابع عشر

# محاولة اغتيالى فى اليابان

* ستة أشخاص ومسدس وهمى
* حقيقة اللغز : كانوا يريدون بمقتلى اثارة الحرب !

سبق أن ظهرت كتب كثيرة عن الشرق • فلا داعى للاثقال على القارىء

على أن لى عذرا يبرر أن أكتب عن اليابان ، بسبب الظروف المعقدة التى ارتبطت بوجودى هناك

قبل أن أبدأ رحلتى الى اليابان أبدى « كونو » ـ سكرتيرى الياباني ـ رغبته فى أن يسبقنا ويمهد لوصولنا. وكنا سننزل ضيوفا على الحكومة اليابانية . وفى ميناء « كوبى » حيتنا الطائرات بالدوران فوق سفينتنا والقاء منشورات ترحب بنا ، بينما الالاف يهتفون على أرصفة الميناء ..

وكان منظر العدد الكبير من الثياب الوطنية ذات الالوان الزاهية ينعكس على صفحة الميناء الرمادية ، وتظهر من ورائه مداخن المصانع العالية ، فيبدو جميلا فى تناقضه . ولم يكن فى تلك المظاهرة اليابانية شىء من الغموض أو التحفظ الذى يتحدثون كثيرا عنه . فقد كانت مظاهرة عاطفية ملتهبة ككل مظاهرة رأيتها قبل ذلك فى أى مكان

ووضعت الحكومة تحت تصرفنا قطارا خاصا ليحملنا الى طوكيو • وفى كل محطة مررنا بها كان الزحام والصخب يتزايدان ، وكانت الارصفة مكتظة بأسراب من الحسان يثقلننا بالهدايا ، ويبدو منظرهن ـ وهن واقفات فى انتظارنا ـ أقرب الى معرض للزهور

وفى طوكيو كان فى انتظـارنا ما يقرب من اربعين الف شخص لتحيتنا فى المحطة . وتعثر أخى سيدنى فى الزحام وسقط ، وكادت تدوسه الاقدام

أن غموض الشرق ليس الا خرافة أسطورية ، وقـد كنت دائما أعتقد أننا نحن الاوربيين نبالغ فى تضخيمها . ومع ذلك ، فهذا الغموض كان محلقا فى الجو منذ اللحظة التى هبطنا فيها على أرض كوبى . والان ونحن فى طوكيو أصبح يغلفنا تماما . ففى الطريق الى الفندق ، ونحـن نجتاز منطقة هادئة من المدينة ، أبطأت السيارة فجـأة ثم توقفت بالقـرب من قصر الامبراطور . والتفت كونو الى الوراء فى قلق من خلال زجاج السيارة الخلفى ، ثم نظر الى وطلب شيئا عجيبا : أن أنزل من السيارة وأنحنى فى اتجاه القصر .. !

وسألته :

ــ أهذه هى العادة هنا ؟

فقال بلهجة عابرة :

ــ نعم . ولـكن ليس ضروريا أن تنحنى . يكـفى أن تخرج من السيارة

وأدهشنى هذا الطلب بعض الشىء لانه لم يكن هنـاك أحد على مقربة منا ، باستثناء سيارتين أو ثلاث كانت تتبعنا . ولو أن هذا الانحناء كان تقليـدا معتـادا لكانت الجماهير قد علمت به ، ولوجدنا فى انتظارنا زحاما ــ ولو محدود العدد ــ عند القصر

على أننى برغم ذلك خرجت من السيارة وانحنيت . وعندما عدت كان يبدو على كونو أن عبئـا قد انزاح عن كتفيه . أما سيدنى فرأى فى هذا الطلب شيئا غير عادى ، وقال ان تصرف كونو ليس طبيعيا .. خاصة أنه منـذ وصلنا الى « كوبى » يبدو فريسة لقلق غامض . غير أننى

تجاهلت الامر كله ، وقلت انه قد يكون أجهد نفسه فى العمل ..

ولم يحدث شيء فى تلك الليلة . ولكن سيدنى جاء فى الصباح التالى ثائرا يقول :

ـ اننى لا أرتاح الى كل هذا . لقد فتشوا حقائبى . وعبثوا بكافة أوراقى !

فقلت له : انه ـ حتى بافتراض حدوث ذلك ـ فليس للامر أهمية . ولكن سيدنى لم يكن ليصرفه شيء عن احساسه بوجود خطر ما . وقال :

ـ هناك شيء كريه يدبر فى الخفاء !

ولكننى ضحكت ساخرا ، واتهمته بالمبالغة فى شكوكه وأوهامه ..

وفى ذلك الصباح عينت الحكومة مرافقا للعناية بشئوننا اوضح لنا أن علينا اذا شئنا الذهاب الى أى مكان أن نخطره عن طريق كونو . فأصر سيدنى على أننا قد وضعنا بالفعل تحت المراقبة ، وأن كونو يخفى عنا شيئا ما . والحقيقة أن كونو كان بالفعل يبدو أكثر انزعاجا واضطرابا ساعة بعد ساعة

ولم تكن شكوك سيدنى على غير أساس . لان شيئا عجيبا حدث فى ذلك اليوم . اذ جاء كونو يقول ان لدى أحد التجار صورا فاضحة مرسومة على الحرير ، وانه يرغب فى ان أزوره فى بيته لاطلع عليها . فطلبت من كونو أن يخبره بأن ذلك لا يروق لى . واذا بكونو يبدو عليه القلق ، ويقول :

ـ ما رأيك فى أن أطلب منه أن يتركها فى الفندق

فأجبته :

ـ حذار بأى حال من الاحوال . قل له الا يضيع وقته عبثا

فقال كونو بعد تردد :

ــ ان هؤلاء الناس لا يقنعون « بلا » .. اجابة

ــ ماذا تعنى ؟

ــ فى الواقع انهم يهددوننى منذ عدة أيام . ففى طوكيو جماعة تحترف العنف ..

فقلت :

ــ كلام فارغ ! سنطلق البوليس فى أعقابهم

ولكن كونو هز رأسه

وفى ذلك المساء ــ بينما كنت أتناول عشائى مع سيدنى وكونو فى حجرة خاصة فى أحد المطاعم ــ اذا بستة شبان يدخلون علينا ، ويجلس احدهم بجوار كونو شابكا ذراعيه امام صدره بينما يقف الاخرون وراءه صفا واحدا !

ويبدأ الرجل الجالس يخاطب كونو باليابانية فى غضب مكبوت . فاذا بشىء مما قاله يجعل وجه كونو يشحب فجأة ..

ولم أكن عندئذ مسلحا . ولكننى وضعت يدى فى جيب الجاكتة كما لو كنت أقبض بها على مسدس ، ثم صحت :

ــ ما معنى هذا ؟

فغمغم كونو دون أن يرفع رأسه عن الطبق الذى أمامه :

ــ انه يقول انك أهنت أجداده برفضك أن ترى صوره

فوثبت واقفــا ويدى فى جيبى ، ثم نظرت بحيرة الى الرجل قائلا :

ــ ما ذلك الذى تتحدث عنه ؟

ثم قلت لسيدنى :

ــ هيا نخرج من هنا . وأنت يا كونو أطلب لنا عربة

وما كدنا نصل الى الشــارع فى ســلام حتى تنفسنا الصعداء . وكانت تنتظرنا عربة تاكسى فركبناها وانطلقنا مبتعدين ..

ثم بلغ اللغز قمة التعقيد فى اليوم التالى عندما دعانا ابن رئيس الوزراء الى مشاهده مباريات للمصارعة . فبينما نحن نتابع المباريات جاء أحد المرافقين وربت على كتف المستر كين اينو كاى وهمس فى أذنه بشيء . فالتفت الينا واستأذن قائلا أن هناك مسألة عاجلة تضطره للانصراف ، ولكنه سيعود فيما بعد . وعندما عاد قرب نهاية المباراة كان مضطربا ، شاحب الوجه . وسألته عما اذا كان يشعر بألم ما . فهز رأسه نفيا ، ثم غطى وجهه بيديه فجأة وقال :

ـ لقد اغتالوا والدى منذ لحظات !

وصحبناه معنا على الفور عائدين الى فندقنا ، حيث قدمنا له بعض الخمر . ثم روى لنا ما حدث : فقد ذهب ستة من طلبة البحرية الى قصر رئيس الوزراء وقتلوا رجال الحرس ، ثم شقوا طريقهم الى جناحه الخاص حيث وجدوه مع زوجته وابنته . أما بقية القصة فقد روتها له والدته : اذ أحاط القتلة بوالده عشرين دقيقة وبنادقهم مصوبة اليه ، وهو يجادلهم لاقناعهم بلا فائدة. ثم هموا باطلاق النار دون كلمة . ولكنه توسل اليهم الا يقتلوه أمام أسرته .

فسمحوا له أن يودع زوجته وابنته . ثم نهض بهدوء وقادهم الى حجرة أخرى . حيث حاول فيما يبدو أن يناقشهم مرة أخرى ، لان أولاده ظلوا وقتا طويلا ينتظرون فى قلق مرير أن يسمعوا صوت الطلقات التى قتلت والدهم

وقد وقع الحادث بينما كان ابنه معنا فى مباراة المصارعة . ولولا ذلك لقتلوه مع والده

وصحبته فيما بعد الى بيته ، حيث رأيت الحجرة التى قتل فيها والده منذ ساعتين . وكانت آثار بركة كبيرة من الدم ما تزال رطبة على البساط ، وفى الحجرة

جماعة من المصـــورين ومخبرى الصحف ، ولكن الذوق يمنعهم من التقاط أية صور . غير أنهم مع ذلك أحاطوا بى يسألوننى أن أصرح بشىء . فلم أستطع أن أقول انها مأساة للاسرة ، وللامة

وفى اليوم التالى للمأساة كان مقررا أن ألتقى برئيس الوزراء الراحل فى حفل استقبال رسمى .. فألغى بالطبع

وأصر سيدنى على أن جريمة الاغتيال هذه ليست الا جزءا من اللغز ، وأنها بطريقة أو بأخرى تتصل بى . وقال :

ــ انها أكثر من مصادفة أن يكون الذين اغتالوا رئيس الوزراء ستة ، والذين دخلوا علينا المطعم أثناء العشـــاء ستة أيضا



لم تنجل غوامض هذا اللغز فيما يتعلق بى الا بعد أن نشر « هيوج بياز » كتابه الغنى بالمعلومات الممتعة «الحكم عن طريق الاغتيال » . ففيه يتضح أن المنظمة التى تدعى « القنين الاسود » كانت نشطة فى ذلك الوقت . ويبدو أنها هى التى طلبت أن أنحنى أمام القصر . وسأنقل الان من الكتاب هذه الفقرات عن محاكمة الذين اغتالوا رئيس الوزراء :

« وأمام المجلس العسكرى ذكر الملازم سيشى كوجا ــ زعيم المؤامرة فى الاسطول ــ ان المتآمرين ناقشوا خطـة لفرض الاحكام العرفية عن طريق قذف مجلس النـواب بالقنابل . وذلك بأن يدخل بعض المدنيين الذين يسـهل عليهم الحصول على تصريحات بالدخول ، ويلقوا من شرفة المجلس عددا من القنابل ، بينما ينتظر الضباط الشـبان خلف الابواب لقتل الاعضاء أثناء هربهم . أما الخطـــة الاخرى ــ التى لم يكن ليصـــــدقها أحد لو لم تذكر فى

المجلس العسكرى ـ فكانت تقترح اغتيال شارلى شابلن الذى كان عندئذ يزور اليابان. وكان رئيس الوزراء قد دعا المستر شابلن الى تناول الشاى نوضع المتآمرون خطة لاقتحام مقره الرسمى أثناء الحفل

القاضى : ماذا كان الغرض من قتل شابلن ؟

كوجا : ان شابلن شخصية محبوبة فى الولايات المتحدة . وهو الفتى المدلل عند الطبقة الرأسمالية . وكنا نؤمن بأن اغتياله سيثير حربا مع أمريكا . وبذلك نصطاد عصفورين بحجر واحد

القاضى : لماذا اذن تخليتم عن هذه الخطة الرائعة ؟!

كوجا : لان الصحف ذكرت بعد ذلك أن حفل الاستقبال المزمع اقامته ليس مؤكدا بعد

القاضى : وماذا كان الدافع الى رسم خطة الهجوم على المقر الرسمى لرئيس الوزراء ؟

كوجا : لكى نتخلص من رئيس الوزراء الذى هو فى نفس الوقت رئيس حزب سياسى . وبعبارة أخرى لكى نقلب مركز الحكم

القاضى : هل كانت نيتك أن تقتل رئيس الوزراء ؟

كوجا : نعم . وان لم تكن بينى وبينه أية أحقاد شخصية ..

وقال المتهم أيضا أن خطة قتل شابلن قد صرف النظر عنها لان الجدل قد ثار « حول ما اذا كان صوابا أن يقتل الممثل من أجل احتمال ضئيل بأن يؤدى هذا الى حرب مع الولايات المتحدة ، وأن يزيد من سلطة العسكريين »

هذا هو ما جاء فى الكتاب

وانى لاتصور القتلة وقد نفذوا خطتهم ثم اكتشفوا بعدها اننى انجليزى ولست أمريكيا ، وراحوا يقولون :

ــ أوه ! لا مؤاخذة !

الفصل الخامس عشر

# بدأت المؤامرات

* زواجى الثانى : بوليت جودار
* بداية المتاعب : فيلم عن هتلر
* الرسائل تهدد بنسف السينما
* خرجت من عند روزفلت مخمورا !

عندما عدت الى بيتى فى « تلال بيفرلى » ، وقفت فى منتصف حجرة الجلوس أتلفت حولى • كان الوقت قبيل الغروب ، وثمة ظلال طويلة ممتدة تجرى عبر الحديقة •• وخطوط من الاشعة الذهبية تتدفق عبر الحجرة ، وياله من هدوء ذلك الذى كان يسود كل شيء ! كان ممكنا أن أبكى فى تلك اللحظة ، فأنا غائب منذ ثمانية أشهر ، ومع ذلك ، فقد شككت فى أننى سعيد بعـــودتى • ذلك أننى كنت مرتبك الذهن ، ضائعـــــا ، وكنت فريسة للقلق ، ولاحساس عميق بالوحدة

كان عندى أمل غامض ــ وأنا فى أوربا ــ فى أن ألتقى بشخص يكيف حياتى • ولكن ذلك لم يتحقق • فمن بين كافة النساء اللواتى التقيت بهن ، لم يكن يصلح لهــذا الدور غير قليلات ــ ولم يبد القادرات على القيـــام به أى اهتمام • والآن وقد عدت الى كاليفورنيا مرة أخرى فانى أعود الى مقبرة • حتى دوجلاس ومارى ، فانهما كانا قد افترقا •• ولم يعد لمعالمهما وجود

وكان على فى ذلك المساء أن أتناول عشائى وحـــدى ، وهو أمر لم أكن أطيقه فى ذلك البيت الكبير •• وعلى هذا فقد ألغيت العشاء • وركبت السيارة ، ومضيت أتمشى فى شارع ، هوليوود بولفار • وأحسست كأننى لم أغب أبدا فقد كانت هناك نفس الصفوف من المتاجر ذات الدور

الواحد ، ونفس مخازن الاسطول والجيش الكالحة

والصيدليات التى تبيع بالتخفيض ، ومحلات وولورث وكيرسبج .. وكلها تثير الكآبة ، وتفتقد الى الذوق السليم . فهوليوود لم تكن قد تخطت بعد مرحلة المدينة التجارية الناشئة

وشرعت — وأنا أمشى فى الطريق — أفكر فيما اذا كان واجبا على أن أعتزل ، وأبيع كل ما أملك ، ثم أرحل الى الصين . لم يعد فى هوليوود ما يدفعنى الى البقاء . فالسينما الصامتة انتهت بلا نزاع ، ولا رغبة لدى فى أن أدخل معركة السينما الناطقة . وفضلا عن ذلك ، فقد كنت خارج الدائرة الاجتماعية . وعندما حاولت أن أفكر فى شخص تربطنى به علاقة تسمح بأن أخاطبه تليفونيا وأدعوه الى العشاء دون حرج ، لم أجد فى ذهنى أحدا . وعندما عدت الى البيت اتصل بى ريفز ، مدير أعمالى ، ليخبرنى بأن كل شىء على ما يرام . ولكن لم يتصل بى أى انسان غيره

كانت هوليوود هى الاخرى تمر بمرحلة تحول فى حياتها . فمعظم نجوم الشاشة الصامتة قد اختفوا .. ولم يبق منها غير القليل .. وبسيادة السينما الناطقة فقدت هوليوود سحرها وبوهيميتها .. وصارت السينما — بين يوم وليلة — صناعة متجهمة جادة . فخبراء الصوت يجددون الاستديوهات ، ويقيمون أجهزة للصوت بالغة التعقيد . وفى البلاتوه تتجول آلات تصوير كل منها فى حجم غرفة ، كأنها دبابات . وثمة معدات لاسلكية معقدة يجرى تركيبها ، ولكل منها آلاف الاسلاك . ورجال يجلسون بسماعات فى أذانهم ، توجههم التروس هنا

وهناك كأنهم محاربون قدموا من المكسيك ، بينما يؤدى الممثلون أدوارهم وفوق رءوسهم تحلق ميكروفونات مدلاة كسنارات الصيد . كل شيء معقد يثير الكآبة . كيف يستطيع أى انسان أن يمارس الخلق وكل هذه الخردة حوله ؟ . لقد كرهت ما وراء ذلك كله . ثم وجد بعضهم أن هذه الخردة المعقدة كلها يمكن أن تصنع بحيث يسهل حملها ، وأن آلات التصوير يمكن أن تكون أسهل فى الحركة . وأن المعدات يمكن أن تؤجر لقاء مبلغ معقول . ولكننى بالرغم من هذه التحسينات لم أجد حافزا كبيرا الى استئناف العمل من جديد

وظلت تداعبنى فكرة تصفية أعمالى والاستقرار فى الصين . ففى « هونج كونج » أستطيع أن أحيا حياةطيبة وأنسى السينما ،بدلا من أن أتعفن هنا وأذوى على عودى فى هوليوود

وقضيت ،متكاسلا ،ثلاثة أسابيع ثم اتصل بى جو شنك ذات يوم ليطلب منى أن أقضى أجازة الاسبوع فى يختـه الخاص .. وكان يختا شراعيا بديعا طوله أربعون مترا ، ويتسع لاربعة عشر شخصا فى راحة تامة . وكان جو يبحر عادة حول ساحل جزيرةكاتالينا بالقرب من افالون. ونادرا ما كان ضيوفه يثيرون حماسه . فهم فى العادة من هواة البوكر : والبوكر لعبة لا تثير اهتمامى . على أنه كانت توجد متع أخرى . اذ أن جو كان يبحر عادة مع سرب من الحسان . ولما كنت فى حالة تعسة من الوحدة، فقد وافقت على أمل أن أجد شعاعا رقيقا من الضوء ..

وكان هذا بالضبط هو ما حدث .. فقد التقيت « ببولين جودار »

كانت مرحة ، ومسلية . واخبرتنى فى المساء أنها

تنوى ان تستثمر خمسين الف دولار ـ من النفقة التى حصلت عليها من زوجها السابق ـ فى مشروع سينمائى ، وانها قد حملت معها الى السفينة كل الوثائق المعدة للتوقيع فكدت أطبق على عنقها لامنعها • فالشركة كان واضحـــا أنها من مؤسسات هوليوود القائمة على النصب • وقلت لها اننى عملت فى صناعة السينما منذ ميلادها تقريبا ، واننى ـ بكل خبرتى بها ـ لا يمكن ان افكر فى استثمار نصف قرش الا فى افلامى •• واننى حتى فى ذلك اتعرض لمخاطرة ، ودللت على وجهة نظرى بأنه اذا كان هيرست ومعه هيئة من رجال الفن والادب وفى امكانه الحصول على أوسع القصص انتشارا فى الولايات المتحدة ، فقد خسر بسبب الاستثمار فى الافلام سبعة ملايين دولار ، فأيـة فرصة لها هى ؟

واستطعت أخيرا أن أجعلها تتخلى عن المشروع• فكانت هذه بداية صداقتنا • وكان الرباط الذى جمع بيننا هو الوحدة ••

من العجيب اننى وجدت الحافز على اخراج فيلم صامت جديد بمحض الصدفة ومن حيث لا أتوقع على الاطلاق

كنت مع بوليت فى سباق للخيل فى تيجوانا بالمكسيك• وكان مفروضا ان يتقدم كأس فضى للفائز بجائزة ما من جوائز كنتوكى • وسئلت بوليت ان تقدم الكأس للجوكى الفائز وتلقى كلمة بلهجة الجنوب • فاقتنعت بغير جهد كبير • واذا بها تذهلنى عندما وقفت امام الميكروفون ! فمع انها من بروكلين • الا انها قدمت تقليدا رائعا لسيدة مجتمع كنتوكى • وجعلنى هـــذا أومن بأنها قادرة على التمثيل ••

ومن هنا بدأ يدب فى النشاط • فقد بدت بوليت فى

عينى صالحة لأن تكون فتاة شريدة • وهذه شخصية ملائمة تماما لان اقدمها على الستار • وفى استطاعتى ان اتصور لقاء فى سيارة عامة بين الصعلوك والشريدة ، يتصرف اثناءه الصعلوك تصرف الفرسان • فيقدم لها مقعده • ويكون هذا اساسا استطيع ان ابنى عليه حبكة قصصية ، وكثيرا من المضحكات

ثم تذكرت فى ذلك الوقت مقابلة تمت بينى وبين صحفى شاب لامع من جريدة « نيويورك ورلد » ، حدثنى بمناسبة زيارتى الى ديترويت عن طريقة « الحزام » فى الصناعة • وكان حديثه يرسم صورة مفزعة لشباب سليم البنية تستدرجه الصناعات الكبرى فى الريف ، ليتحول بفضل نظام الحزام الى حطام من الاعصاب التالفة بعد أربع سنوات أو خمس

واذا بهذا الحديث يلهمنى فكرة فيلم « العصر الحديث » حيث استخدمت ماكينة للطعام كاختراع لتوفير الوقت ، وبحيث يستطيع العمال أن يواصلوا العمل أثناء تناول طعامهم • ويؤدى مشهد المصنع فى النهاية الى اصابة الصعلوك بانهيار عصبى • وتولد القصة من التطور الطبيعى للاحداث • وبعد شفاء الصعلوك يلقى القبض عليه ، ويلتقى بالشريدة التى قبض عليها ايضا بتهمة سرقة الخبز • ويكون لقاؤهما فى سيارة البوليس المشحونة بالمجرمين • ومنذ تلك اللحظة تدور القصة حول اثنين من الضائعين يحاولان ان يسايرا العصر الحديث • وتقتحم حياتهما الازمات والاضرابات ، والاضطرابات ، والبطالة ، وكان على بوليت ان ترتدى خرقا بالية • وكادت تبكى وأنا ألطخ وجهها لتبدو متسخة • ولكننى صممت على ذلك قائلا :

ـ هذه الملطخ هى طوابع الحسن

وقبل افتتاح فيلم « العصر الحـــديث » كتب بعض محررى الصحف يقولون انهم قد سمعوا شائعات تدل على انه فيلم شيوعى • واظن ان السبب فى هذا كان ملخصـــا للقصة سبق أن ظهر فى الصحف •• على أن المعلقين المتحررين كتبوا انه ليس مع الشيوعية ولاضدها واننى ـ من قبيل المجاز ـ جلست على السور الفاصل بين الطرفين ••

***

سجل فيلم العصر الحديث نجاحا ساحقا • ولكن السؤال المحير عاد يواجهنى من جديد : هل اخرج فيلما صامتا اخر ؟

كنت اعلم اننى ساقدم على مخاطرة كبيرة لو فعلت • فهوليوود كلها قد هجرت الافلام الصامتة ، ولم يعـــد متمسكا بها غيرى • وقد حالفنى الحظ حتى الان

ولكن الاستمرار فى هذا الطريق ، مع احساسى بأن فن البانتوميم يتحول تدريجا الى فن مهجور ، لم يكن امرا مشجعا • كما انه لم يكن سهلا خلق حركة صامتة لمدة ساعة وأربعين دقيقة ، وترجمة الفكر الى أحداث ، وتقـــديم فكاهة ترى بالعين كل عشرين قدما من الفيلم ، على طول سبعة الاف او ثمانية الاف قدم • وقد فكرت فى الاصوات المختملة التى يمكن ان يتكلم بها الصعلوك ، وفيما اذا كان ينبغى أن ينطق بمقاطع قصيرة أو بمجرد همهمة ولكن بلا فائدة • فلو أننى تحدثت لما عاد هناك فرق بينى وبين أى ممثل كوميدى اخر • وهكذا كان طراز المشاكل المزعجة التى تواجهنى ••

وكنت قد تزوجت بوليت منذ عام • ولكن الهوة كانت

قد اتسعت بيننا • وكان بعض السبب فيها يعود الى همومي ، وانشغال بالى بمحاولة الاستمرار فى العمل ••

على ان نجاح « العصر الحديث » مكن بوليت من ان توقع عقودا للعمل فى كثير من الافلام لحساب باراموونت أما أنا ، فلم يكن فى استطاعتى أن أعمل أو ان امثل ••

عاد شبح الحرب من جديد ، وبدأ النازى يزحفون • لقد نسينا بسرعة تلك الحرب العالمية الاولى ، بسنواتها الاربع من المذابح الرهيبة • وها هى ذى حرب جديدة تختمر وأنا أحاول أن أكتب قصة تمثلها بولينت • ولكننى لم استطع ان احرز تقدما • وكيف يمكننى ان اصرف انتباهى الى عبث النساء ، او افكر فى الغراميات ومشاكل الحب ، بينما الجنون يستيقظ على يد ذلك الدميم الاحمق أدولف هتلر ؟

وكان الكسندر كوردا قد اقترح فى عام ١٩٣٧ ان انتج فيلما عن هتلر ، تقوم عقدة قصته على شخصية مزورة •• باعتبار ان لهتلر وللصعلوك نفس الشارب • وقال اننى استطيع ان امثل كلا من الشخصيتين • ولكننى فى ذلك الوقت لم افكر كثيرا فى الموضوع • أما الان فقد صار موضوع الساعة ، خاصة اننى فى حاجة يائسة الى استئناف العمل

ثم فجأة ، طرقت ذهنى فكرة ! نعم •• اننى فى دور هتلر أستطيع أن أخطب فى الجماهير بأية رطانة تروق لى، واتكلم كما اشاء • بينما اظل فى دور الصعلوك صامتا ثم ان اية قصة عن هتلر تصلح مادة للبرمسك والبانتوميم فى وقت واحد

وهكذا أسرعت فى حماس شديد أعود الى هوليوود ، وأبدأ العمل بغير سيناريو

واستغرق تطوير القصة عامين !

وبعد أن فرغت من نصف الفيلم تقريبا ، بدأت اتلقى رسائل مزعجة من الفنانين المتحدين • فقد لفت مكتب هويز انظارهم الى اننى قد اصطدم بمتاعب مع الرقابة • كما ان المكتب الانجليزى ابدى بعض القلق بشأن الفيلم المعادى لهتلر ، وعبر عن شـــــكه فى امكان عرضه فى انجلترا ••

ولكننى كنت مصمما على أن أواصل طريقى • فهتلر يجب أن يكون مادة للضحك

ولو كنت اعلم عندئذ بحقيقة الفظائع التى تجرى فى معسكرات الاعتقال الالمانية لما اســــتطعت أن أنتج فيلم « الدكتاتور العظيم » • اذ ما كان يمكننى ان اجعل من جنون الدم النازى مادة للمزاح • علما اننى كنت مصرا على تسخيف خرافاتهم الغبية عن وجود عنصر ذى دم نقى كأنما يمكن حقا ان يوجد فى العالم مثل هذا العنصر خارج اطار قبائل الابوريجين الاسترالية !

وتوالت الرســـائل القلقة من مكتبنا فى نيويورك ، تحاول اقناعى بألا استمر فى الفيلم ، معلنة اننى لن أتمكن من عرضه فى انجلترا او أمريكا ولكننى كنت مصمما على الاستمرار ، ولو اضطررت ان استأجر له بنفسى صالات العرض ••

وقبل ان أفرغ من الفيلم اعلنت انجلترا الحرب على النازى • وكنت على ظهر يختى فى كاتالينا ، أقضى أجازة الاسبوع ، عندما سمعت النبأ السىء فى الاذاعة • وقلنا عندئذ :

ــ لن يتمكن الالمان أبدا من اختراق خط ماجينو

ولكن العاصفة سرعان ما بدأت وتم اجتياح بلجيكا ،

وانهيار خـــط ماجينو ، ثم الموقف الرهيب فى دنكرك واحتلال فرنسا • واصبحت الانباء تزداد سوءا يوما بعد يوم • وانجلترا تحارب وظهرها الى الحائط • وبدأ مكتبنا فى نيويورك يوالينا الان ببرقيات الاستعجال :

ـ أسرعوا بالفيلم • ان الجميع فى انتظاره

ولكن الدكتاتور العظيم كان فيلما صعبا ، يحتاج الى كثير من النماذج المصغرة ووسائل التحايل التى يستغرق اعدادها عاما كاملا • وبدونها كان يمكن ان يتكلف خمسة اضعاف ما تكلفه • ومع ذلك فقد انفقت نصف مليون دولار قبل أن تبدأ الكاميرا تدور !

ثم قرر هتلر أن يغزو روسيا • فكان هذا هو الدليل على أن فقـــدان توازنه الحتمى قد بـــدأ • ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد ، ولكن احساسا بالارتياح ساد فى كل من انجلترا وأمريكا

وكنت أثناء أعداد الفيلم قد تلقيت عددا من رسائل المتعصبين ضد الفيلم . والان وقد تم اعداده فقد زاد عدد هذهالرسائل . وكان بعضها يهدد بالقاء القنـــابل فى دور السينما ونسف الشاشة حيثما يعرض الفـيلم ، والبعض الاخر يهدد باثارة الشغب فقط . ففـكرت فى البداية أن ألجأ الى البوليس ، ولكننى وجدت أن ذيوع أمر كهذا سيجعل الجمهور يتجنب الفيلم • ثم اقتـــرح أحد اصـــدقائى ان اتحدث الى ( هارى بريدجز ) رئيس اتحاد لانجشورمن . فدعوته الى العشـــــاء عندى . وصارحته بالسبب فى رغبتى فى مقابلته ••

وكنت أعلم انه عدو للنازى فأوضحت له اننى أقـوم باعداد فيلم كوميدى ضد النازى ، واننى قد تلقيت عددا من خطابات التهديد . وقلت :

ـ لوانني دعوت عشرين .. او فلنقل ثلاثين من رجالك الى حفلة الافتتاح ، ووزعناهم بين المتفرجين ، لضمنا ـ اذا ما حاول الذين يعطفون على النازى أن يثيروا شغبا ـ أن يدوس هؤلاء الرجال على أقدامهم برفق ، أو يسكتوهم قبل ان يحدث شيء خطير

فضحك بريدجز وقال :

ـ لا أظن أن الامر يحتاج الى هذا يا شارلى . ان لك من جمهورك نفسه ما يكفى لحمايتك ، والعناية بأمر أى متعصب . أما اذا كانت هذه الخطابات من النازيين ، فانهم على أية حال أجبن من أن يكشفوا عن أنفسهم فى النور ..

كان مقررا ان يعرض الدكتاتور العظيم فى دارين للسينما فى نيويورك : استور ، وكابيتول

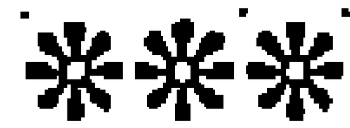
وفى آستور أقمنا عرضا خاصا للصحافة . وتناول العشاء معى فى تلك الليله هوبكنز ، كبير مستشارى فرانكلين روزفلت ، ثم ذهبنا الى السينما فى منتصف العرض ..

والعروض الخاصة للافلام الكوميدية لها خاصية محددة .. هى أن الضحك فيها يفرض نفسه بالرغم منه وفى ذلك العرض الخاص كان الضحك يحمل نفس الطابع

وقال هارى ونحن نغادر السينما : ـ أنه فيلم عظيم . شيء يستحق الجهد الذى انفق فيه . ولكن فرصته ضئيلة . وسيخسر ماليا

ولما كنت قد أنفقت من حر مالى مليونى دولار ، وعامين من العمل ، فقد أثار غيظى هذا التنبؤ . ولكنى هززت رأسى صامتا . وأحمد الله على أن هوبكنز كان مخطئا . فقد افتتح الدكتاتور العظيم فى الكابيتول أمام جمهور من الشخصيات اللامعة ، استقبلوه بحرارة وحماس ،

وظل يعرض خمسة عشر أسبوعا متوالية فى دارين فى نيويورك وسجل أكبر ايراد لاى فيلم من أفلامى حتى ذلك الوقت



أما آراء النقاد فكانت متباينة فمعظمهم أبدى اعتراضه على خطبتى الاخيرة فى الفيلم • وقالت الديلى نيوز اننى أشرت فيها الى الجمهور باصبع شيوعى • ومع أن غالبية النقاد اعترضوا على هذا الخطاب ، وقالوا أنه غير متفق مع الشخصية ، الا أن الجمهور أعجب به بصفة عامة • وتلقيت رسائل كثيرة رائعة ، تقرظه

ودعيت بعد ذلك بأيام الى الظهور فى قاعة (بنات الثورة الامريكية ) فى واشنطون ، لاعيد القاء خطبة الفيلم فى الاذاعة

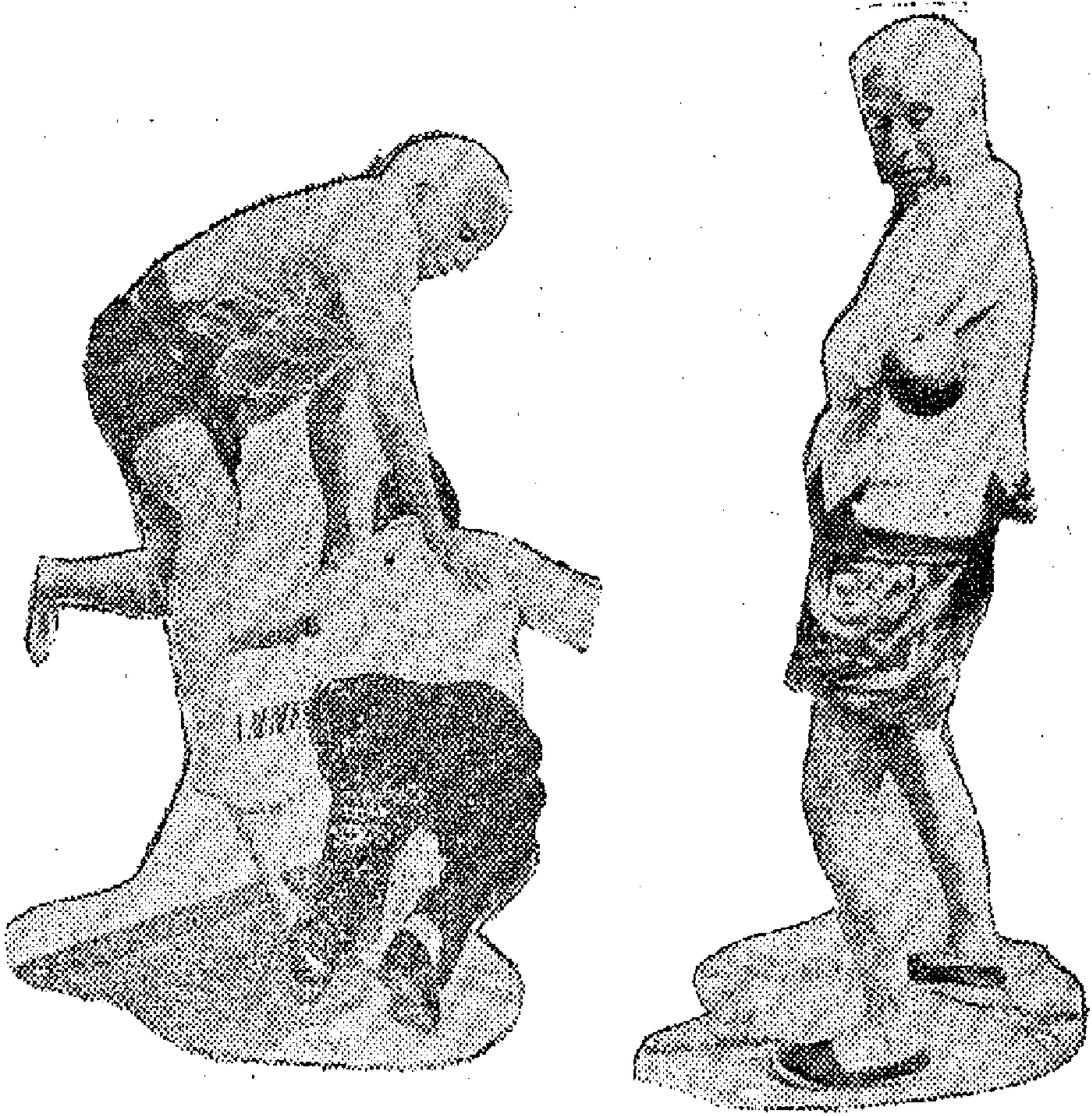
وسبق ذلك دعوتى الى مقابلة الرئيس روزفلت الذى كنا قد أرسلنا اليه الفيلم فى البيت الابيض بناء على طلبه • فلما قادونى الى حجرة مكتبه حيانى قائلا :

ـ اجلس يا شارلى •• ان فيلمك قد أثار لنا الكثير من المتاعب فى الارجنتين

وكان هذا تعليقه الوحيد عليه • ولخص لى أحد الاصدقاء الموقف فيما بعد بقوله :

ـ لقد استقبلك البيت الابيض ولكنه لم يحتضنك

وقضيت مع الرئيس أربعين دقيقة ، قدم لى أثناءها عددا من كئوس المارتينى التى قذفت بها الى جوفى بسرعة بدافع الخجل . فلما حان موعد انصرافى خرجت أترنح من البيت الابيض • ثم تذكرت فجأة أننى سأتحدث فى الاذاعة فى الساعة العاشرة ، وأنها مناسبة ستساهم فيها الامة كلها . أى أننى سأتحدث الى ما يقرب من



**شارلى فى وقت فراغه يمارس رياضته**

ستين مليونا فأخذت عدة حمامات باردة ، وشربت كميات من القهوة المركزة ، قبل أن أتمكن من استعادة توازنى الى حد ما .. ولما كانت الولايات المتحدة لم تدخل الحرب بعد، فقد كان فى القاعة فى تلك الليلة عدد كبير من النازيين . وما كدت أبدأ خطابى حتى شرعوا يسعلون .. وكان سعالهم أعلى من أن يكون طبيعيا . فأثار ذلك أعصابى الى حد أن فمى بدأ يجف ، ولسانى بدأ يلتصق بسقف حلقى ، ولم أعد قادرا على النطق

وكان الخطاب يستغرق ست دقائق • فاضطررت أن أتوقف فى منتصفه ، وقلت اننى لن أستطيع الاستمرار فى القائه ما لم أشرب جرعة من الماء • ولكن لم تكن هنـــاك بالطبع قطرة من الماء فى القاعة وها أنذا أبقى ستين مليونا فى الانتظار •وبعد دقيقتين بدتا بغير نهاية ،قدموا لى الماء فى مظروف صغير من الورق • فاستطعت بهذه الطريقـــة أن أكمل خطبتى ••

الفصل السادس عشر

# أمام المحكمة

* بدأت أمريكا تعاديني
* أصابع النازي في المعركة
* القضية التي لفقت لي
* أونا .. نقطة تحول في حياتي

بالرغم من أن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب بعد ، فان روزفلت كان يخوض حربا باردة ضد هتلر . وكان هذا مما يعقد الامور أمام الرئيس .. فالنازيون كانوا قد تسللوا الى المؤسسات والمنظمات الامريكية . وكانت هذه المنظمات تستخدم ـ بوعى او بغير وعى ـ كأدوات فى يد النازى ..

ثم فجأة ، وصلت الانباء المثيرة عن هجوم اليابان على بيرل هاربور . واذهلت قسوة هذا النبأ أمريكا . ولكنها على الفور عبأت نفسها للحرب ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت فرق كثيرة من الجنود الامريكيين قد ارسلت عبر البحار

وفى هذه الفترة كان الروس قد أوقفوا جحافل هتلر خارج موسكو ، وطالبوا بفتح جبهة ثانية على الفور . وكان روزفلت يؤيد هذا الطلب . ولكن سموم العاطفين على النازى كانت ـ برغم اختفائهم من الحياة العلنية ـ ما تزال فى الجو . فما من حيلة الا استخدمت لاثارة الفرقة بيننا وبين حلفائنا من الروس .. وشاعت فى تلك الفترة الدعايات الخبيثة التى تقول : فلنترك كلا منهما ينزف دمه حتى الموت ، ثم نأتى نحن لنشهد مصرعهما . واستخدمت كافة ألوان التحايلات من اجل الا نفتح جبهة ثانية . وتلت ذلك أيام قلقة ، نسمع فى كل يوم منها عن خسائر مذهلة للروس . وامتدت الايام الى اسابيع ..

والاسابيع الى شهور كثيرة ، والنازيون ما زالوا خـارج أسوار موسكو

وفى اعتقادى ان هذه الفترة كانت بداية متاعبى . فقد تلقيت مكالمة تليفونية من «رئيس اللجنة الامريكية للمعونة الحربية لروسيا » من سان فرانسسكو يسألنى عما اذا كنت أقبل أن أحل محل المستر جوزيف . ى . ديفيز ( السفير الامريكى فى روسيا ) .. الذى كان مفروضا ان يلقى خطبة ، ولكنه أصيب فى اللحظة الاخيرة بالتهاب فى الحنجرة

ومع انه لم تكن أمامى غير ساعات قلائل للاستعداد فاننى قبلت

كانت قاعة الاجتماع تتسع لمائة الف وكانت ممتلئة عن آخرها . وعلى المنصة كان يجلس جنرالات وأمراء بحر امريكيون وعمدة سان فرانسسكو « روسس »

ولكن الخطب كانت متحفظة ، ومائعة .. فالعمدة يقول : «يجب ان نعيش وفى أذهاننا أن الروس حلفاؤنا» . ويحرص على ألا يبالغ فى تصوير حرج موقف الروس ، أو التنويه بشجاعتهم أو الاشارة الى أنهم يقاتلون ويموتون من أجل احتجاز مائتى فرقة من النازى تقريبا . فالروح السائدة فى ذلك المساء ـ كما أحسست بها ـ كانت توحى بأن حلفاءنا « غرباء فى فراشنا »

وكان رئيس اللجنة قد ناشدنى أن اتكلم ساعة كاملة على الاقل . فأزعجنى ذلك . لان حدود طاقتى اربع دقائق على الاكثر ..

ولكننى بعد ان استمعت الى تلك الثرثرة التافهة المنافقة احسست بالغيظ .. وسجلت اربع نقاط للحديث على ظهر بطاقة العشاء ، وانتظـرت فى كواليس المسرح وانا

أمشي ذاهبا عائدا ، فى حالة من التوتر والخوف ، الى أن سمعت اسمى يقدم الى الحاضرين

كنت أرتدى ثوب العشاء ، وربطة عنق سوداء . وارتفع تصفيق لم يدع لى فرصة لاسترداد روعى . وعندما هدأ التصفيق قلت كلمة واحدة : « أيها الرفاق ! » . . فارتجت القاعة بالقهقهات العالية . فلما هدأت الضحكات عدت أقول مؤكدا :

ـ وانني لاعنى أيها الرفاق !

فتجدد الضحك ، ثم التصفيق ، ثم عدت أستطرد :

ـ انني أقدر ان هناك عددا كبيرا من الروس معنا الليلة . وان الطريقة التى يقاتل بها مواطنوكم ويموتون ، فى هذه اللحظة ، لتجعل مخاطبتكم « يا أيها الرفاق » شرفا ومكرمة . .

فوقف كثيرون على أقدامهم فى قلب موجة التصفيق

والآن احسست انى التهب وانا اتذكر ذلك التعبير « فلندع كلا منهما ينزف دمه » . وأوشكت أن أعبر عن استنكارى له . . لولا أن حافزا داخليا أوقفنى . وقلت بدلا من ذلك :

ـ انني لست شيوعيا . ولكننى انسان ، وأعتقد أنى افهم الاحاسيس الانسانية . ان الشيوعيين ليسوا مختلفين عن غيرهم . فهم اذا ما فقدوا ذراعا أو ساقا يتألمون كما نتألم جميعا ويموتون كما نموت . والام الشيوعية هى نفسها كل أم أخرى . فهى تبكى كما يبكى الامهات جميعا عندما تتلقى النبأ الفاجع بأن اولادها لن يعودوا اليها . انني لا أحتاج الى أن أكون شيوعيا حتى أعرف ذلك . كل ما احتاج اليه هو ان أكون آدميا . وأن الامهات

الروسيات يبكين فى هذه اللحظة كثيرا ، كما يموت كثير من أبنائهن ..

وظللت أتكلم أربعين دقيقة ، دون أن أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك . وجعلت المستمعين يضحكون ويصفقون بنوادر عن روزفلت ، وعن خطبتى الخاصة بسندات الحرب أيام الحرب العالمية الاولى . وصار كل ما افعله فوق النقد • واستطردت أقول :

ــ والآن فى هذه الحرب .. هأنذا أقف مدافعا عن المعونة العسكرية للروس

وسكت ثم عدت أكرر :

ــ المعونة العسكرية للروس . ان المال قد يعنيهم ، ولكنهم فى حاجة الى ماهو أكثر من المال . وقد قيل لى ان للحلفاء مليونى جندى يتسكعون فى شمال ايرلندا ، بينما يواجه الروس وحدهم حوالى مائتى فرقة من النازيين

فساد صمت عميق ، ، مشحون بالتوتر بينما مضيت أقول مؤكدا :

ــ ان الروس حلفاؤنا . انهم لا يقاتلون من أجل أسلوبهم فى الحياة ، وانما من أجل أسلوبنا أيضا • واذا صدق ما أعرفه عن الامريكيين ، فانهم يحبون أن يخوضوا معاركهم بأنفسهم . ان هذا هو ما يريده ستالين ، وما ينادى به روزفلت .. فلنناد به كلنا اذن .. ولنفتح الآن جبهة ثانية ..

فتصاعدت الصيحات بجنون ، دامت سبع دقائق . ذلك ان الفكرة كانت فى ضمائر المستمعين وعقولهم . وصار محالا بعد ذلك أن يتركونى أواصل الكلام ، وانما ظلوا يصفقون ويدقون الارض بأقدامهم • وبينما هم يتصايحون ، ويطبلون ، ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء بدأت أتساءل عما

اذا كنت قد تجاوزت الحدود . ثم بدأت ألوم نفسي على مثل هذا التفكير الانهزامى فى الوقت الذى يقاتل فيه الآلاف . ويموت الالاف

وعندما هدأ الجمهور أخيرا . مضيت أقول :

ـ مادام هذا هو ما تشعرون به ، فهل يسمح كل منكم مشكورا بارسال برقية الى الرئيس : فلنأمل ان يتلقى ـ حتى صباح غد ـ عشرة آلاف رسالة تطالب بجبهة ثانية!

وبعد ان انتهى الاجتماع ، أحسست بالجو مشحونا بالتوتر وعدم الارتياح ، وذهبت مع « داولى فيلد مالون » و « جون جارفيلد » الى مكان ما للعشاء . وهناك قال جارفيلد مشيرا الى خطبتى :

ـ انك لعلى قدر كبير من الشجاعة

فأزعجتنى هذه الملاحظة . ذلك انني ماكنت أحب أن أبدو رجلا باسلا ، أو أن ارتبط بقضية سياسية كبرى . فما تكلمت الا بما أحسست به مخلصا ، وما اعتقدت أنه الحق ..

على انني ـ بعد ملاحظة جون ـ بدأت اشعر بكآبة تبسط ظلها على بقية الليلة .. وان كانت السحب التى توقعتها نتيجة لتلك الخطبة لم تلبث ان تبددت وعادت الحياة ـ بعد رجوعى الى بيفرلى هيلز ـ تجرى مجراها العادى

وبعد ذلك بأسابيع تلقيت طلبا آخر بأن أتحدث تليفونيا الى اجتماع حاشد في ميدان ماديسون . ولما كان ذلك من اجل نفس القضية فقد قبلت ـ ولم لا ؟ وخاصة ان الاجتماع كان تحت رعاية شخصيات ومنظمات محترمة

واستغرقت هذه المرة اربع عشرة دقيقة فى القاء خطابى الذى رأت لجنة مؤتمر المنظمات الصناعية انه صالح لان تطبعه وتنشره

وبدأت حياتى الاجتماعية فى نيويورك تتقلص تدريجا نتيجة خطبى عن الجبهة الثانية ، وأحسست أننى الآن أهوى فى منزلق سياسى . وبدأت أناقش دوافعى : والى أى حد يحفزنى المثل الذى فى داخلى أترانى كنت أخوض هذه المغامرة « الدون كيشوتية » لو لم أكن قد اخرجت فيلما معاديا للنازى • أم ان الامر تنفيس عن كل حزازاتى، وانفعالاتى ضد الافلام الناطقة ؟

وفى اعتقادى ان كل هذه العوامل كان لها دخل . ولكن أقواها كان بغضى وازدرائى للنظام النازى

***

عندما عدت الى تلال بيفرلى ، واستأنفت العمل فى اعداد « الاصل والظل » ، وزارنى فى البيت أورسون ويلز ومعه اقتراح شرحه قائلا أنه يفكر فى انتاج عدد من الافلام التسجيلية يعرض فيها قصصا من الحياة الواقعية . وان أحد هذه الافلام سيدور حول السفاح الفرنسى الشهير «بلوبيرا لاندرو» الذى يعتقد أنه سيكون دورا دراميا رائعا لى

وراقت لى الفكرة ، باعتبارها تغييرا يخرج بى عن أطار الكوميديا ، وعن الكتابة والتمثيل والاخراج لنفسى كما هو الحال منذ سنوات . ولهذا طلبت منه أن أطلع على السيناريو • فقال :

ـ أوه . انه لم يكتب بعد . ولكن كل مايلزم هو الحصول على وثائق محاكمة لاندرو • وسأحضرها اليك . ثم أضاف :

ـ لقد ظننت انك قد ترغب فى المساهمة فى كتابته

فأحسست بخيبة أمل . وقلت له :

ـ اذا كان على أن أساهم فى كتابة السيناريو ، فالامر لا يروق لى

وانتهت المسألة عند هذا الحد

ولكننى بعد يوم أو يومين أشرقت فى ذهنى فكرة أن لاندرو يصلح مادة لكوميديا رائعة . فأتصلت بويلز وقلت له :

ـ اسمع .. ان فيلمك التسجيلى المقترح عن لاندرو قد ألهمنى فكرة كوميديا . ولن تكون لهذه الكوميديا صلة بلاندرو . ولكننى على استعداد ـ من أجل حسم كل شىء ـ ان أدفع لك خمسة آلاف دولار .. لمجرد أن اقتراحك هو الذى دفعنى الى التفكير فيها

واذا به قد شرع يغمغم ويمضغ صوته

فقلت له : « اسمع .. ان لاندرو ليس قصة مؤلفة تملكها أنت أو غيرك ، أنها ملكية عامة »

ففكر قليلا ، ثم طلب منى الاتصال بمديره . وهكذا تمت المفاوضة على الصفقة .. وكانت تقضى بأن يأخذ ويلز خمسة آلاف دولار ، والا يعود على أى التزام آخر . ووافق ويلز . ولكنه اشترط شرطا واحدا .. هو ان يكون من حقه بعد الاطلاع على الفيلم ان يطلب ظهور اسمه على الستار ، فى جملة تقول : « اقترح الفكرة أورسون ويلز » . ولم أفكر كثيرا فى هذا الأمر بسبب حماسى عندئذ . ولو تنبأت بالمشاكل التى حاول فى النهاية أن يرتبها على ذلك، لكنت قد صممت على الا يظهر اسمه اطلاقا على الستار

وتركت « الاصل والظل » جانبا الآن ، وبدأت أكتب « سيد فردو » . وبعد ثلاثة أشهر قضيتها فى العمل ظهرت جوان بارى فى « تلال بيفرلى » واخبرنى رئيس خدمى انها اتصلت بنا تليفونيا فقلت له اننى لن أراها بأية حال

وعلى أثر ذلك توالت أحداث لم تكن مزعجة فقط،وانما أيضا منذرة بالشر .. فلاننى رفضت مقابلتها أقدمت على اقتحام البيت ، وحطمت النوافذ ، وهددتنى بالقتل،

وطالبت بنقود .. واضطررت فى النهاية أن استدعى البوليس .. وهو أمر كان ينبغى أن أفعله منذ وقت طويل ، بالرغم من كونه فرصة ثمينة للصحافة . على ان البوليس قدم لى أكبر مساعدة .. وابلغنى انه لن يوجه اليها تهمـــة التشرد اذا رغبت فى ان ادفع أجر عودتها الى نيويورك

ثم اكتشفت انها كانت متغيبة منذ عدة أســـابيع عن مدرسة رينهارت للتمثيل . وعندما واجهتها بذلك فاجأتنى بأعلان أنها لا تريد أن تكون ممثلة ، وانها على استـعداد لتمزيق العقد اذا أعطيتها خمسة آلاف دولار ودفعت أجر عودتها هى وامها الى نيويورك . فــــوافقت بسرور على مطالبها ، ودفعت أجر السفر والخمسة آلاف دولار ، وكنت سعيدا بالتخلص منها

وهكذا دفعت الاجر للمرة الثانية . وأنذرها البوليس أنه سيوجه اليها تهمة التشرد لو ظهرت مرة اخرى بالقرب من تلال بيفرلى

ولقد يبدو مؤسفا ان يأتى اسعد أحداث حياتى بعد هذه الواقعة المخجلة وفى التصاق بها اذا جاز هــــذا التعبير .. ولكن ظلال الاشياء دائما تغيب فى ظلال الليل قبل ان ينكشف الفجر عن شمس مشرقة

فقد حدث ذات يوم ــ بعد عدة أشهر ــ أن اتصلت بنا وكيلة للفنانين فى هوليوود ، اسمها مس مينا دالاس ، لكى تقول ان لديها عميلة تؤمن بصلاحيتها لدور بريدجت .. وهو الدور الرئيسى فى « الاصل والظل » . ولـما كنت أعانى بعض المشقة فى اعداد «سيد فردو » . لصـــعوبة تصوير الدوافع التى تحرك القصة ، فقد اعتبرت حديث مس دالاس الهاما سماويا مباركا بأن أعاود النظر فى أمر تصوير « الاصل والظل » ، وان أدع مؤقتا « سيد فردو »

وهكذا طلبتها تليفونيا لاعرف المزيد من التفاصيل .

واتضح أن عميلتها هى مس اونا أونيل ، ابنـــة الكاتب المسرحى الشهير يوجين أونيل . ولم أكن فى حياتى قـــد قابلت يوجين أونيل ، ولكن جدية مسرحيـــاته أوحت الى بصورة غامضة عما يمكن ان تكون عليه ابنته .. فسألت مس دالاس باختصار : « هل فى استطاعتها أن تمثل ؟ »

فأجابت : لقد حصلت على بعض الخبرة بفضل الفرق الصيفية فى الشرق . ومن المستحسن أن تجرى لها اختبارا سينمائيا وتكشفها بنفسك . واذا كنت لا ترغب فى الزام نفسك بشىء ، فيمكنك ان تحضر الى بيتى لتتناول الغداء ، وسأجعلها تأتى »

فذهبت مبكرا ، وما كدت ادخل غرفة الجلوس حتى تبينت فتاة شابة تجلس وحدها بجوار المدفأة . وبينما نحن فى انتظار مس دالاس ، قدمت لها نفسى قائلا اننى افترض انها مس أونيل . فابتسمت . وعلى عكس فكرتى المسبقة وجدت نفسى أتنبه الى جمال وضاء وســـحر هادىء ، ورقة بالغة الجاذبية . وجلسنا – فى انتظـــار مضيفتنا – نتحدث

ثم جاءت مس دالاس أخيرا ، وقدمت كلا منا رسميـــا الى الآخر . وكنا حول ذلك الغداء أربعـــة : مس دالاس ومس أونيل وتيم دوزنت وانا . ومع اننا لم نتحدث فى شئون العمل ، الا أننا حمنا حولهـــا . وقالت ان الدور النسائى فى « الاصل والظل » دور فتاة صغيرة الســـن جدا ، فأشارت مس دالاس بطريقة عابرة الى أن مس أونيل لم تتجاوز السابعة عشرة الا بقليل . وعندئذ غاص قلبى فمع ان الدور يحتاج الى فتاة صغيرة ، الا أن الشخصية شديدة التعقيد وتحتاج الى ممثلة اكبر سنا وخبرة . ولهذا فقد صرفت النظر عنها بهدوء فيما بينى وبين نفسى

ولكن مس دالاس اتصلت بى تليفونيا بعد أيام ، لتعرف

ما اذا كنت سأفعل شيئا بشأن مس أونيل ·· لان شركة فوكس مهتمة بها . فأسرعت فى هذه اللحظة اتعاقد معها . وكانت هذه هي البداية لما شاء القدر أن يكون عشرين عاما من السعادة الكاملة وأعواما أخرى كثيرة فيما أرجو ..

ومع ازدياد معرفتي بأونا كانت تدهشني طول الوقت روحها المرحة ، وتسامحها · فهي قادرة دائما على أن ترى وجهة نظر الشخص الاخر · وكان هذا – مع عديد من الاسباب الاخرى – هو ما جعلنى أقع فى غرامها · ومع أنها كانت قد بلغت لتوها الثامنة عشرة ، الا أننى كنت واثقا من أنها غير معرضة لنزوات تلك السن · فأونا كانت الاستثناء من القاعدة ، وان كنت قد خفت فى البداية من الفارق الكبير بين سني وسنها · غير أنها كانت مصممة كما لو كانت قد اهتدت الى الحقيقة · وعلى هذا فقد قررنا أن نتزوج بعد الانتهاء من تصوير « الاصل والظل »

وكنت قد فرغت من اعداد المسودة الاولى للسيناريو ، وبدأت الان أستعد للدخول فى عملية الانتاج وأنا شديد الثقة بأن الفيلم سيحقق نجاحا كبيرا ..

ولكن ·· عند هذه النقطة ظهرت بارى مرة أخرى فى المدينة · وأعلنت لرئيس خدمي صراحة – عبر أسلاك التليفون – أنها حامل منذ ثلاثة أشهر !

ولكنها فى اليوم التالى ظهرت مشرقة مبتهجة ، ودارت حول البيت والحديقة عدة مرات . وكان واضحا أنها تتبع خطة موضوعة . وقد ظهر فيما بعد أنها ذهبت الى احدى الصحفيات من محررات المآسى ، فنصحتها بأن تعود الى البيت وتسعى الى أن يقبض عليها

وعندما تحدثت اليها شخصيا ، وهددتها بابلاغ البوليس ما لم تغادر منطقة البيت ، كان ردها الوحيد انها ضحكت ·

ولما كنت قد بلغت آخر حدود قدرتى على احتمال مثل هذه البلطجة ، فقد أمرت رئيس الخدم بأن يتصل بالبوليس تليفونيا

وما كادت تمضى ساعات حتى كانت العناوين الكبرى تغطى بالسواد وجه الصحف التى صلبتنى وسلختنى وصورتني فى أبشع الصور : شابلن والد طفلها الذى لم يولد بعد ، قد جعل البوليس يقبض عليها ، وتركها شريدة . وبعد أسبوع رفعت ضدى قضية اثبات بنوة الطفل . فاتصلت — على اثر هذا الاتهام — بمحامى الخاص واخبرته بأنه لم تكن لى علاقة بهذه المرأة بارى منذ سنتين

ولما كان يعلم أن فى نيتى انتاج ( الاصل والظل ) . فقد اقترح — من باب الحذر — ان أؤجل ذلك مؤقتا وان تعود أونا الى نيويورك . ولكننا رفضنا ان نأخذ بهذه النصيحة ولم نقبل ان تتحكم فينا اكاذيب تلك المرأة بارى ، ولا عناوين الصحف . ولما كنا — أنا وأونا — قد تحدثنا بالفعل فى شأن زواجنا ، فقد قررنا ان نفعل ذلك فى التو واللحظة . وتزوجنا فى ( كارنبتريا ) وهى قرية صغيرة هادئة على مسافة خمسة عشر ميلا من ( سانتا باربارا )

## الفصل السابع عشر

# غداء أمة بأكملها

* محاكمتى : بلطجة قانونية
* مطلوب للتحقيق ، بعد البراءة !
* أزمة الفنانين المتحدين
* شابلن منكر للجميل .. ارسلوه الى روسيا

عندما عدنا الى لوس انجلس وصلتنى انباء تثير القلق من صديقى القاضى (ميرفى) بالمحكمة العليا للولايات المتحدة .. الذى أخبرنى بأنه اثناء وليمة غداء حضرها عدد من السياسيين ذوى النفوذ ألمح أحدهم الى أنهم قد عزموا على ان ( ينالوا من شابلن ) . وكتب ميرفى يقول :

ـ اذا حدثت لك مشاكل فالافضل هو ان تستأجر محاميا صغيرا غير مشهور ، لا محاميا مرتفع الاجر

على أن الحكومة الفيدرالية لم تتحرك ـ على أية حال ـ الا بعد مضى بعض الوقت . وكانت تساندها بالاجماع صحافة تعتبرنى من وجهة نظرها اسوأ الانذال

وفى هذه الفترة كنا نستعد لقضية اثبات البنوة التى كانت قضية مدنية ولا شأن لها بالحكومة الفيدرالية .

واقترح ( محامى الخاص ) فى قضية اثبات البنوة ان أجرى اختبارا للدم يمكن ـ اذا جاءت نتيجته فى صالحى ـ ان يكون دليلا قاطعا على اننى لست والد طفل بارى . ثم جاء فيما بعد ينبئنى بأنه وصل الى اتفاق مع محاميها . وكانت الشروط تقضى بأن توافق على اجراء اختبار الدم لها ولطفلها اذا اعطيتها خمسة وعشرين ألف دولار ، وان تتنازل عن قضية اثبات البنوة اذا أظهر الاختبار اننى لا يمكن ان اكون والد الطفل . وجعلنى هذا العرض أثب واقفا . ولكن الفرصة كانت ضدى بنسبة ١٤ الى واحد،

لان كل عائلة من عائلات الدم يشترك فيها عدد كبير جدا من الناس . واوضح لى المحامى انه اذا كان دم الطفل من عائلة تختلف عن عائلة دم الام والاب المتهم معا، فانها تكون قد جاءت حتما من شخص ثالث

وبعد أن ولد طفل بارى ، بدأت الحكومة الفيدراليــة اجراء تحقيق أمام هيئة كبرى للمحلفين ، استجوبت فيه بارى بهدف ادانتى بتهم لم أستطع أن أتصور ماذا عسى أن تكون، ونصحنى الاصدقاء بأن ألجأ الى المحامى الجنائى الشهير ( جيزلر ) . ففعلت ذلك برغم نصائح القــاضى ميرفى . وكانت هذه غلطة ، لانها جعلتنى ابدو كما لو كنت فى مأزق شديد . وعقد محامى الخاص اجتماعا مع جيزلر ليتباحثا فى الأساس الذى يمكن لهيئة المحلفين ان تقيــم عليه الادعاء ضدى . وكان كلاهما قد سمع ان الحكومة تريد أن تثبت اننى خرقت قانون « مان »

كانت الحكومة الفيدرالية تلجأ ــ بين وقت وآخر ــ الى هذه الطريقة من طرق البلطجة القانونية لتشويه سمعة خصومها السياسيين . فالهدف الأصلى لقانون ( مان ) كان منع نقل النساء من ولاية الى أخرى بقصد استخدامهن فى الدعارة . وبعد الغاء الدعارة الرسمية لم تعد له فائدة من الناحية القانونية، ولكنه ظل يستخدم للفتك بالمواطنين فلو اصطحب رجل مطلقته وعبر بها الحدود الى ولاية اخرى ، ثم عاشرها هناك ، فانه يكون قد ارتكب خرقا لقانون مان ، وصار معرضا للحكم عليه بالسجن خمس سنوات . وقد كانت هذه الحيلة الزائفة من حيــــل الانتهازية القانونية هى التى اقامت على أساسها حكومة الولايات المتحدة دعواها ضدى

وكان طفل بارى قد كبر الان الى الحد الذى يسمح باجراء اختيار الدم .. فتم اختيار عيادة للتحليل بالاتفاق بين محاميها ومحامى ، وتقدمنا للاختبار انا وبارى وطفلها ..

واتصل بى المحامى فيما بعد وصوته ينبض بالحيوية :

ــ شارلى ، لقد برئت ساحتك .. ان اختبار الدم أثبت انك لا يمكن ان تكون الوالد

فقلت بانفعال :

ــ ان هذا لعقاب

واثار النبأ ضجة مؤقتة في الصحف فقالت احداها : ( برئت ساحة شارلى ) وكتبت أخرى : ( اختبار الدم يقطع بأن شارلى ليس الاب )

ومع أن نتيجة اختبار الدم سببت ارتباكا للحكومة الفيدرالية ، الا انها واصلت دعواها ضدى

كانت هناك اربع تهم موجهة الى اثنتان بحكم قانون مان ، واثنتان بحكم قانون تافه لم يسمع به أحد على الاطلاق منذ الحرب الاهلية .. وتتلخصان فى اننى قد اعتديت على حقوق مواطن . وحاول جيزلر فى البداية أن يصل الى شطب القضية كلها . ولكن ذلك لم يكن غير اجراء شكلى . فقد كان احتمال نجاحه فى المحاولة كاحتمال صرف المتفرجين من السيرك بعد ان دفعوا أثمان التذاكر ..

واستغرقت المحاكمة عدة أيام . وبالاضافة الى ماكانت تسببه لى من توتر وقلق ، كان هناك الروتين الممل الذى يقضى بأن أستيقظ فى السابعة صباحا ، ثم أخرج فورا بعد الافطار لان المسافة ــ فى زحام المرور فى لوس انجلس ــ

تستغرق ساعة بالسيارة ، وان اصل فى الموعد بالضبط قبل بدء الجلسة بعشر دقائق ..

واخيرا اشرفت المحاكمة على نهايتها ووافق كل من الاتهام والدفاع على أن يلخص مرافعته فى ساعتين ونصف ساعة . ولم تكن لدى أدنى فكرة عما يمكن ان يتكلموا عنه طول هذا الوقت . فمن وجهة نظرى كان واضحا تمام الوضوح ، وقاطعا ، ومجسدا ، ان دعوى الحكومة قد انهارت . أما احتمال الحكم على بعشرين سنة فيما لو ثبتت ادانتى فى جميع التهم فلم تخطر ببالى على الاطلاق بالطبع . وان كان القاضى قد لخص القضية للمحلفين تلخيصا شعرت بأنه كان يمكن أن يكون اقل غموضا

وهمس جيزلر بحذر ونحن نغادر قاعة الجلسة :

ـ لا يمكننا اليوم أن نخرج من مبنى المحكمة الا بعد اعلان قرار المحلفين

ثم اضاف متفائلا :

ـ نستطيع أن نجلس فى الشرفة فى الخارج ، ونتمشى !

كانت الساعة الآن الواحدة والنصف وفى الخامسة الا الربع دق الجرس معلنا ان المحلفين قد وصلوا الى قرار . فوثب قلبى وثبة هائلة . وبينما نحن ندخل فى القاعة همس جيزلر بسرعة :

ـ مهما كان القرار فلا تبد أى انفعال

وغصت القاعة بسرعة ، وصارت مشحونة بالتوتر . ولكنها لسبب ما ظهرت بمظهر الهدوء والثبات بالرغم من أن قلبى كان ينبض فى حلقى

ودق كاتب المحكمة ثلاث دقات تعلن عن دخول القاضى، فوقفنا جميعا . وبعد ان عاد الكل الى مقاعدهم دخل

المحلفون ، وقدم رئيسهم وثيقة الى كاتب المحـــكمة .. بينما جلس جيزلر مطأطىء الرأس ، يحملق فى قــدميه ، ويتمتم بعصبية من بين أسنانه :

ــ اذا كان القرار بالادانة فانه سيكون أسوأ تطبيــق للعدالة عرفته فى حياتى !.. وظل يكرر :

ــ سيكون أسوأ تطبيق للعدالة عرفته فى حياتى !

وكان كاتب المحكمة الآن يقرأ الوثيقة . ثم دق بالمطرقة ثلاث مرات . ومضى يعلن فى الصمت المتوتر :

ــ شارلى شابلن ، القضية رقم ٣٣٧٠٦٨ جنايات .. عن التهمة الاولى ( ثم سكت سكتة طويلة ) : غـــير مــذنب !

فارتفعت صرخة مفاجئة من بين المتفرجين ، ثم عاد صمت مفاجىء فى انتظار الكاتب وهو يستطرد :

ــ عن التهمة الثانية .. غير مذنب !

وانفجر الجمهور فى لوثة من الجنون ، وما كنت أعرف على الاطلاق ان لى كل هذا العدد من الاصدقاء ــ حتى لقد اخترق بعضهم حاجز القفص الحديدى واحتضنونى وقبلونى ..

ثم وجه القاضى الى بضع كلمات :

ــ مستر شابلن . أن وجودك فى هذه القاعة لم يعد له داع .. فأنت الان حر

ثم بسط لى يده من فوق المنصة وهنأنى . وكذلــك فعل ممثلو الاتهام . وعندئذ همس جيزلر :

ــ اذهب الآن وصافح المحلفين

أما أونا التى كانت حاملا فى شهرها الرابع ، فقـــد كانت جالسـة فى حديقة البيت وحدها عندما سمعت النبأ فى الراديو .. فأغمى عليها

وفى ذلك المساء تناولنا العشاء فى هدوء فى البيت . انا واونا وحدنا : لا صحف ، ولا محادثات تليفونية . فلم أكن أريد ان ارى او اتحدث الى أى انسان . كنت أشعر بنفسى مجوفا من الداخل ، جريحا ، عاريا عن الكرامة ، حتى وجود خدم المنزل كان يشعرنى بالحرج

وبعد ذلك بيوم او يومين قال لى ( ليون فيوشتوانجر ) مداعبا :

ـ انك ستعيش فى التاريخ الامريكى باعتبارك الفنان المسرحى الوحيد الذى اثار العداء السياسى لامة بأكملها !

كانت أونا قد اعترفت لى بعد زواجنا بقليل بأنها لا ترغب فى ان تكون ممثلة ، سواء على المسرح او فى السينما فسرنى هذا النبأ ، اذ كان معناه اننى اخيرا عثرت على زوجة ، لا على فتاة تسعى الى بناء مستقبل خاص

وعلى اثر ذلك تركت فيلم « الاصل والظل » جانبا ، وعدت الى العمل فى اعداد « مسيو فيردو » الى أن قاطعتنى الحكومة بفظاظتها البالغة

وبينما انا أعيد تقطيع « فيردو » ، تلقيت رسالة تليفونية من احد ممثلى سلطات الولايات المتحدة يقول فيها أن لديه أمرا باستدعائى الى واشنطون للمثول أمام « لجنة النشاط غير الامريكى » . وكان عدد الذين استدعوا منا تسعة عشر

وفى ذلك الوقت كان السناتور « بيبر » ممثل ولاية فلوريدا موجودا فى لوس انجلس . فاقترح البعض أن نقابله لنسأله المشورة . ولكننى لم اذهب لان وضعى كان مختلفا : فأنا لست أمريكى الجنسية . وفى ذلك الاجتماع اتفق الجميع على أن يتمسكوا بحقوقهم الدستورية اذا ما استدعوا الى واشنطون . » وقد ارسل اولئك الذين تمسكوا بها الى السجن لمدة عام بتهمة اهانة المحكمة »

وكان طلب الاستدعاء يشير الى اننى سأخطر بموعد حضورى الى واشنطون فى خلال عشرة ايام • ولـكن سرعان ما وصلت بعد ذلك برقية تقول ان حضورى قد تأجل لمدة عشرة ايام اخرى

وبعد التأجيل الثالث ارسلت اليهم برقية اقول فيها ان لدى جهازا ضخما من الناس معطلا عن العمل ، يكلفنى مبالغ طائلة • وان لجنتهم كانت فى هوليوود اخـيرا تستجوب صديقى هانز ايزلر ، وكان فى استطاعتها ان تستجوبنى فى نفس الوقت توفيرا للاموال العـامة • ثم ختمت البرقية قائلا : « على اننى من باب التسهيل عليكم ساخبركم بما اعتقد انكم تريدون معرفته • اننى لست شيوعيا • ولم يحدث ان انضممت الى أى حزب او منظمة فى حياتى • وانا من اولئك الـذين تسمونهم « دعاة السلام » • وامل الا يضايقكم هذا • فهل تسمحون اذن بأن تحددوا بشكل نهائى متى سأدعى الى واشنطون • المخلص شارلى شابلن »

وعلى أثر هذا تلقيت جوابا ادهشنى لهجته المهذبة ، يقول ان حضورى الى واشنطون لن يكون ضروريا ، وان فى استطاعتى ان اعتبر المسألة منتهية

لم أكن ــ طوال مشاكلى الشخصية ــ قد أوليت انتباها كبيرا الى اعمال « الفنانين المتحدين » • والان جاء محامى الخاص ينذرنى بأن الشركة تعانى عجزا مقداره مليـون دولار • وكانت فى أيام ازدهارها قد سجلت فى العام الواحد ارباحا تتراوح ما بين اربعة وخمسة ملايين ، وان كنت لا اتذكر اننى حصلت منها على ارباح اسهمى الا مرتين • •

ولكن حملة اسهم « الفنانين المتحدين » راحوا يبيعون اسهمهم للشركة واحدا بعد الاخـر ، حتى كادت تفلس

نتيجة ما دفعته لهم • وبهذه الطريقة فوجئت بنفسى أملك نصف شركة مدينة بمليون دولار ، ومارى بيكفورد تملك النصف الثانى • وكتبت لى مارى تعبر عن انزعاجهـــا بسبب ان جميع البنوك ترفض ان تفتح لنا مزيدا من الاعتمادات ولكننى لم اكترث كثيرا ، فقد سبق ان ركبتنا الديون قبل ذلك ، وكان يكفى دائما فيلم واحد ناجح لكى نجتاز الازمة • وبالاضافة الى ذلك ، فاننى كنت قداكملت لتوى فيلم مسيو فيردو ، الذى كنت اتوقع ان يســجل نجاحا هائلا فى الايرادات • وكان ممثلى فى الشركة — ارثر كيللى — يتوقع لهذا الفيلم دخلا يبلغ ١٢ مليون دولار على الاقل • ولو صح هذا التوقع لغطى المبلغ ديون الشركة واضاف اليها ربحا مقداره مليون دولار

وأقمت عرضا خاصا لاصدقائى فى هوليوود ، ما كاد ينتهى حتى وقف توماس مان وليون فوشترانجر وغيرهما وراحوا يصفقون تصفيقا دام اكثر من دقيقة

رحلت الى نيويورك وكلى ثقة • ولكننى ما كدت اصل حتى هاجمتنى على الفور جريدة الديلى نيوز :

لقد جاء شابلن لحضور افتتاح فيلمه • وانى لاتحداه — بعد ان اتخذ منا موقفه • « رفيق السفر » — ان يرينا وجهه فى مؤتمر صحفى • فاننى سأكون حاضرا لاسأله سؤالا او سؤالين محرجين

وفى الصباح التالى اعددنا قاعة واسعة فى الفنــدق لاستقبال الصحافة الامريكية • وظهرت بعد تقـــديم الكوكتيل ولكننى شممت فى الجو رائحة الشر • ووقفت اتحدث من وراء منضدة صغيرة فقلت وانا اصطنع اقصى ما يمكننى من جاذبية :

— سيداتى وسادتى ، كيف حالكم ؟ اننى هنا لكى

أزودكم بكل ما قد يعنيكم من الحقائق حول فيلمى وحول مشاريعى المستقبلة

فلبثوا جميعا صامتين • فقلت وانا ابتسم :

ـ لا تتحدثوا كلكم مرة واحدة

واخيرا قالت واحدة من الصحفيات فى الصف الاول :

ـ هل انت شيوعى ؟

فأجبت بلهجة قاطعة :

ـ كلا • السؤال التالى من فضلكم

ثم بدأ يغمغم صوت ما .. فاعتقدت انه قد يكون صديقنا محرر الديلى نيوز ، ولكن هذا المحرر كان لافتا للنظر بغيابه وكان المتحدث بدلا منه شخص كالح المظهر ، يرتدى معطفه، ويميل على أوراق يقرأ منها

قلت له :

ـ معذرة • سيكون عليك ان تعيد قراءة ذلك مرة اخرى، فاننى لا أفهم كلمة مما تقول

فبدأ من جديد :

ـ نحن المحاربون القدماء الكاثوليك

فقاطعته قائلا :

ـ لست هنا لكى اجيب على اى محاربين كاثوليك • ان هذا مؤتمر صحفى

وارتفع صوت آخر :

ـ لماذا لم تتجنس وتتحول الى مواطن ؟

فأجبت :

ـ لست أرى داعيا الى تغيير جنسيتى • فأنا اعتبر نفسى مواطنا عالميا

وأثار ذلك ضجة • وحاول اثنان او ثلاثة أن يتكلموا

فى وقت واحد · ولكن صوت احـــدهم تغلب على أية حال ··

ـ لكنك تكسب ثروتك فى أمريكا

قلت وانا ابتسم :

ـ حسنا · اذا كنت تنظر الى المسألة على أساس نفعى، فلنجعل الامور واضحة · ان تجارتى عالمية · وسبعون فى المائة من دخلى اكسبه من الخارج · بينما تحصل الولايات المتحدة منه على ضرائبها كاملة مائة فى المائة .. وهكذا ترى اننى ضيف سخى جدا فيما يدفع

ومرة اخرى عادت رابطة الكاثوليك تطل برأسها :

ـ سواء كنت تكسب نقودك هنا او هناك ، فاننا نحن الذين نزلنا على سواحل فرنسا نستنكر ألا تحمل جنسية هذه الامة ··

قلت :

ـ انك لست الفتى الوحيد الـــذى هبط على تلك الشواطىء · فوالداى كانا هناك ايضا فى جيش الجنرال باتون ، وفى الصفوف الاولى ، وهما لا يطبلان لهـــذه الحقيقة ولا يستغلانها كما تفعل أنت

وسأل صحفى آخر :

ـ هل تعرف هانز ايزلر ؟

ـ نعم ·· انه صديق عزيز جدا ·· وموسيقار عظيم

ـ هل تعلم انه شيوعى ؟

ـ لا يعنينى ماذا يكون · ان صداقاتى لا تقـــوم على اسس سياسية

فقال آخر :

ـ ومع ذلك يبدو انك تحب الشيوعيين

ـ ليس لاحد ان يقول لى من احب ومن أكره · اننا لم ننزل بعد الى هذا المستوى

ثم ارتفع من قلب الموجة العارمة صوت يقول :

ـ ما شعور الانسان حين يكون فنانا أثرى العالم بكل هذه السعادة ، وكل هذا الفهم للناس ، للبسطاء ؛ ثم يهان وتستثار ضده الكراهية والازدراء من جانب من يطلق عليهم اسم ممثلي الصحافة الامريكية ؟

فكانت اذني صماء عن كل تعبير يدل على العطف الى حد انني اجبت بلهجة قاطعة :

ـ اسف . لم اكن منتبها . عليك ان تعيد السؤال مرة أخرى ..

فلكزني مدير دعايتي هامسا :

ـ هذا الفتى في صفك . لقد قال شيئا رائعا

كان جيم اجي ، الشاعر والروائي الامريكي . وكان يعمل في ذلك الوقت كاتبا للموضوعات الخاصة وناقدا في مجلة تايم

وارتبكت تماما ، وفقدت توازني . وقلت :

ـ انني آسف . ولكني لم أسمعك فهل تسمح باعادة ما قلت مرة اخرى ؟

فقال في شيء من الحرج :

ـ لا ادري ان كنت سأستطيع

ثم كرر تقريبا نفس الكلمات :

ولكنني عجزت عن التفكير في أي جواب . فهززت رأسي وقلت :

ـ لا تعليق . ولكن أشكرك

ولم اعد بعد ذلك اصلح لشيء . فقد سلبتني كلماته الطيبة روح القتال وقلت :

ـ سيداتي وسادتي ، انني اسف . فقد كنت اظن ان هذا المؤتمر سيكون بشأن فيلمي ، ولكنه تحول بدلا من

ذلك الى مناظرة سياسية • ولهذا فليس عنـــدي مزيد أقوله ••

وأحسست بعد الاجتماع بمرارة شديدة فى داخلى ، فقد ادركت انني اواجه عداء مسعورا لى

على انني برغم ذلك لم استطع ان اصدق • فأنا قد تلقيت بريدا رائعا يهنئنى على فيلم الدكتاتور العظيم الذى حقق دخلا اكبر من اى فيلم اخر اخرجته ، برغم انني قبل ذلك الفيلم واجهت دعاية مضادة كبيرة • ثم انني كنت على ثقة من نجاح مسيو فيردو ، وكانت ادارة « الفنانين المتحدين » تشعر بنفس الشعور

كان جو من التوتر يسود صالة السينما ليلة الافتتاح جو يوحى بأن المتفرجين قد جاءوا ليثبتوا شيئا ، فما كاد الفيلم يبدأ حتى استقبله ــ بدلا من اللهفة ودبيب السرور المعتاد فى الماضى ــ تصفيق عصبى متناثر ، تصـــاحبه اصوات تطالب بالسكوت • ومع أننى اكره أن أعترف بذلك ، فان هذه الاصوات القليلة جرحتنى فى الواقـــع اكثر من كل ما واجهتنى به الصحافة من عداء

ومع استمرار عرض الفيلم بدأ ينتابنى القلق • نعم كانت هناك ضحكات ، ولكن متفرقة • لم تكن الضحكات التى عرفتها فى الماضى ، ضحكات « البحث عن الذهب » و « اضواء المدينة » و « كتفا سلاح » • وانما ضحكات لها روح التحدى فى مواجهة الجانب الذى يطالب بالسكوت وبدأ قلبى يغوص بين جنبى • ولم استطع البقاء على مقعدى اكثر من ذلك • فهمست لاونا :

ــ سأخرج الى الردهـــة ، فليس فى استطاعتى ان أحتمل ••

فضغطت على يدى • وأحسست بورقة البرنامج التى

كورتها بحيث يتعذر اصلاحها تؤلم كف يدى ، فألقيت بها تحت المقعد • ثم تسللت صاعـــــدا فى الممر حتى بلغت الردهة ، وقد مزقنى التـــردد بين أن أبقى وأنصت الى الضحكات أو أن أفر من كل شيء ثم تسللت صاعـــدا الى البلكون لارى ماذا يجرى هنـــاك • كان أحد المتفرجين يضحك أكثر من الاخرين ، وكان صديقا ولا شك ، ولكن ضحكاته كانت عصبية ، كأنما يريد أن يثبت بها شيئا • وكذلك كان الحال فى الصالة ، وفى البلكون

وظللت ساعتين أتمشى فى الردهة ، وفى الشارع ، وحول دار السينما ، ثم أعود لالقى نظرة على الفيلم الذى بدا وكأنه سيظل دائرا الى الابد • ولكنه انتهى آخر الامر وكان المحرر الصحفى ايرل ويلسون ــ وهو رجل نظيف مهـــــذب ــ من أوائل الذين التقيت بهم فى الردهة ، فقال لى :

ــ لقد أعجبنى أنا ••

وضغط على كلمة ( أنا )

ثم جاء ممثل فى الشركة أرثر كيللى وقال :

ــ انه بالطبع لن يربح الاثنى عشر مليونا

فقلت مازحا :

ــ لا مانع عندى من الاكتفاء بنصفها

واستمر عرض مسيو فردو ــ لدهشتى الشـــديدة ــ ستة أسابيع بنجاح كبير فى نيويورك • ولكن ايراداته بدأت تهبط فجأة • وعندما سألت جراد ســـيرز ــ من الفنانين المتحدين ــ عن ذلك أجابنى :

ــ ان أى فيلم من أفلامك لابد أن يحقق ايرادا كبيرا فى الاسابيع الثلاثة أو الاربعة الاولى ، لان لك جمهورك القديم من المعجبين • ولكن الجمهور العادى يأتى بعد ذلك •

والصحافة قد ظلت ـ بصراحة ـ تهاجمك طوال أكثر من عشر سنوات ، ولابد أن يكون لذلك أثره • وهذا هو السبب في الهبوط

قلت :

ــ ولكن الجمهور العادى يتذوق الفكاهة بلا شك..

فقدم لى نسخا من الديلى نيوز ، ومن صحف هيرست ، قائلا :

ــ أنظر .. هذا هو ما ينشر فى طول البلاد وعرضها..

كانت فى احداها صورة للرابطة الكاثوليكيـــــة فى نيوجرسى ، وقد نظمت طابورا يدور حول دار السينما التى تعرض مسيو فردو فى الولاية ، ومعه لافتـــات تقول :

« شابلن رفيق سفر ••

« اطردوا الاجنبى من البلاد ••

« طال بقاء شابلن اكثر مما يجب كضيف يـدفع ثمن اقامته ••

« شابلن منكر للجميل وعاطف على الشيوعيين ••

« أرسلوا شابلن الى روسيا »

وعندما يداهم الانسان عالم من المتاعب وخيبة الامل ، فانه ـ اذا لم يلجأ الى اليأس ـ يتجه اما الى الفلسفة واما الى الفكاهة • فلما قدم لى جراد صورة طابور المتظاهرين وقد خلت من متفرج واحد خارج دار السـينما قلت مازحا :

ــ واضح انها التقطت فى الخامسة صباحا

على أن مسيو فردو كان ـ برغم ذلك ـ يحقق دخلا فوق المعتاد حيثما يعرض بغير تدخل

وكانت شبكات دور العرض الكبرى فى كافة أنحـــاء

البلاد قد حجزت الفيلم ولكنها بدأت تلغى حفلاتها بعد أن تلقت رسائل تهديد من الرابطه الامريكية ومن جماعات أخرى ارهابية

وكان للرابطة أسلوب فعال ترهب به العارضين : هو التهديد بمقاطعة دار السينما لمدة عام كامل اذا هى عرضت فيلما لشابلن ، أو أية أفلام أخرى لا ترضى عنها الرابطة ٠ وقد حدث فى ( دنفر ) أن جرى افتتاح الفيلم ذات ليلة بنجاح كبير ، ثم أوقف فى الليلة التالية نتيجة لهـــذا التهـديد ٠



وتبخرت كل الامال فى الحصول على ١٢ مليون دولار من فيلم مسيو فردو بل كان واضحا أنه لن يغطى مصاريفه الا بصعوبة ، وان شركة الفنانين المتحدين تجتاز ـ لهـــذا السبب ـ أزمة يائسة ٠ وأصرت مارى من باب الاقتصاد فى النفقات على فصل ممثلى فى الشركة ارثر كيلى ٠ وثار غضبها عندما ذكرتها بأننى أملك نصف الشركة أنا أيضا ، وقلت لها :

ـ اذا ذهب الذين يمثلوننى ، فيجب أن يذهب الذين يمثلونك ٠٠

وأدى ذلك الى صدام أدى فى النهاية الى أن أقول لها :

ـ استمعى ٠ ان على واحد منا أن يبيع أو يشـترى ٠ ولك أن تحددى الثمن

ولكن مارى رفضت أن تحدد ثمنا ٠ وكذلك رفضت أنا

وأخيرا جاء ينقذنا جماعة من المحامين يمثلون احـدى شبكات دور العرض فى الولايات الشرقية ٠ كانوا يريدون استلام ادارة الشركة ، مع استعدادهم لدفع ١٢ مليون دولار : منها سبعة ملايين نقدا ، وخمسة ملايين فى شكل

سندات • فكان ذلك هبة من السماء
وقلت لماري :
ــ اسمعي • ادفعي لي الآن خمسة ملايين نقدا ،فأنسحب وأترك لك الباقي
ووافقت ماري • وكذلك وافقت الشركة
وبعد أسابيع من المفاوضات تم وضع الوثائق التي تقضي بذلك • واتصل بي أخيرا محامي الخاص ليقول :
ــ بعد عشر دقائق يا شارلي سنتسلم الخمسة ملايين دولار
ولكنه بعد عشر دقائق اتصل بي تليفونيا :
ــ ألغيت الصفقة ياشارلي ! فقد أمسكت ماري بالقلم في
ــ بعد عشر دقائق يا شارلي سنتسلم الخمسة
هو على خمسة ملايين دولار الان ، وأظل أنا أنتظر عامين قبل أن أحصل على نصيبي ؟ وقد ناقشتها قائلا انها ستحصل على سبعة ملايين •• أي على مليوني دولار أكثر منك • ولكنها تحججت بأن ذلك سيخلق لها متاعب بشأن ضريبة دخلها
وقد كانت هذه فرصتنا الذهبية . واضطررنا فيما بعد أن نبيع بمبلغ أقل كثيرا من ذلك

***

عدنا الى كاليفورنيا ،فبدأت تداعبني الافكار من جديد • ذلك انني كنت متفائلا ، وغير مقتنع بأنني فقدت تماما عواطف الشعب الامريكي، أو بأن لدى هذا الشعب من الوعي السياسي أو العجز عن تذوق الفكاهة ما يجعله يقاطع أي انسان قادر على تسليته . كانت لدي فكرة ، وتحت الحاحها لم يكن يعنيني قدر خردلة ماذا ستكون النتيجة . فالفيلم يجب أن يظهر

ان العالم بصرف النظر عن أى طلاء حديث يصطنعه ، يحب دائما قصص الغرام . فالعاطفة — كما يقول هازليت — أكثر جاذبية من العقل ، كما أنها أيضا أكثر مساهمة فى الاعمال الفنية • والفكرة التى عندى كانت قصة غرامية وهى بالاضافة الى ذلك مناقضة تماما لروح التشاؤم الساخر فى مسيو فردو • على أن الاهم من ذلك هو أن الفكرة كانت تلهبنى

واستغرق اعداد ( أضواء المسرح ) ثمانية عشر شهرا

وعندما فرغت منه كان قلقى بشأن نجاحه أقل من أى فيلم أنتجته فى حياتى • وأقمنا عرضا خاصا لاصدقائنا فكانوا جميعا متحمسين له • ولهذا بدأنا نفكر فى الرحيل الى أوربا ، اذ أن أونا كانت متلهفة الى الحاق الاطفال بالمدرسة هناك ، بعيدا عن تأثير هوليوود

وكنت قد قدمت طلبا قبل ذلك بثلاثة أشهر للتصريح لى بالعودة الى البلاد ، ولم أتلق ردا عنه • ولكن مع ذلك واصلت اتخاذ الترتيبات الخاصة بمصالحى المالية استعدادا للسفر

وكانت كل ضرائبى قد تم تقديرها وتسويتها • ولكن ما كادت مصلحة الضرائب تسمع أننى مسافر الى أوربا حتى اكتشفت اننى مدين لها بالمزيد من المال • وحددت مبلغا يتألف من ستة أرقام ، مطالبة اياى بأن أودع لحسابها مليونى دولار أى عشرة أضعاف المبلغ الذى تطالب به . وألهمتنى غريزتى ألا أودع شيئا ، وأن أصمم على رفع الموضوع الى القضاء فورا • فأدى هذا الى تسوية سريعة فى مقابل مبلغ أسمى • وعندما لم يعد لهم أى ادعاء قبلى ، عدت أطلب من جديد تصريح العودة الى البلاد ، وانتظرت عدة أسابيع ، ولكن بلا جواب • ولهذا أرسلت خطابا الى واشنطون ، أخطرهم فيه بأننى فى كافة الاحوال أنوى

الرحيل ، حتى اذا لم تكن بهم رغبة لمنحى تصريح العودة

وبعد ذلك بأسبوع تلقيت مكالمة تليفونية من ادارة الهجرة ، تقول انهم يحبون أن يسألونى عدة أسئلة أخرى • فهل يمكنهم الحضور الى المنزل ؟

فأجبت :

ـ بكل سرور

وجاء ثلاثة رجال وامرأة . وكانت المرأة تحمل آلة اختزال كاتبة ، والاخرون يحملون حقائب أوراق صغيرة مربعة ، تخفى فى داخلها ولا شك آلات تسجيل وكان المستجوب الرئيسى رجلا طويلا ، نحيفا ، فى الاربعين من عمره تقريبا • وكان أنيقا ، واثقا من نفسه • وأما أنا فأدركت أنهم أربعة الى واحد ، وان الواجب على هو أن أستدعى محامى الخاص للحضور • ولكن لم يكن لدى ما أحرص على اخفائه

وقدتهم الى الشرفة المشمسة ، حيث أخرجت المرأة آلتها الكاتبة ووضعتها على مائدة صغيرة ، بينما جلس الاخرون على الكنبة واضعين أمامهم حقائب آلات التسجيل •وأخرج المستجوب دوسيها طوله قدم ، وضعه بجواره فى أناقة على المائدة ، بينما جلست أنا أمامه •• ثم بدأ يعبر بعينيه على الدوسيه صفحة صفحة

ـ هل شارلى شابلن هو اسمك الحقيقى ؟

ـ نعم ••

ـ يقول بعض الناس أن اسمك •• ( وذكر اسما أجنبيا جدا ) • وانك من جاليشيا

ـ كلا • ان اسمى ، كاسم أبى ، هو شارلى شابلن • وقد ولدت فى لندن بانجلترا

ـ أتقول انك لم تكن شيوعيا على الاطلاق ؟

ـ على الاطلاق ولم يسبق لى أن انضممت الى منظمة

سياسية فى حياتى
ـ سبق أن ألقيت خطبة قلت فيها « ايها الرفاق » فماذا كنت تعنى بذلك
ـ كنت أعنى الكلمة بالضبط • ابحث عنها فى القاموس .. فليس للشيوعيين حق احتكار الكلمة ..
واستطرد الرجل يتابع استجوابه ، ثم سأل فجأة :
ـ هل ارتكبت جريمة الزنا فى حياتك ؟
فأجبت :
ـ اسمع • اذا كنت تبحث عن حجة قانونية لابعادى عن البلاد فلتقل لى ، وسأرتب شئونى على هذا الاساس • لاننى لا أرغب فى أن أبقى كشخص • ( غير مرغوب فيه ) فى أى مكان
قال :
ـ أوه ، كلا • انه سؤال مثبت فى أى تصريح من تصاريح العودة
فسألته :
ـ ما تعريف كلمة الزنا ؟
ومضينا كلانا نبحث عنها فى القاموس ثم قال هو :
ـ فلنعتبر أنها « معاشرة زوجة رجل آخر »
ففكرت لحظة ثم قلت :
ـ لم يحدث فى حدود علمى
ـ اذا حدث غزو لهذه البلاد ، فهل تحارب دفاعا عنها ؟
فأجبت :
ـ بالطبع • فأنا أحب هذه البلاد • انها بيتى • وقد عشت هنا أكثر من اربعين عاما
ـ ولكنك لم تتجنس أبدا
ـ ليس هناك قانون يحرم ذلك • وأنا على أية حال أدفع ضرائب هنا

ـ ولكن لماذا تتبع خط الحزب ؟

ـ قل لى ما هو خط الحزب أقل لك ما اذا كنت أتبعه أم لا ٠٠

وتلت ذلك فترة صمت ، قطعتها بقولى :

ـ أتعلم كيف تورطت فى كل هذه المتاعب ؟

فهز رأسه .. فقلت :

ـ بسبب مجاملتى لحكومتكم

فرفع حاجبه فى دهشة :

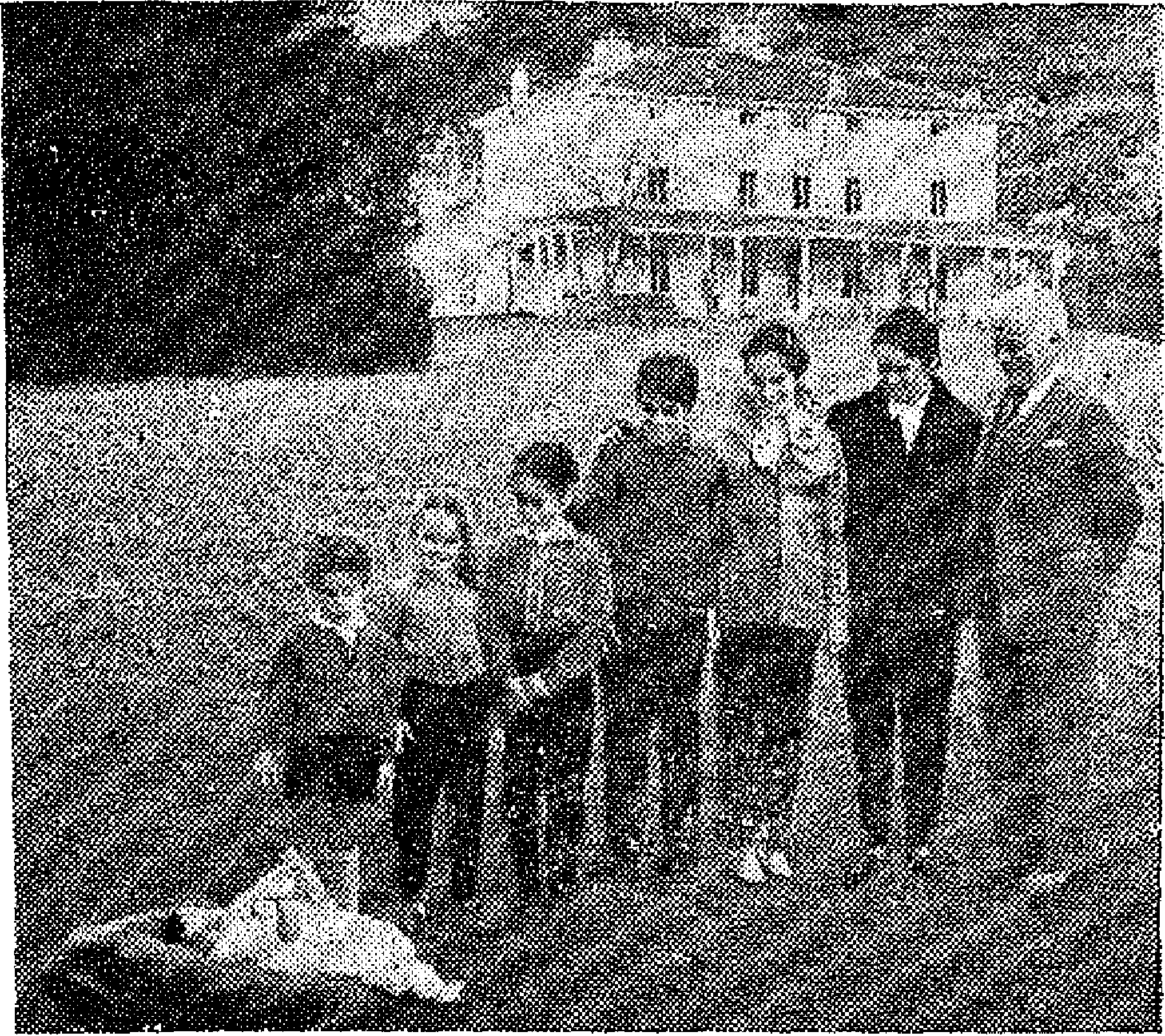
ـ كان على سفيركم فى روسيا ، مستر جوزيف ديفيز ، أن يلقى كلمة فى سان فرانسيسكو لصالح المعونة الحربية للروس ٠ ولكنه أصيب فى آخر لحظة بالتهـــاب فى الحنجرة ٠ وطلب منى مسئول كبير فى حكومتكم أن أقدم خدمة له وأتكلم بدلا منه ٠ ومنذ ذلك الوقت ويدى تاوى وتخدش

ودام استجوابى ثلاث ساعات

وبعد ذلك بأسبوع خاطبونى تليفونيا مرة أخـــرى ، وطلبوا منى أن أذهب الى ادارة الهجرة ٠ وأصر محامى على الذهاب معى ، اذ قد يرغبون ـ على حد قوله ـ فى أن يوجهوا الى مزيدا من الاسئلة

فلما وصلت ، ما كان يمكن أن يستقبلونى بود أكثر مما استقبلونى به ٠ وتحدث الى رئيس ادارة الهجرة ـ وهو شخص عطوف فى منتصف العمر ـ بلهجة أقـــرب الى المواساة :

ـ يؤسفنى أننا أخرناك يا مستر شابلن ٠ ولكننا الان وقد انشأنا فرعا لادارة الهجرة فى لوس انجلس ، سوف نتصرف بمزيد من السرعة ، دون أن نضطر الى ارسال الطلبات من واشنطون واليها ٠ والان ليس لدينا غير سؤال واحد يا مستر شابلن ـ ما طول الفترة التى ستغيبها ؟



**شارلى وزوجته اونا واولاده فى حديقة بيته**

فأجبت : ليس أكثر من ستة أشهر • انهـــا مجرد أجازة ••

ـ اذا بقيت في الخارج أكثر من ذلك ، فسيكون عليك أن تطلب مد المهلة

ثم وضع وثيقة على المائدة ، وغادر الغرفة • ونظر المحامى بسرعة اليها ثم قال :

ـ انها هى ! انه التصريح !

# نهاية الملحمة

كنا فى يوم سبت ، وسنرحل صباح الاحد بالقطار الى نيويورك . وكنت أريد أن تكون خزانة ودائعى فى البنك تحت تصرف أونا فى حالة حدوث أى طارىء لى ، اذ أن الخزانة كانت تضم معظم ثروتى . ولكن أونا ظلت تؤجل مرة بعد مرة توقيع الاوراق فى البنك . والان كان يومنا الاخير فى لوس انجلس والبنوك ستغلق أبوابها بعد عشر دقائق فقلت لاونا :

ـ أسرعى .. لم يبق أمامنا غير عشر دقائق

ولما كانت أونا فى مثل هذه المسائل تمتاز بالكسل ، فقد قالت :

ـ لماذا لا ننتظر الى حين عودتنا من الأجازة ؟

ولكننى صممت . وكان خيرا ما فعلت اذ لولا ذلك لكان مستحيلا أن نقضى بقية عمرينا فى صراع قانونى من أجل اخراج ثروتنا من البلاد !

أصبحت الحياة على مستوى آخر بعد رحيلنا من أمريكا . ففى باريس وروما كان استقبالنا كالابطال الغزاة ودعانا الرئيس فنسفت أوريول الى الغداء فى قصر الاليزيه . كما دعينا الى غداء آخر فى السفارة البريطـــانية ثم رفعت الحكومة الفرنسية وسام الليجيون دونيه الذى أحمله الى مرتبة ( فارس ) ، وفى نفس اليوم عينتنى جمعية المؤلفين والموسيقيين المسرحيين عضوا فخريا بها

وحضر حفلة افتتاح أضـــواء المسرح جمهور من أبرز الشخصيات ، من بينهم أعضاء الوزارة الفرنسية والسفراء الاجانب ، وان كان السفير الامريكي لم يحضر

وفي الكوميدي فرانسيز كنا ضيفي الشرف في عرض خاص لمسرحية موليير ( دون جوان ) .. التي قام بأدائها أعظم فناني فرنسا ، وفي تلك الليلة أبقيت نافورات قصر ( رويال ) مضاءة يتدفق منها الماء ، واستقبلنا ــ أنا وأونا ــ طلبة الكوميدي فرانسيز في ثياب القرن الثامن العشر ، ورافقونا بالمشاعل في أيديهم الى « الجراند سيركل » .. حيث كان يحتشد أجمل نساء أوربا كلها

وفي روما حظينا أيضا بنفس الاســـتقبال ، وتمتعت بنفس التكريم ، والاوسمة ، واستقبلني رئيس الجمهورية والوزراء ، وقد حدثت في تلك المناسبة واقعة طريفة أثناء حفلة العرض الخاص لفيلم « أضواء المسرح » . اذ اقترح وزير الفنون الجميلة أن أدخل من الباب الخلفي للمسرح حتى أتجنب زحام الجماهير . فبدا لي اقتراح الوزير شاذا ، وقلت له انه اذا كان لدى الناس من الصبر ما يجعلهم ينتظرون من أجل مشاهدتي ، فلا أقل من أن يكون لدي من العرفان بالجميل ما يجعلني أدخل من الباب الامامي وأريهم نفسي . فاكتسى وجه الوزير تعبيرا خيل لي أنه غريب وهو يحاول اقناعي في رفق بأن الدخول من الباب الخلفي يوفر علي الكثير من المتاعب . غير أنني صممت ، فلم يحاول أن يلح أكثر من ذلك

وكانت الليلة ككل ليالي الافتتاح السابحة في الاضواء ، وعندما وصلنا في سيارتنا المغلقة كانت جموع النـــاس، محتجزة عند الطرف البعيد من الشارع ــ البعيد جدا كما بدا لي . فنزلت من السيارة ثم درت حولها واتجهت ــ بكل

ما أملك من تلطف وجاذبية ـ الى منتصف الشارع ·· حيث وقفت فى ضوء المصابيح الكشافة وبسطت ذراعى للجموع على طريقة ديجول وأنا أبتسم ابتسامة عريضة ، واذا بسيل من الكرنب والطماطم ينهال على الفور بالقرب منى ! ولم أعرف ماذا كان هؤلاء الناس ، أو ما الذى حدث ، الا عندما سمعت صوت صديقى المترجم الايطالى يتأوه من ورائى قائلا :

ـ ما أسوأ ان يحدث هذا فى بلادى !

على أنه لم يصبنى شيء على أية حال، وعدت مسرعا الى المسرح · وعندئذ أشرق فى ذهنى الجانب الفكه من الموقف ، ولم أعد استطيع ان أكف نفسى عن الضحك . بل لقد اضطر صديقى الايطالى ان يضحك معى ايضا

وعلمت فيما بعد أن الذين هاجمونى جماعة من شباب الحركة الفاشستية الجديدة ، ومن واجبى أن أقول انه لم يكن فى قذفهم أياى أى عنف ، بل انه كان اقرب الى مجرد اعلان الراى وقد اعتقل اربعة منهم على الفور ، وسألنى البوليس عما اذا كنت أريد ان اوجه اليهم اية تهمة ، فقلت:

ـ كلا بالطبع · فما هم الا أولاد صغار السن

وكانت أعمارهم تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وانتهت المسألة عند هذا الحد

قبل أن اغادر باريس الى روما ، كان لويس اراجون ـ الشاعر ورئيس تحرير مجلة الليتر فرانسيز ـ قد اتصل بى تليفونيا ، ليقول لى أن بيكاسو وجان بول سارتر يرغبان فى مقابلتى .. فدعوتهم جميعا الى العشاء ، ولما كانوا قد اقترحوا مكانا هادئا ، فقد تناولنا العشاء فى جناحى فى الفندق ، وما كاد هارى كروكر مدير دعايتى يعلم بالامر حتى كاد يفقد وعيه ، وقال :

ـ اننا سنضيع بذلك أثر أى عمل طيب قمنا به منذ غادرنا الولايات المتحدة

قلت له :

ـ ولكن هذه أوربا ياهارى ، لا الولايات المتحدة ، وهؤلاء السادة ثلاثة من اعظم الشخصيات العالمية

وكنت حريصا على ألا أسر اليه أو الى اى انسان بنيتى فى عدم العودة الى أمريكا ، فقد كانت لى ماتزال أملاك هناك لم اتصرف فيها ، وجعلنى هارى أكاد أومن بأن مقابلة أراجون وبيكاسو وسارتر هى مؤامرة لقلب الديمقراطية الغربية .. ومع ذلك ، فان مخاوفه لم تمنعه من الانتظار للحصول على توقيعاتهم فى أوتوجرافه ، ولم يكن هارى مدعوا للعشاء . فقلت له اننا ننتظر وصول ستالين بعد قليل ، واننى لهذا لااريد أن يعلم أحد !

والواقع اننى لم أكن واثقا مما ستكون عليه السهرة اذ لم يكن يعرف الانجليزية غير اراجون . والحديث عن طريق المترجم اشبه بالتصويب الى هدف بعيد وانتظار الانباء عن نتائج الطلقات التى تصوبها

واراجون رجل وسيم ذو ملامح محددة . أما بيكاسو فملامحه متسائلة ومرحة ، ويمكن أن تتصوره بهلوانا أو مهرج سيرك أكثر مما تتصوره رساما ، وأما سارتر فله وجه مستدير ومع أن ملامحه لا تحتمل التأمل الا ان فيها جمالا وحساسية ظاهرة . ولم يكشف سارتر فى تلك الليلة الا عن القليل مما يجول بخاطره ، وبعد انفضاض السهرة أخذنا بيكاسو الى الشاطىء الايسر حيث المرسم الذى ما زال يشغله ، ولاحظنا ونحن نصعد السلم لافتة على باب الشقة التى تقع تحت المرسم . كتب عليها :

« ليس هذا مرسم بيكاسو .. اصعدوا دورا آخر من فضـلكم » !

ووصلنا فاذا بنا فى مكان خرب اشبه بالحظيرة . حتى ليرفض شاترتون نفسه أن يموت فيه ! وكان ثمة مصباح كهربائى يتدلى من مسمار فى احد الحوامل . استطعنا بفضله أن نرى سريرا حديديا مصابا « بالكساح » وموقدا مهشما . وعلى احد الجدران كانت تستند حزمة من قماش اللوحات معفرة بالتراب . فمد يده والتقط واحدة منها ، بريشة سيزان ، ومن اجمل اللوحات . ثم التقط واحدة اخرى ، واخرى ، وشاهدنا ما لايقل عن خمسين من الروائع ، واحسست بالرغبة فى أن أعرض عليه ثمنا اجماليا للمجموعة كلها .. لمجرد أن اخلصه من هذا الركام . ففى ( حضيض جوركى ) هذا كان يوجد منجم من الذهب ..

وبعد حفلات الافتتاح فى باريس وروما عدنا الى لندن، حيث اقمنا عدة اسابيع .. كان ما يزال على ، ان ابحث عن موطن لاسرتى . فاقترح احد الاصدقاء سويسرا . وكنت أفضل بالطبع لو اننا اقمنا فى لندن ، ولكننا كنا فى شك من أن يلائم جوها الاطفال . كما اننا كنا بصراحة .. نستشعر القلق فى ذلك الوقت بشأن الارصدة المجمدة ..

وهكذا حملنا امتعتنا – فى شىء من الأسى – وذهبنا مع الاطفال الاربعة الى سويسرا ، واقمنا مؤقتا فى فندق بوريفاج بلوزان ، فى مواجهة البحيرة ، وكنا فى الخريف ، والطقس أقرب الى البرودة ، ولكن الجبال كانت رائعة ..

وقضينا اربعة أشهر نبحث عن بيت ملائم ، وكانت اونا تنتظر ميلاد طفلها الخامس ، وتلح قائلة انها لا تريد

ـ بعد مغادرة المستشفى ـ ان تعود الى فندق . فدفعتنى هذه الحاجة العاجلة الى الاسراع فى البحث ، والاستقرار أخيرا فى (مانوار دى بآن) بقرية كورسييه الى الشمال من فيفيه

ثم حصلت على هيئة من الموظفين الاكفاء : مس راشيل فورد التى أثثت البيت ثم صارت مديرة أعمال ، ومدام بورنييه ، سكرتيرتى الانجليزية السويسرية التى أعادت كتابة هذا الكتاب عدة مرات على الآلة الكاتبة

وكنا فى البداية مترددين بسبب ضخامة البيت ، وشكنا فى أن يكون مناسبا لدخلنا ، ولكننا عندما أخبرنا صاحب البيت بتكاليف ادارته وجدناها فى حدود ميزانيتنا ، وهكذا انتهى بنا المطاف الى الاقامة فى قرية كورسييه ، التى يبلغ تعداد سكانها ١٣٥٠ شخصا

وقضينا عاما على الاقل قبل أن نتأقلم مع الجو الجديد، وقضى الاطفال بعض الواقت يدرسون فى مدرسة القرية فى كورسييه . فكانت مشكلة بالنسبة اليهم أن يتعلموا كل شىء بالفرنسية ، واستبد بنا القلق على الاثر النفسى الذى قد يتركه ذلك فيهم . على أنه لم يمض وقت طويل حتى كانوا يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وكان مما يحرك المشاعر أن نرى كيف تأقلموا جيدا مع طريقة الحياة السويسرية. حتى ( كاى كاى ) و ( بينى ) ـ المربيتان ـ فانهما شرعتا تناضلان مع اللغة الفرنسية

والآن بدأنا نحرر أنفسنا من كل ما يربطنا بالولايات المتحدة ، وقد استغرق هذا وقتا طويلا ، وذهبت الى القنصلية الامريكية حيث سلمتهم تصريح العودة الى البلاد قائلا اننى قد تنازلت عن حق الاقامة فى الولايات المتحدة:

ـ ألا تنوى العودة يا شارلى ؟ ..

فقلت كأننى أعتذر :

ـ كلا . اننى أكبر سنا من أن أحتمل أى مزيد من هذا العبث ..

فلم يعلق بشىء ، ولكنه قال :

ـ حسنا ، فى استطاعتك فى أى وقت أن تعود بتأشيرة عادية اذا أردت .

فابتسمت وهززت رأسى نفيا وأنا أقول :

ـ لقد قررت الاقامة فى سويسرا

ثم تصافحنا ، وانتهى الامر

وقررت أونا عندئذ أن تتخلى عن جنسيتها الامريكية ، وأخطرت بذلك السفارة الامريكية أثناء وجودنا فى لندن ، ولكنهم قالوا أن اتمام الاجراءات الرسمية سيستغرق على الاقل ثلاثة أيام .. فقلت لأونا :

ـ ما هذا الكلام الفارغ . ان من السخف أن يستغرق الامر كل هذا الوقت ، دعينى أذهب معك

وما كدنا نصل الى السفارة حتى عادت كافة اساءات الماضى واهاناته تتفتح فى داخلى كأننى بالون على وشك الانفجار ، وطلبت مكتب الهجرة بصوت عال ، وبدأ الارتباك واضحا على أونا . ثم فتح باب أحد المكاتب ، وظهر منه رجل يقول :

ـ هالو شارلى . أتسمح بالدخول مع زوجتك ؟

ولابد أنه كان يقرأ أفكارى . فان أول كلمة قالها كانت :

ـ ان المواطن الامريكى الذى يتخلى عن جنسيته يجب أن يكون على علم بما هو مقدم عليه ، وأن يكون فى كامل وعيه ، وهذا هو السبب فى ضرورة اجراء هذا الاستجواب . انه من أجل حماية المواطن ..

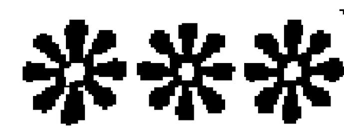
فبدا لى هذا بالطبع أمرا معقولا

وكان الرجل فى أواخر العقد السادس من عمره ،وقال لى بنظرة تأنيب :

ـ لقـــــد رأيتك فى وقفة فى عام ١٩١١ فى مسرح الامبراطورة القديم ..

فلانت عواطفى بالطبع ، وتحدثنا معا عن الايام الجميلة التى مضت

وعندما انتهت الاجراءات الشاقة ، وتم التوقيع علىآخر ورقة ، وتبادلنا كلمات الوداع الباســـمة . كنت أشعر بشىء من الأسف لبرود مشاعرى تجاه المسألة كلها



أثناء احدى زياراتنا الى لندن ، تلقينا رسالة تقولأنه يسر خروشوف وبولجانين أن يلتقيا بنا فى حفلاستقبال تقيمه السفارة السوفييتية فى فندق كلاريدج

وعنـــــدما وصلنا كانت ردهة الفندق مكتظة بزحام صاخب منفعل . وشرعنا ـ بمساعدة عضو من الســفارة الروسية ـ نشق طريقنا خلال هذا الزحام . واذا بنــا فجأة نرى خروشوف وبولجانين قادمين من الاتجاهالمقابل وكانا يحاولان مثلنا شق طريق لهما ، ولكن تعبيروجهيهما كان يدل على أنهما يئسا ، وبدآ يتراجعان فى ضيق

وكان واضحا أنخروشوف ـ حتى فى ساعات ضيقه ـ لا يفتقر الى روح الفكاهة . فبينما هو يناضل من أجــل الخروج ناداه مرافقنا قائلا : خروشوف ! ولكنه أعرض عنه مشيحا بيده ، اذ كان الكيل قد طفح به . وعاد رجلنا يصيح :

ـ خروشوف .. هذا شارلى شابلن ..

واذا ببولجانين وخروشوف يتوقفان ، ويســـتديران

نحونا وقد أشرق وجهاهمـــا ، والحـــق أن ذلك أرضى غرورى • وتم التعارف بيننا بين شد الزحام وجـذبه • ثم قال خروشوف ـ عن طريق المترجم ـ شيئا عن مدى تقدير الشعب الروسى لافلامى • وبعد ذلك قدمت الينـا الفودكا التى خيل لى أن علبة من الفلفـل الاســـود قد انسكبت فيها ، وان كانت أونا قد اعجبت بها

ودبرنا أمرنا بحيث نصنع حلقة صغيرة حتى يمكننا أن نلتقط صورة معا ، ولم أستطع بسبب الزحام أن أقول أى شيء ، فقال خروشوف :

ـ هيا نذهب الى الغرفة المجاورة

ولكن الجموع أدركت نوايانا ، وبدأ القتال على الفور • ولم نستطع الا بمساعدة أربعة رجال أن نختلى بأنفسـنا فى غرفة خاصة • وما كدنا نجد أنفسنا وحدنا حتى صاح خروشوف ، كما صحنا جميعا :

ـ أف !

ووجدت حينئذ الفرصة كى أستجمع ذهنى وأتكلم • وكان خروشوف قد ألقى لتوه خطابا وديا رائعـــا لدى وصوله الى لندن ، وجاء هذا الخطاب كشـــعاع بازغ من من الشمس •• فقلت له ذلك ، مشيرا الى انه قد احيا الامل فى السلام لدى الملايين فى كافة انحاء العالم

وقاطعنا عندئذ احد رجال الصحافة الامريكيين قائلا :

ـ بلغنى يا مستر خروشوف أن ابنك كان فى المدينة ليلة أمس يستمتع بوقته

فارتسمت على وجه خروشوف ابتسامة تمتزج فيهـا الفكاهة بالحرج ، وقال :

ـ ان ابنى شاب جاد ، يجهد نفسـه فى الدراسة من

اجل أن يصبح مهندسا .. ولكنه يمتع نفسه أحيانا ..
وبعد لحظات اخرى جاء رسول يقول ان المستر هارولد ستاسن موجود بالخارج ، ويسره ان يرى المستر خروشوف ، فاستدار نحوى وقال مازحا :
ــ ايضيرك هذا ؟ انه امريكى
فضحكت وقلت :
ــ لا يضيرنى على الاطلاق

***

وما كدت اعود الى سويسرا حتى تلقيت خطابا من نهرو ، مصحوبا برسالة تعريف من ليدى مونتباتن ، تقول فيها انها واثقة من ان بينى وبين نهرو اشياء كثيرة مشتركة .. وانه سوف يمر بكورسيير ، وقد نتمكن من ان نلتقى ..
ولما كان هو فى لوسرن يعقد اجتماعه السنوى بالسفراء، فقد كتب يقول انه سيسر كثيرا لو جئت وقضيت الليلة هناك .. وانه سوف يوصلنى فى اليوم التالى الى ( مانوار دى بان )
وهكذا ذهبت الى لوسرن . ودهشت عندما وجدته رجلا ضئيل الجسم مثلى . وكانت ابنته ــ مسز غاندى ــ موجودة ايضا . وهى سيدة هادئة شديدة الجاذبية . وقد ترك نهرو فى نفسى انطباعا بأنه رجل متقلب المزاج عنيد ، حساس ، يتمتع بذهن مفرط فى التوقد والاتزان . وكان سلوكه فى البداية متحفظا ، الى ان غادرنا لوسرن معا وركبنا الى ( مانوار دى بان ) حيث دعوته الى الغداء ، بينما ابنته تتبعنا فى سيارة اخرى متجهة الى جنيف . وكان يتكلم بتقدير كبير عن لورد مونتباتن الذى ادى عملا عظيما ــ وهو مندوب سام فى الهند ــ من اجل تصفية

المصالح البريطانية هناك

وسألته فى اى اتجاه ايديولوجى تسير الهند فقال :

ـ مهما كان الاتجاه فهو فى مصلحة الشعب الهندى

واضاف انهم قد وضعوا بالفعل خطة سنوات خمس . وظل يتحدث طوال الرحلة حديثا رائعا ، بينما سائقه منطلق بسرعة سبعين ميلا أو اكثر ، ينهب الارض فى طرق متعرجة ضيقة ، وتواجهه منحنيات مفاجئة حادة . ونهرو خلال ذلك مستغرق فى شرح السياسة الهندية ، أما انا فأعترف اننى لم اسمع نصف ما قال ، بسبب انهماكى فى متابعة القيادة من المقعد الخلفى . حتى عندما زأرت الفرامل ودفعت بنا الى الامام ، ظل نهرو مستمرا فى حديثه دون ادنى انزعاج ، على اننا لحسن الحظ كنا قد بلغنا اخيرا تقاطع طريقين سنتوقف عندهما لتتركنا ابنته . وعندئذ فقط تحول الى والد محب رقيق، واحتضن ابنته قائلا بحنان :

ـ خذى بالك من نفسك

.. كلمات كان الانسب ان توجهها الابنة الى الاب

***

اثناء الازمة الكورية والعالم يحبس انفاسه على حافة هذه الهوة الخطرة .. اتصلت بى السفارة الصينيةتليفونيا لتسأل عما اذا كنت اسمح بعرض ( اضواء المدينة ) فى جنيف امام ( شواين لاى ) .. الذى كان المحور الذى يدور حوله تقرير مصير الحرب أو السلام

وفى اليوم التالى دعانا رئيس الوزراء الى العشاء معه فى جنيف . وقبل ان نبدأ الرحلة اتصل بنا سكرتيره ليقول ان فخامته قد يتأخر ، لان مسألة هامة قد اثيرت فجأة فى المؤتمر ( وكان ذلك تهوينا من شأن الحقيقة ) ..

واننا لا يجب ان ننتظره ، فهو سينضم الينا فيما بعد

فلما وصلنا ، فوجئنا بشواين لاى ـ لدهشتنا ـ ينتظر على سلم مقره لتحيتنا . وكنت كباقى الناس متلهفا ان اعرف ماذا حدث فى المؤتمر ، فسألته . فربت على كتفى وقال :

ـ لقد سوى كل شىء بروح ودية منذ خمس دقائق

وكنت قد سمعت كثيرا من القصص الممتعة التى تروى كيف طورد الشيوعيون الى المناطق الداخلية من الصين فى الثلاثينات ، وكيف ان عددا قليلا مبعثرا اعاد تنظيم نفسه بقيادة ماوتسى تونج ، ثم عاود الزحف الى بكين وقوته العسكرية تتضاعف اثناء الطريق . وكسب هذا الزحف لهم تأييد ستمائة مليون من الشعب الصينى

وفى تلك الليلة روى لنا شواين لاى قصة مؤثرة عن دخول ماوتسى تونج الظافر الى بكين . كان هناك مليون صينى فى استقباله . وكانت منصة يبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدما قد اقيمت له فى آخر الميدان . فلما صعد السلم من خلفها ، وظهرت قمة رأسه من ورائها ، اندلعت صيحات الترحيب من مليون حنجرة ، وظلت تتزايد وتتزايد بينما الهيكل المنفرد يظهر للعيان . وعندما رفع وجه ماوتسى تونج ، غازى الصين ، على الجموع الغفيرة وقف لحظة .. ثم فجأة غطى وجهه بيديه وبكى ..

وكان شواين لاى قد شاركه مصاعب والام ذلك الزحف الشهير عبر الصين . ومع ذلك فاننى عندما تأملت وجهه الوسيم المتفجر بالحيوية اذهلنى ان ارى كم يبدو هادئا وشابا

وذكرت له ان اخر مرة كنت فيها فى شنغهاى كانت فى عام ١٩٣٦ . فقال بعد تفكير :

ـ أوه ، نعم .. كان ذلك قبل ان نبدأ الزحف ..

فقلت مازحا :

ـ حسنا .. لم يعد عليك الان ان تقطع مسافات طويلة

وشربنا على العشاء الشامبانيا الصينية ( وهى لاباس بها ) . واقترحنا انخابا كثيرة على طريقـــة الروس . واقترحت انا نخب مستقبل الصين ، قائلا اننى وان لم اكن شيوعيا فانى من صميم قلبى اشاركهم الامل والرغبة فى حياة افضل للشعب الصينى .. ولكل الشعوب ..

سألنى الاصدقاء كثيرا هل احن الى الولايات المتحدة ـ الى نيويورك ؟ والجواب بصراحة : لا . فأمريكا قـــد تغيرت ، وكذلك تغيرت نيويورك ، والضخامة الهائلـــة للمؤسسات الصناعية ، والصحافة،والتليفزيون والاعلانات التجارية .. قد فصمت تماما ما بينى وبين طريقة الحياة الامريكية . فأنا اريد الوجه الاخر من العملة . اريد مزاج حياة ابسط .. لا تلك الشوارع الصاخبة والمبـــانى المحلقة كالابراج ، تذكر على الدوام بالمصالح المالية الكبرى وانجازاتها الهائلة

وقد قضيت أكثر من عام قبل ان اصـــفى نهائيا كل مصالحى فى الولايات المتحدة . وكانوا يريدون ان يفرضوا ضريبة على دخلى من « اضواء المسرح » حتى عام ١٩٥٥ بدعوى اننى ما ازال مواطنا امريكيا ، مع انهم حـــرموا عودتى الى البلاد منذ عام ١٩٥٢ . على نى لم اكن املك ـ كما قال محامى الامريكى ـ وسيلة للاحتـــكام الى القضاء . اذ لم تكن لدى فرصة العودة الى البلاد للدفاع عن قضيتى

ولما كنت قد صفيت كافة شركاتى الامريكية ، وأنهيت كل مصلحة لى فى أمريكا ، فقد كنت فى وضع أملك معه

أن أقول لهم : اضربوا رؤوسكم بالحائط . ولكنني لم أكن اريد أن ألزم نفسى بطلب حماية أية دولة ، ولهذا وصلت الى تسوية معهم على صفقة أقل كثيرا ممـا كانوا يدعون وأكبر كثيرا مما كان ينبغى أن أدفع

وكان جميع الذين يعملون عندى فى كاليفورنيا يتقاضون مرتباتهم الى ذلك الوقت . ولكننى ما كنت استطيع ان اواصل دفع هذه المرتبات وانا الان مقيم فى سويسرا . وعلى هذا فقد رتبت أمر دفع مكافآت خدمتهم ، وصرفت لكل منهم منحة اضافية . وكلفنى ذلك ما مجموعه ثمانون الف دولار • أما أونا بورفيانس ، فبالاضافة الى منحتها، ظلت تتقاضى مرتبها الى يوم وفاتها

فلأختم الان اذن هذه الملحمة الخاصة بى

وانى لادرك ان الايام والظروف قد جاملتنى . واننى تغلغلت فى عواطف العالم ، وجربت حبه وكراهيته . نعم ، ولكنه منحنى الكثير من الحب ، والقليل من الكراهية

ومهما كانت قراراتى ، فاننى اومن بأن الحظ وسـوء الحظ يهبطان على الانسان اعتباطا كالسحب . ولاننى اعلم ذلك ، فاننى لا اصدم ابدا بما يصيبنى من سـوء واستقبل ما يصيبنى من خير كمفاجاة ارحب بها ، وليست لى خطة معينة أعيش بها ، او فلسفة ••فنحن جميعا، عقلاء وحمقى ، مرغمون على صراع الحيـاة . وموقفى تجاه المصاعب لا يثبت على حال ، ففى بعض الاحيان تثيرنى اشياء تافهة ، وفى بعض الاحيـان اواجه الكوارث بغير اكتراث ••

على أن حياتى الآن أكثر اثارة مما كانت فى أى وقت مضى • فأنا فى صحة طيبة ، وما زلت قادرا على الخلق ، ولدى مشاريع لانتاج مزيد من الافلام . قد لا اظهر فيها،

ولكن اكتبهاواخرجها لافراد اسرتى ،وبعضهم يملكمواهب مسرحية لا بأس بها

ثم اننى ما ازال بالغ الطموح . ولن اعتزل على الاطلاق. فهناك اعمال كثيرة احب ان اقوم بها . وبالاضافة الى ما عندى من سيناريوهات سينمائية تحتاج ان تستكمل ، فاننى أود لو أكتب مسرحية ، واوبرا ، اذا سمح الوقت

ولقد قال شوبنهاور ان السعادة حالة سلبية ..ولكننى لا اوافقه . فانا قد عرفت طوال الاعوام العشرين الماضية ماذا تعنى السعادة . ومن حظى اننى متزوج من زوجة رائعة . وكان بودى لو كتبت المزيد عن ذلك ، لولا انه امر يتعلق بالحب .. والحب الكامل هو اجمل النعم لانه فوق ما يستطيع الانسان ان يعبر عنه . وان جمال شخصية أونا ، وعمقها ، لمصدر الهام دائم لى وانا اعيش معها..حتى حين تسبقنى ونحن نجتاز طـــرقات « فيفى » الضيقة ، وتمشى امامى بكبرياء وبساطة ،وقدانتصب هيكلها الضئيل فى اعتدال ، وانساب شعرها الاسود الى الوراء كاشفا عن خطوط قليلة بيضاء ، فان موجة مفـــاجئة من الحب والاعجاب بكل ما صنعته فى حياتى تستحوذ على ، واشعر بغصة تصعد الى حلقى

وفى قلب هذه السعادة اجلس أحيانا فى شرفتنـــا عند الغروب ، وانظر عبر الفناء الاخضر الرحب الى البحيرة البعيدة ، والى ما وراءها من جبال راسخة .. ثم امضى افكر فى لا شىء ، واستمتع بما تشيعه من صفاء رائع

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٢٩٣ـ

البحــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلتـــــرا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

# هذا الكتاب

فى هذا الجزء الثانى ـ والاخير ـ من مذكرات شارلى شابلن ، يبدو الفنان الكبير وكأنه يروى قصة أخرى جديدة .. مستقلة عن القصة التى رواها فى الجزء الاول ..

فقصة الجزء الاول هى قصـــــة الغـــلام الضائع فى قاع لنـدن .. تتقاذفه الاحداث مابين شـوارعهـــــا الخلفية ، وملاجئها ، وحاناتها ، وهو فى صراع دائم مع الجوع ، وخوف دائم منه .. ثم القدرة الخـارقة على ان ينفذ من خلال ذلك كله ، ويتحرك الى فنان لامع

أما الجزء الثانى ، فقصـته هى قصة فن السينما منذ مطلع القرن العاشر حتى الان . ودور البطولة فى هذه القصة لايلعبه شــــارلى بقدر ماتلعبه شركات السينما ، ودولاراتها ، وأصحاب ملايينها ، والمتحـكمون فى اقدارها ..

وهى من هذه الزاوية ليست قصة ممتعة فقط ، وانما هى ايضا شعاع من الضــوء يجلو كثيرا من غوامض وعلاقات المجتمع الامريكى ، والعوامل المتباينة التى تحكمه ـ منعكسة على مسرح هوليوود

وليس هناك من هو أقدر من شارلى على تسجيل مثل هذه القصة ، لانه عاصرها منذ البـداية ، وكان ألمــع أبطالها .. الى أن اختار بنفسه أن يهجرها ! ..

